

مارشال الاتحاد السوفييتي

باغراميان

ذكرياتي

دار التقدم . موسكو

ترجمة طارق معصراني

И. Х. Баграмян
МОИ ВОСПОМИНАНИЯ
На арабском языке

© Воениздат, 1984

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٨٨
طبع فى الاتحاد السوفييتى

Б $\frac{1304010000-253}{014(01)-88}$ 243–88

ISBN 5-01-000750-9

الى القارئ

بعد صدور مذكراتى «هكذا بدأت الحرب» و«هكذا انطلقنا الى النصر» تلقيت رسائل كثيرة تعرب عن الاسف لاننى لم اتحدث بالتفصيل عن القادة البارزين الذين كانوا قريبين الىّ بحكم الخدمة فى صفوف الجيش السوفييتى ، ولم اتكلم عن انطباعاتى الناجمة عن مخالطتى لهم . ونوه القراء فى غضون ذلك بانه اذا لم يتحدث عن قواد الجيش السوفييت الامجاد معاصروهم ورفاقهم ، فان اية ابحاث متأخرة لن تسد هذا النقص .

فكرت كثيرا فى هذه التمنيات الودية واللجوجة فى الوقت نفسه وادركت فى نهاية المطاف ان القراء على حق . ينبغى ان احاول ، رغم سنى المتقدمة ، الكتابة ولو عن البعض من تلك الكوكبة المجيدة من القادة العسكريين السوفييت الذين كانوا بعد انتهاء الحرب الاهلية قدوة لي فى الخدمة العسكرية التى كرست لها حياتى كلها ، واصبحوا فى سنوات الحرب الوطنية العظمى رفاقى فى النضال ضد المحتلين الفاشيين . هذه الدوافع بالذات هى التى قادتنى حينما شرعت فى الكتابة من جديد .

لا ادعى ، طبعا ، ان الاحاديث عن ابطالى شاملة وافية لكل جوانب نشاطهم الكفاحى او انها تتسم باسلوب فنى خاص فى تصويرهم . لم يتوفر لى امكان تتبع طريق حياة كل منهم بدقة متناهية ولا اطمع فى خلق أوابد تخلد ذكراهم . مهمتى اكثر تواضعا ، وهى ان اقدم الى القارئ مقالات صغيرة الحجم نسبيا يستطيع ان ينهل منها شيئا ممتعا عن بعض الابطال البارزين للحربين الاهلية والوطنية العظمى ، وان يراهم فى ساحات الوغى فى نسق واحد مع الجندى السوفييتى العظيم ، البطل الرئيسى بين اهم ابطال النضال من اجل حرية الوطن واستقلاله .

فى تاريخ البلاد السوفييتية غير قليل من الاحداث التى تشكل سفرا اسطوريا لمنجزات شعبنا البطولية . ولكن الانتصارات فى الحربين الاهلية والوطنية العظمى هى ، ولا شك ، اكثرها رسوخا فى

الذاكرة . ستمر القرون ، ولكن ذاكرة الشعب سوف تتوجه المرة تلو المرة الى مآثر تلك الاجيال التى استهانت بالموت واحرزت النصر تحت قيادة الحزب اللينينى فى اقسى اشتباكين مسلحين فى التاريخ العالمى ، دافعة لقاء ذلك ثمنا باهظا لا يصدق . وفى كلتا الحالتين سحق الائتلاف المعادى الذى كان يتمتع بقوى جبارة . وقد كتب لينين عن الحرب الاهلية : «لان الحزب كان ساهرا ، لان الحزب كان منضبطا اصرم انضباط ، ولان هيبة الحزب وحدت كل الدوائر والمؤسسات ، فسار بناء على الشعار الذى طرحته اللجنة المركزية العشرات والمئات والالوف ، وفى نهاية المطاف الملايين كشخص واحد ، ولانه قدمت تضحيات لم يعهد لها نظير ، لهذا فقط كان فى وسع المعجزة التى حدثت ان تحدث . لهذا فقط كنا قادرين على الانتصار رغم حملة امبرياليى الانتانت * وامبرياليى العالم بأسره مثنى وثلاث ورباع» ** .

كانت الحرب الوطنية العظمى قمة للاحداث التاريخية لا تقل توترا عن تلك . فى عام ١٩١٧ بشر انتصار ثورة اكتوبر بدخول البشرية عصرا تاريخيا جديدا . وبعد اقل من ٢٨ سنة اثار تحطيم الفاشية ، الذى اضطلع الاتحاد السوفييتى بالدور الحاسم فيه ، موجة جبارة من التغيرات الاجتماعية السياسية اجتاحت كوكبنا كله ، وادى الى تدعيم قوى السلام فى العالم اجمع . ان مآثرة الشعب السوفييتى فى الحرب الوطنية العظمى تبرز جبارة وعظيمة امام العالم بأسره . وقد دخلت التاريخ الى الابد ، ولن تمحى من ذاكرة البشرية ابدا .

على قمم التاريخ هذه بالذات تبلورت الطباع الخارقة والارادة الصلبة والنبل المتفانى لاولئك الذين قدمهم الشعب من بين صفوفه ليكونوا قادته العسكريين . وهكذا فقد اردت ان ابين هؤلاء الناس البارزين فى اتون القتال والمعارك ، حينما تكونت خصالهم الخلقية الرائعة ، ان ابين كيف علمهم حزب لينين ورباهم . لقد جمعتنى الحرب الوطنية العظمى مع الكثير من ممثلى الرعيل المجيد للقادة الكبار الذين قلدوا جوائز الوطن الرفيعة . واعنى جوكوف وفاسيليفسكى وشابوشنيكوف وروكوسوفسكى وكونيف وتيموشينكو . ولم استطع الا ان اتحدث ايضا عن كاربيشيف الاسطورى .

* حلف عسكرى-سياسى للدول الامبريالية .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٠ ، ص ٢٤٠ .

لا يصعب فهم محاولتى لاظهار الملامح الشخصية لطبع كل قائد واسلوبه . بيد ان القارئ المتمعن سيلحظ ما هو مشترك لدى ابطال هذا الكتاب . فهم جميعا متحدرون من الشعب ، وكلهم ربط حياته بقضية الحزب الشيوعى الخالدة ، وكانوا جميعا يتسمون بالتطلع الى تطوير معارفهم من كل الجوانب ، بالطاقة الجامحة ، بمعرفة تحمل المسؤولية بجراة والعثور على الطريق فى اعقد الاوضاع . وتفوقوا من حيث مستواهم المهنى على القادة العسكريين فى البلدان الراسمالية ، لكنهم بقوا مع ذلك جنودا بأفضل ما فى الكلمة من معنى .

لقد خرج جوكوف وروكوسوفسكى وكونيف وتيموشينكو من اوساط جنود الجيش القيصرى وكانوا بمنشئهم من العمال والفلاحين الفقراء ، وانتقل فاسيليفسكى وشابوشنيكوف وكاربيشيف من سلك الضباط القيصرى الى خدمة الشعب ، وكرسوا بشرف كل قواهم ومعارفهم وتجربتهم وموهبتهم للدفاع المسلح عن المكتسبات الثورية . وفى هذا الصدد لا يسعنا الا الحديث عن فكرة لينين الجريئة والجديدة تماما حول جذب الاختصاصيين العسكريين من الجيش القيصرى الى القوات المسلحة السوفييتية . وكان لينين يعتبر انه يوجد حتى بين الطبقات ذات الامتياز فى روسيا القيصرية غير قليل من الناس الشرفاء ، المخلصين للوطن والشعب . واخذ فى الاعتبار الى جانب ذلك ان الحكومة القيصرية كانت مضطرة زمن الحرب الامبريالية الى ان تجذب الى سلك الضباط ممثلى ما يسمى بالطبقات الوسطى ، ومن بينهم الشغيلة ، اذا توفر عندهم التحصيل العلمى الضرورى .

ارجو القارئ ، وانا اختتم مؤلفى المتواضع هذا ان يأخذ فى الاعتبار ان حديثى لا يشمل سوى حياة مجموعة صغيرة من ابناء الشعب السوفييتى الامجاد ونشاطهم البطولى ، اولئك الذين يستحقون اكبر ثناء واجلال لذكراهم لقاء مآثرهم الفذة باسم الوطن . ولكننى ادرك بوضوح ان فى البلاد السوفييتية المتعددة القوميات الكثيرين مثلهم من ابناء الشعب الجديرين الذين ينبغى لجهود اناس آخرين ان تجعل اسماءهم وحياتهم ونشاطهم البطولى تشع ساطعة فى السفر البطولى لوطننا الحبيب . وانا على ثقة بانه سيوجد الكثير من الناس الجديرين بتنفيذ هذا العمل النبيل .

المؤلف

غيورغى جوكوف



قال غيورغى قسطنطينوفيتش جوكوف فى مغرب ايامه ردا على التحيات التى تلقاها بمناسبة عيده اليوبيلى :

– لقد رفعتنى دولتنا عاليا ، وصحيح ما قيل هنا انهم قلائل اولئك الذين قلدوا القابا رفيعة شأنى انا ، حيث اصبحت مارشال الاتحاد السوفييتى وحزت لقب البطولة اربع مرات . ولكننى اعتبرت واعتبر ان ارفع القابى هو لقب الشيوعى البلشفى الذى حملته على امتداد اكثر من نصف قرن . وانا مدين بمآثرى ومنجزاتى كلها لحزبنا قبل كل شىء ، الحزب الذى تعهدنى بعناية ورفعنى الى المناصب القيادية وعلمنى بصرامة واستقامة لكى استطيع الارتقاء قدما . . .

ولد جوكوف فى اسرة فلاحية فقيرة ، بل معدمة تقريبا ، ومارس العمل حدثا فى اوساط بروليتاريا موسكو ، وخبر خنادق الحـــرب

العالمية الاولى حاملا قمطر جندى على ظهره وبندقية فى يديه . واذ عرف القائد المقبل نفسية الجندى بكل دقائقها ، قدر عاليـا صفات الجندى الحقيقية اكثر من اى شىء كان . وتجلت فى طبعه بأوضـح صورة الخصال الرائعة الملازمة للانسـان الروسى الكادح : النشاط والصمود ومعرفة تقدير الصداقة الحقيقية والرفاقية الكفاحية بكـل ابعادهما .

لم يكن غيورغى جوكوف بالنسبة الي مجرد ستراتيجى عسكرى بارز وبطل وقائد مجيد ، بل كان رفيقى وزميلى ، لا بل كان لي اخا اضطلع بدور كبيـــر فى مصيرى كجندى . لقد رايت فى جوكوف تجسيدا حيا لسعة وكرم روح الشعـب الروسى ازاء كل الشعوب الاخرى فى الاتحاد السوفييتى المتعدد القوميات .

لن يمحى من ذاكرتى اول لقاء مع غيورغى جوكوف فى خريف عام ١٩٢٤ فى مدرسة الفرسان العليا فى لينينغراد . وكنا فى مجموعـة دراسية واحدة مكونة بأغلبها من قادة الافواج . ينبغـى القول ان جوكوف كان مبرزا بوضوح بين طلبة المدرسة . ولم يكن هذا بالامر السهل ، اذ كان يدرس هناك روكوسوفسكى وييرمينكو ورومانينكو وبوبكين وغيرهم ممن اصبحوا قادة معروفين . ولم يكن احد منا قد بلغ حينذاك الثلاثين من العمر . وكان كل منا ، اذ كنا شبابا نتمتع بقوة جسدية ومعنويـــة ، يحاول ان يتفوق على الآخرين سواء فى الدراسة او فى مسابقات رياضة الفروسية .

فى دروس تكتيك الخيالة كان جوكوف يدهشنا مرارا بمفاجـأة ما . كان ذا تفكير اصيل ، وغالبا ما كانت حلوله تغدو مادة لنقاش وجدل حار . وكان منطق وانتظام تفكيره لا يمكنانه من صد حجـج زملائه فحسب ، بل وحجج الاساتذة ، ومن بينهم رئيس المدرسـة باتورسكى نفسه ، منظر الخيالة الشهير .

كان يلمع على صدر غيورغى جوكوف وسام الرايـة الحمراء ، الجائزة التى تلقاها لقاء مآثره فى الحرب الاهلية .

فى حياتنا امور مشتركة كثيرة : كلانا التحق بالجيش فى عام ١٩١٥ وساهم فى معارك الحرب العالمية الاولى وخـــدم فى وحدات المشاة ، ومن ثم فى وحدات الفرسان حيث قاد فصائل وكتائـــب الخيالة ، وقاد بعد الحرب الاهلية افواج الخيالة . ولعل هذا مـــا دفعنا الى تبادل التجربة التى اكتسبناها زمن القتال وابان الخدمة فى

قوات الخيالة الحمراء ايام السلم . وعلاوة على الميل المتبادل ، عقد الصداقة بيننا التعطش الى التعلم والتطلع الى استيعاب قمم الفن العسكرى . واجمالا ، كان كل طلبة مجموعتنا متكاتفين جدا وكانت روح التنافس تساعد على الدراسة التى تتطلب قدرا كبيرا من الجهد .

مارس تأثيرا مواتيا فينا جو الرومنسية الثورية التى كانت تحفل بها مدينة لينينغراد ، مهد الثورة البروليتارية . وانفتحنا بظمأ على الحياة الاجتماعية والتقاليد الثورية والغنى الفائق لثقافة لينينغراد . واتذكر ان جوكوف كان يردد دائما ان الدراسة فى مدينة كلينينغراد مستحيلة بدون حماسة وبذل كامل للقوى .

فى اشهر الخريف والشتاء استوعبنا برنامجا ضخما للفن العسكرى ، حول تكتيك الخيالة ومعارك القوات العامة . واعرنا اهتماما كبيرا دراسة التعاليم الماركسية اللينينية واساليب وتنظيم العمل السياسى فى الوحدات العسكرية . ومن هذه الناحية كان جوكوف واحدا من الاوائل على الدوام .

ان كل طلبة مجموعتنا ساهموا بنشاط فى عمل الجمعية العسكرية العلمية لدى المدرسة . وقد حضر كل منا موضوعا هاما القاه على شكل تقرير فى جلسة الجمعية .

وبقى عالقا فى ذاكرتنا تقرير جوكوف «العوامل الاساسية المؤثرة فى نظرية الفن العسكرى» . انه ، وقد درس بتمعن الكثير من مؤلفات لينين وانجلس ، وكذلك مؤلفات سوفوروف وكلاوزيفيتس وبروسيلوف ، وضع ، معتمدا على تجربة الحرب الاهلية وتجربته الكفاحية والقيادية الخاصة ، تقريرا مفصلا ومبتكرا ومدعما بعمق آثار اهتمامنا واهتمام اساتذتنا .

ساهم غيورغى جوكوف مساهمة حية فى العمل الحزبى ، وقد انتخب ، حسبما اتذكر ، الى مكتب المدرسة الحزبى . يكتب جوكوف فى مذكراته : «فى ١ آذار عام ١٩١٩ قبلت فى عضوية الحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا . ان الكثير قد طواه الآن النسيان ، ولكن ذلك اليوم حينما قبلت فى عضوية الحزب بقى فى ذاكرتى مدى الحياة . ومنذ ذلك الحين حاولت ان اخضع كل افكارى وتطلعاتى واعمالى لواجبات عضو الحزب ، وحينما كان يصل الامر الى الاشتباك مع العدو كنت اتذكر كشيوعى طلب الحزب ان اكون قدوة فى الخدمة المتفانية لشعبى» .

ينبغى التنويه ، مستبقين الاحداث بعض الشىء ، بانه حينما عين جوكوف ، عام ١٩٣١ ، مساعدا لبوديونى ، مفتش خيالة الجيش الاحمر ، انتخب فى اول اجتماع حزبى للمنظمة الجديدة ، التى ضمت شيوعيى تفتيش كل اصناف الاسلحة ، سكرتيرا لمكتب الحزب . هذا فى حين كانت المنظمة تضم ، علاوة على بوديونى ، شيوعيين صلب عودهم فى المعارك ، مثل لابين ، بيتين ، غرينداك ، بريماكوف ، تيولينيف . وقد برر جوكوف بصورة كاملة ثقة الشيوعيين ، حيث عمل باندفاع واظهر مبادرة ومثابرة .

واذ اعود الى الحديث عن الدراسة فى لينينغراد ، لا بد ان اقول اننا كنا نذهب اشهر الصيف الى الحقل ، ونحل هناك مهمات تكتيك الخيالة ورياضة الفروسية . وكانت الدراسة الميدانية تنتهى بجولة طويلة فى منطقة نوفغورود . وكانت خاتمتها عدوا على الجياد من نوفغورود الى لينينغراد . وكنا نقطع الطريق ، وطوله مئتا كيلومتر ، فى يوم واحد . وكان جوكوف بين الطلبة الذين مدحتهم قيادة المدرسة على مساهمتهم الناجحة فى العدو .

قبل التخرج مباشرة نظمت لعبة عسكرية كبيرة . وكلف جوكوف باداء وظيفة من اعلى الوظائف فى سياق هذه اللعبة .

حينما انتهت الدراسة سمحت القيادة بطلب من جوكوف لثلاثة خريجين بالعودة من لينينغراد الى مينسك – الى فرقة سامارا السابعة للفرسان – عدوا على الجياد . وقد ضمت هذه المجموعة جوكوف آمر فوج الخيالة التاسع والثلاثين ، وسافيلييف آمر فوج الخيالة الثانى والاربعين ، وريبالكين آمر كتيبة فى فوج الخيالة السابع والثلاثين . انهم ، وقد اجتازوا قرابة الف كيلومتر على الطرق الزراعية ، وصلوا سالمين الى مينسك فى اليوم السابع . وهناك استقبلهم بمهابة زملاؤهم فى الفوج والسكان المحليون .

هذا العدو على الجياد النادر من حيث المسافة والمعقد قد دخل فى سجل تاريخ الخيالة .

فى مينسك تابع جوكوف بنجاح قيادة فوج الخيالة . وهذا ما يشهد عليه آمر الفرقة ، بطل الحرب الاهلية المعروف دانيل سيرديتش : «آمر نشيط وحاسم . وبفضل عمل جوكوف الموجه نحو التثقيف والتدريب على القتال اصبح الفوج فى المستوى اللائق . وهو كقائد فرد معد اعدادا ممتازا . انه جدير بترقيته الى منصب قائد لواء

بصورة استثنائية» . ما لبث هذا التقرير ان اصبح حقيقة واقعة : ففى ايار عام ١٩٣٠ بعد التخرج من الدورات الاكاديمية لاعداد ملاك القيادة العليا اصبح غيورغى جوكوف آمر لواء الخيالة الثانى وعمل تحت قيادة زميلى وزميله روكوسوفسكى الذى كان يترأس حينذاك فرقة الخيالة السابعة .

كان العقد السابق للحرب العالمية الثانية فترة نمو عاصف لجوكوف كآمر موهوب ومؤهل من كل الجوانب .

فى مستهل عام ١٩٣١ عين ، كما سبق ونوهت ، مساعدا لمفتش خيالة الجيش الاحمر . وبعد سنتين اصبح آمرا لفرقة الخيالة الرابعة المجيدة التى ارسل اليها بتوصية شخصية من بوديونى . وفى اقصر فترة تسنى للآمر الجديد ان يبعث تماما مجد الفرقة الغابر ، حيث شغلت المكان الاول بين تشكيلات الخيالة . وبهذه المناسبة قلدت الحكومة السوفييتية جوكوف فى عام ١٩٣٥ ارفع جائزة ، وسام لينين ، واصبح فى السنة التالية آمرا لفيلق الفرسان الثالث ، ومن ثم آمرا لفيلق القوزاق السادس . واسعده الحظ ايضا انه عمل تحت قيادة القائد البارز للحرب الاهلية ايرونيم اوبوريفيتش . لقد تحدث جوكوف فى مذكراته بحرارة شديدة عن هذا القائد الرائع ونوه بانه تعلم الكثير من اوبوريفيتش فى ميدان الفن العسكرى .

وبالمناسبة ، فان الكثيرين من الجنرالات كاتبى المذكرات فى المانيا الغربية يؤكدون الآن ان جوكوف تعلم فى حينه بالاتفاق مع القيادة الالمانية فى اكاديمية الرايخسفير العسكرية السيئة الصيت التى كان يترأسها سيكت ، واجتاز دورة كاملة من العلم العسكرى البروسى . هذه الفرية الخبيثة انتقلت الى مؤلفات بعض المؤرخين الانكلو-اميركيين ، الذين يزعمون بان الروس حطموا الهتلريين لانهم ، على حد زعم هؤلاء ، استوعبوا العلم العسكرى وفق الوصفات الالمانية . . .

فى اواخر عام ١٩٣٨ اصبح جوكوف نائبا لقائد منطقة بيلوروسيا العسكرية لشؤون الخيالة . وبعد ذلك ارسل جوكوف الى منغوليا بمناسبة الاحداث المعروفة على نهر خالخين-غول . هنا توفر له لاول مرة فى منصب آمر الفيلق ومن ثم قائد الجيش الاول الامكان لان يبدى فى وضع قتالى موهبته البارزة كقائد . فقد طوقت القوات تحت امرة

جوكوف وهزمت شر هزيمة القوى الرئيسية للجيش اليابانى السادس . واليكم ما كتبه فى هذا الصدد فوروشيلوف مفوض الشعب للدفاع فى امر بتاريخ ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٣٩ : «لقد اكتسب المقاتلون والقادة المشتركون فى معارك منطقة نهر خالخين-غول مجدا حقيقيا . واستحقت القوات المشتركة فى معارك منطقة نهر خالخين-غول جزيل الشكر على بسالتها ، على تنفيذها الرائع للاوامر» . ومنح جوكوف اللقب الرفيع ، بطل الاتحاد السوفييتى ، لقاء قيادته الممتازة للقوات وما ابداه من اقدام .

. . . بعد قيادة الفوج والدراسة فى اكاديمية فرونزه والعمل فى منصب رئيس اركان فرقة بليتوف الخامسة للخيالة ارسلت الى اكاديمية الاركان العامة وتخرجت فيها . وابقيت فى الاكاديمية مدرسا . وعملت اكثر من سنتين كاختصاصى فى الخيالة فى كرسيى تكتيك التشكيلات العليا وفن العمليات . وحينذاك قام غيورغى جوكوف بدور حاسم فى حياتى العسكرية .

وفحوى الامر انه كانت عندى رغبة لا تقهر فى الانتقال من النشاط التدريسى الى القوات ، الى النشاط العملى فى القيادة او الاركان . وفى احد الايام تحدثت حول هذا الموضوع مع زميلى العقيد نيقولاى ارغونوف ، مغبطين الرفاق الذين ذهبوا بعد الاكاديمية الى القوات وهناك ترقوا فى الخدمة بسرعة . ابتسم ارغونوف وقال :

— اما نحن فلن نلبث ان نصبح معلبات علمية . وكما يقال ، لا حكاية تروى عنا ، ولا اغنية تغنى ، انما سيقولون عنا : منظرون انسلخوا عن حياة القوات . . . وما ذنبنا نحن ؟

اردت ان اعترض ، قائلا انه لشرف رفيع ايضا ان يكون المرء استاذا فى اكاديمية الاركان العامة . ولكن راودتنى افكار اخرى من غير قصد . بالفعل ، لسبب ما لا يقدرون عندنا حق التقدير احيانا عمل الضباط فى المؤسسات الدراسية العسكرية العليا ، وفى مفوضية الشعب للدفاع . وكان هذا احيانا مدعاة لخشية الضباط الشباب من ان يصبحوا فى الجهاز المركزى ويتخلفوا بعد عدة سنوات عن رفاقهم الذين ارسلوا بعد الدراسة الى القوات . سألنى ارغونوف ، متابعا حديثه :

– هل سمعت ان جنرال الجيش • جوكوف عين قائدا لقوات منطقة كييف ؟ ماذا لو كتبت اليه ؟ امن الممكن الا يساعد زميلا قديما ؟ ولاسيما انك لا تطلب الذهاب الى موسكو ، بل الى القوات .

فكرت فى نصيحة صديقى . بالفعل ، ان بينى وبين جوكوف اكثر من معرفة . ولكن لم يكن بودى ابدا ان استخدم صلاتى الشخصية حتى فى امر كهذا .

وفجأة قدم من كييف رفيقى اللواء روبتسوف . وسألته :

– كيف حالك ، واين تعمل ؟

اجاب باعتزاز :

– عند جوكوف . رئيسا لقسم العمليات .

– انت محظوظ ! اما انا فلا يتسنى لى الانعتاق ابدا .

قال روبتسوف بحماسة :

– اسمع ، اطلب من جوكوف مساعدتك . سيفعل . فهو يعرفك جيدا . باختصار ، اكتب رسالة فورا ، سأسلمه اياها شخصيا .

وقع قرارنا على هذا . وكانت الرسالة موجزة : «كل خدمتى فى الجيش كانت فى القوات ، عندى رغبة عارمة فى ان اعود اليها . . . موافق على اى منصب» .

لا مبرر ، كما اعتقد ، لتذكير القراء بان الوضع الدولى كان يزداد تفاقما فى ذلك الحين . وهذا ما عزز رغبتى فى العودة الى القوات بأسرع وقت . وهل ثمة حاجة الى التحدث عن اننى انتظرت الرد من كييف بفارغ الصبر . وحينما فقدت الامل ، وصلتنى برقية . وفيها ابلغنى جوكوف ان مفوضية الشعب عينتنى بالتماس منه فى قوات منطقة كييف العسكرية الخاصة رئيسا لقسم العمليات لاركان الجيش الثانى عشر . وامرت بالذهاب الى كييف فورا .

اننى ، وقد تلقيت امر القيادة وجمعت المواد اللازمة حول مسائل فن العمليات ، ودعت فى احدى امسيات ايلول (سبتمبر) اسرتى التى لم تتبعنى لاول مرة فى خلال كل خدمتى الطويلة فى الجيش . اذ ان ابنى وابنتى كانا قد باشرا السنة الدراسية لتوهما .

ان رئيس قسم الذاتية فى منطقة كييف العسكرية ، وقد تحدث

• قدرت الحكومة السوفييتية حق التقدير نشاط جوكوف القيادى على نهر خالخين-غول . وفى حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ منح رتبة جنرال الجيش . وما لبث ان عين قائدا لقوات منطقة كييف العسكرية الخاصة .

معى مدة اقل من ١٥ دقيقة ، ارسلنى الى الفندق ، قائلا ان قائد المنطقة لن يستقبلنى قبل الساعة الحادية عشر من اليوم التالى . ولكنى ما كدت اغتسل فى صباح اليوم التالى حتى طرق الباب ساع يلهث وابلغنى ان قائد المنطقة يدعونى اليه على الفور .

فى المكتب الواسع ، الذى كنت اعرفه من زياراتى السابقة ، كان القائد جالسا الى الطاولة يكتب بحروف عريضة قرارا على وثيقة ما . والى جانبه مصنف مفتوح فيه اوراق . واذ رآنى جوكوف رمى القلم على الطاولة . طفحت ابتسامة على وجهه الصارم . وقف ومد الي يده :

– مرحبا ، ايفان خريستوفوروفيتش . مضى زمن لم نلتق فيه .

حينما التقيت وجوكوف آخر مرة كانت على اشارات ياقته ، كما على اشارات ياقتى ، علامة رتبة العقيد ، اما الآن فتلوح عليها نجوم جنرال الجيش الخمس ، وعلى صدره نجمة بطل الاتحاد السوفييتى الذهبية . لقد قطع زميل الدراسة شوطا بعيدا .

بيد ان مظهره الخارجى لم يتغير كثيرا ، سوى انه اصبح اكثر امتلاء ، وخف قليلا شعره المتموج الناعم ، وغدت ملامح وجهه اكثر حدة وصرامة .

تصرفت على نحو نظامى صارم . شكرت القائد على استجابته للطلب . فلوح بيده عابسا :

– حسنا . . . لم افعل هذا من اجلك فقط ، بل لمصلحة الخدمة ايضا . نحن الآن فى امس الحاجة الى وجود قادة فى القوات مؤهلين من كل الجوانب .

تبدد جو اللقاء الرسمى . وغرقنا فى ذكريات عن لينينغراد ، وعن ذلك الوقت حينما كنا شابين تماما ، وذكرنا رفاق الدراسة بكلمة طيبة . واخيرا انتقلنا الى شؤون العمل مجددا . طلبت السماح لى بالذهاب الى مكان العمل الجديد فى اركان الجيش الثانى عشر . ولكن جوكوف اعترض قائلا :

– كلا . لا بد من تأجيل ذلك . فى كانون الاول (ديسمبر) سيعقد اجتماع هام لملاك قيادة مفوضية الشعب للدفاع وكل المناطق العسكرية .

ثم قال بعد صمت :

– نحن نعلم ان ستالين نفسه سيساهم فيه . وسيقدم رئيس

الاركان العامة التقرير الاساسى حول نتائج الاعداد القتالى والعملياتى فى السنة المنصرمة . وهناك تقارير لمفتش المشاة العام ورئيسى ادارة الاعداد القتالى وادارة المدرعات ومفتش المدفعية العام . وسوف يتحدث عن مسائل التكتيك وفن العمليات بعض قادة المناطق العسكرية . وكلفت بتقرير حول المسالة الاساسية «عن طابع العملية الهجومية المعاصرة» . لقد امضيتُ ، على حد علمى ، اربع سنوات فى اكاديمية الاركان العامة : تعلمت فيها وعلّمت . فهل فكرت فى احضار الدراسات الاكاديمية ؟

– احضرتها ، ايها الرفيق القائد !

انبسطت اسارير جوكوف :

– حسنا ! ستساعدنى فى اعداد التقرير .

واخذ غيورغى جوكوف يعرض وجهة نظره بحماسة . كل شىء يجب ان يبنى على اساس حساب الامكانات الفعلية . ان تجربة خالخين-غول واعمال الالمان الحالية فى الغرب القائمة على الاستخدام المكثف للدبابات والقوات المحمولة على السيارات تدفع الى التفكير فى امور كثيرة . وللاسف ، فان فيالق الدبابات عندنا لا تزال فى مرحلة التكون . فى حين ان الحرب يمكن ان تنشب فى اية لحظة . ونحن لا نستطيع ان نبنى خططنا انطلاقا مما سنملك بعد سنة ونصف او سنتين . يجب الاعتماد على تلك القوى التى تملكها مناطقنا العسكرية الامامية اليوم . . . وقال القائد ، مختتما حديثه :

– سوف نفكر معا . تعال بلا حرج . ساحدثك عن تجربتى فى خالخين-غول وتحرير بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية . خذ لمساعدتك من تشاء من ضباط قسم العمليات لاركان المنطقة وباشر العمل غدا .

اننى ، وقد ابلغت رئيس اركان المنطقة الفريق بوركاييف بوصولى ، شرعت فى العمل بلا ابطاء .

فى احد الايام دعانى القائد وحدثنى بالتفصيل عن الوضع الذى ظهرت فيه عملية خالخين-غول وكيف تسنى تحقيق نصر حاسم على الجيش الياباني السادس المكون من خيرة القوات . واعرب عن رأى مفاده ان الاطلاع على هذه العملية سيساعدنى على ان اضع بشكل افضل المواد اللازمة لتقريره فى اجتماع موسكو المقبل .

كنا قد اطلعنا فى الاكاديمية على هذه العملية ضد المحتلين اليابانيين . وبعد استماعى الى حديث جوكوف ، صارت فكرتى عنها اكمل من ذى قبل .

اتذكر اننا اذ درسناها بالتفصيل مع طلبة اكاديمية الاركان العامة ، كنا على قناعة بانها تعطينا صورة لمعارك مقبلة مع جيوش الامبرياليين .

ان غيورغى جوكوف ، وقد ذكر بالوضع الذى نشأ فى صيف عام ١٩٣٩ ، قال ان الشعب السوفييتى كان قد انجز حينذاك الخطتين الخمسيتين الاوليين وشرع فى مهمات اكبر للخطة الخمسية الثالثة رغم الوضع القلق فى العالم . وكان الهتلريون قد باشروا اعادة تفصيل خريطة اوربا . وخيمت على الكوكب السحب السوداء للحرب العالمية الثانية . فى ذلك الحين اخترقت القوات اليابانية ، التى احتلت شمال شرقى الصين ، اراضى جمهورية منغوليا قرب نهر خالخين-غول بعد جملة من الاستفزازات على الحدود . وكانت الحكومة اليابانية على علم ، طبعا ، بانه عقد فى اذار (مارس) ١٩٣٦ معاهدة تعاون بين الاتحاد السوفييتى ومنغوليا . والهجوم على منغوليا ادى الى قيام البلاد السوفييتية بتقديم دعم عسكرى الى هذه الجمهورية . وكان العسكريون اليابانيون يعرفون كذلك ان عدوان الفاشية الالمانية على الاتحاد السوفييتى هو مسالة وقت . واذ اخذوا هذا فى الاعتبار ، سعوا الى ان يستولوا فى آسيا على موقع ستراتيجى افضل ما يكون ازاء الدولة السوفييتية * .

فى ١١ ايار (مايو) عام ١٩٣٩ اجتازت مفرزة قوية من اليابانيين حدود منغوليا سرا وهاجمت حرس الحدود المنغوليين . ان حكومة الاتحاد السوفييتى المخلصة لالتزاماتها التحالفية اصدرت امرا للقوات السوفييتية الموجودة فى منغوليا بناء على المعاهدة بدخول منطقة النزاع .

---

* ان الاوساط الحاكمة فى الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا قد دفعت ايضا الطغمة العسكرية اليابانية الى الاصطدام العسكرى مع الاتحاد السوفييتى . وكانت كلمات «مانشستر غارديان» التالية بمثابة دعوة الى العدوان : «ان استيلاء اليابان على منغوليا من شانه ان يؤدى الى اقامة قواعد يابانية لا تبعد سوى ١٥٠ ميلا عن طريق ذى اهمية حيوية بالنسبة الى الاتحاد السوفييتى ، وهو الخط الحديدى العابر لسيبيريا» .

وعندئذ ارسل جوكوف الى منغوليا حيث باشر قيادة الفيلق الخاص السابع والخمسين ، ومن ثم قيادة الجيش الاول . وادرك فحوى الموقف بسرعة . وفى اواخر ايار (مايو) كانت القيادة اليابانية قد حشدت هناك تجمعا كبيرا من المدفعية والمدرعات والطيران . ولما كان المحتلون متفوقين عدديا ثلاثة اضعاف ، فقد نووا تطويق وابادة القوات السوفييتية والمنغولية على ضفة نهر خالخين-غول . ولكن احبطت هذه الخطة الغادرة بفضل قيادة جوكوف . فقد ذاد المحاربون السوفييت والجنود المنغوليون ببسالة عن كل شبر من الارض المنغولية ، واذ تلقوا امدادا ، قذفوا بالمحتلين الى وراء الحدود .

ان الهزائم الاولى لم تلطف ابدا من عنفوان العسكريين اليابانيين . فقد اعدوا ضربة جديدة اقوى ، حيث حشدوا على الحدود فى اواخر حزيران (يونيو) ٣٨ الف جندى وضابط و٣١٠ مدافع و١٤٥ دبابة و٢٢٥ طائرة . وفى صباح ٢ تموز (يوليو) بدأ اليابانيون هجوما كاذبا لصرف الانظار ، وفى ليلة ٣ تموز عبر تجمعهم الضارب نهر خالخين-غول فى منطقة جبل بائين-تساغان . قرر جوكوف ان يوجه هناك ضربة مضادة ماحقة ، مستخدما كل قوة وحدات المدرعات . وبهجوم صاعق دحر جنود لواء المدرعات الحادى عشر اليابانيين ، واجهز عليهم فوج المشاة المحمول على السيارات الرابع والعشرون واللواء المدرع السابع .

ولكن القيادة اليابانية لم ترغب فى استخلاص الاستنتاجات المناسبة من هذا الدرس ايضا . ودفعت بعناد احتياطيات جديدة واقامت دفاعا على ضفة النهر الشرقية ، مستعدة لمتابعة الهجوم الذى كان مقررا القيام به ، كما اتضح فيما بعد ، بتاريخ ٢٤ آب (اغسطس) . واضطرت الحكومة السوفييتية الى تقديم المساعدة لمنغوليا الشقيقة بمقاييس اوسع . وشكل من القوات المرابطة عند خالخين-غول الجيش الاول . واصبح جوكوف قائدا له . وقد اقترح استباق العدو وتطويق وحداته التى اقتحمت اراضى منغوليا والقضاء عليها بضربة مفاجئة . وتمت الموافقة على اقتراح جوكوف ووصل كل ما هو ضرورى لتحطيم العدو قبل شن المعركة الحاسمة التى نشبت فى الثلث الاخير من آب . وكانت القوات الجوية من بين ما اعير اقصى اهتمام . وانضمت اليها طائرات مقاتلة عصرية ، وقرر

لاول مرة استخدام القذائف الصاروخية فى المعارك الجوية . وعلاوة على ذلك ، ارسل الى منغوليا طيارون خبروا المعارك فى اسبانيا والصين بينهم مجموعة من ابطال الاتحاد السوفييتى .

قرر جوكوف تصفية مجموعة القوات اليابانية التى اخترقت الاراضى المنغولية مجددا بان يوجه ضربات جانبية على جناحى العدو بقوات المدرعات .

فى ٢٠ آب (اغسطس) عند الشروق كانت عاصفة جبارة من نيران المدفعية وضربة مكثفة من ٢٥٠ طائرة بداية عملية معدة بدقة للقوات السوفييتية والمنغولية . واتسمت المعارك ، ولا سيما فى ٢١ و٢٢ آب بتوتر شديد . ان دباباتنا ومشاتنا ، وقد حطمت تجمعات جناحى العدو ، انجزت تطويق الجيش الياباني السادس ، وبعد اسبوع لم يبق له اثر وطهرت كل اراضى منغوليا من المحتلين . وابتهلت القيادة اليابانية ، طالبة وقف الاعمال العسكرية . وانتهت المعارك فى ١٦ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٩ .

هذه المغامرة كلفت اليابان قرابة ٦٠ الف جندى وضابط قضى عليهم ، و٦٦٠ طائرة . وكانت بين الغنائم ٢٠٠ مدفع ، و٤٠٠ رشاش ، و١٢ الف بندقية .

قال غيورغى جوكوف ، مختتما حديثه عن خالخين-غول :

— ان الحزب الشيوعى المتمثل فى فصيلته على الجبهة ، منظمة الجيش الحزبية ، كان هنا ، شأنه دائما ، روح الاعمال البطولية للمقاتلين السوفييت . وكان الشيوعيون يلهمون المحاربين المآثر الكفاحية بما يبدونه من اقدام ومهارة فى القتال وتفان .

كان حصار خالخين-غول ، الذى خططه واعده جوكوف بمهارة ، درسا قاسيا للمعتدين اليابانيين .

تحت امرة القائد الموهوب اكتسبت القوات السوفييتية والمنغولية مجدا لا يذوى ، مجترحة آيات رفيعة من البطولة والمهارة العسكرية .

وقلد اجرأ سبعين مقاتلا سوفييتيا بأعلى درجة استحقاق ، لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

اغنت الاعمال القتالية فى منغوليا القوات السوفييتية بتجربة قيمة ، وساعدت على التطوير المطرد لفنها العملياتى والتكتيكى . هذه الحادثة انطوت كذلك ، كما هو معروف ، على مغزى عسكرى

سياسى كبير ، حيث مارست تأثيرا اعاد الزعماء اليابانيين الى وعيهم . وقد نوه المؤرخ الاميركى ماكشيرى فيما بعد بان «استعراض القدرة السوفييتية فى معارك خاسان وخالخين-غول انطوت على آثار بعيدة المدى ، حيث بينت لليابانيين ان حربا كبيرة ضد الاتحاد السوفييتى ستكون فاجعة بالنسبة اليهم» .

ان تحطيم اليابانيين على نهر خالخين-غول دعم بشكل ملموس النضال الوطنى التحررى للشعب الصينى . وقد ادى الاتحاد السوفييتى وقواته المسلحة بشرف واجبها الاممى ازاء الشعب المنغولى . وصلبت وقويت اكثر واكثر فى تلك الايام الصداقة الكفاحية بين الجيش الاحمر وجيش منغوليا الشعبى الثورى .

اننى ، اذ استمعت الى حديث جوكوف كنت افكر فى انه اصبح احد قادتنا القلائل فى ذلك الوقت الذين اكتسبوا تجربة قيمة فى تنظيم العمليات الهجومية العصرية . وكان ذلك قبل الحرب الوطنية العظمى مباشرة .

وقال غيورغى جوكوف كذلك ان عدة تشكيلات من منطقة كييف العسكرية قامت تحت قيادته بحملة تحريرية فى ٢٨-٣٠ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ بهدف استعادة بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية اللتين احتلتهما الحكومة البويارية لرومانيا فى اعوام ١٩١٨-١٩٢٠ .

ونتيجة الاعمال الحاسمة للقوات السوفييتية قضى على الظلم التاريخى ، وانهارت خطط الامبريالية لتحويل بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية الى راس جسر للحرب ضد الاتحاد السوفييتى .

اعود الى حديثى السابق . لقد تسنى لى ولمساعدى الاذكياء والنشطاء جدا تادية المهمة بسرعة نسبيا . ان القائد الذى عمل كثيرا من اجل التقرير كان راضيا عن جهودنا . وفى اواخر ايلول (سبتمبر) ادخل التعديلات والاضافات الاخيرة ، وسلمنى المادة قائلا :

– راجعها مرة اخرى بامعان بعد اعادة طبعها . واستعد للرحيل : ستبدأ بعد ثلاثة ايام تدريبات القيادة والاركان فى الجيش الثانى عشر . اريد ان احضرها . ستذهب معى . ساقدمك الى قائد الجيش ، وستتعرف خلال التدريبات الاركان التى ستعمل فيها .

. . . كانت اركان الجيش الثانى عشر تقع فى غابة غربى

دروغوبيتش . قرب خيمة كبيرة اصطف ضباط ادارة الجيش . وترددت فى الغابة كلمة «استعد !» تصم الاذان ، وتحرك للقائنا بخطى واثقة جنرال ممشوق قدم تقريرا بصوت جهورى . انه قائد الجيش الجنرال باروسينوف . مد اليه غيورغى جوكوف يده ورحب الجميع بصوت منخفض ، واشار الي :

– اتيتكم بامداد . رئيسكم الجديد لقسم العمليات .

تصافحت والجنرال باروسينوف .

دخلنا الخيمة التى علقت فيها خرائط ومخططات . استمع قائد المنطقة فى البداية الى تقرير قائد الجيش عن التدريبات المقبلة من غير ان يقاطعه ، ولكن حينما جرى الحديث عن عدد الدبابات والمدفعية فى قطاع الاختراق ، لم يتفق جوكوف مع قائد الجيش . وفحوى الامر ان مشروع نظام الميدان لعام ١٩٣٩ كان ينص على حشد ٣٠-٣٥ مدفعا و١٥-٢٠ دبابة على كل كيلومتر من جبهة الاختراق فى اتجاه الضربة الرئيسية . اما تجربة الاعمال القتالية على نهر خالخين-غول وبرزخ كاريليا فبينت انه لا بد من كثافة مضاعفة على الاقل . كان باروسينوف ينوى الهجوم مسترشدا بالتعليمات السابقة . استمع جوكوف الى آراء قائد الجيش برصانة ، ثم فند كل حججه بسهولة واقناع .

– يجب ان نتعلم محاربة عدو ذكى وقوى . لن نتغلب عليه بالهتافات وحدها .

طلب قائد المنطقة اقامة حشود كبيرة من المدفعية والدبابات فى قطاع الخرق . وابدى ايضا ملاحظات جوهرية اخرى حول تنظيم التدريبات .

كان لقائى الثانى وغيورغى جوكوف فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤١ ، حينما اصبحت رئيسا لقسم عمليات اركان المنطقة ، وتقرر عقد مداولات للملاك القيادى لادارة المنطقة والجيوش والفيالق والفرق . وكان المفروض الشروع فيها بسلسلة من التقارير حول مسائل تخطيط وتنظيم وتنفيذ عملية الجبهة وانهاؤها بلعبة ميدانية على الخرائط . وقد اسبغ قائد المنطقة مغزى خاصا على هذه المداولات . وفى ٥ كانون الثانى (يناير) ، وكان فى موسكو ، تلفن الىّ يستعلم عن مجرى الاستعداد لها وأمر بادخال عدة تعديلات على

الخطة ، بما فى ذلك ادراج عدة تقارير عن نتائج اجتماع موسكو .

وبعد عدة ايام علمنا من الصحف ان جوكوف سوف يترأس الآن الاركان العامة . وان الفريق كيربونوس عين قائدا لمنطقتنا العسكرية . لقد انتهى اجتماع موسكو بتنقلات هامة للكوادر القيادية .

هذا الخبر كان باعثا على السرور والاسى فى الوقت نفسه . كان باعثا على السرور لان واحدا من اكثر قادتنا كفاءة استلم رئاسة الاركان العامة . وكان باعثا على الاسى لاننا حرمنا من العمل مع جوكوف .

ان تعيينه رئيسا للاركان العامة لم يكن ، فى رأيى ، نتيجة تضافر بسيط للظروف ، رغم ان هذه الظروف كانت هامة بحد ذاتها . وخلاصة الامر ان جوكوف اظهر نفسه قائدا بارزا فى الاجتماع ، وفى اللعبة العسكرية التى اعقبته ، ومن ثم فى الكرملين ، حينما استمع اعضاء المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى الى نتائج هذه الفعاليات . ان القوات «الزرقاء» التى كان يقودها جوكوف ربحت «المعركة» .

فى ١٦ كانون الثانى (يناير) قدم غيورغى جوكوف الى كييف . وفى اليوم نفسه استدعانى وامر بان اقدم اليه كل المواد التى اعدت للمداولات ، وفى المساء اعادها الي مع تعديلات طفيفة . كان راضيا على ما يبدو . وقال وهو يسلمنى مخطوطة ضخمة :

– هذا تقريرى . اطلب طبعه على الآلة .

توارد الى نادى الجيش فى المنطقة المساهمون فى المداولات ، اى كل ملاك القيادة فى المنطقة . ووقف جوكوف على المنصة . استمع الحاضرون بانتباه الى رئيس الاركان العامة الجديد وهو يتحدث عن توتر الوضع الدولى ، وعن خطر الحرب المخيم على وطننا . ولم يكتم ايضا ان المانيا الفاشية تبقى عدونا المحتمل الرئيسى ، ولذا اعار فى تقريره اهتماما كبيرا لاعمال الجيش الالمانى فى الغرب . وقال :

– ان نجاحات الفاشيين العسكرية صعقت العالم بأسره . ولكن لا ينبغى نسيان انها حصلت عليها بثمن زهيد ، اذ ان الجحافل الالمانية لم تلق مقاومة لائقة . ولا بد على اى حال من استخلاص استنتاجات جدية . لقد اضطلعت بالدور الرئيسى فى انتصارات الجيش الهتلرى التشكيلات المدرعة والمحمولة على السيارات والطيران

بتعاونها الوثيق . وهى التى ضمنت بضرباتها القوية اندفاع هجوم الجيش الالمانى .

ونوه جوكوف ايضا بان الجيش الالمانى مجهز جيدا ، وقد اكتسب تجربة قتالية قيمة ، ولن يكون من السهل القتال ضد عدو كهذا . فى السابق كنا نعتبر ، مثلا ، انه يكفى لاختراق الدفاع التفوق على العدو مرة ونصف ، وفى اقصى الحالات مرتين او ثلاث فى قطاع الضربة الرئيسية . وفى اجتماع موسكو ساد رأى آخر ، وهو انه ينبغى ضمان التفوق فى القوى فى كل القطاعات وليس فى قطاع الضربة الرئيسية وحده .

ثم اشار جوكوف الى انه لا يزال عندنا ضباط يحاولون النظر الى الحرب المعاصرة من خلال موشور المعارك الماضية . ومن هنا السعى الى التمسك بالقواعد التكتيكية القديمة وعدم فهم مغزى الاستخدام المكثف لصنفى القوات الجديدين : الطيران والدبابات .

ثمة ، والحق يقال ، رؤوس حامية جدا . انها ، وقد توصلت الى استنتاجات صحيحة من تجربة المعارك فى اوربا الغربية ، من شأنها ، ان اعطيت الحرية ، ان تبدأ انقلابا كاملا فى العمل العسكرى . هؤلاء الرفاق ينسون ان هذه الانقلابات سهلة الانجاز على الورق ، اما فى الحياة فان كل الخطط يجب ان تستند الى الامكانات الواقعية . واذ نخطط للاجراءات فى حالة الحرب ، لا نستطيع ان ننطلق مما سيملكه جيشنا فى المستقبل . واذا بدأت الحرب الآن ؟ يجب ان نكون واقعيين وننطلق من القوى والوسائل التى نملكها اليوم .

وتحدث جنرال الجيش عن تدريب افراد القوات . ان بعض رفاقنا قد تعلموا شيئا فى اسبانيا . وكانت المعارك على نهر خالخين غول وبرزخ كاريليا امتحانا جديا ومدرسة كبيرة . وينبغى الآن مع مراعاة هذه التجربة تطوير تدريب القوات بنشاط وبصورة هادفة . يجب الاستعداد للحرب بكل جدية .

ونوه جوكوف بان النظرية التى اعدت فى الجيش الاحمر لما يسمى العملية العميقة قد بررت نفسها تماما . ولكن العمل العسكرى لا يراوح فى مكانه . يجب ان تتطور النظرية وتغتنى فى ضوء منجزات الفن العسكرى ومع ارتقاء وسائل الصراع وتعاظم قدرة جيشنا القتالية . وابرز صاحب التقرير بشكل خاص مغزى المفاجأة التكتيكية ، ودعا الى زيادة اليقظة والاستعداد القتالى .

كانت الكلمات الاخرى تكملة للتقرير الاساسى . وفى صباح اليوم التالى بدات التدريبات على الخرائط . وقام جوكوف نفسه بالتمارين مع قواد الجيوش ورؤساء اصناف قوات المنطقة ورؤساء هيئات اركانها . كانت التمارين هامة جدا واعطت مادة كبيرة للتفكير .

وبعد استعراض نتائج المداولات ، اعلن جوكوف بعض التنقلات فى الكوادر ، ثم امر الجميع بالعودة الى مكان الخدمة فورا ، وتمنى النجاح للمساهمين فى المداولات وودعهم بحرارة . وذهب الى موسكو فى اليوم التالى . وقد ودعه فى المحطة زملاؤه فى ادارة المنطقة وممثلو المنظمات الحزبية والسوفييتية فى المدينة . كان واضحا ان جوكوف تمكن من اكتساب احترام عميق فى كييف . وكان متاثرا جدا . ولم تفارق ابتسامة خفيفة وجهه الصارم عادة .

بقى غيورغى جوكوف فى منصب رئيس الاركان العامة اكثر من نصف سنة (٧ اشهر) ، بما فى ذلك ٥ اسابيع بعد بداية الحرب الوطنية . اعتقد ان وجود هذا القائد ذى العقل الواعى ، القادر على التحليل ، والذاكرة المتماسكة الفذة والارادة الصلبة ، الذى لا يفقد ابدا رباطة الجاش ووضوح التفكير فى هذا المنصب الهام بالنسبة للدفاع عن الوطن فى ذلك الوقت العصيب كان لخير الشعب السوفييتى وفائدته . فبفضل كل هذه الخصال ، وكذلك معرفته الذود بجراة عن رايه والسير نحو الهدف المنشود بطريق مباشر ، لا بتعرجات وجلة ، ادى قسطا جوهريا فى الاستعداد لرد العدوان وتنظيم التصدى للعدو .

ينبغى القول ان جوكوف اتى الينا فى الجبهة الجنوبية الغربية كممثل للقيادة العليا منذ الايام الاولى من الحرب وقدم مساعدة جمة فى تنظيم الضربات المضادة بقوى عدة فيالق فى منطقة مدينة برودى بهدف احباط محاولة القيادة الالمانية الوصول الى كييف بتشكيلاتها المتحركة بلا توقف .

ان جنرال كولونيل قوات الدبابات الهتلرية هيرمان غوت يصف فى كتابه «عمليات الدبابات» هذه المعركة الكبرى للدبابات فى مستهل الحرب على النحو التالى : «كانت اشد الصعوبات من نصيب مجموعة «الجنوب» . ان قوات العدو ، التى قامت بالدفاع امام تشكيلات جناحها الشمالى ، ابعدت عن الحدود . ولكنها تمالكت نفسها بسرعة من

الضربة المفاجئة واوقفت بهجمات مضادة من احتياطيها ووحدات الدبابات المرابطة فى العمق تقدم القوات الالمانية . ولم يتحقق حتى ٢٨ حزيران (يونيو) اختراق بواسطة مجموعة الدبابات الاولى الموضوعة تحت امرة الجيش السادس . كانت ضربات العدو المضادة القوية عقبة كبيرة على طريق هجوم الوحدات الالمانية» .

فى تموز (يوليو) عام ١٩٤١ عين جوكوف قائدا لقوات جبهة الاحتياط . وابدى هنا على الفور قدراته التنظيمية الكبرى بكل ابعادها . فقد اجريت بنجاح تحت قيادته اول عملية هجومية فى خلال الحرب هزم فيها تجمع المانى ضارب فى منطقة يبلنيا وحررت هذه المدينة .

فى غضون العملية تضعضعت بشكل جدى فرقتان معاديتان للدبابات وسبع فرق للمشاة ، احداها محمولة على السيارات ، وصفى نتوء يبلنيا ، وهو راس جسر قد يستفيد منه الجيش الالمانى الفاشى للهجوم على موسكو . وهنا طبق جوكوف لاول مرة حركة الالتفاف من جانبين بهدف تطويق وابادة التجمع الهجومى المعادى القوى . والنقص فى الدبابات والطيران هو وحده الذى منع من انجاز تطويق تجمع العدو فى يبلنيا وابادته تماما . وفى عملية يبلنيا ولد الحرس السوفييتى . ان غيورغى جوكوف الذى كان منهمكا تماما فى قيادة القوات التى كانت تنفذ هذه العملية المعقدة ، بقى الى جانب ذلك يتتبع بامعان كعضو فى القيادة العليا كل الوضع المتغير باستمرار فى الجبهة السوفييتية الالمانية . وفى تلك الفترة بالذات ارسل الى القيادة العليا وثيقة تكشفت فيها موهبته القيادية على نحو رائع . واعنى البرقية التى ارسلها الى ستالين بتاريخ ١٩ آب (اغسطس) عام ١٩٤١ :

«ان العدو ، الذى اقتنع بحشد قوى كبرى من قواتنا على الطريق الى موسكو ، والذى تكتنفه جبهتنا المركزية وتجمع قواتنا فى فيليكى لوكى ، قد تخلى موقتا عن توجيه ضربة الى موسكو ، واذ انتقل الى الدفاع النشيط ضد الجبهتين الغربية والاحتياطية ، قذف بكل وحداته الضاربة المتحركة والمدرعة ضد الجبهات الوسطى والجنوبية الغربية والجنوبية .

نية العدو المحتملة هى ان يحطم الجبهة الوسطى ، واذ يصل الى منطقة تشيرنيغوف وكونوتوب وبريلوكى ، يحطم جيوش الجبهة

الجنوبية الغربية بضربة من المؤخرة . وبعد ذلك يوجه الضربة الرئيسية الى موسكو بالالتفاف حول غابات بريانسك وضربة الى الدونباس .

لمجابهة العدو وعدم السماح بتحطيم الجبهة الوسطى ووصول العدو الى مؤخرة الجبهة الجنوبية الغربية اعتبر ان من واجبى اعلامكم بتصوراتى حول ضرورة حشد تجمع قوى بأسرع وقت ممكن فى منطقة غلوخوف وتشيرنيغوف وكونوتوب» .

وللاسف ، لم تكن القيادة العليا تملك امكان تنفيذ الاقتراح لجملة من الاسباب ، ولاسيما لعدم توفر القوى والوسائل الضرورية .

فى سنوات الحرب كانت لجنة الدولة للدفاع والقيادة العليا ترسلان غيورغى جوكوف الى قطاعات الحرب الحاسمة والاكثر خطرا . فقد عين فى ١٠ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤١ قائدا لجبهة لينينغراد ، وذلك بالذات فى تلك اللحظة التى اصبح فيها الوضع على مشارف مدينة لينينغراد اكثر توترا . ان ايقاف العدو وازالة الخطر المباشر المحدق على لينينغراد لم يكونا يتطلبان اقصى جهد معنوى وجسدى للقوات المدافعة عن المدينة فحسب ، بل كانا يقتضيان ايضا ارادة قائدها الفولاذية وموهبته العسكرية وهيبته التى لا تشوبها شائبة . ولهذا وقع الاختيار على جوكوف .

ان الارادة التى لا تلين والقدرة النادرة على العمل والصلة الوثيقة التى لا تنفصم بالمنظمة الحزبية فى لينينغراد المجربة فى النضال ، والتى كان يترأسها اندرى جدانوف ساعدت جوكوف على اعادة القدرة القتالية للوحدات والتشكيلات . فقد تلقى الجيش الثانى والاربعون ، مثلا ، امرا قاطعا بالمحافظة على مرتفعات بولكوفو مهما كلف الامر . وعثر على الاحتياطيات اللازمة ، واصبح الامر «ولا خطوة الى الوراء» قانونا مبرما . وبالنتيجة تحسن الوضع نحو الافضل بشكل جذرى .

فى ذلك الوقت انعقدت السحب فوق عاصمة وطننا ، موسكو . وبدأت احدى اكبر عمليات الجيش الالمانى فى تاريخ الحرب العالمية الثانية التى اطلق عليها الاسم الرمزى «تايفون» . وقذف ضد العاصمة السوفييتية بقرابة ٨٠ من خيرة الفرق ، بينها اكثر من ٢٠ فرقة للدبابات وللمشاة المحمولة على السيارات . ونعيد الى الاذهان ، بالمناسبة ، انه وجهت ضد فرنسا ١١ فرقة مدرعة فقط . وقد

اضطلعت بدور حاسم فى تحطيم الجيش الفرنسى والحملة الانكليزية .

بقرار المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى استدعى جوكوف على عجل من لينينغراد واصبح فى ١١ تشرين الاول (اكتوبر) قائدا لقوات الجبهة الغربية . جاء فى الوثيقة التى اعلنت موسكو فى حالة طوارئ* : «يعلن بهذا ان قائد الجبهة الغربية الرفيق جوكوف كلف بالدفاع عن العاصمة ضمن حدود تقع على بعد ١٠٠ كيلومتر – ١٢٠ كيلومترا غربى موسكو» .

كان مغزى موسكو كبيرا بالنسبة الى دولتنا الاشتراكية سواء زمن السلم او زمن الحرب . فقد نقلت العاصمة الى موسكو عقب ثورة اكتوبر العظمى . وغنى عن البيان ما تنطوى عليه مدينة موسكو من مغزى معنوى بالنسبة الى الشعب الروسى وكل شعوب وطننا . وموسكو قلب بلادنا ، وقد سعى العدو الشرس الى طعن هذا القلب الحى ، الخافق ، موجها اليه ثلاثة اسافين قوية من الدبابات* .

قام غيورغى جوكوف بنشاط عاصف حول موسكو ، وكانت طاقته التى لا تنضب تكفى لكل شىء . فقد نظم دفاعا راسخا على المشارف القريبة من موسكو . وتحطمت على خط النار قرب موسكو قدرة اسافين الدبابات ، واوقف عمليا هجوم الجحافل الهتلرية . هذا النجاح الستراتيجى الذى حققته قوات الجبهة الغربية ، وكذلك وصول احتياطيات كبرى الى موسكو فى الوقت المناسب كانت قد اعدتها القيادة العليا فى عمق اراضى البلاد ، ما لبثا ان مكنا الجيش الاحمر من القيام بهجوم مضاد قوى انتهى بهزيمة كاملة لقوى الجيش الالمانى الضاربة التى حاولت الاستيلاء على عاصمة الدولة السوفييتية وكسب الحرب مهما كلف الامر .

فى ضواحى موسكو احرز الجيش الاحمر اول نصر ينطوى على مغزى عسكرى سياسى وستراتيجى كبير . وتبددت الى الابد اسطورة الجيش الالمانى الفاشى الذى لا يقهر . وهذا النصر هو ، ولا شك ، نتيجة

---

* يكتب الجنرال الالمانى غوديريان عن تقريره لهتلر فى صدد ضرورة الهجوم على موسكو : «رسمت له الموقع الجغرافى لعاصمة روسيا التى تختلف الى درجة كبيرة عن العواصم الاخرى كباريس ، مثلا ، وتعتبر مركزا لطرق الاتصال والمواصلات ومركزا سياسيا واقتصاديا هاما ، والاستيلاء عليها يؤثر بقوة فى الروح المعنوية للشعب الروسى ، وكذلك فى العالم بأسره» .

للعمل التنظيمى العملاق لحزبنا والجهود الجبارة لشعبنا بأسره . ومع ذلك كله كان قسط جوكوف فى هذا النصر الرائع هاما جدا .

تجددت اتصالاتى المباشرة بغيورغى جوكوف حينما عينت فى عام ١٩٤٢ بعد عملية خاركوف الفاشلة فى الجبهة الغربية التى بقى جوكوف يقودها بعد معركة موسكو . ولكن عندما وصلت الى مقر قيادة الجبهة كان جوكوف فى القوات . قدمت نفسى الى بولغانين عضو المجلس العسكرى وسوكولوفسكى رئيس اركان الجبهة ، وذهبت الى الجيش الحادى والستين الذى عينت نائبا لقائده .

بعد عدة ايام شنت القوى الرئيسية لهذا الجيش هجوما من منطقة بيلوف على بولوخوف . وتنفيذا لامر قائد الجيش ، نظمت بقوات صغيرة على جناحنا الايمن ضربة فى منطقة كيريكوفو . ارتسم النجاح الذى كان لا بد من تطويره ، ولكنى استدعيت فجأة فى ١٥ تموز (يوليو) الى اركان الجيش . وهناك ابلغنى قائد الجيش بافل بيلوف امر قائد الجبهة بان اتلفن له فورا . وما لبثت ان سمعت بالتلفون صوتا اعرفه جيدا ، صوت غيورغى جوكوف . بعد التحية قال :

– عين قائد الجيش السادس عشر قسطنطين روكوسوفسكى قائدا لقوات جبهة بريانسك ، وعينتك القيادة العليا مكانه قائدا للجيش السادس عشر . ما رأيك فى هذا التعيين ؟

اعربت عن امتنانى لهذه الثقة واكدت له اننى سأحاول ان اكون اهلا لمنصب قائد الجيش .

امر جوكوف بالذهاب فورا الى الجيش السادس عشر ومباشرة القيادة .

ودعت صديقى القديم الجنرال بيلوف ، وذهبت الى اركان الجيش السادس عشر الواقعة جنوب سوخينيتشى . كان الليل مظلما ، دامسا ، ولهذا اضطررت الى التوقف فى الطريق عدة مرات للتأكد مما اذا كنا لم نضل سبيلنا . اما افكارى فكانت مشغولة بواجباتى المقبلة كقائد للجيش . هذا الحدث كان مدعاة لسرورى لاسباب كثيرة . اولا ، تحقق حلمى بالانتقال الى العمل القيادى ، ثانيا ، تأثرت بالحرص الودى على مصيرى العسكرى الذى ابداه رفيقى القديم مجددا ، ثالثا ، كان تعيينى فى الجيش السادس عشر بالذات مرضيا

جدا بالنسبة الي . فهو الجيش نفسه التى اظهرت وحداته كل ذلك الاقدام والاصرار سواء قرب شيبيتوفكا ، او ايام المعركة البطولية من اجل كييف ، او فى معركة سمولينسك ، او فى المعركة قرب موسكو . ان افراد الجيش تغيروا ، بالطبع ، ولكن تقاليد البطولة وادراك الواجب ازاء الوطن بقيت وتعززت بلا شك فى هذه التشكيلة المجيدة . واردت لو اقابل قسطنطين روكوسوفسكى ولو على عجل . وفكرت ايضا ، وهذا مفهوم بداهة ، فى الصعوبات التى كانت تنتظرنى فى منصب القائد . وخطر على بالى ان غيورغى جوكوف سيساعدنى على تذليلها . وكنت اعول ، طبعا ، على دعم جماعة الادارة والاركان وكل شيوعيى التشكيلات والوحدات .

اننا ، وقد تغلبنا على متاعب الطريق ، وصلنا اخيرا فى الصباح الباكر الى اركان الجيش المموهة جيدا فى الغابة قرب قرية تشفانوفو . وللاسف كان روكوسوفسكى قد رحل . واطلعنى رئيس الاركان الجنرال مالينين وعضو المجلس العسكرى لوباتشوف على الوضع المتكون فى منطقة اعمال الجيش حتى وصولى .

فى اوائل شهر آب (اغسطس) دعانى جوكوف الى اركان الجبهة لتقديم تقرير شخصى عن وضع قوات الجيش واستعدادها للدفاع . اننى ، وقد اخذت معى الخرائط والوثائق الضرورية الاخرى سافرت على طائرة «او – ٢» الى مالوياروسلافيتس .

كان لقائى وغيورغى جوكوف حارا جدا . وكان شحيحا باظهار شعوره ، ولكنه على اى حال عانقنى من كتفى ، وهزنى قائلا بدعابة خشنة :

– عشت قرب خاركوف مأساة حقيقية ، ولكنك بقيت مقداما ، وساعدت بيلوف فى خلال نصف شهر كما ينبغى .

شكرت له بتأثر مساعيه فى صدد تعيينى الجديد . وقال كعادته فى حالات كهذه :

– هذا لصالح القضية ! يجب تسليم جيش روكوسوفسكى الى يدين امينتين . ولكنى لست انا صاحب المبادرة ، بل القائد الاعلى ، فوجه شكرك اليه .

بعد ذلك استدعى جوكوف رئيس الاركان سوكولوفسكى ، واطلع على خطتنا واقرها ، واعطى عدة نصائح ملموسة لتحسين الدفاع فى الاتجاهات الاساسية حيث يتوقع هجوم الدبابات وتنظيم

التعاون لدى الهجمات المضادة والضربات المضادة فى حالة اختراق العدو دفاعنا .

بعد ذهاب سوكولوفسكى شاطرنى جوكوف بثقة افكاره حول تقدم العدو المستمر فى جنوب البلاد . وقال اننا جميعا ادركنا بصورة متأخرة جدا الخطر الكبير الذى نشأ فى الاتجاه الجنوبى الغربى ، وبالنتيجة لم يتسن فى الوقت المناسب توجيه الاحتياطيات الضرورية الى هناك لصد ضربة العدو القوية . لقد بدئ بارسالها فى خلال المعارك الدفاعية الطاحنة ، ولكن القوات لم تكن تتمكن ، كقاعدة عامة ، من الوصول الى المناطق المعينة فى الوقت المناسب ، فكانت تدخل المعارك على حدة . واختتم حديثه قائلا ان من دواعى السرور على اى حال انه احبطت خطة القيادة الهتلرية لتحطيم جبهة بريانسك ، ومن ثم تطويق قوات الجبهتين الجنوبية-الغربية والجنوبية ، وانه تسنى للقيادة العليا حتى اليوم ارسال احتياطيات ستراتيجية كبرى الى منطقة ستالينغراد قادرة على وقف هجوم القوات الفاشية المندفعة نحو الفولغا . وقال جوكوف فى الختام :

– انا واثق بان العدو لن يفلح قرب ستالينغراد ، وهذه الثقة نابعة من تجربة الصراع على لينينغراد وموسكو . بواسطة شعبنا وجنديا يمكن زحزحة الجبال حقا . نحن ، القادة ، تنقصنا احيانا التجربة ومعرفة التنبؤ بمجرى الاحداث .

انتهزت المزاج الحسن للقائد ووجود وقت فراغ عنده الى هذا الحد او ذاك ، وطلبت منه ان يشاطرنى انطباعاته حول معركتى لينينغراد وموسكو . حدثنى باسلوبه المقتضب ، او بالاحرى باسلوبه المجازى الشعبى ، عن تلك الاحداث المعروفة الان جيدا بعد صدور كتابه الشهير .

لم يكن عندنا زمن الحرب سوى امكانات قليلة لتبادل التجربة ، فكنت اتصيد كل كلمة . وتجلت عظمة نفس القائد ايضا فى كونه تحدث اقل ما يكون عن نفسه وعن مآثره ، وتحدث اكثر ما يكون عن اللينينغراديين والموسكوفيين ، وعن الجندى السوفييتى . وتحدث جوكوف عن قراراته واعماله وكأنما اى قائد آخر فى مكانه كان سيفعل الامر نفسه . وكنت افهم ان اكثر الاوضاع تشابكا وتناقضا عبارة عن كتاب مفتوح بالنسبة اليه يقرأه بسهولة فتظهر القرارات الصحيحة وكأنما من تلقاء ذاتها . اننى ، وقد نظرت اليه بامعان ،

اعجبت بوجهه وكأننى أرى لاول مرة جبهته الضخمة ، جبهة المفكر .

هذا اللقاء مع جوكوف لم يغادر ذهنى حينما قفلت عائدا على طائرتى الواهية «او – ٢» الى مقر قيادة الجيش ، وبقى عالقا فى ذاكرتى مدى الحياة .

فى ذلك الوقت العصيب بالنسبة الى ستالينغراد امرت القيادة العليا باجراء عمليات هجومية جزئية فى الاتجاه الغربى لتقييد احتياطيات العدو وعدم السماح له بقذفها الى ما بين نهرى الدون والفولغا . ولهذا بدأت الجيوش العاشر والسادس عشر والحادى والستون على جناح الجبهة الايسر هجوما من موقع كيروف وبولوخوف الى بريانسك . وفى منطقة بوغوريلويه غورورديشى ، فى الجهة اليمنى ، شن الجيش العشرون ، بالتعاون مع الجناح الايسر لجبهة كالينين ، هجوما فى آب (اغسطس) بهدف تحطيم القوات الالمانية فى منطقة سيتشوفكا ورجيف .

حينما اخترقت الجبهة الالمانية ووصلت جيوشنا الى الخط الحديدى رجيف – فيازما ، اوقف هجوم قوات الجبهة الغربية . وبقيت رجيف فى يد العدو ، وفى ١١ آب شن العدو بدوره هجوما بتجمع كبير من القوات على جناح الجبهة الايسر . وكانت نية القيادة الهتلرية بخطوطها العريضة تتلخص فى القيام فى المرحلة الاولى من العملية بخرق جبهة دفاع الجيش الحادى والستين فى وسطها بضربة قوية ، ومن ثم شن هجوم عاصف بقوى ضخمة وعدد كبير من الدبابات والطائرات على سوخينيتشى ، والوصول الى جانب الجيش السادس عشر ومؤخرته العميقة وتحطيم تجمعه الرئيسى . اما الهدف النهائى لعملية العدو هذه فكان خلق تهديد جدى جدا للجناح الايسر لقوات الجبهة الغربية حتى لا تستطيع القيادة السوفييتية سحب قوى كبيرة من هناك للمساهمة فى معركة ستالينغراد . وفى ذلك الحين عانت قواتنا قرب ستالينغراد توترا شديدا ، حيث جرت هناك الاحداث الرئيسية للحرب . وللقيام بهذه العملية استخدم العدو ، كما اتضح فيما بعد ، ما مجموعه خمس عشرة فرقة ، بينها خمس فرق مدرعة تملك حتى ٥٠٠ دبابة . ودعمت الهجوم مجموعة قوية من الطائرات .

اتخذت بصفتى قائد قوات الجيش اجراءات لصد الخطر الداهم . ان جوكوف بما عرف عنه من صلابة وصرامة ، وجه بمهارة جهود الجيش والاحتياطيات التى وصلت . وقبل ١٨ آب (اغسطس) كان

التجمع الضارب للقوات الالمانية الفاشية قد اصابه وهن شديد . ان القيادة المعادية ، وقد فقدت عشرة آلاف شخص من القتلى فقط واكثر من ٣٠٠ دبابة ، تخلت نهائيا عن متابعة الهجوم . وعلاوة على ذلك ، اضطرت القيادة الالمانية ، لوقف ضربة قوات الجبهة الغربية ، الى ان ترسل بسرعة الى هناك عدة فرق مخصصة لتطوير الهجوم فى اتجاهى ستالينغراد والقفقاس .

كتب الجنرال الالمانى تيبيلسكيرخ ، مذكرا باحداث القتال فى منطقة سيتشوفكا ورجيف : «لم يتسن درء الاختراق الا بابقاء ثلاث فرق للدبابات وعدة فرق للمشاة كانت قد اعدت لقذفها الى الجبهة الجنوبية ، واستخدامها فى البداية لحصر الاختراق ، ومن ثم للهجوم المضاد» .

يقول جوكوف فى كتابه : «لو كان تحت تصرفنا جيش او جيشان لأمكن بالتعاون مع جبهة كالينين . . . لا تحطيم تجمع رجيف فحسب ، بل وكل تجمع القوات الالمانية فى رجيف– فيازما وتحسين الوضع العام كثيرا فى كل الاتجاه الستراتيجى الغربى . وللاسف ، فقد فرطت القيادة العليا بهذه الامكانية . وينبغى القول ، اجمالا ، ان القائد الاعلى ادرك ان الوضع غير المواتى الذى نشأ فى صيف عام ١٩٤٢ هو ايضا نتيجة لخطئه الشخصى الذى ارتكبه لدى اقرار خطة اعمال قواتنا فى حملة صيف عام ١٩٤٢ . وهو لم يبحث عن مذنبين آخرين بين اشخاص القيادة والاركان العامة» .

فى اواخر آب (اغسطس) استدعى جوكوف الى موسكو وعين نائبا للقائد الاعلى . وقد ذهب الى منطقة ستالينغراد التى تعقد فيها الوضع اكثر فاكثر . ووصل بدلا منه الى الجبهة الغربية الجنرال كولونيل ايفان كونيف .

وفرت لى اللقاءات المتكررة فى الوضع القتالى امكان التماس عن قرب مع اشهر اثنين من قوادنا فى ذلك الحين : جوكوف وكونيف . وقد كان كلاهما شيوعيا حقيقيا وممثلا نموذجيا للشعب الروسى الكادح ومتحدرا من اعمق اعماقه . وكان كلاهما يتسم بالتفكير السديد والطبع الصلب والصرامة والعدل . وكانت حياتهما فى الجيش متشابهة ايضا ، اذ ان كلا من جوكوف وكونيف قاد الافواج امدا طويلا ، ثم التشكيلات الكبرى للقوات ، وانهى بنجاح جملة من المؤسسات الدراسية العسكرية . ولكن كانت هناك ، طبعا ، فوارق معينة فى

اسلوب وطرق عملهما ، اذ ان كل شخصية هى شىء مميز لا يتكرر .

كان نشاط جوكوف كبيرا قرب ستالينغراد ، اذ ان قوات جبهة ستالينغراد اعاقت حرية المناورة لجيش باولوس السادس بضربات قوية متواصلة الى جناحه الشمالى ، وهذا ما حرم العدو من امكان الانقضاض بكل قواه على جبهتنا الجنوبية الشرقية التى كانت تدافع عن ستالينغراد . ولكن هذه الضربات لم تؤد ، ولم تكن لتستطيع ان تؤدى الى تغير جذرى للوضع ، لانها كانت موجهة الى تجمع معاد متماسك ومتخم بالمدفعية والدبابات . وتوصل جوكوف وفاسيليفسكى الى فكرة ضرورة البحث عن النجاح فى اجنحة ستالينغراد البعيدة ، حيث كان يعمل حلفاء الجيش الالمانى (التشكيلات الرومانية والايطالية) . وانفتح افق الضغط بطوق حديدى على جيش الميدان السادس وجيش الدبابات الرابع للعدو اللذين كانا يسعيان بعناد اعمى الى الاستيلاء على ستالينغراد تماما . وكما هو معروف ، فان نائب القائد الاعلى ورئيس الاركان العامة عرضا فى اواسط ايلول (سبتمبر) هذا الاقتراح على ستالين .

وقد اقر بعد تبادل الاراء ، وبدأ اعداد خطة الهجوم المضاد فى ستالينغراد الذى ساهم فيه بعد ذلك عدد كبير من القادة . ان التنفيذ الماهر لهذه الخطة ادى الى نتائج تاريخية حقا ، الى تطويق وتحطيم كامل لتجمع ضارب قوى للقوات الفاشية الالمانية قرب ستالينغراد . وقلد غيورغى جوكوف لقاء قسطه الوافر فى ملحمة ستالينغراد وسام سوفوروف من الدرجة الاولى الذى انشئ لتوه (الوسام رقم ١) . ومنح فى الوقت نفسه رتبة مارشال الاتحاد السوفييتى .

فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٣ نسق جوكوف بمهارة اعمال جبهتى لينينغراد وفولخوف اللتين نفذتا عملية «الشرارة» الشهيرة التى تم نتيجة لنجاحها اختراق حصار لينينغراد .

فى صيف عام ١٩٤٣ اسعدنى الحظ بان اساهم انشط مساهمة فى اعداد وتنفيذ خطة اعمال الجبهة الغربية فى الهجوم المضاد قرب اوريول . وادى غيورغى جوكوف قسطا جوهريا فى تخطيط حملة صيف عام ١٩٤٣ ، وفى معركة كورسك التى انتهت بنصر رائع .

فى ربيع عام ١٩٤٣ اتى جوكوف الى منطقة نتوء كورسك ودرس بامعان وحلل بعمق مع قيادة الجبهات الواقعة هناك حالة القوات

السوفييتية والمعطيات عن العدو ، ثم قدم تقريرا الى القيادة العليا فى ٨ نيسان (ابريل) توصل فيه الى استنتاجات صحيحة حول نوايا القيادة الفاشية ، وتقدم باقتراح ملموس حول خطة اعمال الطرف السوفييتى فى صيف عام ١٩٤٣ . كتب الى القيادة :

«يبدو ان العدو ، وقد حشد حدا اقصى من قواه ، بما فى ذلك عدد من فرق الدبابات يصل الى ١٣–١٥ فرقة ، سيوجه فى المرحلة الاولى بدعمه عدد كبير من الطائرات ضربة بواسطة تجمعه فى اوريول – كرومى من الشمال الشرقى بالالتفاف على كورسك ، وبواسطة تجمع بيلغورود – خاركوف من الجنوب الشرقى بالالتفاف على كورسك . . .» وكتب بعد ذلك : «من المتوقع ان العدو فى هذه السنة سوف يعول بصورة اساسية لدى العمليات الهجومية على فرقه المدرعة وطيرانه ، لان استعداد مشاته للهجوم اضعف بكثير مما فى السنة السابقة» . فى تلك الظروف اعتبر جوكوف ان من غير المجدى انتقال قواتنا الى الهجوم بهدف استباق العدو . «سيكون من الافضل اذا انهكنا العدو فى دفاعنا وحطمنا دباباته ، ومن ثم ، اذ نزج باحتياطيات جديدة ، نحطم تجمع العدو الاساسى نهائيا بالانتقال الى الهجوم العام» . هذه التصورات كانت تتفق من حيث الاساس ورأى الاركان العامة .

فى ١٢ نيسان (ابريل) عقد اجتماع فى القيادة العليا اتخذ فيه قرار تمهيدى حول الدفاع المتعمد .

فى خلال معركة كورسك التاريخية اسعدنى الحظ مجددا بلقاء جوكوف .

زار غيورغى جوكوف فى اواخر حزيران (يونيو) جيشنا الذى كان قد تحول قبل ذلك بامد قصير الى جيش الحرس الحادى عشر . وتوفرت لى الفرصة لكى اهنئه شخصيا بمنحه اعلى رتبة عسكرية ، مارشال الاتحاد السوفييتى .

فى ذلك الوقت كان فى اركان الجيش الجنرال سوكولوفسكى الذى اصبح قائدا للجبهة الغربية ، والجنرال بولغانين عضو مجلس الجبهة العسكرى ، والجنرال فورونوف قائد مدفعية الجيش الاحمر ، والجنرال غولوفانوف قائد طيران التحليقات البعيدة . اطلع جوكوف بتفصيل شديد على الخطة التى وضعناها لتنظيم خرق دفاع العدو وتصوراتنا لتطوير النجاح بقوى فيلقى الجنرالين ساخنو وبوتكوف

للدبابات . وشاطرنا بطيبة خاطر تجربته فى تنظيم العمليات الهجومية ، ولفت انظارنا الى الاساليب التكتيكية المفضلة للقيادة الالمانية ، وباختصار ، ساعدتنا ارشاداته ونصائحه كثيرا على تحسين خطة العمليات التى وضعناها .

عرض الفريق سيميونوف قائد مدفعية الجيش على المارشال مسائل استخدام المدفعية فى القتال لدى خرق دفاع العدو . استمع جوكوف اليه باستحسان ، وكان يبدو ان خطة الهجوم المدفعى تعجبه ايضا . وفجأة لمعت عيناه لحظة وكتب فى مفكرته عدة كلمات بخطه العريض . وفهمت ان فكرة جديدة ظهرت عنده . وبالفعل ، اقترح جوكوف مفاجأة الالمان : عدم البدء بهجوم المشاة والدبابات بعد انتهاء الضرب التمهيدى بالمدفعية ، كما كان يجرى الان ، بل فى خلال القصف التمهيدى ، فى لحظة اشتداد وتيرته وقوته ، لوضع الصعوبات فى وجه الاستعداد لصد ضربتنا .

هذا الاقتراح لقى وقعا حسنا فى نفوسنا جميعا ، بما فى ذلك الجنرال فورونوف . وادخل مدفعيونا التغييرات اللازمة فى خطتهم ونسقوها مع قادة فرق وفيالق المشاة . وقد برهن هذا الابتكار عن جدارته تماما واثار لدى العدو ، كما بين الاسرى ، ارتباكا ، بل وذعرا فى بعض المواقع .

واذ غادر جوكوف الجيش ، حذرنا من ان القوات الالمانية الفاشية ستنتقل فى الايام القريبة القادمة ، حسب كل المعطيات ، الى الهجوم على الجبهة الوسطى وجبهة فورونيج اللتين تحميان نتوء كورسك . وطلب من سوكولوفسكى ومنى اتخاذ كل الاجراءات من اجل زيادة استعداد قوات الجيش لاحقا للانتقال الى الهجوم .

ولم ينسنا المارشال فى خلال العملية ايضا . اتذكر برقيته الى سوكولوفسكى الذى كان يوم بداية الهجوم فى مقر قيادة جيشنا الحادى عشر : «توجيه اهتمام خاص الى اشراك فيالق الدبابات فى الاختراق فى الوقت المناسب ، واتخاذ كل الاجراءات حتى لا يحصل اى تأخير» .

واتذكر ان سوكولوفسكى قال فى هذا الصدد ان نائب القائد الاعلى يقرأ افكارنا .

وفحوى الامر انه كان قبل ذلك بفترة ١٠ دقائق او ١٥ دقيقة قد اعطى امرا للدبابات فى هذا الخصوص .

لقد علق فى ذاكرتى يومان فى اواخر تموز (يوليو) عام ١٩٤٣ .

فى يوم الثامن والعشرين جرى حديث مع القائد الاعلى بواسطة تلفون التوتر العالى . وقد اعرب عن ارتياحه لاعمال الجيش فى عملية اوريول وخصص لنا امدادا كبيرا لدعم الهجوم . وفى يوم التاسع والعشرين طرت الى الفيلق السادس عشر الذى كان يصد هجوم العدو المضاد . ما زالت الدبابات الالمانية المدمرة تحترق فى ميدان القتال ، وكانت وحدات فرقة المشاة الحادية عشرة تقاتل ببسالة ومهارة دبابات فرقة الاس اس الشهيرة «المانيا العظمى» .

ما ان عدت الى مركز قيادة الفيلق حتى سمعت جرس التلفون . ناولنى الجنرال فيديونكين آمر الفيلق السماعة . ابلغنى الجنرال كوليكوف عضو المجلس العسكرى للجيش باضطراب ملحوظ ان المارشال جوكوف قدم الى مقر قيادتنا فى مينينو ويطلب منى العودة فورا الى مقر قيادة الجيش .

حينما وصلت الى مينينو بالطائرة ادركت ان جوكوف متعكر المزاج بوضوح . وتبدد مزاجى الحسن الذى احدثه اطراء القائد الاعلى ووعده بارسال الامداد . وبعد ان سلم المارشال بجفاء ، قال بحدة :

– كيف اقنعت ، يا ايفان خريستوفوروفيتش ، وانت الجنرال الضليع ، قائد جبهتكم فاسيلى سوكولوفسكى باتخاذ قرار خاطئ بشكل واضح ، وهو ان يضع جيش الدبابات الرابع فى اتجاه بولخوف غير المواتى لعمل الدبابات المكثف ، لا فى اتجاه خاتينيتس ، حيث يمكن بوضوح تحقيق نجاحات اكبر بكثير . نحن فى السنة الثالثة من الحرب ، وقد آن الاوان لتعلم الحرب وصيانة الناس والعتاد !

ولاسفى الشديد كان الجنرال سوكولوفسكى لحظة ظهور جوكوف فى مركز القيادة فى مينينو قد ذهب الى جناح الجبهة الايمن ليقود التجمع الرئيسى فى عملية سمولينسك الهجومية التى يجرى اعدادها . فى حين كان ممثل القيادة العليا يعتبر ان من واجبه ان يكشف فورا عن المذنب فى الحادثة المزعجة للغاية التى وقعت لدى زج جيش الدبابات الرابع فى المعركة .

ان غيورغى جوكوف المخلص لطبعه والذى لم يرجئ يوما الاحاديث الصعبة قد باغتنى ، اذ اتهمنى فجاة باننى المبادر الى الاستخدام الفاشل لجيش بادانوف للدبابات ، ولا سيما انه دخل المعركة فى موقع جيشى . قلت ان الامر ليس هكذا ، واننى فى الواقع

الححت على حل آخر ، على دخول الدبابات المعركة فى اتجاه خاتينيتس بالذات ، اذ كانت تستطيع فى هذه الحالة بالتعاون مع الجيش الحادى عشر الوصول الى المؤخرة البعيدة للتجمع الرئيسى للعدو فى اوريول . وكما كان متوقعا ، صدقنى جوكوف لانه كان يعرفنى منذ امد بعيد وبصورة جيدة . هذا بالاضافة الى اننى كنت قد اعدت بمبادرتى تجمع قوى الجيش الرئيسية ، حيث حولتها من اتجاه بولخوف الى اتجاه خاتينيتس .

ثم تحدثت عن شؤوننا بمزيد من التفصيل ، واطلعنى جوكوف بدوره على مسيرة الاعمال القتالية فى الجبهة الوسطى وجبهة فورونيج .

شارف النهار على الانتهاء ، وقد وافق جوكوف على ان يتعشى . حول المائدة اكتسب الحديث طابعا وديا . وما لبث ممثل القيادة العليا ان ذهب فى سيارة الى بادانوف . لا حاجة لان يكون المرء منجما حتى يدرك ان بادانوف سينال نصيبه من التوبيخ . وعلمت فيما بعد مدى رغبة جوكوف المخلصة فى تقديم المساعدة ، حيث تفقد ، مخاطرا بحياته ، اهم قطاعات جبهة هجوم جيش الدبابات الرابع .

بمناسبة هذه الحادثة لا بد من قول بضع كلمات عن اسلوب عمل جوكوف وعن علاقاته بمرؤوسيه .

ان المبدأ الرئيسى للعلاقات بين المرؤوسين والرئيس فى الجيش عامة ، وفى الحرب خاصة كان يتلخص فى ان الرئيس ، اذ يضع مهمة معقدة وصعبة فيها خطر على حياة الناس ، ينبغى له ان يقدم كتفيه ايضا ليحمل عبئا مساويا لذلك الذى اعده لمرؤوسيه ، او بالاحرى اكثر ثقلا منه . اما القرار الخاطئ ، غير المدروس ، الطائش الذى يتخذه الرئيس ، فانه يهدد بهدر لا طائل من ورائه لارواح المحاربين ، مواطنيه ورفاقه فى التفكير ، ويعرض للخطر ثمار جهد جهيد لالوف السوفييتيين .

ولهذا فان حزم الرئيس وصرامته القاسية امر ضرورى تماما . اما فى خصوص غيورغى جوكوف فقد كان شديدا وصارما الى اقصى حد ازاء نفسه قبل كل شىء . وينبغى ان اقول بصراحة انه كان يضع امام مرؤوسيه مطالب اخف وطأة من تلك التى يضعها امام نفسه . وكان جوكوف يعامل معاملة حسنة اولئك الذين يؤدون واجبهم ازاء

الوطن بمسؤولية حزبية حقيقية وغيرة عسكرية وكان يسعى الى تشجيعهم بتقديمهم الى مناصب ارفع ومنحهم رتبا عسكرية جديدة ومكافاتهم باطراء شحيح ، ولكنه عادل . اما الذين يبدون انعداما في المسؤولية والمقصورون من كل الاصناف ، ولا مبرر للكتمان ان امثال هؤلاء كانوا ، للاسف الشديد ، موجودين في صفوفنا ، فكان يقف منهم موقفا لا هوادة فيه حقا ، ويسمي الاشياء باسمائها بلا لف او دوران ، اذ لم يكن من عادته تمويه الحقائق المرة .

لا ينبغي نسيان ان الاختلافات الفردية في طبائع القادة امر لا مفر منه . ان اسلوب سلوك روكوسوفسكي ، مثلا ، كان يختلف عن اسلوب سلوك جوكوف . ولكن كونهما صديقين ، او بالاحرى متآخيين يشهد بحد ذاته على انه لم تكن بينهما خلافات مبدئية في تلك القضية الهامة ، قضية معاملة المرؤوسين .

وفيما بعد ، في معركة كورسك والمعركة من اجل الدنيبر ، نسق غيورغي جوكوف اعمال قوات جبهتي فورونيج والسهب والجبهة الجنوبية الغربية ، التي اصبحت لاحقا الجبهات الاوكرانية الاولى والثانية والثالثة على التوالي . واعمالها الناجحة افضل شهادة على نشاطه المثمر في تلك الفترة . ولقد ادى جوكوف قسطا وافرا في اعداد وتنفيذ الخطة الستراتيجية لحملة صيف عام ١٩٤٣ ، وكانت هذه الخطة مكونة من مجموعة كاملة من العمليات المتلاحقة التي كان كل منها ينطوي بدوره على مغزى عملياتي او ستراتيجي كبير . والان يعرف كل تلميذ ان انتصارنا في قوس كورسك قد وضع الجيش الالماني الفاشي ، حسب تعبير القائد الاعلى ، في مواجهة الكارثة .

كان مغزى المعركة من اجل الدنيبر كبيرا ايضا . في هذه المعركة الحقت القوات السوفييتية الهزيمة بالقوات الاساسية لمجموعة جيوش «الجنوب» الالمانية الفاشية ، وحررت اكثر من ٣٨ الف نقطة آهلة ، بينها ١٦٠ مدينة . وابدت القوات السوفييتية على الدنيبر بطولة جماعية ، ومنح ٢٤٣٨ جنديا وضابطا وجنرالا لقب بطل الاتحاد السوفييتي . ووفر الاستيلاء على رؤوس الجسور الستراتيجية على الدنيبر الظروف لتحرير بيلوروسيا وجزء اوكرانيا الواقع على الضفة اليمنى .

في ١ آذار (مارس) عام ١٩٤٤ تولى جوكوف في وضع معقد للغاية

قيادة قوات الجبهة الاوكرانية الاولى بعد مقتل جنرال الجيش فاتوتين ، وفي ٤ آذار (مارس) ١٩٤٤ استانفت قوات هذه الجبهة الهجوم واخترقت دفاع العدو ووصلت الى خط تيرنوبول – بروسكوروف حيث قطعت اهم مواصلات تجمع كبير حشدت فيه القيادة الفاشية خمس عشرة فرقة كاملة ضد الجبهة الاوكرانية الاولى . ونشبت معركة ضارية جدا . وحاول العدو حصر الاختراق وارجاع قواتنا الى الوضع الذي انطلقت منه ، ولكن في ٣١ آذار طوقته تشكيلات الجبهتين الاولى والثانية . ولم يتقلص عنف المعارك ، وعلى الرغم من انه لم تتم ابادة المطوقين تماما ، حررت قوات الجبهة ٥٧ مدينة اوكرانية ، بينها فينيتسا وبروسكوروف وتشيرنوفتسي ، ووصلت الى سفوح الكاربات . وبالنتيجة قسمت كل جبهة العدو الستراتيجية على الجناح الجنوبي من الجبهة السوفييتية – الالمانية الى جزئين منعزلين . وكان ذلك نجاحا كبيرا . وقلد الالوف من المحاربين جوائز حكومية رفيعة . ومنح جوكوف جائزة القادة العليا التي انشئت لتوها ، وسام «النصر» (الوسام رقم ١) .

سأتحدث الان عن اتصالاتي بغيورغي جوكوف لدى بحث القيادة العليا التمهيدي في العملية المشهورة التي كانت تهدف الى تحرير بيلوروسيا من الاحتلال الهتلري . وكانت هذه العملية معروفة بالاسم الرمزي «باغراتيون» .

في ٢٢ ايار (مايو) عام ١٩٤٤ استقبلني والجنرال ليونوف ، عضو المجلس العسكري لجبهة البلطيق الاولى ، التي كنت اقود قواتها منذ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٣ ، المارشالان جوكوف وفاسيليفسكي . وقد دعاني جوكوف الى الخريطة . توجه الي قائلا :

– بناء على فكرة العملية ، التي سوف نعرضها غدا بمساهمتك على القائد الاعلى ، ينبغي لجبهة البلطيق الاولى ان تخرق في مرحلتها الاولية بقوى الجيش الضارب الرابع وجيشي الحرس السادس والحادي عشر والجيش الثالث والاربعين وجيش الحرس المدرع الخامس جبهة العدو شمال غرب فيتيبسك ، وتعبر دفينا الغربي ، وتهجم متسترة من جهة بولوتسك بقوى رئيسية في اتجاه ليبيل ومولوديتشنو ، وبجزء من القوى على سينو بهدف تطويق وابادة

تجمع العدو فى منطقة فيتيبسك بالتعاون مع قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة . وجارك على اليسار مكلف بان يوجه بعد تحطيم تجمع منطقة فيتيبسك بالاشتراك مع قوات جبهة البلطيق الاولى وخرق دفاع العدو فى منطقة اورشا الجهود الرئيسية من اجل الوصول الى فيلنوس . فما رايك فى بناء العملية هذا ؟

اعربت عن ارتياحى العميق لجوهر الفكرة والاهداف الجريئة والحاسمة لهذه العملية الكبرى ، ولكن حيث ان جارنا على اليمين – جبهة البلطيق الثانية – لن يساهم فى الهجوم فى المرحلة الاولى من العملية ، فقد ابديت تخوفا على جناحى الايمن . اذ ان قوات جبهتنا لم تشرك فى تحطيم الجناح الشمالى لمجموعة جيوش «الوسط» فحسب ، بل وفى الالتفاف العميق من الجهة الشمالية الغربية على كل التجمع الاوسط للعدو فى بيلوروسيا . وقلت :

–فى هذه الحالة تستطيع مجموعة جيوش «الشمال» المعادية الجبارة توجيه ضربة قوية من الشمال الى جناح الجبهة المنتشر ومؤخرتها .

وهنا تجلت خاصية ملازمة لجوكوف فعلا ، وهى الانتقاد الذاتى ومعرفة التلقف الخاطف للبذرة العقلانية فى الاقتراحات ودعم مبادرة المرؤوسين السديدة . فقال :

– نعم ، خطر هذه الضربة واقعى تماما ، ولن تنتقل جبهة البلطيق الثانية الى الهجوم الا بعد ذلك بكثير . وسوف تكون يدا العدو فى البلطيق طليقتين لبعض الوقت ، وهذا ما ينبغى اخذه فى الحسبان . ماذا تقترح ؟

كان عندى رد جاهز على هذا السؤال . فاقترحت :

– بعد تطويق وتحطيم تجمع العدو فى منطقة فيتيبسك من المجدى تكليف الجناح الايمن لقوات جارنا فى اليسار ، الجبهة البيلوروسية الثالثة ، توجيه ضربة عميقة فى الاتجاه الجنوبى الغربى . اما الجهود الاساسية لجبهتنا فمن الافضل توجيهها الى الغرب مباشرة ، وذلك للمساهمة بالتعاون مع الجناح الايمن للجبهة البيلوروسية الثالثة مساهمة نشيطة فى تحطيم قوات مجموعة جيوش «الوسط» وفصلها فى الوقت نفسه عن الجناح الجنوبى لمجموعة جيوش «الشمال» .

بدأ تبادل نشيط للاراء . ان المارشالين جوكوف وفاسيليفسكى

وقد نظرا فى الاقتراح المقدم ، وعدا بدعمه لدى عرض الشكل النهائى لفكرة العملية على القائد الاعلى . وقد نفذا هذا الوعد . واكد تطور احداث القتال سداد اقتراحنا .

فى عملية «باغراتيون» نسق المارشال جوكوف اعمال قوات الجبهتين البيلوروسيتين الثانية والاولى ، وقبل انتهائها تحول الى الجناح الجنوبى للجبهة السوفييتية – الالمانية ، حيث بدأت القوات فى ذلك الوقت هجوما جبارا بهدف تحرير اوكرانيا تماما والانتقال الى اراضى بولندا وتشيكوسلوفاكيا . لقد جلبت حملة صيف وخريف عام ١٩٤٤ انتصارا رائعا الى الجيش الاحمر . وكوفئ غيورغى جوكوف على قسطه فى هذا الانتصار بتقليده لقب بطل الاتحاد السوفييتى وميدالية «النجمة الذهبية» للمرة الثانية .

فى المرحلة الاخيرة من الحرب قاد غيورغى جوكوف منذ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٤٤ الجبهة البيلوروسية الاولى التى اضطلعت باهم دور فى عمليتى فيسلا – اودير وبرلين .

ان عملية فيسلا – اودير للجبهتين البيلوروسية الاولى والاوكرانية الاولى قد اعدت فى امد قصير جدا ، لان الحلفاء الغربيين ، الذين تلقوا ضربة موجعة للغاية من الجيش الالمانى فى الآردين ، طلبوا مساعدة عاجلة . وفى خلال هذه العملية المندفعة والمتوترة جدا حرر الجيش الاحمر الجزء الاعظم من بولندا ، بما فى ذلك وارسو . وقد اظهرت قوى المدرعات والاليات الكبيرة فنا رفيعا فى المناورة . وبالنتيجة طوقت قوات الجبهة البيلوروسية الاولى تجمعات المانية ضخمة فى منطقتى بوزنان وشنيديميول ، وعبرت الفصائل الطليعية الاودير واستولت على رؤوس الجسور فى منطقة كينيتس ونوبيندورف وريفيلد . كان لظهور القوات السوفييتية على بعد ٧٠ كيلومترا فقط عن برلين وقع الصاعقة على الهتلريين وحكامهم المجرمين . ولقاء القيادة الناجحة للقوات قلد جوكوف فى ٣٠ آذار (مارس) عام ١٩٤٥ وسام «النصر» للمرة الثانية .

والاعظم من ذلك عملية برلين التى بدأت فى ١٦ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٥ .

لقد كتب عنها الكثير ، ولذا سأنوه بجانبين فقط . اولا ، واقع ان العدو دافع عن العاصمة بعناد متعصب تحت شعار «كانت برلين

المانية دائما وستبقى كذلك الى الابد !» . ان دعاية غوبلز ، التى لعبت بخسة على الشعور القومى للجنود الالمان وسكان برلين ، ولاسيما الشبيبة المتسممة بسم النازية ، اضطلعت بدور شنيع . وعلى الرغم من وضوح العقم الكامل للمقاومة ، قاتل العدو بضراوة وعناد لم يعهد لهما نظير من قبل . ثانيا ، ليس سرا ان الحلفاء الغربيين كان بودهم جدا ان يكونوا اول من يدخل برلين ، وان الهتلريين فتحوا لهم ، من حيث الجوهر ، الجبهة ، ناقلين كل قواتهم ضد جيشنا . ان المحاربين السوفييت ، وقد الهمتهم الافكار العظيمة للحزب اللينينى ، ابدوا فى هذه المعركة اقداما وتفانيا حقيقيين وبسالة وجرأة ، وكذلك مراسا عسكريا ومهارة قتالية . وصفاتهم هذه وجهها مجلس الجبهة العسكرى بقيادة جوكوف فى مجرى تنفيذ المهمة الستراتيجية المخطط لها . فقد كان واضحا للجميع ان السلام المنتظر سيحل مع سقوط برلين .

هل ثمة حاجة الى القول ان مواهب جوكوف التنظيمية وارادته التى لا تلين وقدرته على التنبؤ بتطور الاحداث اضطلعت باهم دور فى المعركة من اجل برلين . لقد دعم القائد بمهارة المزاج الابداعى الرفيع لدى قيادة الجبهة ، واعد العملية بدقة متناهية ، وغاص فى دقائق المسائل المبدئية . وقلد جوكوف ميدالية «النجمة الذهبية» للمرة الثالثة لقاء تنفيذه الرائع للعمليات الختامية للحرب الوطنية العظمى .

لقد ابرز الحزب والحكومة بشكل خاص دور جوكوف فى قضية الانتصار على الفاشية الهتلرية ، حيث كلفاه بتوقيع وثيقة استسلام المانيا بلا قيد او شرط . ان برلين التى استولت عليها قبل ذلك باسبوع قوات الجبهتين البيلوروسية والاوكرانية الاولى كانت ، بناء على المنطق والعدل ، مكان توقيع هذه الوثيقة التاريخية الفائقة الاهمية . ففى منتصف ليلة الثامن من ايار (مايو) دخل جوكوف والشخصيات الرسمية السوفييتية المرافقة له ، وكذلك الممثلون المفوضون للقيادة العليا الحليفة قاعة مزدانة باعلام الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا * . واحضر الى هناك

* كان يمثل قيادة الحلفاء العليا نائب ايزنهاور المارشال الرئيسى لطيران بريطانيا تيدير وقائد القوات الستراتيجية الجوية فى الولايات

رئيس الاركان السابق للقيادة الالمانية العليا الجنرال فيلدمارشال فيلهيلم كيتيل ، وكذلك قائدا القوات البحرية والجوية الفاشية ادميرال الاسطول فريديبورغ والجنرال كولونيل الجوى شتومبف .

افتتح المارشال جوكوف مراسيم توقيع الوثيقة . ورحب بممثلى القيادة الحليفة فى برلين التى استولت عليها القوات السوفييتية فى اللحظة التاريخية لاستسلام العدو المشترك ، المانيا الفاشية . وقال بمهابة :

– نحن ، ممثلى القيادة العليا للقوات المسلحة السوفييتية والقيادة العليا للقوات الحليفة مفوضون من حكومات الائتلاف المناهض للهتلرية بقبول استسلام المانيا بلا قيد او شرط .

ثم جرت مراسيم توقيع الوثيقة . وبعد ان خرج الوفد الالمانى من القاعة ، قال جوكوف ، متوجها الى زملائه :

– ايها الاصدقاء الاعزاء ، لقد حظينا واياكم بشرف عظيم . ان الشعب السوفييتى والحزب والحكومة عهدت الينا فى المعركة الختامية بقيادة القوات السوفييتية الباسلة الى الانقضاض على برلين . والقوات السوفييتية ، بمن فيها انتم ، الذين قمتم بقيادتها فى المعارك من اجل برلين ، قد بررت هذه الثقة بشرف . وآسف لان الكثيرين قد استشهدوا . فكم كان سيسعدهم هذا الانتصار المنتظر الذين وهبوا من اجله حياتهم بلا تردد ! . .

كتب جوكوف فى مذكراته :

«هؤلاء الناس ، وقد تذكروا اصدقاءهم ورفاقهم فى القتال الذين لم يتسن لهم ان يعيشوا حتى هذا اليوم السعيد ، لم يستطيعوا ، وهم الذين اعتادوا النظر الى الموت بدون اى ظل من الخوف ، ان يحبسوا دموعهم مع كل محاولاتهم ليتمالكوا انفسهم .

فى الساعة صفر والدقيقة ٥٠ من ٩ ايار ١٩٤٥ اغلقت الجلسة التى قبل فيها استسلام القوات المسلحة الالمانية بلا قيد او شرط .

ثم اقيم حفل استقبال جرى بحماسة كبيرة . . .

انتهى حفل العشاء صباحا باغان ورقص . فقد رقص الجنرالات السوفييت رقصا لا يشق له غبار . وانا ايضا لم اتمالك نفسى ، فرقصت ، متذكرا شبابى ، رقصة روسية» .

المتحدة الجنرال سباتس والقائد الاعلى لجيش فرنسا الجنرال دى لاتر دى تاسينيى .

فى هذه الحادثة يتجلى باسطع ما يكون كبر قلب القائد البارز وصلته الحميمة بشعبه .

لقد مثل غيورغى جوكوف بشرف دولتنا الاشتراكية فى خلال توقيع هذه الوثيقة التاريخية ، مبينا بانه ليس شخصية عسكرية بارزة فحسب ، بل رجل دولة ايضا . وليس من قبيل المصادفة ان يصبح اول قائد عام لمجموعة قوات الاحتلال السوفييتية فى المانيا وقائدا عاما للادارة العسكرية السوفييتية فى المانيا .

ساورد ايضا حادثة اخرى تعود الى الاشهر الاولى التى اعقبت الحرب وتتحدث سواء عن جوكوف نفسه ، او عن موقف ستالين منه . بعد ٩ ايار (مايو) ،حينما كنت اترأس بأمر من القيادة العليا قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة فى بروسيا الشرقية سابقا ، ما لبثت ان استدعيت الى موسكو . ذهبت من المطار الى رئيس الاركان العامة اليكسى انطونوف الذى قال ردا على سؤالى حول سبب استدعائى :

– قرر الرفيق ستالين ان يناقش مع قادة قوات الجبهات ورؤساء الدوائر المركزية لمفوضية الشعب للدفاع جملة من القضايا المرتبطة بنقل الجيش الى الحالة السلمية . وسيبدأ الاجتماع غدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا فى الكرملين . وسيقوده القائد الاعلى نفسه ، وسيساهم فى عمله اعضاء المكتب السياسى .

وصلت فى الوقت المحدد الى قاعة استقبال ستالين ، فرأيت هناك كل قادة الجبهات ومجموعة من جنرالات الجهاز المركزى لمفوضية الشعب للدفاع . بعد الجلسة الاولى شكلت من المساهمين فى الاجتماع لجنة لكل صنف من اصناف القوات . فمثلا ، كلفت بالبحث فى مصير الخيالة لجنة برئاسة بوديونى ، طبعا . بيد انه مرض فى عشية اليوم الذى كان ينبغى فيه الاستماع الى تقارير اللجان ، ولم يستطع التحدث فى الاجتماع . وكلفت انا بمهمة بوديونى ، على الرغم من اننى كنت اقود لجنة قوات الهندسة . وفى الجلسة التالية عرضت بايجاز حججا فى مصلحة الابقاء على نواة صغيرة للخيالة : اقترحت ابقاء فيلقى خيالة يضم كل منهما فرقتى خيالة ولواء دبابات . وكما كان متوقعا ، استقبل الكثيرون هذا الاقتراح على رؤوس الحراب . وكان

جوهر الاعتراضات يتلخص فى ما يلى : لقد مضى عهد الخيالة ، وهى فى عصر المحركات شىء من مخلفات الماضى .

ولقى اقتراحى دعما مفاجئا من ستالين وحده . نوه ، متوجها الى انصار حل تشكيلات الخيالة فورا :

– انتم ، ايها الرفاق ، مصيبون من حيث المبدأ ، بيد انكم لا تراعون واقع ان بلادنا شاسعة وتمتد حدودها عبر مختلف انواع الاراضى بحيث لا نستطيع الاستغناء عن الخيالة فى بعض منها .

صمت ستالين ، ثم سأل بابتسامة لا تكاد تلحظ انشط نصير لحل الخيالة :

– الست موافقا على هذا ، ايها الرفيق جوكوف ؟

لم يجب جوكوف فورا . ساد عدة لحظات سكون مطبق ، وكان جوكوف مقطبا حاجبيه من التفكير . واذ كنت اعرف طبع المارشال الصلب ، توقعت ان يعترض ، ولكنه قال بابتسامة خفيفة :

– موافق ، موافق تماما ، ايها الرفيق القائد الاعلى !

وقال ستالين بارتياح :

– حسنا ، طالما انك موافق ، فهذا معناه ان الجميع موافقون ، كما آمل ؟

اكدت همهمة استحسان كلامه . ان اقتراحات مختلف اللجان التى اقرت فى الاجتماع كانت الاساس للاجراءات التنظيمية اللاحقة المرتبطة بنقل الجيش الاحمر الى حالة زمن السلم .

اعتقد ان هذه الحادثة تتحدث باقناع عن موقف ستالين من جوكوف كانسان مبدئى لا يخاف من الاعراب عن رأيه حتى وان اختلف مع رأى القائد الاعلى . وهى تصف جوكوف نفسه كانسان استطاع ، رغم صلابة قناعاته وعزة نفسه ، تقبل الحجج المضادة ، ولم يكن ابدا معاندا يعتبر رأيه صحيحا لا يقبل المعارضة فى كل الظروف .

لقد ربى الحزب الكثير من القادة الموهوبين . وكان مارشال الاتحاد السوفييتى غيورغى قسطنطينوفيتش جوكوف ، ولا شك ، واحدا من ابرزهم .

وانا افخر بانه اسعدنى الحظ بان اعمل تحت قيادته واكون رفيقه فى ايام الدراسة زمن السلام ، وايام محن الحرب القاسية .

الكسندر فاسيليفسكى



اسست اكاديمية الاركان العامة فى صيف عام ١٩٣٦ . وكانت لجنة خاصة لمفوضية الشعب للدفاع قد قبلت عددا من مستمعى الدفعة الاولى بدون ان يقدموا طلبا يعرب عن رغبتهم فى الدراسة . وكنت انا والكسندر فاسيليفسكى فى عدادهم .

ابلغ المستمعون انهم يستطيعون الذهاب الى موسكو مع عائلاتهم . لم يكن تاهبنا انا وزوجتى للسفر طويلا . اذ كنا غالبا ما ننتقل من مكان الى آخر ، بحيث اعتدنا منذ امد طويل على حياة التنقل . وبعد بضعة ايام كانت الاسرة كلها على رصيف محطة كييف فى موسكو . استقبلنا جيدا ، واسكن المستمعون جميعا القسم الداخلى المريح للاكاديمية . اننا ، وقد اعتدنا على الحياة الريفية غير المريحة ، بدت لنا الظروف السكنية الجديدة فاخرة .

تعارفت والكسندر فاسيليفسكى فى احد الاجتماعات الاولى داخل الاكاديمية ، بعد ان ارتدينا بزة غريبة ، ولعلها فاقعة بعض الشىء .

لم يكن مستمعو واساتذة المؤسسة الدراسية الجديدة يرتدون الجزمات ، شان كل العسكريين فى ذلك الحين ، بل ابواطا . وكانت على سترهم ومعاطفهم ياقات مخملية سوداء بشريطة بيضاء ، وتوجد مثل هذه الشريطة على اطارات العمرات ، وبنطلوناتهم عند الساقين ذات اشرطة عريضة ، قرمزية اللون . قادنى احد اصدقائى الى عقيد ملفوف القوام ، طوله فوق المعتدل ، ذى شعر متموج وعينين بنيتين فاتحتين ، واسمه :

– الكسندر ميخايلوفيتش فاسيليفسكى .

تصافحنا بقوة ، وتابع صديقنا المشترك قائلا :

– وهو ايضا الكسندروف ، وهو فاسيلييف ، وهو ميخايلوف .

لم ادرك فورا انها كلها اسماء مستعارة كان الكسندر ميخايلوفيتش ينشر بها مقالاته فى مجلة «فوينى فيستنيك» . وكانت تتحدث عن القضايا الحيوية لتعليم القوات وتربيتها ، وقد قراتها باهتمام كبير .

منذ لحظة تعرفى بفاسيليفسكى حتى آخر يوم فى حياته لم يغب عن ناظرى ابدا . فقد درسنا فى الاكاديمية معا ، ومع اننا كنا فى مجموعتين مختلفتين ، الا انى كنت اسمع بنجاحات فاسيليفسكى فى الدراسة . كان يدرس بشكل ممتاز ، الامر الذى ساعد عليه بدرجة لا يستهان بها اعداده الثقافى العام والعسكرى الجيد ومواظبته وذاكرته الفذة وقدراته المتنوعة .

كان برنامج الاكاديمية مبنيا بحيث يعطى المستمعين فى غضون سنتين حدا اقصى من المعارف الضرورية للسلك القيادى الاعلى . وكانت الفلسفة الماركسية – اللينينية وتكتيك التشكيلات العليا وفن العمليات هى المواد الاساسية . وكان يخصص حيز هام لدراسة مسائل تنظيم القوات وتعبئتها والاقتصاد العسكرى وتاريخ الفن العسكرى ، وكذلك اللغات الاجنبية من بين المواد الثقافية العامة .

وفى رحلاتنا الى اسطولى البلطيق والبحر الاسود صيفا اطلعنا على السفن والغواصات ، وكذلك على احدى قواعد الاسطول البحرية – العسكرية الرئيسية : على بنيتها وتنظيم ادارتها ، وعلى الدفاع الجوى .

فى اواخر آب (اغسطس) عام ١٩٣٧ ترأس فاسيليفسكى

كرسى المؤخرة فى الاكاديمية . ولكنه لم يبق فى الاكاديمية طويلا . اذ ما لبث ان عين فى الاركان العامة رئيسا لقسم تدريب السلك القيادى الاعلى على العمليات . واليكم ما يكتبه فاسيليفسكى نفسه فى هذا الصدد : «وهكذا بدأ فى تشرين الاول ١٩٣٧ عملى فى الاركان العامة للجيش الاحمر . وحينذاك لم اكن اعرف ، طبعا ، انه قد قدر لى ان امضى فى الاركان العامة جملة من السنين الحافلة بالعمل المعقد ، اصعب عمل فى حياتى» .

فى عام ١٩٣٩ عين فاسيليفسكى فى الوقت نفسه نائبا لرئيس ادارة العمليات فى الاركان العامة ، وفى ايار (مايو) عام ١٩٤٠ اصبح نائبا ضمن الملاك لرئيس ادارة العمليات فى الاركان العامة . وفى سنوات ما بين الحربين ساهم فاسيليفسكى مباشرة فى قيادة القوات ابان المعارك على بحيرة خاسان وفى المرحلة الاخيرة من الحرب السوفييتية – الفنلندية .

منذ مستهل عام ١٩٤١ باشرت القيادة الفاشية فى المانيا حشد قواتها فى مناطق الحدود المتاخمة لبلادنا . وبدأت المعلومات حول هذا الامر تتوارد الى الاركان العامة . وفى هذا الخصوص اضطرت ادارة العمليات الى ان تعكف بتوتر شديد على تطوير الخطة التى اعدت سابقا لتركيز وحشد الجيش الاحمر لصد الضربة من الغرب . واشير فى هذا الصدد الى ان العمليات القتالية ستبدأ على الارجح بصد ضربات المعتدين وتسفر عن مجابهة للقوات الجوية . وسوف يسعى العدو الى تدمير مطاراتنا والحاق اكبر هزيمة ممكنة بالقوات البرية ، ولا سيما قوات المدرعات ، وتعطيل الخطوط الحديدية . واقرت جملة من الاجراءات المضادة لاحباط نيات العدو فى الفترة الاولى من الحرب . وبايعاز من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى بدأ منذ اواسط ايار نقل الجيوش ، قرابة ٣٠ فرقة من المناطق الداخلية الى مناطق الحدود . بيد انه لم يتسن ، كما هو معروف ، تحقيق كل ما خطط له .

وكما تحدث فاسيليفسكى فيما بعد ، فقد لزم كل العاملين فى ادارة العمليات مواقعهم باستمرار منذ اواسط حزيران (يونيو) بدون اى امر من الاعلى . وفى الساعة الواحدة من ليلة ٢٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٤١ نقل بصورة عاجلة تحت قيادة فاسيليفسكى امر

الى مناطق الحدود يشير الى احتمال هجوم مفاجئ للقوات الالمانية فى ٢٢–٢٣ حزيران (يونيو) . وطلب الأمر وضع كل الوحدات فى حالة استعداد .

ومع بداية الحرب كان ينبغى ، كما قال فاسيليفسكى فى احد الاحاديث ، العمل بتوتر خارق على امتداد ايام باكملها دون الابتعاد عن وثائق العمليات ، مع تحليل الوضع الناشئ فى الجبهة واعداد الاقتراحات لرئيس الاركان العامة . ولكن الاركان العامة لم تكن قادرة حينذاك على حل كل ذلك الحشد من القضايا التى كانت تواجهها .

فى ٣٠ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ اصبح شابوشنيكوف رئيسا للاركان العامة ، وبعد يومين ، فى ١ آب (اغسطس) ، عين فاسيليفسكى نائبا لرئيس الاركان العامة – رئيسا لادارة العمليات . وكان يستدعى مع شابوشنيكوف او وحده الى القيادة عدة مرات فى اليوم .

بعد الاختراق الذى قامت به القوات الفاشية – الالمانية قرب فيازما اتخذت لجنة الدولة للدفاع فى ٥ تشرين الاول (اكتوبر) قرارا خاصا حول تنظيم الدفاع عن العاصمة . وذهب الى منطقة غجاتسك وموجايسك عضوا لجنة الحزب المركزية فوروشيلوف ومولوتوف ، وتوجه معهما بمثابة ممثل للقيادة العليا فاسيليفسكى مع مجموعة من ضباط الاركان العامة . وكانت مهمته تتلخص فى المساعدة على توضيح الوضع باكمل صورة ممكنة والتوصية باجراءات ملموسة لصد ضربات العدو . وكان على صلة دائمة بستالين ، وفى احد الاحاديث تقدم باقتراح توحيد الجبهتين الغربية والاحتياطية . ووافق ستالين على التوصية . وعين جوكوف قائدا للجبهة الغربية الموحدة .

بدأت الاتصالات بينى وبين فاسيليفسكى منذ الايام الاولى للحرب ، ولا سيما لدى تقديم التقارير بالتلفون او جهاز بودو . وانا اتذكر دوما اللهجة الودية ، العملية لهذه المكالمات . كانت المعلومات عن الوضع حينذاك شحيحة للغاية ، وكنا نجمعها بصعوبة كبيرة . ولكنى كنت اشعر بان فاسيليفسكى كان مسرورا بهذه المعطيات . اذ كان تفكيره التحليلى يحول المعطيات المتناثرة التى يحصل عليها من مختلف الجبهات ومن مختلف المصادر الى نظام

متسق . كان يتصور اللوحة العامة بوضوح ويستطيع رسمها بصورة كاملة . واتذكر بشكل خاص مكالماتى مع فاسيليفسكى ، حينما تلفن بتكليف من القائد الاعلى الى اركان جهتنا الجنوبية الغربية لينقل أمر القيادة بارسال فيلق الخيالة الثانى الى موسكو . قال باضطراب :

– القائد الاعلى يعرف ان هذا سيكون تضحية كبيرة من جانب الجهة الجنوبية – الغربية ، ولكنه طلب الاقدام على هذا .

حذرنا من انه لا توجد قطارات شاغرة . وعرض فاسيليفسكى هذا على القائد الاعلى . وانتظرنا الجواب على امل ان تترك القيادة الفيلق فى مكانه . ولكن ما لبث فاسيليفسكى ان استدعى بودين رئيس اركان الجهة الجنوبية – الغربية : «ارجو تلقى ونقل جواب الرفيق ستالين الى القائد العام : «سيتم تسليم القطارات . اصدروا أمرا بتحميل الفيلق . سيتم تعزيز الفيلق فى موسكو» .

اشرف فاسيليفسكى على ارسال القطارات ، فوصلت الامدادات فى الوقت المناسب . ان فيلق الجنرال بيلوف ، الذى اعيد تزويده ، اضطلع ، كما هو معروف ، بدور جوهرى فى تحطيم الهتلريين قرب موسكو .

ان دور فاسيليفسكى فى المعركة قرب موسكو هام جدا اجمالا . اذ ان رد فعل نائب رئيس الاركان العامة السريع على اقتراحات قائد قوات الجبهة الغربية جوكوف ودعمها بالحجج لدى تقديم التقارير الى ستالين اضطلعا بدور جوهرى فى زيادة رسوخ الدفاع عن العاصمة وفى تنظيم الهجوم المظفر اللاحق .

ان تفاقم الوضع اقتضى ضرورة تقسيم جهاز الاركان العامة الى نسقين . احدهما ، بقيادة شابوشنيكوف ، ذهب بأمر من القيادة العليا الى خارج تخوم موسكو من اجل الاستعداد لقيادة قوات الجيش العامل وذلك فى جو اكثر هدوءا . وبقى فى موسكو عدد اقل (تسعة اشخاص) من اجل العمل مع القيادة العليا مباشرة . وقد ترأسهم فاسيليفسكى . واصبح مساعدا مباشرا للقائد الاعلى فى قيادة الاعمال العسكرية لدى الدفاع عن موسكو . وكما قال لى جوكوف فى حينه ، فان هذا الامر اضطلع بدور لا يستهان به ، لأنه كان يتفاهم مع فاسيليفسكى بالايماءة والاشارة ، ولأن الاخير كان اجرأ لدى مناقشة مسائل العمليات مع القائد الاعلى .

سأذكر ما حييت المحادثات مع فاسيليفسكى فى فترة التخطيط والاستعداد لعملية روستوف الهجومية التى جرت بمساهمتى .

بعد ان عرضت فكرة اجرائها على مارشال الاتحاد السوفييتى تيموشينكو القائد العام للاتجاه الجنوبى الغربى ، فهم نائب رئيس الاركان العامة بسرعة مدهشة كل الفوائد التى تبشر بها الضربة الموجهة الى روستوف فى تلك الظروف . واستطاع فاسيليفسكى اقناع القائد الاعلى بضرورة تنفيذ هذه العملية الجريئة وساعدنا على ايجاد الامدادات الضرورية للاتجاه الجنوبى الغربى من تحت الارض ، كما يقال .

حينما اعدت القيادة العليا خطة الهجوم المضاد قرب موسكو ، ساهم فاسيليفسكى فى هذا مساهمة مباشرة . ان قوات الجيش الالمانى التى هجمت على موسكو انتشرت على جبهة واسعة ، ولكن لم يسعفها الوقت لتعزيز مواقعها . اما قواتنا الاحتياطية فتسنى حشدها سرا . وكانت فكرة الهجوم المضاد تتلخص فى تحطيم تجمعات العدو الضاربة بضربات من الجناحين الايمن والايسر للجبهة الغربية بالتعاون مع قوات جبهة كالينين والجبهة الجنوبية الغربية . وعين دور اساسى للجبهة الغربية . وقد نظرت القيادة العليا بسرعة فى اقتراحات قيادة واركان جبهتنا الجنوبية – الغربية حول الهجوم المضاد بقوى الجناح الايمن واقرتها . وتمت دراسة الوثائق فى هذا الخصوص والموافقة عليها فى خلال يوم واحد ، يوم ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) . وفى ليلة ١ كانون الاول (ديسمبر) صدر الأمر الى جبهة كالينين ، وفى النهار (١ كانون الاول / ديسمبر) الى الجبهة الغربية .

وهذه الوثائق كلها وقعها ستالين وفاسيليفسكى .

ان فكرة قيادة جبهتنا الجنوبية – الغربية قد ارضت تماما القيادة العليا والقائم باعمال رئيس الاركان العامة . ولكن ادخلت تعديلات جوهرية على قرار جبهة كالينين . وفى عشية ٥ كانون الاول (ديسمبر) ذهب فاسيليفسكى الى مقر قيادة الجبهة ، وأصر باسم القيادة العليا على اجراء العملية بكل ابعادها ، وتتبع اعمال الجبهة باستمرار . ففى ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ، مثلا ، نبه القائد العام تيموشينكو الى ان الجناح الايمن للجبهة الجنوبية – الغربية

متخلف عن الجناح الايسر للجبهة الغربية . وبالفعل ، فان مجموعة قوات الجنرال كوستينكو ، الذى كنت رئيسا لاركانها التى شكلت على عجل ، كانت قد انطلقت بعيدا ، فى حين كان جيشنا الثالث متخلفا بعض الشىء عن الجيش العاشر للجبهة الغربية .

ان فاسيليفسكى ، اذ حلل مقدمات نجاح الهجوم المضاد قرب موسكو ، تحدث قبل كل شىء عن أن الوقت مناسب لجمع الاحتياطيات الستراتيجية ، وعن جدوى هذا الأمر . كتب فاسيليفسكى : «ينبغى القول مباشرة أن القيادة العليا ، رغم الوضع الصعب ، والحرج احيانا فى ايام الدفاع البطولى عن موسكو ، ابدت رباطة جاش وارادة ، اذ ابقت الاحتياطات الستراتيجية ، التى حركت الى منطقة موسكو ، من اجل انتقال الجيش الاحمر الى الهجوم المضاد الحاسم . ان تجربة معركة موسكو فى استخدام احتياطيات القيادة العليا حافلة بالدروس» .

من الواضح أن فاسيليفسكى نفسه ادى قسطه فى هذا الأمر ايضا .

وكما أن الانتقال من الدفاع الى الهجوم المضاد للقوات السوفييتية فى معركة موسكو جرى بدون توقف ، تحول كذلك هذا الهجوم المضاد بدون اى انقطاع الى هجوم ستراتيجى عام على الجزء الاكبر من الجبهة السوفييتية – الالمانية . ان الاركان العامة قد اعدت بمساهمة نشيطة جدا من فاسيليفسكى فى وقت قصير للغاية فكرة مجموعة كاملة لعمليات تسع جبهات : ديميانسك وتوروبيتس – خولمسك ورجيف – فيازما وبارفينكوفو – لوزوفايا وكيرتش – فيودوسيا .

فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٢ ساهمت مساهمة مباشرة فى تخطيط وتنفيذ احدى هذه العمليات ، وهى عملية بارفينكوفو – لوزوفايا . وكنت فى ذلك الحين قد عينت رئيسا لاركان الجبهة الجنوبية – الغربية التى تضم ثلاث جبهات . وساهمت فى العملية ستة جيوش عامة وثلاثة فيالق للخيالة محتشدة فى الاجنحة المتجاورة للجبهتين الجنوبية – الغربية والجنوبية فى قطاع بالاكليا وسلافيانسك . وكان يواجهها جيشا الميدان السادس والسابع عشر وجيش الدبابات الاول من مجموعة جيوش «الجنوب» المعادية . وفى ١٨ كانون الثانى (يناير) انتقلت القوات السوفييتية الى الهجوم

المضاد الحاسم . وبعد خمسة ايام ، فى ٢٣ كانون الثانى (يناير) حررت بضربة مشتركة من المشاة والخيالة مدينة بارفينكوفو ، وبعد ثلاثة ايام اخرى ، فى ٢٦ كانون الثانى (يناير) حررت مدينة لوزوفايا . وتكللت كل العمليات الهجومية الاخرى فى تلك الفترة بنجاح كامل او جزئى .

فى خلال عملية بارفينكوفو – لوزوفايا كانت الاتصالات بينى وبين فاسيليفسكى كثيرة للغاية . فعلى سبيل المثال ، نبهنى فاسيليفسكى يوما الى وثيقة هامة ينبغى مراعاتها بشكل جدى لدى تخطيط واعداد واجراء العملية المقبلة . وبالفعل ، وردت فى ١٠ كانون الثانى (يناير) رسالة توجيهية من القيادة العليا تجمل تجربة المعركة قرب موسكو وتكشف عن النواقص الجدية فى تنظيم واجراء العمليات الهجومية واستخدام الاصناف الاساسية من القوات . وتتضمن الرسالة توصيات تتعلق بتشكيل تجمعات ضاربة للهجوم فى الاتجاهات الرئيسية والاستخدام المكثف للمدفعية والدبابات وتنظيم التعاون بين اصناف القوات . واعارت القيادة العليا اهتماما خاصا مسائل استخدام المدفعية فى الهجوم . وقد وحد مفهوما «التمهيد المدفعى» و«دعم المدفعية هجوم المشاة مع الدبابات ومعاركهم فى العمق» فى مفهوم فعال بشكل خاص ، وهو «الهجوم المدفعى» . ولا شك فى ان القائد الاعلى اضطلع بالدور الرئيسى فى وضع هذه الوثيقة ، ولكن لا جدال فى ان قسط فاسيليفسكى كان كبيرا .

ان ارشادات مقر القيادة العليا حول كيفية بناء العمليات الهجومية واستخدام المدفعية واصناف القوات الاخرى فيها اتت فى حينها تماما وخلفت اثرها على تخطيط واجراء كل العمليات اللاحقة للجيش الاحمر ، وبالطبع ، على اعداد عملية بارفينكوفو – لوزوفايا بدرجة معينة .

حينما بدأ هجومنا اهتم فاسيليفسكى اهتماما نشيطا بمسيرته وسر بنجاحاته ، بما فى ذلك استيلاؤنا على مدينتى بارفينكوفو ولوزوفايا . وهما مدينتان صغيرتان ، والكثيرون فى المركز تناولوا نجاحنا بدون حماسة خاصة . وقد حدثنى فاسيليفسكى بأنه اضطر الى ان يشرح للبعض الفرق بين المغزيين الجغرافى والستراتيجى لهذا التجمع السكانى او ذاك ، فقد كانت لوزوفايا ، مثلا ، اهم عقدة

للخطوط الحديدية بالنسبة الى مرابطة كل مجموعة جيوش «الجنوب» الهتلرية ، اما بارفينكوفو فكانت قاعدة كبـــرى لجيوش العدو فى المؤخرة .

واستحسن مبادرتنا الى اخضاع فرق الدبابات ووحدات المشاة لفيلق الخيالة . وقال ، كما اتذكر ، انه اذا كان من المجدى استخدام الخيالة فى المستقبل ، فينبغى استخدامها فى هذا الشكل بالذات .

فى ربيع عام ١٩٤٢ ، حينما كانت تحل مسألة عملية خاركوف الهجومية ، قابلت فاسيليفسكى فى موسكو .

بعد وصولى الى العاصمة استدعانى مارشال الاتحاد السوفييتى شابوشنيكوف رئيس الاركان العامة ، وبعد حديث قصير ، ولكنه مفيد اوصى بحل المسائل العملية مع نائبه الفريق فاسيليفسكى .

ان المارشال شابوشنيكوف واسلوب عمله وجاذبيته الشخصية وقدرته الخارقة على العمل وتبحره العسكرى الكبير ومعارفه المتنوعة معروفون على نطاق واسع .

وانه لشىء حسن جدا كونه استطاع ان يعتمد بثبات على نائبه الموهوب فاسيليفسكى الذى كان قد اكتسب فى ذلك الحين تجربة كبيرة فى العمل فى الاركان العامة .

فى الجلسة الختامية فى مقر القيادة العليا ، بعد ان اقرت نهائيا خطة عملية خاركوف ، طرحت على المناقشة مسألة من سيحـــل فى منصب رئيس الاركان العامة مكان المارشال شابوشنيكوف الذى لم يعد بسبب المرض ، كما سبقت الاشارة ، يستطيـــع تاديـــة كل الواجبات المتنوعة والمسؤولة جدا فى هذه الوظيفة .

توجه ستالين الى فاسيليفسكى :

– المكتب السياسى ولجنة الدولة للدفاع يتقدمان بترشيحك لمنصب رئيس الاركان العامة .

استغل فاسيليفسكى برهة الصمت التى حلت واخذ يطلب مـــن القائد الاعلى بحرارة واضطراب الامتناع عن هذه الخطوة ، مؤكدا انه استوعب جيدا وظائف النائب وسوف يبذل كل قواه ليساعد من كل الجوانب المارشال شابوشنيكوف او من سيحل مكانه .

استمع القائد الاعلى الى حججه ببرودة وسأل بما عرف عنـــه من ايجاز ، دون خوض فى المناقشات :

– من تقترح ترشيحه الى هذا المنصب المسؤول ؟

قدمت عدة ترشيحات ، ولكنها رفضت جميعا لاسباب مختلفـة ووجيهة جدا .

ينبغى القول ان دائرة واجبات رئيس الاركان العامة زمن الحرب واسعة جدا وكل وظيفة من وظائفه تقريبـا لا ترتبط بضرورة ان يكون فى مجرى الاحداث فقط ، بل ان يتنبأ بتطورها وان تكون عنده انطلاقا من الوضع الناشىء افكار سديدة للاعمال القتالية فى كل اتجاه ستراتيجى . ورئيس الاركان العامة هو ، الى جانب ذلك ، ممثـــل لسلك كبير من عاملى الاركان فى المركز والمناطق ، اى يجـب ان يكون ، ان صح التعبير ، مفكرا ، اى منظرا عسكريا ، وصاحـــب ممارسة ، ومنظما على نطاق واسع . ومن المعروف ان هذه الخصال لا تجتمع فى شخص واحد الا فى حالات نادرة جدا . وكان فاسيليفسكى بالذات ، فى رأى ستالين واعضاء مجلس الدولة للدفاع الآخرين ، اصلح من اى كان لهذا المنصب .

فى صباح اليوم التالى ، حينما عرجت على فاسيليفسكى ، وجدته ، لدهشتى ، فى مزاج مرح جدا . قابلنى قائلا :

– اتعرف ، ايفان خريستوفوروفيتش ، مدى سرورى ؟ اتخذت القيادة قرارا بابقاء المارشال شابوشنيكوف فى منصب رئيس الاركان العامة ، وعرض علىّ ان اساعده بمزيد من النشاط . . .

كان ذلك فى الايام الاخيرة من آذار (مارس) ، ولكن صحـــة شابوشنيكوف تدهورت ، وفى ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٢ عين فاسيليفسكى بقرار المكتب السياسى للجنة الحزب المركزية وأمر القيادة العليا فى منصب رئيس الاركان العامة .

من المعروف جيدا ان فاسيليفسكى اذ تراس على امتداد الحرب الوطنية باسرها تقريبا الاركان العامة – عقل القوات المسلحة – اظهر نفسه ستراتيجيا عسكريا بارزا ومنظما ممتازا لاكبر عمليات الجيش السوفييتى . وكان يجمع بانتظام بين العمل المتعدد الجوانب لرئيس الاركان العامة وجولاته الى القوات بمثابـــة ممثل القيادة العليا . ونســـق بنجـــاح اعمال الجبهـــات واصنـــاف القوات المسلحة فى معركتى ستالينغراد وكورســـك ، ولدى تحريـــر الدونباس .

فى صيف عام ١٩٤٤ قام فاسيليفسكى بتنسيق وقيادة اعمـــال

قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة وجبهتى البلطيق الاولى والثانية فى عمليات تحرير بيلوروسيا وليتوانيا ولاتفيا ، ومن ثم قاد بنجاح هجوم القوات السوفييتية فى بروسيا الشرقية ، وقاد فى المرحلة الختامية من الحرب الانقضاض البطولى على القلعة الفاشية كينيغسبيرغ .

اننى ، وقد اطلعت على اسلوب وطرائق عمله فى ظروف الجبهة مباشرة ، اقتنعت بمعرفته الاهتداء فى الوضع بسرعة خارقة والتحليل العميق للقرارات التى تتخذها قيادة الجبهة والجيش وتقويم النواقص بمهارة ، وكذلك الاستماع الى تصورات المرؤوسين المعللة وتبنيها .

كان فاسيليفسكى يتسم بلباقة كبيرة وثقافة عالية الى جانب ارادة قوية لابد منها للقائد .

. . . ساعود الى احداث ربيع عام ١٩٤٢ .

فى خلال عدة ساعات اتفقت مع فاسيليفسكى على مواعيد وصول الاحتياطيات الينا : الاسلحة ، المعدات العسكرية ، الذخائر ، الناس. ثم ذهبنا الى المارشال شابوشنيكوف وعرضنا عليه ما انجز من عمل . استمع الينا شابوشنيكوف بانتباه واستحسن اقتراحاتنا بدون تعديلات جوهرية .

فى ايام القلق زمن الاخفاق الذى اصاب قوات الجهة الجنوبية - الغربية فى عملية خاركوف فعل فاسيليفسكى الكثير ليساعدنا . وفى ١٨ ايار (مايو) تلفن الى مرتين واستوضح بقلق واضطراب ظاهرين عن الامكانات المتوفرة عندنا لصد ضربة قوية مفاجئة من جيش كليست الاول للدبابات فى اتجاه بارفينكوفو ، واقتنع فاسيليفسكى من تقريرى باننا لا نملك قرب منطقة الاختراق الاحتياطيات الضرورية لوقف تحرك التجمع الضارب للعدو . ثم علمت فيما بعد ان فاسيليفسكى تقدم مرتين الى القيادة العليا باقتراح وقف الهجوم على خاركوف فورا واشراك كل القوات فى تصفية الخطر المتعاظم . وللاسف كانت جهوده (شأن جهودى انا) بلا جدوى ، اذ لم يتسن اقناع القائد الاعلى ، لانه اعتمد على التأكيدات المتفائلة للمارشال تيموشينكو القائد العام للجهة الجنوبية - الغربية .

اننى ، اذ اقلب صفحات مذكرات فاسيليفسكى المكرسة لتلك الايام الدرامية ، ادهش لروح الانتقاد الذاتى عند المؤلف . فبعد

مرور عقود يتحدث فاسيليفسكى بنفس مضطربة عن أن الاركان العامة لم تفعل كل ما كانت تستطيعه لتحسين وضع قوات الجهة الجنوبية - الغربية . اذ كان بوسع الاركان العامة ان تصر على تنظيم ضربات تشغل العدو فى الاتجاهات الاخرى ، وكان بوسعها ، اذا ابدت المزيد من المبادرات ، التوصل الى تقديم مساعدة فعلية بالاحتياطيات الى قوات الجهة الجنوبية - الغربية .

فى الثلث الثانى من حزيران (يونيو) عام ١٩٤٢ ، بعد الهدوء الذى طرأ على الاعمال العسكرية عقب عملية خاركوف ، علمنا من وثائق للعدو استولت عليها قوات الجيش الحادى والعشرين أن القيادة الهتلرية تنوى القيام فى اقرب وقت بعملية هجومية كبرى تحمل الاسم الرمزى «بلاو» عند نقطة تماس جيشى جبهتنا الحادى والعشرين والثامن والعشرين ، وكذلك الجيشين الثالث عشر والاربعين لجبهة بريانسك .

واذ اخذت فى الاعتبار اهمية الوثائق المستولى عليها ، ابلغت على عجل رئيس الاركان العامة عنها .

وقد ابدى فاسيليفسكى سرعة فائقة . فلاحباط هجوم العدو نقل الينا بموافقة ستالين الفيلق المدرع الرابع من جبهة بريانسك وطلب ان نستخدمه من الشمال ، وان تكون فيالقنا المدرعة من الجنوب مستعدة لتحطيم تجمع العدو فى فولتشانسك بضربات جانبية فى حالة انتقاله الى الهجوم . وبهدف تعزيز جبهتنا ارسلت على عجل الى محطة نوفى اوسكول عبر الخط الحديدى فرقتا الدبابات ٢١ و١٥٩ من احتياطى القيادة العليا . وتلقى الجنرال غولوفانوف قائد القوات الجوية للجيش الاحمر أمرا بتنظيم ضربة مكثفة من طيران الجبهة والقاذفات ذات التحليق البعيد الى منطقة تحشد العدو عند تماس الجيشين الحادى والعشرين والثامن والعشرين . وذهب فاسيليفسكى الى الجبهة الجنوبية - الغربية للاطلاع على الوضع ميدانيا وتقديم المساعدة الى قيادة الجبهة . لقد قدم الينا ، اذا لم تخنى الذاكرة ، فى النصف الثانى من يوم ٢١ حزيران (يونيو) وادرك بسرعة جوهر الوضع الناشئ فى الجبهة ، ساعيا الى مساعدتنا على حصر الخطر الداهم واحباط نية العدو الاستيلاء على كوبيانسك وعبور نهر اوسكول .

فى ٢٢ حزيران (يونيو) بعد ساعة من التمهيد المدفعى وضربات الطيران القوية بدأ الهتلريون الهجوم فى الاتجاه العام الى كوبيانسك .

واضطرت قوات الجيشين الثامن والثلاثين والتاسع مجددا الى خوض معارك دفاعية عنيدة ضد قوى العدو الضخمة . ووجه العدو ضربته الرئيسية من منطقة تشوغوييف . وفى الوقت نفسه قام لتمزيق وتحطيم الجيشين الثامن والثلاثين والتاسع بضربتين اضافيتين من منطقة بالاكليا فى اتجاه ايزيوم . واذ استغلت القوات الهتلرية تفوقها الساحق فى القوى ، اخترقت جبهة الدفاع فى هذه الاتجاهات الثلاثة وطورت الهجوم على كوبيانسك .

ناقشت وفاسيليفسكى كل شىء بالتفصيل ونصحنا المارشال تيموشينكو ابعاد الجيش الثامن والثلاثين وقوات الجناح الايمن للجيش التاسع فى غضون ٢٣-٢٦ حزيران (يونيو) الى الضفة الشرقية لنهر اوسكول والانتقال هناك الى الدفاع المتين . وتسنى تحقيق هذه الفكرة فى معارك طاحنة . واحبطت محاولات العدو تمزيق تشكيلاتنا وتحطيمها وعبور اوسكول والاستيلاء على رأس جسر .

ان الحادثة التالية تصف ايضا فاسيليفسكى كانسان وشخصية عسكرية .

فى مستهل تموز (يوليو) عام ١٩٤٢ نشأ وضع اقتضى تشكيل جبهة مستقلة فى اتجاه فورونيج . وكان عند القيادة العليا ، كالعادة ، عدة ترشيحات لمنصب القائد ، ولكنها لم ترض ستالين لاسباب معينة . عندئذ تطوع الجنرال فاتوتين ، النائب الاول لرئيس الاركان العامة ، ليشغل هذا المنصب . وكان من الطبيعى ان يستعلم ستالين عن راى فاسيليفسكى فى هذا الخصوص ، فدعم اقتراحه ، رغم انه كان من الصعب عليه مفارقة احد عامليه الرائعين . ومكان الجنرال فاتوتين عين الجنرال اليكسى انطونوف بتوصية من فاسيليفسكى . بيد ان القائد الاعلى اعتبر من الضرورى ان ينفذ النائب الجديد لرئيس الاركان العامة عدة وظائف فى القوات على الجبهة . وحمل فاسيليفسكى على عاتقه فى غضون عدة اشهر ما يسمى عبئا مزدوجا ، حيث عمل بالاصالة عن نفسه وعوضا عن نائبه الى ان نال انطونوف الامكان لأن يؤدى فعليا واجبات النائب الاول لرئيس الاركان العامة .

فى النصف الثانى من ايار (مايو) عام ١٩٤٣ قبل بداية معركة كورسك قدم فاسيليفسكى الى جيش الحرس الحادى عشر الذى كنت اقوده فى تلك الفترة . وقد هنأته من صميم قلبى بمنحه اللقب الرفيع ، مارشال الاتحاد السوفييتى . وتذكرنا ذلك الوضع المقلق ،

الاكثر من درامى الذى التقينا فيه فى المرة السابقة وكيف تغير الأمر الآن بصورة جذرية حقا ، حيث نملك الاحتياطيات الضرورية وننتظر هجوم العدو عمدا لكى ننهكه ثم نوجه اليه ضربة ماحقة قوية .

اخبرنى فاسيليفسكى بثقة ان القيادة العليا والاركان العامة تملكان معلومات مختلفة وأكيدة تشير الى استعداد الهتلريين لهجوم عام على قوات الجبهة الوسطى وجبهة فورونيج التى كانت تقوم بالدفاع فى قوس كورسك .

ونوه فاسيليفسكى بان القائد الاعلى يسبغ مغزى خاصا على مساهمة جيش الحرس الحادى عشر فى عملية تحطيم تجمع القوات الفاشية الالمانية فى اوريول . وقال انه جيش ضارب من حيث بنيته القتالية ، وللقائد الاعلى كل المسوغات لأن ينتظر منه نجاحات كبيرة .

بعد هذا الحديث اطلع فاسيليفسكى باهتمام كبير على الوضع العملياتى-التكتيكى فى منطقة عمل الجيش الحادى عشر ، واستمع الى تقريرى عن التخطيط والاعداد للعملية . واهتم خاصة بكيفية تنظيمنا اختراق دفاع العدو على امتداد عمقه التكتيكى . وبالنتيجة تكون عند فاسيليفسكى ، كما بدا لى ، انطباع ايجابى اجمالا عن العمل الذى اجتزناه .

وذهب فاسيليفسكى بنفسه الى خط الجبهة ليطلع من نقاط المراقبة على دفاع العدو وظروف الانتشار والهجوم المقبلين لقوات الجيش والزحف الى عمق مرابطة القوات الفاشية – الالمانية . اننى وفاسيليفسكى وكوليكوف عضو المجلس العسكرى وغريشين رئيس اركان الجيش ، وقد اتخذنا كل احتياطات الأمن ، توجهنا فى سيارات «فيليس» الى نقطة المراقبة التى اعدت جنوب قرية شيمياكينو . من هناك كان يمكن رؤية كل قطاع الاختراق المقبل . وكان فاسيليفسكى يستدل بسهولة فى المنطقة . وقدر بسرعة ودقة اهم العقد واكثرها حساسية فى نظام دفاع العدو واعطانا ارشادات قيمة للتغلب عليها .

وحينما عدنا متعبين بعد هذا الاستكشاف الى اركان الجيش ، شاطرنا فاسيليفسكى انطباعاته التى جلبها من ساحات المعارك قرب ستالينغراد .

من المعروف ان فاسيليفسكى لم يقتصر على اداء قسطه بالاشتراك مع جوكوف فى اعداد عملية «اوران» التاريخية التى ادت

الى تطويق وتحطيم تجمع للعدو قوامه ٣٣٠ الف شخص ، بل وفعل اكثر بكثير مما كان يدخل فى دائرة واجباته كرئيس للاركان العامة . فقد كان موجودا قرب ستالينغراد بمثابة ممثل للقيادة العليا ، وذلك تقريبا منذ بداية المعركة الدفاعيـــة فى منعطف الدون الكبير وحتى التصفية النهائية لقوات العدو المطوقة . وكان موجودا طبعا حيـــث تنشأ اكثر الاوضاع دراماتيكية .

تحدث فاسيليفسكى ، بين امور اخرى ، عن احد احداث المرحلة الختامية لمعركة ستالينغراد .

فى ١٢ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٢ انتقل مركز الاحداث الى منطقة كوتيلنيكوفو حيث جرت على تخوم جدولى السهب اكساى وميشكوفا مجابهة صعبة بين قوات جبهة ستالينغراد التى انهكتهـــا المعارك السابقة واسفين مدرع قوى لتجمع غوت – مانشتين . واصبح خطر ان يفك المطوقون الحصار امرا واقعيا تماما .

فى عشية ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ليلا أمر القائد الاعـــلى فاسيليفسكى بأن يترأس قيادة الاعمال العسكرية لقواتنـــا فى هذا القطاع . ان فاسيليفسكى ، وقد اقتنع بان جبهـــة ستالينغراد لا تستطيع صد هجوم العدو الاختراقى بقواها الخاصة ، استنتج ان مـــن الضرورى تغيير قرار القائـــد الاعـــلى حول استخدام جيش الحرس الثانى . وكان مخصصا لتقوية جبهة الدون . واقترح فاسيليفسكى على القائد الاعلى فى مكالماته عبر الخط المباشر ارسالـــه فورا الى اتجاه كوتيلنيكوفو الذى اصبح الاتجاه الحاسم بالنسبة الى انجاز كل العملية الهجومية للقوات السوفييتية قرب ستالينغراد .

ان فاسيليفسكى ، الواثق بأنه على صواب ، استطاع ان يورد حججا لا تدحض وتوصل الى ان توافق القيادة العليـــا على قراره . وعندما كانت تجرى المكالمات اتخذ ، لكى لا يفرط بالوقت الثمين ، كل الاجراءات الممكنة فى تلك الظروف لتنظيم ارسال جيش الحرس الثانى بسرعة الى اتجاه كوتيلنيكوفو . وكما هو معروف ، اضطلـــع جيش الحرس الثانى بدور حاسم فى صد الهجوم ، ومن ثم فى تحطيـــم قوات مانشتين ، وهذا ما دفن نهائيا آمال هتلر فى انقـــاذ الجيش الفاشى – الالمانى السادس من التطويق . وكان لابادته وقع لحـــن جنائزى فى كل المانيا الهتلرية . وبمرسوم من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى منح فاسيليفسكى فى ١٦ شباط (فبراير)

عام ١٩٤٣ لقاء قيادته الماهرة للقوات اعلى لقب عسكرى ، مارشال الاتحاد السوفييتى .

بعد انتهاء ملحمة ستالينغراد والهجوم العام للقوات السوفييتية التى اعقبها فى ربيع عام ١٩٤٣ حل هدوء فى اغلبية الجبهـــات ، وفى النصف الثانى من آذار (مارس) استطاع فاسيليفسكى أن يعود الى موسكو ويمارس واجباته المباشرة . ان نشاط رئيس الاركان العامة قد مس ، كما هو معروف ، كل جوانب الصراع المسلح ، ولذا كان وثيق الارتباط بعمل اغلبية دوائر مفوضية الشعب للدفاع . وعلاوة على ذلك ، حينما استدعت القيادة العليا قادة الجبهـــات ، نظـــر فاسيليفسكى فى تصوراتهم حول المعارك المقبلة قبل تقديم التقارير الى ستالين . واضطلعت نصائح رئيس الاركان العامة بدور هام لدى التخطيط للاعمال القتالية .

كانت قدرة فاسيليفسكى على ما يسمى بعدم الخوض فى التوافه امرا جوهريا جدا ، ولا سيما أنه كان يتحمل المسؤولية عن اعداد الخطط للمستقبل . وكان التنبؤ الواسع والتكهن الملموس هما مهمة عمله المباشرة .

قبل ان يغادرنا فاسيليفسكى الى موسكو نوه مرة اخرى بأن القيادة الهتلرية ، حسب المعطيات المتوفرة لدى القيادة العليـــا ، ستكون هى البادئة على اى حال بالهجوم على قوات الجبهة الوسطـــى وجبهة فورونيج التى انتقلت الى الدفاع فى قوس كورسك . هذا مـــا يرغمها عليه الوضع السياسى والعسكرى العام الذى نشأ فى ميدان العمليات العسكرية عندنا ، وفى ايطاليا كذلك .

فى معركة كورسك نسـق فاسيليفسكـــى اعمال قوات جبهتى فورونيج والسهب ، وقام بين امور اخرى بمساعدة قيادتى الجبهـــة والجيش فى خلال معركة الدبابات الشهيرة قرب بروخوروفكا .

امضى فاسيليفسكى الاشهر الاولى مـــن عام ١٩٤٤ فى الجبهتين الاوكرانيتين الثالثة والرابعة بصورة رئيسية لاعداد عمليات تحرير جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى والقرم . وكلفت هاتان الجبهتان بتصفية رأس جسر العدو فى نيكوبـــول وطرده الى الحدود الدولية للاتحاد السوفييتى . وكان تنفيذ هذه المهمة امرا فى غايـــة الصعوبة ، لأن هتلر واسياده ، الاحتكارات الالمانية ، طلبوا مـــن

القوات المحافظة بكل السبل على هذه الارض الغنية بأهم الخامات الستراتيجية ومن بينها المنغنيز . ومع ذلك ، ورغم التطاحن الجدى مع القائد الاعلى فى صدد تقديم الاحتياطيات ، حينما اضطر فاسيليفسكى الى اظهار ما يتسم به من صلابة طبع ، جرت عملية كريفوروجييه – نيكوبول وانجاز تحرير كل جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى على نحو رائع .

وقلد فاسيليفسكى اعلى جائزة للقادة ، وسام «النصر» ، لقاء التنسيق الناجح لاعمال قوات الجبهتين الاوكرانيتين . وهنأه القائد الاعلى ، قائلا ان هذه الجائزة ليست لقاء تحرير الدونباس واوكرانيا فحسب ، بل هى كذلك دفعة على الحساب لقاء طرد العدو من القرم لاحقا .

فى عملية بيلوروسيا التالية صيف عام ١٩٤٤ عملت لاول مرة منذ بداية الحرب فى اتصال طويل ومباشر بالمارشال فاسيليفسكى الذى كلفته القيادة العليا بتنسيق وقيادة اعمال جبهتى البلطيق الاولى والثانية والجبهة البيلوروسية الثالثة .

ان الجيش السوفييتى ، وقد احرز نصرا تاريخيا فى المعركة قرب كورسك ، شن هجوما ستراتيجيا جبارا من بحر البلطيق الى البحر الاسود . وفى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٤ حطمت قواتنا تجمعا ضخما للعدو قرب لينينغراد ونوفغورود ، وطهرت كل اوكرانيا تقريبا من المحتلين ، وعبرت بوغ الجنوبى والدنيستر ، وشقت طريقا الى الكاربات ووصلت الى حدود الاتحاد السوفييتى مع تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ومنى العدو بهزيمة ماحقة فى القرم . وخفقت الراية الحمراء من جديد فوق مدينة سيباستوبول البطلة .

وكان المحاربون السوفييت فى الاتجاه الستراتيجى الغربى قد دخلوا منذ خريف عام ١٩٤٣ ارض بيلوروسيا التى عانت الكثير . بيد أن الجزء الأكبر من اراضيها بقى تحت نير المحتلين . ونتيجة للمعارك الضارية اتخذ شكل خط الجبهة السوفييتية – الالمانية هناك صورة فريدة ، حيث تكون نتوء ضخم فى اتجاه الشرق اطلق عليه الهتلريون اسم «البلكون البيلوروسى» . وكانت تقوم بالدفاع هناك مجموعة «الوسط» الفاشية – الالمانية القوية التى تضم اربعة جيوش . وكان هناك جيشان ايضا يتاخمان «البلكون» من الشمال والجنوب .

وكان مجموع ما يملكه العدو فى بيلوروسيا ٦٥ فرقة تضم مليونا و٢٠٠ الف جندى وضابط .

كان «البلكون البيلوروسى» يسد على الجيش السوفييتى اقصر طريق الى بروسيا الشرقية وبولندا ، وكان ، حسب تقدير القيادة الهتلرية ، يوفر للقوات الفاشية الالمانية غير قليل من الافضليات الستراتيجية الاخرى . ان هتلر ، فى سعيه الى اقناع جنوده بأنهم يدافعون هناك عن المانيا ، طلب من الجنرالات تحويل كل المدن البيلوروسية الكبيرة الى حصون والتمسك بها باى ثمن . واذ كان العدو يتوقع الضربة الاولى فى العمليات الرئيسية لحملة صيف عام ١٩٤٤ جنوبى «البلكون البيلوروسى» من اراضى اوكرانيا ، ابقى هناك ٢٤ فرقة للمدرعات والآليات من اصل ٣٠فرقة كانت تعمل على الجبهة السوفييتية الالمانية .

ساهم فاسيليفسكى مساهمة مباشرة فى اعداد وتحقيق جملة من الاجراءات التى درست بذكاء ونفذت بمهارة لخدع العدو تسنى بواسطتها تضليل القيادة الفاشية – الالمانية . كتب غاكينغولتس المساعد السابق لرئيس ادارة العمليات لاركان مجموعة جيوش «الوسط» فى مقالة «كارثة مجموعة جيوش «الوسط» : «ادت مسيرة معارك الشتاء الى حشد كبير للقوات الروسية فى اراضى غرب اوكرانيا . هنا فى غاليتسيا الشرقية ، شرقى لفوف ، حيث تسنى بجهد شديد ايقاف هجوم الروس ، كان لا بد ، فى راى هتلر ومستشاريه ان يجرى هجوم الروس الرئيسى فى حملة صيف عام ١٩٤٤ . . . وتمسكت القيادة الالمانية بوجهة النظر هذه فيما بعد ايضا ، حينما تغير الوضع على الجبهة السوفييتية – الالمانية تغيرا جوهريا . وعلى اى حال ، فان القيادة الالمانية ، اذ تجاهلت كل القطاعات الاخرى من الجبهة ، حشدت فى غاليتسيا كل الاحتياطيات المتوفرة ، وبشكل خاص اغلبية فرق الدبابات ، لانها استمرت فى الاعتقاد بأن الروس سيوجهون ضربتهم الرئيسية الى مجموعة جيوش «شمال اوكرانيا» .

ادى فاسيليفسكى قسطا وافرا فى اعداد خطة عملية بيلوروسيا . انه ، والحق يقال ، لم يستطع المساهمة فى اجتماع القيادة العليا الذى عقد فى اواخر نيسان (ابريل) ، لأنه كان مشغولا بتنظيم الانقضاض على سيباستوبول ، ولكنه ما لبث ان ارسل تصوراته التى

تضمنت خطوطا عريضة لكل مجموعة عمليات الجبهة لتحرير بيلوروسيا . وهذه الخطوط العريضة كانت تتطابق من حيث الاساس مع رأى اعضاء القيادة العليا الاخرين .

ولدى الانجاز النهائى لفكرة العملية وقف فاسيليفسكى بحزم فى اجتماع * عند القائد الاعلى الى جانب حشد اكثر ما يمكن من القوى والوسائل فى النسق الاول لكل جبهاتنا الهجومية لتحطيم القوى الاساسية لمجموعة جيوش «الوسط» فى اقصر وقت بضربات قوية وصاعقة . وكانت تشكل من حيث الجوهر النسق الميدانى الاول لدفاعها ، وقد انطلق فاسيليفسكى من معطيات حددتها المخابرات السوفييتية بدقة تشير الى انه لم تكن لدى العدو فى عمق دفاعه اية احتياطيات كبيرة . ووافق كل المساهمين فى الاجتماع على اقتراحه المعلل من كل الجوانب .

بناء على هذه الفكرة الجريئة والمبتكرة التى اقرت بالاجماع كان يفترض اختراق دفاع العدو فى ستة قطاعات والالتفاف اولا على تجمعات العدو الجانبية فى منطقتى فيتيبسك وبوبرويسك وابادتها ، ومن ثم تحريك قوات كل الجبهات باندفاع الى الغرب وتطويق وتحطيم القوى الاساسية لمجموعة جيوش «الوسط» شرقى مينسك والقيام فى غضون ذلك بفصل مجموعة جيوش «الشمال» عنها من الجهة الشمالية الغربية . ومن المفروض بعد ذلك اشراك احتياطيات جديدة فى الهجوم والوصول الى حدود بولندا وبروسيا الشرقية ، ودخول منطقة البلطيق السوفييتية .

استعدت القيادة السوفييتية لهذا الهجوم الستراتيجى الجبار باجراء اكبر تنقلات فى القوات والعتاد فى وقت قصير للغاية . وتحركت من مؤخرة البلاد ومن القطاعات الاخرى للجبهة السوفييتية - الالمانية فى اتجاه بيلوروسيا تشكيلات القوات العامة والدبابات والمدفعية والطيران والهندسة ، ونقلت الذخيرة والمعدات العسكرية والوقود والتجهيزات المادية الاخرى .

فى ذكرياتى المكرسة لمارشال الاتحاد السوفييتى جوكوف تحدثت عن الاجتماع الذى عقد فى اواخر ايار (مايو) فى مقر القيادة العليا . ما ان اتضح ان فاسيليفسكى سيصبح «وصيا» على جبهتنا والجبهة

* اشترك فى هذا الاجتماع جوكوف وروكوسوفسكي وشتريلياخوفسكى وانا ، وكنت اقود حينذاك جبهة البلطيق الاولى .

البيلوروسية الثالثة ، حتى قال لى ان اتوجه اليه بلا حرج فى اى وقت اشاء طلبا للمشورة والمساعدة .

اتذكر اننى كنت اعمل مع مجموعة من الضباط والجنرالات فى جيش الجنرال بيلوبورودوف الثالث والاربعين ، حينما ورد خبر عن قدوم رئيس الاركان العامة . كان ذلك فى صباح ٨ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٤ . وهرعنا الى المطار لاستقبال ممثل القيادة العليا .

ان فاسيليفسكى ، وقد وصل الى مقر القيادة ، اقترح فورا جمع كل ملاك الجبهة القيادى لتقديم تقارير عن مسيرة الاستعداد للهجوم . وكنت اول مقدمى التقارير . واعترف بأنه كانت تقلقنى جدا فكرة أن يدخل ممثل القيادة العليا ، كما كان يحدث احيانا ، تعديلات جوهرية على القرار الذى اتخذناه . وكان من شأن هذا أن يضطرنا الى اعادة اعداد كل خطة العملية واعادة النظر فى الحسابات الاساسية . وينبغى القول اننا كنا قد خططنا للقيام بالاختراق فى قطاع واسع للغاية . بيد أن ممثل القيادة العليا ، وقد اقتنع بأن هذا القرار املته الظروف الخاصة لمنطقة الغابات والمستنقعات ، وافق اجمالا على فكرة العملية . واصغى باهتمام الى تقارير رئيس الاركان ورؤساء اصناف القوات ، وادخل عليها جملة من التدقيقات والتعديلات .

درس فاسيليفسكى بالتفصيل وثائق القتال الاساسية التى اعدتها الاركان ، وسأل بدقة عن اعداد التعاون بين كل اصناف القوات لدى اختراق المنطقة التكتيكية لدفاع العدو ، وكذلك لدى عبور دفينا الغربى . ولفت انظارنا الى ان الجزء الاساسى من المدفعية يمكن ان يتخلف لدى اقتراب وحدات المشاة والدبابات الى موقع الماء ، ولهذا ينبغى اعداد الطائرات القاذفة والهجومية بدقة خاصة . يجب على الطيران ان يضمن عبور النهر ويساعد على الاحتفاظ برؤوس الجسور المستولى عليها .

خلف مائدة الغداء شاطرنا فاسيليفسكى ذكرياته . ان واجب الخدمة قاده الى هذه الاماكن للمرة الثالثة . فقد قاتل هنا فى الحرب الاهلية ، وعمل هنا فى الثلاثينات . فمثلا ، حينما اضطرت فرقة المشاة الثامنة والاربعون تحت ضغط القوات البولندية البيضاء المتفوقة فى القوى الى الانسحاب فى معارك ضارية عبر الادغال المستنقعية على امتداد انهار لان وموروتش وسلوتش ، فقد

فاسيليفسكى فى هذه الاصقاع صديقه فى القتال آمر اللواء ١٤٣ اوسكار كالنين الذى استشهد شهادة الابطال فى اشتباك مع عصابة بولاك – بالاخوفيتش . هنا ، كما قال المارشال ، علمه الشيوعيون وزملاؤه الاقدام والاتصال الدائم بالشعب والذود عن شرف الوطن السوفييتى . وقال فاسيليفسكى بانفعال :

– لقد فارق الحياة الكثيرون ممن كانوا اساتذتى فى تلك الايام الصعبة التى لا تنسى . ولكن درسهم الذى علمونى اياه ، وهو الا اخاف الحقيقة مهما كانت قاسية ، وان اواجهها بجرأة ، بقى عندى مقدسا الى الابد .

وشاطرنا فاسيليفسكى ايضا انطباعاته عن عملية القرم التى انتهت على نحو رائع . واشار ، مثلا ، الى ان قيادة الجيش الفاشى – الالمانى السابع عشر الذى حوصر فى القرم من البر كانت منذ خريف عام ١٩٤٣ تتوقع هجوم القوات السوفييتية واستعدت له بصورة مكثفة . وبنى افضل مهندسى التحصينات الالمان استحكامات دفاعية قوية . بيد ان هجوم القوات السوفييتية لم يجر حينذاك . وقررت قيادتنا العليا ، من اجل استخدام الاحتياطيات بصورة عقلانية ، تعزيز قوات الجبهة الاوكرانية الثالثة لتستطيع بالتعاون مع الجبهة الاوكرانية الثانية تحطيم كل الجناح الجنوبى للعدو وتحرير جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى وتوفير الظروف للهجوم فى اتجاه البلقان الستراتيجى . بعد هذا فقط كان على قوات الجبهة الاوكرانية الرابعة توجيه ضربة ساحقة الى الجيش السابع عشر المحاصر فى القرم . وقد نسق فاسيليفسكى اعمال هذه الجبهات وساهم انشط مساهمة فى اعداد وتنفيذ عملية تحرير القرم .

لقد تسنى ، كما قال فاسيليفسكى ، تنظيم هجوم قوات الجبهة الاوكرانية الرابعة الذى بدأ فى ٨ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٤ بحيث لم يستطع العدو تنفيذ فكرته حول الدفاع العنيد فى مواقع ايشون المجهزة بعناية . ان ضربتنا المفاجئة من راس جسر سيفاش التى كانت تهدد العدو بالتطويق ارغمته ان يبدأ منذ ١٠ نيسان (ابريل) بالانسحاب الى عمق القرم . ونشأت ظروف مؤاتية ايضا لهجوم جيش بريمورسكى الخاص على طول الساحل الجنوبى . حتى اواسط نيسان (ابريل) لم يبق فى يد العدو سوى راس جسر سيباستوبول . ان الهتلريين ، وقد تحصنوا هناك ، كانوا يأملون فى كسب الوقت للجلاء

المنظم . ولكن هذه الخطة احبطت ايضا . اذ أن قوات الجبهة الاوكرانية الرابعة ، وقد استعدت للعملية الجديدة فى فترة قصيرة ، بدأت بالانقضاض على سيباستوبول . وقال المارشال :

– فى معمعان المعارك من اجل سيباستوبول كادت مصادفة عارضة ان تنتهى بمأساة بالنسبة الىّ . فى صباح ٩ ايار ذهبت الى نقطة المراقبة لقائد الجيش الثانى الذى كان يقتحم المدينة . فى الطريق اصطدمت سيارتنا بلغم . وكان حرص السائق المفرط هو سبب الحادث . انه ، اذ عبر جسرا على خندق المانى سابق ، لم يقدها على الممر الذى شقته السيارات الاخرى لكى لا يخدش مصادفة صندوق السيارة الجديدة ، بل اخذ يخرج الدولاب الايمن من الممر الى النتوء على الجانب . وهنا كان يختفى لغم مضاد للدبابات لم يلحظه جنود الهندسة . وقذفت قوة الانفجار بالدولابين الاماميين والمحرك الى بعد عشرة امتار تقريبا . ولحسن الحظ بقينا انا والسائق حيين مع اننا جرحنا . وقد اصابنى الانفجار برضوض ، وامتلأ وجهى وحتى جفناى بشظايا الزجاج الدقيقة ، وفقدت السمع مؤقتا ، ولم اكن استطيع التحرك لوحدى الا بصعوبة . وطلب الطبيب بصورة قاطعة ارسالى الى المؤخرة . ولكن لم اكن استطيع الذهاب من دون ان انظر الى سيباستوبول ! كان ينبعث من البحر والخليج دخان السفن المشتعلة . وفوقها فى الجو كانت تحوم العشرات من طائراتنا وطائرات العدو فى اشتباك عنيف . كان يجرى آخر انقضاض ، وقد اقترب التحرير النهائى لمدينة مجد روسيا الكفاحى الذى كلل عملية القرم .

ان نبأ قدوم ممثل القيادة العليا الى جبهة البلطيق الاولى انتشر فى اركان الجيوش بلمح البصر . وكان قواد الجيوش ورؤساء الاركان ينتظرون بقلق كيفية تقديره لعملهم . وقد زار فاسيليفسكى جيشى بيلوبورودوف وتشيستياكوف . وقال لتشيستياكوف :

– انا اعرف جيشك ، ايها الرفيق تشيستياكوف . كانت الأمور صعبة عليك قرب ستالينغراد وبيلغورود ، ولكن لا تعتقد بأنه سيكون من الاسهل اختراق دفاع العدو الذى استعد له طويلا . افعل ما تستطيع لتكون الضربة مفاجئة .

امضى رئيس الاركان العامة معظم الوقت فى الجيش الثالث

والاربعين ، حيث امعن النظر باهتمام خاص الى قائد الجيش الشاب الذى عين لتوه الفريق بيلوبورودوف . وتشير كل القرائن الى أنه تكون عند المارشال افضل انطباع عنه . واعجبه قواد فيالق مشاة هذا الجيش : الفريق فاسيلييف آمر فيلق المشاة الاول واللواء لوختيكوف آمر الفيلق الستين واللواء ايبيانسكى آمر الفيلق الثانى والتسعين . واستعلم رئيس الاركان العامة من بيلوبورودوف بالتفصيل عن الكيفية التى ينوى ان يستخدم بها الدبابات والمدفعية وقوات الهندسة لدى الاختراق وفى خلال الملاحقة . واطرى ايضا على قائد الجيش وقائد مدفعية الجيش اللواء شيغلوف بسبب التركيز المدفعى العالى جدا فى قطاع الاختراق ، حيث كان هناك فى بعض المواقع حتى ٢٩٠ مدفعا ومدفع هاون فى كل كيلومتر .

واهتم فاسيليفسكى بتنظيم معيشة القوات على الجبهة ، وقابل الجنود والضباط ، وسأل عما اذا كانوا يتلقون طعاما ساخنا ورسائل وجرائد وكتبا بانتظام .

وفى الختام شكر فاسيليفسكى قائد الجيش على عمله الجيد وتمنى له النجاح . وفى اليوم نفسه قال فى تقرير الى ستالين :

«يحدث بيلوبورودوف قائد الجيش الثالث والاربعين انطباعا حسنا . ويعمل على نحو ممتاز آمرا الفيلقين فاسيلييف وروتشكين اللذان ارسلا الى الجبهة من الجنوب . ويجرى اعداد قوات الجبهتين بصورة طبيعية تماما ، واذ سمح الطقس ستباشر اداء المهمة فى الموعد المحدد . كالسابق يثير الاعصاب بعض الشىء عمل الخطوط الحديدية ، رغم انه سيكون عندنا كل ما يلزم للعملية فى الموقع المطلوب» .

فى هذا التقرير ينعكس ، كما فى مرآة ، كل تعدد وظائف فاسيليفسكى كممثل للقيادة العليا ، وتنعكس فى الوقت نفسه صفاته الانسانية الرائعة : قربه من الناس ومعرفة تقدير مواهبهم العملية بسرعة وبلا خطأ .

كنا قد انجزنا الاستعداد للهجوم ، حينما تلقن فاسيليفسكى من موسكو وسألنى عن رأيى فى ان تبدأ قوات جبهة البلطيق الاولى والجبهة البيلوروسية الثالثة الهجوم قبل قوات روكوسوفسكى بيوم او يومين . هذا الشكل كان يرضينى ويرضى تشيرنياخوفسكى (قائد قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة) تماما ، لأننا كنا نأمل فى ان

الطيران البعيد المدى سيستطيع فى الايام الاولى ، اصعب ايام الاختراق ، ان يخصص لنا قوى اكثر بكثير . وهذا ما جرى .

كان يوم ٢١ حزيران (يونيو) يشارف على الانتهاء . وفى صباح اليوم التالى ، فى الذكرى الثالثة لنشوب الحرب ، قررنا خوض معركة استكشافية ، وخصصنا للاشتراك فيها كتيبة مشاة معززة عن كل فرقة من النسق الاول . اننى ، وقد ابلغت فاسيليفسكى بالاستعداد لمعركة استكشافية ، طلبت منه السماح بأن تبدأ فى الساعة الخامسة صباحا .

فى حدود الساعة الخامسة كانت الرؤية مقبولة .

فى الخامسة تماما دوت طلقات مدفعيتنا . وفى الدقيقة السادسة عشرة بلغ القذف المدفعى اوجه . وقال الآمران الجنرال تشيستياكوف وبيلوبورودوف ان الكتائب دخلت المعركة .

كان التوتر فى نقطة القيادة قد بلغ حده الاقصى حينما سمعنا بالتلفون الجنرال تشيستياكوف قائد الجيش السادس يقول بصوت مفعم بالفرح :

– ايها الرفيق القائد ! مقاتلو روتشكين وصلوا الى الموقع الاول ، وهم يحطمون الفاشيين فى ثلاث نقاط ارتكاز . واسروا منهم .

تطورت احداث اليومين الاول والثانى من الهجوم بنجاح .

فى الساعة الثانية عشرة من نهار ٢٤ حزيران (يونيو) ابلغ تشيستياكوف قائد الجيش السادس :

– نسور الجنرال بيرماكوف ينهلون الماء من دفينا الغربى !

ثم ابلغ بانه بدأ عبور النهر من غير توقف .

اننى ، وقد تمعنت فى وضع جيش الحرس السادس ، حولت اهتمامى الى الجناح الايمن للجيش الثالث والاربعين الذى هجم ملتفا حول فيتيبسك . بيد أنه لم يتسن لى الاتصال ببيلوبورودوف ، فقد ذهب الى القوات . أمرت رئيس اركان الجيش بأن يبلغ القائد بأننى انتظر تقريره عن عبور دفينا الغربى فورا .

فى تلك اللحظة تلفن فاسيليفسكى ، وكأنه شعر بنبض المعركة . واذ استمع الى معلوماتى ، حذر فورا :

– خذ فى الاعتبار ان اهم شىء الآن التمكن من نقل تشكيلات الجناح الايمن لبيلوبورودوف عبر دفينا الغربى . فهذا بالذات يسمح باغلاق حلقة تطويق تجمع فيتيبسك . تشكيلات الجنرال لودنيكوف

لفت حول فيتيبسك من الجنوب الشرقى واندفعت الى غنيزديلوفيتشى . عندنا معلومات أن القيادة الفاشية توجهت ، للمرة الثانية الى هتلر بطلب السماح بالانسحاب من كيس فيتيبسك قبل أن تعقده القوات السوفييتية . ولكن علينا نحن ، لا هتلر ، أن نقرر مصير هذا التجمع . يجب ألا نفلت الفاشيين على اى حال . وهذا يتوقف على الاعمال السريعة للجنرال بيلوبورودوف . قدموا له المساعدة ، وتوصلوا الى ألا تكون قواته قبل مساء الغد على تلك الضفة فحسب ، بل وأن تنضم الى قوات الجنرال لودنيكوف .

بعد هذا الحديث تسنى لى اخيرا الاتصال بقائد الجيش الثالث والاربعين . وابلغنى أن الوحدات الامامية لفيلقى المشاة بدأت عبور النهر بلا توقف شمال شرق باشينكوفيتشى ، اما محاربو فيلق الجنرال ايبيانسكى فوصلت الى التخوم الشمالية الغربية لفيتيبسك.

اننى ، وقد نقلت الى بيلوبورودوف مضمون حديث فاسيليفسكى ، نبهته بأنه ينبغى الالتحاق غدا فى النصف الاول من النهار مهما كلف الأمر بقوات الجيش التاسع والثلاثين واغلاق حلقة تطويق تجمع فيتيبسك . وحقق قائد الجيش الثالث والاربعين هذا فى اليوم التالى . وطوق تجمع العدو فى فيتيبسك (خمس فرق والعديد من الوحدات والمفارز المستقلة لجيش الدبابات الالمانى الثالث) . وقد وقع فى هذا الجحيم ، وفق حساباتنا ، ما يربو على ٥٠ الفا من الجنود والضباط الفاشيين .

كان واضحا أن مصير تجمع الهتلريين فى فيتيبسك قد تقرر . ولهذا أمرت الجنرال بيلوبورودوف أن يبقى قرب فيتيبسك جزءا من قوات الجيش فقط ، وأن يطور بالقوى الرئيسية النجاح ليشمل ليبيل . وابلغت فاسيليفسكى على الفور بقرارى هذا . وافق عليه ، قائلا أنه نفسه كان ينوى ان ينصحنى بالتصرف على هذا النحو بالذات . وفى الوقت نفسه طلب فاسيليفسكى تطوير الهجوم الى الغرب باصرار لعدم تمكين العدو من استخدام الاحتياطيات القادمة من العمق لتنظيم الدفاع على خط بولوتسك وليبيل .

تشير نتائج الايام الثلاثة الاولى من الهجوم الى أن قوات جبهتنا ضربت العدو فى اضعف مكان . وعلاوة على ذلك ، كانت الضربة مفاجئة . اى ان جهودنا لم تذهب عبثا . وهذا ما أكده فيما بعد الجنرال الهتلرى تيبيلسكيرخ . صرح ، مستعرضا احداث بيلوروسيا

فى صيف عام ١٩٤٤ : «كان الهجوم شمال غرب فيتيبسك مزعجا بشكل خاص ، لأنه كان خلافا للضربات فى بقية الجبهة مفاجأة كاملة ، حيث اصاب قطاعات الجبهة المحمية على نحو ردىء بشكل خاص فى الاتجاه الحاسم» .

اسبغت القيادة العليا مغزى خاصا على نتائج المعارك على دفينا الغربى . وقد تلفن لى القائد الاعلى شخصيا مرتين واستعلم عن مجرى عبور النهر . وحينما ابلغته أن سبع فرق للمشاة وجزءا من قوات فيلق الدبابات الاول تخوض المعركة على ضفة دفينا الغربى الاخرى ، قال ستالين بما عرف عنه من حب للايجاز : «حسنا ، تصرفوا هكذا فى المستقبل ايضا . شكرا» . وفهمت أن القائد الاعلى مرتاح لنتائج الهجوم .

فى اليوم التالى حيت موسكو محررى فيتيبسك ، بما فى ذلك قوات جبهتنا . وكانت هذه ثانى مرة منذ بداية الهجوم تدوى فيها طلقات التحية لقوات جيش البلطيق الاول . وفى ذلك اليوم المشهود بالنسبة الينا تلقيت واصدقائى تهنئة حارة وقلبية من فاسيليفسكى . انتهزت هذه الفرصة وسألته ان يدعم منح جوائز للمحاربين الذين برزوا بشكل خاص . وردا على هذا سمعت عبر التلفون صوت فاسيليفسكى المفعم بالحرارة :

– عزيزى ايفان خريستوفوروفيتش ، ان قوات جبهتكم قد افلحت فى اختراق دفاع العدو وعبور دفينا الغربى بحيث أن القائد الاعلى سيقف ، ولا شك ، موقفا ايجابيا من توصيات مجلس الجبهة العسكرى بخصوص منح الجوائز . ومن جهتى سادعم طلباتكم بطيبة خاطر . واعتقد أن من المستحسن اذا اثير فى الوقت نفسه الالتماس المقدم الى ستالين حول منح الكوادر القيادية للجبهة الرتب العسكرية الجديدة .

اعربت لممثل القيادة العليا عن شكر المجلس العسكرى الجزيل على هذا التقدير الرفيع لمآثر قواتنا فى القتال .

فى آخر عملية بيلوروسيا منح فاسيليفسكى لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

لدى الحديث عن اتصالاتى بفاسيليفسكى بصفته ممثلا للقيادة العليا على جبهات البلطيق ، لا بد من التوقف بمزيد من التفصيل عند

حادثة مرتبطة باعداد خطة الاعمال اللاحقة لجبهة البلطيق الاولى . وهذه الحادثة تبين على افضل نحو مرونة تفكير فاسيليفسكى الستراتيجى .

سأتحدث بالترتيب .

فى مساء ٣ تموز (يوليو) عام ١٩٤٤ ، فى ذلك اليوم السعيد حينما انجزت قوات الجبهتين البيلوروسيتين الاولى والثالثة ، وقد حررت عاصمة بيلوروسيا ، تطويق الجيش الفاشى الرابع ، وحينما الحقت قوات جناح جبهتنا الايمن هزيمة ساحقة بتجمع العدو فى بولوتسك ، اجتمع فى مقر قيادة جبهة البلطيق الاولى رفاقى المقربون فى القتال . كان ينبغى مناقشة خطة اعمالنا اللاحقة ، لأن المهمات التى طرحها توجيه القيادة العليا بتاريخ ١٣ ايار (مايو) قد نفذت بصورة كاملة . وتوصلنا الى الاستنتاج أن من الاجدى لنا ان نساعد بجزء من القوى قوات تشيرنياخوفسكى التى كانت تشن هجوما على فيلنوس ، وتوجيه القوى الرئيسية لضرب الجناح الجنوبى لمجموعة جيوش «الشمال» والوصول بعد ذلك الى منطقة ريغا . ان التحرك الناجح سيمكننا فى المرحلة الختامية للعملية من تجريد مجموعة جيوش «الشمال» من الاتصالات البرية مع بروسيا الشرقية الشروع بالتعاون مع جبهتى البلطيق الثانية والثالثة فى تحطيم قواها الرئيسية التى تقوم بالدفاع شرقى وشمال شرقى ريغا . وعلاوة على ذلك ، فان التهديد المباشر للجناح الايسر لقوات مجموعة جيوش «الشمال» ومؤخرتها لا بد وان يرغم قيادتها على سحب جزء من القوات العاملة فى مواجهة جبهات البلطيق الاخرى . اننا ، اذ ننقض معا على القوى الرئيسية لهذا التجمع الفاشى ، نستطيع ان نعول على تحطيمه بسرعة نسبيا . انطلاقا من هذه الاعتبارات توصلنا الى استنتاج بالاجماع ، وهو ان نوجه ، بعد وصول الاحتياطيات المخصصة لنا ، القوى الرئيسية للجبهة من اجل ضربة من الجنوب الشرقى فى اتجاه ريغا ، ونوجه جزءا من القوى الى الغرب ، الى شاولاى ، لتطوير نجاح الهجوم بالتعاون مع الجبهة البيلوروسية الثالثة .

وباختصار ، كان على جبهتنا ، كما كنا نفهم الأمر ، ان تضطلع فى المستقبل بدور هام سواء فى انجاز عملية «باغراتيون» وفى تنفيذ عملية ستراتيجية جديدة بهدف تحطيم مجموعة جيوش «الشمال» وتحرير منطقة البلطيق . كان يجب قبل كل شىء نيل موافقة ممثل

القيادة العليا على هذه الفكرة . بيد ان الاتصال بمارشال الاتحاد السوفييتى فاسيليفسكى لم يكن سهلا ، فقد كان فى قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة .

كان من الاسهل التحدث مع الجنرال انطونوف . وطلبت منه ابلاغ ستالين بفكرتنا . ولكن انطونوف اجاب ان القرار حول اتجاهات هجوم جبهتنا اللاحق قد اتخذ ، والأمر قد ارسل الينا . وسألت عما اذا كانت هذه الوثيقة قد نسقت مع المارشال فاسيليفسكى ، وجاء فى الرد بالايجاب . وفى اليوم التالى وصلنا أمر القيادة العليا الصادر بتاريخ ١٩٤٤/٧/٤ . وفيه ايعاز الى قواتنا بتطوير الهجوم ، موجهة الضربة الرئيسية فى الاتجاه العام نحو سفينتسانى وكاوناس ، ومن ثم التحرك ، مؤمنة نفسها من الشمال ، الى كاوناس ، وتحريك جزء من القوات الى بانيفيجيس وشاولاى .

وبموجب هذا الأمر وضع تحت تصرفنا جيش الفريق كريزير الحادى والخمسين وجيش الفريق تشانتشيبادزى الثانى . ولكن كلا التجمعين كان لا يزال بعيدا فى المؤخرة .

كانت فكرة القيادة العليا تتلخص فى ايصال قوات جبهتنا والجبهة البيلوروسية الثالثة باسرع وقت ممكن الى حدود بروسيا الشرقية بهدف منع انسحاب مجموعة جيوش «الشمال» الى هناك . وهذا يعنى ان القيادة العليا انطلقت من اعتبار ان هتلر سوف يسحب قواته من منطقة البلطيق السوفييتية الى بروسيا الشرقية .

اما مجلس الجبهة العسكرى فكان يعتبر ان العدو لن يغادر منطقة البلطيق بدون مقاومة . بيد ان الأوامر هى الأوامر . واخذنا نستعد باصرار لتنفيذها .

فى معمعان هذا الاستعداد وصل الينا فاسيليفسكى وانخرط فى العمل على الفور . اعربت له عن تصوراتى فى خصوص الهجوم المقبل . قال المارشال ، وقد اصغى الىّ باهتمام ، انه ينبغى دوما افتراض أن العدو ذكى . والعدو الذكى لا يمكن بعد تحطيم مجموعة جيوش «الوسط» وتحرك القوات السوفييتية فى بروسيا الشرقية الا أن يرى وضع مجموعة جيوش «الشمال» الميؤوس منه ، فهى مهددة بالانعزال حتما عن قوى الجيش الالمانى الاخرى . اما اذا كانت الجبهة تتحرك باندفاع نحو المانيا نفسها ، فان تعريض القوى الكبرى الموجودة فى منطقة البلطيق للانعزال وخطر الابادة فامر فى غاية الغباء . لذا ينبغى

توقع أن يضطر هتلر الى سحب مجموعة جيوش «الشمال» الى بروسيا الشرقية لكى يستخدمها فى المعارك من اجل المانيا نفسها . ثم قال المارشال انه اذا هجمت القوى الرئيسية لجبهة البلطيق الاولى فى اتجاه ريغا ، فستعيقها قوات العدو المنسحبة ولن تستطيع قطع طريق بروسيا الشرقية على العدو . اما هجوم القوى الرئيسية للجبهة فى اتجاهى كاوناس وشاولاى فلن يمكن من المساعدة على التحرك الناجح لقوات الجبهة البيلوروسية الثالثة فحسب ، بل واستباق قوات مجموعة جيوش «الشمال» فى الوصول الى الحدود الشمالية الشرقية لبروسيا الشرقية .

كان منطق محاكمات فاسيليفسكى لا غبار عليه ، شأنه دائما . ولكن حدسى كان يقول بأن من المستبعد ان يترك الهتلريون منطقة البلطيق ، بل سوف يبقون هناك على الارجح الى ان يستنفدوا كل الامكانات . وقد فكرت هكذا ، لان هتلر فى كل الفترة السابقة من الحرب لم يسمح عمليا لقواته بان تترك طوعا اى شبر من الاراضى المحتلة ، رغم كل ما قد ينطوى عليه ذلك من فوائد تكتيكية . ولعل تاريخ الحرب لم يعرف بعد معاندين متحجرى الرؤوس على شاكلته . والى جانب ذلك فان منطقة البلطيق لم تفقد بعد مغزاها بالنسبة الى المانيا الفاشية ، لان فنلندا كانت باقية فى فلك الحرب ، وامكان وجود الاسطول الالمانى فى خليج فنلندا يسهل على المانيا الحصول على الخامات من السويد .

هذه الاعتبارات ، حينما قلتها للمارشال ، لم تكن ، بالطبع ، امرا جديدا بالنسبة اليه . وقال انه اذا تصرف هتلر فى هذه المرة ايضا بصورة غير منطقية ، تاركا قواته فى منطقة البلطيق ، فسيكون من الممكن ادخال التعديلات الضرورية فى خططنا . هنا ، كما اعتقد ، تجلت بوضوح مرونة التفكير الستراتيجى لفاسيليفسكى .

تحدث فاسيليفسكى بالتفصيل عن مهمات الجبهات المجاورة ، وذلك لكى نقوم بالتعاون معها . انه ، وقد اطلع بالتفصيل على مسيرة اعداد قوات الجبهة للعملية الجديدة واعطى الارشادات الضرورية ، طار الى جبهة البلطيق الثانية .

واذا اعددنا بصورة مكثفة ضربات جديدة للعدو ، تابعنا الهجوم بجزء من قوانا ، ولكن لجملة من الاسباب ، بينها النقص فى القوى ، كان هجومنا يتطور ببطء .

ما لبث الجنرال تشيستياكوف قائد الجيش السادس ان ابلغنى بانه نشأ لديه انطباع يوحى بأن العدو قرر ايضا الهجوم : كانت الهجمات المضادة تشتد فى كل يوم وبدأت مخابراتنا تكتشف فرق مشاة جديدة ضمن التجمع المجابه لنا . واعترف الاسرى بأنهم كانوا منذ امد قريب جدا موجودين فى مواجهة جبهة جارنا الشمالى .

اصبح واضحا بالنسبة الىّ أن العدو يحاول تنظيم ضربة الى جناح القوى الرئيسية لجبهتنا ، ولهذا بدأ بتصعيد قواه فى منطقة داوغافبيلس حيث يستطيع من هناك الالتحاق بقوات جيوش «الوسط» .

بعد ذلك ببعض الوقت اعترف الاسرى بأن انقضاض قوات جبهة البلطيق الاولى على منطقة البلطيق فى الجناح الجنوبى لمجموعة جيوش «الوسط» ارغم هتلر على تبديل قائد مجموعة جيوش «الشمال» وتعيين الجنرال فريسنير مكان الجنرال ليندیمان . وقد سعى القائد الجديد الى فعل كل شىء ليبرر ثقة هتلر ، اى ليغلق الشق الذى احدثه هجوم جبهة البلطيق الاولى عند تماس مجموعتى جيوش «الشمال» و«الوسط» . ولكن هذا لم يكن سهلا .

بعد الحرب اصبح معروفا من ذكريات الجنرالات الهتلريين أن سلف فريسنير كان قد طلب من هتلر السماح لقوات مجموعة جيوش «الشمال» بالانسحاب الى دفينا الغربى فى مجراه الاسفل ، اى ترك جزء كبير من منطقة البلطيق . بيد ان هتلر منع انسحاب القوات وعزل ليندیمان ، كما راينا . ومنع ايضا من مجرد التفكير فى انسحاب القوات من منطقة البلطيق وطلب باصرار اغلاق الشق الذى احدثته جبهة البلطيق الاولى . ولهذا كان فريسنير مضطرا ، على الرغم من تقديره الخاص للموقف ، الى متابعة قذف تشكيلات جديدة وجديدة الى منطقة الاختراق ، فاضعف على هذا النحو دفاعه فى مواجهة جبهتى البلطيق الثانية والثالثة .

وهكذا ، نشأ فى تلك الايام وضع نادر للغاية : كانت اركاننا العامة وقيادة الجبهة تقدران على نحو متباين تماما نيات القيادة الفاشية ، والتقديران كلاهما كانا معللين على حد سواء من حيث الجوهر . لقد خمنت الاركان العامة نيات قيادة مجموعة جيوش «الشمال» ، اما نحن فخمنا قرار هتلر الكيفى . ولكن كل هذا لم يصبح واضحا ، بالطبع ، الا بعد ذلك بأمد طويل . اما حينذاك فلم نكن نستطيع سوى تخمين نيات العدو الحقيقية .

كان المارشال فاسيليفسكى يدرك بوضوح أن كلا الاحتمالين ممكن . بيد انه لم يكن من الممكن بعد القول بثقة ايهما سوف يتحقق . فكان ينبغى ، فى رايه ، اتخاذ موقف الانتظار الى ان توضع كل النقاط على الحروف فى خلال الاحداث . ولم يترك هذه الفرصة تفوته .

ما أن اصبح واضحا أن العدو لن ينسحب من منطقة البلطيق طوعا حتى اخذ رئيس الاركان العامة يسعى فى القيادة العليا الى اعطائنا تشكيلات بينها الجيش الخامس للدبابات من الجبهة البيلوروسية الثالثة التى كانت فى ذلك الوقت قد قضت على تجمع العدو فى فيلنوس .

بناء على توجيهات فاسيليفسكى دققنا فى ١١ تموز (يوليو) مهمات قوات الجبهة ، موجهين كتلتها الاساسية نحو الشمال الغربى بهدف شل الضربة التى ارتسمت بوضوح ، ووجهنا جزءا من القوات فقط الى الجنوب الغربى مباشرة ، الى كاوناس . وحول ممثل القيادة العليا باذن منها اتجاه الضربة الرئيسية لجبهتنا من الجنوب الغربى (كما جاء فى أمر القيادة العليا بتاريخ ٤ تموز / يوليو) الى الشمال الغربى . وقد بينت الاحداث اللاحقة مدى صحة هذا القرار .

ان فاسيليفسكى نفسه قد كتب عن هذه الفترة من نشاطنا الكفاحى المشترك :

«فى خلال عملية بيلوروسيا الهجومية عام ١٩٤٤ بعد وصول قوات جبهة البلطيق الاولى ، التى كان يقودها جنرال الجيش باغراميان ، الى مشارف دفينسك وسفينتسانى واستيلائها على موقع جيد لتطويق مجموعة جيوش «الشمال» الالمانية ، ظهرت لدى قيادة الجبهة ولدىّ كممثل للقيادة العليا مسالة الاتجاه اللاحق للضربة الرئيسية . ونتيجة تحليل دقيق للوضع الستراتيجى عرضنا على القيادة العليا اقتراحا بتركيز الجهود الرئيسية للجبهة فى اتجاه ريغا لتحطيم الجناح الجنوبى لمجموعة جيوش «الشمال» بالتعاون مع قوات جبهتى البلطيق الثانية والثالثة . وفى الوقت نفسه يهجم جزء من القوات فى اتجاه شاولاى بهدف حماية الاعمال القتالية لقوات الجبهة البيلوروسية الثالثة . ولكن على الرغم مما انطوى عليه اقتراحنا من تعليل اكثر من كاف ، فان القيادة العليا لم توافق عليه وطلبت توجيه الضربة الرئيسية فى الاتجاه العام نحو سفينتسانى وكاوناس ،

واكدت الاحداث اللاحقة ، كما هو معروف ، جدوى اقتراحنا ، واضطرت القيادة العليا فى اواخر تموز (يوليو) الى الموافقة على تحويل الضربة الرئيسية الى اتجاه ريغا» .

اود أن انوه مرة اخرى بأن ممثل القيادة العليا تحمل فى اللحظة اللازمة المسؤولية عن تغيير اتجاه الضربة الرئيسية لجبهتنا ، اقوى جبهة بين جبهات البلطيق الثلاث ، واضطلع بدور جوهرى ، ان لم يكن دورا حاسما فى ضمان انتصارنا فى منطقة البلطيق .

ولم يكن يقل اتساقا عن هذا عملنا المشترك انا وفاسيليفسكى فى خلال عملية ريغا وعملية ميميل التى اعقبتها .

ساهمت جبهتنا فى عملية ريغا من ١٤ الى ٢٣ ايلول (سبتمبر) . لم يكن يفصلنا عن عاصمة لاتفيا سوى ١٦ كيلومترا ، ولكن العدو لم يتوقف عن محاولاته لارجاع قواتنا على اعقابها . وفى مساء ٢٢ ايلول (سبتمبر) اتضح ان قوى كبيرة من مشاة العدو تدعمها الدبابات وجهت ضربة مضادة الى قوات الجيش الثالث والاربعين . ان العدو ، وقد حشد قواه ، كان يسعى بوضوح الى ان يعزل بضربة جانبية فرقنا التى وصلت الى المشارف القريبة لريغا .

ولكن لم يستطع الهتلريون ، طبعا ، ان يكونوا اقوياء فى كل مكان . واذ عزز العدو بكل السبل تجمع القوات جنوب ريغا ، اضعف اتجاه ميميل بوضوح . وكان هناك وفق حساباتنا ما لا يزيد على ٨ فرق . وحتى ٢٠ ايلول (سبتمبر) تقريبا كان جيش الدبابات الثالث للهتلريين قد منى فى الهجمات العقيمة على الجناح الايسر للجيشين الحادى والخمسين والجيش السادس بخسائر كبيرة فى الارواح والمعدات وتخلى عن الاعمال الهجومية .

عرض فاسيليفسكى كل هذه المعلومات على القيادة العليا واعرب فى غضون ذلك عن رايه حول ضرورة التغيير الجوهرى لجهة الضربة الرئيسية لجبهتنا . وبفضل تصورات فاسيليفسكى السديدة انتهزت القيادة العليا بدقة مدهشة انسب لحظة للمناورة المفاجئة بالقوى الرئيسية لجبهتنا بهدف الهجوم فى اتجاه جديد كان فى تلك اللحظة اجدى الاتجاهات بالنسبة الينا . والمقصود تحويل الضربة الرئيسية من اتجاه ريغا الى اتجاه ميميل ، وذلك لعزل مجموعة جيوش «الشمال» عن بروسيا الشرقية . وقد قدرنا فى مجلس الجبهة العسكرى فورا كل اهمية وجدوى هذا القرار الحكيم فعلا .

وهكذا تلقينا أمرا بتخطيط وتنفيذ عملية ميميل التى قدر لها أن تصبح العملية الحاسمة فى كل عملية البلطيق الهجومية الستراتيجية . وبالنتيجة عزلت مجموعة جيوش «الشمال» نهائيا والى الابد عن بروسيا الشرقية ، وارغمنا العدو على اجلاء قواته بصورة «طارئة» عن ريغا والمنطقة المتاخمة لعاصمة لاتفيا . وكان علينا ان ننقل بشكل سريع وسرى حشد كل قوانا من اتجاه ريغا الى اتجاه ميميل وايجاد تجمع فى منطقة شاولاى لتوجيه ضربة قوية الى القوات الفاشية التى كانت تقوم بالدفاع فى هذا الاتجاه والوصول ، بعد تحطيمها ، الى شاطىء بحر البلطيق وعزل كل مجموعة جيوش «الشمال» عن بروسيا الشرقية .

فى ٢٥ ايلول (سبتمبر) كنا قد درسنا فكرة العملية الهجومية الجديدة من كل الجوانب . ان ضرورة الهجوم من منطقة شاولاى باتجاهين مفترقين جعلتنا نتخذ قرارا بتوجيه ضربتين : رئيسية غرب شاولاى بهدف وصول التجمع الرئيسى لقوات الجبهة الى منطقة كلايبيدا (ميميل) ، وفرعية جنوب غرب شاولاى لقذف العدو باسرع وقت ممكن الى خلف نهر نيمان عند مجراه الاسفل .

لا توجد ضرورة للكشف هنا عن كل مسيرة الاعمال القتالية فى عملية ميميل ، فقد تحدثت عنها بالتفصيل فى كتبى السابقة . اقول فقط اننى استطعت فى ٩ تشرين الاول (اكتوبر) مساء ان ابلغ القائد الاعلى بأن قوات جبهة البلطيق الاولى تقدمت فى خلال ٤ ايام من ٦٠ الى ٩٠ كيلومترا فى العمق على جبهة عرضها ٢٠٠ كيلومتر . ان تشكيلاتنا المتقدمة ، وقد حررت اكثر من الفى مدينة وقرية ، وصلت الى المشارف القريبة لميميل (كلايبيدا) . وهزمت شر هزيمة فرقتان للمشاة وفرقة دبابات ولواء دبابات و٥ افواج للحراسة تابعة للعدو . ومنيت بخسائر هامة فرقة الاس اس الآلية «المانيا العظمى» وفرقة الدبابات الخامسة . وحطمت وغنمت ٢٥٢ دبابة ومدفع هجوم . وابلغته ايضا بالمهمات اللاحقة للقوات . وقد استمع ستالين بصبر ، وكان من فينة الى اخرى يطرح اسئلة للتدقيق . واذ انهى حديثه تمنى نجاحات مطردة لقوات الجبهة ولى شخصيا . وفى اليوم التالى تلقينا أمر القائد الاعلى بالاعراب عن الشكر (للمرة العاشرة) لقوات جبهة البلطيق الاولى على النجاحات التى حققتها .

وبعد يومين قدمت وفاسيليفسكى تقريرا عن تنفيذ كل المهمات

الموضوعة امام الجبهة . فى خلال عملية ميميل حطمت قوات الجبهة البيلوروسية الاولى بمساعدة الجيش التاسع والثلاثين للجبهة البيلوروسية الثالثة دفاع العدو تماما . واذ طورت القوى المتحركة للجبهة النجاح فى العمق ، وصلت فى ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) الى شاطىء بحر البلطيق شمال وجنوب ميميل (كلايبيدا) وحاصرت المدينة والميناء من اليابسة ، ووصل تجمع آخر لقوات جبهتنا الى الحدود مع بروسيا الشرقية عند تاوراغى . وحطمت ٤٢٠ دبابة وقرابة الف مدفع ومدفع هاون او غنمت فى حالة صالحة للاستخدام .

وهكذا ، فان جبهة البلطيق الاولى نفذت تماما ، فى عملية ميميل ، المهمة التى وضعتها القيادة العليا : عزلت مجموعة جيوش «الشمال» عن بروسيا الشرقية مجددا ، والى الابد فى هذه المرة . واحبطت خطة القيادة الفاشية – الالمانية لسحب قوات هذه المجموعة الى بروسيا الشرقية ، فاضطرت الى الانسحاب العاجل من ريغا الى شبه جزيرة كورلانديا .

يمكن القول بثقة أن النجاح قد ضمنته الى درجة كبيرة معرفة فاسيليفسكى الخارقة تقدير الموقف بسرعة وتوصية القيادة العليا بقرارات جريئة ، مبتكرة وضعت فى مأزق حتى قادة هتلريين ماهرين كما هو ، ولا شك ، شأن الجنرال فيلدمارشال شورنير .

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار انه كان من الصعب بصورة لا تصدق على فاسيليفسكى أن يعمل فى تلك الفترة . فقد اصيب فى حادث سيارة بارتجاج فى الدماغ وبكسر فى ضلعين .

واليكم كيف يتحدث عن هذا :

«فى خلال المعارك من اجل منطقة البلطيق جرى لى حادث مزعج . عند المساء كنت ذاهبا من عند بيريمينكو فى مقر القيادة الى باغراميان . فى الطريق اندفعت فى اتجاهنا سيارة «فيليس» بسرعة خارقة . كان ضابط يجلس خلف المقود . وقد اصطدمت بسيارتنا قبل ان نتمكن من تغيير الاتجاه او التوقف . وطرنا من السيارة انا والضباط الذين معى . وقفت بصعوبة وانا اشعر بألم شديد فى رأسى وجنبى . نظرت ، فاذا بملازم اول شاحب كالموت يقترب منى ويمد الىّ مسدسه . قال بصوت مرتجف :

– ايها الرفيق المارشال ، اطلق علىّ النار ، انا استحق هذا . لقد بدا كذلك اما لانه كان ثملا ، او بفعل الصدمة . أمرته

بأن يأخذ سلاحه ويتوجه الى الوحدة ويبلغ بما حدث . وبقيت عشرة ايام مستلقيا فى مقر قيادة المجموعة . واضطررت الى ان اشفع للمسؤول عن الحادث ، لأنهم نووا تقديمه الى المحكمة العسكرية . هذا الملازم الاول الذى لا اتذكر اسمه ، كان آمر سرية مخابرات ، وفى الليلة نفسها نفذ مهمة معقدة على نحو رائع . وبعد مدة من الوقت منح ، كما قيل لى ،لقب بطل الاتحاد السوفييتى» .

فى رايى ان انسانية فاسيليفسكى قد تجلت فى هذه الحادثة بسطوع خاص .

فى الفترة النهائية لعملية البلطيق كان فاسيليفسكى يحب بعد الطعام أن يتحدث ، وقد اشعل غليونه ، عن مواضيع بعيدة عن الحرب . كان يسألنى عن شبابى ، وعن حياة شعوب القفقاس الذى لم يتسن له الاقامة فيه الا وقت الاجازات الصيفية . وكان فاسيليفسكى بدوره يتحدث عن نفسه بما عرف عنه من دعابة وصراحة آسرة . وهكذا ، فقد حدثنى عن ابيه ، القس فى ايرشية صغيرة فى الريف . كان انسانا شريفا يتمتع باحترام ابناء قريته . حينما كانوا يقومون بتصليح الكنيسة ، اخذ رسامو الايقونات يستشيرون اباه كيف يمكن تصوير الشيطان بصورة ارهب . وقال القس ان أنسب نموذج هو شرطى القرية الذى كان وجهه تجسيدا للحقد الشيطانى . واخذت هذه التوصية فى الاعتبار . وكان ابناء القرية يرون فى الشيطان ، بتهكم ظاهر ، معذبهم ، الشرطى . . . ان ابا فاسيليفسكى ، وقد سمع يوما من هذا الشرطى نفسه انه سيجرى تفتيش بيت معلمين يقطنان فى الجوار ، أمر ابنه ان يذهب الى الجارين ويأخذ من عندهم المطبوعات الممنوعة .

تعلم فاسيليفسكى فى مدرسة دينية ، لان اعطاءه تحصيلا علميا آخر كان فوق طاقة ابويه اللذين كان عندهما الكثير من الاولاد . وفيما بعد لم يشأ ان يكرس نفسه للخدمة الدينية ، بل اراد ان يصبح معلما او مهندسا زراعيا .

ان فاسيليفسكى المفعم بالشعور الوطنى ، انضم فى عام ١٩١٤ الى الجيش . ارسل فى البداية الى مدرسة الكسى الحربية فى موسكو ، وبعد ان انهى دورة سريعة فيها ارسل الى الجبهة . وبدات حياة القتال مع ما يرافقها من عمل حربى شاق وخطر . صار فاسيليفسكى يفكر

على نحو متزايد فى معزى ما يجرى وبدأ يدرك الجوهر القذر للمجزرة الامبريالية . ولكنه ، وهو الانسان الانضباطى ، كان يتطلع الى ان يصبح آمرا جيدا . عهد اليه بنصف سرية ، ثم قاد سرية . واصبحت سرية فاسيليفسكى افضل وحدة فى الفوج من حيث التدريب والانضباط العسكرى والقدرة القتالية . كان الآمر صارما مع مرؤوسيه وعادلا فى الوقت نفسه ، وعاش مع الجنود حياة واحدة ، وكان يهتم يوميا بحياتهم الصعبة على الجبهة ، مثيرا ابتسامة ساخرة لدى الضباط النبلاء . اما الجنود فكانوا يقفون من آمرهم موقف الاحترام . وارتقى فى معارج الخدمة ورفع الى رتبة ملازم اول .

حينما وصل الى الجبهة خبر ثورة شباط (فبراير) انتخب الجنود ذوو المزاج الثورى فاسيليفسكى لسوفييت نواب الجنود . وحينما نشبت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى كان فاسيليفسكى فى قطاع الجبهة الواقع فى رومانيا . وقد استقبلت اغلبية الجنود وضباط الصف اكتوبر العظيم بحماسة . وكان فاسيليفسكى الى جانبهم . وهذا ما اثار لدى الضباط الملكيين كراهية شديدة له .

بعد ثورة اكتوبر ما لبث فاسيليفسكى ان ذهب فى اجازة ، ولكنه تلقى ، وهو فى البيت ، اعلاما من لجنة جنود الفوج بانتخابه آمرا للفوج وبضرورة عودته لاستلام منصبه . ولما لم يتسن لفاسيليفسكى الوصول الى الجبهة الجنوبية ، حيث كان يوجد الفوج ، وضع نفسه تحت تصرف اللجنة العسكرية المحلية . لقد جرفت الموجة الثورية الآمر الشاب ، فاقبل بحماسة على خدمة السلطة السوفييتية كاختصاصى عسكرى .

ان فاسيليفسكى ، اذ استعرض فى خريف عمره محصلة حياته ، عرف هذه السنوات كسنوات حاسمة فى اختيار طريقه فى الحياة . وقال عن هذا : «وتحقق اخيرا حلمى الذى حملته منذ الايام الاولى لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى تقريبا . ففى ايار (مايو) قبلت فى الجيش الاحمر ، واصبحت ضابطا فيه . ومنذ ذلك الحين اصبح طريق حياتى اللاحق مستقيما وواضحا بالنسبة الى» .

انه ، وقد التحق بالجيش الاحمر ، ساهم بنشاط فى الحرب الاهلية ، حيث قاد كتيبة ، ومن ثم قاد لبعض الوقت فوج مشاة فى الجبهة الغربية . وبعد ذلك قاد فاسيليفسكى على التوالى فى غضون عشر سنوات كل افواج المشاة فى فرقة المشاة الثامنة والاربعين التى

كانت ضمن منطقة العاصمة العسكرية . واجتاز فى عام ١٩٢٦ دراسة لمدة سنة فى دورات المشاة التكتيكية لتطوير الملاك القيادى . وفى الثلاثينات عين فاسيليفسكى ، الذى اصبح يتمتع بتجربة كبيرة فى الاعداد القتالى للقوات ، فى ادارة الاعداد القتالى للجيش الاحمر ، ومن ثم تراس قسم الاعداد القتالى فى منطقة الفولغا العسكرية . وهناك أثر فيه تأثيرا كبيرا رئيس اركان المنطقة حينذاك فارفولوميف ، الخبير الرائع فى اساليب التعليم والمنظر العسكرى البارز .

بعد الحديث عن الماضى كنا نعود طبعا الى الشؤون اليومية .

ما لبث مصيرى ومصيره العسكريان ان تلامسا اكثر فاكثر فى المرحلة الختامية من الحرب زمن المعارك فى بروسيا الشرقية ، قدر لنا مجددا ان نعمل يدا بيد ، كما يقال . فبعد مقتل جنرال الجيش تشيرنياخوفسكى عين فاسيليفسكى قائدا لقوات الجبهة البيلوروسية الثالثة العاملة فى بروسيا الشرقية . حدث هذا فى اواخر شباط (فبراير) ، وقبل ذلك ببعض الوقت كانت ادارة جبهة البلطيق الاولى وجزء من القوات قد نقلا من اراضى منطقة البلطيق السوفييتية الى بروسيا الشرقية . وقد تعاونا بنجاح مع قوات تشيرنياخوفسكى . كان اللقاء بينى وبين فاسيليفسكى وديا ، وحدثنى بالتفصيل عن سبب تعيينه فى منصب القائد .

ان فاسيليفسكى ، وقد وصل الى موسكو فى ١٨ شباط (فبراير) ، اعلم القائد الاعلى بواقع الامور فى بروسيا الشرقية . فاوصاه القائد الاعلى على الفور بالعودة الى هناك لمساعدة القوات والقيادة ، منوها بان القضاء على العدو باسرع وقت سيمكن من ارسال جزء من قوات جبهة البلطيق الاولى والجبهة البيلوروسية الثالثة لتعزيز اتجاه برلين ، ويمكن من اعداد الجزء الآخر لارساله الى الشرق الاقصى .

ونصح ستالين فاسيليفسكى ان يعين لهذا الهدف افضل جيشين او ثلاثة . وحذره من انه بعد استسلام المانيا بشهرين او ثلاثة سيرسل هو ايضا الى الشرق الاقصى لقيادة الاعمال القتالية ضد اليابان . ونستطيع القول ، مستبقين تسلسل الاحداث ، ان جيشين من اصل ثلاثة جيوش عامة نقلت فى ايار – حزيران (مايو – يونيو) عام ١٩٤٥

من الغرب الى الشرق (وهما الجيشان الخامس والتاسع والثلاثون) قد شكلا فعلا من القوات العاملة فى بروسيا الشرقية .

فى نهاية الحديث طلب فاسيليفسكى من ستالين اعفاءه من منصب رئيس الاركان العامة ، معللا هذا بانه سيكون فى الجبهة اغلب الوقت لتنفيذ اوامر القيادة العليا ، ولن ياتى الى موسكو الا من حين الى حين . واقترح فاسيليفسكى ان يثبت فى هذا المنصب جنرال الجيش انطونوف الذى كان يؤديه عمليا . وطلب المارشال فاسيليفسكى ان يبقى له منصب نائب مفوض الشعب للدفاع .

واذ سمع ستالين هذا ، سأله بدهشة :

– الن تستاء من قرار كهذا ؟

ان ستالين ، وقد سمع رد فاسيليفسكى الايجابى ، توجه الى انطونوف الذى كان حاضرا هناك وسأله عن موقفه من هذا . قال انطونوف انه لا يشاطر فاسيليفسكى رأيه . وعد ستالين انه سيفكر فى الأمر ، ووقع مرسوم القيادة العليا الذى ينص على انه ينبغى لفاسيليفسكى ان يأخذ على عاتقه منذ ٢٢ شباط (فبراير) قيادة الاعمال القتالية للجبهة البيلوروسية الثالثة وجبهة البلطيق الاولى . وفى الختام سمح ستالين لفاسيليفسكى ان يبقى يومين مع اسرته ويذهب الى المسرح ، وطلب منه ان يعرج اليه مجددا فى التاسع عشر من الشهر مساء .

جرى هذا الحديث ليلا . وفى ١٨ شباط (فبراير) وصل نبأ مفاده ان تشيرنياخوفسكى اصيب بجرح قاتل فى منطقة ميلزاك .

علم فاسيليفسكى بهذا وهو فى مسرح البولشوى مع زوجته . فى خلال العرض اقترب منه ضابط وقال ان القائد الاعلى يطلب المارشال بالتلفون . اخبره ستالين بهذا النبأ المحزن وقال ان القيادة العليا تنوى وضعه على رأس الجبهة البيلوروسية الثالثة .

لم يخف فاسيليفسكى حزنه لوفاة تشيرنياخوفسكى . فقد كان يعرفه عن كثب وبصورة جيدة ويقدره كقائد موهوب وشيوعى شريف بنقاء البلور .

جرى تعارفهما ، كما قال المارشال ، فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٣ قبل عملية فورونيج – كاستورنويه . وكان تشيرنياخوفسكى يقود الجيش الستين حينذاك . وقد اجرى اول عملية له على نطاق الجيش فى ظروف غير مؤاتية بالمرة من حيث الطقس ، ولكنه استطاع

ضبط الجيش بسرعة وتنفيذ المهمة الموضوعة على نحو رائع وتحرير فورونيج من اول يوم . وضرب الآمر الشاب مثلا ساطعا بالدرجة نفسها على المهارة الحربية باستيلاء جيشه على كورسك . فقد حطمت حامية المدينة فى غضون يوم واحد .

فى ١٩ شباط (فبراير) مساء زار فاسيليفسكى القائد الاعلى مرة اخرى قبل الذهاب الى الجبهة . واعطاه ستالين جملة من النصائح والارشادات المتعلقة بالعمل المقبل . وعند الوداع تمنى له ولقواته النجاحات والانتصارات . وفى قاعة الاستقبال سلم بوسكريبيشيف المارشال مغلفين .

فى احدهما أمر القيادة العليا بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) . وهو يتحدث عن تعيين فاسيليفسكى قائدا لقوات الجبهة البيلوروسية الثالثة . ووجد فى المغلف الثانى وثيقة كان مضمونها مفاجئا : انه مرسوم لجنة الدولة للدفاع ، وبناء عليه ادرج فاسيليفسكى ، خلافا لما كان ينص عليه مرسوم لجنة الدولة للدفاع بتاريخ ١٠ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ ، فى القيادة العليا للقوات المسلحة .

سأل المارشال بوسكريبيشيف عن سبب هذا المرسوم . فعلى امتداد الحرب باسرها تقريبا لم يكن فاسيليفسكى ، رئيس الاركان العامة ونائب مفوض الشعب للدفاع ، عضوا فى القيادة العليا من الناحية الرسمية . اجاب بوسكريبيشيف مبتسما انه يعرف عن هذا قدر ما يعرف فاسيليفسكى نفسه .

قد يتساءل القارئ عن السبب الذى حدا بستالين الى تعيين فاسيليفسكى قائدا لقوات الجبهة . اعتقد ان القائد الاعلى قرر ان يعرف ما اذا كان فاسيليفسكى يستطيع تأدية وظائف القائد التى تختلف عن وظائف ممثل القيادة العليا . اذ ان مسألة تعيين فاسيليفسكى فى منصب القائد العام فى الشرق الاقصى كانت قد قررت مسبقا .

ولكن فلنعد الى شؤون بروسيا الشرقية . ان عمل وعمل المارشال فاسيليفسكى سارا باتساق فعلا . فهنا بالذات ادركت تلك الخاصية الرائعة لموهبة فاسيليفسكى القيادية ، واعنى بها الثقة بالمرؤوسين وتشجيعهم على المبادرة بكل السبل . وقد كلفنى واركان مجموعة زيملاند التى يترأسها الجنرال كوراسوف بالتخطيط لعملية كينيغسبيرغ ، اما هو فتفرغ تماما لقضايا ابادة مجموعة

هيلسبيرغ القوية جدا . ثم اشركونى كنائب له فى القيادة النشيطة لاقتحام كينيغسبيرغ وابادة تجمع العدو فى زيملاند .

ان النجاح الكامل لعمليتى هيلسبيرغ وكينيغسبيرغ امر معروف .

انخرط فاسيليفسكى فى العمل عقب وصوله مباشرة ، وعكف على مسائل التدابير القتالية للقوات وتشكيل الفرق والوحدات ، وعلى دراسة معطيات المخابرات . وقد زار الجيوش واقتنع بان قادة الوحدات والتشكيلات يعرفون مهماتهم القتالية .

وجهت فى وقت واحد ضربتان من الشرق والجنوب الشرقى فى اتجاه هيليغينبيل العام . والمهمة هى تمزيق التجمع المعادى وابادته جزءا جزءا . جرى بنجاح اقتحام منطقة هيلسبيرغ المحصنة . وقد قتل فى المعارك الضارية قرابة ٨٠ الفا واسر ٥٠ الفا من الجنود والضباط الالمان ، وتم الاستيلاء على اكثر من ٦٠٠ دبابة ومدفع مجوم و٣٥٦٠ مدفع ميدان ، و١٢٨ طائرة .

وبعد ذلك جاء دور تحطيم كينيغسبيرغ ، وكر العسكرية الالمانية .

لقد بنى الهتلريون حول كينيغسبيرغ ثلاثة مواقع دفاعية مع منشآت طويلة الامد وحواجز مضادة للدبابات . وكان الاول مكونا من عدة اشرطة لموانع متواصلة وحقول الغام ، وفيه ١٥ طابية قوية فى كل منها حاميات كبيرة . وكان الموقع الثانى يقع على تخوم المدينة ويشمل مبانى حجرية ومتاريس ونقاطا خرسانية لاطلاق النار . والموقع الثالث الذى يحزم وسط المدينة مكون من العديد من الحصون والاستحكامات والابراج . وكان بضعة الاف من غلاة الفاشيين يدافعون عن القلعة القديمة فى وسط المدينة – الحصن . وتضم حامية كينيغسبيرغ ، التى كان الجنرال اوتو لاش قومندانها ، قرابة ١٣٠ الف شخص و٤٠٠٠ مدفع ومدفع هاون و١٠٨ دبابات ومدافع ذاتية الحركة و١٧٠ طائرة .

ان خطة اقتحام هذه القلعة المنيعة ، كما كان يعتبرها الهتلريون ، قد اعدت بالتفصيل ، وهى تتلخص فى قسم قوى الحامية بضربات قوية من الشمال والجنوب فى اتجاهين متقابلين والاستيلاء على المدينة بالانقضاض عليها .

كانت خطة تحطيم تجمع العدو فى كينيغسبيرغ تأخذ فى الاعتبار

ان العدو سيدافع بضراوة عن آخر نقطة ارتكاز فى بروسيا الشرقية . وقرر لتقييد تجمع العدو فى زيملاند توجيه ضربة اضافية وجهة بيلاو .

قبل اقتحام القلعة تفقد فاسيليفسكى القوات معى . وتحدث باعجاب عن الاعداد الدقيق للتعاون بين كل اصناف القوات . وفى ٣ نيسان (ابريل) وصل فاسيليفسكى الى مقر قيادة جيش الحرس الحادى عشر الذى كان عليه ان يستولى على الجزء الجنوبى من المدينة . ان فاسيليفسكى ، وقد اطلع على الوضع واستمع الى التقرير ودقق مهمة الجيش ميدانيا ، وافق على قرار قائد الجيش ، مدخلا عليه بعض التعديلات والتدقيقات . وتوجه برفقة قائد الجيش عبر الانفاق الى الموقع الامامى ، الى خنادق فرقة موسكو – مينسك الاولى ، وتأكد من استعداد الوحدات للانقضاض وتحدث مع الجنود عن المعارك المقبلة .

وفى اليوم التالى زار فاسيليفسكى مقر قيادة الجيش الخمسين . وتحدث الجنرال بولدين قائد الجيش عن نية الاستيلاء على الطابية الصغيرة بضربة ليلية مفاجئة واحداث ثغرة على هذا النحو فى الدفاع المتماسك للعدو . وهذا من شانه ان يسهل اقتحام المدينة . واقر قائد الجبهة الخطة المقدمة .

ثم ذهب فاسيليفسكى الى المنطقة الواقعة شمال شرق كينيغسبيرغ واقام فى مقر قيادة مجموعة قوات زيملاند . وقد اطلع باهتمام على تفاصيل الانقضاض المقبل واعرب عن الارتياح لما تم من عمل .

فى ٦ نيسان ١٩٤٥ بدأ الانقضاض العاصف والقوى على وكر المعتدين الفاشيين . وانهالت المدفعية السوفييتية على كينيغسبيرغ بالوف الاطنان من القنابل والقذائف . واندفعت الى الهجوم مجموعات الانقضاض تدعمها الدبابات والمدافع الذاتية الحركة . ووجه الطيران ضربات قوية . وكانت القوات الفاشية تدافع بعناد اعمى . بيد ان شيئا لم يكن فى وسعه مجابهة هجوم النار والحديد والارادة الراسخة للقوات السوفييتية .

وفى ٩ نيسان (ابريل) كانت راية النصر الحمراء ترفرف فوق كينيغسبيرغ . ولم يحتج الانقضاض الى اكثر من ثلاثة ايام . لم يستطع هتلر الاذعان لفقد المدينة التى اعلنها افضل قلعة

المانية فى تاريخ المانيا باسره و«حصنا منيعا تماما للروح الالمانية» ، وفى سورة غضب عاجز حكم بالاعدام على الجنرال لاش الذى استسلم للاسر .

فى المدينة وضواحيها اسرت القوات السوفييتية قرابة ٩٢ الف شخص واستولت على ٣,٧ الف مدفع ومدفع هاون و١٢٨ طائرة و٩٠ دبابة والعديد من الاعتدة والذخائر القيمة الاخرى .

فى عشية ١٠ نيسان (ابريل) حيت موسكو عاصمة وطننا اقدام وبسالة ومهارة ابطال اقتحام القلعة البروسية باربع وعشرين طلقا مدفعيا من ٣٢٤ مدفعا . وما لبثت ان احدثت ميدالية «لقاء الاستيلاء على كينيغسبيرغ» .

لدى تحليل نشاط فاسيليفسكى فى منصب قائد قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة ، يمكن القول بكل ثقة ان اسلوبه القيادى الرائع قد تجلى هنا بدقة ووضوح . ففى ايام معدودة درس الوضع تماما واظهر تلك الحلقات فى السلسلة التكتيكية التى يمكن بالقبض عليها جر السلسلة بأسرها ، اى تصفية رأس الجسر فى بروسيا الشرقية . وحدد تتابع الاعمال بصلابة لا يتسم بها الا القادة ذوو الارادة القوية جدا : فى البداية تحطيم تجمع هيلسبيرغ ، ثم الانقضاض على كينيغسبيرغ ، واخيرا سحق قوات العدو فى شبه جزيرة زيملاند . انه ، وقد كلفنى بكل ما يرتبط بالتخطيط لاقتحام كينيغسبيرغ ، كان يبدو وكانه غرق تماما فى تنظيم عملية هيلسبيرغ وقادها بصورة ملموسة ودقيقة الى درجة خارقة . وما ان اصبحت النهاية فى هيلسبيرغ واضحة حتى تحول فاسيليفسكى الى كينيغسبيرغ . ومما كان يبعث دهشتى المشوبة بالارتياح انه كان يفهم من مجرد التلميح كل ما كان يجرى من حديث عن الانقضاض المقبل . واشار ، بين امور اخرى ، الى انه لو كان هو الذى خطط للعملية ، لفعل ما نقترحه بالذات .

اتذكر اننى حينما اخذت احدثه عن اننا قررنا توجيه الضربة الرئيسية من الشمال الغربى والجنوب الغربى ، قاطعنى معلقا :

– صحيح تماما ، لاننا على هذا النحو نضرب القلعة من جانبيها ومؤخرتها . وهذا يعنى ان الجزء الاكبر من التحصينات فى قسمها الشرقى لن يستخدمه لاش ، لان الحامية ستتعرض للضرب فى اضعف مكان ، فى مؤخرتها . . .

اصبح واضحا ان المارشال ، اذ كان فى منطقة هيلسبيرغ ، درس بدقة كل خصائص تحصينات كينيغسبيرغ .

فى بروسيا الشرقية اجتاز فاسيليفسكى بشرف اصعب امتحان قيادى واظهر كل مواهبه كستراتيجى عسكرى كبير ، وكل صفاته التنظيمية الرائعة . ان كل قادة الجبهة ، وهم جنرالات ذوو تجربة واسعة مثل كريلوف ولودنيكوف وغاليتسكى وبيلوبورودوف ، قد اعلنوا ان مستوى قيادة قائد الجبهة الجديد كان فوق كل اطراء .

حينما كنت انا وفاسيليفسكى منهمكين فى قيادة القوات فى بروسيا الشرقية تتبعنا مع ذلك تطور المعركة من اجل برلين باهتمام .

فى ٢٥ نيسان (ابريل) اتحدت قواتنا بقيادة المارشالين جوكوف وكونيف غرب برلين ، فاحكمت حصار تجمع للعدو قوامه ٤٠٠ الف . ونشبت معارك ضارية فى شوارع المدينة . واذ ابدى المحاربون السوفييت اقداما وبطولة ومراسا عسكريا ، تقدموا الى وسط العاصمة الالمانية خطوة خطوة . وفى عشية ١ ايار (مايو) عام ١٩٤٥ كانت الراية الحمراء ترفرف على قبة الرايخستاغ .

لن يمحى من ذاكرتى ابدا آخر حديث بينى وبين فاسيليفسكى فى فترة الحرب ، وكان قد عين قائدا للقوات السوفييتية فى الشرق الاقصى . جرى ذلك ، اذا لم تخنى الذاكرة ، فى ٢٦ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٥ . وكنت غارقا الى راسى فى الشؤون المرتبطة باقتحام قلعة بيلاو ، آخر حصون الفاشيين فى بروسيا الشرقية ، حينما استدعانى فاسيليفسكى وقال :

— الرفيق ستالين يدعونى الى موسكو على جناح السرعة . وقد امرت باستلام قيادة قوات الجبهة . المهمة الاساسية هى تحطيم تجمع العدو فى زيملاند فى اقصر مدة . فكر فى كيفية تحقيق هذا باقل خسائر بالنسبة الينا . هذا هو الامر الرئيسى . . . الآن يجب المحافظة على اكبر عدد ممكن من جنودنا وضباطنا . هذا ما ينبغى ان تسترشد به .

ودعنا بحرارة وسافر بالطائرة ، وقد حاولت مع الجنرال بوكروفسكى رئيس اركان الجبهة البيلوروسية الثالثة تنفيذ أمر المارشال الانسانى هذا .

ان تحقيق العملية الكلاسيكية لاقتحام قلعة كينيغسبيرغ بنجاح والحاق الهزيمة الساحقة بتجمع العدو فى زيملاند تحت القيادة الماهرة للمارشال فاسيليفسكى بينا لستالين مرة اخرى مدى ما كان مصيبا اذ عين فاسيليفسكى قائدا للقوات المسلحة السوفييتية فى الشرق الاقصى .

ذهب فاسيليفسكى الى تشيتا بعد أن اشترك فى عرض النصر على راس الفوج المركب للجبهة البيلوروسية الثالثة . لا حاجة الى القول ان فاسيليفسكى وضع كل تجربته الضخمة وموهبته القيادية فى خطة العمليات المقبلة .

وكما اتضح فيما بعد ، فان الاركان العامة اليابانية لم تستطع تخمين اتجاهات الضربات الرئيسية للقوات السوفييتية .

ان خطة حملة الشرق الاقصى التى وضعها بصورة تمهيدية ، كما كتب فاسيليفسكى ، الجنرالات انطونوف وشتيمينكو ولوموف ارضته اجمالا ، لانها اعدت بشكل يتفق تماما مع المبادئ الاساسية للفن العسكرى السوفييتى ، وكانت تراعى خصائص العقيدة العسكرية اليابانية التى ظهرت فى خلال الحرب ، وكذلك الخاصية المتميزة لميدان العمليات العسكرية . ينبغى التذكير بان العمليات المقبلة كان ينبغى لها ان تجرى فى اراض تبلغ مساحتها قرابة ١,٥ مليون كيلومتر مربع وعلى عمق يتراوح بين ٢٠٠ و٨٠٠ كيلومتر ، وكذلك فى حوض بحرى اليابان واوخوتسك .

كان يفترض شق وابادة القوى الاساسية لجيش كوانتون جزءا جزءا بثلاث ضربات مركزة تلتقى فى وسط منشوريا . وخصص الدور الاساسى لقوات جبهة ما وراء بايكال التى هجمت من منغوليا . ووجهت ضربتين اخريين قويتين وقويتين جدا جبهة الشرق الاقصى الاولى من بريموريه وجبهة الشرق الاقصى الثانية من منطقة جنوب غرب خاباروفسك . وكان من المقرر التعاون الوثيق مع القوات البحرية .

ان فاسيليفسكى ، وقد وصل الى تشيتا فى ٥ تموز (يوليو) ، انهمك على الفور فى القضايا التى لم يكن فى الوسع حلها الى النهاية فى موسكو . فقد توصل ، مثلا ، الى نقل القوات والموارد المادية بدقة . فى ايار — تموز (مايو — يوليو) كان يوجد على الخطوط الحديدية لسيبيريا وما وراء بايكال والشرق الاقصى عدد من العسكريين السوفييت يصل الى المليون . وكانت تشحن وتنقل المدافع

والدبابات والسيارات والوقود والاغذية الخ . وبسبب النقص في الوقود كادت هذه الحمولات ان تتأخر . وحصل فاسيليفسكي على السماح باستخدام الفحم من احتياطيات الدولة المحرمة .

واتخذ القائد العام كذلك اجراءات لحث وتائر تكديس الذخائر . وكان لسعة اطلاعه دورها ايضا حينما اكتشف نقص في صهاريج الماء ، الأمر الذي ينطوي في ظروف تحرك القوات في الصحراء على عواقب خطيرة .

بتوصية من فاسيليفسكي عين الجنرال ايفانوف رئيسا لاركان القيادة العامة . وشغل المناصب القيادية في الاركان الجنرالات والضباط الذين قدموا مع القائد العام ، وكذلك العاملون في اركان الشرق الاقصى . ومما كان يتطلب اهتمام فاسيليفسكي ايضا تجهيز خدمة المواصلات والمؤسسات الطبية وتنظيم صيانة المدرعات والعديد من الامور الاخرى .

بعد ان حل فاسيليفسكي القضايا التنظيمية المبدئية ، ذهب الى القوات . تفقد قبل كل شيء الاتجاهات الاساسية لجبهة ما وراء بايكال ، وقام باستطلاع دقيق بالاشتراك مع مالينوفسكي وقادة الجيوش ، وتعرف الكوادر القيادية . ومن الطبيعي ان تظهر في خلال عمله في الجيوش والفرق افكار جديدة ، فقد اتضح ، مثلا ، ان جيش الدبابات السادس يستطيع اجتياز جبال شنغان الكبرى في اليوم الخامس من العملية في الاكثر ، لا في اليوم العاشر ، كما كان مخططا له . وتبين ان من الممكن تقليص المدة اللازمة لوصول جيوش القوات العامة الى سهل منشوريا .

وصل فاسيليفسكي الى الجيش التاسع والثلاثين قبل الهجوم بامد قصير ، واصغى باهتمام الى تقرير القائد لودنيكوف ، وقال للعقيد فولوشين رئيس مخابرات الجيش :

– الشرق الاقصى منطقة جديدة بالنسبة الي . اطلعني على كل المعطيات التي عندك ، وسوف اصغي اليك كتلميذ يقظ .

فتحدث العقيد بكل المعلومات عن العدو ، وعن خصائص منطقة خط تحرك الجيش .

قال فاسيليفسكي عند الوداع :

– يتعطش شعبنا وكل الشعوب الى الهدوء بعد الحرب الكبيرة في الغرب . يجب تحطيم آخر معتد في اقصر وقت ممكن .

ثم عمل القائد العام باتقان مع ميريتسكوف وبوركاييف قائدي جبهتي الشرق الاقصى الاولى والثانية . واجريت تدريبات ضرورية جدا للافراد الذين لم يتلقوا تجربة قتالية بحكم وجودهم في الشرق الاقصى . وفي الوقت نفسه درس المساهمون في المعارك ضد الجيش الالماني العدو الجديد وخصائص ميدان العمليات العسكرية . واهتم فاسيليفسكي بالجانب المعنوي والسياسي للمعارك المقبلة ، فكان يتحدث مع المحاربين في كل مكان ، مستوضحا امزجتهم وحاجاتهم .

يمكن فهم مدى التوتر الذي كان يعانيه القائد العام في تلك الايام ، اذ ان المسؤولية عن نجاح الحملة كانت تلقى عليه بكل عبئها الثقيل .

في ٧ آب (اغسطس) ورد أمر القيادة العليا ببدء العمليات العسكرية . وقد ابلغت الحكومة السوفييتية حكومة اليابان ان الاتحاد السوفييتي يعتبر نفسه في حالة حرب مع اليابان منذ ٩ آب (اغسطس) .

في ١٠ آب (اغسطس) عام ١٩٤٥ وصفت جريدة «نيويورك هيرالد تريبيون» الاميركية دخول الاتحاد السوفييتي الحرب ضد اليابان على النحو التالي : «لقد دخل الاتحاد السوفييتي الحرب ضد اليابان كصديق للبشرية ، واضعا امامه هدفا اساسيا ، وهو اطفاء لهيب الحرب الاخير الذي يشتعل الآن في العالم . انه لمن النادر ان تبدأ في وقت ما عمليات عسكرية لاعتبارات اكثر نبلا» .

ما ان ورد الأمر الى القوات بمباشرة العملية ، حتى بدأت هناك اجتماعات حاشدة شرح فيها ان الجيش الاحمر ينطلق الى مساعدة الشعب الصيني وغيره من شعوب الشرق الاقصى . واقسم المحاربون على ان ينفذوا أمر الوطن بشرف .

في ٩ آب (اغسطس) في الساعة صفر وعشر دقائق حسب التوقيت المحلي انتقلت القوات الى الهجوم . واذ تغلبت وحداتنا على مقاومة العدو العنيدة ، تحركت بنجاح الى الامام في كل الاتجاهات . ان قوات جبهة ما وراء بايكال ، اذ اجتازت غوبي وشنغان وقطعت خلال ستة ايام من ٢٥٠ الى ٤٠٠ كيلومتر ، وصلت الى المناطق الوسطى من منشوريا . وفي ذلك الوقت كان محاربو جبهة الشرق الاقصى الاولى ، بعد ان حطموا الدفاع القوي لجيش كوانتون ، قد تقدموا في عمق منشوريا مسافة ١٢٠–١٥٠ كيلومترا واشتبكوا في

معارك من اجل مدينة مودانتسزيان . وحققت قوات جبهة الشرق الاقصى الثانية نجاحات كبيرة ايضا . ومع نهاية يوم ١٤ آب (اغسطس) كان جيش كوانتون قد مزق واصبح على شفير الكارثة .

لقد قررت الضربات الرئيسية للجبهات فى الاتجاهات التى لم يتوقع فيها العدو اعمالا هجومية واسعة اجمالا . كان مفاجأة تامة لليابانيين ظهور جيش جبهة ما وراء بايكال المدرع فى المنحدرات الشرقية لشنغان الكبرى فى منطقة توتسوان ولوبيه ، شأن وصول جيش جبهة الشرق الاقصى الاولى الى منطقة مودانتسزيان عبر الجبال والمستنقعات والتايغا التى كان اجتيازها يعتبر مستحيلا . وقد صرح القائد السابق للجيش الياباني الخامس : «لم نكن نتوقع هذه الضربة الخاطفة من الروس ، ولذا لم نتمكن من تنظيم الدفاع كما ينبغى . لم نفكر على الاطلاق فى ان الجيش الروسى سيجتاز التايغا ، وستظهر تلك القوة الجبارة من جهة مناطق صعبة الاجتياز» .

كان ادراج الجيش السادس للدبابات ومجموعة الخيالة الآلية فى النسق الاول لجبهة ما وراء بايكال قرارا فريدا من نوعه . وهذا ما مكن من اجراء العملية بوتائر عالية . واذ اجتازت الفصائل الامامية لجيش الدبابات ٧٠٠-٧٧٥ كيلومترا فى خلال المعارك ، وصلت فى اليوم الثانى عشر الى موكدين وتشانغتشسون . وكان اختراق قوات جبهة الشرق الاقصى الاولى ليلا شريط المناطق المحصنة أمرا هاما وحافلا بالدروس . وقد وجهت الضربات الى نقاط التماس بينها بصورة مفاجئة . وهذا ما مكن من تذليل كل شريط المناطق المحصنة منذ اليوم الاول من الهجوم بقوى واعتدة قليلة وبدون تمهيد مدفعى تقريبا .

كانت الاعمال العسكرية للقوات السوفييتية فى منشوريا تحمل طابع مناورة كبرى ، لأن جبهات الشرق الاقصى كانت حافلة بالوحدات المدرعة والآلية التى استخدمت بمهارة .

منذ بداية الاعمال العسكرية قدم فاسيليفسكى الى مقر قيادة جبهة الشرق الاقصى الاولى وركز كل اهتمامه على قيادة القوات . ومع تصاعد النجاحات فى القتال كانت تبرز فى المقام الاول القضايا ذات الطابع العسكرى – السياسى .

واذ رأت الحكومة اليابانية هزيمة جيش كوانتون ، اعلنت الاستسلام فى ١٤ آب (اغسطس) ، ولكنها لم تعط القوات فى منشوريا

اوامر فى هذا الخصوص . وتابعت قواتنا العمليات القتالية .

فى ١٧ آب (اغسطس) قدم القائد العام بالراديو الى قائد جيش كوانتون طلبا قطعيا ان يعطى الحاميات اليابانية أمرا بالتوقف عن القتال . وفى اليوم نفسه احاطت القيادة اليابانية فاسيليفسكى علما بان هذا الأمر قد اعطى . ولكن حتى بعد هذا استمرت بعض حاميات القوات اليابانية بالمقاومة .وأمر القائد العام بالقيام بانزال جوى فى ماربين . بعد نجاح الانزال قدم الفريق هاتا رئيس اركان جيش كوانتون لاجراء محادثات مع قيادة قوات الانزال . واقترح عليه الذهاب فى ١٩ آب (اغسطس) الى القائد العام للقوات السوفييتية فى مقر قيادة جبهة الشرق الاقصى الاولى . وكما قال فاسيليفسكى فيما بعد ، فان هاتا والاشخاص المرافقين له كانوا فى حالة يرثى لها . ولم يبق اثر لغطرستهم العسكرية . وقد وافقوا على شروط الاستسلام ، وعينت بعد ذلك اماكن نزع سلاح كل تشكيلة واستسلامها للأسر ، وحدد ترتيب تسليم المستودعات .

ومع كل هذا استمرت الاعمال القتالية ، فقد ابدى العدو ، مثلا ، مقاومة ضارية فى جنوب سخالين وجزر كوريل .

استمرت عملية جنوب سخالين من ١١ الى ٢٥ آب (اغسطس) ، وعملية كوريل من ١٨ آب (اغسطس) الى ١ ايلول (سبتمبر) . وفى كلتا العمليتين نفذت القوات السوفييتية بنجاح المهمات المكلفة بها . وفى اواخر آب (اغسطس) انتهى تماما نزع سلاح جيش كوانتون وجيش منشوكو وقوات منغوليا الداخلية ومجموعة جيوش سويوان ، وكذلك تحرير منشوريا وشبه جزيرة ليياوتنغ وكوريا الشمالية حتى خط العرض ٣٨ . واستسلمت اليابان بلا قيد او شرط . وهكذا ، انجزت بنجاح الحملة العسكرية للقوات المسلحة السوفييتية فى الشرق الاقصى .

ان فاسيليفسكى ، وقد انهى محادثاته مع الجنرال هاتا ، ذهب الى خاباروفسك التى كانت اركانه قد انتقلت اليها فى ذلك الوقت . كان يرد الى الاركان سيل من التقارير . وكانت تتحدث عن النجاحات القتالية للقوات السوفييتية ، وعن اسر القوات اليابانية ، وعن ان السكان المحليين يستقبلون المحاربين السوفييت بسرور .

اتخذ القائد العام وقادة الجبهات كل الاجراءات الممكنة لتطبيع الحياة فى الاراضى المحررة .

فى مستهل ايلول (سبتمبر) طار فاسيليفسكى الى هاربين . واقتنع بان الجنرال بيلوبورودوف قد رتب الامور فى المدينة والمناطق المتاخمة ، ويجرى حساب الغنائم ، حيث انتزعت من جيش كوانتون ، مثلا ، مدافع بعيدة المدى ذات قوة كبيرة كانت القيادة اليابانية تنوى ان تقذف بها فلاديفوستوك وخاباروفسك وبلاغوفيشينسك .

كان الثانى من ايلول (سبتمبر) هو يوم الاستسلام النهائى لليابان الامبريالية . وكرم الوطن ابطاله بحرارة . وتلقى الجوائز الوف الجنود والرقباء والضباط والجنرالات . وقلد فاسيليفسكى نجمة بطل الاتحاد السوفييتى الذهبية للمرة الثانية .

سطرت القوات السوفييتية فى الشرق الاقصى عام ١٩٤٥ صفحة جديدة فى سفر انتصاراتها المجيد . ان العمليات العسكرية فى هذا الميدان لم تستمر طويلا ، ولكنها كانت باتساعها ومهارة تنفيذها ونتائجها من ابرز عمليات الحرب الوطنية العظمى . وكان هذا يشهد على التطور المطرد للفن العسكرى السوفييتى ويشير بوضوح ، طبعا ، الى موهبة فاسيليفسكى القيادية .

لقد حطم فى معارك متواصلة على امتداد خمسة عشر يوما اكبر تجمع لقوات العدو البرية . وفقد العدو قرابة ٧٠٠ الف جندى وضابط بينهم ٨٣٧٣٧ قتيلا و٥٩٤ الف جريح . واستولت وحداتنا على غنائم كثيرة : ١٨٣٦ مدفعا ، ٢٤٧٤ مدفع هاون ، ٦٨٦ دبابة ، ٨٦١ طائرة ، ١٣٠٩٩ رشاشا ، ٢٣٢١ سيارة .

ان العملية الستراتيجية لتحطيم جيش كوانتون عملية مبتكرة سواء من حيث الفكرة او من حيث وسائل حل المهمات . واستخدمت القيادة العامة السوفييتية فى الشرق الاقصى على نحو جيد شكل خط الجبهة البارز بعمق الى الشمال من اجل تطويق كل التجمع المعادى وتوجيه ضربات قوية جانبية الى جيش كوانتون فى اتجاهات تلتقى فى وسط منشوريا ضمن باقترانه بضربة مساعدة من الشمال الالتفاف العميق حول قوى العدو الاساسية وتمزيقها وابادتها جزءا جزءا .

فى اواخر ايلول (سبتمبر) تلقى فاسيليفسكى ايعازا بالعودة الى مفوضية الشعب للدفاع . وقد طار الى موسكو ، بعد ان سلم الأمور لمارشال الاتحاد السوفييتى مالينوفسكى وودع رفاق القتال .

فى ٣٠ ايلول (سبتمبر) بلغ فاسيليفسكى الخمسين من العمر .

وفى عشية هذا اليوم مساء استقبله ستالين . ان القائد الاعلى ، وقد سأله عن نتائج الحملة التى انتهت ، اعار اهتماما رئيسيا لقضايا انتقال القوات المسلحة الى النظام السلمى وتوزيع الكوادر القيادية . واهتم ستالين ايضا بخطط فاسيليفسكى الشخصية ، وسأله اين يود ان يعمل . وقد اجابه فاسيليفسكى :

– سوف اعمل بشرف اينما عينتنى .

وفى الصباح نشرت «برافدا» تحية لجنة الحزب المركزية ومجلس مفوضى الشعب فى الاتحاد السوفييتى الى المارشال فاسيليفسكى . وقد جاء فيها : «ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى ومجلس مفوضى الشعب فى الاتحاد السوفييتى يقدمان تحيتهما لك ، يا احد ابرز قادة الجيش الاحمر والمنظم الموهوب للقوات المسلحة للاتحاد السوفييتى ، فى يوم ميلادك الخمسين .

تتمنى لك اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى ومجلس مفوضى الشعب فى الاتحاد السوفييتى الصحة والقوة من اجل عملك المثمر اللاحق لخير وطننا» .

بمرسوم من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى قلد فاسيليفسكى وسام لينين . ان تحية لجنة الحزب المركزية والحكومة وجائزة الوطن الرفيعة كانتا بمثابة محصلة لنشاط فاسيليفسكى فى سنوات الحرب وتقدير لدوره فى النضال من اجل الانتصار على المانيا واليابان .

فى آذار (مارس) عام ١٩٤٦ ترأس فاسيليفسكى الاركان العامة من جديد ، واصبح انطونوف نائبه الاول مجددا . وقد حلت الاركان العامة المهمات الكبرى لفترة ما بعد الحرب . اذ جرى نقل القوات المسلحة الى الحالة السلمية الجديدة ، وحددت طرق تطورها ، وانجز تسريح المحاربين ، وتحققت اعادة توزيع التشكيلات .

للاسف ، ما لبث الوضع فى العالم ان اصبح بعد انتهاء الحرب مضطربا من جديد . وكان السبب يكمن فى النهج العدوانى لحليفتينا السابقتين ، الولايات المتحدة وانكلترا . وسلكت الولايات المتحدة طريق «الحرب الباردة» والاستفزازات القذرة ، مهددة باستخدام شبكة كثيفة من القواعد العسكرية ضد الاتحاد السوفييتى ، واعلنت رسميا ستراتيجية «الحرب الوقائية» . وكان من الطبيعى ان يضطر

الاتحاد السوفييتى الى اتخاذ جملة من الاجراءات الجدية لتدعيم القدرة الدفاعية للبلاد وتزويد القوات المسلحة باحدث الاسلحة .

فى ذلك الوقت بالذات ، فى آذار (مارس) عام ١٩٤٩ ، عين فاسيليفسكى وزيرا للقوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (وزيرا للحربية) وبقى فى هذا المنصب حتى آذار (مارس) ١٩٥٣ . وحينذاك نفذت تحت قيادته المباشرة كل مجموعة الاجراءات الضرورية لتدعيم الجبروت العسكرى للجيش السوفييتى واعادة تجهيزه تكنيكيا . وازدادت قدرة المدفعية على المناورة وامكاناتها القتالية . ووردت الى القوات دبابات جديدة ذات درع وتسليح قويين وسرعة كبيرة . وزود جزء كبير من القوات الجوية بطائرات نفاثة ومكبسية جديدة . وافرزت قوات الدفاع الجوى فى قسم مستقل من القوات المسلحة للاتحاد السوفييتى . وصارت تستخدم فى الطيران والدفاع الجوى وسائل الكشف الرادارى والملاحة بواسطة الراديو . وتحسن كثيرا نظام اعداد الكوادر العسكرية .

لقد كوفئ العمل الحربى للقائد البارز بثمانية اوسمة لينين ووسام ثورة اكتوبر ووسامى الراية الحمراء ووسام سوفوروف من الدرجة الاولى والسلاح الفخرى . وقلد فاسيليفسكى مرتين اعلى وسام عسكرى سوفييتى ، وسام «النصر» ، وكوفئ بالكثير من الاوسمة والميداليات السوفييتية والاجنبية الاخرى .

قسطنطين روكوسوفسكى



اشرف ثالث ايام الحرب على الانتهاء . وفى الجبهة الجنوبية الغربية نشأ وضع يثير قلقا متزايدا . وخيم الخطر ، مثلا ، على لوتسك ، حيث كان فيلق الجنرال كاربيزو الآلى الخامس عشر يحتاج الى دعم عاجل والا استطاعت اسافين دبابات العدو تمزيقه واجتياحه . وكانت بانتظار المساعدة ايضا وحدات فرقتى المشاة ٨٧ و١٢٤ التى كان يطوقها العدو قرب لوتسك .

حينما كنا فى اركان الجبهة نفكر فى كيفية نجدة تجمع لوتسك جاءت القوى الرئيسية للفرقة الآلية ١٣١ والمفارز المتقدمة لفرق الدبابات للفيلق الميكانيكى التاسع الذى كان يقوده قسطنطين روكوسوفسكى . واذ قرأنا تقريره عن هذا ، لم نصدق اعيننا . كيف تسنى ذلك لروكوسوفسكى ؟ اذ ان ما يسمى بفرقته الآلية كانت لا تستطيع التحرك الا . . سيرا على الاقدام . اتضح ان آمر الفيلق الحازم وصاحب المبادرة اخذ منذ اليوم الاول من الحرب ، مع ما فى

ذلك من هول ومخاطرة ، كل السيارات من احتياطى المنطقة فى شيبيتوفكا ، وكان عددها قرابة المئتين واجلس عليها المشاة وتحرك فى مقدمة الفيلق . واقتراب وحداته من منطقة لوتسك انقذ الوضع . فقد اوقفت دبابات العدو التى قامت بالاختراق ، وبهذا قدمت مساعدة هامة للوحدات التى كانت تتراجع فى وضع صعب .

هكذا عرفت منذ الايام الاولى للحرب الاعمال المجيدة لقسطنطين روكوسوفسكى الذى تعرفت به ، كما تعرفت بجوكوف ، فى لينينغراد ، فى دورات الفرسان لتطوير سلك القيادة .

انطبعت فى ذاكرتى بقوة تلك اللحظة التى اجتمع فيها المستمعون فى احدى القاعات ليطلعوا على برنامج الدراسة . وقد برز روكوسوفسكى بطوله الذى يكاد يبلغ المترين . مع العلم انه كان يدهش برشاقته واناقته ،لانه كان ممشوقا الى اقصى حد وذا قوام كلاسيكى حقا . كان يتصرف بطلاقة ، ولكن بشىء من الخجل ، وكان يجذب الناس بابتسامته الطيبة التى تضىء وجهه الجميل . ومظهره الخارجى هذا كان يتناغم على افضل نحو مع حالته الداخلية كلها ، الامر الذى ما لبثت ان اقتنعت به حينما صادقته بقوة ومدى الحياة .

كان صديقى الجديد من مناطق اخرى ، وقد حارب على جبهات اخرى فى الحربين العالمية الاولى والاهلية ، واعنى على الجبهة الغربية وفى سيبيريا ، ولكن تقويماتنا للتجربة الماضية كانت متطابقة واحلامنا عن المستقبل متشابهة . وقد نشأ كلانا ، بالمناسبة ، من وسط عمال الخطوط الحديدية . كان ابوه سائق قاطرة ، اما ابى فكان عاملا فى الخطوط الحديدية .

كان روكوسوفسكى يتمتع بتجربة سبع سنوات من القتال : فقد ساهم اكثر من ثلاث سنوات فى الحرب العالمية الاولى وقرابة اربع سنوات فى الحرب الاهلية . وتطوع فى الجيش الاحمر فى مستهل عام ١٩١٨ .

كان روكوسوفسكى يكبرنى بسنة واحدة فقط . لقد ولد فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٩٦ . وكان ابوه بولنديا ، وكان سائق قاطرة ، كما سبق وقلت . وكانت هذه المهنة تتطلب فى فجر هذا القرن غير قليل من التأهل . وكان ابو قسطنطين روكوسوفسكى مثقفا يعرف الادب القومى جيدا ويتطلع الى ان يصبح ابنه وابنتاه

اناسا مثقفين . وام روكوسوفسكى ، وكنيتها اوفسيانيكوفا ، كانت تعمل معلمة قبل الزواج . انها ، وهى التى تربت على الادب الكلاسيكى الروسى ، استطاعت ان تغرس حبه فى اولادها . كان افراد الاسرة يتحدثون ويكتبون سواء بالروسية او بالبولندية . ولعل هذا ما ساعد الفتى ذا الموهبة الغنية على ان يدرك منذ حداثته رابطة المصير التاريخى للشعبين الروسى والبولندى .

بدأ روكوسوفسكى تعلمه فى وارسو التى انتقل ابوه اليها . ولم يتسن له ان ينهى سوى مدرسة المدينة ذات الصفوف الاربعة ، لان مصيبتين متواليتين لحقتا بالاسرة ، فقد وقع الاب فى حادث قطار واصيب بعاهة مرض على اثرها بشدة وما لبث ان مات ، وبعد عدة سنوات توفت الام ايضا . بدأ قسطنطين حياته المستقلة فى الرابعة عشرة من العمر وغير عدة مهن الى ان اصبح صانع نحات . وفى عام ١٩١٢ ساهم فى مظاهرة اول ايار (مايو) لبروليتاريى وارسو وزج به خلف القضبان ، وبالمناسبة ، اطلق سراحه بعد شهرين نظرا لعدم بلوغه سن الرشد .

فى مستهل آب (اغسطس) عام ١٩١٤ اضاف قسطنطين روكوسوفسكى سنتين الى عمره وتطوع بدافع من وطنيته فى الجيش الروسى ، فى فوج كارغوبول الخامس للفرسان . واصبح فارسا حقيقيا ، مقداما . وابدى مرارا جرأة تقرب من التهور . وفى السنة الاولى من الحرب حاز صليب غيورغى وميدالية غيورغى من الدرجة الرابعة . واعتقد ان طبعه قد تكون وصلب فى تلك السنوات بالذات ، فى ظروف الخطر اليومى ، واصبح التحفظ والثقة الى جانب شجاعته التى لا حدود لها خصاله الاساسية . وبقيت فى غضون ذلك طيبته الفطرية .

كان قسطنطين روكوسوفسكى محبوب الفوج ، اذ كان يحظى بالتقدير لقاء بسالة الفارس التى لا تكلف فيها ابان المعركة وخجل الشاب فى الموقف العادى ، وكذلك لقاء انصافه وسعة مداركه الثقافية العامة ، الامر الذى كان نادرا بين الجنود العاديين . وليس من قبيل المصادفة ان ينتخب بعد ثورة شباط (فبراير) ١٩١٧ الى لجنة الفوج كاحد اكثر المحاربين القدماء جدارة .

استقبل روكوسوفسكى ثورة اكتوبر بحماسة وقرر ان يكرس نفسه لحماية النظام الجديد ، العادل . ولم ينقد ، شأن بعض

البولنديين الآخرين (وفى عدادهم قريبـــــه) ، الى مواعظ القوميين البولنديين ، ولم ينضم الى الفرقة البولندية التى شكلت حينذاك .

بعد حل فوج كارغوبول فى عام ١٩١٨ التحق روكوسوفسكى بالجيش الاحمر ، وانتخب مساعدا لآمر مفرزة . كانت المفرزة تكافح بنجاح الثورة المضادة والعصابات فى منطقة فولوغدا ، وحينما بدأ تمرد التشيـك البيض ، ارسلـت الى الاورال ، حيـث ساهـم روكوسوفسكى بنشاط فى الصراع العنيف ضد القوات التشيكية والقوزاقية البيضاء .

مع ظهور الجيش الاحمر النظامى اصبح روكوسوفسكى آمر كتيبة فى فوج الاورال الاول للفرسان الذى كان جزءا من الفرقة الثلاثين التى حظيت بشهرة واسعة فيما بعد . وهناك فى ٧ آذار (مارس) عـام ١٩١٩ ، فى معمعان المعارك ضد الكولتشاكيين ، قبل روكوسوفسكى فى الحزب . ولم يخطئ شيوعيو فوج الاورال ، فقد برهن فى كـل نشاطه القتالى اللاحق على اخلاصه لافكار اللينينية .

رفع الشيوعى الشاب الى منصب آمر كتيبة الاورال الثانية الخاصة للفرسان ، وقد اجتاز فى هذا المنصب طريقا من المعارك يمتد مـن مقاطعة كيروف الحالية الى بايكال ، مبديا جرأة عسكريـــة ومهارة قيادية . وهذا وصف شحيح لاحد مشاهد القتال : «فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٩ فى معركة قرب بلدة فاكورينسكويه . . . قـام الرفيق روكوسوفسكى ، الذى كان يعمل فى مقدمة فوج المشاة ٢٦٢ ويقود مباشرة الكتيبة المكلف بها ، بخرق مواقع العدو المتفوق عددا . فقد هاجم بنسق من الخيالة قوامه ٣٠ فارسا بطارية العدو ، وتغلب على المقاومة العنيدة للتغطية التى قام بها المشاة ، وبضربة جريئة استولى على البطارية فى حالة صالحة للاستعمال تماما» . وقلد لقاء هذه المناورة الجريئة وسام الراية الحمراء . اما البطارية التى تم الاستيلاء عليها فاجتازت مع الفرقة الثلاثين كل الطريق الصعب الى اركوتسك .

عند الاستيلاء على محطة كاراؤولنايا صرع روكوسوفسكى بضربة سيف الجنرال فوسكريسينسكى آمر احدى الفرق الكولتشاكية الذى اطلق عليه النار من مسدسه ، اما روكوسوفسكى نفسه فاصيب بجرح بالغ فى كتفه . وبعد ان شفى ، فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٩ ، قاتل المناهضين للثورة الذين استقروا فى محطات النقـل

السكك الحديدية على الخط العابر لسيبيريا ، وكان اول من وصل الى انتشينسك فى مقدمة لواء غريازنوف الشهير فى ١ كانون الثانى (يناير) عام ١٩٢٠ . وفيما بعد اصبح روكوسوفسكى آمرا لفوج الفرسان الثالث الذى خاض المعارك قرب اركوتسك .

ما لبث البارون اونغيرن ، الذى احتل منغوليا على رأس عصابة من عشرة الاف شخص ، ان بدأ بتهديد سيبيريا الشرقية ومنطقة مـا وراء بايكال . ان روكوسوفسكى ، بعد نقل فوجه الى الغرب ، حطم على رأس كتيبة الفرسان الخاصة التى شكلت مجددا احـدى مفارز اونغيرن المتقدمة ، واصيب فى غضون ذلك بجرح بالغ من جديد . وقلد لقاء هذه المعركة وسام الراية الحمراء الثانى . لم يكن عظم رجل روكوسوفسكى المكسورة قد التحم حينما علم بهجوم اونغيرن على مدينة ميسوفسك التى كان يقع فيهـا المشفـى . ونظـم روكوسوفسكى ، ولم يكن قد ترك عكازيه بعد ، مفرزة مركبة من الذين شفوا ومن مقاتلى الخدمات فى المؤخرة وصد اونغيرن عـن ميسوفسك ، ومن ثم دافع عن فيرخنيؤوديسنسك (اولان-اودى) .

فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢١ عين قائد الخيالة الجرىء والمحنك آمرا للواء الثالث لفرقة كوبان الخامسة الشهيرة للفرسان التى كانت تستعد لصد هجوم عصابة الجنرال سيميونوف والمتدخلين اليابانيين . لم يقدر لروكوسوفسكى ان يصطدم بهم ، ولكنـــه اصطدم بالكثير جدا من كل انواع العصابات التى كانت تتنقل فى ما وراء بايكال .

بسبب الانتقال الى الوضع السلمى قلصت فرقة كوبان الى لواء ، والويتها الى افواج . واصبح روكوسوفسكى آمرا لفوج الفرسـان السابع والعشرين الذى قاده اربع سنوات ، وتوصل الى ان يصبح الفوج افضل فوج فى منطقة سيبيريا العسكرية . وارسل وهو فى هذا المنصب الى لينينغراد . وحينما عاد بعد الدورات الى ما وراء بايكال ، قاد بنجاح لواء لمدة سنة ، ثم ارسل الى منغوليا ، وهناك أدى عـلى امتداد اكثر من سنتين وظائف مختلفة وفى غاية المسؤولية بصفته احد المدربين العسكريين الكبار ، اذ كان ينبغى فى الواقع انشاء جيش قوى عصرى فى البلاد . ان نتائج العمل المتفانى للمدربين السوفييت فى الجيش الشعبى المنغولى تجلت بوضوح فيما بعد ، فى عام ١٩٣٩

فى خالخين – غول وفى عام ١٩٤٥ فى منشوريا ، حيث قاتلت القوات المنغولية ببسالة ومهارة .

ان روكوسوفسكى ، وقد عاد من المهمة الخارجية الطويلة ، تراس مجددا لواء كوبان الخامس للخيالة .

كان يحلم دائما بمتابعة الدراسة ، وما لبث هذا الحلم ، فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٢٩ ، ان تحقق بدرجة من الدرجات . فقد ارسل الى دورات تطوير الملاك القيادى الاعلى فى موسكو .

بعد عودة روكوسوفسكى من الدورات الى ما وراء بايكال ، الذى اصبح موطنا له ، ساهم على رأس اللواء فى تحطيم العسكريين الصينيين فى خلال النزاع على الخط الحديدى الصينى الشرقى . وقد ابدى لواء الفرسان نماذج من الاقدام والتدرب على القتال . واصبح صدر آمر اللواء مزينا بثلاثة من اوسمة الراية الحمراء ، وتلقى منصبا جديدا ، حيث عين آمرا لفرقة سامارا السابعة للفرسان المرابطة فى مينسك ، والتى نالت شهرة واسعة فى الحرب الاهلية . وقد سبقه فى هذا المنصب قادة رائعون مثل كاشيرين وغاى ودانيلو سيرديتش . اما كيف ادى روكوسوفسكى المهمات الجديدة فامر عرفته من مصادره الاولى ، كما يقال ، حينما كنت ادرس فى اكاديمية فرونزه فامضيت فترة تدريب فى هذه الفرقة . وكما هو معروف ، فان جوكوف ، الذى كان يقود فوجا ، كان حينذاك من مرؤوسى روكوسوفسكى . واليكم ما قاله عن آمره وقتئذ :

«كان روكوسوفسكى رئيسا جيدا جدا . كان يعرف الشؤون العسكرية على نحو رائع ويطرح المهمات بدقة ويراقب تنفيذ اوامره بمهارة وكياسة . كان يبدى اهتماما دائما بمرؤوسيه ، وكان يستطيع ، ربما اكثر من اى كان ، ان يقدر ويطور مبادرة القادة الذين تحت امرته . كان يعطى الآخرين الكثير ويحسن ، الى جانب ذلك ، ان يتعلم منهم الكثير . انا لا اتحدث عن صفاته الخلقية النادرة ، فهى معروفة لكل من خدم ولو قليلا تحت امرته» .

قاد روكوسوفسكى فرقة الفرسان السابعة امدا قصيرا نسبيا . اذ ان واجب الخدمة دعاه الى الشرق الاقصى من جديد . فقد اشتعلت هناك ، فى منشوريا ، اول بؤرة للحرب العالمية المقبلة . وكانت المهمة التى وضعت امام روكوسوفسكى صعبة ، ولكنها تبعث على السرور . فقد كلف بان يوسع لواءه ، لواء كوبان للفرسان ، ليصبح

فرقة الفرسان الخامسة عشرة . وقد تسنى لى ان أرى الارشيف الذى يتضمن الاوامر التى اصدرها قائد الفرقة فى تلك الفترة . وفيها يتجلى اسلوب عمله بوضوح . اورد مقتطفا من احد الاوامر :

«اننى ، اذ الفت انظار كل السلك القيادى الى الاستئصال الحاسم لحالات الفظاظة وعدم اللباقة ازاء المرؤوسين ، الفت الانظار فى الوقت نفسه الى عدم جواز اى اضعاف للصرامة العسكرية ازاء المرؤوسين . يجب ان يكون الآمر صارما ، مصرا يفرض بحزم والى النهاية ارادته الموجهة نحو توطيد قدرة الجيش الكفاحية» .

ما لبث العمل الدؤوب والهادف لآمر الفرقة ان تجلت اثاره ، فبعد سنة من تشكيل الفرقة الخامسة عشرة اشارت القيادة بالحالة الجيدة للافواج ومعرفة الملاك القيادى الممتازة لميدان العمليات العسكرية فى منشوريا وللعدو المحتمل . وقلد روكوسوفسكى وسام لينين . وما لبث روكوسوفسكى ان اصبح على راس فيلق الفرسان الخامس المرابط فى بسكوف . وفى مستهل عام ١٩٤٠ ارسل روكوسوفسكى ، وهو برتبة لواء ، الى منطقة كييف العسكرية الخاصة وانخرط فى مجموعة السلك القيادى الاعلى التى كانت تتفقد تحت القيادة المباشرة لقائد المنطقة جوكوف القوات التى كان عليها القيام بحملة تحريرية الى بيسارابيا . وساهم روكوسوفسكى فى هذه الحملة .

ما لبث روكوسوفسكى بعد هذا ان فارق الخيالة الى الابد . فقد جرى على نحو حثيث تشكيل القوات المدرعة والآلية ، فعين آمرا للفيلق الآلى التاسع . وكان هذا التعيين ، فى رايى ، حاسما بالنسبة الى الطريق القتالى الحافل الذى اجتازه روكوسوفسكى . لقد عين الحزب بجرأة قادة وحدات الخيالة السابقين فى المناصب القيادية للقوات المدرعة والآلية ، مع العلم انه عين اولئك القادة بالذات الذين استطاعوا فى اقصر وقت التضلع من الاسلحة والاعتدة الجديدة .

لماذا اعتقد ان هذا التعيين اضطلع بدور حاسم فى مصير روكوسوفسكى ؟ يتلخص الأمر فى انه لم يكن يستطيع ، اذ يقود تشكيلة فرسان ، ان يظهر الى هذه الدرجة ومنذ الايام الاولى من الحرب قدراته القيادية البارزة . وصار يعتبر اول مرشح لمنصب قائد الجيش ، وفى تموز (يوليو) عام ١٩٤١ وضعت القيادة العليا الجنرال روكوسوفسكى تحت تصرف المجلس العسكرى للجبهة الغربية . وقبل ان يذهب روكوسوفسكى الى موسكو زار قائد

الجبهة ، وعرج الىّ ليرانى وليشاطرنى ، طبعا ، التجربة المكتسبة فى المعارك الاخيرة . واعرب عن اعجابه بالمقاتلين والقادة ، وتذكر بالم مقتل العقيد تشيرنياييف ، الذى قاد فرقة الدبابات العشرين فى فترة مرض آمرها الاصلى العقيد كاتوكوف . وبعد هذا قال وكأنه يطـرد الافكار المحزنة :

– حينما اقتربنا من لوتسك ، امرت فرقة الجنرال نوفيكوف المدرعة الخامسة والثلاثين بان تغطى طريق لوتسك – روفنو وفى الوقت نفسه ارسلت الى هناك الفرقة العشرين التى كانت تتحرك على الجناح الايسر مع فوج المدفعية المزود بمدافع جديدة من عيار ٨٥ ميلمترا . وقد وضعناها على المرتفعات قرب الطريق وعلى الطريق مباشرة . وانقض الهتلريون على فرقة الدبابات العشرين بمجموعة كبيرة آخذة شكل معين . ترك مدفعيونا العدو يتقدم الى اقرب مسافة وفتحوا عليهم نيرانا سريعة . وظهرت على الطريق خبيصة عجيبة : مدرعات وموتوسيكلات مقلوبة وحطام معدات اخرى واجساد القتلى . وكانت قوة اندفاع ارتال العدو تفتح امام قذائفنا اهدافا جديـدة وجديدة . وبالنتيجة لم يبق من «المعين» الفاشى سوى الذكريات .

ان قسطنطين روكوسوفسكى فى معاركه الاولى فى الحرب الوطنية العظمى ، اذ جمع بنجاح بين جهود المشاة والمدفعية والعدد القليل من الدبابات ووحد اعمالها ، استطاع ان يلحق بالعدو خسارة جدية قرب لوتسك اول الأمر ، ومن ثم قرب نوفوغراد-فولينسكى . وظهر على صدره وسام الراية الحمراء الرابع .

كان وداعنا حارا اخويا ، وذهب بعدها روكوسوفسكى الى الجبهة الغربية . وقد علمت باعماله هناك بالتفصيل فى صيف عام ١٩٤٢ من زملائه السابقين ، حينما باشر قيادة وليده ، الجيش السادس عشر الشهير .

علم روكوسوفسكى بعد وصوله الى موسكو أن القيادة العليـا تشكل على ضفة الدنيبر جملة مجموعات ميدانية تضم كل واحدة منها عدة فرق للدبابات والمشاة . وكان على اهمها ان تعمل فى منطقـة يارتسيفو . وهى التى كان ينبغى لروكوسوفسكى ان يقودها .

كان الأمر الذى تلقاه روكوسوفسكى فى الاركان العامة موجزا جدا : ان يذهب الى المكان المحدد ويضع تحت امرته المجموعة كلها

لكى يحسن بالعمليات الهجومية المدعومة من الجيشين السادس عشر والعشرين الوضع العملياتى ويضمن الاحتفاظ بسمولينسك .

وسيتلقى تعليمات محددة اكثر من قائد الجبهة .

خصصت الاركان العامة له سيارتين مع رشاشات رباعية وطواقم لها ومحطة لاسلكى ومجموعة صغيرة من الضباط ، وفى مساء اليوم نفسه وصل روكوسوفسكى مع «تشكيلته» الى موقع قيادة الجبهـة الغربية فى كاسنيا . استقبل المارشال تيموشينكو الجنرال استقبالا وديا ، وقدم اليه اقرب زملائه . ثم اطلع روكوسوفسكى عـلى الوضع : ان دبابات مجموعة جيوش «الوسط» المعادية وقواتهـا الميكانيكية ، اذ تابعت الهجوم ، خرقت دفاعنا فى عدة قطاعات .

والهدف القريب للعدو هـو تطويـق وابادة قواتنـا قرب سمولينسك . وينوى قائدا مجموعتى الدبابات غوت ورينغارد بعـد هذا ان يزحفا الى موسكو دون انتظار وصول جيوش الميدان ، وبـلا توقف ، وكانت مهمة روكوسوفسكى تتلخص فى احباط هذه النيات الخطرة .

كانت تجرى فى اتجاهى سمولينسك وفيتيبسك معارك دفاعيـة ضارية ضد عدو متفوق كثيرا فى القوى . وكانت المعطيات الملموسة المتعلقة بمنطقة يارتسيفو شحيحة للغاية ، ولكـن كانت هناك معلومات عن انزال جوى فى يارتسيفو وعن ظهور وحدات دبابـات للعدو فى منطقة ييلنيا .

عند الوداع قال قائد الجبهة لروكوسوفسكى :

– حينما تأتى الاحتياطيات التى وعدت موسكو بها نعطيـك فرقتين او ثلاث فرق ، اما الآن فاكتشف وضعَ تحت امرتك كـل الوحدات والتشكيلات التى تخرج من التطويق ، ونظم المقاومة .

اول وحدة ادرجت فى مجموعة روكوسوفسكى هى فرقة كيريلوف الثامنة والثلاثون للمشاة . ما ان ترددت الاقاويل عن ظهور تشكيلة مقاتلة صامدة فى منطقة يارتسيفو حتى اخذ المحاربون الخارجون مـن التطويق يأتون الى روكوسوفسكى : كانوا يأتون افرادا وتشكيلات كاملة ووحدات وعلى رأسها السلك القيادى . وما لبثت ان ظهرت فرقة اخرى ، هى فرقة العقيد ميخايلوف ١٠١ للدبابات التى تضم حتى ثمانين دبابة من الطراز القديم وسبعة دبابات ثقيلة جديدة . ولادارة

المجموعة شكل القائد اركانا سريعة قوامها عشرون ضابطا على راسهم المقدم تاراسوف .

فى احد الايام الاولى من المعارك قرر روكوسوفسكى والجنرال كاميرا قائد مجموعة المدفعية رؤية كيفية تخندق المشاة ، ولحسن الحظ كان العدو يطلق عيارات متفرقة . ولكن ظهرت على بعد كيلومترين من وراء المرتفعات انساق كثيفة من الجنود المعادين ، ومن ثم عدد من الدبابات يصل الى العشر . تابع مشاتنا اطلاق النار على المهاجمين ، ودوت مدفعية الهوتزر . ربضت الانساق الهتلرية . ولكن ما لبث الافق ان ضج بالطيران المعادى . وبدأت الطائرات الفاشية تنقض على خنادقنا ، واشتدت النيران الغزيرة للمدفعية المعادية ، وتحركت من جديد الدبابات ذات الصلبان السوداء والبيضاء . عندئذ جفل مشاتنا وهربوا الى الغابة افرادا ثم جماعات . وبالمناسبة ، ارتفعت فجأة فى حشد الهاربين صيحات عالية :

— قفوا ! الى اين هاربون ؟ ارجعوا ! . .

— الا ترون ؟ الجنرالان واقفان . ارجعوا !

وبالفعل ، كان روكوسوفسكى وكاميرا واقفين منتصبى القامة ، على مرأى من الجميع ، مدركين ، على ما يبدو ، انهما بهذا فقط يستطيعان انقاذ الموقف . كان لرباطة جاش الجنرالين تأثيرها السحرى فى المحاربين . فقد عادوا الى خنادقهم وارغموا العدو بنيران متزامنة على ان يربض من جديد .

بعد هذه الحادثة قال روكوسوفسكى غير مرة : «انا لست من انصار المخاطرة الاظهارية . هذا أمر ردىء يتدنى بمعايير سلوك القائد ، ولكن لا بد احيانا من تجاوز القواعد» .

انتقلت المجموعة بالتدريج الى الدفاع الفعال ، واخذت تقوم بهجمات مضادة فى هذا القطاع احيانا وفى ذاك احيانا اخرى ، ولم يكن من النادر ان تحرز نجاحات ما زالت ، بالطبع ، تكتيكية ، ولكنها تساعد على تعزيز الانضباط وتبعث فى المحاربين الثقة بالنفس .

فعل القائد كل ما يمكن ليخلق لدى العدو تصورا مضخما لقوانا فى هذا الموقع فيمنع بهذا الستراتيجيين الهتلريين من استخدام تفوقهم الكبير ويحبط نيات تطويق تجمعنا فى سمولينسك . بيد انه ادرك بعد دراسة الوضع بجدية انه لا يمكن جعل الوضع يستقر الا بعد الاستيلاء على يارتسيفو وسلاسل المرتفعات على ضفة فوب

الغربية . اى لا بد من هجوم مضاد قوى ، وهذا ما يقتضى قوى واستعدادا مبرمجا . مهمة صعبة . ولكن فى تلك الايام على وجه التحديد قدمت الى المجموعة اركان الفيلق الميكانيكى السابع تحت قيادة العقيد مالينين بكامل بنيتها ، وعززها تيموشينكو بعدة كتائب مدرعة جديدة ، وارسلت المنظمة الحزبية فى موسكو كتيبة من الشيوعيين . وقد تطابقت فكرة روكوسوفسكى مع خطة قائد الجبهة الغربية الذى خطط الانتقال الى الهجوم باربع مجموعات اخرى من القوات .

عين الهجوم فى الثلث الاخير من تموز (يوليو) . وقبل ذلك كان على قوات روكوسوفسكى ان تصد على امتداد عدة ايام هجمات ضارية لتشكيلات غوت المدرعة . ومع ذلك بدأ فى ٢٨ تموز (يوليو) الهجوم المضاد بصورة مفاجئة للعدو . وبالنتيجة حررت يارتسيفو وتم عبور فوب وجرى الاستيلاء على رؤوس جسور ملائمة فى ضفته الغربية . وعلاوة على ذلك حقق النجاح مقاييس عملياتية لان «جبهة تطويق القوات السوفييتية فى منطقة سمولينسك اخترقت فى ١ آب بضربة متزامنة وجهتها مجموعة قوات الجنرال روكوسوفسكى من الشرق ووحدات الجيشين السادس عشر والعشرين من الغرب . وبدأت المعارك لضمان اخراج هذه القوات من التطويق» ، كما جاء فى «اليوميات الموجزة للحرب الوطنية العظمى» .

اصبحت مجموعة روكوسوفسكى بعد خروجها من التطويق جزءا من الجيش السادس عشر الذى عين قائدا له . (وترأس الجنرال لوكين الجيش العشرين) .

فى منتصف آب (اغسطس) ادركت القيادة المعادية عقم محاولات تحطيم دفاعنا فى موقع يارتسيفو واخذت تحصن جاهدة ضفة فوب الغربية لتعبئة اكثر ما يمكن من القوى لتوجيه ضربة الى منطقة ييلنيا من اجل انقاذ فرقها الخمس عشرة شبه المطوقة . ولهذا وضعت امام الجيش السادس عشر مهمة مباشرة : الهجوم وابقاء كل القوى المعادية عن طريق عمليات فعالة مسمرة فى قطاعها . وكانت عند تيموشينكو واركانه خطط اوسع ، اذ كانوا يأملون فى تلقى الامدادات وتحرير سمولينسك لاحقا .

نفذ الجيش الجزء الاول من مهمته ، وهى ابقاء قوى كبيرة للعدو مسمرة عند تخوم فوب ، ولكن لم تكلل بالنجاح محاولات استعادة

سمولينسك فى تلك الظروف ، حيث كانت الموارد محدودة للغاية .

حينما بدأ فى مستهل تشرين الاول (اكتوبر) هجوم القوات الفاشية-الالمانية على موسكو ، أمرت قيادة الجبهة الغربية روكوسوفسكى بتسليم قواته للجنرال بيرشاكوف قائد الجيش التاسع عشر ، والقدوم مع الاركان الى فيازما وتسلم خمس فرق جديدة . بيد ان الوضع تغير بصورة عاصفة ، وكانت ضربات العدو تزداد قوة . لم تجد اركان الجيش السادس عشر قوات فى فيازما ، واصبحت نفسها مطوقة واقتضى الامر كل مبادرة واقدام روكوسوفسكى لاخراج الاركان والوحدات الخاضعة للجيش الى المشارف القريبة من العاصمة . وهناك وضع روكوسوفسكى تحت قيادته ثلاث فرق ، وتلقى من القائد الجديد للجبهة الغربية جنرال الجيش جوكوف امرا بتنظيم الدفاع عن العاصمة فى اتجاه فولوكولامسك على شريط يمتد من بحيرة موسكو فى الشمال الى روزا فى الجنوب .

كان تطور الاحداث عاصفا . فى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) وصل روكوسوفسكى الى فولوكولامسك ، وفى ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) وجه العدو بقبضة مدرعة قوية ضربة الى الجهة اليسرى لدفاع الجيش . تعكس مراجعنا التاريخية وادبنا بصورة جيدة تقلبات المجابهة مع العدو فى اتجاه فولوكولامسك . ومن لا يعرف مآثر فرسان دوفاتور ، وطلاب فوج ملادينتسيف ، ومشاة بانفيلوف وبيلوبورودوف ، وجنود مدرعات كاتوكوف . ولكن ينبغى القول ان هؤلاء القادة الاسطوريين حاليا ، لم يكونوا معروفين الا للقلائل فى خريف عام ١٩٤١ ، حينما اندمجت تشكيلاتهم فى الجيش السادس عشر . وطبيعى انهم كانوا جميعا مع قواتهم يتسمون بصفات قتالية رائعة . ولكن اشجع القوات لا تستطيع كسب المعركة بدون قائد لائق ، كما ان الموسيقيين الممتازين لا يستطيعون عزف سيمفونية بدون قائد ماهر .

ليس عبثا ان يقال فى وسط العسكريين : انه لجيد ذلك الآمر الذى يغدو المرؤوسون ابطالا تحت قيادته . وكان روكوسوفسكى آمرا من هذا النمط بالذات . ويمكن القول ، دون اى انتقاص من مآثر قوات الجيوش المجاورة ، جيش غوفوروف الخامس وجيش ليلوشينكو الثلاثين وغيرهما ، ان بطولة المحاربين السوفييت فى قطاع الجيش السادس عشر قد اخذت مداها الاقصى ، كما يقال . ان

مآثر البانفيلوفيين وقناصة بيلوبورودوف السيبيريين وخيالة دوفاتور وبلييف الاسطوريين وسائقى مدرعات كاتوكوف الاسطوريين بالدرجة نفسها قد اجترحت تحت قيادة روكوسوفسكى .

اعيد الى الاذهان انه كان يمر عبر خط دفاع الجيش السادس عشر طريقان كبيران ، هما طريقا لينينغراد وفولوكولامسك ، اللذان كانت القوات الفاشية-الالمانية تسعى ان تصل من خلالهما الى موسكو قبل كل شىء ، وكان هناك مقابل كل كتيبة فى الجيش خمسة او ستة كيلومترات من الجبهة ، اى عمليا قدر ما ينبغى حسب انظمتنا ان يدافع عنه فوج مشاة كامل من ثلاث كتائب . وقد حشدت مقابل قوات روكوسوفسكى قرب فولوكولامسك مباشرة اربع فرق المانية كاملة مع مئتى دبابة .

استخدم قائد الجيش السادس عشر قواه القليلة باقصى فعالية ممكنة . فقد اقام فى اكثر القطاعات خطرا مراكز دفاع متينة مضادة للدبابات ومراكز للمدفعية ارغمت العدو على اختراق مواقع جديدة وجديدة ، ولم يستخدم الدبابات المتوفرة عنده ضد مشاة العدو فحسب ، بل واستخدمها بصورة مركزة ضد الدبابات المعادية . وزرعت الالغام فى كلا الطريقين والطرق الاخرى المؤدية الى مناطق الدفاع ودمرت بشدة ، وزرع محاربونا الالغام فى الاتجاهات التى قد تمر فيها الدبابات بين الطرق واقاموا المتاريس وحفروا الخنادق فى المدن والقرى ، ونصبوا حواجز من الاشجار وفجروا فتحات خزان استرا ، مما عرقل كثيرا تحرك مجموعة الهتلريين الرابعة للدبابات . ورغم ان هتلر ارسل الى هناك فيلقا آليا آخر ، فان كل محاولات اختراق دفاع الجيش السادس عشر انتهت بالفشل بفضل فن القائد وصمود القوات الجبار . ولكن كان لا بد تحت ضغط قوى العدو المتفوقة اضعافا مضاعفة من ترك عدة اماكن بينها فولوكولامسك ، ولكن الانسحاب جرى بانتظام تام الى خطوط معدة سلفا ، بحيث ان الطريق الى موسكو بقى كالسابق مغلقا بشدة امام العدو .

نتيجة لاعمال القوات السوفييتية احبط الهجوم الفاشى الالمانى على موسكو . وفى مستهل كانون الاول (ديسمبر) تسنى وقف الهجوم الهتلرى على عاصمة وطننا نهائيا . وبعد ذلك بدأ الهجوم المضاد الشهير الذى برهن روكوسوفسكى فى خلاله على انه ليس ابدا «جنرال الدفاع» فقط . فقد وجهت قواته الى العدو جملة من الضربات

القوية ، العنيفة ، المثمرة . ويعود الى الجيش السادس عشر شرف تحرير عقدة الخطوط الحديدية الهامة ، كريوكوفو . وطردت فرق روكوسوفسكى بالتعاون مع الجيش الثلاثين العدو من المنعطف الكبير لنهر استرا ، ومن ثم طردته وحدها من مدينتى استرا وفولوكولامسك .

حتى الاعداء قدروا حق التقدير فن قائد الجيش السادس عشر فى الهجوم . وهذا ما تشهد عليه الحادثة التالية . فى احدى مراحل الهجوم المضاد العام اوقف جيش الجنرال غوليكوف العاشر ، ثم ارسل العدو امدادات وازاحه من عقدة الخطوط الحديدية الكبيرة سوخينيتشى . وبسبب هذه الحادثة المزعجة انقطعت مواصلات جناح الجبهة الايسر . وتلقت ادارة واركان الجيش السادس عشر أمرا بالانتقال الى منطقة سوخينيتشى وقيادة القوات العاملة هناك . وحذر قائد الجبهة من ان روكوسوفسكى لا يستطيع ان يعول على اية قوى اضافية . وقال جوكوف لروكوسوفسكى :

– آمل فى ان تستطيع بهذه القوى التخلص من العدو وتبلغنا قريبا بالاستيلاء على سوخينيتشى .

ذهب روكوسوفسكى الى المنطقة ورأى ان القوى للهجوم قليلة للغاية ، فقرر تضليل الاعداء . اشاع بكل الوسائل الممكنة ان الجيش السادس عشر قادم باكمله تحت قيادة روكوسوفسكى الى اتجاه سوخينيتشى للقيام باعمال هجومية واسعة . وفى الوقت نفسه حشد قائد الجيش بجرأة كل القوى قرب سوخينيتشى ، كاشفا القطاعات الاخرى . وماذا كانت النتيجة ؟ ترك الجنرال فون غيلس مع فرقته ٢٠٨ للمشاة ، التى اتت من فرنسا منذ أمد قريب ، سوخينيتشى حتى قبل بدء التمهيد المدفعى رغم قدوم فرقتين اخريين لمساعدته . ونظم روكوسوفسكى الملاحقة بمهارة ، بحيث منى العدو الذى بوغت فى الميدان بخسائر كبيرة . ابلغ رئيس اركان الجيش السادس عشر جوكوف بكل هذا ، ولكنه لم يصدق الخبر فورا ، ولكن حينما اخبره روكوسوفسكى نفسه بانه يقوم بالمكالمة من غرفة تلغراف سوخينيتشى ، تأثر جوكوف فى قرارة نفسه ، الأمر الذى لا يحدث معه الا نادرا ، وهنأ روكوسوفسكى بحرارة ومن اعماق قلبه على هذا النجاح الباهر .

وهناك ، فى سوخينيتشى ، اصيب روكوسوفسكى بجرح بليغ .

شظية قذيفة جرحت العمود الفقرى واصابت ضلعين واخترقت الرئة . وقد قال لى الجنرال لازاريفيتش ، الذى نقل الجريح ، ان القائد كان يفقد الوعى من فترة الى اخرى ، ولكنه لم يكن يهتم بمصيره بقدر اهتمامه بانجاز العملية بنجاح .

بعد عودة روكوسوفسكى من المشفى ، فى مستهل تموز (يوليو) عام ١٩٤٢ ، عين فى منصب قائد قوات جبهة بريانسك . من المميز انه لدى الحديث مع جوكوف فى هذا الصدد طلب بالحاح ابقاءه فى منصب قائد الجيش ، ولكنه تلقى أمرا حاسما بالحضور الى القيادة العليا . استقبله ستالين بحرارة واطلعه على الوضع الحاد الذى نشأ فى اتجاه فورونيج . ان العدو الذى بدأ الهجوم هناك فى ٢٨ حزيران (يونيو) اخترق دفاع جبهة بريانسك والجبهة الجنوبية الغربية فى شريط طوله ثلاثمئة كيلومتر وتغلغل فى عمق مواقعنا مسافة ١٥٠–١٧٠ كيلومترا . وفى غضون ذلك عبر نهر الدون واقتحم فورونيج . ولهذا السبب قسمت جبهة بريانسك الى جبهتين . جزء من القوات التحق بجبهة فورونيج الجديدة ، والجزء الآخر سيقوده روكوسوفسكى .

ان القائد الجديد ، وقد اطلع على الوضع ، حرص على تنظيم دفاع متين على جناح الجبهة الايسر ، ولكنه اعار الجناح الايمن اهتمامه الرئيسى ، معرقلا محاولات العدو التحرك الى الشمال على طول ضفة الدون الغربية . وفى خلال اقصر فترة احبط روكوسوفسكى نيات حملات العدو الجديدة ، واستقرت الجبهة طويلا ، واخذ القائد يخرج ويسحب من المعركة للامداد والراحة تشكيلة اثر أخرى ، بما فى ذلك فيالق الدبابات . ولم يغب هذا عن انتباه القيادة العليا ، فطلب ستالين من روكوسوفسكى ان يساعد ستالينغراد بقواته . كانت المكالمات التلفونية مع القائد الاعلى كثيرة ، وفى احداها استمع الى تقرير عن الوضع فى الجبهة ، وسأل فجأة :

– الا يصيبك الملل فى جبهة بريانسك ؟

اجاب القائد :

– بلى .

واعقبت ذلك دعوة عاجلة الى القيادة العليا فى موسكو ، وعين روكوسوفسكى قائدا لقوات جبهة الدون التى كانت حتى اواخر ايلول (سبتمبر) تسمى بجبهة ستالينغراد .

طار روكوسوفسكى من موسكو الى مكان عمله الجديد . وقد حذره جوكوف من ان مهمة قوات جبهة الدون ستكون معقدة للغاية . مع وصول روكوسوفسكى اصبحت هذه الجبهة مستقلة تماما ، فى حين كانت فى السابق خاضعة للجنرال يرمينكو قائد الجبهة الجنوبية الشرقية .

فى لحظة استلام القائد الجديد منصبه حاول جوكوف ، سعيا منه الى مساعدة «المستجد» ، ان يفرض عليه رعايته . بيد ان روكوسوفسكى طلب بحزم اعطاءه فرصة قيادة القوات بنفسه ، منفذا المهمات العامة التى صاغتها القيادة العليا ومتكيفا مع الوضع الملموس .

علق جوكوف على هذا بما يتسم به من اسلوب ودى مشوب بالخشونة :

– باختصار ، انت تريد القول ان لا عمل لى هنا .

وفى اليوم نفسه طار جوكوف الى موسكو ، اما القائد الجديد فشرع بعد بعض الوقت فى اعداد قواته للمساهمة فى هجوم ستالينغراد المضاد الذى ينبغى لجبهة الدون ان تضطلع فيه بدور جوهرى جدا : ان توجه الضربات من رأس جسر خلف الدون فى منطقة كليتسكايا ومن منطقة قرية كاتشالينسكايا فى الاتجاه العام الى فيرتياتشى لتطوق وتبيد العدو فى المنعطف الصغير للدون بالتعاون مع قوات الجنرال فاتوتين (الجبهة الجنوبية الغربية) .

يمكن احيانا سماع رأى يزعم ان جبهة الدون اضطلعت ، خلافا للجبهة الجنوبية الغربية وجبهة ستالينغراد ، بدور ثانوى فى نجاح عملية «اوران» . ان قوات روكوسوفسكى تحركت ببطء فعلا فى ايام الهجوم الاولى ، ولكن هذا مرده الى انها كانت تهاجم دفاعا ذا انساق عميقة وخطوط عديدة بقى الجانب الفاشى الالمانى بما يتسم به من دقة يحصنها منذ اواخر آب (اغسطس) عام ١٩٤٢ . مع العلم ان القوات الالمانية على وجه الحصر هى التى كانت تدافع هناك ، فى حين ان الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة ستالينغراد كانتا توجهان الضربات الى جيوش ضعيفة نسبيا ، هى جيوش حلفاء المانيا الفاشية .

ان اعمال جبهة الدون قيدت العدو وانتزعت منه امكان المناورة بالقوات والعتاد . ولهذا لم يستطع باولوس ان يرد بسرعة على اختراق القوات على الجوانب البعيدة لجيشه السادس .

لا بد ان القيادة العليا ، اذ عولت على تجربة روكوسوفسكى وموهبته ، كلفته عمدا بمهمات معقدة بشكل خاص لا يستطيع اى كان تاديتها .

اليكم ، مثلا ، ما يقوله روكوسوفسكى نفسه عن اعمال جيش جادوف الذى كان عليه بدون وسائل امداد اضافية ان يقيد قوى معادية كبيرة جدا :

«المهمة صعبة ، ونقول بصراحة انها غير حميدة . ولكن فى الحرب غالبا ما يقتضى الأمر اللجوء الى اعمال من هذا النوع . القادة المساكين ، الذين تكون هذه القسمة من نصيبهم ، يبذلون من الطاقة احيانا اكثر من اولئك الذين يهجمون فى الاتجاهات الحاسمة . مع العلم ان ذلك يجرى بلا اى افق للبروز . انه لأمر ردىء حينما لا تاخذ القيادة هذه الظروف فى الاعتبار» .

وكان روكوسوفسكى نفسه فى وضع كهذا فى المرحلة الاولى من فترة الهجوم فى معركة ستالينغراد . وقد اسعده الحظ بان يحوز اكاليل الغار لدى التصفية النهائية للعدو المطوق ، على الرغم من ان هذه الاكاليل لم تاته بسهولة .

قاوم العدو بعناد اعمى . كان يشغل مواقع مؤاتية جدا وعامرة ، وكان عنده ما يكفى من الاسلحة والذخيرة . بالاضافة الى ان احتياطياته كانت موزعة بحيث تشكل داخل التطويق ما يشبه حلقة ثانية . وهذا ما ساعد على زيادة عمق الدفاع ووفر امكان المناورة للهجمات المضادة فى اى اتجاه . وفى كانون الاول (ديسمبر) عززت القوات الفاشية الالمانية مواقعها ، فاقامت فى خط الدفاع الرئيسى وفى النخوم الفاصلة شبكة من نقاط الارتكاز وعقد المقاومة . واستخدم العدو فى جزئى الطوق الغربى والشرقى منشآت تحصيناتنا الدفاعية الوسطى والداخلية السابقة ، واقام خطا متراصا من التحصينات يصل عمقها الى عشرة كيلومترات .

وينبغى القول ان قوات روكوسوفسكى لم تكن تملك ابدا «تفوقا كبيرا» على العدو كما يشيع مزورو التاريخ البرجوازيون . ان قوات روكوسوفسكى ، اذ تمتعت بتفوق فى المدافع (مقداره ١,٧ مرة) والطائرات (ثلاثة اضعاف) ، كانت متخلفة عن العدو فى القوة الحية (١ مقابل ١,٢) والدبابات (١ مقابل ١,٢) . ولكن القدرة

القتالية لجنودنا كانت ، والحق يقال ، اعلى بكثير من القدرة القتالية لافراد جيش باولوس المحاصر منذ شهر ونصف .

كانت خطة عملية «الطوق» ، التى اقترحها روكوسوفسكى واقرتها القيادة العليا مع بعض التعديلات ، تنص على شق التجمع المعادى بضربة من الغرب الى الشرق ، ثم توجيه ضربة الى النتوء الجنوبى الغربى للحصار ، وبعد ذلك تمزيق بقية التجمع وابادتها جزءا جزءا . وقد ابدى القائد انسانية ازاء العدو المحاصر ، حيث اقترح بمبادرته على باولوس قبل الهجوم ان يستسلم بشروط عادية . بيد ان الهتلريين فتحوا النار على الرسل ، منتهكين بفظاظة القواعد المتعارف عليها . واقتضى الأمر اثنين وعشرين يوما من المعارك المتوترة الى اقصى حد لارغام المطوقين على الاستسلام .

من المعروف انه وقعت فى الطوق قرب ستالينغراد اثنتان وعشرون فرقة والعديد من مختلف وحدات تعزيز وخدمة الجيش الالمانى السادس . لقد حكمت القيادة الالمانية على مئات الالوف من جنودها بالهلاك . اذ ارغمتهم على القتال عدة اشهر بدون اى أمل فى الخلاص . ولم ينقذ حياة عشرات الالوف من الجنود والضباط الالمان الا انسانية الشعب السوفييتى . وكان بين الاسرى ٢٤ جنرالا على راسهم جنرال فيلدمارشال .

وكوفئ روكوسوفسكى على مآثره فى معركة ستالينغراد بوسام سوفوروف من الدرجة الاولى . وسميت جبهة قواته بالجبهة الوسطى ، ونقلت الى الحد الفاصل بين جبهتى بريانسك وفورونيج لتنفذ بالتعاون مع جارتيها مناورة التفاف عميقة فى الاتجاه العام نحو غوميل وسمولينسك .

تجلت القدرات التنظيمية لروكوسوفسكى بكل ابعادها من جديد : فى وقت محدود نقل اعدادا غفيرة من القوات والمعدات فى اسوأ ظروف الثلج والشتاء القارس الى منطقة جديدة . لقد بدا العدو يتمالك نفسه بعد ستالينغراد وارسل الى هناك بالذات احتياطيات من اوربا الغربية لكى ينتقم لكارثة الفولغا . وحتى فى ذلك الحين ، فى اوائل ربيع عام ١٩٤٣ ، بذلت القيادة الهتلرية محاولة لتطويق قواتنا فى منطقة كورسك . وللاطلاع على الوضع ومتطلبات

الجبهة قدمت فى نيسان (ابريل) الى روكوسوفسكى من موسكو لجنة على مستوى رفيع جدا .

شاطرها روكوسوفسكى افكاره حول ضرورة تنظيم دفاع متين لنتوء كورسك ، وبطلب من اللجنة عرض تصوراته فى مذكرة خاصة . وقد نوه فيها بان قوس كورسك سيكون الهدف الاكثر احتمالا لهجوم العدو فى الصيف . واستنادا الى هذا ، نصح روكوسوفسكى بحشد احتياطيات القيادة العليا القوية شرقى قوس كورسك لتجنب المصادفات وضمان انتقال قواتنا الى الهجوم المضاد فى الوقت المناسب . واعتقد ان هذه المذكرة ، الى جانب اقتراحات ممثل القيادة العليا جوكوف وقائدى الجبهتين المجاورتين ، كان لها دورها ، لانه تشكلت فى ايار — حزيران (مايو — يونيو) ١٩٤٣ جبهة جديدة ، احتياطية فى مؤخرة الجبهة الوسطى وجبهة فورونيج . وعلى اى حال قررت القيادة العليا الانتقال الى الدفاع المتعمد فى منطقة كورسك لانهاك العدو واضعافه ، ثم البدء بهجوم قوى على كل الجناح الجنوبى للجبهة السوفييتية-الالمانية من سمولينسك الى تاغانروغ .

ان القائد ، وقد وزن كل الظروف ، اعتبر ان مجموعة جيوش «الوسط» التى تواجه قواته سوف تسعى الى ان تشق طريقها عند قاعدة نتوء اوريول ، فاعار هذا الاتجاه المهدد اقصى اهتمام . وهنا ، على شريط امتداده ٩٥ كيلومترا حشد اكثر من نصف فرق المشاة و٧٠ فى المئة من المدفعية و٨٧ فى المئة من الدبابات والمدافع المتحركة . وفى هذا الاتجاه نفسه كانت هناك قوات النسق الثانى واحتياطى الجبهة (جيش دبابات وفيلقا دبابات مستقلان) . اما ما تبقى من الجبهة ، وطوله ٢١١ كيلومترا ، فوضع فيه اقل من نصف المشاة والمدفعية واقل من ٢٠ بالمئة من الدبابات . وكان ذلك مخاطرة ، بالطبع . ولكن روكوسوفسكى اقدم عمدا على هذا الحشد للقوات ، مستندا الى معطيات المخابرات والمعلومات التى تلقاها من الانصار .

قامت القوات ببناء تحصينات خط الدفاع الرئيسى ، اما بناء الخطين الثانى والثالث وخطوط المؤخرة فساهم فيه السكان المحليون بنشاط . واعير اهتمام خاص لتغطية التماس بين الوحدات والتشكيلات وضمان مناورة المدفعية فى التسديد والتنقل ، وكذلك مناورة القوات فى الجبهة ومن العمق . واذ اخذ روكوسوفسكى فى

الاعتبار ان هتلر يعول على الضربات المكثفة من الدبابات والمدافع الهجومية ، بما فى ذلك دبابات «تيغر» ومدافع «فيرديناند» الذاتية الحركة ، بنى الدفاع قبل كل شىء كدفاع مضاد للدبابات معد لصد ضربات الدبابات الاقتحامية القوية .

والى جانب ذلك مارست القوات جاهدة الاستعداد القتالى والسياسى الموجه نحو التدعيم المطرد للروح المعنوية الكفاحية للمقاتلين والقادة . وترأس العاملون السياسيون والشيوعيون والكومسومولیون التدريب القتالى وطوروا لدى المحاربين الصمود والشعور بالمساعدة المتبادلة وربوا فيهم الموقف الحريص من الاسلحة واعتدة القتال . وساعد انصار منطقة بريانسك وبيلوروسيا الجبهة كثيرا .

اكتب عن اجراءات روكوسوفسكى لتنظيم دفاع متين الى اقصى حد ، لانه شاعت بين عدد من العسكريين اسطورة حول «حظ» روكوسوفسكى ، وكانما تيسر له كل شىء بلا جهد ، بسهولة وبساطة . كلا ، لقد عمل بمرح وحماسة ، محولا العمل الرتيب الى عمل ممتع وجذاب .

وفى غضون ذلك اقتربت ساعة الامتحان . فى عشية ٥ تموز (يوليو) ليلا اسر جنود هندسة المان كانوا يعدون ممرات فى الحواجز . وبين الاسرى ان الهجوم عين فى الساعة الثالثة صباحا ، وان القوات الالمانية اتخذت وضع الانطلاق . لم يكن قد بقى حتى ذلك الحين سوى ساعة تزيد قليلا . وظهر امام روكوسوفسكى هذا الخيار : هل يصدق شهادات الاسرى او لا ؟ اذا كانوا صادقين ، فينبغى الشروع فورا فى التمهيد المدفعى المضاد المخطط له . ومن شأن الابطاء ان يؤدى الى عواقب فادحة ، فى حين لم يبق وقت لسؤال القيادة العليا . وكان فى مقر قيادة الجبهة ممثلها جوكوف ، وقد عهد الى روكوسوفسكى بتقرير المسألة .

وزن روكوسوفسكى كل الملابسات ، وأمر بفتح النار . وفى الساعة الثانية و٢٠ دقيقة بتاريخ ٥ تموز (يوليو) شق دوى المدفعية فوق مواقع الجانبين على قطاع واسع من الجبهة جنوب اوريول سكينة ما قبل الفجر ، التى كانت تسيطر على السهب . وانصبت على القوات المعادية المستعدة للهجوم ، وعلى بطارياتها نيران مئات ومئات المدافع ومدافع الهاون وقاذفات الصواريخ . وبالنتيجة منى العدو

بخسائر كبيرة ، ولا سيما فى المدفعية ، ودمر نظامه لتوجيه القوات . وظن الجنرال موديل ، قائد الجيش التاسع ، الذى وجهت اليه هذه الضربة ، ان الجانب السوفييتى نفسه انتقل الى الهجوم ، وقد اختلت خططه وظهر الارتباك والاضطراب فى القوات الهتلرية . واقتضى الأمر قرابة ساعتين لاستعادة حد ادنى من النظام . ولم يبدأ العدو تمهيده المدفعى بقوى منهكة الا فى الساعة الرابعة والنصف صباحا .

ان استعداد روكوسوفسكى لتحمل كامل المسؤولية اعطى نتائج خيرة . ومع ذلك ادخل العدو فى المعركة منذ اليوم الاول للهجوم عددا كبيرا من الدبابات ، بينها دبابات «تيغر» ومدافع «فيرديناند» الهجومية الثقيلة . ودعم الهجوم بنيران قوية من المدفعية وباعمال الطيران الذى قذف العمق التكتيكى لدفاع الجبهة . ان قوات روكوسوفسكى ، التى هوجمت بسيل من الفولاذ ، قاتلت بتفان وثبات .

ان مدفعيتنا ومدافع الهاون ومدافع «كاتيوشا» الصاروخية والرشاشات استقبلت المهاجمين بجدار من النار : كانت طواقم مدافع التسديد المباشر والبنادق المضادة للدبابات تطلق النار وجها لوجه على دبابات العدو وطيرانه ، وتشن عليه هجمات مضادة فى الجو والارض . ونشبت معارك طاحنة وعنيدة . وكانت الدبابات المعادية تطأ حقول الالغام فتنفجر واحدة اثر اخرى . فكانت دبابات العدو التى تسير فى اثرها تزيحها وتتابع على الآثار التى شقتها اجتياز القطاعات الملغومة . وكانت دبابات «تيغر» ومدافع «فيرديناند» تغطى بنيرانها اعمال الدبابات والمشاة فى الوسط . وعلى الرغم من ان العدو وجه ضربة اقتحامية شديدة القوة ، لم يتسن له فى اليوم الاول من المعارك ان يقتحم الا فى بعض القطاعات دفاع الجبهة الوسطى على عمق ٦–٨ كيلومترات .

كان روكوسوفسكى يعرف انه ينبغى توقع ان يوجه العدو ضربات قوية جديدة . وعلاوة على ذلك ، كلفته القيادة العليا بمهمة جديدة للدفاع عن كورسك اذا اندفعت من الجنوب قوات مانشتين التى كانت تعمل مقابل جبهة فورونيج .

قال القائد الاعلى لروكوسوفسكى :

– خذ فى الاعتبار ان وضع جارك الايسر صعب ، وقد يوجه العدو من هناك ضربة الى مؤخرة قواتك .

ولتدعيم القطاع المهدد اضطر قائد الجبهة ان يضعف بعض الشيء الجيوش التى كانت تقوم بالدفاع على قمة نتوء كورسك . وقرر كذلك ان يشن فى اسرع وقت ممكن هجوما مضادا قصيرا وقويا على العدو الذى اقتحم دفاعنا .

فى ٦ تموز (يوليو) عند الشروق ضربت المدفعية والطيران باتساق القوات المعادية ، وانتقلت الى الهجوم الدبابات والمشاة المخصصة للهجوم المضاد . انها لم تتقدم ، والحق يقال ، سوى كيلومترين ، ولكنها انجدت مفارز الفرقتين الخامسة عشرة والحادية والثمانين التى كانت تقاتل وهى مطوقة لليوم الثانى .

ان العدو ، الذى لم يحقق فى ٦ تموز (يوليو) نجاحا فى الوسط وعلى الجانب الايسر للجيش الثالث عشر ، حول منذ صباح ٧ تموز (يوليو) جهوده الاساسية الى قطاع بونيرى ، مدركا مغزى هذه العقدة القوية لجيشنا :اذ كانت قواتنا توجه بالاعتماد عليها ضربات جانبية الى التجمع المعادى الذى كان يهجم على اولخوفاتكا . واستمرت المعارك الضارية يومين فى منطقة بونيرى التى انتقلت من يد الى يد مرارا ، ولكنها بقيت فى يدنا بالنتيجة . ولم تهدأ المعارك فى اتجاه اولخوفاتكا ايضا .

مع انتهاء اليوم الثالث من المعركة كانت كل احتياطيات الجبهة تقريبا قد اشركت فى المعركة ، اما موديل فاستمر بادخال قوات جديدة وجديدة . بم يمكن ردعه ؟ واقدم روكوسوفسكى على مخاطرة كبيرة ، حيث ارسل الى الاتجاه الرئيسى احتياطيه الاخير ، فيلق الجنرال بوغدانوف التاسع للدبابات المكتمل تماما والذى كان يغطى كورسك من الجنوب . وفى ليلة ٨ تموز (يوليو) ساعد الفيلق ، الذى تقدم الى الاتجاه الرئيسى ، على جعل الوضع مستقرا .

فى خلال ستة ايام من الهجمات المتواصلة تسنى للعدو اقتحام دفاع الجبهة الوسطى الى عمق يتراوح بين ١٠ كيلومترات و١٢ كيلومترا . ان فون كلوغى قائد مجموعة جيوش «الوسط» ، وقد استنفد الاحتياطيات ، قرر ان يرسل الى هذا الاتجاه جزءا من قواته من الواجهة الشمالية لقوس اوريول . ولكن فى ذلك الوقت وجه هناك الجيش السادس عشر سابقا ، الذى اصبح جيش الحرس الحادى عشر ، بمساعدة من الجيش الحادى والستين المجاور ، ضربة عنيفة وقوية . واخذت القيادة الالمانية ، التى ارعبها هذا ، تنزع

الفرق المهاجمة للجبهة الوسطى ، وترسلها لمواجهتنا . واعيد الى الاذهان اننى كنت فى ذلك الحين اقود هذا الجيش المقدام الموروث عن روكوسوفسكى . وقد تلفن لى روكوسوفسكى حينذاك وشكرنى من صميم القلب على المساعدة الكبيرة والمناسبة التى سماها مساعدة «اخوية» .

بعد ان خمد هجوم العدو المضاد ، جابهت روكوسوفسكى مهمة جديدة : يجب على جيوشه ان تساهم دون ان تلتقط انفاسها فى الهجوم المضاد العام على تجمع العدو فى اوريول . وعلى الرغم من الاجهاد الذى اصاب الجيوش الثامن والاربعين والثالث عشر والسبعين فى المعارك الدفاعية المتوترة ، فقد انطلقت فى ١٥ تموز (يوليو) بنشاط الى الامام واستعادت فى غضون ثلاثة ايام الموقع الذى كانت تشغله فى بداية عملية «الحصن» ، ومن ثم – بدون اى توقف ايضا – طورت هذا النجاح وساعدت جبهة بريانسك على تحرير اوريول . وخلاصة القول ان قوات الجبهة الوسطى ، اذ انتقلت فى ١٥ تموز (يوليو) الى الهجوم المضاد ، وجهت بالتعاون مع قوات جبهة بريانسك والجناح الايسر للجبهة الغربية ضربة الى الجانب الجنوبى لتجمع العدو فى اوريول ، وحطمته وصفت نتوء اوريول .

ولم يوقف روكوسوفسكى القوات لاعادة تجميعها الا فى اواسط آب (اغسطس) ، حينما وصل الى خط دفاع الهتلريين القوى «هاغين» . ولكن هذا لم يعقبه توقف ، اذ كان على الجبهة الوسطى ان تطهر منطقتى كورسك وبريانسك من المحتلين وتبدأ بتحرير جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليسرى وجنوب شرق بيلوروسيا .

وقد خصص لكل هذا وقت قليل بحيث لم يكن هناك مجال لمجرد الحديث عن اية اعادة تجميع تمهيدية . ومع ذلك ، فى خلال الهجوم الستراتيجى العام فى صيف وخريف سنة ١٩٤٣ قام روكوسوفسكى من ٢٦ آب (اغسطس) الى ٣٠ ايلول (سبتمبر) بعملية تشيرنيغوف – بريبيات ، وبالنتيجة تحركت قواته العاملة عند تماس مجموعتى جيوش «الوسط» و«الجنوب» ٣٠٠ كيلومتر الى الغرب ، ووصلت الى الدنيبر وبريبيات وسوج وعبرتها ، واستولت على رؤوس جسور مؤاتية للعمليات اللاحقة .

بعد انجاز عملية تشيرنيغوف – بريبيات ، وضع روكوسوفسكى تحت قيادته جيوش جبهة بريانسك الملغاة ، ثم تلقى مهمة مشرفة ،

وهى ان يبدأ بتحرير بيلوروسيا التى عانت الكثير . وصارت جبهته تسمى بالجبهة البيلوروسية .

كانت مدينة غوميل اول هدف لاعمال الجبهة . ينبغى التنويه بأن القوات كانت قد استولت على رأس جسر وراء الدنيبر مقابل غوميل ، وقد حشد العدو هناك قوى كبيرة لمحاصرته . وماذا كانت النتيجة ؟ قرر روكوسوفسكى ان يسحب خفية من هناك قوات جيش باتوف الخامس والستين ويعبر الدنيبر مجددا الى الاسفل مع التيار مقابل لوييف ورادول . وهذا القرار ، فى رأيى ، يبين بوضوح عمق التفكير الستراتيجى للقائد السوفييتى البارز . جلبت العملية نجاحا سريعا ، وفى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) عند الشروق حرر من النير الفاشى اول مركز مقاطعة فى بيلوروسيا ، غوميل .

فى تلك اللحظة جرت حادثة مشهودة رواها لى بعد الحرب الجنرال غورباتوف القائد السابق للجيش الثالث ، فقد قال :

– تلقيت فى العشرين من تشرين الاول (اكتوبر) أمرا من قائد الجبهة بالانتقال فورا الى الهجوم وتحطيم العدو الذى يواجهنا والاستيلاء على عدة نقاط محصنة بقوة . ولكن جيشى الثالث كان قد انهك فى المعارك الى اقصى حد . وعلاوة على ذلك انتزع منى روكوسوفسكى كل وسائل التعزيز تقريبا واعطاها لباتوف . ضربت اخماسا لاسداس ، وحاولت عصر كل القوى من الاركان والمؤخرة والوسائل المساعدة ، واستشرت رئيس الاركان فاقتنعت بأن الأمر غير قابل للتنفيذ باى شكل . فكرت فى ان اتوجه الى روكوسوفسكى ، ولكنه كان قد وضع المهمة بحزم بحيث اعتبرت من غير المجدى ان افعل هذا . تعذبت طويلا ، ولكنى لم اشأ قتل الناس عبثا ، كما بدا لى ، وكتبت رسالة الى القيادة العليا كانت من حيث الجوهر شكوى على القائد . وودعت بخواطرى جيشى الثالث . وفكرت فى اننى لن اعمل بعد اليوم مع روكوسوفسكى ، لانه سيستاء ولا شك .

فماذا كان رد فعل روكوسوفسكى ؟ ليس فقط لم يستأ من مرؤوسه ، بل ، على العكس ، اعتبر ان تصرف غورباتوف يؤكد كونه قائدا مفكرا يحرص على القضية المكلف بها . لم يأت رد من القيادة العليا ، ولكن روكوسوفسكى كشف امام قائد الجيش ، خلافا للممارسة المرعية كل الاوراق ، واوضح تماما دور جيشه فى الوضع

الملموس . ينبغى القول ان القيادة العليا صارت بعد هذه الحادثة تعلم قيادة الجبهة على نحو اكمل بنياتها وبالدور الفعلى لهذه التشكيلات او تلك فى تنفيذ خططها . ولا حاجة الى القول ان غورباتوف ، وقد ادرك خطأه ، ازداد احتراما لقائد الجبهة .

. . . ان ما يسمى بالحاجز الشرقى ، الذى طبلت له الدعاية الالمانية على نطاق واسع كخط يستحيل اختراقه ، اجتاحته قوات الجبهة البيلوروسية على شريط عرضه ١٢٠ كيلومترا ، اما الانجاز الناجح لعملية غوميل – ريتشيتسا فساعد الى درجة كبيرة الجبهة الاوكرانية الاولى على تنفيذ عملية كييف الواسعة . ان العدو ، الذى قيدته قوات روكوسوفسكى ، لم يستطع ارسال اية فرقة من بيلوروسيا الى منطقة عاصمة اوكرانيا . ومن جديد ناور روكوسوفسكى على نحو ماهر بالتشكيلات المتحركة ، فضمن زيادة الجهود فى العمق وتوجيه الضربات الجانبية الى تجمعات العدو فى ظروف منطقة مليئة بالغابات والمستنقعات .

فى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) تباطأ هجوم الجبهة . كان هناك شعور بان القوات بحاجة الى الراحة ، والقيادة بحاجة الى فترة توقف عن العمليات للتفكير فى الخطة المقبلة للاعمال . وارتسمت الاحتمالات الممكنة للاقتراحات على القيادة العليا ، حينما تلقى روكوسوفسكى فى احد الايام مساء مخابرة من ستالين الذى كان فى طهران . تحدث القائد الاعلى بايجاز ، شأنه دائما . قال أن الامور عند فاتوتين لا تسير كما ينبغى ، فقد تسنى للعدو خلق تهديد جدى لكييف ، وأمر بالذهاب فورا الى مقر قيادة الجبهة الاوكرانية الاولى بصلاحيات ممثل للقيادة العليا وادراك فحوى الوضع ميدانيا واتخاذ كل الاجراءات الضرورية ، بما فى ذلك تنحية فاتوتين من منصبه والشروع عوضا عنه فى قيادة قوات الجبهة الاوكرانية الاولى .

وصل روكوسوفسكى الى المكان واستوضح بسرعة كيف تطورت الاحداث عند الجيران : فى بداية تشرين الثانى (نوفمبر) حررت قوات الجبهة عاصمة اوكرانيا ، ثم تابعت الضربات وطهرت جيتومير من العدو . بيد ان القيادة الفاشية الالمانية لم تشأ الرضوخ لهذا وشنت فى ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) هجوما مضادا مفاجئا قويا . ونتيجة للمعارك الضارية تسنى للهتلريين احتلال جيتومير مجددا . والآن

اصبح الاسفين المدرع القوى موجها نحو عاصمة اوكرانيا . لقد دق ستالين ناقوس الخطر بصورة مبررة تماما .

كان روكوسوفسكى يعرف فاتوتين منذ امد بعيد ، وكانت العلاقات بينهما طبيعية ، ولكن فاتوتين قابل زميله الآن بصورة اكثر من رسمية . قال روكوسوفسكى ، وقد استمع الى حجة جديدة للدفاع عن النفس :

– انا لم آت اليك كمفتش ، بل بهدف المساعدة على تقويم الوضع باسرع ما يمكن .

نظر فاتوتين الى رفيقه بشكر ، وحدثه عن جوهر الأمر . كان خطأ قيادة الجبهة الاوكرانية الاولى فى كونها اختارت تكتيك الدفاع «الجامد» . وذكر روكوسوفسكى جاره بجيشيه المدرعين ، ونصحه بأن ينظم على الفور هجوما مضادا قويا على العدو المقتحم . وافقه فاتوتين ، وشرع فى العمل فورا ، ومع ذلك سأله عرضا متى ينوى ممثل القيادة العليا على اى حال مباشرة قيادة الجبهة الاوكرانية الاولى . واجاب روكوسوفسكى قائلا :

– انك تقود القوات بثقة ، اما انا فعندى ما يكفى من الاعمال فى الجبهة البيلوروسية .

وكان وداع القائدين حارا ووديا .

فى مستهل عام ١٩٤٤ انتقلت الجهود الاساسية للقوات السوفييتية الى منطقة هجوم الجبهات الاوكرانية . وذهبت اليها كل الاحتياطيات . اما قوات الجبهات البيلوروسية فقامت بعمليات التفاف لمنع العدو من امكان المناورة بالقوات . وفى الربيع سمح اخيرا بالانتقال الى الدفاع . وفى آذار جرى حديث هاتفى بين روكوسوفسكى وستالين الذى ابلغه بخطوط عامة عن مهمات الجبهة فى عملية بيلوروسيا الستراتيجية التى ستجرى فى الصيف . ولتسهيل التعاون بين التجمعات الجانبية ، طلب روكوسوفسكى تسليمه جيوش الجبهة البيلوروسية الثانية المجاورة التى كانت تهاجم منطقة بوليسييه . ولبت القيادة العليا هذا الطلب . وهكذا استطاع روكوسوفسكى فى بداية ايار (مايو) عام ١٩٤٤ الشروع فى اعداد عملية تحرير الجزء الجنوبى من بيلوروسيا ثم الوصول بعد ذلك الى المناطق الشرقية من بولندا .

ان الدراسة المتمعنة للمنطقة المليئة بالغابات والمستنقعات وخصائص دفاع العدو اقنعته بضرورة توجيه ضربتين بقوة واحدة : احداهما من منطقة روغاتشوف الى بوبرويسك واوسيبوفيتشى ، والاخرى من منطقة المجرى الاسفل لبيريزينا الى سلوتسك ، رغم ان هذا لم يكن يتجاوب مع القناعة التقليدية بان ضربة قوية واحدة هى اكثر جدوى .

اتذكر اننى حدثت روكوسوفسكى عن انه اخذ على عاتقه مهمة صعبة ، فقد كانت المنطقة عند موقع الهجوم سيئة جدا ، بالاضافة الى عوائق المستنقعات التى يصعب اجتيازها . ورد محدثى على هذا قائلا :

– انت تعرف قدر ما اعرف انا ، انه يمكن حل اية مهمة بالجندى السوفييتى اذا قدته برعاية ابوية .

فى٢٢ ايار (مايو) استدعيت بصفتى قائد جبهة البلطيق الاولى مع الجنرال ليونوف عضو المجلس العسكرى لهذه الجبهة ، الى موسكو . وفى اليوم نفسه دعينا الى الاركان العامة للاطلاع على مشروع خطة العملية الهجومية المقبلة . وفى مكتب انطونوف رئيس الاركان العامة قابلنا روكوسوفسكى وبولغانين عضو المجلس العسكرى للجبهة البيلوروسية الاولى . واعلن انطونوف ان المارشالين جوكوف وفاسيليفسكى مستعدان ليناقشا معنا مسائل مساهمة قوات كل جبهة فى العملية المقررة . كنت اول من حضر الاستقبال حسب الدور المحدد ، ثم قدم روكوسوفسكى تقريره . وقد ووفق على خططنا تماما وباكملها ، وايد المارشالان قرار روكوسوفسكى حول الضربتين . بعد الاستقبال عند جوكوف وفاسيليفسكى ، تغديت وروكوسوفسكى معا وتحدثنا كثيرا . وحينذاك اخبرنى بالكثير مما حدثت القارئ عنه .

فى اليوم التالى ، فى ٢٣ ايار (مايو) ، عقد اجتماع فى مكتب ستالين فى الكرملين حضره كل الاشخاص الذين كانوا فى الاركان العامة فى اليوم السابق ، وكذلك الجنرال تشيرنياخوفسكى قائد الجبهة البيلوروسية الثالثة . حينما جلس الجميع اقترح القائد الاعلى على انطونوف التحدث عن خطة العملية . لم تكن هناك اعتراضات مبدئية عند احد . وانتقلنا الى مناقشة اساليب تنفيذ المهمات المعقدة . وكنت اول المتحدثين . فعرضت قرارى . كنت انوى توجيه

الضربة الرئيسية للجبهة فى قطاع واسع نسبيا . وقد وجه القائد الاعلى اهتمامه الى هذا . واذ استمع الى التفسير ، وافق على القرار الذى اتخذته . ثم تحدث تشيرنياخوفسكى . وبعده روكوسوفسكى . اقترح تشكيل تجمعين ضاربين للجبهة عليهما ان يخرقا دفاع العدو فى قطاعين ويطوقا ويحطما فى الهجوم التالى تجمع العدو المقابل . جوبه هذا الاقتراح بمعارضة ستالين . تصرف روكوسوفسكى بصلابة ، وفاز رأيه بدعم حازم من جوكوف وفاسيليفسكى . مثل هذا الخلاف مع القائد الاعلى كان أمرا نادرا بالنسبة الى روكوسوفسكى ، اذ كان القائد الاعلى يكن له الود وكان ، حسب قول تيموشينكو ، يقارنه بفيليكس دزيرجينسكى . فقد قال : «انه شريف وذكى وطيب وانسانى مثله ، الا ان فيليكس كان اصلب واصرم بعض الشىء» .

من المفهوم بداهة ان القائد الاعلى كان يصغى باهتمام الى راى رفيقيه المقربين جوكوف وفاسيليفسكى اللذين اعربا فى هذه المرة عن تصورات هامة تتعلق بتنظيم مجموعة كبرى من العمليات .

قال ستالين :

– هذه اقتراحاتكم وانتم ستنفذونها .

وفى الختام اعلن ستالين ان جوكوف وفاسيليفسكى قد عينا ممثلين للقيادة العليا فى عملية بيلوروسيا لتنسيق العمليات القتالية للجبهات .

بدأ هجوم قوات روكوسوفسكى فى صباح ٢٤ حزيران (يونيو) بتمهيد مدفعى قوى استمر ساعتين . وكان يوجد فى قطاعات الاختراق ٢٠٠ مدفع على كل كيلومتر من الجبهة . ثم انطلق المشاة والدبابات الى الهجوم . وعمل بنجاح ، كالعادة ، الجيش الخامس والستون الذى اخترق منذ النصف الاول من النهار دفاع العدو على امتداد العمق باسره . وقد قاد الجنرال باتوف بجراة فيلق الجنرال بانوف المدرع الاول الى الاختراق . وما لبث روكوسوفسكى ان تلقى من باتوف تقريرا مشجعا جدا : «تم دعم الاختراق بمتانة . ان الفيلق المدرع ، الذى لا يلقى مقاومة تذكر يلف على عقدة المقاومة فى بوبرويسك» .

منذ ٢٧ حزيران عند الشروق اصبح تجمع ضخم يضم اكثر من

خمس فرق للجيش الالمانى مطوقا فى بوبرويسك نفسها وفى شمال غرب المدينة . وبأمر من روكوسوفسكى انهال طيارو الجيش الجوى السادس عشر على المطوقين بضرب قوى من القاذفات والمقاتلات . وقاتل الهتلريون بعناد وعنف على امل مساعدة من الخارج . وبعد ان ادركوا ان هذا الامل خادع ، قاموا فى ليلة ٢٩ حزيران بمحاولة يائسة للاختراق فى الاتجاه الشمالى الغربى ،ولكنهم حطموا تماما نتيجة الضربات القوية من الجو والهجمات الحازمة من القوات البرية .

حققت قوات روكوسوفسكى فى خلال خمسة ايام من الهجوم نجاحا بارزا : انها ، وقد اخترقت دفاع العدو على امتداد مئتى كيلومتر من الجبهة ، طوقت وابادت تجمعه فى بوبرويسك وتحركت فى العمق حتى مئة وعشرة كيلومترات . اثنان وعشرون كيلومترا فى اليوم ! وهذا رغم مقاومة العدو الضارية ! وقد قدر هذا النجاح حق قدره . ففى ٢٩ حزيران عام ١٩٤٤ منح روكوسوفسكى لقب مارشال الاتحاد السوفييتى . ان اصرار روكوسوفسكى اعطى ثمارا رائعة . فلو ان الجبهة وجهت ضربة واحدة فقط على جناحها الشمالى ، لما كان النجاح باهرا الى هذه الدرجة .

فيما بعد كان على قوات الجبهة البيلوروسية الاولى ان تهجم بجزء من قواها على مينسك ، وبالقوى الباقية على بارانوفيتشى . وكان ينبغى لهذه المناورة ان تنجز تطويق الجيش الالمانى الرابع . وقد اتصل روكوسوفسكى بالجنرال بانوف آمر فيلق الحرس المدرع الاول وأمره ان يكون فى مينسك حتى ٣ تموز (يوليو) . واستقبل جنود المدرعات امر المارشال بحماسة ونفذوه بدقة . ووصلوا فى ٣ تموز الى مينسك من الجنوب والتقوا هناك قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة ، وبهذا احكموا «الكماشة الحديدية» حول جيش الميدان الرابع للهتلريين الذين لم يسعفهم الوقت للوصول الى مينسك . لقد اغلق طوق الحصار على الفاشيين شرقى العاصمة البيلوروسية .

فى ١١ تموز قضى على هذا التجمع المطوق للعدو ، وفى اليوم التالى من تحرير مينسك امرت القيادة العليا قوات الجبهة البيلوروسية الاولى ان تطوق بضربات متقابلة من الجيشين الثامن والاربعين والخامس والستين وتبيد تجمع الهتلريين فى بارانوفيتشى ، دون

التوقف فى غضون ذلك عن ملاحقة العدو . مرت اربعة ايام وحررت بارانوفيتشى بانقضاض عنيف . وبعدها انتقل كل اهتمام قائد الجبهة الى جناح الجبهة الايسر . قال لى فى احد الاحاديث بعد الحرب :

– لعلك تقدر مدى الانفعال الذى انتابنى ، حينما اقرت القيادة الخطة التى اقترحناها لعملية لوبلين – مينسك . فخلف نهر بوغ تقع بولندا التى غادرتها شابا فى الثامنة عشرة من العمر . اى منعم كان بوسعه ان يتنبأ بان نحاتا من وارسو تطوع جنديـــا فى فوج خيالة كارغوبول واضطر الى مغادرة بولندا معه تحت ضغط الجيش الالمانى سيعود الى هناك بعد ثلاثين سنة على رأس قوات جبهة تضم مليون مقاتل ليبدأ القضية المقدسة ، قضية تحرير بولندا من النير الفاشى الالمانى ! . .

لقد فهمت جيدا الانفعال الذى تحدث به صديقى الدائم ، لانه لو قدر لى ، مثلا ، ان احرر الارمن من النير العثمانى لانتابنى الشعور نفسه .

وهكذا ، فقد اقرت القيادة العليا فى ٧ تموز (يوليو) خطـــة عملية لوبلين – مينسك . وفى ١٨ تموز انتقلت الى الهجوم خمسة جيوش للقوات العامة ، بينها الجيش الاول للقوة البولندية ، وكذلك الجيشان المدرع والجوى ، وفى اليوم نفسه حطمت دفاع العدو على امتداد ثلاثين كيلومترا من الجبهة وتوغلت فى موقعه مسافـــة ١٥ كيلومترا ، وبعد يومين رأى محاربو الجبهة البيلوروسيـــة الاولى المجرى المهيب لبوغ الغربى ، النهر المتاخم لبولندا .

لم يستطع روكوسوفسكى صبرا ، فذهب الى ضفة بوغ لينظم شخصيا عبور الحاجز المائى . ورأى شريطا لا ينتهى مـــن القوات والعتاد تغيب خلف النهر . ان جنود الدبابات والخيالة ، اذ شعروا بتلهف قائدهم المحبوب ، عبروا بوغ باندفاع وحطموا حواجز العدو بهجمة جريئة ، ساحقة ووصلوا الى لوبلين فى ٢٤ تموز (يوليو) ، اى قبل الموعد الذى اقرته القيادة العليا باربعة ايام .

اصبحت مدينة لوبلين عاصمة مؤقتة لبولندا . والتقى فى ساحة القصر الوف المواطنين والمحاربين السوفييت وجنود القوة البولندية فى اجتماع مكرس لتشكيل اللجنة البولندية للتحرر الوطنى . وشهدت المدينة البولندية العريقة ، التى اسست فى القرن العاشر ، انتصار الصداقة البولندية السوفييتية .

قال روكوسوفسكى بانفعال :

– لقد حظيت بشرف كبير ، اذ تحدثت فى اجتماع لوبلين . وكان ذلك اليوم من اسعد ايام حياتى . . . اقتربت من الميكروفون وانا استجمع افكارى ، اذ لم اشأ ان اتحدث وفق نص معد سلفا ، واعترف بانه لم تكن عندى تقريبا ممارسة لالقاء كلمات بالبولندية . بدأت كما هى العادة : «يا مواطنى بولندا المحررة الاعزاء ، ايها الاشقاء والشقيقات ! لقد حلت اللحظة التاريخية لانقاذ وطنكم المعذب مـن النير النازى على يد الشعب السوفييتى الشقيق . . .»

هذه الكلمـات المؤثرة استقبلـت اول الامر بهمهمة تعجـب وحماسة ، ثم بعاصفة من التصفيق . لقد علم سكان لوبلين بسرور ان مارشال الاتحاد السوفييتى قسطنطين روكوسوفسكى هو مواطنهم . وكان حشد قوامه الوف مؤلفة مـــن الناس يلتقط كـل كلمـــة باهتمام شديد حينما كان الخطيـب يتحدث عـن مصير الوطـــن المعذب .

بعد هذا الحدث المشهـود بالنسبـــة الى كل البولنديين شرع روكوسوفسكى بقوة مضاعفة فى تنظيم الهجوم . انه ، وقد استخدم كل فنه القيادى ، استطاع ، معتمدا على الجهاز الحزبـــى السياسى وشيوعيى الجيش ، ان يصل بقواته على جبهة واسعة الى نهر فيستولا ، محطما مقاومة العدو المتعاظمة . وعلاوة على ذلك اقيمت بجهود جبارة ثلاثة رؤوس جسور على ضفته الغربية ، ثم حطمت قوات الجبهة فى ايلول (سبتمبر) مقاومة الجيش الالمانى الضارية حقا واستولت على براغا ، ضاحية العاصمة البولندية على الضفة اليمنـى من نهـــر فيستولا .

كان يبدو ان وارسو صارت على بعد رمية حجر ، ولكن القوات التى وجهت الى العدو ضربات متواصلة على امتداد شهرين ونصـف كانت فى تلك اللحظة قد استنفدت امكاناتها الهجومية تماما . واصبح التوقف طويلا عن العمليات ضرورة ملحة . وكان لا بد من التوجه الى القيادة العليا فى صدد هذه المسألة . ووافق ستالين على هذا الاقتراح بدون اية رغبة .

وقد قدر لروكوسوفسكى ان يعانى فترة مـــن اقسى فترات حياته . وخلاصة الامر انه فى تلك الايام نشبت فى عاصمة بولندا انتفاضة اثارها عملاء حكومة المنفى المزيفة فى لندن . وكان يقودها

الجنرال بور-كوماروفسكى . وحينما علمت القيادة السوفييتية ببدء الانتفاضة بعد وقوعها ارسل روكوسوفسكى بأمر من القائد الاعلى ضابطين مظليين سوفييتيين الى بور-كوماروفسكى . غير ان الجنرال المتغطرس لم يتفضل باستقبالهما .

ان منظمى الانتفاضة ، الذين لم يرغبوا فى ان تساهم القوات السوفييتية والقوة البولندية الشعبية فى تحرير وارسو ، لم يعلموا القيادة السوفييتية وقيادة القوة البولندية بخططهم . واذ قام الجنرال بور-كوماروفسكى بانتفاضة غير معدة من الناحيتين السياسية والعسكرية كان يعول على الذعر الذى انتاب حامية القوات الهتلرية والادارة الفاشية فى وارسو بسبب اقتراب القوات السوفييتية والقوة البولندية . اما فى الواقع فانها عقدت بتصرفاتها الموقف فى اهم قطاع من الجبهة السوفييتية الالمانية .

لم يعرف سكان وارسو الاهداف الحقيقية لمنظمى الانتفاضة المسلحة ، ولكنهم كانوا متعطشين الى طرد العدو من المدينة باسرع وقت . ولهذا انخرطوا بنشاط فى الاشتباك مع الحامية الفاشية المسلحة جيدا وابدوا بطولة فائقة فى المعارك . بيد ان القوى لم تكن متكافئة منذ البداية . فهذه الحامية الفاشية المسلحة جيدا والمكونة من ١٦ الف شخص كان يجابهها اكثر من ٤٠ الف مقاتل بقليل لم يكن عندهم سوى ٣,٥ الف قطعة من الاسلحة الخفيفة . وامر هتلر بقمع الانتفاضة بلا رحمة وتدمير وارسو حتى آخر حجر . وبعد النجاحات الاولى التى احرزت فى الاسبوع الاول ، صار وضع المنتفضين يتردى من يوم الى آخر . ومنيوا بخسائر كبيرة . وكان هناك نقص فى الماء والاغذية والذخائر والادوية . وفى ١٢ آب اخذ بور-كوماروفسكى يبتهل الى حكومته فى لندن ان ترسل بصورة عاجلة الاسلحة والذخائر وتقذف مواقع العدو وتقوم بانزال جوى . والا فان نضال المنتفضين ، كما قال ، سينتهى بالفشل بعد عدة ايام . ولكن الدعم من لندن لم يأت .

ان ادراك استحالة القيام بعملية كبرى لنجدة المنتفضين كان بالنسبة الى روكوسوفسكى امرا مضنيا يفوق الوصف . وعلاوة على كل ذلك ، كانت تعيش فى وارسو شقيقته الوحيدة .

فى تلك الايام تحادث مرارا مع ستالين بالتلفون . واذ استمع القائد الاعلى الى تقرير جديد عن الوضع فى الجبهة وعن كل ما يتعلق

بوارسو ، سأل اذا كان هناك ولو اقل امكانية للشروع فى عملية جدية لتحرير عاصمة بولندا . واعطاه روكوسوفسكى جوابا سلبيا وقلبه يتمزق . ولكنه كان متفقا مع القائد الاعلى على نية تقديم كل مساعدة ممكنة الى المنتفضين . ومنذ ١٣ ايلول (سبتمبر) بدأ تزويد المنتفضين بالسلاح والذخيرة والاغذية والادوية من الجو . وقامت بهذا قاذفات بو – ٢ الليلية التى كانت تقذف الحمولات من ارتفاعات منخفضة الى نقاط يشير اليها المنتفضون . وقد جرى فى خلال نصف شهر قرابة خمسة آلاف تحليق كهذا . وعلاوة على ذلك ، كانت طائراتنا المقاتلة تقوم بناء على طلب من المنتفضين بتغطيتهم من الجو وتقذف وتهاجم قوات المحتلين فى المدينة . وكان جنود المدفعية المضادة للطائرات يسعون الى حماية المنتفضين من طيارى العدو ، اما المدفعية الارضية فكانت تحاول اخراس الاسلحة المعادية التى كانت تطلق النار على المنتفضين . واذ اعتبر روكوسوفسكى ان كل هذا لا يكفى ، نظم بموافقة القيادة العليا انزالا ضخما فى وارسو بقوى الجيش الاول للقوة البولندية .

فى ١٥ ايلول (سبتمبر) انتقلت الى براغا (ضاحية وارسو) كل فرق الجيش الاول للقوة البولندية . ووضعت امامها هذه المهمة : عبور فيستولا والاستيلاء على رؤوس جسور فى وارسو مباشرة واقامة اتصال قتالى بالمنتفضين الذين قررت قيادتهم اخيرا تحت ضغط تطور الاحداث اقامة صلة بالجيش السوفييتى والقوة البولندية منذ ١٥ ايلول . كان على فرقة المشاة الثالثة ان تكون البادئة بعبور فيستولا . وقد عززت ودعمت بستة الوية سوفييتية للمدفعية وفوج هاون وستة كتائب للمدفعية . وسلمت كذلك ثلاث كتائب للهندسة وكتيبة للسيارات العائمة . وكان طيران الجبهة يضمن من الجو اعمال الفرقة .

فى الفترة من ١٦ الى ٢٠ ايلول ارسلت الى ضفة النهر الغربية ست كتائب بولندية مدعمة . بيد ان هذه المفارز التى ذللت فيستولا بتفان وقامت بالانزال فى قطاعات الضفة التى اشارت اليها قيادة المنتفضين سلفا ، الأمر الذى بنيت عليه كل الحسابات ، وجدت نفسها تحت قذف مسعور من المدفعية ومدافع الهاون . كانت هناك خيانة قذرة ، فقد سحب بور-كوماروفسكى بغدر قواته من ضفة فيستولا ، واتى الهتلريون مكانها .

ومع ذلك تسنى للانزال بخسائر كبيرة ان يتمسك بالضفة . وكان يزج فى القتال بقوى جديدة وجديدة . وازدادت الخسائر ، اما اولئك الذين استأثروا على نحو اجرامى بقيادة الانتفاضة فلم يقدموا مساعدة الى جنود الانزال ، بل حتى لم يحاولوا اقامة صلة بهم . كانت متابعة التمسك برأس الجسر تعنى تكبد المزيد من الضحايا ، فاوقف روكوسوفسكى العملية فى ٢٤ ايلول ، رغم كل الالم الذى انتابه من جراء ذلك . وكان التصرف الخيانى لقادة انتفاضة وارسو هو السبب الاساسى لهذا . فهم ،اذ سعوا الى اهدافهم البشعة ، لم ينظموا ضربة واحدة من المدينة فى اتجاه رؤوس الجسور . وعلاوة على ذلك ، ففى احرج اللحظات ، حينما كان ينبغى توحيد الجهود للابقاء على رؤوس الجسور ، بذل قادة الانتفاضة كل ما فى وسعهم لقطع الصلة بالقوات التى كانت تعبر فيستولا واتخذوا بعناد موقفا معاديا ازاء القوى الديمقراطية البولندية والاتحاد السوفييتى .

تابعت قيادة الجبهة البيلوروسية الاولى وقيادة الجيش الاول للقوة البولندية دعم الانتفاضة بضربات المدفعية والطيران ، ودعمها ماديا وتكنيكيا . وقدم الى الجبهة البيلوروسية الاولى جوكوف الذى فوضه ستالين ببذل كل ما يمكن من اجل المنتفضين . ولكن الاوان كان قد فات . واوصل الخونة الامر الى نتيجته المنطقية ، الكارثة التامة . وشهد محاربو الجبهة البيلوروسية الاولى عملية تخريب منظمة ، فقد دمر الطغاة الهتلريون وارسو ، المدينة التى ترتبط فى ذهن روكوسوفسكى بذكريات شبابه المشرقة .

حينما كان روكوسوفسكى يعيش على امل الامداد السريع ، غاص فى اعداد خطة لعملية هجومية جديدة تنص على تحرير وارسو من أسرها المريع . وافترض القائد توجيه الضربة الرئيسية من راس الجسر فى بولتوسك على ناريف بالالتفاف على وارسو من الشمال ، وتوجيه ضربة عميقة من راسى الجسرين فى ماغنوشيف وبولافى بالالتفاف على وارسو من الجنوب فى اتجاه بوزنان . واقرت القيادة العليا هذه الخطة . وبذل كل شىء من اجل اعداد القوات على افضل نحو للمعركة الحاسمة . ولكن لم يقيض لروكوسوفسكى المساهمة فيها . وقد علم بهذا اذ عاد فى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) الى مقر القيادة

من راس الجسر فى بولافى . وبعد الحرب بسنوات عديدة حدثنى عن هذا الانعطاف الصعب فى مصيره ، فقال :

– كان الوقت مساء ، وقد اجتمعنا فى المطعم للعشاء ، وفى ذلك الحين ابلغنى المناوب ان القائد الاعلى يدعونى بالتلفون . نمى ان يلقى السلام فى هذه المرة ، وقال على الفور اننى عينت قائدا لقوات الجبهة البيلوروسية الثانية . كان ذلك مفاجئا بحيث استطعت فقط ان اسأل : «ما سبب هذه القسوة ، لماذا انقل من الاتجاه الرئيسى الى قطاع ثانوى ؟» ورد ستالين اننى مخطئ ، لان الجبهة البيلوروسية الثانية تدخل مع الجبهة البيلوروسية الاولى والجبهة الاوكرانية الاولى عداد جبهات الاتجاه الغربى ، وهو الاتجاه الرئيسى ، وان نجاح العمليات الحاسمة المقبلة سوف يتوقف على التعاون الوثيق بين هذه الجبهات الثلاث ، ولهذا اعارت القيادة العليا اختيار القادة اهتماما خاصا .

كان عند روكوسوفسكى الكثير من الحجج فى مصلحة بقائه على راس الجبهة البيلوروسية الاولى التى قادها الى الغرب منذ عام ١٩٤٢ . ولكن لما كان جنديا وشيوعيا لم يعترض ، ولا سيما وقد عرف ان جوكوف سوف يعين مكانه ، واقتصر على سؤال القائد الاعلى عن المهمات التى تواجهه . وجاءه الرد ان على الجبهة البيلوروسية الثانية ان تشق جبهة الجيش الالمانى وتعزل التجمع العامل فى المانيا نفسها عن تجمع بروسيا الشرقية . وفى نهاية الحديث اقترح ستالين على روكوسوفسكى ان يأخذ معه من يحتاج اليه من جنرالات وضباط الاركان والادارة . شكره روكوسوفسكى ، وقال انه يأمل فى ان يجد فى المكان الجديد عاملين جديرين ورفاقا جيدين .

فى اليوم التالى ، اى فى ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) شرع روكوسوفسكى فى قيادة قوات الجبهة البيلوروسية الثانية . وما لبث ان استدعى الى القيادة العليا . كان على قوات الجبهة البيلوروسية الثانية ان تهجم فى الاتجاه الشمالى الغربى وتصل الى بوميرانيا ، منفذة المهمة التى طرحها القائد الاعلى لدى تعيين روكوسوفسكى . واشير فى غضون ذلك الى انه لا ينبغى توجيه اهتمام خاص الى تجمع العدو فى بروسيا الشرقية ، لان الاجهاز عليه هو مهمة تشيرنياخوفسكى (الجبهة البيلوروسية الثالثة) . ونوه بشكل خاص الى ضرورة اوثق تعاون مع قوات الجبهة البيلوروسية الاولى . وقد

علق فى ذاكرة روكوسوفسكى الى الابد كيف خط القائد الاعلى على الخريطة بقلم احمر سهما متجها نحو جانب التجمع العامل ضد الجار الايسر ، وقال :

– هكذا تساعدون جوكوف اذا تباطأت قواته .

اتسع شريط عمليات الجبهة البيلوروسية الثانية على حساب اراضى الجبهة البيلوروسية الاولى ، وبلغت ٢٥٠ كيلومترا . وانتقل من عند جوكوف الجيشان الخامس والستون والسبعون اللذان كانا منذ امد بعيد يحاربان تحت قيادة روكوسوفسكى . والى جانب ذلك وصل من احتياطى القيادة العليا جيش الجنرال فيديونينسكى الضارب الثانى وجيش الجنرال غريشين التاسع والاربعون وجيش الجنرال فولسكى المدرع الخامس . وهكذا ، فبالاضافة الى ثلاثة جيوش كانت تعمل فى الجبهة البيلوروسية الثانية اصلا ، اصبح تحت تصرف القائد سبعة جيوش للقوات العامة وجيش دبابات وجيش طيران (تحت قيادة الجنرال فيرشينين) ، بالاضافة الى فيلق خيالة وآخر للدبابات وثالث آلى ومدفعية اختراق جبارة . اى قوى كبيرة للغاية .

حينما اعد روكوسوفسكى العملية ، اعار اهتماما كبيرا لمسائل التعاون بين القوات عند تماس الجيوش وزج التشكيلات المدرعة والآلية وقوات النسق الثانى فى المعركة . وقد اعدت مناورة على طول الجبهة وخطط بدقة لاستخدام كل اصناف الطيران . كان على الجبهة ان تعبر ناريف وفيستولا على التوالى ، فدرس روكوسوفسكى طرائق نقل وسائل العبور بسرعة من نهر الى آخر بكل دقائقها . ولم يكن يعلل نفسه بنصر سهل ، اذ كان يعرف ان مقاومة العدو سوف تتصاعد مع التحرك فى عمق المانيا .

اقتضت الظروف البدء بالعملية قبل الموعد المحدد بستة ايام ، فقد توسل الحلفاء القيام بهذا بعد ان وقعوا فى وضع صعب فى الاردين . انتقلت جيوش الجبهة الى الهجوم فى ١٤ كانون الثانى (يناير) . وقد احتاجت الى ثلاثة ايام فقط لتخرق فى معارك متوترة الى الحد الاقصى دفاع العدو على كل الخط الممتد من لومجا الى مصب نهر ناريف . وعند شروق يوم ١٧ كانون الثانى دخل الجيش المدرع الخامس فى الشق العريض المتكون . وبدعم من عدة تشكيلات من الطائرات القاذفة والمقاتلة اندفعت دبابات فولسكى الى الامام كتيار

كاسح تكنس وتدمر حواجز العدو من طريقها . وفى الوقت نفسه تحرك الى آلينشتاين (اولشتين) فيلق خيالة الجنرال اوسليكوفسكى الثالث .

فى ٢٠ كانون الثانى ، حينما اقتربت قوات الجبهة من فيستولا ، بعد عبور نهر ناريف ، واستعدت لعبور فيستولا دون توقف ، ورد بشكل مفاجئ تماما امر بتحويل اربعة جيوش بينها جيش الدبابات الخامس الى الشمال والشمال الشرقى ضد تجمع العدو فى بروسيا الشرقية . لقد عدلت القيادة العليا الخطة بمرونة ، لأن قوات تشيرنياخوفسكى تخلفت . ولكن هذا الانعطاف جلب على روكوسوفسكى الكثير من المشاغل ، اذ تغيرت جذريا خططه القائمة على امر القيادة العليا بالتعاون الوثيق مع الجبهة البيلوروسية الاولى ومعها وحدها ، اى خطط الهجوم نحو الغرب والجنوب الغربى . والآن ينبغى للجبهة البيلوروسية الثانية القيام بعملية تطويق تجمع بروسيا الشرقية بالاشتراك مع الجبهة البيلوروسية الثالثة التى كان يقودها تشيرنياخوفسكى . ولكن المهمة السابقة – التعاون مع الجبهة البيلوروسية الاولى – ما زالت قائمة . والى جانب ذلك كان من الضرورى متابعة الهجوم نحو الغرب ، رغم انه لم يبق فى هذا الاتجاه سوى جيشين . ومن الطبيعى ان يتباطأ التحرك هنا .

بيد ان الضربة الموجهة الى بروسيا الشرقية نظمت فى امد قصير للغاية .

ان الاسلوب القيادى لروكوسوفسكى قد تجلى هنا بكل ابعاده . كان يجابه قوات الجبهة الجيشان الالمانيان الثانى والرابع من مجموعة جيوش «الوسط» . وكان دفاعهما طويل الامد وقويا بصورة خارقة ، وقد اعد منذ ما قبل الحرب وجدد بعد معركة ستالينغراد ، حينما دعمت المناطق المحصنة بمنشآت ميدانية وثلاثة خطوط دفاعية من الحواجز المضادة للدبابات . وكان فى المنشآت الطويلة الامد حتى اربعة معاقل لكل كيلومتر من الجبهة وسطيا ، وكانت هناك خمسة خنادق لكل موقع ميدانى . وكان هذا يشير الى كثافة الدفاع المتوسطة . وكانت تدعمها القلاع القديمة . وهى المرة الاولى التى يواجه فيها روكوسوفسكى مثل هذا الدفاع القوى . انه ، وقد قدر خصائص المنطقة والتحصينات المعادية ، قرر الا يخترق دفاع

الهتلريين فى قطاع واسع واحد ، بل يترك بين قوات الجيوش المهاجمة فراغات من ٥ كيلومترات الى ٢٠ كيلومترا . وحشد فى قطاعات الاختراق حتى ٣٠٠ مدفع ومدفع هاون لكل كيلومتر . وجرى استكشاف هندسى متواصل قبل بداية المعركة وفى خلالها .

فى ٢٠ كانون الثانى (يناير) دخلت قوات الجبهة اراضى بروسيا الشرقية . وهنا اخترقت بضربة صدامية خطا محصنا قويا بنى قبل الحرب بزمن طويل . وفى غضون ذلك وصل فيلق اوسليكوفسكى للفرسان ، الذى اندفع قدما ، الى آلينشتاين التى كانت عدة قطارات معادية من الدبابات والمدفعية قد وصلتها لتوها . وبهجمة جريئة صعق الفرسان العدو بنيران المدافع والرشاشات ، واستولوا على القطارات . واتضح ان الوحدات الالمانية كانت تنتقل من الشرق لسد الشق الذى احدثته قوات روكوسوفسكى . ان الفرسان وجنود الدبابات والمشاة ، وقد حطموا العدو واستولوا على غنائم كثيرة واسروا عدة آلاف ، خرقوا الخط الثانى من المنطقة المحصنة . وانفتح الطريق الى عمق بروسيا الشرقية .

ان جيش الحرس المدرع الخامس ، الذى ادخل فى موضع الخرق ، اذ كنس القوات المعادية المشتتة والمباغتة ، اندفع الى البحر ، وفى ٢٥ كانون الثانى وصلت وحداته المتقدمة وبعدها ، فى ٢٦ كانون الثانى ، قواه الرئيسية الى خليج فريشيس-غاف فى منطقة تولكيميتو (تولكميتسكو) وحاصرت ايلبينغ ، وبهذا قطعت على العدو طريق الانسحاب من بروسيا الشرقية الى الغرب . وفى الوقت نفسه عبرت جيوش الجانب الايسر للجبهة فيستولا عند مجراه الاسفل . وهذا يعنى ان قوات روكوسوفسكى دخلت بوميرانيا الشرقية ، التى سلخها الالمان عن بولندا يوما . كانت تعمل هناك مجموعة جيوش «فيستولا» الفاشية الالمانية ، وقوامها اكثر من ثلاثين فرقة بينها ثمانى فرق للدبابات . وكان يقودها وزير الدولة هيملر . وكانت خططه طموحة جدا . كان ينوى بمباركة من الفوهرر ان يرغم القيادة السوفييتية عن طريق التحصين الاعمى للمدن الكبيرة ، ولا سيما القلاع القوية ، على ان تبدد قواها ، وبالتالى تضعف الضربة الرئيسية الموجهة الى برلين . انه ، وقد حشد فى بوميرانيا الشرقية عددا كبيرا من القوات

المتحركة ، قرر توجيه ضربة جانبية الى قوات جوكوف التى وصلت الى نهر الاودير .

ولاحباط هذه الخطة الغادرة خططت القيادة العليا لعملية بوميرانيا الشرقية . وكانت مرحلتها النهائية عبارة عن ضربات الى شتيتين ودانتسيغ وغدينيا ، وذلك لتحطيم مجموعة جيوش «فيستولا» وتطهير شاطئ بحر البلطيق من العدو بين خليج بوميرانيا فى الغرب وخليج فريشيس-غاف فى الشرق .

تطورت الاحداث بلا اى توقف . وقد قام روكوسوفسكى باعادة ترتيب قواته مسبقا ، فعزز جناح جبهته الايسر الى الحد الاقصى ، وما كادت تنتهى هذه المناورة حتى اتى امر القيادة العليا بتسليم تشيرنياخوفسكى اربعة جيوش من الجانب الايمن بينها جيش الدبابات الخامس . وقد قال لى روكوسوفسكى فيما بعد :

– كان ذلك القرار صحيحا . فبعد ان عزل تجمع بروسيا الشرقية عن اراضى الرايخ الاساسية اصبحت الجبهة البيلوروسية الثالثة قادرة تماما ان تؤدى لوحدها مهمة تحطيمه . وقد ادتها بصورة ممتازة . وانت تعرف هذا اكثر من اى كان ، لانك قدت قواتها فى آخر مرحلة من الحرب . وكان صحيحا ايضا ان سلمت الى هذه الجبهة كل القوات العاملة فى بروسيا الشرقية . ولكن جبهتى البيلوروسية الثانية ، وقد تلقت من القيادة العليا مهمة فى غاية المسؤولية ، اصبحت فى وضع صعب الى اقصى حد ، حيث حرمت من نصف قواتها بما فى ذلك القوة الضاربة الرئيسية ، جيش الدبابات .

– ولكنك خرجت بشرف من هذا الوضع الفائق الصعوبة فعلا .

قال روكوسوفسكى يمط الكلمات بتفكير :

– خرجت خرجت ، ولكن اية جهود متوترة تطلب ذلك من القوات والاركان ، ومن خادمك المطيع . فمنذ صباح ١٠ شباط (فبراير) بدانا الهجوم بالجناح الايسر والوسط .

كانت المرحلة الثانية لعملية بوميرانيا الشرقية ، التى بدأت فى ٢٤شباط ، لا تقل توترا ، رغم انه وصل لتعزيز الجبهة جيش الجنرال كوزلوف التاسع عشر وفيلق الجنرال بانفيلوف المدرع الثالث للحرس . ينبغى القول انه نشبت قبل ذلك بيومين معارك ضارية ،

ووجه العدو ضربات مسعورة فى الكثير من القطاعات ، ولكن هجومه كان بعيدا عن قطاع الضربة الرئيسية للجبهة .

وكان روكوسوفسكى ينصح الالمان بفكره : «شتتوا قواكم بمزيد من النشاط ، وبهذا ستبقى عندكم فرص اقل لصد ضربتنا الاساسية» .

وهكذا ، ففى فجر ٢٤ شباط خرق الجيش التاسع عشر المحتفظ بنشاطه اول موقع للدفاع المعادى . ولكن الفاشيين كانوا يقاتلون بتعصب اعمى ، فكان مشاتنا يتحركون ببطء . عندئذ لم ينتظر روكوسوفسكى وصول قوات المشاة الى الموقع المحدد ، بل زج بفيلق الدبابات فى الاختراق بجراة ، وفى ظهيرة ٢٥ شباط لحقت الفصائل المتقدمة لدبابات بانفيلوف بالمشاة وانطلقت الى الامام . وبعد ثلاثة ساعات وصلت ، وقد اجتازت المنطقة التكتيكية لدفاع العدو ، الى ميدان واسع للعمليات . انها ، اذ كانت تقطع ٤٠ كيلومترا فى اليوم ، حطمت فى ٢٦ شباط تجمعا معاديا ضخما واستولت على مدينتى بالدينبيرغ وشوناو .

كان على الاعمال العنيفة لدبابات بانفيلوف ان تحث تحرك الجيش التاسع عشر ، ولكن ذلك لم يحدث . وتحققت شكوك روكوسوفسكى . ان قائد الجيش التاسع عشر الجنرال كوزلوف ، الذى حارب قبل ذلك فى جبهة كاريليا فى ظروف مغايرة تماما ، كان يفقد من حين الى آخر الصلة بالتشكيلات ويتاخر فى اتخاذ القرارات . لم يستطع ان «يندمج» بسرعة فى الوضع الجديد . ربما استطاع ان يستوعب هذا فيما بعد ، ولكن الانتظار كان مستحيلا . وعزل روكوسوفسكى هذا القائد ، منسقا ذلك مع القيادة العليا .

وتراس الجيش الجنرال رومانوفسكى الذى نظم ادارة القوات بحزم ومهارة .

اود ان ابدد وهما شائعا يزعم ان روكوسوفسكى كان يتسم بلين مفرط وصبر طويل . والامر ، طبعا ، ليس كذلك بالمرة ، وهذا ما تشهد عليه الحادثة التى اوردناها . وقبلها بعدة اسابيع ، حينما كانت الجبهة تساهم فى عملية بروسيا الشرقية ، جرت حادثة مماثلة . حينذاك كانت قوات الجبهة البيلوروسية الثانية تتحرك بسرعة الى البحر . ولوقفها ، اخذ العدو قوات من القطاع الذى كان يعمل فيه الجيش الخمسون . ولكن قيادته لم تلحظ ذلك . واضطرت الجبهة

الى زج الجيش التاسع والاربعين فى المعركة قبل الاوان ، اما الجيش الخمسون نفسه فلم يبق عليه الا اللحاق بالعدو بخطوات حثيثة . لم يكن بوسع روكوسوفسكى ان يغفر هذا التهاون حتى للقائد الجدير الجنرال كولونيل بولدين .

كان ينبغى فى المرحلة الثالثة الختامية لعملية بوميرانيا الشرقية تحرير المينائين البولنديين غدانسك (دانزيغ) وغدينيا . ولاجل هذا كان من الضرورى محاصرة ثم ابادة القسم الذى عزل سابقا من مجموعة جيوش «فيستولا» . واستطاع روكوسوفسكى ان يؤدى بنفسه اولى هاتين المهمتين الصعبتين . اما الابادة السريعة والكاملة للتجمع المحاصر فكانت فوق طاقة الجبهة ، ولا سيما ان العدو المحشور لصق البحر كان لا يزال يستطيع بدرجة من الدرجات تلقى الامدادات عبر دانزيغ وغدينيا . ولم يكن فى الوسع الاجهاز عليه فى امد قصير الا بواسطة قبضة مدرعة قوية . ان روكوسوفسكى ، وقد وزن الامكانات ، توجه الى القائد الاعلى مباشرة وطلب احد الجيوش المدرعة من الجبهة البيلوروسية الاولى ولو مؤقتا .

واذ كان ستالين يقدر كل اهمية التحرير السريع لموانئ البلطيق البولندية ، اجاب بانه سيامر فورا بتسليم الجبهة البيلوروسية الثانية جيش كاتوكوف المدرع الاول للحرس الذى كانت اعماله ضمن الجبهة البيلوروسية الاولى لا تزال اعمالا مساعدة . ووضعت امام الجنرال كاتوكوف مهمة اللحاق بقوات فيلق الحرس المدرع الثالث والجيش التاسع عشر فى مدة اقصاها ١٢ اذار (مارس) والوصول الى خليج دانزيغ .

اندفعت الدبابات الى الامام ، محطمة الارتال المنسحبة للقوات المعادية . ومنى العدو لدى الانسحاب العاجل بخسائر كبيرة ، ولكن افلح مع ذلك جزء لا يستهان به من قواته فى الانسحاب الى منطقة غدينيا – دانزيغ المحصنة .

ضاقت خطوط هجوم الجبهة حتى ذلك الحين من ٢٤٠ الى ٦٠ كيلومترا . وقد ساعد هذا ، بالطبع ، على تصعيد القوة الاقتحامية لضربات كل جيش . ولكن كانت دانزيغ وغدينيا على حد سواء «جوزتين قاسيتين» . وكان كل منهما قلعة من الدرجة الاولى لا يقل

شمالا عن كينيغسبيرغ . واذ ادرك روكوسوفسكى ذلك ، وجه الضربة الاساسية الى اضعف قطاع للدفاع يقع بين القلعتين ، ليدق اسفينا بينهما الى اعمق ما يمكن . وعينت مجموعة خاصة لمدفعية بعيدة المدى لمكافحة السفن المعادية الراسية فى خليج دانزيغ . وكلف الجنرال فيرشينين بان يصب كل قوى جيشه الجوية على هذه المراكب الى ان تغادر الخليج .

اعدت فى اقصر وقت خطة مفصلة للانقضاض . وكان القائد يشجع اية مبادرة سديدة . وهكذا ، فقد ساعد على استخدام المجانيق التى اخترعها كبير المهندسين الجنرال بلاغوسلوفوف والقادرة على قذف الذخائر الثقيلة المغتنمة الى مسافات بعيدة .

واذ اقتحمت قوات روكوسوفسكى غدينيا ، حطمت تماما اربع فرق معادية وثمانية افواج منفردة وعشرين كتيبة من مختلف الاختصاصات . والذين افلحوا فى الهرب الى رأس جسر شمالى المدينة ادركهم المصير نفسه بعد عدة ايام . واعيد الى الشعب البولندى هذا الميناء ، وهو ميناء من الدرجة الاولى ، ولكنه كان قد تضرر بشدة . وقد حيت عاصمة وطننا موسكو فى ٢٨ آذار (مارس) قوات روكوسوفسكى الباسلة .

وفى ذلك الحين اخترق جيشا فيديونينسكى وباتوف الدفاع المعادى عند مشارف دانزيغ . ووجه روكوسوفسكى انذارا الى الحامية يقترح فيه تسليم السلاح لتجنب خسائر لا مبرر لها . وتلقت القوات التى تحاصر المدينة من اليابسة ايعازا بالسماح للسكان الآمنين بالمرور الى مؤخرتنا .

لم تتفضل قيادة الحامية بالرد . وعندئذ بدأ انقضاض متسق من ثلاث جهات فى وقت واحد . وقاتل الهتلريون بحنق وحشى من اجل كل مبنى ، وكل مصنع ومعمل . وظهرت فى الخليج المراكب الالمانية من جديد ، فامر قائد الجبهة استخدام المدفعية البعيدة المدى والطيران . وغادرت المراكب المعادية خليج دانزيغ الى غير رجعة . وحررت غدانسك (دانزيغ) تماما فى ٣٠ اذار . ان رجال الاساس الذين لم يجهز عليهم والذين كانوا قد اختفوا من المدينة سابقا ، انسلوا بلصوصية الى مصب فيستولا المستنقعى . (وكان علي ، وانا اقود قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة ان اجهز عليهم مع روكوسوفسكى فى المرحلة الاخيرة من الحرب .) فى هذه المعركة

الكبرى خسر العدو مجموعة مسلحة جيدا من خيرة قواته وفقد اهم ميناء وقاعدة عسكرية بحرية من الدرجة الاولى وقلعة على بحر البلطيق . ان مدينة غدانسك السلافية العريقة ، المرتبطة ارتباطا لا ينفصم بمصير بولندا التاريخى ، قد سلخت سنوات طويلة عن البلد الام . وقد انتصرت العدالة ورفرف فوقها العلم الوطنى البولندى من جديد .

كان الانتصار فى ميادين بوميرانيا الشرقية ينطوى اجمالا على مغزى سياسى وعسكرى ستراتيجى كبير . فقد قضى على خطر توجيه ضربة جانبية الى الجيوش الزاحفة فى اتجاه برلين الرئيسى ، وتفرغت قوات الجبهة البيلوروسية الثانية للمساهمة فى عملية برلين . ويمكن القول بلا اى مبالغة ان روكوسوفسكى برهن على انه قائد ناضج وبعيد النظر . ان اندفاع العمليات وتواصلها ، اللذين لم يتركا للعدو دقيقة ليلتقط انفاسه ، كانا نتيجة التنظيم الماهر للهجوم واعطيا ما يستحقان من نجاح . وفى ٣٠ آذار حيت موسكو قوات الجبهة البيلوروسية الثانية بمناسبة تحرير دانزيغ . وفى اليوم التالى نشر مرسوم السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى بتقليد روكوسوفسكى وسام «النصر» «لقاء قيادته الماهرة لعمليات كبرى تحققت بنتيجتها نجاحات بارزة فى تحطيم القوات الفاشية الالمانية» .

ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت للاحتفال بالنصر . ففى ١ نيسان (ابريل) ورد امر القيادة العليا بنقل القوى الاساسية للجبهة فورا الى اتجاه شتيتين . ونفذ القائد الاعلى وعده ، اذ نالت قوات روكوسوفسكى شرف المساهمة فى المعركة الكبرى من اجل برلين . ولكن كان عليها لاجل ذلك القيام بانعطاف مقداره مائة وثمانون درجة والانتقال ما بين ٣٠٠ كيلومتر و٣٥٠ كيلومترا فى منطقة نسفت فيها اغلبية الجسور وزرعت الالغام فى الطرق التى تحجزها المعدات المدمرة ، اما امكانات النقل على الخطوط الجديدة فكانت معدومة تقريبا .

بعد يومين او ثلاثة بدأت قوات الجبهة طريقها . عندئذ استدعى روكوسوفسكى الى القيادة العليا ، حيث اعدت واقرت خطة مساهمة قواته فى معركة برلين . وكانت الخطة بخطوطها العريضة كما يلى : توجه الجبهة البيلوروسية الاولى ضربة مباشرة الى برلين ، وفى الوقت نفسه تلف بجزء من القوات المدينة من الشمال ، وتوجه الجبهة

الاوكرانية الاولى ضربة قاسمة جنوبى برلين وتلف على المدينة من الجنوب ، وتوجه الجبهة البيلوروسية الثانية ضربة قاسمة شمالى برلين وتحمى الجناح الايمن لقوات جوكوف وتصفى كل قوى العدو شمالى برلين . وتبدأ قوات جوكوف وكونيف الهجوم فى ١٦ نيسان (ابريل) ، وجبهة روكوسوفسكى فى ٢٠ نيسان . وقد تلقت مهلة اربعة ايام بسبب الصعوبات فى عملية الانتقال .

ان القائد ، وقد عاد فى ١٠ نيسان من موسكو ، ذهب على الفور الى جيش باتوف . كان من الممكن رؤية وادى الاودير بشكل لا بأس به من نقطة المراقبة المخصصة لقائد الجيش . هنا يتفرع النهر الى مجريين : الاودير الشرقى والاودير الغربى ، وعرض كل منهما يتراوح ما بين ١٠٠ متر و٢٥٠ مترا ، وتفصل بينهما ارض بعرض ثلاثة او اربعة كيلومترات تقطعها المجارى والاقنية وتغمرها المياه فى بعض الاماكن . كان من المستحيل عمليا مد جسور هناك ، وكان واضحا ان العمق فى اغلب المواضع لا يكفى لاستخدام القوارب والمعابر . فكر روكوسوفسكى طويلا فى كيفية عبور هذا الحاجز الفريد بصعوبته الذى يبلغ عرضه قرابة خمسة كيلومترات ، والذى اسماه الجنود «نهرى الدنيبر بينهما نهر بريبيات» ، وقرر اكثر من اى وقت مضى الاعتماد على مبادرة القوات ، فامر كل الجيوش بالاستعداد لتذليل الاودير . وكان يعول على انه ما ان يحقق احد من القادة نجاحا فى قطاعه ، حتى يقتفى البقية اثر هذا المحظوظ . والى جانب ذلك كان القائد يدرك ان العدو قد يغمر ما بين النهرين ، ولهذا اختار للضربة قطاعا قرب شتيتين وجنوبها ، حيث يوجد اقل عدد من السدود والجسور والقناطر . وحسبت مختلف اشكال توزيع التشكيلات المتحركة ووسائل الامداد .

كانت فكرة العملية التى اعدها القائد واركانه تنص على ان توجه ثلاثة جيوش ، الخامس والستون والسبعون والتاسع والاربعون ، الضربة الرئيسية الى دفاع العدو على طول ضفة الاودير الغربية على جناح الجبهة الايسر . بعد خرق خط الدفاع على الاودير ينبغى ان تدخل المعركة ثلاثة فيالق للدبابات وفيلق ميكانيكى وفيلق للفرسان . وكان عليها ان تتحرك على شكل مروحة فى الاتجاهين الغربى والشمالى الغربى ، وبهذا تعزل القوى الاساسية لجيش العدو المدرع الثالث عن برلين وتحصرها فى مناطق البلطيق الساحلية

من اجل ابادتها تماما . كان عمق العملية يصل الى ١٣٠ كيلومترا ، وقد خصص لها من الزمن ما لا يزيد عن الاسبوعين .

فى ١٨ نيسان ، اى بعد يومين من بدء قوات جوكوف بعملية برلين ، شغلت كل قوات الجبهة البيلوروسية الثانية مواقع الانطلاق . ان الحماسة الكبرى ، التى استولت على الجنود والضباط ، ساعدت على حث الاستعداد للمعركة ، وفى ليلة ٢٠ نيسان ابلغ روكوسوفسكى القيادة العليا باستعداد القوات للضربة .

بدأ عبور وادى الاودير على جبهة عريضة . وما لبث الجيشان الخامس والستون والسبعون على الجانب الايمن ان حققا نجاحا جديا : ان فراسة الجنود السوفييت ، التى دخلت الحسابات الستراتيجية للقائد الضليع ، عملت بلا خلل . وتحولت الجهود الاساسية للجبهة الى الجناح الايمن ، والى هناك ارسلت قوى الطيران الرئيسية ، فقد عبر الجيشان الضاربان التاسع والاربعون والثانى على اثر جيش باتوف وبوبوف . ولكن بقى غير قليل من الصعوبات . وكان من الصعوبة بمكان نقل المدفعية والدبابات عبر هذه المنطقة ، واضطر المشاة اول الامر الى ان ينهشوا دفاع العدو بدون دعم الآليات الثقيلة . ولكن القائد استخدم كل جبروت الطيران .

فى ظروف فائقة التعقيد احدثت قوات الجبهة فى غضون ستة ايام من المعارك شرخا واسعا فى دفاع العدو وقيدت وحطمت عشرات من خيرة فرق العدو . وقدمت مساعدة لا تقدر بثمن الى الجبهة البيلوروسية الاولى التى كان تجمعها الضارب الرئيسى قد ارتكز فى ذلك الوقت على موقع دفاعى متين فى مرتفعات زيلوف ، اما تلك القوات التى لفت برلين من الشمال فلم تكن تستطيع الاعتماد على اية مساعدة ، وكانت قواها قد استنفدت . ولو ان جبهة روكوسوفسكى لم تقيد كل احتياطيات جيش العدو المدرع الثالث لما تقاعس قائده مانتيفيل ، الذى كان يتسم بدهاء يحسد عليه ، عن توجيه ضربة جانبية الى قوات جوكوف الأمر الذى كان من شأنه على الارجح ان يؤخر التطور المظفر لمعركة برلين .

فى المرحلة الثانية من عملية برلين ، منذ ٢٦ نيسان ، انجزت جيوش روكوسوفسكى اعقد مناورة للالتفاف على القوى الرئيسية لجيش العدو المدرع الثالث من الجنوب والجنوب الغربى ، وبهذا لم

تنف اية امكانية لقيامها بمساعدة تجمع برلين فحسب ، بل وقطعت على مانتيفيل طريق الانسحاب الى الغرب . وهى فى الوقت نفسه ، بتغلبها على مقاومة العدو الضارية وعبورها مضيق دامانشير شتروم والحواجز المائية الاخرى ، فتحت لنفسها الطريق الى برينتسلاو ، العقدة الكبيرة للخطوط الحديدية والطرق ، والتى كان الاستيلاء عليها يمكن فيما بعد من القيام بالتفاف عميق على القوى الاساسية لجيش مانتيفيل . واذ كانت القيادة العليا الالمانية تدرك بوضوح كل خطر فقدان برينتسلاو ، وجهت فى ٢٦ نيسان هذا الامر الى قيادة مجموعة جيوش «فيستولا» : «ان تصفية الاختراق المعادى فى اتجاه برينتسلاو شرط لمتابعة المعركة من اجل برلين . يجب على جيش الدبابات الثالث ان يوقف العدو ابعد ما يكون الى الشرق . ويجب التمسك بقلعة سفينيميوندى (سفينويستسى حاليا – **المؤلف**) حتى مع تخلف الجناح الايسر لجيش الدبابات الثالث» . ثم يجرى تعداد للقوى التى سلمتها القيادة الالمانية العليا لمجموعة جيوش «فيستولا» . ولكن خطة العدو احبطت حينما انهارت تحت ضربات جبهة روكوسوفسكى نقطتا ارتكاز العدو القويتان على ضفة الاودير الغربية ، غاتوف وشفيدت .

ان نجاحات الجبهة البيلوروسية الثانية اثارت قلقا جديا لدى نصير هتلر المقرب يودل ، فتوجه الى الفوهرر برسالة باكية ، مؤكدا ان وضع قوات مانتيفيل بعد اختراق الروس منطقة برينتسلاو تردى الى اقصى حد ، فى حين لا توجد احتياطيات تقريبا . واختتم رسالته على الشكل التالى : «ايها الفوهرر ، اذا هزم جيش الدبابات الثالث ، فان القوات السوفييتية ستضرب فى الايام القريبة القادمة جانب ومؤخرة القوات القادمة الى برلين من الشمال والشمال الشرقى . ولعدم السماح بوقوع الكارثة ، لا بد من نقل جزء من القوات من الجبهة الغربية لتعزيز جيش الدبابات الثالث» (اى من منطقة عمليات قوات جوكوف . – **المؤلف**) .

وافق هتلر من حيث المبدأ على اقتراح يودل ، واصدر توجيها بان «تستخدم كل الوسائل لتصفية رأس الجسر الروسى عند برينتسلاو» وامر الاميرال دينيتس باخذ طواقم بعض السفن الضخمة وارسالها لمساعدة مانتيفيل . لا بل صادق على ارسال القوات العاملة ضد الانكليز لتعزيز جيش الدبابات الثالث ، اى انه ترك عمليا الانكليز يدخلون بلا معركة القاعدتين البحريتين العسكريتين

الالمانيتين الاساسيتين ، فيلغيلمسغافين وفيزيرميوندى ، وذلك فقط لوقف قوات روكوسوفسكى !

ولكن لم يفد الفاشيين شيء ، فقد انطلقت قوات الجبهة البيلوروسية الثانية سيلا عارما واستولت على مرافئ البلطيق المشهورة عالميا الواحد اثر الآخر – شترالزوند ، فارنيميوندى ، نولغاست – وعلى المدن التى حولها الالمان الى نقاط ارتكاز على الواجهة الشمالية للدفاع عن برلين الكبرى : نويبراندينبورغ ، نورستينبيرغ ، ليخين ، نويشتريليتس وغيرها .

وهكذا ، حينما كانت الجبهتان البيلوروسية الاولى والاوكرانية الاولى تخوضان المعارك الختامية فى العاصمة الالمانية ، فان قوات روكوسوفسكى التى تحركت ٢٠٠ كيلومتر غربى الاودير لم تغطهما من الشمال فحسب ، بل ابادت واسرت عمليا كل التشكيلات والوحدات المعادية القادرة على القتال التى كان بوسعها ان تهدد الجانب الايمن لجيوش جوكوف . وسحقت كذلك تلك الامدادات التى خصصها العدو اول الامر لتعزيز تجمع برلين ، ولكنه ارسلها الى منطقة عمليات جبهة روكوسوفسكى نظرا للكارثة غربى الاودير . وانتهت العملية الختامية للجبهة البيلوروسية الثانية على نحو رائع بالوصول الى شاطئ بحر البلطيق والاستيلاء على جزر فولين واوزيدوم وريوغين وميناء سفينيميوندى . واستمرت حتى ٨ ايار (مايو) عمليات منفردة لتمشيط بعض المناطق وتصفية عدة مجموعات للعدو ، بينها مجموعات كبيرة ، بقيت فى مؤخرة القوات السوفييتية .

فى ٣ ايار قابلت الوحدات المدرعة المتقدمة للجبهة البيلوروسية الثانية جنود القوات البريطانية . ودعا الفيلدمارشال البريطانى مونتغومرى قائد مجموعة الجيش الحادية والعشرين روكوسوفسكى الى زيارة مقره فى فيسمار . وقد تمت الزيارة فى ٧ ايار . وتصرف مونتغومرى وضباطه ببساطة وترحاب كما يليق بالحلفاء . وعند الوداع دعا روكوسوفسكى الانكليز الى ان يردوا له الزيارة فى ١٠ ايار . وقبل مونتغومرى الدعوة بسرور . وكان اللقاء الثانى اكثر مهابة بكثير ، لانه جرى فى وقت السلم . وعند الغداء القى الضيف كلمة مؤثرة . وقال ان الانكليز كانوا كل سنوات الحرب يتتبعون نضال الشعب الروسى المقدام . وقال الفيلدمارشال حينذاك الكثير من الكلمات الطيبة ايضا عن الجنود السوفييت وعن المارشال

روكوسوفسكى . ومن المؤسف ان مونتغومرى نسى فى مذكراته فيما بعد ان يكرر كلمات الامتنان والاعجاب التى قالها عن الشعب السوفييتى فى ايار عام ١٩٤٥ .

من المعروف ان قسطنطين روكوسوفسكى حظى بشرف قيادة عرض النصر .

كان صباح ٢٤ حزيران (يونيو) متجهما كصباح خريفى ، وكانت السماء تمطر رذاذا خفيفا . ولكن ما كان لهذا ان يفسد مزاج العيد . ومع حلول الساعة الثامنة غصت شوارع موسكو باناس يغمرهم الفرح . وعلى مداخل الساحة الحمراء اصطفت قوات حامية العاصمة بمربعات منتظمة ، وفى الساحة الحمراء المرصوفة بالحجارة وقفت فى نسق قويم الافواج المركبة للجبهات والاسطول البحرى الحربى . لقد اصطفت بالترتيب نفسه الذى كانت تنتشر فيه من الشمال الى الجنوب جبهات الحرب الوطنية التى تمثلها . وكانت ترفرف فوق رؤوس المحاربين ٣٦٠ راية عسكرية حمراء .

فى العاشرة الا ربع صعد على منصة الضريح اعضاء المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى والحكومة السوفييتية . ومع الدقة العاشرة لساعة برج سباسكى اندفع قائد العرض قسطنطين روكوسوفسكى على رهوان اسود للقاء غيورغى جوكوف الذى خرج من بوابة سباسكى على جواد رمادى فاتح لونه اقرب الى البياض . وجمدت الساحة الحمراء . كانت طرقات الحوافر تسمع بوضوح ، ثم تعالى تقرير قائد العرض .

غرقت كلمات روكوسوفسكى الاخيرة فى الاصوات المهيبة للاوركسترا المركبة التى تضم ١٤٠٠ موسيقى . استعرض جوكوف بصحبة روكوسوفسكى القوات التى اصطفت للعرض وهنأ الجنود والضباط بالنصر . وكان هتاف قوى مدوّ «اورا» يرافق المارشالين من فوج الى فوج .

تقدمت الاوركسترا المركبة الى منتصف الساحة وعزفت «المجد للشعب الروسى !» . نزل مارشال الاتحاد السوفييتى جوكوف من جواده وصعد بسرعة درجات ضريح لينين واقترب من الميكروفونات . وهنأ باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى والحكومة السوفييتية وبتكليف منهما المحاربين

السوفييت وشغيلة المدينة والقرية والشعب السوفييتى كله بالنصر العظيم على المانيا الفاشية .

بعد ان انهى جوكوف كلمته حلت اكثر اللحظات مسؤولية : اعطى روكوسوفسكى ايعازا بالمسيرة الاحتفالية وتقدم بنفسه فى طليعة طاقم العرض . كنا بشعور من الاعتزاز بالواجب الذى ادیناه ازاء الوطن نخطو فى الساحة الحمراء ، محيين بسيوفنا قادة الحزب والحكومة الواقفين على المنصة المركزية .

مررت قرب ضريح لينين والتفتت الى اليمين ووقفت عند قاعدته فى وضعية «استعداد» الى ان مر الفوج المركب لجبهة البلطيق الاولى ، الذى اقوده ، سائرا بخطوات مهيبة . ثم اتت الصفوف المنتظمة للفوج المركب للجبهة البيلوروسية الثالثة وعلى رأسه مارشال الاتحاد السوفييتى فاسيليفسكى .

بعد ان مرت صفوف فوج فاسيليفسكى المركب ، صعدنا معا الى المنصة التى دعى اليها كل قادة قوات الجبهات . وتابعنا من على منصة الضريح مراقبة مرور الافواج المركبة الباقية . فى تلك اللحظة مرت صفوف الفوج المركب للجبهة البيلوروسية الثانية . وتصورنا عند رؤيتها ان الفوج يقوده واحد من ابرز القادة السوفييت ، مارشال الاتحاد السوفييتى قسطنطين روكوسوفسكى . ان جيوش الجبهة البيلوروسية الثانية التى تشكلت فى نيسان (ابريل) عام ١٩٤٤ ، ساهمت فى تحرير بيلوروسيا وبولندا ، وفى تحطيم تجمع القوات الفاشية الالمانية فى بروسيا الشرقية ، ثم حظيت بشرف ان تساهم فى عداد جبهاتنا الوسطى الثلاث فى عملية برلين . ثم مر الفوج المركب للجبهة البيلوروسية الاولى التى ادى روكوسوفسكى كذلك قسطا لا يستهان به فى انتصاراتها . . .

قال لى روكوسوفسكى :

– لقد اعتبرت قيادة عرض النصر ارفع جائزة اتلقاها لقاء خدمتى هذه السنوات الطويلة فى القوات المسلحة .

ما لبث روكوسوفسكى ان عين قائدا عاما للمجموعة الشمالية للقوات السوفييتية المرابطة فى اراضى جمهورية بولندا الشعبية . وقد بذل مجلس المجموعة العسكرى ، الذى يترأسه روكوسوفسكى ، كل ما فى وسعه لاقامة صلات متينة وواسعة

بحكومة بولندا ومنظماتها الاجتماعية واحزابها الديمقراطية ، وبقيادة القوة البولندية .

فى تلك الفترة حث امبرياليو الولايات المتحدة وحلفاؤهم سباق التسلح ، وشرعوا فى «الحرب الباردة» ضد بلدان الاسرة الاشتراكية . وفى تلك الظروف برزت بكل حدة امام البلدان الاشتراكية كلها مهمة تدعيم الجبروت الدفاعى والنهوض بالقدرة القتالية . ومن بين هذه البلدان ، طبعا ، بولندا الشعبية . وطلب رئيسها بوليسلاف بيروت من الحكومة السوفييتية بالحاح وضع روكوسوفسكى تحت تصرف الحكومة البولندية . ولبت القيادة السوفييتية هذا الطلب . وقد منح روكوسوفسكى لقب مارشال بولندا ، وعين نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للدفاع الوطنى فى بولندا ، وانتخب عضوا فى المكتب السياسى لحزب العمال البولندى الموحد ونائبا فى البرلمان . بقى روكوسوفسكى سبع سنوات فى هذه المناصب وبذل كل ما هو ممكن لتدعيم القدرة الدفاعية لجمهورية بولندا . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٥٦ طلب من الحكومة البولندية اعفاءه من المناصب التى يشغلها نظرا لتردى صحته . ولبى طلبه . وعاد الى الاتحاد السوفييتى بموافقة الحكومة السوفييتية .

تشير الى خدمات روكوسوفسكى للشعب والجيش البولنديين الشهادة الحكومية التى سلمت له قبل مغادرته بولندا بأمد قصير . وكان من بين ما جاء فيها : «منذ اللحظة التى تسلمت فيها بطلب من الحكومة البولندية منصب وزير دفاع جمهورية بولندا الشعبية والقائد العام للجيش البولندى ، لم تضن بالقوى وبذلت كل معارفك ومواهبك لاداء هاتين الوظيفتين على افضل وجه . ويشهد على نتائج عملك تدعيم القدرة الدفاعية لبلادنا والنهوض سواء بالمستوى التنظيمى للجيش البولندى ، او بمستوى تجهيزه وتدريبه ، وقسطك فى هذا كبير جدا» .

بعد عودة روكوسوفسكى الى الاتحاد السوفييتى عين نائبا لوزير دفاع الاتحاد السوفييتى وانتخب مرشحا لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ونائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى . وقد كرس كل طاقته من اجل التدعيم المطرد للقدرة الدفاعية للبلاد وعمل حتى يوم وفاته المبكرة فى آب (اغسطس) عام ١٩٦٨ .

9—219

جمع قسطنطين روكوسوفسكى على افضل نحو الذكاء الفطرى والحب المدهش للعمل وصلابة القناعات والقدرات التنظيمية البارزة وموهبة القائد وبسالة الجندى . وكان يعتمد بثبات على هيئات الحزب والجيش ، على قوة الشيوعيين التنظيمية والمعبئة العظيمة ، ويدرك على نحو رائع انه مهما كان القائد موهوبا ، ومهما كانت خطة العملية معدة بصورة جيدة ، فان مصيرها فى ميدان المعركة يقررها فى نهاية المطاف الجنود الذين يلهمهم ويقودهم الشيوعيون .

بوريس شابوشنيكوف



حينما اسمع اسم بوريس ميخايلوفيتش شابوشنيكوف يقفز الى مخيلتى خريف عام ١٩٤١ ، اواخر ايلول (سبتمبر) . ففى ذلك الحين بالذات جرت بيننا مكالمة لا تنسى وطويلة للغاية بواسطة تلفون التوتر العالى . ولا يزال يرن فى اذنى الى الآن صوت المارشال الرخيم ، الواضح بلهجته المشجعة اللطيفة بصورة مدهشة . لم يكن تقريرى اليه سهلا . كنت قد فلت لتوى على رأس مفرزة مقاتلة ليست كبيرة جدا ولكنها قوية من طوق الحصار الذى احكمه الفاشيون حول قوات واركان وقيادة الجبهة الجنوبية الغربية التى كان يتراسها الجنرال كيربونوس . وقد خضت هذا الحديث من مدينة اختيركا فى مقاطعة سومى ، حيث كان يجرى تشكيل الجيش الحادى والعشرين لجبهتنا التى بعثت مجددا .

حينما وصلت الى اختيركا ، ابلغنى الجنرال غوردوف ، الذى كان يقود الجيش الحادى والعشرين موقتا ، امر رئيس الاركان العامة بان

اتصل به بواسطة تلفون التوتر العالى . تناول السماعة بوريس شابوشنيكوف . ردا على التحية حسب الاصول طرح علىّ سؤالا مفاجئا تماما . فقد قال :

– يا عزيزى ، هل استرحت كما ينبغى بعد كل ما عانيت من مصاعب ومحن ؟

لكلمة «عزيزى» على لسان شابوشنيكوف معان متباينة دائما فاحيانا يسمع فيها عتاب ، واحيانا اسف ، وفى احيان اخرى عطف ابوى . حينذاك ، فى ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤١ ، اذ تحدث معى ، كان يبدو وكانه بكلمته المفضلة هذه يعانقنى بعطف ابوى .

بعد هذا لم استطع ابدا ان اعود الى لهجتى الرسمية ، فكان تقريرى اشبه باعتراف ابن لابيه . وقد مسكت نفسى عدة مرات متلبسا بهذا وحاولت ان اسبغ على حديثى طابعا رسميا . قال رئيس الاركان العامة ، مدركا حراجة موقفى :

– لا تخجل ، يا عزيزى ، يهمنى جوهر حديثك ، لا شكله .

لقد شدد على كلمة «حديث» ، وكانما ينوه بانه لا يريد تقريرا جافا ، بل حديثا صريحا ومفصلا ربما ليجد فيه اجوبة عن سؤالين كانا يقلقانه فى تلك الايام الدراماتيكية : اولا ، ما هو مصير قوات وقيادة الجبهة الجنوبية الغربية ، وثانيا ، ما هى الحالة المعنوية للذين خرجوا من حجيم التطويق .

ليصبح واضحا للقارئ ما هى الاحداث التى يجرى الحديث عنها ساعرض مضمون حديثى لبوريس شابوشنيكوف حينذاك ، ولاسيما اننى بعد المكالمة التلفونية وضعت بايعاز منه تقريرا خطيا حول هذا ارسلته اليه .

الحديث يجرى عن نهاية معركة كييف التى بدات فى ٧ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ على المشارف البعيدة لعاصمة اوكرانيا بصراع عنيف ضد الجيش السادس والمجموعة المدرعة الاولى للجيش الالمانى . ان القوات الالمانية التى استنزفت فى هذه العملية قد تم ايقافها على مشارف كييف ، ولم تستطع التحرك ببطء الى الدنيبر ، على مسافة بعيدة جنوب هذه المدينة البطلة الا بخسائر جسيمة . وبالنتيجة احبطت خطط القيادة الالمانية التى كانت تهدف الى ان تحتل بسرعة اوكرانيا كلها ، ولا سيما الدونباس . ان النضال الطويل والدؤوب لقوات الجبهة الجنوبية الغربية اضطلع بدور هام ايضا فى

احباط الخطة الهتلرية للحرب الخاطفة ، لانه ارغم الفوهرر على استخدام قوات كبيرة من مجموعة جيوش «الوسط» الفاشية الالمانية لضرب قوات الجبهة الجنوبية الغربية . وعرقل هذا هجوم العدو فى الاتجاه الرئيسى ، اتجاه موسكو ، مما مكن بدوره القيادة السوفييتية من ان تحشد هناك احتياطيات ستراتيجية ضخمة . ان قوات الجبهة الجنوبية الغربية ، وقد انجزت كل هذا ، متمسكة بكيف حتى الامكانية الاخيرة ، اصبحت فى وضع معقد للغاية . وتسنى للعدو احاطتها بطوق حديدى .

بدأ المجلس العسكرى واركان الجبهة السير فى ليلة ١٨ ايلول (سبتمبر) . وكان قد اتخذ قرار بالمرور عبر لوخفيتسا . ولاكتساب قدرة اكبر على المناورة قسمت قيادة الجبهة الى نسقين . وقد سرت فى النسق الاول الذى يضم المجلس العسكرى والجزء الاكبر من الاركان والادارة السياسية ورؤساء اصناف القوات والخدمات . ومن قرية فيرخوياروفكا توجهنا الى بيرياتين ، حيث يوجد جسر على نهر اوداى . وصلنا الى النهر فى النصف الثانى من الليل . وكان الطيران المعادى يقصف المعبر ، وتطلب الامر جهدا كبيرا للمحافظة على النظام . ان نسق الاركان ، وقد عبر النهر ، توجه الى قرية تشيرنوخا متجنبا بيرياتين تحت حماية وحدات فرقة العقيد ماكشانوف ٢٨٩ للمشاة . ولكن قبل الشروق هاجمته الدبابات الالمانية من الشمال وعزلته عن وحدات المشاة . وكان لا بد من تغيير الاتجاه . وتحولنا الى الطريق الزراعى الممتد على طول الضفة اليسرى لنهر اوداى . وتحركنا تحت ضرب القنابل والقصف المدفعى . وحاول الفاشيون عدة مرات قذفنا الى النهر ، ولكن كل هجماتهم صدت . وفقدنا هناك الكثير من السيارات والمدرعات : عدد منها حطمته القذائف والقنابل ، وعدد دمرناه بانفسنا لنجعل النسق اكثر تماسكا وقدرة على القتال .

فى صباح ١٩ ايلول (سبتمبر) وصلنا الى قرية غورورديشى الواقعة عند ملتقى نهرى اوداى ومنوغا . امر قائد الجبهة بالتوقف لتنظيم النسق واستيضاح الموقف ورسم الخطة اللاحقة للاعمال . وفى تلك القرية انضم الينا نسق اركان الجيش الخامس . وقد سار تغطيه فلول فيلق الجنرال كالينين الحادى والثلاثين .

فى غورورديشى حسبنا قوانا . كان قد بقى قرابة ثلاثة آلاف شخص وست مصفحات لفوج الحراسة وعدة رشاشات مضادة للطائرات . ولم يكن طيران العدو ليعف عنا . ولحسن الحظ كان عدد الضحايا قليلا . واسفنا اكثر ما يكون على فقد محطة اللاسلكى ، فقد حطمها انفجار قنبلة . وانقطع اخر خيط يصلنا بالجيوش ، وباركان القائد العام ، وبالتالى بالقيادة العليا .

فى احد البيوت جمع الجنرال كيربونوس الملاك القيادى الذى وجد فى غورورديشى . وتحدث الجنرال توبيكوف رئيس اركان الجبهة عن الوضع . العدو يواجهنا من جميع الجهات . على الضفة الجنوبية لنهر اوداى ، الذى كنا موجودين عند مصبه يحصن الالمان الدفاع بجبهة الى الشمال ، والضفة الشرقية لنهر منوغا تحتله وحدات غوديريان المدرعة والالية ، والى شمالنا وشمالنا الغربى استولى العدو ايضا على كل المدن والقرى الكبيرة .

بعد هذه المعلومات المقلقة ، ساد الصمت . وقد قطعه الجنرال كيربونوس :

– هناك امر واحد واضح : يجب ان نشق طريقنا . بقى ان نحدد فى اى اتجاه .

بعد تبادل قصير للاراء قرر المرور فى منطقة قرية تشيرنوخا ، حيث توجد مخاضات على النهر . وشكلت فى غضون ذلك اربع مجموعات قتالية : واحدة متقدمة واثنتان جانبيتان وواحدة فى المؤخرة . وكان على الجنرال بوتابوف ان يقود المجموعة المتقدمة . وامرت بان اضع تحت امرتى سرية مفوضية الشعب للشؤون الداخلية وعدة وحدات اخرى لتغطية نسقنا كله عن العدو من المؤخرة .

صففت قوتى . مئة وخمسون شابا ، منتصبو القامة يتدفقون حمية وشجاعة . لعله واتانى الحظ اكثر من الجميع ، فتحت تصرفى فصيلة مقاتلة حقيقية . واخذت معى ايضا اغلب ضباط قسم العمليات وشكلت قسما للادارة .

استعرضت الصفوف صامتا ، وانا انظر الى وجوه الجنود والقادة . لقد تعب الناس ، حبذا لو استراحوا ولو قليلا . فى هذا الوقت هرع النقيب غنينى مرافق الجنرال كيربونوس ، وقال ان القائد يدعونى .

امرت المفرزة بالتفرق والاستعداد للمعركة المقبلة ، واسرعت الى وسط القرية . كان كيربونوس وعضوا المجلس العسكرى

بورميستينكو وريكوف ورئيس الاركان توبيكوف واقفين فى وسط الجنرالات والضباط . كان بورميستينكو يقول شيئا للرفاق بصوت منخفض ، هادئ . كان يصعب تصديق ان الحديث يجرى فى مرمى نيران العدو مباشرة . وكان كل ما فى بورميستينكو يوحى بهذا التماسك والثقة غير المتكلفين . اقتربت وسمعت كلماته :

– الامر الرئيسى ، ايها الرفاق ، ان تحافظوا على رباطة الجاش. لا توجد صعاب واخطار لا يستطيع رجالنا تذليلها . على الشيوعيين ان يضربوا مثلا فى تنفيذ الواجب العسكرى .

واذ رآنى كيربونوس ، قال بعجلة غير معهودة فيه :

– ايها الرفيق باغراميان ، خرجت من ميليخا فصيلة ضخمة من الموتوسيكلات الفاشية وحطمت وحداتنا التى كانت تحتل هذه المرتفعات ، – واشار القائد الى سلسلة تلال بارزة بشدة على بعد كيلومتر الى الشرق ، – وقد تصل الى هنا فى اية لحظة . وزع فصيلتك بسرعة وهاجم العدو . مهمتك الاستيلاء على سلسلة هذه المرتفعات ، واحتلال الجسر على النهر والتحرك الى سينتشا . نفذ !

لقد تغير كل شىء اذا ، وتحولت فصيلتى من فصيلة مؤخرة ، الى فصيلة متقدمة ، وينبغى الوصول الى سينتشا . وتذكرت الامس ، حينما ازاح الفاشيون نسق اركان الجبهة عن وحدات فرقة المشاة ٢٨٩ التى كانت تسير امامنا . وخشية ان يحدث اليوم الامر نفسه ، قلت انه اذا تكلل هجوم فصيلتى بالنجاح ، فمن الافضل ان تبقى القوى الاساسية على مقربة منا . لوح القائد يده بنفاد صبر :

– حسنا ، اذهب ، ايها الرفيق باغراميان .

لاحظت ان القائد لم يكن فى يوم تعبا ، مغتما شأنه الان .

هرعت الى فصيلتى . صففت الناس وشرحت لهم المهمة القتالية الجديدة ، ثم اخرجتهم بخطوات سريعة من القرية . فى غابة من الشجيرات توزعنا على شكل سلسلة . فتح الهتلريون المرابطون فى التلال النار علينا . ولكننا تابعنا تحركنا ، ولاحظنا رجالا ينهضون من الارض . انهم محاربو الوحدات التى ازاحها العدو عن التلال ، وانضموا الى سلاسلنا فرحين . ونمت الفصيلة نموا سريعا . سمعت صيحة عالية :

– ايها الرفاق ، معنا جنرال ! الى الامام !

وصلنا الى قمة التل . ما افلت من الرصاصة انجزته الحربة

واخمص البندقية . وهرعنا الى النهر . ولحسن الحظ لم يكن عند الفاشيين وقت لتفجير الجسر . واصبح فى ايدينا . حل الظلام ، ولكن كانت اكوام الحشيش تشتعل فى كل مكان . هذا من المعالم الجيدة لقواتنا الرئيسية . ولكنها تباطأت . ارسلت الرائد ستيبانوف ليبلغ بنتائج المعركة وباننا نسير الى سينتشا حسب الامر .

وفى ذلك الوقت كان يرفدنا المزيد والمزيد ، وكان بين المقاتلين الجدد حرس حدود .

فى ساعة متأخرة من الليل اقتربنا من قرية ايسكوفتسى سينتشانسكى (يوسكوفتشى) . لم يكن الهتلريون قد دخلوها بعد . عاد آمر قسم العمليات الذى ارسل للاتصال باركان الجبهة . وقد جلب معه خبرا مفاجئا : لا احد يتبعنا ، وكل الدبابات والسيارات انطلقت الى الغرب . لم افهم شيئا . ولكنا امرنا بالتحرك الى سينتشا ، وسنذهب الى هناك . لعل اركان الجبهة تسير الى هناك على طريق اخر . انها لا تستطيع تجنب سينتشا ، فهناك جسر على سولا .

قبل الشروق اقتحمت فصيلتنا سينتشا بدون توقف . ولكن لم يتسن لنا الاحتفاظ بالقرية والجسر . اضطررنا الى ان نذهب الى قرية لوتشكا الصغيرة ونحضر هناك وسائل للعبور وننتظر قدوم ارتال الاركان حتى الصباح .

قبل الشروق عبرنا النهر على قوارب بعد ان فقدنا كل امل فى مقابلة اركان الجبهة . قادنا احد السكان المحليين على دروب متشابكة وموحلة عبر ارض مليئة بالمستنقعات . اجتزنا الطريق سالمين واختبانا فى اكوام القمح . ارسلت الملازم النشيط الشاب دوروخوف للاستكشاف . وعاد مسرورا :

– ايها الرفيق الجنرال ! على مقربة منا مزرعة حكومية . ولا يوجد هناك اى المانى .

استرحنا النهار بطوله فى هذه البلدة المضيافة . وتمكن المقاتلون من ان ينظفوا اسلحتهم ويغتسلوا ويرتبوا ملابسهم ، بل وتمكن بعضهم من ان يحلق ذقنه . بيد اننا لم ننس الخطر لدقيقة واحدة ، ووضعنا حراسة دائرية .

جمعت القادة . وفكرنا معا فى خط تحركنا المقبل .

كانت معى خريطة صغيرة المقياس (سنتيمتر لكل ١٠

كيلومترات) وبوصلة . قررنا التحرك بعيدا عن الطرق قدر الامكان ، لتقليل احتمال مقابلة العدو . حددنا سمتا دقيقا لكل قطعة من الطريق للاسترشاد فى الليل بمزيد من السهولة .

فى المساء ودعنا سكان البلدة بحرارة وتوجهنا الى قرية كوميشنيا الكبيرة على امل ان نلقى هناك الوحدات المتقدمة لقواتنا . تحركنا خفية ، متجنبين النقاط الاهلة . وتوقفنا عند طرف كوميشنيا . تطوع بالاستكشاف دوروخوف المقدام وضابطان اخران . بعد نصف ساعة سمعنا طلقات رشاش ، وتطايرت الصواريخ . وما لبث ان اتى الملازم دوروخوف وقال وهو يلهث من الركض السريع :

– الفاشيون فى القرية ! كدنا ان نقع فى مخالبهم .

لم نضع الوقت وتابعنا السير متجنبين القرية . كان الضوء قد اطل حينما اقتربنا من بلدة ميليشكى الصغيرة على ضفة نهر خورول . لم يكن هناك هتلريون ، كما اعلمنا ، رب بيت يقع فى تخوم البلدة . واذ اقتنع اننا ضباط سوفييت اخذ يدلنا على المخاضة . عبرنا النهر فى ضوء النهار . كان من الخطر متابعة السير ، فحولنا يمتد حقل مكشوف . قررنا تمضية النهار فى الادغال الشاطئية غير بعيد عن قرية تشيرفونى كوت . اتخذنا وضع دفاع دائرى . وهناك عثر علينا صبيان القرية الموجودون فى كل مكان . فى البداية خافوا من الناس المسلحين ، ولكنهم ، وقد راوا النجم الحمراء على قبعاتنا ، تجرؤوا وتحدثوا . كان هؤلاء الصبيان يعرفون الكثير . اتضح انه لم يكن هناك هتلريون فى الجوار . اتصلنا بالسكان المحليين وتلقينا منهم طعاما ، وعند الغسق تابعنا السير الى الشرق مع دليل يعول عليه . ادركنا الشروق عند قرية سارانتشينا دولينا . اختبانا فى الغابة الممتدة على طول نهر بسيول واتخذنا وضع دفاع دائرى وارسلنا دورية الى الطريق . عند الظهر قال افراد الدورية ان رتلا صغيرا من السيارات يتحرك من الشمال . امرت بالاستعداد للقتال .

توقفت السيارة الامامية قبل الوصول الى القرية . كان يجلس فى صندوقها جنود من الجيش الاحمر . واندفعنا اليهم بهتافات جذلة . قفز من السيارة رقيب شاب . نظر بدهشة الينا ، وقد اضنانا التعب ونما الشعر على وجوهنا . واذ رآنى ببزة جنرال ، ادى التحية وقال :

– كبير مجموعة الاستكشاف الرقيب موروزوف .

علمنا ان الاستكشاف ارسله آمر كتيبة الهندسة المنفردة من مدينة غادياتش بهدف استيضاح مواقع وجود العدو وترتيب قواته . بعد ان علم افراد الدورية منا اين تقع فصائل الهتلريين المتقدمة ، ساروا فى طريقهم ، اما نحن فخطونا الى الشرق . فى بلدة سارى الكبيرة استقبلنا السكان بحفاوة ، ووزعونا على البيوت واطعمونا . فى هذه البلدة ، الواقعة فى منطقة لا يسيطر عليها احد ، ولم يدخلها غير مخابراتنا كان مجلس سوفييت البلدة وادارة الكولخوز لا يزالان يعملان . وكانوا يقدمون على مرمى حجر من الهتلريين المساعدة للمقاتلين الخارجين من التطويق . اتصلت عبر التلفون من دار سوفييت البلدة بآمر كتيبة الهندسة المرابطة فى غادياتش . فارسل سيارات لتأخذنا .

نقلتنا الى مبنى صغير . تقدم الىّ ضابط . كان واضحا انه آمر فى الجيش النظامى ، فقدم نفسه بوضوح :

– النقيب كوليشوف ، آمر حامية مدينة غادياتش .

دعانى الى مكتبه ، وامر مساعده ان يوزع فورا الناس الذين اتوا معى للاستراحة فورا .

غرقت بمتعة فى المقعد القديم الوثير المنجد بجلد اصطناعى ذى لون غير واضح ، واصغيت باهتمام الى النقيب . تحدث عن الوضع فى منطقة عمل الحامية ووصف بنية القوى الموضوعة تحت تصرفه .

حاولنا فى غادياتش معرفة مصير رتل الاركان الذى تركناه . ولكن احدا لم يستطع قول شىء محدد . ولم يتضح الامر الا فيما بعد ، فى اختيركا ، حينما قابلت نائبى المقدم غليبوف والرفاق الاخرين فى اركان الجبهة . قبل كل شىء سألت غليبوف لماذا تاخر رتل اركان الجبهة فى غورودیشى ولم يتبع فصيلتنا . نظر غليبوف الى بدهشة .

– الم يبلغك الجنرال كيربونوس ؟ كان يعول على صرف انتباه العدو فقط بالهجوم الاستعراضى لفصيلتك فى اتجاه سينتشا . وفى ذلك الحين كان ينبغى للرتل ان يتحرك الى الشمال ويعبر نهر منوغا عند قرية فورونكى .

وقد حدثنى غليبوف بان البداية كانت موفقة . مروا خفية على طول ضفة منوغا اليمنى واستولوا على فورونكى وعبروا النهر . فى فجر ٢٠ ايلول (سبتمبر) كانوا عند قرية دريوكوفشينا ، التى

تقع على بعد خمسة عشر كيلومترا تقريبا جنوب غرب لوخفيتسا ، حيث توقفوا فى دغل شوميكوفو لتمضية النهار .

ثم اخبرنى عن الاحداث الدرامية التى جرت فى الايام التالية والمعروفة حاليا على نطاق واسع ، فبعد المقاومة حتى النفس الاخير ، استشهد الابطال الجنرالان كيربونوس وتوبيكوف وابطال آخرون كثيرون خلدت اسماؤهم حاليا فى نصب اقيم فى كييف . . .

لم يقطع شابوشنيكوف علىّ الحديث ، بل كانت تسمع من حين الى اخر تنهدة انسان يعانى اشد حالات الربو . حينما انتهيت سألنى رئيس الاركان العامة ، رئيسى المباشر ، حيث اننى نائب رئيس اركان الجبهة الجنوبية الغربية ، برقة صافية وتعاطف صادق :

– ايفان خريستوفوروفيتش ، اخبرنى بصراحة ، كيف حالتك ، الم تضعف جسديا وكيف هو مزاجك ، الا تحتاج ولو الى استراحة قصيرة بعد كل هذا ؟ ما هى اشد رغبة عندك ؟

اجبت :

– تحطيم الفاشيين .

رن فى السماعة صوت بوريس شابوشنيكوف المفعم بالاستحسان .

– لم اتوقع منك جوابا اخر ، يا عزيزى .

ومن غير قصد تصورت حينذاك ابتسامة مشعة تضىء وجه هذا الانسان الذى يوحى مظهره الخارجى بالصرامة والشدة .

فى ختام حديثنا الطويل قال شابوشنيكوف :

– فهمت منك انك لا تريد القدوم الى الاركان العامة فى موسكو ، اعتقد ان المارشال تيموشينكو سيستفيد بجدارة من تجربتك وقدراتك ومعرفتك .

وما لبثت ان شغلت بتوصية من رئيس الاركان العامة منصبى السابق كنائب لرئيس اركان الجبهة ورئيس لقسم العمليات فيها .

ينبغى القول انه كانت لبوريس شابوشنيكوف كل المسوغات ليعتبرنى تلميذه ، فلقد درست فى اكاديمية فرونزه العسكرية من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٤ ، وذلك على وجه التحديد حينما كان يترأسها شابوشنيكوف . وكان قد حل فى هذا المنصب مكان ايديمان فى اذار (مارس) عام ١٩٣٢ وبقى فيه حتى ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٥ .

لا بد من القول اننا ، نحن الطلبة ، ولا سيما فى الصفوف العليا ، وكذلك الهيئةالتعليمية ، لم نكن بلطيف العبارة متحمسين لتبديل قيادة الاكاديمية ، اذ كان يرتبط بنشاط ايديمان عهد كامل فى حياة الاكاديمية . لقد ترأسها سبع سنوات ، وكان قد شغل هذا المنصب بعد ميخائيل فرونزه وبتوصية منه . وانتقل ايديمان من الاكاديمية الى منصب رئيس المجلس المركزى لجمعية المساعدة على الدفاع والبناء الجوى والكيماوى وعضو المجلس العسكرى الثورى فى الجمهورية .

كان بوريس شابوشنيكوف خير خلف لايديمان ، اذ كان قد صدر فى ذلك الحين كتاب شابوشنيكوف الشهير «دماغ الجيش» ، وذلك فضلا عن العدد الكبير من مؤلفاته العسكرية النظرية والتاريخية الهامة الاخرى . وعلى اى حال كان عند اغلبنا شىء من اسف لم يعبر عنه . ولكنه ما لبث ان تبدد . فقد كان شابوشنيكوف يتسم بموقف الاحترام ازاء كل طالب ، وبمعارف موسوعية حقا فى الفن العسكرى ، وكان يتسم ، وهذا هو الامر الرئيسى ، بانه كان يساير مقتضيات الزمن .

اعيد الى الاذهان انه مع بداية تنفيذ الخطة الخمسية الاولى ازداد تدفق المعدات المعقدة الجديدة الى الجيش . وكان هذا يتطلب من السلك القيادى تنظيم عمل دؤوب وهادف لدراستها . كان يجب كما قيل حينذاك ، على كل حلقات البنية العسكرية – من الاكاديميات الى اصغر وحدات الجيش– ان «تولى وجهها شطر التكنيك» . وكان هذا يقتضى بدوره تغييرا جديا للبرامج التعليمية ومنهج التدريس فى الاكاديمية ، اذ اصبح التطوير الصحيح المطرد لفن العمليات يتوقف كله على مراعاة الاستخدام القتالى للمعدات الجديدة والعصرية . ونضجت ضرورة التغيير الجدى للبنية التنظيمية للاكاديمية . وكانت جماعتنا قد شرعت فى هذا العمل المعقد تحت قيادة ايديمان . اما المهمة الصعبة لبوريس شابوشنيكوف فكانت تتلخص فى متابعة هذا العمل وانجازه بنجاح . وكان اهلا لهذه المهمة ، لان كل حياته ونشاطه السابقين قد اعداه اعدادا كاملا لحلها .

ولد بوريس ميخايلوفيتش شابوشنيكوف عام ١٨٨٢ فى مدينة زلاتوست فى جنوب الاورال . وكان ابوه المتحدر من قوزاق الدون

يخدم عند التجار الاوراليين الاغنياء . وعلى الرغم من سنوات الخدمة الطويلة عند هؤلاء المستثمرين ، استطاع شابوشنيكوف الاب ، حسب شهادة ابنه ، ان يحافظ على «اخلاق شريفة ومستقيمة ونزيهة» .

ان امه المتحدرة من وسط الموظفين ذوى الدخل المحدود مارست التدريس خلال سنوات طويلة وغرست فى ابنها حب الكتب .

قرر تعليم بوريس فى مدرسة كراسنوفيمسك الصناعية حيث مصاريف الدراسة ادنى ما تكون . وقد درس باجتهاد شديد وتميز منذ الطفولة بذاكرة فذة . ان بوريس ، وقد تعلم فى مدرسة كراسنوفيمسك ست سنوات قرر متابعة دراسته وانهاء صف سابع اضافى ، وتسنى له ذلك فى مدرسة بيرم التطبيقية . وبهذا نال حق الانتساب الى مؤسسة دراسية تكنيكية عليا . بيد ان الشاب اختار العمل العسكرى . وقد وقع اختياره على هذا ، كما شرح فيما بعد ، لمجرد ان الدراسة فى المدرسة العسكرية مجانية ، ولهذا لم يعد عالة على اسرته الكثيرة الاولاد . ولكن اعتقد ان ثمة دورا هنا لولع الشاب بالكتب ذات المواضيع العسكرية التاريخية .

التحق بوريس بمدرسة الكسندر العسكرية فى موسكو ، لانها لم تكن تقبل ، خلافا للكثير غيرها ، النبلاء وحدهم ، بل والمتحدرين من عامة الشعب .

قلما كان شابوشنيكوف يتحدث عن نفسه ، وقد جمعنا المعلومات عنه نتفا متفرقة . وبعد وفاته نشرت ذكرياته . وهى الان معروفة على نطاق واسع . ولكن لا بد ، فى رايى ، من ايراد وثيقة معبرة جدا تبين بايجاز شحيح ، فى عدة اسطر ، طريق شابوشنيكوف العسكرى قبل الثورة .

«. . . اننى ، وقد اصبحت فى عام ١٩٠٣ ضابطا بعد التخرج فى مدرسة موسكو العسكرية ، انهيت الاكاديمية فى عام ١٩١٠ ، ومن ثم قدت سرية سنتين وبدات فى عام ١٩١٢ الخدمة فى الاركان العامة بمنصب رئيس عمليات اركان فرقة الفرسان الرابعة عشرة . بقيت فى هذا المنصب ستة اشهر من الحرب ، وشغلت على التوالى مناصب مساعد رئيس عمليات اركان الجيش الثانى عشر ، وقمت باعمال ضابط اركان لدى ادارة رئيس تموين اركان الجبهة الشمالية الغربية ، ومنذ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٥ اصبحت فى البداية

رئيسا لاركان لواء قوزاق ، ومن ثم رئيسا لاركان فرقة القوزاق التركستانية الثانية . بقيت فى هذا المنصب قرابة سنتين ، وفى اواخر ايلول (سبتمبر) عام ١٩١٧ عينت آمرا لفوج المشاة المينغريلى السادس عشر ، وفى بداية كانون الاول (ديسمبر) من السنة نفسها انتخبت لمنصب رئيس فرقة المشاة القفقاسية الذى بقيت فيه حتى ١٦ كانون الثانى (يناير) عام ١٩١٨ ، ثم استقلت بسبب المرض ، ومنذ ١٦ اذار (مارس) من السنة نفسها اعفيت فى اجازة الى اجل غير مسمى» .

هذا ما كتبه العقيد السابق للاركان العامة فى تقرير موجه الى رئيس اركان منطقة الفولغا العسكرية التى اسست لتوها يطلب فيه قبوله فى الجيش الاحمر .

فى هذه الوثيقة «نسى» مقدمها ان يتحدث عن الكثير ، بما فى ذلك انه قلد فى سنوات الحرب العالمية الاولى ستة اوسمة قتالية .

لعله لا يجوز القول ان تطوع شابوشنيكوف فى الجيش الاحمر قد مهدت له كل مسيرة حياته وخدمته العسكرية السابقتين . وبوريس شابوشنيكوف نفسه شرح افضل من اى كان سبب اتخاذه هذا القرار الحاسم . اتذكر انه فى احد الاحاديث غير المتكلفة مع الطلبة سال احد منا رئيس الاكاديمية كيف رسخ عزمه على ان يصبح آمرا احمر . وقد رد شابوشنيكوف على هذا السؤال الذى يبدو فى غاية التعقيد ببساطة وايجاز غير متوقعين . قال : «انى لم انسلخ يوما عن شعبى ، عن غالبيته ، وحينذاك ، فى مستهل عام ١٩١٨ ، كان واضحا لى تماما ان الجمهور الاساسى فى الشعب الروسى – الكادحين – يقف ليذود عن السلطة السوفييتية بصدره ، وهو لا يرغب بشكل من الاشكال ان يعيش كالسابق . وهذا ما حدد خيارى» .

تحدث شابوشنيكوف عن خدمته فى الجيش الاحمر ومساهمته فى الحرب الاهلية بايجاز ايضا ، ولكنه قال شيئا على اى حال . وهكذا عرفنا انه ما لبث ان نقل ، فى ايار (مايو) عام ١٩١٨ ، من منطقة الفولغا الى موسكو ، حيث اصبح مساعدا لرئيس ادارة العمليات للمجلس العسكرى الاعلى ، اذ كانت توجد هيئة كهذه فى الاشهر الاولى من السلطة السوفييتية . ولكن سرعان ما اتضح ان هذا المرجع لم يحقق غرضه لادارة القوات فى خلال الحرب الاهلية والتدخل

الاجنبى . وفى مستهـــل ايلول (سبتمبر) عام ١٩١٨ شكـل مجلس الجمهورية العسكرى الثورى . وكانت اركان الميدان هيئته العاملة . وشغل بوريس شابوشنيكوف فى هذه الاركان منصب رئيس قسم المخابرات . يصعب الان تصور توتر وحجم ذلك العمل . فحتى مجرد اقامة صلة دائمة بالجبهات كان يتطلب جهودا جبارة . وقد عمـل رئيس المخابرات بنشاط ، مساعدا على اقامة وتنشيط كل اصنافها . ومالبثت الدراسة العميقة والتحليلية للمعلومات الواردة (مع نقص شديد فى الوقت دائما) ان صارت توفر للقيادة معطيات صحيحة عن خطط الحرس الابيض والمتدخلين ومناطق تحشدات قواهم وتحرك احتياطياتهم ونقل الاسلحة والمعدات والذخائر . حينما ينظر المرء الى وثائق اركان الميدان لا يسعـه الا ان يعجب لمدى مـا استطـاع شابوشنيكوف ان يفعله فى مدة قصيرة لاظهار اللوحة الحقيقيـة للوضع فى المعسكر المعادى ، ولتكتيل واعداد الجماعة التى يترأسها فى الوقت نفسه .

ان شابوشنيكوف ، وقد نظم ادارة المخابرات واظهر نفسـه بمثابة اختصاصى فى الاركان لا يقدر بثمن ، لفت انتباه احد الاعضاء البارزين فى المجلس العسكرى الثورى ، وهو البلشفى المحنـك نيقولاى بودفويسكى ، الذى كان رئيسا لدائرة التفتيش العسكرية العليا . وقد اسست لمراقبة تشكيل لجان التجنيد وانشاء وتدريب وحدات القوات . وقد منحت دائرة التفتيش صلاحيات استثنائيـة واضطلعت بدور هام فى تشكيل وتوطيد الجيش الاحمر . وكانت تلزم هناك شخصيات مثل شابوشنيكوف بالذات ، مخلصة للشعب بنكران ذات وتعرف خدمة الاركان العامة بكل دقائقها . ففى تلك اللحظة التى اشتغل فيها شابوشنيكوف فى دائرة التفتيش العسكريـة العليا (كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ – شباط (فبراير) عام ١٩١٩) كان عليها القيام بعمل تنظيمى كبير بناء على البرنامـج اللينينى لتأسيس جيش من ثلاثة ملايين شخص . وساهم شابوشنيكوف مع رئيسه فى تشكيل العشرات من الفرق الجديدة . ولكن النواقص فى النظام التعبوى كبح تحقيق هذا الهدف ، ولهذا قامت دائرة التفتيش العسكرية العليا فى وقت واحد باصلاح لجان التجنيد وبتشكيلها فى كل مكان من روسيا . وتشير الارقام التالية الى مدى دقة وسعة هذا العمل . حتى اواخر عام ١٩١٨ شكلت فى اراضى جمهورية روسيا ٧

لجان تجنيد فى المناطق و٣٩ فى المحافظات و٣٩٥ فى الاقضية ، و٧ آلاف فى النواحى . وقد قامت بعمل جبار فى السنوات التالية من الحرب الاهلية لتشكيل وحدات الجيش الاحمر وتبيان وحساب المجندين والموارد المادية ، وقامت بتجنيد السكان الصالحين للخدمة العسكرية ، ونظمت التدريب العسكرى العام للشغيلة ، منفذة مرسوم اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا الذى اقر بمبادرة من لينين «حول التدريـب الالزامى على الفن العسكرى» .

فى شباط (فبراير) ١٩١٩ انتهى هذا العمل فى اراضى الجمهورية الروسية . وفى تلك الفترة حررت جملة من مناطق اوكرانيا . وكان ينبغى هناك ايضا ارساء اساس البناء العسكرى ، كمـا جرى فى روسيا . وذهبت لجنة من ادارة التفتيش العسكرية العليا فى مهمة الى كييف . وكان شابوشنيكوف فى عدادها . وفى ذلك الحين لم يكن بين الهيئات الحكومية فى اوكرانيا سوى قسم عسكرى صغير نسبيا ، بينما كان الوضع يتطلب اقامة جهاز عسكرى اكثر تطورا فى المركـز والمناطق . وما لبث ان اتخذ قرار بتشكيل مفوضية الشعب للشؤون العسكرية والبحرية فى اوكرانيا . وعين بودفويسكى مفوضا للشعب . واسست لدى مفوضية الشعب الاركان الرئيسية لعموم اوكرانيا ، واصبح شابوشنيكوف المساعد الاول لرئيسها .

كتب بودفويسكى فى امره رقم ١ بتاريخ ١٧ شباط (فبراير) عام ١٩١٩ : «. . . طالما يتألب علينا . . . الاغنياء ومرتزقتهم ، فلا بد من ان تكون للعمال والفلاحين قوتهم المسلحة ليدافعوا عـن انفسهم ضد الاعداء ، وليذودوا عن سلطتهم ، سلطة الشعـب الكادح . ومن يدافع عن نفسه عليه ان يحارب» . كانـت مهمـات مفوضية الشعب معقدة ، وكان يدخل فى عدادها تشكيل شبكة مـن لجان التجنيد فى النواحى والاقضية والمحافظات والمناطق للقيـام بجرد المكلفين بالخدمة العسكرية وتجنيدهم فى الجيش وتشكيـل وحدات احتياطية وتدريب الشغيلة على القتال .

شغلت المسالة العسكرية حيزا مركزيا فى عمل المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى (البلشفى) فى اوكرانيا (١–٦ آذار (مارس) عـام ١٩١٩) ومؤتمر السوفييتات الثالث لعموم اوكرانيا (٦–١٠ اذار (مارس) عام ١٩١٩) . ويؤكـد الدستـور الذى اقره مؤتمـر السوفييتات المبادئ اللينينية الثابتة للبناء العسكرى . وفى آذار

(مارس) اقر مجلس مفوضى الشعب مرسوما «حول تشكيل الجيش الاحمر العمالى الفلاحى» ، احد الاجزاء المكونة للجيش الاحمر لعموم روسيا .

فى ٦-٩ نيسان (ابريل) عقد اجتماع كامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) فى اوكرانيا ناقش تقرير بودفويسكى حول السياسة العسكرية . ورسم اجراءات تنفيذ قرارات المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا . وفى ١٩ نيسان شكلت اللجنة التنفيذية المركزية فى اوكرانيا مجلس الدفاع العمالى الفلاحى ، وفى ٧ ايار (مايو) اقيم قسم عسكرى فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) فى اوكرانيا . واصبح البناء العسكرى فى اوكرانيا اكثر تنظيما وتطلعا الى الهدف . ان تحقيق كل هذه الاجراءات سبقه طبعا عمل تمهيدى كبير . وقد ساهم فيه بوريس شابوشنيكوف انشط مساهمة . وغرق فى العمل لتشكيل الجهازين المركزى والمحلى للادارة العسكرية ، وللقيام عن طريقهما بتجنيد الافراد المدعوين الى الخدمة فى الجيش الاحمر .

نتيجة لاتحاد الجمهوريات السوفييتية عسكريا ، الغيت الهيئات المستقلة للادارة العسكرية . واستدعى بودفويسكى الى موسكو وعين رئيسا للادارة الرئيسية للمؤسسات الدراسية العسكرية . وقد اراد الاستمرار بالتعاون مع شابوشنيكوف فى هذه الصفة الجديدة ايضا . ولكن اركان الميدان لم تنس موظفها ذا النشاط الخارق والتبحر الشامل . وطلب الرئيس الجديد لاركان الميدان بافيل ليبيديف عودة شابوشنيكوف الى منصبه السابق رئيسا للمخابرات .

كانت تلك الفترة من احرج الفترات فى حياة الجمهورية السوفييتية الفتية . وانتقل مركز ثقل الصراع حينذاك من الشرق الى الجنوب ، حيث احتشد ما يسمى «القوات المسلحة لجنوب روسيا» تحت قيادة دينيكين . وكان يجب ان تاتى لمساعدتها قوات الجنرال ميلير من الشمال ، والجنرال يودينيتش من الشمال الغربى ، وبولندا البرجوازية - الاقطاعية من الغرب ، والاميرال كولتشاك من الشرق .

فى خلال الربيع وبداية الصيف عام ١٩١٩ تسنى للعدو ان يحتل المناطق الخصبة فى شمال القفقاس واوكرانيا ، والمراكز الهامة للوقود والميتالورجيا فى جنوب روسيا . وقد اخذت الجبهة شكل قوس عملاق

احد طرفيه غربى الفولغا ، وجهة بحر قزوين ، وطرفه الاخر شرقى خيرسون ، وجهة البحر الاسود .

فى ٣ تموز (يوليو) عام ١٩١٩ ، بعد الاستيلاء على تساريتسين وقع دينيكين ما يسمى «أمر موسكو» ، وبناء عليه شرعت جيوشه المسلحة على نحو رائع ، والتى تضم ١٠٠ الف شخص واكثر من ٤٠٠ مدفع ، فى الهجوم على العاصمة بثلاثة اتجاهات اساسية . وواجهتها قوات الجبهة الجنوبية السوفييتية التى اضعفتها وانهكتها المعارك السابقة ، والتى لم تكن تضم سوى ٨٦ الفا من المشاة والخيالة .

واذ استخدمت جيوش الحرس الابيض تفوقها العددى والمادى ، امتدت كاخطبوط هائل الى الشمال ، متحركة صوب موسكو ، قلب الجمهورية السوفييتية . وشكل هجومها خطرا كبيرا على بلاد السوفييت . واصبحت الجبهة الجنوبية الجبهة الرئيسية ، الحاسمة للحرب الاهلية . وكان واضحا ان اعداء السلطة السوفييتية قرروا هنا بالذات خوض معركة شاملة ضدها .

فى ذلك الوضع الصعب وجهت كل جهود الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية ، وكل جبروت دكتاتورية البروليتاريا نحو تحطيم المتدخلين والحرس الابيض ، ولا سيما جحافل دينيكين . وجرت تحت قيادة الحزب والحكومة السوفييتية تعبئة كل القوى والموارد لتحطيم العدو . وادى بوريس شابوشنيكوف ايضا قسطه الشخصى فى هذا العمل الشاق والنبيل .

عندما اتى شابوشنيكوف الى اركان الميدان كانت قوى الجبهة الجنوبية قد تكاثرت . وتحسن تزويدها بالاسلحة والذخائر . وفى اواخر تموز (يوليو) عام ١٩١٩ كان فى الجبهة ١٦٥ الفا من المشاة والخيالة ، و٣ آلاف رشاش ، و٦١١ مدفعا . ونمت الامكانات القتالية للجبهة ، وصارت قواتها متفوقة على العدو باكثر من ٤٠ الف من المشاة . بيد ان سلاح الفرسان السوفييتى كان متخلفا عما لدى العدو ، مما اعطاه افضلية كبيرة فى الحركة والمناورة .

فى مستهل تموز (يوليو) ١٩١٩ ، قبل التحاق شابوشنيكوف باركان الميدان ، تلقت القيادة العامة للجيش الاحمر توجيها من لجنة الحزب المركزية باعداد خطة للعمليات القتالية ضد جيوش

دينيكين . ومن بين كل المشاريع المقترحة ، كانت الخطة التى وضعتها اركان الميدان تحت اشراف القائد العام كامينيف اكثر ملاءمة للوضع السياسى والستراتيجى الذى تكون حتى ذلك الحين فى البلاد عموما ، لا فى الجنوب فحسب . وساهم فى وضع الخطة قائد الجبهة الجنوبية ييغورييف واركانه . وقد انعكست فى هذه الخطة المبادئ الاساسية والتجربة المكدسة للفن العسكرى السوفييتى . واقرت اللجنة المركزية الخطة . بيد انه لم يتسن الشروع فى تنفيذها بالسرعة التى يتطلبها الموقف .

لم يبدأ الهجوم المضاد لقوات الجبهة الجنوبية الا فى ١٥ آب (اغسطس) واستمر قرابة الشهر . ولم يتكلل بالنجاح الكامل ، رغم ان العدو تكبد خسائر كبيرة . وكانت هناك عدة اسباب بينها ان قيادة الحرس الابيض علمت بنياتنا من خلال عملائها واتخذت اجراءات مضادة . اما مخابراتنا فلم تكن بعد فى المستوى المطلوب دائما ، وكان لا بد لشابوشنيكوف ان ينظمها فى اقصر وقت .

ان قيادة الحرس الابيض ، وقد صدت هجوم القوات السوفييتية ، اكتسبت زمام المبادرة من جديد .

فى ١٢ ايلول (سبتمبر) اصدر دينيكين امرا بالانتقال الى الهجوم العام . وفى خلاله تسنى لخيالة العدو التغلغل بين الجناحين الداخليين لجيشينا الثامن والتاسع واحتلال فورونيج . واعتبرت البرجوازية ان الاستيلاء على موسكو بعد هذا وسقوط سلطة العمال والفلاحين امر قد حسم . ان العدو لم يصبح منذ بداية الحرب الاهلية على هذه المقربة من عاصمة الدولة السوفييتية ، موسكو ، كما اصبح فى خريف عام ١٩١٩ . وتطلب الامر اعظم الجهود لتحطيم القوى الموحدة للامبريالية العالمية . ان الاجتماع الكامل للجنة الحزب المركزية الذى عقد فى ٢١ و٢٦ ايلول ، وقد استمع الى تقرير القائد العام كامينيف حول الوضع الناشئ فى الجبهة الجنوبية بعد سقوط كورسك ، اتخذ جملة من القرارات الهامة لتنظيم صد جيوش دينيكين .

بدأ نشاط شابوشنيكوف فى اركان الميدان قبل هذه اللحظة المتأزمة للغاية بامد قصير . وقد ساهم فى اعداد تقرير القائد العام كامينيف الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا بمناسبة التهديد المباشر لتولا وموسكو . ان اللجنة المركزية ، وقد

نظرت فى اقتراحات القائد العام ، قررت اتخاذ كل الاجراءات لتدعيم القوات فى اتجاه كورسك – اوريول ، مع عدم اضعاف قطاع تساريتسين ، حيث يجب وفق خطة اقرت سابقا توجيه الضربة الرئيسية الى العدو . ووافق الاجتماع على اقتراح القائد العام ، المعلل بجهود مشتركة من كامينيف وليبيديف وشابوشنيكوف ، حول ارسال اكبر عدد اضافى ممكن من افضل تشكيلات القوات الى قطاع الجبهة الجنوبية ، ومن بينها فيلق بوديونى للخيالة من اجل تغطية تماس الجيشين الثامن والتاسع ، وفرقة مارتوسيفيتش اللاتفية للمشاة ، ولواء بريماكوف لفرسان القوزاق الحمر ، ولواء بافلوف للمشاة .

وهكذا ، فان اجتماع ايلول للجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا رسم برنامجا مدروسا من وجهتى النظر العسكرية والسياسية على حد سواء للنضال ضد دينيكين . وتجلى هذا باوضح ما يكون فى مقالة لينين «مثال عمال بتروغراد» التى نشرت فى ٣ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٩ . وقد اشار لينين ، الى انه على «الرغم من نشوء وضع خطير للغاية ،لا ينبغى الانصياع للذعر وتغيير الخطة المتخذة سابقا . بل على العكس ، من الضرورى اعطاء قوى اضافية بمزيد من السرعة» . ثم كتب لينين فى هذه المقالة ، وهو يقصد اتجاه كورسك – اوريول للجبهة الجنوبية : «يعول الدينيكينيون على اثارة الذعر فى صفوفنا وارغامنا على التفكير فى الدفاع فقط ، فى هذا الاتجاه فقط . . . ان الاذاعات الاجنبية تزعق على مسمع من العالم بأسره حول الطريق المفتوح الى موسكو . هكذا يريد الراسماليون اخافتنا . ولكن لن تتسنى لهم اخافتنا . فقواتنا موزعة وفق خطة مدروسة تنفذ بصرامة . وهجومنا على المصدر الرئيسى لقوى العدو مستمر باطراد» . وبهذا اعطى زعيم الثورة دعما صلبا لخطة العمليات الستراتيجية التى وضعها القائد العام واركان الميدان .

بتوصية من الاجتماع الكامل للجنة المركزية فى ايلول (سبتمبر) عززت قيادة الجبهة الجنوبية . فقد تسلم ييغوروف منصب قائد الجبهة ، واصبح ستالين عضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا ومجلس الدفاع عضوا فى مجلس الجبهة العسكرى الثورى ، وصار بيتين رئيسا للاركان . وبعد

الاجتماع الكامل بذل القائد العام كل ما فى وسعه لتقوية اركانه . وساعد على هذا تعيين شابوشنيكوف فى تشرين الاول رئيسا لادارة العمليات لاركان الميدان .

اعتقد ان لا بد هنا من الحديث بمزيد من التفصيل عن اركان الميدان وتاريخها ومهماتها واسلوب نشاطها . كان القسم الرئيسى فى اركان الميدان هو ادارة العمليات التى كانت تتركز فيها اكثر المعطيات جوهرية عن حالة كل القوات المسلحة فى الجمهورية ونشاطها القتالى وتعالج المسائل المرتبطة باجراء العمليات القتالية فى جبهات الحرب الاهلية . وكانت الادارة مكونة من شعب : شعبتى العمليات والمخابرات والشعب البحرية والطوبوغرافية والادارية .

بلغ العدد الاجمالى للعاملين فى الادارة ٣٦ شخصا وكان ١٦ منهم من بين الاختصاصيين العسكريين ، اى الضباط السابقين فى الجيش القديم الذين التحقوا طوعا بصفوف الجيش الاحمر العمالى الفلاحى وعندهم تحصيل عسكرى عال او تجربة قتالية كبيرة . وقد شكلت شعبتا العمليات والمخابرات بعناية خاصة . وكان العاملون المحنكون من الضباط السابقين فى الاركان العامة يشغلون مناصب مسؤولة فيهما . وكانت الدراسة المفصلة والمتواصلة للوضع على كل الجبهات وتثبيته فى الخريطة يشغلان حيزا اساسيا فى عمل شعبة العمليات . ولهذا الهدف الحق بكل جبهة (جيش) ضابط «مرشد» ينفذ هذا العمل . وكان مسؤولا عن الخريطة التى تعكس بدقة وضع القوات وفق المعطيات الواردة من اركان كل جبهة على شكل تقارير عاجلة ونشرات عن العمليات والاستخبارات .

ان ميخايلوف ، اول رئيس لادارة العمليات ، لم تكن عنده خريطة خاصة ، بل استخدم خرائط «المرشدين» . وقد اخذ شابوشنيكوف فورا يعين على خريطته الوضع فى الجبهات كل يوم .

كانت اركان الميدان ابان عمل شابوشنيكوف فيها تقع فى مبنى مدرسة الكساندر العسكرية سابقا . وكانت التقارير عن العمليات تقدم الى القائد العام مرتين فى اليوم ، فى الساعة الثانية عشرة وفى الساعة الرابعة والعشرين فى مكتب رئيس الاركان ليبيديف . وكان يحضر فى غضون ذلك عضو او عضوان فى المجلس العسكرى الثورى ورئيس الاركان ومفوضه ورئيس ادارة العمليات مع مفوض ورئيسا شعبتى العمليات والمخابرات ، اى كان يجتمع ما بين ١٠ اشخاص و١٢

شخصا . والتقارير كان يقدمها «المرشدون» الذين يأتون ومعهم خرائطهم والتقارير الواردة من اركان كل جبهة . وبعد ذلك كان القائد العام يقدم الكلمة عادة الى كل من يرغب فى الاعراب عن رأيه فى الوضع الناشئ فى الجبهة . وكان شابوشنيكوف يتحدث اكثر من الجميع بلا حرج من الا يتفق رأيه احيانا مع رأى رئيس الاركان او القائد العام . وكان القائد العام يستعرض النتيجة . واذا ظهرت فى خلال ذلك ضرورة فى توجيه امر الى الجبهة اوعز على الفور لكل بما ينبغى ان يكتبه ، ولم يكن من النادر ان يملى بنفسه على ليبيديف او شابوشنيكوف نص الامر لنقله بالتلغراف . كانت التقارير النهارية تجرى بسرعة عادة ، اما الليلية فكانت تستمر دائما حتى الساعة الثانية او حتى الخامسة صباحا . ومرد هذا الى انه كانت تتجمع حتى الليل مادة اغنى للتقرير .

توصل كامينيف وليبيديف الى اتفاق تام فى العمل منذ ان كانا فى الجبهة الشرقية . وما لبث بوريس شابوشنيكوف ايضا ان اصبح بالنسبة الى القائد العام مستشارا لا يقل اهمية عن رئيس الاركان .

للاطلاع على الوضع ميدانيا وللاحاديث الشخصية مع قادة قوات الجبهات ورؤساء اركانها كان القائد العام يقوم بجولات الى اركان الجبهات ، ولاسيما برفقة ليبيديف وشابوشنيكوف . وكانت هناك عدة جولات كهذه : واحدة الى شورين فى الجبهة الجنوبية الشرقية ، واثنتان الى بيغوروف فى الجبهة الجنوبية ، وواحدة الى توخاتشيفسكى فى الجبهة الغربية ، وواحدة الى فرونزه فى جبهة النضال ضد فرانغيل . وكان من الصعب فى الجولات اقامة صلة دائمة بكل الجبهات . وتلك كانت مهمة شابوشنيكوف . وكان ينفذها بكل ما يتسم به من مسؤولية .

بدأ عمل شابوشنيكوف ، حينما باشر منصبه الجديد رسميا ، بالاعداد العاجل لمشروع توجيه القائد العام حول الاعمال اللاحقة للجبهة الجنوبية . وقد انجز عدة ايام بلياليها من العمل المتواصل ، ووقع بتاريخ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) . ولم توضع فيه امام الجبهة الجنوبية المهمات القتالية فحسب ، بل اشير ايضا الى وسائل خوض الاعمال القتالية ومختلف اشكال المناورة الميدانية والتكتيكية . جاء فى التوجيه : «اطلب بشكل قطعى من قادة الجيوش ومن رئيس المجموعة الضاربة لدى تنفيذ المهمات المطروحة عدم التحرك

بخطوط ، بل توجيه ضربات جانبية بقوى مركـــزة الى قوى العدو الرئيسية العاملة فى اهم الاتجاهات ، لانه لا يمكن تحقيق النجاح الا بالمناورة . الفت الانتباه بشكل خاص الى ضرورة استخدام الخيالة لتوجيه الضربات الى جانب العدو ومؤخرته ، مع حشدهم فى تشكيلات ضخمة فى الجوانب وضمان نقاط التماس على هذا النحو» .

وكذلك يشرح التوجيه بوضوح كيفية استخدام الاحتياطيات المسلمة الى الجبهة الجنوبية ، ويشير الى انها ليست مخصصة من اجل الصد السلبى للعدو المندفع الى اوريول ، بل من اجل ضرب جوانبه بحزم . وقد ساعدت هذه الوثيقة قائد الجبهة الجنوبية المعين حديثا على ان يخطط اعمال قواته بصورة هادفة .

كان على رئيس ادارة العمليات وكل مرؤوسيه ان يعملوا باذلين اقصى قواهم لدى تنفيذ توجيه القائد العام بتاريخ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، لان الوضع تطور بسرعة وعلى نحو متناقض . وكان العمل المتفانى ، المتسم بالمبادرة فى ظل الاستخدام الانتقادى للتجربة المكتسبة سابقا هو وحده الذى يستطيع ان يضمن رد القائد العام فى الوقت المناسب على الوضع المتغير بسرعة .

بدأت المجموعة الضاربة للجبهة الجنوبية الهجوم المضاد فى ١١ تشرين الاول (اكتوبر) . وقد اندفعت نحو جانـــب قوات دينيكين المتحركة الى موسكو .

فى اواسط تشرين الاول (اكتوبر) نشبت فى منطقة مدينتى اوريول وكرومى معركة ضارية بين قوات المجموعة الضاربة والجيشين الثالث عشر والرابع عشر من جهة وجيش دينيكين من الجهة الاخرى . وفى ذلك الوضع ، حينما كانت المجموعـة الضاربـــة تتحـرك فى اتجاه مالو-ارخانغيلسك وفاتيج ، الحق العدو الهزيمة بوحدات الجيش الثالث عشر ، فاستولى على كرومى ودخل اوريـول فى ١٣ تشريـــن الاول (اكتوبر) . بدا وكأنما انهارت كل الخطة التى درست مسبقا بصورة جيدة . ولكن واقع ان ادارة العمليات ابقت بانتباه امام ناظرى القائد العام كل دقائق الموقف المعقد مكن ، الى جانب العوامل الاخرى ، طبعا ، من الخروج من هذا الوضع الذى كان يبدو فاجعا للوهلة الاولى ، بل والاستفادة منه ايضا . واقترحت اركان الميدان بمساهمة شابوشنيكوف مناورة سريعة وماهرة بقوات الجيشين الثالث عشر والرابع عشر والمجموعة الضاربة .

وبالنتيجة طوقت قواتنا تجمع العدو فى اوريول من الشمـــال والغرب والجنوب الغربى وحطمته وفى ٢٠ تشرين الاول (اكتوبـر) حررت اوريول .

ومن المميز ان شابوشنيكوف وزملاءه استخدموا بمهارة امـرا صادرا عن الجنرال دروزدوف يتحدث عن نيـــة العدو توجيـــه ضربة مركزة الى المجموعة الضاربة لتطويقها وابادتها ، واقترحوا على القيادة ، التى تخضع لها المجموعة الضاربة ، توجيه ضربة سباقة .

ونجحت المناورة . وحطمت فرقة دروزدوف . حينما كنت اكتب هذه السطور تذكرت عن غير قصد وضعا مماثلا نشأ فى تشريـــن الثانى (نوفمبر) عام ١٩٤١ قرب روستوف . حينذاك تسنى للعدو ايضا فى خلال العملية الهجومية التى بدأتها قوات جبهتنا الجنوبية ان يستولى فى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) على روستوف ، ولكن الهتلريين وجدوا انفسهم فى مصيدة ، وفى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبـر) جروا انفسهم من المدينة بصعوبة متكبدين خسائر كبيرة تحت تهديـــد التطويق .

ولكن لنعد الى احداث الخريف العاصف لعام ١٩١٩ . فى خـلال عملية اوريول – كرومى تحطمت خيرة تشكيلات جيش دينيكين . وفقد العدو المبادرة فى الاتجاه الحاسم واضطر الى التراجع . وفى الفترة نفسها وجهت قوات الجبهة الجنوبية فى منطقة فورونيج ضربة ساحقة ثانية الى الدينيكينيين . فقد اجبر فيلق بوديونى بعد المعارك المتوترة خيالة شكورو ومامونتوف على التراجع الى الضفة الغربية لنهـــر فورونيـــج ، واذ طور النجاح الذى تحقق ، حرر فورونيج فى ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) بالتعاون مع قوات الجيش الثامن .

ان الاحداث التى جرت فى القطاع الاوسط للجبهة الجنوبية بينت بوضوح الاهمية المتعاظمـة لهذا الاتجـاه فى نضال الجمهوريـــة السوفييتية ضد دينيكين . وان قسم العمليات لاركان الميدان ، وقد حلل بعمق بلاغات الجبهة الجنوبية وتقارير مخابراتها ، علـل هذا الواقع بشمول . وقد ابلغ القائد العام اللجنة المركزيـة للحزب الشيوعى بتصوراته ، فاتخذ المكتب السياسى فى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) قرارات هامة حول التعزيز اللاحق للجبهة الجنوبية . وتلقت الجبهة الجنوبية الشرقية مهمة الانتقال موقتا الى الدفاع وتخصيص جزء من القوات لحماية تولا وموسكو .

اكد مجرى الاحداث تماما عمق صواب هذه القرارات . اذ تحركت قوات الجيشين الثالث عشر والرابع عشر نحو كورسك ، محطمة مقاومة العدو العنيدة . وعبر فرسان بوديونى الدون بالتعاون مع وحدات الجيش الثامن ، والحقوا هزيمة ساحقة جديدة بفيلقى شكورو ومامونتوف قرب كاستورنايا واستولوا فى ١٥ تشرين الثانى (نوفمبر) على عقدة الخطوط الحديدية الهامة هذه .

وفى ١٧ تشرين الثانى (نوفمبر) تم تحرير كورسك نتيجة الاعمال القتالية الناجحة لقوات الجيشين الثالث عشر والرابع عشر .

وهكذا ، الحقت الجبهة الجنوبية من ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) الى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٩ هزيمة قاسية بجيش دينيكين ، وابادت تجمع البيض الضارب الذى كان متقدما نحو موسكو ، واستولت على المبادرة الستراتيجية بثبات . وتحققت تماما الاهداف التى وضعتها القيادة السوفييتية لفترة الهجوم المضاد . ونشأت ظروف مواتية لهجوم قواتنا العام على قوات دينيكين .

فى الفترة التى كانت تخوض فيها الجبهة الجنوبية معارك شديدة ضد دينيكين ، صدت قوات الجيش السابع هجوما جديدا لقوات الحرس الابيض التابعة للجنرال يودينيتش على بتروغراد ، ثم حطمتها تماما بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر .

فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٩ وصلت قوات الجبهة الجنوبية الى خط جيتومير ، شمالى كييف ، باخماتش ، لغوف ، كورسك ، ليسكى وتلقت مهمة ان تتعقب بلا توقف العدو المتراجع الى الجنوب .

بدا ان الوضع فى الجبهات لم يعد متأزما . ولكن توتر عمل اركان الميدان لم ينحسر . فقد ظهر فى الافق عدوان جديدان : بولندا البرجوازية-الاقطاعية والبارون فرانغيل . وما ان ارتسم خطر الاصطدام ببولندا حتى شرعت اركان الميدان فى اعداد وثائق العمليات المرتبطة بمسرح الحرب الجديد . قال كامينيف فيما بعد :

«ولدت خطة عمليات الحملة ضد بولندا البيضاء . . . فى مخاض طويل . وهذه الخطة سبقتها دراسة احتمالات الاتجاهين الجنوبى والشمالى . وقد عرضت هذه الاحتمالات على فلاديمير ايليتش لينين . وقدم ليبيديف رئيس الاركان التقرير فى مكتب لينين بحضور الرفيق سكلانسكى وحضورى . واهتم لينين بالتفاصيل . وعرضت بتفصيل

خاص حالة الخطوط الحديدية . وهنا عرض احتمال ارسال جيش الرفيق بوديونى الاول للخيالة من شمال القفقاس الى ضفة الدنيبر اليمنى والمهمة العابرة الملقاة على عاتق هذا الجيش لتصفية عصابات ماخنو» .

جرت معالجة الاحتمالين فى ادارة العمليات لاركان الميدان بمساهمة مباشرة من رئيسها شابوشنيكوف الذى صرف على هذه الوثائق الكثير من الجهد ، مستخدما التجربة القتالية الضخمة ومعرفة مسرح الحرب والتحليل الدقيق لامكانات النقل .

وبالمناسبة ، فقد امر كامينيف فى خلال الحرب ضد البولنديين البيض ان يعرض كل يوم على لينين خريطة تبين نتائج التحركات اليومية لوحدات الجيش الاحمر . وهذه الخريطة كان يعدها شابوشنيكوف . فى مستهل نيسان كانت اركان الميدان قد وضعت مشروع توجيه حول الاجراءات التمهيدية للاستعداد للحملة الجديدة . وفى ٨ نيسان (ابريل) وقعها القائد العام وارسلت الى المنفذين . وفيها حذرت القيادة العامة للجيش الاحمر قائدى الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية من امكان قيام القوات البولندية باعمال هجومية حاسمة فى الايام القريبة القادمة . جاء فى التوجيه : «من الضرورى ان نكون على اتم استعداد لاستقبال هذا الهجوم . يجب ان تجمع الوحدات وان تكون على استعداد قتالى كامل لمناورة مضادة فورية» .

وبين تطور الاحداث اللاحقة ان الاجراءات المتخذة قد اتت فى حينها تماما . فى ١٧ نيسان (ابريل) اصدر بيلسودسكى امرا ببدء الهجوم فى ٢٥ نيسان (ابريل) . وحدد فيه ترتيب القوات ومهماتها . وزاد فى صعوبة صد ضربات البولنديين البيض واقع ان اغلبية القوات المخصصة لدعم دفاع الجمهورية فى الغرب كانت موجودة على بعد آلاف الكيلومترات ولم يكن فى الوسع بسبب دمار الخطوط الحديدية نقلها فى الوقت المناسب لمجابهة العدو الجديد . وكان هذا ينطبق ، مثلا ، على جيش الخيالة الاول .

ان تفوق العدو الكبير فى القوى ادى الى نجاحه اول الامر .

من بين الجبهتين المدعوتين الى صد عدوان العسكريين البولنديين ، وجه الاهتمام الرئيسى الى تدعيم الجبهة الغربية التى تغطى اتجاه العمليات الاساسى المؤدى الى موسكو . مع العلم ان اركان الميدان اعتبرت اول الامر ان العدو سوف يوجه الضربة

الرئيسية هناك بالذات ، لا فى اوكرانيا . وفى هذا الصدد نوه شابوشنيكوف رئيس ادارة العمليات لاركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى بان عمليات البولنديين الى الجنوب من بوليسييه ستنحصر على الارجح فى حماية فولين وغاليتسيا . ولكن لم يتسن حتى بداية ايار (مايو) نقل سوى ثلاث فرق للمشاة كل واحدة منها مكونة من لوائين الى الجبهة الغربية ، ولم يرسل الى القطاع البولندى للجبهة الجنوبية الغربية الا فرقة مشاة واحدة . ولكن حتى هذه القوات السوفييتية القليلة التعداد انهكت العدو فى معارك عنيدة ، بالاعتماد على المؤخرة ، وكانت تنتقل بجرأة الى هجمات مضادة . واذ تراجعت فى اتجاهين متفرقين الى كييف واوديسا ، ارغمت العدو على تشتيت قواه فى جبهة واسعة وتطويل طرق المواصلات .

فى ٢٨ نيسان (ابريل) اقر المكتب السياسى للجنة المركزية الخطة الستراتيجية لخوض الحرب التى وضعتها اركان الميدان تحت اشراف القائد العام . ونصت الخطة على توجيه الضربة الرئيسية بقوى الجبهة الغربية شمالى بوليسييه ، والضربة المساعدة على الجبهة الجنوبية الغربية فى الاتجاه العام الى بريست مع التعاون الواضح بين الجبهتين . فى هذا التوجيه الى جيش الخيالة الاول ، الذى ادرج فى بنية الجبهة الجنوبية الغربية ، والذى كان مدعوا الى ان يصبح قوتها الضاربة الرئيسية فى الهجوم المضاد المقبل ، اشير الى ان «تحرك الجبهة البولندية الى الشرق ، نحو كييف ، امر مفيد بالنسبة الينا ، لانه يؤدى لا محالة الى مط الجانب الايمن للبولنديين ويجعله معلقا فى الجو» .

وهذا التنبؤ برهن على صوابه تماما .

فى خلال المعارك كانت ادارة العمليات تتبع تطور الوضع باستمرار وتعلم القائد العام فى الوقت المناسب بكل ما له طابع مبدئى . وبفضل هذا استطاعت القيادة العامة فى اغلب الحالات تقديم المساعدة الى الجبهات فى الوقت المناسب . وهكذا ، قدم كاميئيف القائد العام فى ١٢ ايار (مايو) الى خاركوف ، حيث تقع اركان الجبهة الجنوبية الغربية بهدف تنظيم التخطيط والاستعداد للهجوم المضاد لقوات الجبهة الجنوبية الغربية فى اوكرانيا . وكان معه غوسيف عضو مجلس الجمهورية العسكرى الثورى وشابوشنيكوف رئيس ادارة العمليات . ان شابوشنيكوف ، وقد حلل معطيات المخابرات ، استنتج

ان الدفاع بين تجمعى العدو فى كييف واوديسا يتصف بطابع بؤر . واخذ هذا فى الاعتبار لدى وضع الخطة . وتقرر القيام بضربة قوية قاصمة بين جانبى الجيشين البولنديين بهدف تطويق وابادة الجيش البولندى الثالث ، الاقوى فى منطقة كييف بعد ذلك . وهذا ما ضمن تحطيم المحتلين فى اوكرانيا رغم تفوقهم مرة ونصف المرة فى القوى والمعدات . وفى غضون ذلك اخذت فى الاعتبار الروح المعنوية العالية للمحاربين السوفييت ، وكذلك القوة الضاربة لجيش الخيالة الاول وقدرته على المناورة .

ولكن اتضح فيما بعد انه من الضرورى ان تقدم اركان الميدان والقائد العام مساعدة يومية لتنفيذ هذه الخطة . واكتشفت نواقص فى قيادة القوات . وفى ٢٨ ايار (مايو) ابرق كاميئيف القائد العام الى قيادة الجبهة الجنوبية الغربية : «اعتبر الهجمات المباشرة للجيش الثانى عشر على رأس الجسر فى كييف غير صحيحة . يجب ان يقرر مصير كييف بمناورات التفافية مع اقل هدر فى القوى .

وفى ٢ حزيران (يونيو) طلبت القيادة العامة من جيش بوديونى للخيالة القيام باحزم الاعمال وانشطها من اجل الاختراق النهائى لوسط العدو وضرب مؤخرة مجموعته فى كييف . واشير الى انه لا ينبغى باى شكل من الاشكال ان يكون محاذيا لوحدات المشاة المجاورة .

وكان القائد العام يقدم تقاريره الى لينين حول اهم الامور ، كالحالة التى اوردناها اعلاه . فقد ابرق لينين مثلا ، فى ٢ حزيران (يونيو) الى ستالين عضو مجلس الجبهة العسكرى الثورى : «حاولوا دفع الوحدات وحاولوا مهما كلف الامر متابعة الهجوم ، الذى بدا لتوه ، بمزيد من النشاط» .

كان لهذه المطالب الملحة مفعولها الايجابى . وانجز الهجوم المضاد للجبهة الجنوبية الغربية بنجاح . وهذا ما وفر المقدمات الضرورية ليوجه الجيش الاحمر ضربته فى الاتجاه الستراتيجى الرئيسى . جاء فى امر القيادة العامة الى قيادة الجبهة الجنوبية الغربية بتاريخ ٢٩ حزيران (يونيو) الذى وضع مشروعه ، كالعادة ، تحت اشراف شابوشنيكوف : «يستطيع الرفيق توخاتشيفسكى مباشرة حل المسالة بعد اسبوع تقريبا ، ولهذا فان نجاحاتكم فى الايام الاخيرة قيمة وضرورية بشكل خاص فى الوضع العام للجبهة البولندية كلها ،

وان عليكم ، على الرغم من التعب الاكيد لوحدات الجبهة ، ان تتابعوا مهما كلف الامر تطوير النجاحات المتحققة بهدف عدم اعطاء البولنديين دقيقة واحدة ليلتقطوا انفاسهم ، واجبارهم على سحب جزء من القوات التى تواجه توخاتشيفسكى» .

وبتوجيهات من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ولينين بحثت اركان الميدان عن الاحتياطيات وخططت لحشدها ، فاستطاعت القيادة العامة ان ترسل لتعزيز قوات الجبهة الغربية ٨ فرق للمشاة و٤ الوية للمشاة ولواء للفرسان . وفى حزيران (يونيو) تلقت الجبهة اكثر من ٥٨ الف شخص من الاحتياطى والكمية الضرورية من الذخائر والملابس والاغذية .

لا مبرر للكتابة هنا عن كل تشابكات الحرب مع بولندا ، فقد القيت عليها اضواء كافية . وانتهت الحرب فى نهاية المطاف بانتصار الجمهورية السوفييتية ، كما هو معروف . وانتهاء المعارك ضد البولنديين البيض وفر امكان حشد كل القوى لتحطيم عصابات «البارون الاسود» فرانغيل .

ينبغى القول ان اهتمام القائد العام واركان الميدان كان كله منصبا على الجبهة البولندية بحيث لم يستطيعا ضمان دفاع متين بما فيه الكفاية لذلك القطاع من الجبهة الجنوبية الغربية الذى كان هدفا لفرانغيل .

كان ثمة دور هنا لتضليل الحكومة الانكليزية التى اعلنت رغبتها فى التسوية السلمية لمسالة المصير اللاحق لفلول الجيش الابيض .

فى هذا الصدد قدم شابوشنيكوف الى القيادة تقريرا عن نتائج استجواب احد مساعدى فرانغيل ، وهو الجنرال ريفيشين الذى كان قد وقع فى الاسر . وعلى اساس هذا التقرير قال كامينيف وكورسكى (المفوض العسكرى لجبهة الميدان) وليبيديف فى مذكرة الى تشيتشيرين : «وفى غضون ذلك ، اذ اعاد فرانغيل تنظيم فلول قواه ، استعد ، بلا شك ، للانتقال الى الهجوم ، وذلك بمعرفة وموافقة الحكومة الانكليزية . ان اعترافات رئيس فرقة كوبان الثالثة الجنرال ريفيشين الذى وقع فى الاسر تؤكد تماما ان عمليات جيش فرانغيل لم تحظ باستحسان الحكومة الانكليزية فحسب ، بل هى التى قامت باعدادها . وهكذا ، فان اعمال الدبلوماسية الانكليزية ، اذ اعطتنا الثقة الى درجة معينة بعقد هدنة ، جعلتنا نغفل فرصا مواتية لمهاجمة

العدو ، ولهذا استقبلنا هجومه فى وضع لم يكن مواتيا لنا فى البداية» .

ان المعلومات التى اعطاها ريفيشين ، الى جانب المعطيات الاخرى للمخابرات ساعدت شابوشنيكوف على اعداد جدول مقارن لميزان قوى الجانبين فى منطقة اعمال الجبهة الجنوبية . وساعد هذا الجدول بشكل جوهرى لدى وضع خطة تحطيم فرانغيل . وقد اعدتها القيادة العامة وقيادة الجبهة الجنوبية تحت اشراف لينين مباشرة . وفى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) نظر لينين فى اقتراحات كامينيف . انه ، وقد وافق على الاستنتاج القائل بضرورة ارسال جزء كبير من الاحتياطيات المتوفرة والتى يجرى اعدادها فى البلاد للصراع فى الجنوب ، اوصى بان يستخدم كذلك ، بعد قيام الهدنة مع بولندا ، جزء من قوات وموارد الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية .

لقد اقر المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الوثيقة التى اقترحتها اركان الميدان ، والتى تحدد مكان الجبهات ودورها فى المرحلة النهائية من المعركة ضد الحملة المعادية للسوفييت ، وذلك مع مراعاة توصيات لينين .

ولتقديم مساعدة عملية الى قيادة الجبهة الجنوبية فى اعداد جانب الخطة العملياتى ذهب الى خاركوف كامينيف القائد العام وليبيديف رئيس اركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى وشابوشنيكوف الذى اعد مادة العمليات الضرورية .

حينذاك ، فى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٠ ، جرى لقاء مشهود بين شابوشنيكوف وفرونزه الذى استطاع ان يقدر تماما مواهب شابوشنيكوف فى ميدان الخدمة فى الاركان . وكان هذا بدوره معجبا بوضوح فكر ميخائيل فرونزه ومعارفه العميقة وموهبته التنظيمية وقناعته الفكرية المتقدة .

هذا التعارف فى ظروف الجبهة ، الذى يقرب بين الزملاء بسرعة خارقة ، اصبح فيما بعد اساس تعاونهما الوثيق فى عامى ١٩٢٤–١٩٢٥ ، حينما كان فرونزه رئيسا لاركان الجيش الاحمر ، وشابوشنيكوف مساعده الاول .

فى لحظة وصول كامينيف وليبيديف وشابوشنيكوف الى اركان الجبهة الجنوبية كانت قواتها قد صدت فى معارك عنيفة تحت قيادة فرونزه هجوم فرانغيل على الدونباس ، والحقت به هزيمة جدية فى

شمال تافريا . وصار ينبغى تحرير القرم . اطلع ميخائيل فرونزه على عمليات اركان مجلس الجمهورية العسكرى الثورى ، ووجدها قيمة جدا لما فيها من حيث تحليل قوى العدو وحجم ومواعيد حشد الاحتياطيات . واستمع الى راى كل الذين كانوا فى الاجتماع لتخطيط عملية بيريكوب – تشونغار . وقد حضره ، علاوة على القادمين من موسكو ، كل قادة جيوش الجبهة الجنوبية . اما خطة العملية ، التى تتسم باصالة الفكرة ، فاقترحها قائد الجبهة نفسه . وهى تنص على الجمع بين الضربتين المباشرة والجانبية ، وكذلك عبور مضيق سيفاش خوضا ، الامر الذى يعتبر مستحيلا فى اواخر الخريف ، مما صعق له العدو .

فى ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) قدم كامينيف من محطة ابوستولوفو هذا التقرير الى لينين : «حدد فى اجتماع قادة الجيوش موعد العملية ، ونسقت الاعمال» . وبعد عشرين يوما ونيف ابرق فرونزه الى لينين : «اليوم (١٦ تشرين الثانى – نوفمبر) تم الاستيلاء على كيرتش . صفيت الجبهة الجنوبية» .

وهكذا ، فان بوريس شابوشنيكوف ، اذ ادى قسطه فى العملية الختامية للحرب الاهلية ايضا ، اطلع اطلاعا مباشرا على الاسلوب القيادى المجدد لفرونزه ، مما خلف اثره فى كل النشاط اللاحق لشابوشنيكوف .

ومارس كذلك تاثيرا كبيرا فى تكونه كشخصية اركان كبيرة وقائد عسكرى ، كامينيف وليبيديف اللذان التقاهما شابوشنيكوف عن كثب فى فترة الخدمة فى اركان الميدان . وقد سلك الثلاثة دروبا فى الحياة متشابهة للغاية . اذ تخرجوا جميعا فى مدارس عسكرية متماثلة وفى اكاديمية الاركان العامة واجتازوا الحرب العالمية الاولى كلها فى مناصب متشابهة كذلك فى الاركان والقيادة ، واخيرا ، وقف الثلاثة جميعا بلا تردد الى جانب شعبهم بعد ثورة اكتوبر العظمى ، وكانوا يتمتعون بثقة لينين المطلقة مع كونهم غير حزبيين .

كان كامينيف وليبيديف قد عملا معا فى الجبهة الشرقية ، الاول بمثابة قائد ، والثانى كرئيس لاركان الجبهة . وابديا هناك ، ولاسيما كامينيف ، موهبة عسكرية فذة وقدرات تنظيمية كبيرة وجراة فى اتخاذ القرارات .

كان يتمتع بنفوذ كبير بالنسبة الى شابوشنيكوف عضو الحزب

من عام ١٨٩٦ سيرغى غوسيف ، عضو مجلس الجمهورية العسكرى الثورى ، مفوض اركان الميدان . هذا الثورى المحنك وذو الثقافة الماركسية الشاملة كان ، شان بودفويسكى ، ضليعا من الفن العسكرى . ان غوسيف ، وقد درس لوحده مؤلفات المنظرين العسكريين ، طور معارفه حينما عمل سنتين (١٩٠٩–١٩١١) مصححا مسؤولا للموسوعة العسكرية المتعددة المجلدات التى كانت تصدر حينذاك . والاحاديث المتكررة ، وان لم تكن طويلة لضيق الوقت ، التى كان يجريها غوسيف بطيبة خاطر اعطت شابوشنيكوف الكثير جدا من كل النواحى . واضطلع بدور كبير فى غضون ذلك واقع ان غوسيف كان يعرف لينين عن كثب على امتداد سنوات كثيرة منذ العمل المشترك فى اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة فى بطرسبورغ .

يشهد على الدور الكبير والفعال الذى اضطلع به شابوشنيكوف فى اركان الميدان اولئك الذين عملوا تحت امرته . اليكم ، مثلا ، ما يكتبه بانوف المقدم السابق فى الاركان العامة القيصرية الذى خدم منذ كانون الثانى (يناير) عام ١٩١٩ وحتى انتهاء الحرب الاهلية فى ادارة العمليات لاركان الميدان فى منصب مساعد رئيس شعبة العمليات ، ومن ثم فى منصب الرئيس .

«عين بوريس شابوشنيكوف اول الامر فى منصب رئيس شعبة المخابرات فى ادارة العمليات ، ولكن طاقته الجياشة وتغلغله العميق فى الاحداث على الجبهات ما لبثا ان اعطياه الدور الرئيسى عمليا بين كل العاملين المسؤولين الاخرين فى الادارة . ولم يكن هناك تقرير واحد الى القائد العام لم يعرب فيه شابوشنيكوف عن اقتراحات مبتكرة وجريئة لتنظيم تحطيم البيض . وانه لامر مفهوم ان يكلف فى اقصر فترة بادارة كل العمل العملياتى بمثابة رئيس للادارة .

كان محبا للمعشر الى اقصى حد ويبدى الاهتمام بكل مرؤوسيه بلا استثناء ويستطيع ان يجد فى كل من العاملين قدرات مفيدة للعمل ويدل على الطريق الى استخدامها على افضل وجه . وفى العمل كان هو نفسه افضل قدوة للجميع . وكان يبدو الا حدود لطاقته الجياشة . وعلى امتداد يوم العمل بأسره (هذا اليوم كان يمتد ما لا يقل عن ١٧–١٨ ساعة) كان شابوشنيكوف بمظهره النشيط على الدوام يحمل على عاتقه كل ما فى العمل العملياتى من مصاعب» .

اننى ، اذ اطلعت فى خلال العمل لكتابة هذه النبذة على وثائق الارشيف ، اقتنعت على نحو ملموس مرة اخرى بمدى العمل الجبار الذى انجزه بوريس شابوشنيكوف بين جدران اركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى . ان مشاريع خطط العمليات وتوجيهات القائد العام ، الاوامر القتالية ، الارشادات التنظيمية ، التوصيات حول تحركات وترتيب التشكيلات والوحدات ، جداول ميزان القوى ، خرائط الوضع القتالى ، المخططات ، الرسوم البيانية قد نفذها جميعا بيده ، وكانت تتسم بدقة واحكام خارقين وتشكل نموذجا حقيقيا لارفع ما يحتاجه العمل فى الاركان من ثقافة . وانه ليصعب تصديق ان كل هذا انجز فى احرج فترات الحرب الاهلية ، فى عجلة دائمة ، وبتوتر شديد فى ساعات الليل بصورة رئيسية .

ها هى اوراق اصفرت بفعل الزمن لتقرير حول عمليات الجيش الاحمر فى الفترة من ١ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٩ الى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٢٠ وضعه شابوشنيكوف لمؤتمر السوفييتات الثامن .

يكتب قائلا : «ان بداية الفترة التى يتحدث عنها التقرير داهمت الجيش الاحمر الذى يخوض بتوتر خارق صراعا على جبهة دائرية لا تنتهى . وفى الوقت الذى كنا فيه على الجبهة الشرقية وعلى الجانب الايمن للجبهة الغربية قريبين من جنى ثمار تحطيم كولتشاك ويودينيتش ، جرت على الجبهتين الجنوبية والجنوبية الشرقية احداث حاسمة حتمت تقرير مصير الصراع مع دينيكين ، اقوى ممثل للثورة المضادة الداخلية . . .

ماذا اعطتنا هذه السنة من النشاط القتالى المكثف ؟ . . قضينا فى كل الجبهات على الثورة المضادة الداخلية ، حيث حطمنا فى ميادين الحرب قوتها القتالية المنظمة . والحقت الهزيمة على التوالى بيودينيتش وكولتشاك وميلر ودينيكين ، وبفرانغيل اخيرا . . . لقد درأت انتصارات الجيش الاحمر تحرك بعض الدول ، وبهذا سهلت الوضع الستراتيجى العام . . . ونمت الاهمية الدولية لجمهورية روسيا بمثابة عامل سياسى ، بحيث اصبح الاتفاق معها حتميا بالنسبة الى وجود جيرانها بصورة مطمئنة ، اى ان الدول الراسمالية اعترفت بان وجود الجمهورية السوفييتية امر «قانونى» . وتحطيم اعداء روسيا السوفييتية اعطى دولتنا العمالية الفلاحية اراضى شاسعة جديدة ،

ضاما الى المركز الجاذب ثرواتها الطبيعية ووسائل الانتاج فيها . واعدنا توحيد ٨٩٦٥١٠٠ كيلومتر مربع من الاراضى يقطنها ٥٣٩٤٩٠٠٠ نسمة مع جمهورية روسيا الاتحادية من جديد . وحصلنا على امكان الانبعاث الاقتصادى» .

وجاء فى ختام هذا التقرير التاريخى : «على امتداد السنة المنصرمة من الصراع الدامى برهن جهاز الجيش الاحمر عن قوته الحيوية . ان الجيش الاحمر الجبار يجابه اعداءه بصورة اعنف مما فعل لسنة خلت ، مستعدا ليقاتل من اجل الانتصار النهائى لمصالح الطبقة العاملة فى العالم اجمع» .

ان القسط البارز الذى اداه شابوشنيكوف فى تحطيم الحرس الابيض والمتدخلين الاجانب كلل عن جدارة بتقليده وسام الراية الحمراء . وقد جاء فى الامر رقم ٢٤٤ بتاريخ ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢١ : «كان الرفيق شابوشنيكوف فى خلال نشاطه فى منصبه ذى المسؤولية العالية كرئيس لادارة العمليات لاركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى مشتغلا نشيطا فى كل عمل الادارة بدقائقه جميعا . وهذا المنصب ، الذى يطابق تماما من حيث مغزاه المنصب المستقل لرئيس اركان الجبهة ، شغله الرفيق شابوشنيكوف منذ الايام الاولى لنضال الجمهورية الدؤوب النشيط ضد اعدائها المحدقين بها وحتى الوقت الحاضر ، حيث انتهت تقريبا العمليات القتالية الجدية ضد العصابات ، فقام بما عرف عنه من مبادرة . . . بتحمل كل عبء هذه العمليات ، مشتغلا بتفان تام ليلا ونهارا» .

اعتقد ان دور اركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى ، الذى كان فيه بوريس شابوشنيكوف الشخص الثانى ، ليس واضحا تماما الى الآن بالنسبة الى جمهور القراء الواسع . وانتصاراتنا فى الحرب الاهلية تربط اكثر من اى شىء آخر بالغارات الجريئة لجيوش الخيالة والاعمال القتالية للوحدات والتشكيلات الحمراء المجيدة الاخرى . كل هذا لا جدال فيه ، ولكن الاغلبية الساحقة من هذه العمليات المظفرة كان يجرى التخطيط لها وتامينها ماديا من مركز واحد ، قدر ما كان ممكنا فى تلك الظروف . وكان اركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى هذا المركز . فمن

خلالها بالذات كان الحزب الشيوعى ولينين يمارسان قيادة قوات الجبهات العديدة والمبعثرة اقليميا .

ومن المستبعد ان يشك احد الآن فى الدور الجبار للاركان العامة فى سنوات الحرب الوطنية العظمى ، ولكن اركان الميدان كانت بالذات تلك الهيئة الستراتيجية التى ادت فى سنوات الحرب الاهلية وظائف الاركان العامة .

واعتقد ان شابوشنيكوف ، اذ عمل فى اركان الميدان لمجلس الجمهورية العسكرى الثورى بالذات ، اكتسب تلك التجربة القيمة التى مكنته من ان يصبح احد مؤسسى الاركان العامة السوفييتية ويعلل نظريا دورها ومغزاها فى الحرب .

يرتبط عمل شابوشنيكوف العلمى العسكرى بنشاطه العملى ارتباطا وثيقا . وقد مارسه دائما ، حتى فى خلال الحرب الاهلية ، ولكنه ازدهر ، بلا جدال ، فى سنوات ما بين الحربين .

كنت اقف دوما موقف الاهتمام الكبير من ابحاث شابوشنيكوف النظرية العسكرية والتاريخية العسكرية . واذ عكفت على كتابة هذه النبذة ، استعدت فى ذاكرتى المواضيع المتنوعة لمؤلفاته العلمية وحاولت ان استعرض تطور ابحاثه العلمية الابداعية .

بدا بوريس شابوشنيكوف العمل العلمى العسكرى بين جدران الاكاديمية القديمة للاركان العامة ، حيث كان يكلف بتقارير جدية . وكان يستعد لها باتقان ، ساعيا الى استيعاب كل المصادر المتوفرة ، وكان يضع المخططات والجداول بدقة ووضوح . وبالنتيجة كان يتلقى دوما التقدير العالى الذى يستحقه من اكثر اللجان صرامة .

واذ كان يخدم فى تشينستوخوف فى منصب رئيس شعبة العمليات لاركان فرقة الفرسان الرابعة عشرة ، تقدم فى اجتماع المنطقة لضباط الاركان العامة فى وارسو بتقرير رائع حول دور الخيالة فى حرب البلقان . ولم تكن هناك مراجع حول هذه المسالة باللغة الروسية ، فدرس الضابط الشاب كل ما كتب حول هذا الموضوع فى المراجع الاجنبية . وكان شابوشنيكوف يتقن ثلاث لغات اوربية غربية اساسية . وكان التقرير مفيدا جدا بحيث كلف النقيب شابوشنيكوف بقراءته فى كل حاميات المنطقة . ومن المميز ان هذه التجربة الاولى للبحث النظرى العسكرى كانت تنطوى على غير قليل من الافكار القيمة

حول استخدام الخيالة فى حرب المناورات ، وكانت حرب البلقان تعطى مسوغات معينة لهذا .

ان قدرة شابوشنيكوف الفذة على العمل وفرت له امكان دراسة القضايا النظرية العسكرية فى خلال الحرب الاهلية ايضا .

فى اعوام ١٩١٨–١٩٢٠ صدرت فى المجلات والمجموعات جملة مقالات لشابوشنيكوف مارست تاثيرا ايجابيا فى نمو المهارة المهنية للكوادر القيادية الشابة فى الجيش الاحمر . وشاطر شابوشنيكوف القراء بسخاء ملاحظاته حول اعمال الخيالة ، وكان قد جمع هذه الملاحظات فى سنوات الحرب العالمية الاولى التى اجتازها فى وحدات الفرق والجيش والجبهة . وتتحدث غالبية مؤلفاته عن مختلف اعمال الفرسان الفعالة ، بما فى ذلك تحشدهم وغاراتهم على مؤخرات العدو وتعاونهم مع المشاة . واود ان الفت الانتباه بشكل خاص الى ان مؤلفات شابوشنيكوف مارست تاثيرا جديا فى اتخاذ قرار حول تشكيل فيالق الفرسان ، ومن ثم جيوش الخيالة .

من الطبيعى ان يكتسب عمل شابوشنيكوف العلمى العسكرى مجالا ارحب فى سنوات السلم . كان الخيالة حينذاك لا يزالون قوة الجيش المناورة الاساسية ، فكتب شابوشنيكوف مؤلفه الضخم «الخيالة» . وقد حلل المؤلف بعمق وعمم تجربة اعمال الفرسان فى الحربين العالمية الاولى والاهلية . واصبح كتابه مرجعا لقادة الفرسان الذين كنت فى عدادهم زمنا طويلا . واثارت بعض الافكار فى هذا المؤلف نقاشا حيا ومثمرا للغاية على اعمدة الصحافة وفى اجتماعات ولقاءات السلك القيادى للخيالة الحمر . اتذكر ، مثلا ، كيف احتدمت فى لقاءات واجتماعات فرقتنا الخاصة القفقاسية للفرسان المناقشات فى صدد افكار للمؤلف ، مثل ضرورة وجدوى توحيد مجموعات الخيالة مع الوحدات والتشكيلات الميكانيكية .

وجرى الامر نفسه فى لينينغراد ايضا ، فى دورات تطوير سلك قيادة الفرسان ، حيث كان غيورغى جوكوف داعيا متحمسا بشكل خاص الى المبادئ الجديدة لاستخدام الفرسان فى القتال وجمعهم مع الوحدات الميكانيكية . وواقع ان مؤلف كتاب «الخيالة» لم يعط تجربة الحرب العالمية الاولى ، ولا الحرب الاهلية صفة الالزام كان مادة للتفكير والمناقشات . وطرح بلا الحاح موضوعة تقول بان خفة المناورة الملازمة للحرب الاهلية سوف تقترن فى الحرب المقبلة

بالتخندق الذى اتسمت به الحرب العالمية الاولى ، اما كثافة المعدات فستسبغ على العمليات القتالية خصائص جديدة نوعيا .

ينبغى القول ان العقد الاول الذى تلا الحرب الاهلية كان يتسم عموما بجيشان حى للفكر العسكرى الابداعى ، وانتشرت المناقشات والمجادلات على نطاق واسع ، وفى خلالها تبلورت المبادئ الاساسية لستراتيجيتنا الجديدة وفن العمليات .

نشبت مناقشات حادة ، مثلا ، فى صدد عمليات قواتنا ابان الحرب ضد بولندا البرجوازية-الاقطاعية . وجرى النقاش من حيث الاساس بين ممثلى الجبهتين اللتين ساهمتا فى الحملة ، الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية . وهكذا ، فاننى اتذكر انه كان يُشتمّ فى اقوال غاى ومؤلفاته انتقاد لقيادة الجبهة الجنوبية الغربية ، وانا شخصيا وجدت ان غاى لم يكن بعيدا عن الحقيقة . ومن الجهة الاخرى ، قال آمر لوائنا الخاص للفرسان تيولينيف ، الذى ساهم فى المعارك مع جيش الخيالة الاول فى الجبهة الجنوبية الغربية ، ان توخاتشيفسكى واركانه بالغا كثيرا بقواهما ، حينما تحركا دون التفات الى وارسو . واذ ادركنا جميعا حدة هذا النقاش ، استقبلنا باهتمام كبير مؤلف شابوشنيكوف الجديد «على ضفاف فيستولا . حول تاريخ حملة عام ١٩٢٠» .

ان تاريخ كتابة هذا المؤلف نفسه امر مميز جدا بالنسبة الى شابوشنيكوف . فهو يبين باى ضمير حى كان يتناول حل اية مهمة ، حتى تلك التى تبدو بسيطة جدا للوهلة الاولى . وقد جرى الامر على النحو التالى . طلبت هيئة تحرير مجلة «فوينى فيستنيك» من شابوشنيكوف ان يعلق بايجاز على مؤلف توخاتشيفسكى «حملة الى ما وراء فيستولا» . ولكن المعلق ادى المهمة اضعافا مضاعفة ، كما يقال . اذ ان تعليقه من حيث الحجم ، بل ومن حيث العمق وسعة المواد المستخدمة ، تجاوز بعيدا المقتضيات المفروض توفرها فى تعليق ، وكان بحثا مستقلا . وصدر هذا المؤلف فى كتاب مستقل بتوصية من المجلس العسكرى الثورى . انه لم يحسم النقاش حول «المذنبين» فى عدم احراز انتصار كامل على البولنديين البيض فحسب ، بل وعمم على مستوى نظرى رفيع تجربة الحرب ضد بولندا البرجوازية-الاقطاعية عموما . وفى غضون ذلك ادخل شابوشنيكوف فى التداول العلمى جملة من اهم مصادر الجانبين السوفييتى والبولندى

على حد سواء . وبالنسبة الى شخصيا كان هذا الكتاب مثالا ساطعا على التحليل المخلص والموضوعى الى اقصى حد لاعمال قوات الجبهتين المساهمتين فى الحرب ودور قائديهما توخاتشيفسكى (الجبهة الغربية) وبيغوروف (الجبهة الجنوبية الغربية) . وفحوى الامر ان ميخائيل توخاتشيفسكى لم يستطع فى مؤلفه ان يتغلب على الذاتية وحمل جريرة اخفاق قواته قرب وارسو على الجبهة المجاورة بصورة اكبر . لقد حلل شابوشنيكوف ، باسلوبه المعروف ، قوى الطرفين من كل الجوانب وعلل استنتاجا يقول بانه حتى ، ولو لم يكن هناك خرق للتعاون بين الجبهتين ، كان من المستبعد تقريبا التوصل الى الحاق هزيمة كاملة بالعدو . فى المؤلف استشهاد بنبذة من كلمة لينين فى المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا : «فى هجومنا وتحركنا السريع حتى وارسو تقريبا ارتكب خطأ ، ولا شك . لن ابحث الآن فيما اذا كان ذلك خطأ ستراتيجيا او سياسيا ، لان هذا من شانه ان يقودنى بعيدا جدا ، اعتقد ان هذا يجب ان يكون عمل المؤرخين المقبلين . . . ولكن الخطأ موجود على اى حال ، وهذا الخطأ ناجم عن اننا بالغنا فى تقدير تفوق قوانا» .

واذ استند شابوشنيكوف الى هذا القول ، نوه بان عدم تحقيق نصر كامل فى الحملة البولندية ليس ناجما ابدا عن مجرد اخطاء ارتكبتها القيادة ، رغم وجود اخطاء كهذه . الامر الرئيسى كان فى ابتعاد قواتنا عن قواعد التموين وقلة تعدادها نسبيا وتعبها .

ان مؤلف «عقل الجيش» المكون من ثلاثة مجلدات هو المؤلف العلمى الرئيسى لشابوشنيكوف . وهذا المؤلف «متعدد الطبقات» ، وفيه العديد من المواضيع المتقاطعة والمتوازية . اننى وزملائى ، وكنا نشغل فى ذلك الحين مناصب قادة افواج ومناصب مماثلة اخرى ، اذ درسنا هذا الكتاب بعد صدوره مباشرة ، وقد صدرت مجلداته فى اعوام ١٩٢٧-١٩٢٩ ، قرأنا باهتمام كبير فصول المؤلف التى تتحدث عن المتطلبات التى ينبغى توفرها فى القادة ، والتى ترسم صورة القائد ذى النمط الجديد . واذ تحدث شابوشنيكوف بوضوح عن صلابته الفكرية واخلاصه لقضية ثورة اكتوبر ، ابرز فى الوقت نفسه الصفات الخاصة التى يجب ، فى رأيه ، ان تميز القائد العسكرى . واشار الى ضرورة التوازن بين العقل والطبع ، المعارف والطبع فى ظل درجة عالية من تطورها ، والى ضرورة الخبرة

العسكرية ، اى الخدمة الطويلة والناجحة فى القوات مباشرة .

ونظر المؤلف بتعقل فى مسألة التجربة القتالية . ان وجودها مفيد ، ولكنه ليس الزاميا .

ثم اشار شابوشنيكوف مستشهدا بكلاوزيفيتس ، الى ان القائد يجب ان يعرف اخلاق مرؤوسيه واسلوب تفكيرهم وحسناتهم ونواقصهم .

وعلى القائد ، حسب قول المؤلف ، ان يتسم بالطاقة والثقة والجراة وقوة الطبع . وفى الوقت نفسه يحذر شابوشنيكوف من ان سوء استخدام قوة الطبع يضيق من حرية التفكير . والشعور غير السليم بالتفوق وسرعة الغضب والعناد تلقى احيانا غشاوة على العقل وتجعل القائد عبدا لشعوره . يجب ان يكون عند القائد الحقيقى «راس بارد» ، اى لا بد من التوازن بين العقل والطبع .

ومن هذه الزاوية ينظر الى مقولة مسؤولية القائد . يكتب المؤلف : «لا نريد ان نغرس فى القادة المعاصرين الخوف من المسؤولية عن اعمالهم . بل اننا ، على العكس ، نؤكد ان عليهم فى هذا ان يظهروا الجراة والاستعداد ليقدموا الحساب عن اعمالهم دائما ، وان يحبوا المسؤولية ، وان تثير المسؤولية فيهم شعورا بالسرور» .

ثم يؤكد شابوشنيكوف : «سنكون كمن يحاول ان يشق طريقا معبدا اذا حاولنا البرهان على ضرورة توفر قدرة كبيرة على العمل لدى القائد . ان العمل العسكرى المعاصر قد تعقد ، وهو يخطو بسرعة الى الامام بحيث ان ضرورة مسايرته ترغم على العمل المكثف . وليس فى يوم القائد المعاصر ساعات فائضة ، بل على العكس ثمة شعور بانها لا تكفى ، لان العبء كبير . ولا جدال فى ان هذا العبء ليس بعيدا عن الاجهاد والاعياء ، ولذا من الاهمية بمكان ترتيب العمل واللجوء الى التنظيم العلمى للعمل» .

ينظر الكتاب فى العديد من الخصال الاخرى الضرورية للقائد . وهل ثمة حاجة الى القول اننا سعينا بكل قوانا الى ان نتعهد هذه الخصال فى انفسنا ، واعتقد ان الكثيرين منا لم يجانبهم النجاح فى هذا .

قبل ان اتحدث عن المضمون الرئيسى لمؤلف «عقل الجيش» ، اعود قليلا الى وجودى فى اكاديمية فرونزه العسكرية ، لان الذخيرة الفكرية التى اكتسبتها هناك ، وكذلك اتصالاتى الشخصية بشابوشنيكوف والاستماع الى محاضراته وتقاريره قد مكنتنى

بالذات من ان استوعب ايضا المواضيع العميقة لهذا الكتاب الفذ .

ينبغى التذكير بان شابوشنيكوف قد اتى الى الاكاديمية بعد ان قاد قوات مناطق لينينغراد وموسكو والفولغا وترأس سنتين اركان الجيش الاحمر . واضيفت الى خبرته الواسعة السابقة معارف عملية قيمة حقا حول الحالة المعاصرة للجيش الاحمر من القمة الى القاعدة . وقد كرس بوريس شابوشنيكوف تلك الخبرة وهذه المعارف بسخاء لقضية تطوير العملية التعليمية وتطبيق تلك المبتكرات فيها التى اصبح من المستحيل بدونها اعداد آمر عسكرى يتجاوب مع متطلبات العصر .

اسمح لنفسى بان اتحدث بايجاز عن التغيرات التى جرت فى الاكاديمية ، والتى اطلقنا عليها بدعابة حافلة بالاستحسان اسم «اصلاحات شابوشنيكوف» . فى تلك الفترة اصبح من الضرورة الملحة اعداد كوادر حلقة العمليات (الجيش – الجبهة) . وقد اسست فى عام ١٩٣١ كلية العمليات . وعكفت جماعة مدرسيها المتكاتفة والقوية تحت اشراف الباحث والمربى الموهوب ايسيرسون على معالجة اهم مسائل نظرية فن العمليات . وكانت الكلية فيما بعد اساسا لاقامة اكاديمية الاركان العامة للجيش الاحمر .

وجرى عمل مفيد لتطوير بنية الاكاديمية ، حيث حول كرسى خوض العملية الى كرسى فن العمليات ، وكرسى اعداد القوات الى كرسى اساليب الاعداد القتالى للقوات . وعوضا عن كرسيى خدمة المؤخرة ، وجهاز المؤخرة والتموين شكل كرسى واحد ، هو كرسى المؤخرة . وظهرت كراسى جديدة : التزويد بالمحركات والمكننة ، الوقاية الكيماوية ، خدمة الاركان ، الاستخبارات ، الدفاع الجوى ، الاقتصاد السياسى .

وفى السنة الدراسية ١٩٣١/١٩٣٢ طبق فى الصف الاخير التخصص للطلبة . وصارت الاكاديمية تخرج ، الى جانب قادة القوات العامة ، قادة لقوات المدفعية والدبابات والطيران والاختصاصات الاخرى من ذوى التحصيل العلمى العسكرى العالى .

وتركز اعداد الطلبة الميدانى-التكتيكى على نظرية المعركة فى العمق ، فظهرت بفضل هذا ضرورة دراسة التكنيك القتالى بمزيد من العمق والاتقان . وجهزت بايدى الطلبة انفسهم صفوف تكنيكية تمكن من دراسة نماذج الاسلحة الجديدة بفعالية كبيرة . وصارت تخصص ساعات اكثر لتكتيك اصناف القوات والقوات الخاصة .

واصبحت ساعات تدريس التكنيك تكرس للكشف عن امكاناتـه القتالية ومبادئ استخدامه فى اكثر الاوضاع تعقـدا : لدى خرق الدفاع الميدانى والطويل الامد للعدو وعبور الحواجز المائية الكبيرة وخوض المعركة التصادمية .

وصارت البرامج التعليمية تعد مع مراعاة التكنيـــك القتالى الجديد : الدبابات والمدفعية والطيران .

ولم يقتصر بوريس شابوشنيكوف على الدعاية الى الآراء الجديدة حول تطوير الاعمال القتالية ، بل وكان يراعى انه سيتغير فى الحرب المعاصرة طابع المعركة وستزداد سرعتها بشدة ، وغرس فى القادة والعاملين فى الاركان المقبلين معرفة اجراء حسابات دقيقـة للقوى والموارد وقيادة القوات بصلابة فى المعركة والعملية . ونما دور تدريس اساليب الاعداد القتالى ، لان التكنيك الجديد وطابع المعركة المعقد كانا يتطلبان اساليب تدريس جديدة .

وازداد امد تدريب الطلبة فى القوات الى شهرين ، وكان يجرى مع مراعاة التخصص ، اى فى اصناف القوات التى سيخدم فيها خريجـو الاكاديمية . وفى خلال التدريب كانت تعالج المسائل العملية والنظرية وفق برنامج خاص ينص على دراسة الاصناف التكنيكية للقوات .

وكانت تجرى فى خلال الدراسة الصيفية التمرينات على تنفيـذ المهمات التكتيكية باستخدام التحليقات الطويلة على الطائرات ، وعلى اطلاق النار من الدبابات والسيارات المصفحة ، وعلى تطهير الموقع من الغازات .

واذ استعرض رئيس الاكاديمية نتائج السنة الدراسية ١٩٣٢/ ١٩٣٣ ، نوه بانها اعطت نجاحات ملحوظة فى اعداد الطلبة الميدانى والتكتيكى . واعطى تدريبهم فى القوات نتائج جيدة ، حيث مكنهم من ترسيخ معارفهم النظرية .

واسبغ طابع عملى على اغلبيـة الدروس . وصارت تجـرى فى الحقل وميادين الرماية وحظائر الآليات . وحتى ان بعض المدرسين غالبوا فى هذا الخصوص ، مما اثر سلبيا فى الاعداد النظرى للطلبة . ولهذا تدخل شابوشنيكوف وتوصل الى الجمع السديد بين الدروس النظرية والعملية .

شغلت مسائل تنظيم ادارة القوات حيزا هاما فى الاعداد الميدانى التكتيكى . وقد اتقنت فى الالعاب العسكرية بصورة رئيسية . وهذا

ما يستحق التحدث عنه بمزيد من التفصيل . قبل قدوم شابوشنيكوف كان يسود فى الدروس الميدانية-التكتيكية ما يسمى بالتماريـــن الجماعية . وهى ، اذ كانت تعطى معارف نظرية معينة ، قلما كانت تساعد على تطوير المبادرة واتقان الخبرات العمليـة لادارة الاعمال العسكرية . اما شابوشنيكوف فكان يعرف جيدا شكلا للتدريس ، هو اللعبة الحربية على الخرائط . وكان مقتنعا انها تطور التفكيـر الميدانى افضل من الاساليب الاخرى ، فطبقها بمهارة فى العمليـة التدريسية .

كان من الصعب ادخال هذا الاسلـوب فورا ، ولـذا سعـى شابوشنيكوف الى ان يستوعبه مدرسو فن العمليات الذيـن كان يعلمهم شخصيا ، وبعد ذلك دخل حيز الممارسة فى الدروس ، ومـن ثم فى تمرين الضباط فى اركان القوات الكبيرة . والى جانب الالعاب على الخرائط ، اصبحت المهمات الشاملـة بمبادرة مـن رئيس الاكاديمية منهجا مثمرا جدا للعمل التدريسى . وكان يطلب على خلفية اعمال تشكيلات القوات العامة حل مسائل الاستخدام القتالى للاصناف الاخرى من القوات .

كل هذا كان يجرى لترسيـخ المعارف بثبات . وقـال شابوشنيكوف :

– ان اية جراة واى تفوق فى القوى لا يستطيعان التعويض من النقص فى المعارف والمهارة .

لقد وضع عمل البحث العلمى على مستوى عال الى جانب العمـل التدريسى . ان الجهود الابداعية لاساتذة الاكاديمية ، الذين حلوا القضايا النظرية-العسكرية المعقدة الجديدة بالتعاون الوثيق مع العاملين فى مفوضية الشعب للدفاع والقادة وضباط الاركان ، تكللت بوضع نظرية المعركة فى العمق والعملية فى العمق . وصارت هذه النظرية فى مستهل الثلاثينات تستند الى قاعدة تكنيكية كافية . واختبـرت احكامها الاساسية فى جملة من تدريبات والعاب الاركان .

فى عام ١٩٣٥منح شابوشنيكوف لقب بروفسور لقاء كتابـة مؤلفات علمية عميقة المضمون ، ولقاء التنظيم الماهر للعمليـة التدريسية واعداد الكوادر العلمية .

كان شابوشنيكوف داعيا لا يكل الى عمل الاركان . اذ كان رئيس الاكاديمية فى كل التقارير والمحاضرات والاحاديث العادية التى كانت

تتكرر كثيرا يوحي الينا جميعا باحترام وحب هذا النوع من النشاط القتالي . وكان يتحدث بحماسة عارمة عن امثلة التنظيم اللائق لعمل الاركان ، وكان ، على العكس من ذلك ، يهاجم بسخرية ، قلما تخلى عنده ، الآراء المحافظة لبعض القادة . وكانت تبرز بوضوح من خلال كل افكاره فكرة تقول بان النصر في اية معركة من معارك حرب المستقبل سوف يرتبط اوثق ارتباط بمستوى عمل الاركان . وقال شابوشنيكوف :

– بل ومصير كل الحرب اجمالا سيكون في تبعية للنضج المهني والسياسي للاركان على كل المستويات ، ولاسيما الاركان العامة .

ولم يمل من التذكير بانه حتى في حرب صغيرة ، يمكن ان نعتبرها محلية بالمفهوم المعاصر ، كحرب القرم ، كان دور الاركان اكثر من جوهري . وكان يكرر دائما كقول مأثور كلمات انجلس في خصوص هذه الحرب : «اذا اختيرت الاركان بشكل رديء ، فالافضل عدم اختيارها بالمرة» . وحتى انه كان يؤكد ان الآمر والقائد لا يوجد بينهما الا عتلة واحدة لتنظيم المعركة والقتال بنجاح ، وهي الاركان المنتقاة جيدا والمراصة .

في تلك الازمنة كان لا يزال شائعا عند البعض ، كمخلفات لعقلية حرب الانصار ، وقف الاستخفاف من الاركان وشخصياتها ، اذ لم يكن من النادر ان تسمع على السنة العسكريين المتخلفين كلمات مثل «جرذان الاركان» و«الكتبة» وغير ذلك من النعوت المقذعة للغاية .

كان بوريس شابوشنيكوف يغرس في وعينا بقناعة راسخة ان المشتغل في الاركان هو آمر عسكري حقيقي يغدو رئيسا وحيدا مطلق السلطة في حال غياب الآمر الدائم . وقال شابوشنيكوف : «ليس المشتغل في الاركان عسكريا قاصرا يضع القلم وراء اذنه ، ولا يستطيع شيئا غير كتابة اوامر القائد . انه ، ان شئتم الحق ، مفكر عسكري وقائد عسكري في شخص واحد» . ان شابوشنيكوف ، المتحفظ دائما ، بل والحذر في التعابير ، كان ، حينما يجري الحديث عن هيبة الاركان ، يسخر بحدة من اصحاب الآراء الخاطئة حول عمل الاركان . في احدى المحاضرات ، التي احتفظت بتسجيلها ، قال حرفيا : «ان قادة القوات كثيرا ما يحولون اركاننا الى مكاتب بسيطة . هذا في حين ان استخدام الاركان كما ينبغي هو واجب مقدس لكل قائد . فمن السخف ان يسعى احد الى ان يفعل كل شيء وحده . ولا يمكن

قيادة القوات بذكاء الا بمساعدة الاركان . اما القائد الذي يود في وقت واحد ان يرمح في صف الفرسان ويقود نيران المدفعية وينظم حركة القافلة فسوف يغيب عمليا عن تشكيلته ويفقد الادارة ، وستسير المعركة من تلقاء ذاتها» .

ليكون واضحا تماما الهدف الذي وضعه شابوشنيكوف امامه في فترة قيادة الاكاديمية ، اورد مقتطفا من مقالته في «ازفيستيا» المكرسة لذكرى تاسيسها الخامسة عشرة :

«على الاكاديمية ان تعد آمرا للقوات وضابطا للاركان مسلحا بمعارف نظرية الفن العسكري المعاصرة ، من جهة ، وان توفر له معرفة القيادة العملية للقوات المسلحة ، من الجهة الاخرى . ان معرفة التكنيك العسكري ومعرفة الاصناف التكنيكية للقوات والقدرة على تنظيم استخدامها في الاعمال العسكرية تشكل اهم قسم للدراسة في الاكاديمية العسكرية» .

اود ان انوه بان موافقتي بعد الاكاديمية على الانتقال من العمل القيادي الى العمل في الاركان كانت بتأثير مباشر من شابوشنيكوف .

بعد ان اكتسبت وزملائي في الاكاديمية ذخيرة نظرية معتبرة ، صرنا نقرأ كتاب «عقل الجيش» على نحو جديد . ورأينا بوضوح المغزى الحيوي والعميق وراء تلك الاماكن المعقدة والحافلة بالنقاش ذات الجولات الواسعة في التاريخ البعيد والقريب للفن العسكري . وفي الواقع يظهر للوهلة الاولى لدى القارئ غير المحنك بصورة كافية تحامل معين : يبدو الكتاب وكأنه تعليق مسهب ومفصل جدا على المذكرات ذات المجلدات المتعددة للجنرال فيلدمارشال كونراد فون غيوتسيندورف رئيس الاركان العامة النمساوية المجرية . ولا اكتم اننى فكرت اول الامر في ما اذا كان هناك مسوغ لاضاعة الوقت من اجل النظر من كل الجوانب في هذه الشخصية المقيتة اجمالا والتوصل الى استنتاجات حول نقاط تجاوبها مع مهمتها ونقاط عدم تجاوبها معها .

اما وقد هيأتنا الدراسة في الاكاديمية والاتصال الشخصي بالمؤلف ، فاننا «التهمنا» بحماسة كبيرة مجلدات «عقل الجيش» وطهرنا ، كما قال احد ابناء صفنا ، عقولنا من التحجر وضيق التفكير ، اى تعلمنا التفكير بمرونة وشمول ديالكتيكيين . وصرنا ننظر الى الامثلة العديدة والاستطرادات بعيدا عن الموضوع الاساسي

كشروح واضحة ، ملموسة للمحاكمات المجردة يغدو بها الاستنتاج الذى كان يبدو مفاجئا فى السابق بينا ولا جدال فيه يقتحم الذاكرة مدى الحياة .

وادركنا قبل كل شىء ان هذا المؤلف لا يقوم ابدا على البحث فى مذكرات كونراد فون غيوتسيندورف فحسب ، بل هو دراسة اساسية لعمل كل الاركان العامة لكلا الائتلافين المتجابهين فى الحرب العالمية الاولى . واذ كنت عاكفا على كتابة هذه النبذة ، تصفحت «عقل الجيش» مجددا ، واعترف باننى كنت احيانا ابقى امدا طويلا دون ان استطيع التحول عنه ، مشدوها بما يستند اليه من اساس متين قوامه الوقائع والاحداث التاريخية المعممة بمهارة . وهذا بالذات ما مكن المؤلف من ان يبرز بوضوح السنن الرئيسية والثانوية للصراع المسلح .

بحث المؤلف فى كل طائفة القضايا العسكرية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية من وجهة نظر الفهم اللينينى لجوهر الحرب كاستمرار للسياسة بوسائل اخرى ، اى وسائل العنف . وينظر المؤلف الى الحرب على نحو ماركسى لينينى بالذات كظاهرة اجتماعية على النطاق التاريخى العام . ويؤكد ان «الحرب تخوضها الدولة عموما ، لا قواتها المسلحة المرسلة الى الجبهة فقط» ، و«لا يمكن حصر الحرب فى اطار الستراتيجية وحدها التى هى فى متناول العسكريين ، لان الحرب شكل معين للعلاقات الاجتماعية ، لا مجرد صراع مسلح . . .» .

شغل البحث فى قضية العلاقة بين السياسة والستراتيجية العسكرية حيزا كبيرا فى المؤلف . يكتب شابوشنيكوف : «تضع السياسة هدفا امام الستراتيجية وتصوغ المهمات وتوجه تطورها . وعلاوة على ذلك ، توفر السياسة الظروف المواتية لتنفيذ هذه المهمات . وتؤثر السياسة بشكل حاسم فى بنية وتركيب القوات المسلحة ، فى اعداد القوات وتزويدها بالمعدات الحربية ، فى اختيار اساليب واشكال خوض الحرب» . ان هذا الاستنتاج القائل بالترابط الشديد بين السياسة والستراتيجية العسكرية لا يزال يحتفظ بحيوية فائقة الى الآن ، لان الكثير من المنظرين العسكريين البرجوازيين يؤكدون ان السياسة حرمت الآن من امكانية توجيه الستراتيجية العسكرية والسيطرة عليها .

كانت تنبؤات مؤلف كتاب «عقل الجيش» فى صدد تاثير الاقتصاد فى اساليب خوض الحرب بعيدة النظر للغاية . واذ يتبع شابوشنيكوف مبادىء الماركسية اللينينية بصلابة ، لا يقتصر فى هذه الحالة ، شأنه دائما ، على تكرار موضوعات انجلس المعروفة القائلة بان مستوى تطور الاقتصاد الوطنى يحدد اجمالا مستوى تطور وسائل الصراع المسلح ، وهذه الاخيرة تؤثر بصورة مباشرة فى اساليب خوض هذا الصراع . ان شابوشنيكوف ، باستناده الى مبادىء كلاسيكيى الماركسية اللينينية ، يصوغ تصورات عملية هامة الى اقصى حد . فى الوقت الذى الف فيه هذا الكتاب ذو المجلدات الثلاثة ، كان المنظرون العسكريون الغربيون لا يزالون يعتبرون ان الاستعداد الاقتصادى للحرب يجب ان يجرى فى زمن سابق للحرب ، وان الحرب يكسبها من يستطيع تكديس المزيد من احتياطيات الاسلحة والمعدات القتالية والوسائل المادية الاخرى . ينبغى القول ان بعض العلماء العسكريين من الجيل القديم فى بلادنا كانوا يشاطرونهم هذه الآراء . ولا ينفى شابوشنيكوف اهمية احتياطيات ما قبل الحرب ، ولكنه يتوصل الى استنتاج جوهرى حول ضرورة نقل كل الاقتصاد الوطنى منذ بداية الحرب الى مجرى الحرب ، لان الحرب تستطيع فى زمننا ان تلتهم بسرعة ما ادخر سابقا . وعندئذ يصبح النصر حليف من يستطيع ان يضع بسرعة وفعالية كل الاقتصاد الوطنى فى خدمة الحرب .

اذا اخذت فى الاعتبار اقوال شابوشنيكوف حول قضايا النظرية والممارسة العسكريتين الواردة فى تقاريره وكلماته ، يتكون مفهوم متسق ومعلل بشمول . وقد اضطلع هذا المفهوم بدور لا يستهان به فى اعداد الكوادر العسكرية القيادية للحرب .

وهكذا ، فقد اعتبر ان من الحقائق التى لا تدحض ، كون الحرب ستتسم بمناورة واسعة مع العمق الكبير لعمليات الجبهات والجيوش . وهذا الطابع للاعمال القتالية يتطلب ، فى رأيه ، اعدادا شاملا للكوادر القيادية العليا . واكد انه لا بد من الدراسة الجدية والمتواصلة لنيل ولو حد ادنى من المعارف الضرورية لادارة القوات . وعزى شابوشنيكوف باصرار الوهم الزاعم ان الصفات الارادية القوية والطبع الصلب والاصرار تضمن النجاح من تلقاء ذاتها . ان قيادة القوات فى ميادين معارك الحرب الداهمة تتطلب ، كما كان

يؤكد ، معرفة بنية القوات المسلحة وكل اصناف المعدات القتالية ومستوى استعداد القوات ، والقدرة على حساب القوى والاعتدة والسلاح بتبصر ، والقيام بالعمليات المعقدة لاعادة تجميع القوات بسرعة ، الخ . . وكل هذا لا يتطلب بدوره مجرد حسابات رياضية . ولا يضمن النجاح للقائد الا المعارف النظرية الراسخة ، المتزايدة يوميا فى ميدان العلوم العسكرية والتكنولوجية ، بالاضافة الى الارادة والموهبة .

كان شابوشنيكوف يحب تكرار هذا القول المأثور : «العقل عقيم بلا ارادة ، والارادة خطرة بلا عقل» . ولم يكن يفهم العقل كمجرد ما يسمى بالتفكير البحت ، بل العقل الذى تغنيه المعارف . وكان فى غضون ذلك يعيد الى الاذهان المرة تلو المرة ان اى تبحر وارادة وموهبة فردية لا تستطيع ان تشمل كل تنوع الحالات الميدانية الفائقة التعقيد . وسيكون النصر حليف من يملك اركانا متسقة كالساعة ، ويحسن الاعتماد عليها .

وتجلى تبصّر شابوشنيكوف كذلك فى قناعته بان على القوات والسلك القيادى ان تستعد بمثابرة للدفاع ، كما تستعد للاعمال الهجومية . وقد كتب : «ان الدفاع عندنا يعتبر كذلك وسيلة عمل قد نلجأ اليها مرارا ، ولهذا فان على الدفاع ، اذا كان يجرى بهدف حازم ، ان يتسم بما يلائمه من اصرار فى الاعمال» .

ان البحث فى قضايا قيادة البلاد وقواتها المسلحة فى خلال الحرب هى اهم نواة لمؤلف «عقل الجيش» . فالمؤلف ، مثلا ، يعلل بصورة مقنعة ضرورة وحدة القيادة السياسية والعسكرية ، وكذلك يحدد بوضوح صلاحية الجهاز المركزى للقيادة العسكرية . وينطلق لدى طرح مسالة تنظيمه من الدور القيادى للحزب الشيوعى فى البناء العسكرى . وفى غضون ذلك استخدم شابوشنيكوف على نطاق واسع مؤلفات لينين وكلماته فى مؤتمرات الحزب الشيوعى وفى الصحافة الدورية . ويتناول بالنقد الساحق المنظرين العسكريين البرجوازيين الذين يفترضون ان الحرب اجمالا تستطيع قيادتها هيئة عسكرية عليا كالاركان العامة ، مثلا .

يكتب شابوشنيكوف : «تشمل الحرب فى ايامنا كل ميادين حياة المجتمع ، وهى تتطلب بذل كل القوى والموارد ، ولذا من الواضح ان ادارة الحرب لا يمكن ان تكون الا فى يد الدولة عموما وتتحقق

بمساعدة جهاز الدولة بأسره» . واكد الواقع تماما صحة هذا المبدأ .

فى سنوات الحرب الوطنية العظمى شكلت بقرار من الحزب والحكومة لجنة الدولة للدفاع ، الهيئة العليا لسلطة الدولة التى تركزت فى يدها قيادة البلاد والقوات المسلحة السوفييتية . كانت لجنة الدولة للدفاع تحل المهمات الجذرية المرتبطة بادارة الاقتصاد الوطنى واستخدام الموارد البشرية والمادية ، وتحدد الاتجاهات الاساسية لبناء الجيش والاسطول وتبحث عن القوى والوسائل من اجل حل المهام الحربية والسياسية . وكانت القيادة العليا تمارس القيادة الستراتيجية المباشرة للاعمال القتالية على جبهات الحرب الوطنية العظمى . وكانت الاركان العامة هيئتها العملياتية الاساسية .

واذ تنبأ شابوشنيكوف بهذه الاهمية الكبيرة للاركان العامة فى حرب المستقبل ، كان من الطبيعى ان يخصص حيزا مركزيا فى مؤلفه للبحث المفصل فى دورها ووظائفها وبنيتها التنظيمية واسلوب ووسائل عملها . وصاغ ايضا المطالب المطروحة امام العاملين فى الاركان العامة . لفهم مدى الحيوية التى كان ينطوى عليها طرح مسالة اهمية ووظائف الاركان العامة من المفيد اطلاع القارئ على الوضع الذى نشأ حينذاك فى نظام الادارة العسكرية .

فى ذلك الوقت لم تكن قد تكونت عندنا اركان عامة تتجاوب مع المتطلبات المعقدة لقيادة القوات والبناء العسكرى اجمالا .

ينبغى التنويه بان فرونزه ، الذى كان رئيسا لاركان الجيش الاحمر من نيسان (ابريل) عام ١٩٢٤ وحتى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٢٥ ، قد فعل الكثير لاقامة الاركان العامة ، وان لم تكن قد اطلقت عليها هذه التسمية بعد . واليه يعود هذا القول المأثور : «يجب الا تصبح اركان العمليات هذه عقلا للجيش الاحمر فحسب ، بل يجب ان تصبح عقلا عسكريا لدولتنا السوفييتية كلها . . .» . واعيد الى الاذهان ان شابوشنيكوف كان اول مساعد لفرونزه .

بيد ان جيشنا كان فى الظروف الصعبة التى نشأت بعد الحرب الاهلية والتدخل المسلح جيشا من النظاميين والميليشيا ، ولهذا فان ضرورة الاركان العامة بمعناها الحقيقى لم تكن ملحة جدا . هذا النظام ، الذى يجمع بين التشكيلات النظامية وتشكيلات الميليشيا الاقليمية على حد سواء ، مكن فى ظل اقل انفاق على حاجات القوات المسلحة من امتلاك القوات الضرورية فى حالة استعداد للقتال .

فى اواخر العشرينات كانت الدولة الاشتراكية قد قويت بحيث استطاعت ان تزيد كثيرا عدد الفرق النظامية . وكان لا بد من ان يتعقد تنظيمها وتجهيزها المادى ، وعلاوة على ذلك اخذت اصناف القوات التكنيكية والخاصة تشغل حيزا اكبر فى الجيش الى جانب قوات المشاة والفرسان . اما فى نظام الادارة العسكرية حينذاك فكانت توجد هيئتان متساويتان تقريبا : اركان الجيش الاحمر والادارة الرئيسية للجيش الاحمر . كانت الاولى مجرد هيئة للتخطيط ، اما الثانية فكانت تقوم بالتجسيد العملى للخطط الموضوعة ، اى تقود الاعداد القتالى وكل الحياة اليومية للقوات ، وتمارس كذلك المسائل التعبوية .

فى تلك الظروف كان نشاط الهيئتين يتعقد ويزداد صعوبة مع نمو الجيش وتطوره ، لان الذين يخططون كانت تتناقص امكاناتهم للتاكد من كيفية تنفيذ الخطط ومدى تطابقها مع الحالة الفعلية للقوات . ومن الجهة الاخرى ، كانت الادارة الرئيسية المبعدة عن مسائل التخطيط لا تستطيع ايضا ان تكون على مستوى المتطلبات الموضوعة امام الاعداد القتالى العصرى للقوات .

تتلخص القيمة العملية الكبيرة لمؤلف شابوشنيكوف فى كونه بيّن الضرورة الناضجة لاقامة جهاز قيادى واحد فى القوات المسلحة السوفييتية قادر على ان ينفذ بصلابة ومهارة نهج الحزب فى البناء العسكرى . وعلى الاركان العامة ، فى رأيه ، ان تصبح هيئة تنفيذية حقيقية للسلطة السوفييتية فى الجيش .

ان مسالة ضرورة اقامة اركان عامة بصلاحياتها الواسعة اصبحت فى اواخر العشرينات مادة نقاش حاد وطويل على مختلف المستويات . ودعا الى اقامتها الكثير من القادة العسكريين الذين ادركوا بتجربتهم الخاصة مدى ضرورة هيئة قيادية واحدة فى القوات المسلحة . وكان فى عدادهم توخاتشيفسكى رئيس اركان الجيش الاحمر حينذاك : وارسل الى المجلس العسكرى الثورى للاتحاد السوفييتى مشروعا لاعادة تنظيم اركان الجيش الاحمر بهدف ان تستطيع التأثير فعليا فى تطور القوات المسلحة ، من حيث كونها مركزا واحدا للتخطيط والتنظيم . بيد ان تنفيذ فكرة اقامة اركان عامة عرقله وقوف جملة من قادة الحرب الاهلية المرموقين ضدها . كانوا يعتقدون ان حصر قيادة القوات المسلحة فى ايدى الاركان العامة ينطوى على عواقب غير

مرغوب فيها . اورد فى هذا الصدد نبذة من وثيقة موجهة الى فوروشيلوف مفوض الشعب للدفاع وقعها بيغوروف قائد قوات منطقة بيلوروسيا وبوديونى مفتش الفرسان وديبينكو رئيس تموين الجيش الاحمر : «فى داخل اركان الجيش الاحمر اتجاهات ، ان لم نقل ما هو اسوأ ، اى هدف مقصود لتكون البديل ، او بالاحرى لتاخذ فى يدها الدور القيادى فى كل مسائل بناء الجيش الاحمر وقيادة عملياته» .

لم يقبل مشروع توخاتشيفسكى ، فطلب اعفاءه من منصبه ، معتبرا انه لا يستطيع الاستمرار فى منصب رئيس اركان الجيش الاحمر .

فمن يجب ان يحل مكان توخاتشيفسكى ؟ اتخذ قرار بتعيين شابوشنيكوف ، فهو المحنك فى عمل الاركان بحيث يضمن فى كل الظروف حل المهمات الملقاة على عاتقه . وفى ايار (مايو) عام ١٩٢٨ اقر المجلس العسكرى الثورى باقتراح من ستالين تعيين شابوشنيكوف رئيسا لاركان الجيش الاحمر . وعين توخاتشيفسكى قائدا لقوات منطقة لينينغراد .

ان شابوشنيكوف ، وقد شغل هذا المنصب الرفيع ، تابع النضال من اجل انشاء اركان عامة حقيقية . وفى هذا الخصوص كان مؤلف «عقل الجيش» عونا كبيرا له . اذ كان وثيقة طويلة الامد قرأها الوف الضباط الذين اسرهم النظام المتسق والدامغ لحجج المؤلف العلمية ، فشاطروه افكاره بقناعة راسخة .

والى جانب ذلك توجه شابوشنيكوف مرارا الى المجلس العسكرى الثورى والى مفوض الشعب للدفاع بمذكرات معللة من كل الجوانب حول تنظيم الجهاز العسكرى المركزى واعادة النظر فى توزيع الوظائف بين اركان الجيش الاحمر وادارته الرئيسية . ويتلخص جوهر هذه التوصيات فى ان تصبح الاركان هيئة رئيسية للتخطيط والتسيير فى نظام الادارة العسكرية مسؤولة امام المجلس العسكرى الثورى ، لا امام هذه او تلك من ادارات واقسام الادارة الرئيسية للجيش الاحمر . وتكررت باصرار كذلك المطالبة بتسليم الاركان المهمات التعبوية ، لانها لا تستطيع بدون هذا ان تنفذ بصورة كاملة احدى وظائفها الرئيسية ، وهى التخطيط للانتشار الستراتيجى للقوات المسلحة .

فى اواخر عام ١٩٢٨ شكلت لجنة خاصة لمسائل اعادة تنظيم الجهاز العسكرى المركزى . واستمر عملها اكثر من سنة . وفى مستهل عام ١٩٣٠ سلمت اركان الجيش الاحمر مجموعة القضايا التعبوية كلها . وما لبث حتى الشاكون ان اقتنعوا فى الممارسة بان العمل التعبوى بكل تعقده قد انتظم بصورة سريعة وشاملة . وكان هذا دفعا للنهوض التدريجى المطرد بدور اركان الجيش الاحمر وتسليمها الوظائف الملازمة لها عضويا . وفى آذار (مارس) عام ١٩٣٤ الغى المجلس العسكرى الثورى بقرار من اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتى واطلق على مفوضية الشعب للشؤون العسكرية والبحرية اسم مفوضية الشعب للدفاع . وفى ٢٢ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٥ تحولت اركان الجيش الاحمر بقرار من مجلس مفوضى الشعب للاتحاد السوفييتى الى اركان عامة للجيش الاحمر . وشكلت فى داخلها الادارات التالية : ادارتا العمليات والمخابرات ، الادارتان التنظيمية والتعبوية ، ادارة المؤخرة ، الادارة الطوبوغرافية العسكرية ، ادارة المواصلات العسكرية وبعض الادارات الاخرى . ولكن شابوشنيكوف لم يكن فى تلك الفترة رئيسا لهذه الهيئة الجديدة ، الواسعة فعلا ، فقد بقى فى منصب رئيس اركان الجيش الاحمر حتى حزيران (يونيو) عام ١٩٣١ . وكان يبغوروف اول رئيس للاركان العامة السوفييتية ، ولكن شابوشنيكوف سر باخلاص لان فكرته تجسدت .

اصبح شابوشنيكوف رئيسا للاركان العامة فى ايار (مايو) عام ١٩٣٧ . ولكننا سنرجئ الحديث عن هذا قليلا .

سانحدث الآن ببضع كلمات عن نشاط شابوشنيكوف فى منصب رئيس اركان الجيش الاحمر . على الرغم من ان دائرة مهمات شابوشنيكوف كانت محدودة ، فقد بذل كل ما هو ممكن ليربى فى مرؤوسيه القدرة على التفكير الواسع النطاق . والى جانب ذلك توصل الى ان تحل المهمات الملموسة ، التى تواجه الاركان ، بدقة وسرعة ، وبتطلع الى الافق ، ان صح التعبير ، اى ان تكون هناك نظرة الى المستقبل دائما ، ولاسيما انه كان يجرى بين جدران الاركان وتحت قيادتها عمل دؤوب لوضع مشروع اول خطة خمسية للبناء العسكرى ، واعداد للوثائق المرتبطة بالنشر الستراتيجى للقوات المسلحة السوفييتية زمن الحرب .

ومن المميز ان الكثير من هذه الوثائق قد اعد بتبصر ، بحيث نفذت بدون تغييرات تذكر حينما بدأت الحرب الوطنية العظمى . ولا يمكن نسيان ان شابوشنيكوف استطاع ان يخلق فى الاركان جوا من الثقة الهادئة والود المتبادل بين كل افراد الجماعة .

فى هذا الجو سارت الامور بنجاح ، ولم يعمل الجميع باذلين كل قواهم فحسب ، بل وكانوا يشعرون بارتياح لما تحقق . وغدا ابداء المبادرة السديدة قاعدة عامة ، ولم تكن تنفذ اية مهمة فقط ، بل كانت تعد فى غضون ذلك الاساليب العقلانية لتنفيذ المهمات المماثلة فى المستقبل .

يرتبط بفترة عمل شابوشنيكوف فى منصب رئيس اركان الجيش الاحمر ابرز حدث فى حياته ، وهو انضمامه الى الحزب الشيوعى . ومن المميز ان شابوشنيكوف تحدث فى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى السوفييتى فى تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ باسم قادة الجيش الاحمر غير الحزبيين ، مؤكدا للمؤتمر ان الكوادر القديمة الكفاحية للجيش الاحمر تدعم باتساق وصلابة الخط العام للحزب . وبعد عدة اشهر ، فى ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٠ ، قدم طلبا لقبوله فى الحزب كتب فيه : «اننى ، اذ سرت فى عملى ١٣ سنة مع الحزب الشيوعى يدا بيد وانتهجت بثبات فى خلال ذلك الوقت خط هذا الحزب فى كل حياتى وناضلت معه على جبهات الحرب الاهلية من اجل قضية لينين ، ارجو قبولى ، ان كنت اهلا لذلك ، فى صفوف الحزب الشيوعى السوفييتى ، لكى ادافع بالعمل والدم حتى آخر حياتى عن قضية البروليتاريا فى صفوفها الحديدية» . وفى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٣٠ قبلت سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى شابوشنيكوف فى الحزب بدون فترة ترشيح .

لقد برر شابوشنيكوف هذه الثقة العالية من خلال كل عمله المتفانى ، وكان يعتبر الخدمة الصحيحة فى صفوف القوات المسلحة السوفييتية واجبه الحزبى الرئيسى . والى جانب ذلك ساهم بحيوية فائقة فى العمل الاجتماعى-السياسى ، حيث كان فى اوقات مختلفة عضوا فى لجنة اقليم الفولغا الاوسط للحزب الشيوعى السوفييتى ، ولجنة حى كراسنوغفارديسكى للحزب الشيوعى السوفييتى فى لينينغراد ، ولجنة حى فرونزه للحزب الشيوعى السوفييتى فى موسكو ، ونائبا فى

السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، ومرشحا لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى .

ساتحدث الآن بايجاز عن نشاط شابوشنيكوف فى منصب رئيس الاركان العامة اعوام ١٩٣٧-١٩٤٠ . فى تلك الفترة من الزمن وقع غير قليل من الاحداث الدرامية التى تطلبت من ضباط الاركان العامة ، ولاسيما قيادتها ، عملا كبيرا ، متوترا . كان لا بد من انجاز نقل الجيش الاحمر تماما الى مبدأ التنظيم القائم على الكوادر الدائمة . فى تلك السنوات حاول التطويق الامبريالى ان يجس بالرمح قدرة جيشنا القتالية . فقد اثار العسكريون اليابانيون نزاعين مسلحين عند بحيرة خاسان ونهر خالخين غول . واقتضى تقديم المساعدة العسكرية الفعلية الى جمهورية منغوليا الشعبية من الاركان العامة عملا فعالا عاجلا من اجل التخطيط لنقل القوات وللعمليات القتالية نفسها .

فى فترة وجود شابوشنيكوف فى منصب رئيس الاركان العامة وصل التجهيز التكنيكى للقوات المسلحة مستوى تطلب سواء اعادة النظر فى بعض احكام عقيدتنا العسكرية ، اوالتنقيح الجوهرى للانظمة والتعليمات . وقسط شابوشنيكوف فى هذا العمل الفائق الاهمية لا يقدر بثمن . ومن المميز انه توصل فى غضون ذلك الى حساب دقيق للنواقص فى انظمتنا ، والى ازالتها ، تلك النواقص التى ظهرت فى خلال الاعمال القتالية زمن النزاعين المسلحين على حدود وطننا ومنغوليا . ومع مراعاة ما ظهر من نواقص ، ادخلت كذلك تعديلات فى خطط تدريب القوات على القتال والاعداد العملياتى للاركان .

وانها لعظيمة كذلك ماثرته فى كون تزويد الجيش بالمعدات الحديثة جرى بصورة متسقة . من المعروف انه سادت فى الغرب فى ذلك الحين نظريات جعل الغلبة لصنف من القوات : اما الطيران واما الدبابات . وليس سرا انه كان يوجد فى سلكنا القيادى اناس سعوا الى اقناع القيادة بضرورة اعطاء الافضلية لصنف واحد من الاسلحة ، ولاسيما ان الموارد لم تكن تكفى للاصناف كلها . وقد دحض شابوشنيكوف بالادلة والبراهين حجج هذه «الرؤوس الحامية» ، وذاد بصلابة عن وجهة النظر القائلة بان النصر فى الحرب العصرية لا يمكن احرازه الا بالتعاون الوثيق والمتسق بين اصناف القوات كلها ، ولاسيما المشاة والمدفعية والمدرعات والطيران .

ما لبث بوريس شابوشنيكوف بعد استلامه منصب رئيس

الاركان العامة ان ارسل فى آذار (مارس) عام ١٩٣٨ الى مفوض الشعب للدفاع وثيقة مسهبة يتحدث فيها ، الى جانب تغطية قضايا انتشار قواتنا الستراتيجى فى الغرب والشرق ، عن القوات المسلحة للعدو المحتمل ونياتها الستراتيجية . فيما بعد بحثت هذه الافكار فى المجلس العسكرى الرئيسى واقرت عموما .

اكد تطور الاحداث اللاحق واقعية هذه الافكار .

منذ الايام الاولى لعمل شابوشنيكوف فى الاركان العامة بين باسف ان وظائف هذه الهيئة وصلاحياتها لم تكن فى الواقع مثبتة وثائقيا . ولم يكن هناك سوى قانون اركان الجيش الاحمر الذى لم يكن يتفق ابدا والمهمات الجديدة ، الاكثر اتساعا للاركان العامة .

واضطر شابوشنيكوف الى ان يعكف على هذه المسالة شخصيا . وبالنتيجة نظر فى اجراءات لاعادة تنظيم عمل الاركان واقرت هذه الاجراءات .

كان شابوشنيكوف يحل ، علاوة على واجباته المباشرة ، مهمات على نطاق الدولة العام . فقد كان ، مثلا ، مقدم التقارير الاساسى ضمن الوفد السوفييتى فى المحادثات مع البعثتين العسكريتين لانكلترا وفرنسا فى آب (اغسطس) عام ١٩٣٩ . ومن المعروف ان حكومتى هذين البلدين بذلتا كل ما فى وسعهما لافشال المحادثات . واذ قامت الحكومة السوفييتية بكل ما هو ممكن لدرء العدوان الفاشى ، اعطت الاركان العامة توجيها باعداد توصيات ملموسة ومدروسة من كل الجوانب يمكن على اساسها التوصل الى اتفاق يرغم المعتدى على التفكير قبل ان يبدأ الحرب .

وطبيعى ان يعكف شابوشنيكوف شخصيا على اعداد هذه الخطة الملموسة للتعاضد لدى قيام المانيا بمختلف اشكال الاعمال العدوانية .

كل هذا ، شان نشاط شابوشنيكوف السابق الذى لا تشوبه شائبة ، رفع من سمعته فى الحزب والدولة . فقد ادخل فى المجلس العسكرى الرئيسى ، وانتخب نائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى . وفى ٧ ايار (مايو) عام ١٩٤٠ منح لقب مارشال الاتحاد السوفييتى . وكان مندوبا فى المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى السوفييتى وانتخب فيه مرشحا لعضوية لجنة الحزب المركزية . واتسمت كلمته فى المؤتمر بغنى مضمونها ، وكانت مشبعة بالقناعة

الشديدة بصواب القضية اللينينية والثقة باستحالة قهر الدولة السوفييتية وقواتها المسلحة . وكان من بين ما قاله : «لحل المهمات الكبرى للعصر الجديد الذى دخلناه ، عصر الانتقال التدريجى من الاشتراكية الى الشيوعية ، يجب ان يكون شغيلة البلاد السوفييتية فى عملهم السلمى بمنأى عن هجوم المعتدين . ولذا فان التقوية المطردة للقدرة الدفاعية لوطننا الاشتراكى وتعزيز الجيش الاحمر والاسطول البحرى الاحمر هما اكثر المهمات ضرورة والحاحا» .

وقد بذل شابوشنيكوف كل طاقته وتجربته الكبرى لتنفيذ هذه المهمة . وفى تلك الفترة كان العمل فى الاركان العامة يتطلب حدا اقصى من القوى . وقد حدثنى الكسندر فاسيليفسكى عن مدى توتر ذلك العمل فى فترة ما قبل الحرب :

– بقى الوضع العام فى الاركان العامة فى ذلك الوقت ، كما هو مفهوم لكل واحد ، معقدا للغاية . ولعلنى لم اعمل سابقا بمثل ذلك التوتر . كانت رائحةالبارود تنبعث من الغرب ومن الشرق . وفى تلك الظروف وضعت على عاتق قوات المناطق العسكرية الامامية مهمة خاصة ، وهى ان تكون مستعدة للعمليات الفورية . واعطيت مهمات فى غاية التوتر ، وكانت تجرى العاب ميدانيةستراتيجية .

كان كل عملنا يجرى تحت قيادة شابوشنيكوف المباشرة . وكانت سمعته كشخصية عسكرية مرموقة واختصاصى ضليع للغاية ، ولاسيما فى مسائل عمل الاركان ، تنمو من سنة الى اخرى . ان المعارف الواسعة والمتنوعة لرئيس الاركان العامة كانت ضرورية الى اقصى حد فى ذلك الزمن المعقد . واذ عملنا ، نحن ضباط الاركان ، تحت قيادته مباشرة ، كنا نتلقى المزيد والمزيد من الخبرات النظرية والعملية لتنظيم العمليات والتخطيط لها واجرائها على نطاق الجيش والجبهة .

غص عام ١٩٣٩ باحداث زادت بشدة من تفاقم الوضع الدولى . كانت الامور تسير وجهة حرب عالمية ثانية . واشتغل قسم العمليات للاركان العامة دون ان يلتقط انفاسه . كان لا بد من مراعاة امكان مختلف الحيل العسكرية السياسية للدول الامبريالية . وكان ينبغى ان تؤخذ فى الاعتبار كذلك التغيرات فى القدرة العسكرية الاقتصادية للبلدان المعتدية نتيجة استيلائها على المزيد والمزيد من الاراضى

واكتساب قواتها خبرة قتالية اضافية . كل هذا انعكس على عملنا اليومى . وكانت الاركان العامة تتبع باهتمام لا يفتر كيفية تطور الاحداث .

مع بداية الحرب العالمية الثانية اتسعت اكثر فاكثر دائرة القضايا التى تحلها الاركان العامة . ولم يكن من الامور السهلة ، مثلا ، التخطيط لحملة الجيش الاحمر التحررية بهدف حماية سكان غرب اوكرانيا وغرب بيلوروسيا من الاستعباد الفاشى الذى يهددهم . وتطلب العمل المرتبط بالحرب السوفييتية الفنلندية جهدا اشد . وهذا ما تحدث عنه كذلك فاسيليفسكى بالتفصيل . فقد قال :

– كان علينا ان نقوم بعمل كبير بسبب النزاع العسكرى الذى نضج بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا وفى خلاله . من المعروف ان محاولات الحكومة السوفييتية لحل هذه القضية عن طريق اتفاق متبادل النفع اصطدمت بالرفض من جانب الاوساط الحاكمة فى فنلندا البرجوازية التى كانت تقف وراءها الدول الامبريالية على امل استخدام اراضيها كراس جسر للهجوم على وطننا .

فى ظروف الوضع المقلق الذى نشأ على الحدود الشمالية الغربية لبلادنا طلبت لجنة الحزب المركزية والحكومة السوفييتية من مفوضية الشعب للدفاع اعداد الاجراءات المضادة الضرورية لضمان امن البلاد .

نظر المجلس العسكرى الرئيسى للجيش الاحمر فى مسائل الاستعداد القتالى للقوات المسلحة السوفييتية فى حال ظهور نزاع عسكرى تثيره فنلندا . واقترحت الاركان العامة الخطة التى اعدتها مسبقا ، لانه لا يمكن نفى امكان العدوان من اراضى فنلندا . انطلقت الاركان العامة لدى وضع هذه الخطة من المعطيات المتوفرة عندها حول بنية الجيش الفنلندى واستعداده القتالى ، وحول الخصائص الطبيعية لميدان العمليات العسكرية السوفييتى الفنلندى ، وحول نظام التحصينات الهندسية فيه ، وحول الامكانات التعبوية لفنلندا ، وحول المساعدة التى قد تنالها من الدول الامبريالية . وبناء على هذا عول على اشراك قوى وموارد لها وزنها الكبير جدا .

وتابع الكسندر فاسيليفسكى قائلا :

– كانت لى ، بحكم واجبى فى العمل ، علاقة مباشرة باعداد خطة

الضربة المضادة فى حالة العدوان من اراضى فنلندا . وقد حدد شابوشنيكوف افكارها الاساسية ومضمونها الرئيسى . واذ ابلغ المجلس العسكرى الرئيسى الخطة ، نوه بان الوضع الدولى الناشئ يتطلب بان تجرى الاعمال العسكرية الجوابية وتنتهى فى مواعيد قصيرة الى الحد الاقصى ، والا فان فنلندا تتلقى مساعدة جدية من الخارج ويطول النزاع . ولذا نبه الى ضرورة الجهود الجدية وحشد قوى كبرى . بيد ان المجلس العسكرى الرئيسى لم يوافق على هذه الخطة واعطى قائد قوات منطقة لينينغراد ميريتسكوف توجيها باعداد خطة تغطية الحدود الى حين ظهور نزاع مسلح .

ان خطة الضربة المضادة التى وضعتها قيادة واركان منطقة لينينغراد العسكرية قدمت فى الموعد الذى حدده ستالين فاقرها .

فى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٣٩ فتح الجانب الفنلندى النار على حرس الحدود السوفييت قرب قرية ماينيلا . وفى الايام التالية استؤنفت هذه الاعمال الاستفزازية . وفى ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) بدأت وحدات الجيش الاحمر الاعمال العسكرية لصد حملات العدو وضمان امن حدودنا . وفى خلال كانون الاول (ديسمبر) لم تستطع قوات منطقة لينينغراد العسكرية ، التى تغلبت على مقاومة ضارية ومنيت بخسائر جدية ، ان تجتاز الا منطقة الحواجز والوصول الى الشريط الرئيسى لخط دفاع مانيرهيم . وفشلت محاولات اختراقه فورا .

فى اواخر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٩ اضطر المجلس العسكرى الرئيسى الى ايقاف العمليات القتالية الفعالة لقواتنا من اجل التخطيط للعملية مجددا والقيام بالاستعداد اللازم لها . وقد نظر فى هذه المسائل اجتماع خاص للمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى اوائل كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٠ . واعدت تحت قيادة شابوشنيكوف خطة للاعمال تلائم الوضع الناشئ فعليا ، اذ اقيمت ، مثلا ، فى ٧ كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٠ فى برزخ كاريليا لاختراق خط مانيرهيم الجبهة الشمالية الغربية التى كانت تضم جيشين . وكلف سيميون تيموشينكو بقيادة قوات الجبهة . وما لبثت نتائج كل هذا ان تجلت لدى تنفيذ العملية .

ولكن كانت خطة صد عدوان كبير المهمة الرئيسية التى عكف

عليها شابوشنيكوف من حيث الجوهر فى خلال السنوات الثلاث من وجوده فى منصب رئيس الاركان العامة فى فترة ما قبل الحرب . وكما بين تطور الاحداث الفعلى اجمالا ، فان هذه الوثيقة كانت تتفق والغرض الذى وضعت من اجله . فقد تنبأت على نحو صحيح ، مثلا ، باتجاه ضربات الجيش الالمانى ، مشيرة الى ان اهم واقوى ضربة من بينها ستكون فى اتجاه موسكو ، اى الاتجاه الغربى . وللاسف ، فبعد نقل شابوشنيكوف الى منصب نائب مفوض الشعب للدفاع ادخلت تعديلات جوهرية فى الخطة واعتبر الاتجاه الجنوبى الغربى ، لا الاتجاه الغربى ، اكثر الاتجاهات خطرا .

يصعب على القارئ غير المطلع تصور مدى ما يتطلب هذا العمل من جهد ، ولاسيما انه اشرك فيه عدد محدود جدا من الاشخاص . ويكفى القول ، مثلا ، انه كان لا بد من التخطيط للقيام بنقل واسع جدا لقوات كل المناطق الداخلية الى الحدود ، والنظر بالتفصيل فى دائرة اجراءات نشر القوات المسلحة ، ووضع الخطط الميدانية لتغطية حدود فائقة الطول ورسم الخطط التقريبية لعمليات القوات الرئيسية بعد نشرها . لقد انجز شابوشنيكوف عملا عملاقا حقا . وهذا ما قوض صحته بشكل خطر .

فى آب (اغسطس) عام ١٩٤٠ نقل شابوشنيكوف الى منصب جديد . ان شابوشنيكوف قد حدث فاسيليفسكى بكيفية حدوث ذلك . دعاه ستالين لهذا السبب بالذات ، وخاض معه حديثا ينم عن الاحترام وشرح له ان تيموشينكو حل مكان فوروشيلوف فى منصب مفوض الشعب بعد النزاع المسلح السوفييتى الفنلندى . ثم قال ما يلى تقريبا : من المفهوم للجميع ان مفوض الشعب ورئيس الاركان العامة يعملان معا ويقودان القوات المسلحة معا ، وعلى الرغم من انك كنت مصيبا فى صدد فنلندا وتطورت الاحداث بالشكل الذى توقعته تماما ، فان الناس لن يفهمونا اذا قمنا بنقل مفوض الشعب وحده . وعلاوة على ذلك ، يجب ان يعرف العالم ان دروس النزاع مع فنلندا اخذت فى الاعتبار تماما . وهذا هام لاحداث الانطباع اللازم فى اعدائنا وتبريد رؤوس الامبرياليين الحامية . والتنقلات الرسمية فى القيادة تسعى الى هذا الهدف بالذات .

وابدى ستالين فى الختام اهتمامه برأى شابوشنيكوف فى هذا الصدد .

اجاب شابوشنيكوف ، الانسان الانضباطى للغاية ، انه مستعد للعمل فى اى منصب يعين فيه .

وما لبث ان اصبح نائبا لمفوض الشعب للدفاع .

قبل الانتقال الى الحديث عن الدور البارز الذى اضطلع به شابوشنيكوف فى فترة الحرب العالمية الثانية ، ساتطرق الى جانب آخر من نشاطه قبل الحرب . لقد تحدثت عنه بالتفصيل بصفته رجل اركان كبيرا . ولكنه اظهر نفسه بجلاء كذلك كقائد قوات بكل ما فى الكلمة من معنى . ففى اعوام ١٩٢٥-١٩٣٧ قاد شابوشنيكوف على التوالى فى فترات متقطعة مناطق لينينغراد وموسكو والفولغا العسكرية ومن ثم لينينغراد من جديد ، وكان فى كل مكان يظهر نفسه على افضل وجه .

فقد اجريت فى منطقة لينينغراد ، قبل كل المناطق الاخرى عمليا ،اعادة تنظيم القوات على اساس مبادئ الميليشيا الاقليمية . وقد استخدمت تجربة لينينغراد القيمة هذه فى المناطق الاخرى على نطاق واسع . وكان شابوشنيكوف استاذا لا يضاهى فى تنظيم التدريبات من كل الاصناف . ففى منطقة لينينغراد نفسها اجريت فى خريف عام ١٩٢٥ مناورات اعطاها اونشليخت نائب مفوض الشعب للدفاع ما تستحقه من التقدير الرفيع . وقد عملت القوات باتساق وتطلع الى الهدف على الرغم من المطر المنهمر والرياح العاصفة ، مبدية ، حسب قول القائد ، «النشاط والاندفاع اللذين منحا الجيش الاحمر النصر على جبهات الحرب الاهلية» . وفى خلال هذه المناورات وجملة من المناورات الاخرى طبق لاول مرة النظام المتسق الذى وضعه شابوشنيكوف لترتيب تدريبات الميدان الواسعة النطاق والاستخدام الشامل للجهاز الوسيط والمواصلات المحايدة . واضطلع انتشار هذا الاسلوب فى كل مكان بدور ايجابى جدى فى تطوير التدريب الميدانى للقوات .

كان شابوشنيكوف نصيرا ثابتا لقاعدة سوفوروف : «الصعوبة فى التدريبات سهولة فى المعارك» . وكان يسبغ ابعادا كبيرة على مبدأ تعليم ما هو ضرورى فى الحرب ، اى كان يعتبر انه لا ينبغى تعليم هذا للمقاتلين فحسب ، بل وللقادة من كل الدرجات حتى اعلاهم . وفى ذلك الوقت ، بل فى وقت لاحق ايضا لم يكن من النادر ان يجرى تفسير هذا الاسلوب بمعنى واحد ، وهو ان من الضرورى

خلق اقسى ظروف للقوات فى التدريبات . اما شابوشنيكوف فكان يعتبر هذا قليلا وغير رئيسى . كان يعتبر ان الامر الرئيسى هو ضرورة تنظيم التدريبات بحيث تتفق والمتطلبات التى تضمن النصر . وهى قبل كل شىء التعاون الماهر بين اصناف القوات كلها ورفض مبدأ الخطوط على النطاقين التكتيكى والعملياتى على حد سواء والتخلص من كل القوالب الجامدة وضرورة اتخاذ القادة من كل الدرجات قرارات مبتكرة وجريئة ، ولكنها مبنية على تحليل الموقف ، مع التنفيذ الالزامى والانضباط الحديدى الذى يقوم على ادراك الناس الرفيع لواجبهم العسكرى . واذ عمل فى لينينغراد ، اطلع بالتفصيل على الاسطول البحرى الحربى ايضا ، الامر الذى استخدمه بعد ذلك فى دراساته حول التعاون بين الاسطول والجيش .

ان شابوشنيكوف ، وهو الاستاذ فى تنظيم المناورات ، كان الى جانب ذلك يعير اهتماما لا يكل للتدريب القتالى العادى ، اليومى وكل حياة القوات ، ولاسيما مسائل ، مثل برنامج الدروس ومراعاته صرامة والحراسة والخدمة اليومية ونظام التسريح من الوحدة والطعام وحالة الثكن والخدمة فى المعسكرات .

ان فرونزه مفوض الشعب للدفاع وفوروشيلوف الذى حل مكانه بعد وفاته المبكرة قد نوها ، بعد زيارتهما لينينغراد ، بان المنطقة العسكرية اصبحت تحت قيادة شابوشنيكوف نموذجية حقا .

وهذا ما ادى الى تعيين شابوشنيكوف قائدا لمنطقة موسكو العسكرية . وهنا ايضا اظهر موهبته التنظيمية وخصاله الانسانية الرفيعة بكل ابعادها ، معيرا شانه دائما اقصى الاهتمام لتحسين كل وسائل تدريب المحاربين وتثقيفهم ، بما فى ذلك التربية السياسية . واليكم ما كتبه فى مقالة له نشرت فى جريدة «كراسنى فوين» بتاريخ ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٧ .

«المقاتل بالنسبة الينا هو قبل كل شىء مقاتل واع سياسيا يعرف لماذا يحارب . ان تكنيك الحرب المعاصرة بتاثيره الفائق التدمير يتطلب من المقاتل صمودا معنويا كبيرا . ولن يتوفر هذا الاخير الا لدى المقاتل المتطور سياسيا والذى يتمتع باعداد قتالى جيد . فقد كان يكمن دائما فى اساس تنظيم الجيش الاحمر الارتباط الوثيق بين حياته والحياة السياسية للبلاد . وهذا ما منحنا النصر فى الحرب الاهلية» .

وانطوت على النتائج المثمرة نفسها بالنسبة الى القوات قيادتى لمنطقة الفولغا العسكرية وقيادته الثانية لمنطقة لينينغراد .

كان سعى شابوشنيكوف اليومى الى تعزيز هيبة القادة من كل الدرجات احدى صفاته الرائعة كقائد . ورعى بحرص خاص قادة الافواج ، معتبرا انهم يشكلون هيكلا للجيش متينا على نحو خاص . اتذكر فى هذا الصدد حديث كونيف عن قيام شابوشنيكوف ، حينما كان قائدا لمنطقة موسكو العسكرية ، بزيارة فوجه الخمسين للمشاة. وكان كونيف حينذاك فى ميدان الرمى . قدم المناوب تقريرا الى القائد عن حالة الفوج وعن مكان وجود الآمر . وبقى شابوشنيكوف ينتظره الى ان حضر ، لانه لم يعتبر من الممكن تفقد الفوج بدون الامر . واختتم كونيف حديثه قائلا :

— هذا يشهد على ان الرئيس الذى يحترم نفسه ومرؤوسيه ، اذ يحرص على هيبة آمر الفوج ، لا يتفقد الوحدة ابدا فى غياب آمرها . وهذا ما كان يتمسك به باطراد ويوحى الى الآخرين دوما بان عليهم ان يتصرفوا على هذا النحو بالذات . . .

ينبغى التنويه بانه كان من مهمات القائد الهامة لدى قيادته الثانية لقوات منطقة لينينغراد اقامة منشآت دفاعية عند المشارف المؤدية الى المدينة اضطلعت بدورها لدى الدفاع البطولى عن لينينغراد فى ايام الحرب الماضية .

ويمكن ان نعزو الى نشاط شابوشنيكوف القيادى ايضا عمله فى منصب نائب مفوض الشعب للدفاع على امتداد السنة السابقة للحرب ، حينما كانت مهمته الرئيسية قيادة اعمال قوات الهندسة لانشاء تحصينات على الحدود الغربية الجديدة لبلادنا . بيد انه استمر حتى فى ذلك الوقت يعير اهتمامه لاعداد القوات للقتال ، وكان يذهب بانتظام الى التدريبات التكتيكية ، حيث قاد ، مثلا ، تدريبات الخريف النهائية فى جملة من المناطق العسكرية واجرى استعراضات تفقدية .

لقد كتب وقيل الكثير فى حينه عن ان حدودنا الجديدة لم تكن معدة للدفاع بما فيه الكفاية ، فى حين ازيلت الاسلحة فى المناطق المحصنة على الحدود القديمة . وفى هذا الصدد القى اللوم ايضا على شابوشنيكوف الذى قاد هذا العمل .

اقول على الفور ان فى هذه الاقوال نصيبا من الحقيقة . ولكن يجب فهم الظروف التى اجريت فيها هذه الاعمال والنقص فى المواد

وضيق الوقت . ويغدو واضحا لدى النظرة الموضوعية الى المسألة انه بذلت جهود عملاقة وتحقق الكثير ، وان لم يكن كافيا .

تبين دراسة الوثائق فى هذا الخصوص ان بناء المناطق المحصنة على طول الحدود الجديدة للدولة جرى بوتائر عالية . ولتنظيم الاعمال وادارتها اقيمت عدة ادارات و١٣٨ قسما للبناء . وبهدف ضمان القوة العاملة للمنشآت شكلت ٨٤ كتيبة بناء ، و٢٥ سرية بناء منفصلة و١٧ كتيبة سيارات . وعلاوة على ذلك اشركت فى البناء ١٦٠ كتيبة مندسة من مناطق الحدود و٤١ كتيبة من المناطق الداخلية . ومنذ ربيع عام ١٩٤١ ساهم فى البناء مع وحدات الهندسة هذه ١٧٨٢٠ عاملا مدنيا . ولتصور حجم العمل فى ربيع عام ١٩٤١ تكفى الاشارة الى انه كان يعمل يوميا فى بناء المنشآت الدفاعية فى منطقة البلطيق ٥٧٧٨ شخصا ، وفى المنطقة الغربية ٣٤٩٣٠ شخصا ، وفى منطقة كييف ٤٣٠٠٦ اشخاص . واستخدم لنقل مواد البناء والمعدات عدد كبير من السيارات والجرارات من وحدات المدفعية .

ولكن اذا كانت الايدى العاملة ووسائل النقل كافية ، فقد كان هناك نقص واضح فى مواد البناء والمعدات بسبب الحجم الكبير للاعمال . ومن الواضح تماما ان الصناعة لم تستطع ان تضمن كل ما يحتاج اليه البناء فى امد قصير . وبسبب النقص فى المواد والآليات وتسليح المعاقل الدائمة والمعدات الاخرى تعرقل تنفيذ خطط البناء المقررة . فمع وجود قرابة ٢٥٠٠ معقل دائم بنيت حتى ربيع عام ١٩٤١ فى المناطق المحصنة الجديدة ، لم يسلح منها تماما الا ١٠٠٠ منشأة . ولم يكن يوجد فى التحصينات الباقية كلها سوى رشاشات قليلة .

بحثت الحكومة بطلب رسمى من شابوشنيكوف فى مسألة تجهيز التحصينات الجديدة بالاسلحة . واقتضى الامر اللجوء الى اجراء اضطرارى ، وهو نقل عدد من المدافع والرشاشات من المناطق المحصنة الموجودة على الحدود القديمة .

ومارست النواقص التنظيمية بمختلف انواعها بعض التاثير فى وتائر البناء . وبسبب عدم تنفيذ خطط الاعمال للاشهر الاربعة الاولى فى عام ١٩٤١ طرح نائب مفوض الشعب للدفاع فى ١٦ ايار (مايو) امام المجالس العسكرية لمنطقة البلطيق والمنطقة الغربية ومنطقة كييف مسألة ازالة النواقص الموجودة . ونتيجة للاجراءات

المتخذة ازداد عدد المنشآت الجاهزة حتى بداية الحرب . بيد ان بناء المناطق المحصنة كان بعيدا عن الانجاز . فقد بقيت بين بعض المناطق المحصنة وعقد الدفاع قطاعات واسعة تتراوح بين ١٠ كيلومترات و٨٠ كيلومترا .

فى ١ حزيران (يونيو) عام ١٩٤١ كان فى المناطق المحصنة للخط الاول فىالمنطقة الغربية العسكرية ١٩٣ منشأة مسلحة دائمة و٩٠٩ منشآت من النمط الميدانى و١٩٣ دبابة (م س -١) مع مدافع من عيار ٤٥ مم مخبأة فى الارض . وهذا يشكل على شريط تغطية المنطقة الذى يبلغ ٤٧٠ كيلومترا كثافة ميدانية عامة تعادل قرابة ثلاث نقاط نيران فى كل كيلومتر من الجبهة . ولم تكن كل المنشآت المسلحة فى حالة استعداد للقتال كما اشار مفوض الشعب للدفاع فى توجيه اعده شابوشنيكوف فى ١١ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ .

والامر نفسه ينطبق على مناطق الحدود الاخرى . وقد انخفض الاستعداد القتالى لبعض المناطق المحصنة بسبب عدم استكمال تجهيز الحاميات الدائمة ، وكذلك لان وحدات المناطق المحصنة لم تتدرب الا قليلا فى المعاقل الدائمة . ان وحدات المدافع والرشاشات للمناطق المحصنة كانت حتى عام ١٩٤٠ تشكل ٢٥٪ من ملاك زمن الحرب . وفى عام ١٩٤٠ اتخذت اجراءات لاستكمال ملاك الوحدات والمفارز فى المناطق المحصنة . وكان القادة يأتون من قوات المشاة كقاعدة عامة . ولم يتسن لبعضهم ان يستوعبوا استيعابا كاملا فى وقت قصير خصائص الخدمة فى المنطقة المحصنة .

الى جانب بناء المنشآت الدائمة فى الشريط الحدودى اقيمت مختلف التحصينات لقوات الميدان . وبناء على تعليمات شابوشنيكوف بنيت المواقع الميدانية بصورة رئيسية فى المواقع الامامية وجزئيا بين نقاط ارتكاز المناطق المحصنة . وبهدف حث بناء التحصينات الميدانية استخدمت قوات المشاة بشكل تدريبى بناء على قرار من مفوضية الشعب للدفاع بتاريخ ٢٣ نيسان (ابريل) عام ١٩٤١ .

ومنذ ربيع عام ١٩٤١ اتسع كذلك بناء المنشآت الدفاعية الميدانية فى مناطق الحدود . وهكذا فقد شيدت فى منطقة البلطيق ١٦٤ منطقة دفاع للكتائب . وبنى عدد كبير منها فى منطقتى سترواميلوف ورافاروسكايا المحصنتين التابعتين لمنطقة كييف

العسكرية الخاصة . وفى بداية حزيران كان قد بنى فى المواقع الامامية فقط ١٨ نقطة ارتكاز للكتائب و٣ نقاط ارتكاز للسرايا المنفردة .

اعتقد ان كل انسان غير متحامل سيفهم من المعطيات الواردة مدى العمل الكبير الذى تحقق تحت قيادة شابوشنيكوف وليس ذنبه ان الوقت لم يسعه لانجاز بناء التحصينات ، اذ نشبت الحرب بسرعة لم يكن يمكن التنبؤ بها .

ان الحرب الوطنية العظمى ، ولاسيما فترتها الاولى ، حينما اصبح شابوشنيكوف مجددا رئيسا للاركان العامة على امتداد سنة تقريبا ، تشكل طبعا فصلا خاصا تماما فى نشاطه .

منذ اول يوم من الحرب ذهب شابوشنيكوف الى مقر قيادة الجبهة الغربية * . لقد اصبح تطور الاحداث الدرامى هناك معروفا على نطاق واسع من تاريخ الحرب الوطنية العظمى . كان من المستحيل معرفة الموقف بالتفصيل ، لان الصلة بين اركان الجبهة والقوات قد انقطعت الا فى حالات نادرة . وكان من الصعب على مخابرات الجبهة ايضا الحصول على معطيات صحيحة لان الاختراقات التى قامت بها قوات العدو منذ الايام الاولى كانت عميقة بشكل لم يكن يمكن التنبؤ به . ومع ذلك فان شابوشنيكوف ، الذى كان يعمل فى الواقع بمثابة ممثل للقيادة العليا ، طلب من كل اركان التشكيلات ، التى زجت فى المعركة حديثا والتى كانت هناك صلة بها ، ان تقف موقف الحرص الشديد ازاء اية وثيقة مانية تقع فى ايدى قواتنا . وما لبثت النتائج ان ظهرت . ففى يوم ٢٤ حزيران (يونيو) حطمت وحدات فرقة المشاة ١٥٥ ، التى زجت فى المعركة لتوها ، قافلة للعدو ابان سيرها على بعد خمسة كيلومترات جنوب غرب سلونيم . وقد عثر فى احدى السيارات المحطمة على خريطة فيها مخطط للوضع واشير فيها الى مناطق واتجاهات ضربات كل الفيالق (فيالق الآليات الثامن والاربعين والسابع والاربعين والرابع والعشرين وفيلق الجيش الثانى عشر) الداخلة فى مجموعة غوديريان المدرعة الثانية .

---

* فى الوقت نفسه أتى الينا جوكوف فى الجبهة الجنوبية الغربية بايعاز من ستالين .

وفى اليوم نفسه وصلت الخريطة الى شابوشنيكوف . وبعد يـ
توصلت كتيبة المخابرات لفرقة المشاة الرابعة والستين
معلومات اكثر قيمة . فهذه الكتيبة هاجمت فجأة وباندفاع تحت ق
الرائد تشوماكوف قافلة لاركان الفيلق الآلى التاسع والثلاثين م
مجموعة غوت المدرعة الثالثة كانت موجودة فى منطقة رادوشكوفيـ
للاستراحة . وفى خلال نصف ساعة تقريبا حرق رجال المخابرات
١٥ سيارة وابادوا حتى خمسين هتلريا اغلبهم من ضباط الار
واسروا ٨ اشخاص . ولكن الوثائق التى تم الاستيلاء عليها كانت
قيمة من السنة الاسرى . وما لبثت ان قدمت الى شابوشنيكوف
واكتشفت بينها خريطة رسم عليها الوضع فى كل منطقة مجموعة جيـ
«الوسط» وبينت اتجاهات اعمال جيوش الميدان ومجمو
مدرعتين واشير الى مواعيد وصولها الى المواقع الستراتيجية فى
الاراضى السوفييتية . كانت الوثائق المستولى عليها تشير بوض
تام الى ان العدو سيوجه ضربته الرئيسية فى وسط الجبهة السوفيـ
الالمانية ، لا فى الاتجاه الجنوبى الغربى كما كان يفترض ، لان
اصبح معروفا ان مجموعة دبابات تعمل هناك . وفى الاتجاه الشـ
الغربى كانت تعمل كذلك مجموعة دبابات .

كان شابوشنيكوف يعلم ان مجموعات الدبابات بالذات هـ
الاساسية فى خطط العدو الستراتيجية . ان التقرير الذى قدم
شابوشنيكوف حول هذا فى الوقت المناسب الى جانب المعل
الاخرى مكن القيادة العليا من اتخاذ قرار هام حول فرز قوات الجبـ
الثالث عشر والتاسع عشر والعشرين والحادى والعشرين والثان
والعشرين الى خط دفينا الغربى ، بولوتسك ، فيتيبسك ، اورش
موغيليوف ، موزير ، وحول اعداد الدفاع الفورى على خط المو
سيليجاروفو ، سمولينسك ، روسلافل ، غوميل بقوات الجبـ
الرابع والعشرين والثامن والعشرين من احتياطى القيادة العليـ
وعلاوة على ذلك ، قرر تشكيل جيشين او ثلاثة من فرق الق
الشعبية فى موسكو . ونقل جيشا لوكين وكونيف السادس
والتاسع عشر بصورة عاجلة من الجبهة الجنوبية الغربية .

حدثنى اندريه ييريمينكو ، الذى قدم الى الجبهة الغربية فى
حزيران (يونيو) ، بان شابوشنيكوف ساعده والجنرال مالاند
(رئيس اركان الجبهة) مساعدة كبيرة على الدخول فى مجرى الامو

ى المارشال شابوشنيكوف جملة من النصائح الملموسة
يم الدفاع فى انسب المواقع الطبيعية .

وفيما بعد استمر بوريس شابوشنيكوف يتتبع باهتمام تطور
ات فى الاتجاه الغربى ، حيث اصبح منذ ١٠ تموز (يوليو)
ا فى هيئة القيادة العليا ،وكان من ٢١ الى ٢٩ تموز (يوليو)
ا لاركان الاتجاه الغربى الذى ضم ، علاوة على الجبهة الغربية ،
ة الوسطى التى اقيمت حديثا . وادى شابوشنيكوف قسطا فائق
فى تنظيم معركة سمولينسك الشهيرة .

حينما كان شابوشنيكوف يترأس اركان قوات الاتجاه ، نظمت
لة من الضربات المضادة بواسطة خمس مجموعات من الجيوش
اعادة الصلة بالقوى الاساسية للجبهة الغربية التى كانت
فى منطقة سمولينسك . هذه الضربات المضادة التى خطط لها
شنيكوف اثارت البلبلة فى معسكر العدو . كان شابوشنيكوف
بقوة على زمام ادارة القوات ويقدر بشكل صحيح نية العدو
قواته .

د انعكس هذا جيدا فى الامر الذى وجهه مارشال الاتحاد
يتى شابوشنيكوف رئيس اركان قوات الاتجاه الغربى فى ٢٥
(يوليو) الى الجنرالات ماسلينيكوف وخومينكو وكالينين
سوفسكى وكاتشالوف . جاء فى الوثيقة : «ان العدو يتحرك
ويحاول تمويه عدم استعداده للاعمال الفعالة بهجمات
وفى مختلف قطاعات جبهتنا . . . وعلى قادة المجموعات
القيام باشد هجوم وعدم تمكين العدو من ان ينظم اموره
من ضرباتنا . يجب عدم المبالغة فى قوى العدو وعدم التفكير
لا يمنى بخسائر ولهذا فهو صامد ولا يقهر . على العكس ، ان
يمنى بخسائر كبيرة ولا يصمد تحت وطأة ضرباتنا الا
» .

اواخر تموز (يوليو) اوقفت الاعمال النشيطة لقوات الاتجاه
العدو على خط فيليكى لوكى ، يارتسيفو ، ييلنيا ،
يف ، جلوبين . وحتى ان العدو اضطر الى التراجع فى بعض
الجبهة تحت ضربات قواتنا .

دت مجموعة غوت الثالثة للدبابات بكل قوتها هجمات
ات ماسلينيكوف وخومينكو وكالينين وروكوسوفسكى . ولم

يكن الوضع افضل بالنسبة الى مجموعة غوديريان الثانية للدبابات . ففى ١٠ تموز (يوليو) خاضت قواتها الرئيسية بالاشتراك مع تشكيلات المشاة معارك طاحنة عند نتوء يبلنيا . «فى هذا الوضع «تشابكت» وحدات الجيش الثانى ومجموعة الدبابات الثانية مع قوات العدو ولم تستطع الخروج من هذه الحالة» ، — كما يشير الجنرال الهتلرى السابق فيليبى . ويطور غوت هذا الاستنتاج ، قائلا : «ان الاجراءات الضرورية للخروج من هذا الوضع الصعب كانت تجذب الى الجنوب قوى متزايدة ، وبهذا دشنت بداية تطور الاحداث الوخيم فى المستقبل» .

وكان من نتائج هذه الضربات المضادة خروج الجيشين السادس عشر والعشرين من التطويق وانتقالهما الى ضفة الدنيبر الشرقية ، حيث اقيمت جبهة دفاع جديدة .

عاد شابوشنيكوف فى ٣٠ تموز (يوليو) الى منصب رئيس الاركان العامة . ينبغى القول ان ممارسة هذا المنصب فى تلك الفترة المسؤولة كانت بالنسبة له ، على ما يبدو ، مهمة صعبة جدا ، ولاسيما اذا اخذنا فى الاعتبار الظروف التى ترك فيها جوكوف هذا المنصب ، حيث اعفى من وظيفته بسبب الخلافات مع ستالين فى صدد عدة مسائل عسكرية-ستراتيجية . تظهر احيانا فى ادبياتنا تلميحات الى انه لم يكن لشابوشنيكوف رأيه وكان يفعل ما يطلبه ستالين فقط . انا اعرف انه كان لرئيس الاركان العامة دوما رأيه المتطابق غالبا ، لا دائما ، مع رأى القائد الاعلى . كان شابوشنيكوف يعرض آراءه بشكل مهذب ، غير لجوج ، ولكن الامر لم يصل الى درجة النقاشات الحادة ، لانه كان يمكن فى تلك الحالة ان يتكرر ما حصل مع جوكوف ، فى حين ان التغيير المتكرر لرؤساء الاركان العامة فى تلك الفترة المتأزمة من الحرب كان غير مرغوب فيه بالمرة ، لان من شأنه ان يحدث من الضرر اكثر مما يحدثه تطبيق قرارات ستالين الخاصة وان لم تكن ، فى رأى شابوشنيكوف ، قرارات مثلى .

مع قدوم شابوشنيكوف الى الاركان العامة تم القيام بعمل كبير لترتيب كل نظام قيادة القوات . وهذا ما شعرنا به فى الجبهة فورا . انا لا اتحدث هنا عن اننا كنا نتلقى كل توجيهات القيادة العليا الى الجبهة الجنوبية الغربية ، ما عدا استثناءات نادرة ، من شابوشنيكوف شخصيا . كان ينقلها عادة كاوامر وايعازات من القائد الاعلى ، ولكننا

كنا نشعر انه قد بذل فى اعدادها غير قليل من عمله الشخصى وعمل الاركان العامة اجمالا . وحتى هذا النقل للاوامر نفسه كان عملا معقدا جدا ، لان المواصلات فى تلك الظروف كانت لا تزال تعمل فى غاية التوتر .

مما يشهد على رباطة جأش شابوشنيكوف الكبيرة ودقته الشديدة لدى نقل توجيهات القيادة العليا هذه الحادثة التى ابلغنى بها مارشال قوات الاتصال بيريسيبكين . وقعت هذه الحادثة فى مستهل تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ . دخل شابوشنيكوف مركز المكالمات فى وقت متأخر من الليل . وقد كلفه القائد الاعلى بالتحدث مع جوكوف قائد جبهة لينينغراد . فى ذلك الوقت كان الاتصال السلكى بلينينغراد المحاصرة يعمل بصورة متقلبة للغاية . باشر العاملون فى الاتصال تنفيذ هذه المهمة الخطيرة بقلق كبير . اقيمت بسرعة صلة تلغرافية باركان الجبهة ، ولكن جهاز بودو ، الذى كان يتطلب تيارا اقوى ، لم يعمل . وانتظر شابوشنيكوف عدة ساعات بصبر . وفى نهاية المطاف تم الاتصال وجرت المكالمة بنجاح .

وخلاصة الامر ان ستالين كان قد نبه شابوشنيكوف الى ان يستخدم جهاز بودو فقط . اذ كان القائد الاعلى يعتبر ان مخابرات العدو لا تستطيع التقاط الحديث فى هذه الحالة . وبالفعل ، كان التقاط عمل جهاز بودو اصعب كثيرا من التقاط عمل ابسط الاجهزة التلغرافية ، ولكنه كان ممكنا على اى حال . وقد برهن على هذا فى خلال الحرب العالمية الاولى ، وكان شابوشنيكوف يعرف هذا طبعا ، ولكنه من لم يعتبر من الممكن الاخلال بايعاز القائد الاعلى ، رغم ان هذا كان يكلفه توترا شديدا وفقدان عدة ساعات من الوقت الغالى بالنسبة الى رئيس للاركان العامة .

وكما قال بيريسيبكين ، فان شابوشنيكوف كان يسبغ مغزى كبيرا على المواصلات . وبمبادرة منه صدر فى مستهل ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤١ ، على سبيل المثال ، توجيه «حول اقامة صلة مباشرة بين الاركان العامة والجيوش» . وكان هذا فى تلك الظروف ضرورة ملحة ، لانه لم يكن من النادر حينذاك ان تضيع الصلة بين اركان الجبهات وجيوشها . وفى هذه الحالة يمكن قيادة اعمالها من موسكو مباشرة . وما لبث هذا الاجراء ان برهن على جدواه . ففى ٧ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ فقدت اركان جبهة بريانسك

الصلة بموسكو وبالجيوش بسبب وصول الدبابات المعادية
منطقة مقر القيادة . واستطاع شابوشنيكوف الاتصال باكثر جي
هذه الجبهة قدرة على القتال – الجيش الخمسين – ووضع امام
قوات الجبهة من خلال قائد هذا الجيش مهمة الخروج من التطوي

قام شابوشنيكوف بعمل تحليلي وتنظيمي كبير لترتيب ا
القوات لان وظائف الاركان العامة اتسعت وتعمقت مع بداية الحرب
لا يقاس .

وهذا تعداد مقتضب للغاية لما فعله المارشال منذ الايام الا
لوجوده فى منصب رئيس الاركان العامة : اعادة الصلة المتواص
بالقوات ، ترتيب نظام ادارة اعمال الجبهات والجيوش بحيث تح
طابعا هادفا ولا تكون مبعثرة ، اقامة التعاون بين الجبهات ، جل
الاحتياطيات من عمق البلاد باسرع وقت ، تدقيق البنية القتالية لق
الجيش العامل بعد ان منيت بضربات قوية من العدو ، اعداد
صارم وتطبيقه فى الممارسة باصرار لتقديم كل اصناف وثائ
العمليات من الاركان الدنيا الى الاركان العليا واعداد عدد م
توجيهات القيادة العليا ذات الطابع المبدئى التى احتفظت باهميت
على امتداد الحرب بأسرها . واعنى التوجيهات حول حماية الجبه
ونقاط التماس ، وحول تنظيم الدفاع المضاد للدبابات ، و
استخدام وحدات النسق الثانى والاحتياطيات .

كان شابوشنيكوف يدرك جيدا ان انشاء احتياطيات ستراتي
ضخمة واستخدامها بشكل صحيح فى ظروف الحرب المعاصرة يشك
واحدة من اكثر المهمات خطورة .

بينت الاشهر الاولى من الحرب ان هيئات الاركان كهيئات لا
القوات اكتسبت مغزى اكبر بما لا يقاس مما فى اية من الحر
السابقة . ان المجال الواسع لعمليات المناورة والاستخدام الم
للمعدات القتالية كانا يتطلبان قبل كل شىء مرونة كبيرة للادا
واذ حلل شابوشنيكوف تحليلا شاملا التجربة القتالية للاركان
الاشهر الاولى من الحرب الوطنية العظمى ، وضع متطلبات جد
لاعدادها . واشار بحق الى المغزى المتعاظم للتواصل فى نظام الا
مع التغيير المتكرر اكثر بكثير لنقاط الادارة ، وازدياد دور الاختي
الشخصى ، وفى صدد هذا طلب باصرار تغيير اساليب عمل الاركا
رفع اهلية ضباط الاركان .

فى ١٧ آذار (مارس) عام ١٩٤٢ اقر شابوشنيكوف وطبق
س الخدمة الميدانية لاركان الجيش الاحمر» الذى اضطلع بدور
فى تثبيت اساليب واحدة لعمل الاركان من مختلف الدرجات ،
تحسين كل نظام ادارة القوات فى المعركة والعملية .

واذ اسبغ شابوشنيكوف مغزى كبيرا على التخطيط الدقيق
يات ، طلب ان يتحقق على مراحل حتما ، لان كل مهمة عملياتية
ب ما يناسبها من ترتيب للقوات واشكال للمناورة . وفى غضون
كان يعتبر من الضرورى التحليل الاعمق للميزان الفعلى للقوى
ارد فى عمق العملية كله مع مراعاة تغيرات الوضع المحتملة
ل تطورها . ان المارشال شابوشنيكوف ، اذ اسبغ مغزى كبيرا
ور التنبؤ الميدانى لدى التخطيط للعمليات ، اعتبر ان من
رى الجمع بين الحساب المفصل ومعرفة وضع لوحة عامة
الاحداث حتى من خلال المعطيات المتناثرة والمتعارضة . وكان
سه استاذا حقيقيا فى التنبؤ ، الامر الذى اقر به حتى اعداؤنا .
الجنرال الفاشى فيستفال الرئيس السابق لاركان الجبهة
: «قبل انتهاء معركة ستالينغراد بامد طويل تنبأ المارشال
شنيكوف بنتيجتها الوخيمة بالنسبة الى الجيش الالمانى» .

لم شابوشنيكوف القيادة والاركان العمل فى خلال العملية ، اذ
اح اية عملية يتوقف مباشرة على مدى ما ضمن لها من القوى
رد الضرورية . وكان يعتبر ان من المستحيل بدون ادارة مرنة
لاعمال القوات تحقيق الاهداف المقررة حتى فى ظل افضل خطة
العملية .

قد ادى شابوشنيكوف قسطه فى قيادة القوات فى المعركة قرب
. وكان منذ يوميها الاولين (٣٠ ايلول/سبتمبر – ١ تشرين
اكتوبر) وحتى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) احد المنظمين
سيين للدفاع عن العاصمة الذى جرى فى ظروف غير مواتية لنا
.

اضطلعت الاركان العامة وشابوشنيكوف شخصيا بدور هام
خاص فى الفترة الاولى ، الاكثر درامية لمعركة موسكو ، حينما
ت قوات الجبهة الغربية لضربات قوية من الجحافل الميكانيكية
ية وهى لا تزال على المشارف البعيدة للعاصمة .

ان الفوهرر يخطط لعرض تقوم به قواته فى الساحة الحمراء ،

وفى ذلك الحين ، منذ ٢٠ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ ، بدأ انشاء خط موجايسك للدفاع . وقد ارسلت الى هناك قوات من الجبهات الاخرى ، وتحركت المدفعية والوسائل المضادة للدبابات ، واجريت اعمال هندسية واسعة النطاق . وتشكلت اركان لمنطقة موجايسك المحصنة ، ولعدة جيوش انشئت حديثا . وفى ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) كانت حواجز قوية تقف فى الاتجاهات الرئيسية للعمليات : جيش روكوسوفسكى السادس عشر فى اتجاه فولوكولامسك ، جيش ليلوشينكو الخامس فى اتجاه موجايسك ، جيش غولوبيف الثالث والاربعون فى اتجاه مالوياروسلافيتس ، جيش زاخاركين التاسع والاربعون فى اتجاه كالوغا . وهكذا ، اقيمت ، فى ايام معدودة جبهة غربية جديدة من حيث الجوهر لم تصد ضربة العدو فحسب ، بل واستطاعت ان تعد بالاشتراك مع جاراتها هجوما مضادا قويا .

فى اواسط تشرين الاول (اكتوبر) اتخذ مجلس الدولة للدفاع قرارا بنقل عدد من اهم المؤسسات الى المؤخرة . وكان فى هذه القائمة النسق الثانى للاركان العامة . فغادر شابوشنيكوف على راسه موسكو فى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) . هذا الاجراء ، بعد ان اصبح واضحا ان العدو لن يدخل العاصمة ، قد يبدو حادثة قليلة الاهمية . وهكذا تناوله اغلب الذين كتبوا عن نشاط شابوشنيكوف . ولكن ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار انه تلقى ايعازا من ستالين شخصيا بان يبذل كل ما هو ممكن ليتسنى فى حالة فقد العاصمة قيادة الجبهات من مكان آخر بشكل يعول عليه كما لو كانت تقاد من موسكو .

استطاع شابوشنيكوف فى اقصر فترة ان ينجز عملا كبيرا ابتداء من اختيار المبانى وانتهاء بانشاء عقدة مواصلات جبارة ترتبط بكل الجبهات ، وبعشرة جيوش فى اهم قطاعات الجبهة السوفييتية الالمانية ، وكذلك باركان المناطق العسكرية فى شمال القفقاس والاورال وآسيا الوسطى وما وراء بايكال .

فيما بعد حدثنى شابوشنيكوف فى احد اللقاءات عن مدى صعوبة هذا العمل بالنسبة اليه من الناحية النفسية . وقال :

— ان القيام به يعنى التسليم ذهنيا بامكان وقوع موسكو فى يد العدو . ولكن هذه الفكرة نفسها كانت مضنية بشكل لا يطاق .

لا يصعب تقدير مدى الالم الذى اثاره كل هذا فى قلب هذا الوطنى المتقد . فقد كانت موسكو بالنسبة الى شابوشنيكوف مدينته

الام . اذ انهى هنا وهو شاب مدرسة المشاة ، وعاش هنا مع انقطاعات قصيرة السنين كلها ، منذ عام ١٩١٨ المكفهر ، بداية الحرب الاهلية .

اسمح لنفسى بان اورد كلمات مقنعة جدا للمارشال زاخاروف حول مساهمة شابوشنيكوف فى اعداد الهجوم المضاد قرب موسكو ، وفى الاحداث القتالية اللاحقة :

— كانت المعارك قرب موسكو لا تزال تحمل طابعا دفاعيا ، حينما اعدت الاركان العامة بتكليف من القيادة العليا خطة لهجوم مضاد ، اعدتها بسرية شديدة . واتت على عجل الاحتياطيات من المؤخرة البعيدة ومن القطاعات الاقل تعرضا للخطر ، وجرى فى كل مكان البحث عن وسائل القتال . وحشدت القوى الجديدة فى اماكن حيث تستطيع فى اللحظة اللازم توجيه ضربة ساحقة الى العدو . وحلت هذه اللحظة . ان القوات السوفييتية ، وقد اخترقت المواقع الالمانية ، الحقت اول هزيمة كبرى بالجيوش الفاشية .

تجلت فى الهجوم المضاد المظفر قرب موسكو قدرة الاركان العامة وقيادتها على التحليل الصحيح والتنظيم الدقيق للعمليات الستراتيجية . وبرزت الخصال المميزة لشابوشنيكوف : التفكير الستراتيجى والثبات ورباطة الجاش .

ولم تكن تقل عمقا عن ذلك آراؤه لدى التخطيط لحملة ربيع وصيف عام ١٩٤٢ . فقد اقترح فى تقرير فى اجتماع القيادة العليا ان يستخدم بصورة متعمدة الربيع الذى اطلت تباشيره للاعمال الدفاعية فقط على كل الجبهة السوفييتية-الالمانية . فهذا ما كان يقتضيه تعب القوات بعد حملة الشتاء الصعبة وموقعها غير المواتى تماما . وكان الدفاع الموقت يمكن من تجميع القوى والاعداد الدقيق للهجوم الحاسم الذى لا يسفر عن النجاح الا فى هذه الحالة . بيد ان اقتراحه لم يلق دعما . وفاز رأى مغاير بعض الشىء : القيام فى جملة من الاتجاهات بعمليات هجومية لاهداف جزئية ، مع الانتقال الى الدفاع من حيث الاساس .

من المعروف ان هذه العمليات لم تتسم بالنجاح . ثمة من يلوم شابوشنيكوف فى هذا الصدد ، لماذا لم يذد عن رأيه ، ولم يناقش فى اجتماع القيادة العليا وما شابه ذلك . اعتقد ان هذا اللوم متهافت .

احكموا بانفسكم . ان رئيس الاركان العامة ، اذ قدم اقتراحات حول خوض العمليات القتالية لاحقا ، كان يمكن وينبغى له ان يعللها ويلقى الاضواء من كل الجوانب على هذه المسألة التى يوجد خلاف فى صددها . ولكنه ، مع اطلاعه على معلومات واسعة ، لا يعرف كل شىء . اما القائد الاعلى فيقدر الموقف العسكرى-السياسى من مواقع اعلى وموثوقة اكثر .

ان المارشال شابوشنيكوف ، وهو انسان يتحلى بالانضباط الشديد ، بذل كل جهوده لتنفيذ القرار المتخذ على افضل وجه . ولا مجال لكى يكون الامر على نحو آخر . ففى الخضوع المطلق للامر جوهر القيادة الواحدة ، اما جوهر الانضباط ففى تنفيذ المهمة المطروحة بشكل جيد وبروح تتسم بالمبادرة .

كلا ، لا يمكن الموافقة على لوم كهذا يوجه الى شابوشنيكوف . لقد كان الجميع يعرفون شرفه وصدقه فى العلاقات بالقادة ، كما يعرفون احترامه لكرامة المرؤوسين . وهذه الصفات كانت تقدر عاليا ، وكان لها تاثيرها الجيد فى المحيطين به .

تكررت اتصالاتى بشابوشنيكوف حينما اصبحت رئيسا لاركان الاتجاه الجنوبى الغربى . وقد ساعدنا المارشال فى التخطيط لعملية بارفينكوفو – لوزوفايا التى تكللت بالنجاح اجمالا . ولكن معرفتى به اصبحت وثيقة بشكل خاص حينما استدعيت فى الثلث الآخير من آذار (مارس) الى موسكو مع تيموشينكو وخروشوف .

وكنت قد طرت الى موسكو قبل ذلك لاطلع على الوضع العام فى الجبهة السوفييتية الالمانية مسبقا .

فى اليوم التالى من وصولى الى موسكو استقبلنى شابوشنيكوف . وقابلت كذلك نائبه فاسيليفسكى .

اول ما لفت نظرى هو ان المارشال كان منهكا . فنظرا لتقدمه فى السن ومرضه كان من الصعب عليه جدا تصريف ذلك السيل من الاعمال الذى كان ينهال عليه يوميا بصفته رئيسا للاركان العامة ، عقل الجيش الذى يقاتل فى ظروف صعبة بشكل لم يعهد له نظير . ولكن كان عنده سند يعول عليه ، وهو نائبه الموهوب الكسندر فاسيليفسكى الذى كان قد ادخر تجربة كبيرة من العمل فى الاركان العامة .

كان المارشال شابوشنيكوف والجنرال فاسيليفسكى ، كما بدا لى ، يكمل احدهما الآخر فى عملهما . فقد كان كلاهما متواضعا ومنفتحا على ممثلى الاركان الدنيا ، وكان يسهل معهما مناقشة كل المسائل والقضايا المرتبطة بشؤون الجبهة . استقبلنى شابوشنيكوف بحرارة شديدة ،لا بل بعطف ابوى . وقد تذكر حديثنا التلفونى الطويل ، وابدى اهتماما شديدا بخططنا .

وحينما ابلغته باننى وضعت والجنرال بودين (رئيس اركان الجبهة الجنوبية الغربية) بامر من القائد العام خطة للهجوم على خاركوف والدونباس ، فكر شابوشنيكوف طويلا ، ثم قال انه يعتبر نجاح هذه العملية اكثر من معضلة .

ولاحظت اننا استرشدنا بامر القيادة العليا الصادر فى كانون الثانى (يناير) . واضفت :

– لم نستطع تنفيذ المهمات التى وضعتها القيادة العليا حينذاك فى قيام قوات الاتجاه فى الشتاء الماضى بعملية بارفينكوفو – لوزوفايا . ولهذا قرر القائد العام ، كما يبدو ، ان من الضرورى مع حلول الربيع التوصل الى تنفيذ تلك الخطة بكل ابعادها .

– لهذا منطقه ، – قال شابوشنيكوف ، – ولكن للاسف الشديد لا توجد عندنا احتياطيات كافية بعد ، وسوف يكون من الصعب جدا ضمان عملية هجومية كبيرة ماديا . بيد ان القائد الاعلى يميل الى القيام بجملة من العمليات الكبيرة الى هذه الدرجة او تلك على ان يكون لها طابع جزئى .

بعد ذلك ابلغته بالخطوط العريضة لخطتنا ، فقال :

– لا بأس . . . لقد اختيرت اتجاهات الضربات بشكل صحيح ، وخطط للتعاون بدقة ، وقرر ادراج القوات المتحركة فى الوقت المناسب . لو وضعت لمشروعكم قاعدة مادية متينة لبشرت ، ولا شك ، بالنجاح . ولكن لا ينبغى نسيان ان تهديد العاصمة لا يزال قائما ، والعدو يحتفظ بقواه الرئيسية فى اتجاه موسكو ، ولذا علينا كالسابق ان نهتم قبل كل شىء بتأمين الاحتياطيات للاتجاه الغربى ، لا للاتجاه الجنوبى الغربى . . .

بعد وصول تيموشينكو وخروشوف ، قيل لنا ان ستالين وشابوشنيكوف سيستقبلاننا فى النصف الثانى من نهار ٢٧ آذار (مارس) . ورأى المارشال تيموشينكو ان اكون انا المتحدث

الاساسى فى خلال استقبال القائد الاعلى لنا . فقد كانت معى كل الوثائق والخرائط والحسابات الضرورية التى كنت اعرفها عن ظهر قلب شأن كل الاحكام الاساسية للوثيقة التى اعددناها . ومع ذلك فقد اضطربت كثيرا قبيل اللقاء المنتظر مع القائد الاعلى . فقبل ذلك لم يتسن لى حتى رؤيته عن كثب .

فى مساء ٢٧ آذار (مارس) وصلنا انا وتيموشينكو وخروشوف الى الكرملين ودخلنا قاعة الاستقبال التابعة لمكتب ستالين . انتظرنا عدة دقائق فقط ، ثم دعينا الى المكتب .

لم يكن هناك احد غير ستالين وشابوشنيكوف . بعد تبادل التحيات امرت بان اقدم تقريرى . اخذت ، وقد فردت الخريطة ، التحدث عن الوضع الميدانى-الستراتيجى الذى نشأ فى الاتجاه الجنوبى الغربى ، وعن نياتنا الستراتيجية فى الصيف .

فى خلال التقرير قاطعنى ستالين عدة مرات ، موجها اسئلة . لم يكن ينبغى للاجوبة عنها ، كما فهمت ، ان تساعده على ان يفهم بدقة بعض تفاصيل اقتراحاتنا فقط ، بل وان تساعده على التأكد مما اذا كانت استنتاجاتنا معللة بما فيه الكفاية . فى الاجوبة ، التى كلفتنى غير قليل من الاضطراب ، ساعدنى شابوشنيكوف كثيرا بملاحظة قصيرة جدا احيانا ، وبمجرد نظرة استحسان احيانا اخرى .

بعد ان انهيت التقرير الذى طال جدا بسبب اسئلة ستالين ، بدأت مناقشته .

ابدى شابوشنيكوف ملاحظة مبدئية . فقد قال :

– من المستبعد ان تكون هناك جدوى من القيام مع بداية الصيف ، كما يقترح المجلس العسكرى للاتجاه ، بحملة هجوم فى منطقة اعمال كل جبهة . اليس من الافضل تركيز الجهود الاساسية لقوات الاتجاه من اجل توجيه ضربة قوية فى اتجاه رئيسى واحد بقوى جبهة واحدة ، او على جناحين متاخمين بقوى موحدة لجبهتين .

هذه الملاحظة اثارت اعتراضنا حينذاك . كان يجب ، حسب تصورنا ، القيام بالعملية الرئيسية عند تماس جبهتينا الاساسيتين : الجنوبية الغربية والجنوبية بهدف تحرير الدونباس وخاركوف . اما انتقال جبهة بريانسك الى الهجوم فى اتجاه اوريول فجعلناه متوقفا على ما اذا كانت قوات الجناح الايسر للجبهة الغربية ستتابع مع بدء حملة الصيف تقدمها الى الغرب الذى توقف بسبب توحل الطرق فى الربيع .

وفيما بعد ، حينما تلقينا ايعاز القائد الاعلى بتقليص مقاييس العملية بشكل جوهرى ، اضطلعت ملاحظة شابوشنيكوف بدور جوهرى بالنسبة الينا .

بعد شابوشنيكوف تحدث ستالين . وقال ، محافظا على هدوئه الرصين ، ما سمعناه تقريبا من شابوشنيكوف :

– اذا خصص للاتجاه الجنوبى الغربى فى الوقت المناسب وبصورة كاملة ما تطلبونه من احتياطيات واسلحة وامدادات بالرجال ، فان الخطة التى تقترحونها مقبولة ولا تثير اية شكوك فى تنفيذها بنجاح . ولكن المصيبة فى اننا لا نملك الآن فى المركز الاحتياطيات والقوى والموارد الاخرى لدعم اتجاهكم بهذا القدر .

ثم فرد ستالين امامنا خريطة صغيرة الحجم والمقياس خططت عليها كل جبهات الجيش الاحمر التى تواجه العدو من بحر بارينتس الى البحر الاسود ، وكذلك ، حسبما فهمنا ، مناطق تشكيل احتياطيات القيادة العليا واهدافها .

قال دون ان يرينا الخريطة :

– فى الوقت الحاضر لا نملك فى احتياطى القيادة العليا سوى بضع عشرات من فرق المشاة يرسل جزء كبير منها عبر الخطوط الحديدية لتعزيز الجبهات التى هى فى امس الحاجة الى الامدادات . وكما ترون ، لا نتمتع ببحبوحة فى الاحتياطيات ، بما فى ذلك مدخرات المصادر البشرية والاسلحة والمعدات القتالية . وانتم تطلبون للاتجاه الجنوبى الغربى وحده اكثر من ثلاثين فرقة مشاة وكمية كبرى من الاسلحة والدبابات والطائرات والامدادات بالرجال . تعرفون بانفسكم اننا لا نستطيع تلبية طلبكم . لهذا السبب بالذات لا يمكن قبول اقتراحكم .

نهض القائد الاعلى من وراء الطاولة ، ثم تابع عرض افكاره ، وهو يتمشى ببطء فى المكتب :

– على اساس دراسة معطيات الموقف الناشىء على الجبهة السوفييتية الالمانية بأسرها استنتجنا ان الهتلريين مع بداية حملة الصيف سيقومون ، على ما يبدو ، بعمليتهم الرئيسية فى اتجاه موسكو ، وسيحاولون مجددا الاستيلاء على موسكو لتوفير انسب الظروف من اجل متابعة الحرب لاحقا . هذا الوضع يرغمنا على الاستعداد فى الوقت المتبقى حتى الصيف لاحباط نيات العدو ،

وافترض ستالين انه لما كان الاتجاه الجنوبى الغربى لا يستطيع والحالة هذه ان يعول على ان يتلقى من المركز الكمية الضرورية من القوات والموارد ، فان علينا ان نتخلى فى حملة الصيف عن الخطط الواسعة للهجوم فى الجنوب ونقتصر على مهمة الاستيلاء على خاركوف فقط . وينبغى فى غضون ذلك ، كما اوضح ستالين ، استباق العدو فى الانتقال الى الهجوم ومباغتته فى مرحلة الاستعداد للاعمال الفعالة والحاق هزيمة به ترغم القيادة الهتلرية على ان تسحب لصد ضربتنا الموجهة الى خاركوف جزءا من قواتها من اتجاه موسكو . وبهذا نسهل الى درجة كبيرة ، فى رأى القائد الاعلى ، صد ضربة العدو الرئيسية الموجهة الى موسكو .

انطلاقا من هذه الاعتبارات ، اقترح ستالين علينا ان نعد ونقدم فى اليوم التالى اقتراحنا فى صدد الاستيلاء على خاركوف .

كرسنا يوم ٢٨ آذار (مارس) كله لاعداد الفكرة العامة لعملية خاركوف الهجومية . وفى المساء استمع ستالين وشابوشنيكوف وفاسيليفسكى الى القائد العام تيموشينكو . ان فكرة العملية التى اعددناها كانت تتطلب ايضا احتياطيات اكثر مما تستطيع القيادة تقديمه ، مع انها لم تكن تتجاوز اطار منطقة خاركوف . وقيل لنا مجددا انه لن يوافق الا على خطة هجوم تقتصر بصرامة على اعمال الاستيلاء على منطقة خاركوف ولا تتطلب لتنفيذها تخصيص احتياطيات كبيرة من القيادة العليا .

. . . فى ذلك المساء دعانى ستالين الى العشاء مع شابوشنيكوف وفاسيليفسكى وتيموشينكو وخروشوف . وحضرت العشاء كذلك مجموعة من جنرالات ادارة الجبهة الجنوبية . فى خلال العشاء خلق ستالين بمهارة شديدة جوا طبيعيا ، رفاقيا . واحاط باهتمامه جميع الجالسين الى المائدة . واستطاع ان يقول لكل واحد شيئا جوهريا ومستحبا اما على شكل نخب موجز ، او بملاحظة ذكية . وقد اسعدنى الحظ بالجلوس الى جانب شابوشنيكوف ، فسمعت منه الكثير من الافكار العميقة حول الحرب والملاحظات الذكية فى صدد ما يجرى حول المائدة .

فى اليوم التالى ، يوم الاحد ٣٠ آذار (مارس) ، عكفنا على العمل من جديد . وبعد جهد جهيد ولد الشكل الثالث لخطة عملية خاركوف . وفى مساء ٣٠ آذار (مارس) نظر فيه ستالين بحضورنا وبمساهمة

شابوشنيكوف وفاسيليفسكى ، وحظى بالموافقة . وحينما شارف الاجتماع على الانتهاء ، دخل مكتب ستالين اعضاء المكتب السياسى مولوتوف وميكويان ومالينكوف وطرحت على المناقشة مسألة رئيس الاركان العامة . قال المارشال شابوشنيكوف انه اصبح من الاصعب فالاصعب عليه بسبب المرض ان ينفذ كل الواجبات المتنوعة والمسؤولة جدا المترتبة على هذا المنصب ويطلب اعفاءه منه .

كان ذلك فى الايام الاخيرة من آذار (مارس) ، وفى ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٢ عين فاسيليفسكى فى منصب رئيس الاركان العامة بقرار من المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى ، والحكومة .

وبقى شابوشنيكوف نائبا لمفوض الشعب للدفاع ، والزم فى الوقت نفسه بان يتقيد تقيدا دقيقا بتوصيات الاطباء والا يعمل اكثر من ٤–٦ ساعات فى اليوم . وكانت دائرة واجباته تضم ثلاث مهمات مسؤولة : مساعدة ملاك اساتذة الاكاديمية العسكرية للاركان العامة واكاديمية فرونزه العسكرية واعداد الانظمة والتوجيهات القتالية الجديدة وقيادة الابحاث العسكرية لتعميم تجربة الحرب .

عكف شابوشنيكوف على عمله الجديد ، شأنه دائما ، باشد ما يكون من المسؤولية . وفى خريف عام ١٩٤٢ كان قد حلل المواد لتعميم تجربة عمليات الشتاء الهجومية ، وبايعاز منه اكملت وزيد عليها ، ولاسيما فى اتجاه التوصيات العملية للقوات .

وما لبثت ان صدرت تحت اشراف شابوشنيكوف عدة مجموعات مقالات عن اهم عمليات الحرب الوطنية العظمى . وكان مشاركا فى التاليف ومحررا لاول دراسة حول تاريخ الحرب الوطنية العظمى ، وهى مؤلف فى ثلاثة مجلدات عن المعركة قرب موسكو .

وفى مدة قصيرة نظرت لجنة اعداد الانظمة ، التى يترأسها ، فى مشاريع نظام المشاة القتالى الجديد ونظام الميدان والانظمة القتالية لاصناف القوات .

فى ٢٠ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤٢ ، بمناسبة اليوبيل الستين لشابوشنيكوف ارسلت اليه اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى تهنئة حارة . ان اللجنة المركزية ، وقد وصفت شابوشنيكوف بمثابة «واحد من انشط منظمى القوات المسلحة وقائد بارز للجيش الاحمر» ، تمنت له الصحة و«العمل المثمر المطرد

لتعزيز قدرة الجيش الاحمر الذى يناضل ببطولة ضد المحتلين الفاشيين الالمان من اجل شرف وطننا واستقلاله» .

واذ نوهت هيئة رئاسة السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى بمآثر شابوشنيكوف الكبيرة ، قلدته وسام لينين . واطلق اسمه على دورات المشاة التكتيكية العليا فى سولنيتشنوغورسك ومدرسة تامبوف للمشاة .

فى حزيران (يونيو) عام ١٩٤٣ عين المارشال شابوشنيكوف رئيسا لاكاديمية الاركان العامة .

لقد شغلت هذا المنصب فى اعوام ١٩٥٦-١٩٥٨ . وعلى الرغم من انه كان قد مضى اكثر من عشر سنوات على وفاة شابوشنيكوف المفاجئة ، فان ذكراه هناك كانت لا تزال حية . واستطعت من الاحاديث مع الذين عملوا هناك فى عهد شابوشنيكوف ، ومن الوثائق التى وضعها ووقعها ان اكون لنفسى صورة كاملة له كرئيس لهذه المؤسسة الدراسية العسكرية الفائقة الاهمية فى تلك السنوات الصعبة بالنسبة اليها ، حينما كان منهاج التعليم مضغوطا ، كما يقال ، الى الحد الاقصى وكان يقتصر على عدة اشهر فقط .

كانت تواجه سلك الاساتذة فى الاكاديمية مهمة اعداد الضباط فى امد قصير للخدمة فى اركان الجيوش والجبهات وتوسيع الافق الميدانى لقادة تشكيلات كل اصناف القوات وانواع القوى المسلحة .

لم يكن من السهل ابدا بناء العملية التعليمية بشكل صحيح ، لانه كانت عند الطلبة كلهم ، كقاعدة عامة ، تجربة قتالية واسعة للغاية ، وكانت هذه التجربة متنوعة جدا جدا . ولم يكن ينبغى تعليمهم بقدر ما كان ينبغى مساعدتهم على ادراك مدى ما كانت تنطوى عليه تجربتهم من طابع ان لم يكن شاملا ، فهو نموذجى على الاقل . وكان على الاساتذة استكمال تعلمهم مهما كانت اهليتهم عالية . وقد نظم شابوشنيكوف رحلات الى الجبهات وفترات تدريب لاساتذة الاكاديمية فى قوات الجيش العامل . بل ونظمت تقارير يقدمها الطلبة الذين اكتسبوا تجربة تعطى اكبر فائدة . ودرست بمبادرة من رئيس الاكاديمية عمليات القوات السوفييتية فى الحرب الوطنية العظمى ، مع العلم ان الدراسة لم تقتصر على العمليات التى

تكللت بالنجاح ، بل تجاوزتها الى العمليات التى لم يتسن فيها تحقيق الاهداف المقررة .

توصل شابوشنيكوف الى استنتاجات وتعميمات هامة طرح بالاعتماد عليها احكاما جديدة فى صدد اعداد الجنرالات والضباط فى اكاديمية الاركان العامة . وكان يعتبر ان المتطلبات الحاسمة للقيادة الميدانية للقوات هى : اتخاذ القرار فى الوقت المناسب مع المراعاة الفعلية للوضع الميدانى ، الطرح الدقيق والواضح للمهمات القتالية ، منح المنفذين مبادرة واسعة فى اطار المهمات المطروحة ، الاختلاط الحى والمباشر مع المرؤوسين والمراقبة الفعالة الدائمة للتنفيذ المقترنة بتقديم المساعدة العملية لهم .

تلقينا فى الجبهة الدراسات النظرية العسكرية التى وضعت تحت قيادة شابوشنيكوف . ومن بين ما اطلعت عليه باهتمام خاص افكاره فى ميدان تنظيم وتنفيذ اعادة التجميع واساليب تحقيق المفاجأة فى العمليات ووسائل القيام بالتعاون لدى تطور العملية . وقد ساعدتنى واركان جبهة البلطيق الاولى لدى تخطيط وتنفيذ عملية ميميل الهجومية التى تطلبت اعادة تجميع ضخمة للقوات فى اقصر فترة .

قال شابوشنيكوف :

– ان المرحلة الآلية للحرب ومعدات القتال المتغيرة تجعل المعركة المعاصرة ، التى تساهم فيها كل اصناف القوات دفعة واحدة ، حاسمة باهدافها وبعيدة بعمقها وسريعة الحركة من حيث وتائر تطورها . . .

وتابع قائلا :

– النار هى الوسيلة الحاسمة للتاثير فى العدو ، والضربة هى الاسلوب الاساسى لتحطيمه . ويتلخص فن القيام بالمناورة فى ان تهيئ انسب الظروف للنار والضربة . ان المناورة والنار والضربة مترابطة اشد الترابط فى المعركة . وعلى المناورة ان توفر انسب الظروف للنار والضربة . ان النار تهيئ الضربة وتمنحها القوة وتحمى المناورة فى الوقت نفسه ، اما الضربة فتستفيد من نتائج النار والمناورة . . .

اتذكر اننى ، وقد اصبحت رئيسا لاكاديمية الاركان العامة ، قرات بسرور شديد ملخص التحليل الذى اجراه شابوشنيكوف

لدروس الصف الاخير فى الاكاديمية . لقد اعطى تحليلا عميقا للاسباب التى لا تحظى العمليات الهجومية نتيجة لها بالتطور المنشـــود فى العمق ، واشار الى الهفوات التى ارتكبناها فى خلال الحرب .

وكذلك اعير التثقيف السياسى للطلبـــة اهتمامـــا كبيرا فى الاكاديمية .

فى الفترة التى كان فيها شابوشنيكوف يقود الاكاديمية ، تلقت الجبهات المئات من القادة ذوى الاهلية العالية . ولكـــن صحـــة شابوشنيكوف تردت فى عام ١٩٤٥ . واستمر بالعمل ، رغم مرضه الشديد ، دون ان يغادر منصبه . ولم يستطع ان يحضر شخصيا دفعة التخرج الاخيرة فى الاكاديمية ، فتوجه الى الخريجين برسالـــة كأنما يستعرض فيه نتيجة نشاطه فى الاكاديمية .

جاء فى الرسالة : «ايها الرفاق الجنرالات والضباط ! اليـــوم تنهون الدراسة بين جدران الاكاديمية العسكرية العليا . وحيث اننى لا استطيع بسبب المرض ان اكون معكم فى هذا اليوم المشهـــود بالنسبة اليكم ، ارجو تقبل تهانى الحارة بالتخرج بنجاح فى الاكاديمية العسكرية العليا . . . ويمكن القول ، لدى استعراض نتائج عشرة اشهر من عملنا المشترك ، ان الاكاديمية ساعدتكم على تنظيم الخبرة القتالية التى حصلتم عليها وادراكها بمزيد من العمق وتطوير معرفة الخصائص التكتيكية والتكنيكيـــة لكل اصناف القوات واستخدام الخبرات التى امتحنتها تجربة الحرب فى تنظيم التعاون بين اصناف القوات فى كل انواع المعارك والعمليات . بيد اننـــى اود فى يوم مغادرتكم الاكاديمية ان اذكركم ، ايها الرفاق الجنرالات والضباط ، بان تلك المعارف والاسس النظرية التى تلقيتموها فى الاكاديمية لا ينبغى ان تكون مسلمات لا تمس وقوالب دائمة لكل حالات نشاطكم القتالى اللاحق ، وبانه لا بد من اغناء هذه المعارف دوما بالتجربة القتالية للحرب الوطنية» .

. . . واذ كان شابوشنيكوف ينتظر النصر بفارغ الصبر ، اصدر قبل انتهاء الحرب بامد طويل امرا الى القسم التعليمى فى الاكاديميـــة باعداد المنهاج الدراسى لفترة السلام . وكانـــت مدة الدراســـة فى الاكاديمية بعد انتهاء الحرب معدة ، بامر منه ، لسنتين دراسيتين ، ونص برنامج الدروس التعليمية ، الى جانب تكتيك التشكيلات العليا وفن العمليات ، على دراسة الستراتيجية والجغرافيا العسكرية وبعض

المواد الاخرى . ومن اجل الدراسة الكاملة والشاملة لاسس العمليات التى ساهمت فيها مختلف انواع القوات المسلحة فى وقت واحـــد ، كان من المفروض ان تقام فى الاكاديمية اقسام خاصة مـــن ضباط القوات الجوية والبحرية . وكان على تشكيل هذه الاقسام ، حسب تفكير شابوشنيكوف ، ان يساعد على التحسين الكبير لاعـــداد الضباط والجنرالات جميعا .

اننى ، وقد باشرت منصب رئيس الاكاديمية ، اقتنعت عـــلى نحو ملموس بمدى دقة تنبؤات شابوشنيكوف .

فى اواخر آذار (مارس) عام ١٩٤٥ انهيت مع اركان مجموعـــة القوات الزيملاندية التخطيط لاقتحام كينيغسبيـــرغ . وفى ٢٧ آذار (مارس) تلفن لى المارشال فاسيليفسكى الذى كان يقود الجبهـــة البيلوروسية الثالثة التى كانت تضم مجموعة قواتنا . واخبرنى بانه قد قضى تماما على التجمـــع الالمانـــى فى هيلسبيـــرغ . بيـــد ان فاسيليفسكى لم يتحدث بلهجة تنم عن السرور . لاحظت هذا وسألته عما يزعجه . فقال :

— لعلك لـــم تعلـــم بعد . لقد توفى امس عزيزنـــا بوريس شابوشنيكوف . لم يعش ليرى انتصارنا الذى عمل من اجله كثيرا وبنكران ذات .

نعم ، لقد توفى شابوشنيكوف قبل هذا العيد البهيـــج بمدة ٤٢ يوما .

فى اليوم التالى قرأنا فى النعى الذى صدر باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ومجلس مفوضى الشعـــب هذه الكلمات الطيبة عنه :

«فى خلال كل فترة خدمة الرفيق شابوشنيكوف على امتداد سنوات طويلة عمل بلا كلل من اجل تطوير قدرة الجيش الاحمر على القتال ، من اجل اعداد وتربية كوادره القيادية ، معدا الجيش الاحمر للدفاع عن الوطن الاشتراكى . ثمة قسط كبير لعمل الرفيق شابوشنيكوف الابداعى والطويل فى انتصارات الجيش الاحمر الرائعة على المحتلين الفاشيين الالمان» .

جاء فى الامـــر الذى اصدره القائـــد الاعـــلى فى يوم دفـــن شابوشنيكوف : «اليوم ، فى ٢٨ آذار (مارس) ، فى الساعة السادسة

عشرة و٣٠ دقيقة سيجرى فى الساحة الحمراء بموسكو دفن مارشال الاتحاد السوفييتى بوريس شابوشنيكوف ، اقدم القادة العسكريين وبناة القوات المسلحة للاتحاد السوفييتى .

ان جيش واسطول الاتحاد السوفييتى ينكسان راياتهما الكفاحية امام نعش شابوشنيكوف ويقدمان آيات التبجيل لواحـــد من قادة الجيش الاحمر البارزين» .

سيميون تيموشينكو



فى ايار عام ١٩٤٠ ، بعد امد قصير من انتهاء الحرب السوفييتية الفنلندية ، التى قاد تيموشينكو فى خلالها الجبهة الشمالية الغربية ، عين فى منصب مفوض الشعب للدفاع . وحينذاك منح اللقب العسكرى الاعلى مارشال الاتحاد السوفييتى .

نحن العسكريين العاملين ، استقبلنا جميعـــا النشاط الجياش لمفوض الشعب الجديد بالارتياح . فقد فعل كل ما يمكـن للنهوض بالاستعداد القتالى للجيش واستيعاب تجربة الحرب العصرية وتطبيقها فى الممارسة وتدعيم الانضباط اكثر فاكثر . وبدأ تحت قيادتـــه تنفيذ اجدى الاجراءات ، ومن بينها تشكيل الفيالق الآلية واستبدال الدبابات والمدافع ومعدات الطيران القديمة . وبمبادرتـه انجزت مفوضية الشعب للدفاع عملا كبيرا لتعبئة الموارد . واجريت فى كل المناطق العسكرية ، ولا سيما الغربية منها ، تدريبـات ومناورات واستعراضات تفتيشية ، واتخذت فى صدد النواقص التى ظهـــرت

اجراءات فعالة ملموسة . وفى تلك الازمنة البعيدة ، حينما كنت عقيدا ومدرسا فى اكاديمية الاركان العامة وكنت انتظر بفارغ الصبر نقلى الى القوات ، لم يخطر على بالى ، بالطبع ، اننى ساخدم فى مستقبل قريب جدا تحت امرة تيموشينكو مباشرة .

فى بداية الحرب الوطنية العظمى ، حينما ترأس ستالين شخصيا مفوضية الشعب للدفاع ، عين تيموشينكو قائدا لقوات الجبهة الغربية ومع تشكيل الاتجاهات عين قائدا عاما للاتجاه الغربى .

وفى ١٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤١ ، فى احرج لحظات المعركة من اجل كييف ، عاصمة اوكرانيا ، اصبح تيموشينكو قائدا عاما لاتجاهنا الجنوبى الغربى مكان بوديونى .

لقد قدم الينا بعد ان شغل منصب القائد العام لقوات الاتجاه الغربى من ١ تموز (يوليو) عام ١٩٤١ . وهناك نشبت تحت قيادته معركة سمولينسك الشهيرة التى ارغمت فيها قواتنا لاول مرة الآلة العسكرية لالمانيا الفاشية على التوقف . واضطر العدو الى الانتقال الى الدفاع ، رغم انه وجه الضربة الرئيسية فى اتجاه سمولينسك موسكو بالذات حيث حشد قوى جبارة بينها جيشان للدبابات .

حينما وصل المارشال الى مقر قيادة الاتجاه كنت مع بارسيفوف رئيس مدفعية الجبهة وفولسكى رئيس ادارة المدرعات وبعض الممثلين المسؤولين لادارة الجبهة بتكليف من الجنرال كيربونوس قائد الجبهة فى الجانب الجنوبى من الجبهة ، حيث كان جيش الجنرال فيكلينكو الثامن والثلاثون يستعد لضربة مضادة بهدف تصفية رأس جسر العدو جنوب شرقى كريمينتشوغ . ولكن فى خلال وجودنا هناك تغير الوضع تغيرا جذريا فى شريط عمليات قوات الجبهة ، حيث ارتسم اختراق من الشمال من قبل مجموعة غوديريان المدرعة الثانية ، ومن الجنوب من قبل مجموعة كليست المدرعة الاولى . وظهر تهديد فعلى بالتطويق . وزالت ضرورة الضربة المضادة . وكنا قد تلقينا المهمة التى يجرى الحديث عنها من اركان الاتجاه ، ولهذا كان لا بد من اخذ اذن من القائد العام بالعودة الى مقر قيادة الجبهة . وتلقينا منه مهمة اخرى ، وهى تنظيم ادارة القوات فى منطقة بلدة ريشيتيلوفكا . بعد تنفيذ هذا الامر اتصلت بالمارشال تيموشينكو . وكان ذلك اول حديث لى معه . اصغى باهتمام الى تقريرى وأمر بالذهاب الى اركان الاتجاه . وهناك اطلعونى على آخر الوثائق الميدانية ومن بينها تقرير

الجنرال كيربونوس الذى ينتهى بهذه الكلمات : «انتقلت الجبهة الى المعارك فى ظروف التطويق وانقطاع المواصلات التام . انقل مقر القيادة الى كييف كمكان وحيد يمكن ادارة القوات منه . ارجو اعداد الاجراءات الضرورية لتزويد جيوش الجبهة بالذخيرة بواسطة الطيران» .

هكذا كان الوضع حينما قبض تيموشينكو على زمام القيادة بيده . يجب ان نعطيه حقه من التقدير ، فقد فهم جوهر الوضع بسرعة وحاول اتخاذ الاجراءات الضرورية لانقاذ الموقف .

استدعانى فى صباح ١٦ ايلول (سبتمبر) . وكان فى مكتبه كذلك خروشوف عضو المجلس العسكرى للاتجاه .

كان تيموشينكو نمطا لانسان كانما خلقته الطبيعة للخدمة العسكرية : طول يكاد يبلغ المترين ، رجلان مستقيمتان رشيقتان على نحو خارق ، منكبان عريضان باعتدال ، اى ، باختصار ، هيئة لا غبار عليها تليق بفارس . اما وجهه المحلوق بعناية بتقاطيعه الخالية من كل شائبة فكانت تضيئه عينان بنيتان فضوليتان تطفحان بالحياة . وكانت بزة المارشال تلائم جسمه وكأنما لم يرتد شيئا آخر فى حياته .

سأل المارشال ، كابحا بوضوح قوة صوته الجهورى ، صوت الفارس المدوى :

– هل تندفع الى موقعك السابق مجددا ؟

– بالضبط . فى وقت عصيب كهذا انا ملزم بان اكون فى اركان الجبهة . وحيث ان كل الطرق مقطوعة ، ارجو السماح بالذهاب بالطائرة .

واذ نظر القائد العام الىّ بما يوحى بالاستحسان تحدث عن الوضع فى اتجاه كييف . ان اللكنة الاوكرانية ، التى لم يحاول اخفاءها ، كانت تسبغ على حديثه نكهة وودا خاصين .

– وضع قوات الجبهة يتردى فى كل ساعة . كان العدو امس على بعد عشرين-ثلاثين كيلومترا عن اركان الجبهة . وقد تختل ادارة القوات بين لحظة واخرى .

تابع واصابعه تمسح فوديه ببطء ، وكأنما يهدئ ألما :

– نحن نفعل الآن كل شىء لمساعدة الجبهة : نحشد فى رومنى ولوبنى كل القوى التى استطعنا جمعها ومن بينها فيلق بيلوف

للفرسان المدعوم بالدبابات وثلاثة الوية مدرعة . وستاتى الينا بعد عدة ايام فرقتا روسيانوف وليزيوكوف . سنحاول بهذه القوى ان نشق طريقنا لملاقاة قوى الجبهة المطوقة . نحن ندرك اننا لا نستطيع تحطيم جيشى الدبابات الفاشيين المندفعين ، ولكننا سنحدث شرخا تستطيع القوات المطوقة ان تخرج من خلاله . هذا هو هدف ضرباتنا . اننا على ثقة بان القائد الاعلى سيسمح للجبهة الجنوبية الغربية فى الوضع الناشئ بالتراجع الى نهر بسيول ، الى خط الدفاع الخلفى ، ولذا قررنا اصدار امر الآن بتنظيم الخروج من التطويق .

تمشى القائد العام فى الغرفة صامتا لمدة تقرب من الدقيقة ، ثم تكلم من جديد :

– سنحاول اليوم مجددا التحدث مع موسكو . آمل فى ان يتسنى لنا اقناع القيادة العليا . وبينما نقوم بالمكالمات ، يجب على كيربونوس واركانه ان يستفيدا من انه لا توجد بعد لدى العدو جبهة تطويق متراصة .

بدا لى وكانما القى تيموشينكو عن كاهله بعد هذه الكلمات عبء آخر شكوك عنده . رقت قسمات وجهه المعبر وزالت التجاعيد على جبينه . وتابع وهو يلفظ كل كلمة بوضوح خاص :

– ايها الرفيق باغراميان ، ابلغ الجنرال كيربونوس بان المجلس العسكرى للاتجاه يعتبر ان الانسحاب المنظم هو الحل الاجدى فى الوضع الناشئ . انقل الى قائد الجبهة امرى الشفوى : ترك منطقة كييف المحصنة مع تغطية بقوى صغيرة على الدنيبر والشروع فورا فى سحب القوى الرئيسية الى خط الدفاع الخلفى . المهمة الاساسية هى التعاون مع احتياطياتنا على تحطيم العدو الذى وصل الى مؤخرة قوات الجبهة ، ثم الانتقال الى الدفاع على نهر بسيول . فليظهر كيربونوس اقصى حد من النشاط ، وليوجه ضرباته بحزم الى اتجاهى رومنى ولوبنى ، ولا ينتظر حتى نخرجه من الطوق . اسرعوا ، ايها الرفيق باغراميان . وليسرع كيربونوس ! سيؤمن الجنرال فالاليف تحليقكم من بولتافا الى منطقة بيرياتين .

مد الى كفه العريض وشد على يدى بقوة .

قبل الحرب قابلت تيموشينكو مرتين ، ولكنهما كانا لقائين خاطفين ، رغم انهما خلفا انطباعا لا يمحى . وفى اللقاء الجديد رأيت بام العين مدى القلق الذى يبديه على القوات الخاضعة له ، ومدى

المسؤولية الكبرى التى يستعد ليحملها على عاتقه فى غضون ذلك .

توجهت دون اضاعة الوقت الى قائد القوات الجوية . قال فالاليف انه خصص لى قاذفة سريعة بطاقم ضليع . وسارت الامور على ما يرام . تأسفت فقط لان الصلاحيات الهامة التى منحنى اياها المجلس العسكرى للاتجاه لم تكن مدعومة بالوثائق . ولكن كان لا بد من ان يؤخذ فى الاعتبار ان الطائرة قد يجرى اسقاطها ، وليس من المرغوب فيه ابدا ان تقع وثيقة كهذه فى يد العدو .

لحسن الحظ جرت الامور كما ينبغى . كانت اركان الجبهة تقع فى قرية فيرخوياروفكا ، شمالى بيرياتين . عانقنى رئيسى الجنرال توبيكوف ، رئيس اركان الجبهة :

– ابننا الضال عاد اخيرا !

انه ، وقد علم بما كلفنى به القائد العام ، سر كثيرا وعجل :

– لنذهب الى القائد ! ينبغى ان نسرع . اذا ابطأنا تشتد حلقة التطويق بحيث يستحيل اختراقها .

كانت قيادة الجبهة فى دغل على بعد عدة كيلومترات عن الاركان . توجهنا الى هناك فى سيارة . قال لى الجنرال توبيكوف فى الطريق انه لم يتسن نقل مقر قيادة الجبهة الى كييف لان التشكيلات المعادية ، التى وصلت الى تماس الجيشين الخامس والسابع والثلاثين ، قد قطعت كل الطرق ، ولذا صار مقر القيادة قرب بيرياتين .

وجدنا عند الجنرال كيربونوس عضوى مجلس الجبهة العسكرى بورميستينكو وريكوف . ابلغته بامر القائد العام . جلس كيربونوس وقتا طويلا يفكر . ولم يحتمل توبيكوف :

– ايها الرفيق كيربونوس ، هذا الامر يلائم الموقف بحيث لا يوجد اى مبرر للتردد . اتسمحون لى بان اعد الامر للقوات ؟

سألنى القائد من غير ان يرد على رئيس الاركان :

– هل احضرت امرا خطيا بالانسحاب ؟

– كلا ، امر المارشال بان انقله شفهيا .

امر القائد بسؤال القيادة العليا ، ولكنها لم تقر امر القائد العام . كان بوسعنا حينذاك ان نخمن فقط اسباب خطوة كهذه . واتضح فيما بعد انه اقتضاها الوضع العسكرى-السياسى العام الذى كانت فيه بلادنا ، حيث تابعت لوحدها صد هجوم المعتدى . فى ذلك الحين كان العدو ، كما هو معروف ، قد حاصر لينينغراد واندفع الى

موسكو . ولم يبق عمليا تحت تصرف القيادة العليا اية احتياطيات كبيرة مستعدة للعمليات القتالية * . ان الدفاع العنيد للجبهة الجنوبية الغربية على تخم الدنيبر الذى سمر قوى كبرى للجيش الالمانى ، وكذلك ، الامر الذى ينطوى على اهمية خاصة ، مجموعتين من اصل اربع مجموعات للدبابات ، خفف فى هذه الحالة من عبء الوضع على الاتجاهين الستراتيجيين الباقيين للجبهة السوفييتية الالمانية ، ولا سيما الاتجاه الغربى (اتجاه موسكو) .

وكان ثمة تاثير ايضا للجو السياسى الدولى المعقد . اذ كان قد بدأ يتكون فى التو واللحظة تحالف الدول المناهضة للفاشية . وكانت اوساط معينة فى الولايات المتحدة تؤكد ان ارسال الاسلحة والمعدات الينا لا معنى له لان انتصار المانيا الفاشية اصبح دانى القطاف . ان فرانكلين ديلانو روزفلت رئيس الولايات المتحدة ، رغبة منه فى نيل معلومات موثوقة ، ارسل الى موسكو فى آب (اغسطس) عام ١٩٤١ ممثله الخاص هارى غوبكينس الذى اطلع بدقة على الوضع فى المؤخرة والجبهة ، وطرح على ستالين فى الحديث الختامى السؤال على المكشوف : اين سيمر خط الجبهة فى شتاء عامى ١٩٤١/١٩٤٢ ؟ وكان عليه ان ينقل الى روزفلت الجواب عن هذا السؤال .

ورد ستالين ان الجبهة ستمر فى اواخر عام ١٩٤١ غربى لينينغراد وموسكو وكييف .

فى تلك الظروف قررت مسألة سحب قوات جبهتنا الجنوبية الغربية . وكانت لجنة الدولة للدفاع تدرك جيدا ان تشكل الائتلاف المناهض للهتلرية يتوقف كثيرا على صمود الجيش الاحمر فى تلك اللحظة . ولهذا طلبت القيادة العليا المحافظة على كييف باى ثمن . بالاضافة الى انها كانت تعتبر انه ما زالت لدى الجبهة قوى كافية لخرق حلقة التطويق فى المستقبل .

هل ينجم عن هذا ان المارشال تيموشينكو اخطأ اذ امر قوات الجبهة الجنوبية الغربية بالشروع فى الانسحاب ؟ نعم ، اذا انطلقنا من مواقع الستراتيجية السياسية ، ولكنه كان مصيبا اذا لم نأخذ فى

* اضطرت بلادنا الى ابقاء جزء هام من القوات فى القفقاس ، اذ كانت تركيا تتصرف على نحو مشبوه جدا ، وكذلك فى الشرق الاقصى ، حيث كان العسكريون اليابانيون ينتظرون مجرد اشارة للهجوم .

الاعتبار سوء الوضع على الجناح الجنوبى للجبهة السوفييتية الالمانية . وقد علمت فيما بعد انه ذاد بجرأة عن وجهة نظره فى هذه المسألة امام ستالين ، ولم يعتبر القائد الاعلى هذه المبدئية مشروعة فقط ، بل امرا يستحق الاطراء .

لن اتحدث هنا عن المصير الدرامى لقوات وقيادة الجبهة الجنوبية الغربية . فقد كتبت عن هذا بالتفصيل فى كتابى «هكذا بدأت الحرب» . اقول فقط اننى بعد خروجى من التطويق لم افارق عمليا تيموشينكو حتى تموز (يوليو) عام ١٩٤٢ . ان فترة فى الحرب تكاد تبلغ السنة هى عصر كامل ، وقد عرفت فى خلال ذلك الوقت تيموشينكو عن قرب شديد وصرت استطيع ان اقدر حق التقدير موهبته القيادية وصفاته الانسانية الرفيعة . مع العلم اننا فى تلك الفترة اصبحنا متقاربين الى درجة ان تيموشينكو حدثنى بالكثير عن سيرته العسكرية فى سن الشباب . وهو لم يفعل ذلك دفعة واحدة ، بالطبع ، بل فى تلك التوقفات النادرة التى قلما كنا ننالها بمشيئة القدر العسكرى .

ترعرع سيميون قسطنطينوفيتش تيموشينكو فى قرية فورمانكا ، منطقة اوديسا . وكان ذلك حسب التقسيمات الادارية حينذاك محافظة بيسارابيا . ولم يكن المارشال يكبرنى سوى سنتين ، فقد ولد فى شباط (فبراير) عام ١٨٩٥ فى اسرة فلاح فقير . وكان ابوه يستأجر من الملاك البيسارابى غيلاس قطعة ارض صغيرة بالمناصفة ، اى كان عليه ان يعطى صاحبها نصف المحصول . وما يتبقى من المواد الغذائية لم يكن يكفى الاسرة لاكثر من نصف سنة ، ولذا كان ابوه يذهب فى الخريف والشتاء مع ارتيل للصيادين الى دلتا الدانوب * .

تسنى لتيموشينكو ان ينهى مدرسة الكنيسة الابرشية فى بلدته فورمانكا . كان يحلم بان يتابع دراسته ، وساعده فى هذا مساعدة منزهة معلمه الذى عكف على اعداده مجانا لامتحانات القبول فى مدرسة

* بقى تيموشينكو مدة طويلة لا يعرف شيئا عن مصير ابويه اللاحق ، لان هذه الاراضى وقعت فى الفترة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٠ تحت سلطة الاقطاعيين الرومانيين . وفيما بعد عرف بصعوبة شديدة ان ابويه توفيا فى عام ١٩٢٥ .

المدينة واشتغل باصرار مع الفتى الذكى * . بيد ان الاسرة كانت فى فقر مدقع ، فاضطر الفتى ، الذى كان يتسم بطول قامته وقوته الجسدية الكبيرة ، الى ان يعمل منذ بلوغه الخامسة عشرة اجيرا ، اول الامر عند المدعو ميركولوف ، وهو رجل ذو مراس يملك مزرعة خضار ضخمة ، ومن ثم عند كولاك الريف المحليين . وحينما نشبت الحرب وحلت سنة دعوته الى الخدمة ذهب الى الجيش . كان ذلك فى عام ١٩١٥ .

اجتاز المجند الغر اعدادا اوليا لمدة ستة اشهر فى الكتيبة الاحتياطية الخامسة والاربعين فى نيقولاييف ، ومن ثم عين فى الفوج الاول للرشاشات (بالاحرى ، كان ينبغى تسمية هذه الوحدة بمدرسة للرشاشات) . وكانوا يختارون للتدريب على الرشاشات اذكى التلاميذ واقواهم جسديا ، لانها كانت حينذاك اهم صنف لاسلحة المشاة . وبالمناسبة ، فان الجيش القيصرى كان قد تلقى فى ذلك الحين بالذات دفعة رشاشات ضخمة من الولايات المتحدة . وكان لا بد من القيام على وجه السرعة باعداد مدربين مؤهلين على استخدام الرشاشات .

كان الفوج يرابط فى اورانيينباوم (مدينة لومونوسوف حاليا) على بعد ٤٠ كيلومترا عن بيتروغراد . ان الاقامة قرب مهد الثورة البروليتارية المقبل ومخالطة زملائه فى الخدمة – وهم من حيث الاساس اناس متعلمون بينهم الكثير من عمال بيتروغراد – كان لهما تأثيرهما المؤاتى جدا فى الاجير الزراعى البيسارابى السابق . واتضح الكثير فى وعيه ، بما فى ذلك الاهداف الحقيقية للحرب الامبريالية . وهكذا ، حينما ارسل ، وقد اصبح مدربا على استخدام الرشاشات ، الى فرقة الفرسان الرابعة التى تعمل فى الجبهة الغربية ، كان يدرك ان الحرب لا تجلب الى الشعب شيئا سوى المقاساة والمجاعة .

واذ ساهم تيموشينكو فى المعارك ، برهن على انه محارب يتسم بالشجاعة الفائقة والهمة العالية ورشح لينال جائزة . ولكن حال دون نيلها المزاج المتمرد لجندى الرشاشات الباسل . لقد شهد تنكيل

* هذه الدروس لم تذهب سدى ، فحينما كان تيموشينكو فى الجيش قدم عن طريق الدراسة الخاصة امتحانات ثلاثة صفوف فى مدرسة المدينة .

السادة الضباط الوحشى بعدد من رفاقه ، ولم يطق صبرا على الظلم والقسوة فطرد باخمص البندقية الغلمان السكارى المستهترين عن ضحاياهم ، وقدم لهذا السبب الى محكمة الميدان العسكرية . وكان الاعدام بانتظار الجندى المتمرد ، لكن فى ذلك الوقت بالذات جرت ثورة شباط (فبراير) . وهى التى انقذت المارشال المقبل من حكم المحكمة القاسى .

ينبغى القول ان الامزجة الثورية كانت منتشرة على نطاق واسع بين جنود فرقة الفرسان الرابعة . وكان تيموشينكو كذلك واقعا تحت تاثيرها تماما . وبعد ثورة اكتوبر العظمى انتقلت الفرقة باكملها (بين تشكيلات قليلة للجيش القيصرى) الى خدمة الثورة . اما الضباط الرجعيون فابعدوا بعد الثورة مباشرة عن قيادة الوحدات والمفارز . كانت الروح الثورية للفرقة الرابعة عالية بحيث نقلت فى الايام الاولى بعد اكتوبر بايعاز اصدره لينين شخصيا من ضواحى ريغا الى منطقة روستوف على الدون فى مواجهة الكاليدينيين ، واضطلعت مع الوحدات والتشكيلات الثورية الاخرى بدور جوهرى فى قمع التمرد المناهض للثورة وتحرير روستوف من عصابات القوزاق البيض .

من المعروف ان الدون اصبح فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ راس جسر للثورة المضادة على نطاق روسيا باسرها . ففى ١٥ كانون الاول (ديسمبر) سقطت مدينة روستوف ، وفى ١٨ كانون الاول (ديسمبر) سقطت مدينة اليكساندروفسك-غروشيفسكى (شاختى حاليا) . وعندئذ ارسلت من بيتروغراد وموسكو وفورونيج واماكن اخرى فصائل الحرس الاحمر وتشكيلات الجنود والقوزاق الثورية . وكانت فرقة الفرسان الرابعة من اكثرها قدرة على القتال . وعهد الى انطونوف-اوفسيينكو بالقيادة العامة ، وقاد سيفيرس القائد العسكرى السوفييتى البارز الرتل الذى كان يضم فرقة الفرسان الرابعة . وقد حررت بمساعدة جملة من وحدات وتشكيلات الحرس الاحمر الاخرى تاغانروغ اولا (١٩ كانون الثانى/يناير عام ١٩١٨) ، ثم روستوف على الدون فى ٢٥ شباط (فبراير) عام ١٩١٨ .

ان تيموشينكو ، وقد سرح فى عام ١٩١٨ بسبب حل فرقة الفرسان الرابعة ، توجه الى الجنوب ليكون على مقربة من مسقط راسه فى منطقة اوديسا ،ولكنه التحق فى الطريق بمفرزة البحر الاسود الاولى للانصار التى كانت تعمل تحت قيادة ماتوزينكو فى

شمال تافريا والقرم . وفحوى الامر ان القوات الالمانية ، وقد انتهكت مجددا معاهدة الصلح (كما حدث ايضا عند اقتحام حدود محافظتى كورسك وفورونيج ومنطقة الدون) ، اخترقت دفاع الوحدات والمفارز السوفييتية القليلة العدد فى بيريكوب ووصلت فى ٢٥ نيسان (ابريل) الى سيمفيروبول . ثم اندفعت بدعم فعال من القوميين البرجوازيين التتر نحو سيباستوبول ، معولة على الاستيلاء على اسطول البحر الاسود . وهناك ، على مشارف القاعدة البحرية العسكرية الرئيسية قاتلت مفارز البحر الاسود التى انضم تيموشينكو اليها . وكان يقف على رأسها قائدا الانصار المحنكان ماتوزينكو وباسينكو . فقد اوقفا ، مثلا ، فى ٢٢ نيسان (ابريل) هجوم المتدخلين عند موقع نهر ألما . ولم يتسلل المتدخلون الى سيباستوبول الا عبر الدروب الجبلية ، متجنبين الموقع الاساسى للمفارز السوفييتية ، بمساعدة القوميين المحليين . وكان على مفارزنا ان تخرج من التطويق . تشير المصادر الالمانية انه لم يتسن للمتدخلين تحطيم مقاومة الحمر قرب سيباستوبول الا بمساعدة «الاصدقاء الجدد من الخيالة التتر» .

برهن تيموشينكو فى هذه المعارك كلها على انه قائد مقاتل بالفطرة ، فهو ، وقد التحق بالمفرزة فى ١ نيسان (ابريل) عام ١٩١٨ بمثابة جندى نفر ، ما لبث ان انتخب آمر فصيلة ، ومن ثم آمر كتيبة . حينما احتل الجيش الالمانى القرم ، كانت مفرزة ماتوزينكو فى نوفوروسيسك ، حيث اعيد تنظيمها لتصبح فوج القرم الاول للفرسان . وفيه قاد تيموشينكو بنجاح كتيبة للرشاشات لدى قمع التحركات المضادة للثورة فى كوبان . وفى هذه المعارك جرح تيموشينكو مرتين ، ولكنه لم يتوقف عن القتال ، ومن آب (اغسطس) عين بسبب مرض ماتوزينكو آمر فوج فرسان القرم .

بعد المغامرة الخيانية لقائد جيش شمال القفقاس الايسيرى سوروكين الذى انتقل الى جانب الثورة المضادة ، اندفع تيموشينكو مع فوجه الى تساريتسين ، محطما فى طريقه حواجز الحرس الابيض . وفى منطقة تساريتسين اندمج الفوج فى الجيش العاشر الذى كان يدافع بثبات عن هذه المدينة الواقعة على الفولغا . وفى خلال ملحمة تساريتسين الشهيرة قاتل فوج القرم ببسالة ومهارة . وحتى فى لحظة وصوله اجترح مآثرة قتالية . لقد اقترب خيالة تيموشينكو من تساريتسين فى لحظة حرجة للغاية ، حينما شنت عصابات كراسنوف

احدى اكثر غاراتها ضراوة على المدافعين عن قلعة الفولغا . ان الضربة الجريئة والمنسقة التى وجهها الفرسان من المؤخرة ارغمت القوزاق البيض على الفرار .

من المميز انه ما لبثت ان ادرجت فى هذه الوحدة ذات الانضباط والتلاحم والقدرة على القتال من الدرجة الاولى كتيبة الفرسان الصربية بقيادة دانيل سيرديتش الاسطورى التى قدمت الى تساريتسين قبل ذلك ببعض الوقت من ضواحى بيكاتيرينوسلاف (دنيبروبيتروفسك حاليا) . وقد قال لى تيموشينكو :

– بقيت فى ذاكرتى مدى الحياة صورة هذا القائد للخيالة ذى الموهبة الخارقة والانسان ذى النبل الفروسى الخاص . كان اسمه يقترن فى ذهننا ، نحن رفاق البطل ، بالاخلاص والعطف والقدرة على التصرف الانسانى بافضل ما فى الكلمة من معنى حتى فى اقسى ظروف الحرب الاهلية . ولكن هذا الاخلاص للاصدقاء كان يقترن عنده فى المعركة بشجاعة فائقة حقا . ان كل الصرب ، الذين كانوا يقاتلون تحت قيادته ، حاربوا بتفان نبيل من اجل سعادة شعبنا .

وقد ابلغنى بوديونى بحادثة وقعت فى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٨ .

– فى المعركة قرب غنيلواكسايسكايا التقيت لاول مرة فوج القرم للفرسان . وفى معمعان المعركة ضد فرقة الجنرال فينوغرادوف الاستراخانية انطلقت الى الجانب الايمن للوائى الاول . وفجأة رأيت من خلال العاصفة الثلجية التى بدأت لتوها نسقا من الخيالة . وفكرت : «هذا فوج خيالة الضباط البيض» . كان هذا النسق يسير متقيدا بكل قواعد نظام الفرسان . ولكن لمعت فجأة شريطة حمراء على قبعة الآمر الفارع المنطلق فى المقدمة . وادركت ، اذ رأيت تيموشينكو ، ان «هذا رجلنا !» . لقد كان هو . وفكرت : «ان الله ارسله الى ، كما يقال» . كان ينقصنى فوج واحد على وجه التحديد لاكمل تطويق فرقة فينوغرادوف . اننى ، وقد استوضحت ما هى هذه الوحدة ، وضعتها تحت قيادتى ووجهت هذا الامر : «أترون القرية ؟ البيض موجودون فيها . ينبغى قطع طريق الانسحاب عليهم وتحطيمهم» . نفذت المهمة على نحو رائع ، كما يليق بالحرس . لقد ساعدنا الفوج فى الاجهاز على استراخانيى فينوغرادوف ، واسر فى غضون ذلك الكثيرين واستولى على غنائم ثمينة . . .

فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٨ اتخذ المجلس العسكرى الثورى للجيش العاشر قرارا بتشكيل فرقة مركبة للفرسان من لوائين تحت قيادة قائد الخيالة الشهير بوريس دومينكو (اصبح بوديونى نائبا له) . وضمت الفرقة لواء الدون السوفييتى الاول تحت قيادة غورودوفيكوف ، وكان موجودا فى السابق ، واللواء الثانى الذى تشكل حديثا والذى اندمجت فيه تشكيلات الفرسان من فرقة جلوبا الفولاذية (وكان غائبا فى ذلك الحين) وفوج القرم . وعين تيموشينكو آمرا للواء الثانى ، ودانيلو سيرديتش نائبا له . وكان اللواء يضم فوجين فى كل منهما خمس كتائب ، وفى كل كتيبة اربع فصائل : ٥٠ سيفا وعربة رشاش واحدة . لم تكن بداية طريق اللواء سهلة . فقد منى بخسائر كبيرة فى المعارك المتواصلة ضد قوى القوزاق البيض التى تفوقه عددا مرات ومرات . وحتى الجسم الحديدى لآمر اللواء استسلم ، فتوقف عن القتال امدا قصيرا . ولكن فى تلك الفترة الوجيزة جرت تغيرات جوهرية .

فى اواخر كانون الثانى (يناير) ومستهل شباط (فبراير) عام ١٩١٩ شن بوديونى على راس لواء الفرسان الاول المعزز غارة عميقة على مؤخرة كراسنوف . ان الفرسان الحمر ، اذ اجتازوا مئات الكيلومترات وهم يخوضون المعارك ، وجهوا الى العدو ضربات مؤلمة وعادوا وقد اتسعت صفوفهم كثيرا . اذ انضم اليهم لواء الدون ستافروبول تحت قيادة بولاتكين وفوج ايلوفلا تحت قيادة كوليسوف وبعض مجموعات الانصار . بالاضافة الى ان الكثير من القوزاق الذين اسروا فى خلال الغارة ابدوا رغبتهم فى القتال من اجل السلطة السوفييتية .

ان هذا الرافد من القوى الجديدة لم يمكن من تغطية خسائر اللوائين الاول والثانى فحسب ، بل مكن ايضا من تشكيل وحدة قتالية جديدة ، وهى اللواء الثالث . وكلف بتشكيله تيموشينكو والمفوض العسكرى باختوروف . كان عليهما البدء من الصفر . اذ كان ينبغى دراسة الناس فى اقصر وقت واختيار من منهم اهل للمناصب ، ابتداء من قادة الفصائل ، وذلك من بين اكثر الاشخاص تمتعا بالاحترام ، القادرين على ان ينظموا بلا تارجح تدريب وتربية المرؤوسين ، ومن ثم قيادتهم الى المعركة .

ادى تيموشينكو هذه المهمة بنجاح . فى ذلك الحين ، فى ٦ شباط

(فبراير) عام ١٩١٩ على وجه التحديد ، جرت حادثة مشهودة فى حياة الآمر المقدام والماهر ، حيث قبل فى الحزب الشيوعى . ولم يخطئ شيوعيو اللواء ، اذ قبلوا آمرهم فى صفوف الحرس الحزبى اللينينى .

روى تيموشينكو ببلاغة خاصة حادثة من فترة قيادته اللواء الثالث تؤكد ان القادة والموجهين السياسيين والشيوعيين جميعا لم يعملوا عبثا . اذ كانت الافواج الحديثة تقاتل مع بقية افواج الفرقة الند للند .

قال ، وهو ينظر مفكرا الى مكان بعيد :

– علقت فى ذاكرتى بشكل خاص المعارك على نهر مانيتش . هناك ، عند قرية نيجنى سوليونى حطمت فرقة الفرسان بمناورة ماهرة – بالالتفاف على الجوانب والهجوم فى الوسط – مقاومة العدو المتمسك بالمرتفعات وابعاده قرابة مئة كيلومتر . وفى محاولة للنجاة ترك البيض فى طريقهم العربات والمدافع اول الامر ، ثم اسلحتهم الشخصية وبزاتهم ، واخيرا رفعوا ايديهم ، واقفين عند احصنتهم المنهكة . وتم الاستيلاء على غنائم لا تحصى واسر كثيرون فى كاميشيفاخا ، حيث توقف اللواء للمبيت . لقد جرى ما جرى واستقر الناس للاستراحة ، اما انا وباختوروف فلم نشأ النوم بحال من الاحوال ، وتوجهنا الى المحاربين . انهم لم يغيروا عادتهم حتى بعد هذا اليوم الحافل : اطعم واسق الجواد صديقك الحميم ، اولا ، ثم فكر فى نفسك . كان الجنود الاكثر نشاطا قد فرغوا من مشاغلهم والتقوا جماعات . توقفنا عند هذه المجموعات وانخرطنا فى الحديث واخذنا نتذكر القمص العنيف فى اعقاب البيض المذعورين ، وذلك الحادث التراجيدى ، حينما لم يستطع احدهم وهو يعبر مانيتش الثبات على السرج فسقط فى الماء . فى ذلك المساء المشهود تفقدنا كل الكتائب تقريبا ، وفعلنا كل ما يمكن من اجل ان يستريح الناس على نحو افضل ، ومن اجل اعداد اللواء للمعارك اللاحقة ، وبعد ذلك فقط سمحنا لنفسينا بان ننام قليلا .

فى الصباح دوت من جهة قرية خوموتوفسكايا طلقات بنادق ورشاشات . وباشارة انذار استعد خيالتنا بسرعة للمسير والمعركة . وما لبث ان اتضح ان فوج الفرسان التاسع عشر من الفرقة الاولى ، الذى كان يقوم بحراسة متقدمة ، اشتبك مع العدو

على الطريق الى قرية خوموتوفسكايا ، ثم دخل الفوج العشرون المعركة ايضا . ان هذين الفوجين ، اللذين كانا يعملان تحت قيادة الآمر الجرىء غورودوفيكوف صدا هجوم قوى ضخمة لفرقة تيريك الثانية المعادية واجتاحاها وانتقلا الى الهجوم المضاد . وعلى اثر اللواء الاول تحركت بلا كلل الافواج الاخرى لفرقة بوديونى الرابعة ، ومن بينها لواؤنا . . .

تراجع قوزاق تيريك البيض ، كما قال تيموشينكو ، الى خوموتوفسكايا . اما فى القرية نفسها المترامية على سهل فسيح فكان يوجد فيلق كوبان تحت قيادة الجنرال بوكروفسكى . فى ذلك الصباح تفقد الجنرال فرقه الثلاث جميعا واستعرض نسقها الذى كان يشغل كل التخم الشرقى للقرية . وحينما حيى الجنرال القوزاق فردوا عليه بصوت واحد ، لم يكن ، طبعا ، يفترض بشكل من الاشكال انه ستنهال فى هذه اللحظة على خيالته الجريئة ضربة مروعة .

جرى كل شىء فى دقائق معدودة . اقتحم لواء غورودوفيكوف القرية فى اعقاب التيريكيين المنسحبين وانقض على نسق الكوبانيين . بيد ان عدم تكافؤ القوى (لواء ضد اربع فرق) جعله يرتد فورا الى الحقل ويكمن للدفاع . ولكن افواج بوديونى كانت قد اقتربت من خوموتوفسكايا مباشرة . هرع الخيالة واطلقوا نيرانا جماعية من البنادق ، واخذت عربات الرشاشات تضرب جوانب التشكيلات ، واستخدمت القنابل اليدوية . هذا السيل المفاجئ والمتدفق من النيران جعل العدو فى حالة ارتباك . بالاضافة الى ان المدفعية المعادية اطلقت فى هذا الهرج نيرانها الاولى على رجالها انفسهم . ان فيلق الحرس الابيض المعد للعرض لم يستطع الانتشار من اجل المعركة ، ولم يكن عنده متسع من الوقت لذلك . واندفع عدد غفير من الخيالة سيلا عارما نحو الجنوب ، الى محطة السكة الحديدية زلوديسكايا .

واذ تنبأ بوديونى قائد الفرقة بان العدو سيحاول الانتقام ، انسحب عائدا الى كاميشيفاخا التى تقع الى الغرب منها مرتفعات مناسبة للدفاع . وبالفعل ما لبث الحرس الابيض ان شرع فى الهجوم . وقد استخدمت كل معدات القتال التى يملكها الطرفان . وعلى اثر المناوشات بالنيران ، اتت هجمات الخيالة على المقدمة والجوانب . ولكن البوديونيين صمدوا فى وجه هذا الهجوم الجنونى . ولم يحل الهدوء

الا فى ساعة متأخرة من الليل حينما ارتد البيض . ولكن كان واضحا ان العدو سيحاول فى الصباح تطويق الخيالة الحمر . ولهذا فى الساعة الثانية ليلا وضعت الفرقة حاجزا من كتيبة واحدة فقط ، وانتقلت الى بعد ١٠ كيلومترات شرقا ، الى قرية راكوفو-تافريتشيسكى . وجرى التقيد بتمويه فى غاية الصرامة : لم يدخن احد ، ولم يحدث صليلا بالمعدن ، ولم ينطق كلمة بصوت مرتفع . وهذه المناورة قررت نتيجة المعركة التى جرت فى اليوم التالى ، ولم تكن فى مصلحة البيض .

قرر البيض شن هجومهم الصباحى بثلاث مجموعات : افترض ارسال فرقتين الى كاميشيفاخا واحاطت مجموعة من قوزاق الدون بهذه القرية من الشمال ، وعند الشروق اقتربت فرقتان ايضا من راكوفو-تافريتشيسكى للوصول من الجهة الجنوبية الشرقية الى مؤخرة المواقع التى كانت تتخذها قوات دومينكو فى اليوم السابق . ان التجمع الاخير ، الذى لم يعلم بمسيرتنا الليلية ، كان اول من تلقى الضربة . لم يتعرض الحرس للقوزاق البيض الذين كانوا يهومون فى مسيرتهم يغلبهم النعاس ، ولكنهم ابلغوا الافواج بقدومهم ، فانقضت بغتة على النسق المعادى . وبارتباك تام تكوم البيض فى حشد ومنيوا بخسائر وفروا مرتدين على اعقابهم فى حالة من الفوضى . واقتحم الخيالة الحمر على اثرهم قرية رودنيكى ، حيث استولوا على عدة مدافع للعدو واطلقوا منها النار على الحراس البيض المنسحبين . وخصص فوج واحد لملاحقتهم ، واندفعت القوى الاخرى نحو تجمع البيض المركزى الذى كان مرابطا فى الوهاد ، مع العلم ان القوزاق كانوا فى تلك الساعة المبكرة لا يزالون نائمين او يتمشون نصف عراة ، اما جيادهم فكانت ترعى فى المروج . ان الغارة المفاجئة قد باغتت الحراس البيض هنا ايضا . وحينما اخذت السيوف تهوى عليهم ، لم يعودوا يفكرون فى المقاومة : منهم من قفز الى حصانه ، واغلبهم فروا حفاة بملابسهم الداخلية .

كان تحطيم فيلق كوبان قرب كاميشيفاخا برهانا ساطعا على المهارة المتعاظمة والبسالة الكفاحية لقوات الخيالة الحمر الفتية . وفى الواقع ، فقد كان عند البيض اكثر من اربع فرق ، فى حين لم يكن عند دومينكو سوى فرقة واحدة . ومع هذا التباين الكبير فى ميزان القوى كان النصر حليف خيالتنا . وبلغت الغنائم فى تلك الايام ثمانية وثلاثين مدفعا وثمانين رشاشا ومدرعتين واكثر من الف حصان مسرج

واشياء كثيرة اخرى . وفى هذه المعركة برهن لواء تيموشينكو على جدارته ايضا . وكان هو والمفوض راضيين تماما عن نتائج العمليات القتالية الاولى . واذا كانت قد بقيت فى السابق ولو ذرة من الشكوك – هل فعل كل ما ينبغى لاعداد الكتائب ، ألن يتضح ان اية منها لن تكون ذات مقدرة كافية على القتال – فانهما صارا واثقين بالمستوى الرفيع لتدرب الجنود الحمر ، وبقدرة الملاك القيادى على ادارة تشكيلاته .

ان تيموشينكو ، وقد غرق فى ذكرياته ، فكر قليلا ، ثم تابع قائلا :

– ساروى حادثة اخرى تعود الى اواخر تموز (يوليو) عام ١٩١٩ .

كانت قد جرت فى الاشهر الثلاثة السابقة تغيرات كبيرة . اذ دمجت فرقة الفرسان الرابعة فى فرقة ستافروبول العمالية الفلاحية التى كان يقودها يوسف اباناسينكو . وتشكل فيلق للخيالة ، مع العلم ان فرقة ستافروبول زيدت واطلق عليها اسم الفرقة السادسة . كانت المعارك تجرى فى قطاع كاميشين الذى انطلق اليه الجيش العاشر من تساريتسين وعلى ميمنته فيلق الخيالة . وكانت فرقتنا مرابطة حينذاك فى قرية اوستروفسكايا الواقعة على نهر ميدفيديتسا .

اكتشفت المخابرات حشدا للبيض فى قرية اوريخوفكا على الضفة الاخرى . وكانت عندهم هناك ثلاثة افواج للخيالة . بعد التشاور مع المفوض العسكرى باختوروف ، قررت تعزيز المواقع الدفاعية وتشديد الحراسة ، لان العدو كان فى وسعه ان يهجم فى اى وقت . ووضعنا المخاضات قرب اوريخوفكا تحت رقابة مشددة بشكل خاص . قال باختوروف : «لعل من الافضل ان اذهب الى هناك . فالنفس اكثر اطمئنانا فى المقدمة» . بدأت المعركة مع حلول المساء . عبر اول فوج للعدو النهر ، فاصطدم بمخفرنا . كان الجنود الحمر قلائل هناك ، ولكن يا لشجاعتهم جميعا ! استقبلوا العدو بطلقات جماعية . واطلق باختوروف ، الذى كان بين الخيالة ، النار من الرشاش . سمعت الطلقات بوضوح ، واجتاحتنى رغبة فى ان اهب لمساعدة هذه الحفنة من المقاتلين ، ولكنى تمالكت نفسى ، فهذا يعنى الاعراب بدرجة من الدرجات عن عدم ثقة بالمفوض العسكرى .

وكنت اثق به ثقتى بنفسى . ولم اكن مخطئا . لا ادرى هل قال باختوروف فى تلك اللحظة كلمات ما للمقاتلين ، او انه الهمهم بمثاله الشخصى ، ولكن موقعنا الامامى لم يتحرك خطوة واحدة ، واضطر الفوج المعادى الى التقهقر بعد ان منى بخسائر كبيرة . . .

فى هذا الحديث يتجلى تيموشينكو بكل خصاله : لقد تكلم عن مآثر الآخرين ببلاغة واخلاص ، ولا سيما عن محبوبه المفوض العسكرى باختوروف ، فى حين تكلم عن نفسه بايجاز وشح وعزوف . ولكن اليكم ما قاله عنه بوديونى ، متذكرا المعركة فى كاميشيفاخا على نهر مانيتش فى ربيع عام ١٩١٩ (فى ذلك الحين كان بوديونى يقود فرقة الفرسان الرابعة) :

– كان الوضع صعبا بحيث كان يبدو احيانا اننا لن نصمد فى وجه هجمة الحشود الغفيرة من القوزاق البيض ، وان الاعداء سيطبقون علينا ويدفعوننا الى النهر الفائض ويغرقوننا . وكان لواء تيموشينكو يقاتل فى اتجاه الضربة الرئيسى . لقد قاتل خيالته ببطولة ، وفى مقدمتهم ، فى معمعان المعركة ، كان يقاتل آمر اللواء الشاب تيموشينكو ، شامخا بقامته الجبارة . كان يهوى بسيفه يمنة ويسرى بعنف يبدو معه ان ضربة واحدة منه تسقط عدة حراس بيض على الارض التى حفرتها سنابك الخيل . . .

وهذا ما حدثنى به ايفان تيولينيف عن اعمال تيموشينكو * :

– فى احد ايام الصيف المشرقة تلقى تيموشينكو فى منطقة قرية اوستروفسكايا امرا بتحطيم لواء الجنرال سوتولوف لمشاة القوزاق ووحدات خيالة الحرس الابيض . كانت العملية معقدة وصعبة . وكان واضحا للجميع انه اذا خسر خيالتنا المعركة ، فسيضطر الجيش العاشر الى الانسحاب نحو الشمال . اما فى حالة نجاحها فتستطيع وحدات الجيش الانتقال الى الهجوم المضاد . امرنى آمر الفيلق بالذهاب الى لواء تيموشينكو . قال بوديونى : «سوف تعمل وحدات تيموشينكو فى الاتجاه الرئيسى لضربة مشاة العدو . اذهب اليه وبين له ما تعلمته فى الاكاديمية . ساعد آمر اللواء» . كانت القيادة كلها

---

* فى تلك الايام عين تيولينيف فى منصب رئيس قسم المخابرات لاركان فيلق خيالة بوديونى .

موجودة فى اركان اللواء : آمر اللواء ومساعده دانيلو سيرديتش والمفوض باختوروف . وكان المساعد والمفوض كلاهما ندين لآمر اللواء من حيث طول القامة ومتانة البنيان . وقد جلسوا الى طاولة مغطاة بخريطة . والى جانبهم ، على حافة النافذة ، وضع تلفون الميدان الذى كان آمر اللواء يوجه بواسطته الاوامر الى قادة الافواج . سألنى تيموشينكو : «علام قدومك ؟» . فاخبرته . «حسنا . . .» دعانى تيموشينكو باشارة منه الى الخريطة وتابع : «لقد تلقينا الامر وندرس الآن الموقف . المهمة واضحة . صعبة . ولكننا ، كما آمل ، لن نخفق ، وسننفذها» . اتفقنا على ان يذهب سيرديتش الى فيلق ، وباختوروف الى آخر ، ونبقى ، انا وآمر اللواء ، فى مقر قيادة اللواء . وما لبث المفوض ومساعد آمر اللواء ان ذهبا . وامضينا نحن ، الاثنين ، الليل معا . تحدثنا بامور كثيرة ، وتعارفنا عن كثب . لقد كان فى حياتنا الكثير من الامور المشتركة . ونمنا حينما كانت ليلة الصيف القصيرة هذه تلفظ انفاسها الاخيرة .

عند الشروق دوت مدفعية العدو . لقد انتقل مشاة العدو الى الهجوم . نشبت المعركة على خط المخفر الامامى . نهضت افواج اللواء فور اشارة الانذار واتخذت مواقع الانطلاق . اندفعنا وتيموشينكو على جوادين وبعد عدة دقائق كنا فى نقطة المراقبة . استوضح آمر اللواء الموقف بسرعة واصدر اوامره لقادة الافواج . قال تيموشينكو : «سوف نعمل حسبما قررنا . نترك مشاة العدو يعبرون نهر خوبيور الى الضفة اليسرى وهناك نصب عليهم النار ، ثم نعزلهم عن النهر بضربة خاطفة فى الجانب والمؤخرة . . .» ابديت ملاحظة تفيد بان الخطة خطرة ، فميزان القوى ليس فى صالحنا . ولن تنفذ الخطة فى حالة هجوم وحدات كبرى من خيالة الحرس الابيض . طمأننى آمر اللواء قائلا : «لا تقلق . عندنا عاملون جيدون على الرشاشات والمدفعية . سنغطى الميمنة بكتيبة معززة بالرشاشات والمدافع» . واضاف تيموشينكو : «وعلاوة على ذلك ، طلبت من رئيس الفرقة دعم اللواء بضربة من اليسار . . .»

حلت المهمة بشكل صحيح مع انها كانت تنطوى على مخاطرة واضحة ، ولكنها مبررة تماما . فى منتصف النهار عبر مشاة العدو خوبيور وهجموا ببطء تعيقهم مجموعة من الفرقة تقدمت من الجبهة

لتقييد حركتهم . وفجأة صبت مدفعيتنا نيرانها على الجانب الايسر للعدو . كان ذلك ايذانا بالهجوم . وبعد نصف ساعة رأينا خيالة فوج الفرقة الثالث والعشرين يندفعون سيلا متدفقا الى مؤخرة مشاة العدو . ولاحظنا كذلك ان الحراس البيض شرعوا فى التراجع فرادى اول الامر ، ثم جماعات باكملها .

قال تيموشينكو : «كل شىء كما ينبغى . ابق هنا ، اما انا فحان الوقت لان اذهب» . همز الجواد واندفع ، مترئسا الفوج الثانى ، الى وسط الحراس البيض .

هزم لواء الجنرال سوتولوف لمشاة القوزاق شر هزيمة . وقد اسر خيالة تيموشينكو قرابة ١٥٠٠ حارس ابيض ، واستولوا على عدة رشاشات وبطارية مدفعية . وبسرور كبير ابلغت آمر الفيلق بنجاحات اللواء فى القتال وبجرأة قائده . ضحك بوديونى من خلال شاربيه وقال : «ليس هناك ما يدعو الى العجب . كل الذين عندنا متطوعون ومحاربون واعون . اى لواء من الويتنا يستطيع ان يحطم بنجاح فرقة قوزاق كاملة» . وفيما بعد اقنعتنى امور كثيرة بان بوديونى كان على حق . وقد اضاف آمر الفيلق حينذاك : «ولا سيما لواء تيموشينكو . هو نفسه خبير بالرشاشات ويستخدم بمهارة القوة الجبارة لنيران الرشاشات . وفى لوائه الكثير من المشاة السابقين المدربين على استخدام السيف . انهم يرمون جيدا ويحسنون استخدام السلاح الابيض» . ولم تفتنى ، بصفتى فارسا سابقا يعرف خيالة الجيش القيصرى ، الاسباب الاخرى لنجاح الخيالة الحمر . لقد نشأ خيالة جدد وظهر معهم تكتيك جديد .

وقال تيولينيف فى الختام :

– وهذا التكتيك صنعه قادة حمر موهوبون بينهم تيموشينكو .

فى خريف عام ١٩١٩ خيم على الجمهورية السوفييتية خطر قاتل . فقد استولت قوات دينيكين على كورسك واوريول وهددت موسكو . واتخذت لجنة حزبنا المركزية والحكومة السوفييتية كل الاجراءات لتنظيم صد الدينيكينيين . وتوجه الى الجبهة الوف الشيوعيين ، وارسلت الوحدات العسكرية من الشرق الى الغرب . واذ كانت لجنة الحزب المركزية تدرك اهمية الخيالة فى تلك الظروف ، توجهت بهذا النداء : «ساعدوا على بناء وحدات الفرسان ! استدعوا

كل الشيوعيين الفرسان ، شكلوا خلايا للفرسان السوفييت» .
وحينذاك ايضا رفع شعار : «الى الجواد ، ايها البروليتارى !»

فى ذلك الوقت المضطرب بالذات احرز الخيالة السوفييت انتصاراتهم الرائعة المتتالية . ان فرقتى الفرسان الرابعة والسادسة للجيش العاشر التى جمعتا فى فيلق بوديونى الاول للخيالة اوقفتا بضربات قوية تحرك جيش الحراس البيض القفقاسى فى منطقة تساريتسين . وفيما بعد الحقتا الهزيمة بقوات القوزاق البيض فى وادى نهر ميدفيديتسا وعلى الدون ، عند قرية قازانسكايا ، فساعدتا بهذا على استقرار وضع الجيشين الثامن والتاسع .

وحقق فيلق الخيالة نجاحات كبيرة ايضا فى الجبهة الجنوبية ، فى منطقة فورونيج ، حيث حطم الخيالة الحمر خيرة قوات القوزاق البيض المتمثلة فى فيلقى مامونتوف وشكورو اللذين كانا يحاولان الوصول الى موسكو . وقد اعتبر لينين الانتصار قرب فورونيج الى جانب نجاحات الجيش الاحمر قرب اوريول وبيتروغراد لحظة انعطاف فى الصراع ضد دينيكين .

قال تيموشينكو متحدثا عن هذه الفترة :

– فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٩ خاض خيالتنا ، الذين ارسلوا الى الجبهة الجنوبية ، معارك عنيفة فى اتجاه كاستورنايا . وقد اعاقت اخطاء قيادة الفرقة السادسة تطور النجاح . وفى وضع معقد جدا امرت بشكل مفاجئ تماما بان اترك اللواء الثالث واباشر قيادة هذه الفرقة . ان ترفيع الآمر يثير فيه افكارا معينة على الدوام . ينبغى التفكير فى واجبات جديدة اكثر اتساعا واشد مسؤولية ، فى اللقاءات والعمل مع اناس لا يعرفهم . واذ حاولت تصور اقرب المساعدين الجدد ، كان من الطبيعى ان افكر فى المفوض العسكرى قبل اى كان . ولكن سارت الامور على نحو جيد ، اذ ارسل ايضا باختوروف الى الفرقة السادسة .

لم تكن اجراءات استلام الفرقة طويلة . كان من المفروض ان يتم الشروع فى القيادة بناء على امر . ولكن فى تلك الظروف لم يكن يكفى ان يكتب : «من هذا التاريخ باشرت ، بناء على المرسوم الفلانى ، تنفيذ . . .» كان لا بد هنا من اعطاء تقويم سياسى للموقف العسكرى وتأجيج النار الثورية فى قلوب الجود الحمر اكثر فاكثر . وادى قسطا فى اعداد هذا الامر المفوض العسكرى باختوروف الذى

كان قلمه وكلمته يتقدان بالاندفاع الثورى . اختلينا معا نضع هذه الوثيقة . كان باختوروف يجلس الى الطاولة ، اما انا فكنت اتمشى فى البيت الفلاحى ، مفكرا فى المعركة المقبلة من اجل كاستورنايا . وفى الفناء كانت عاصفة تعوى . وبدأ باختوروف يقرأ : «. . . لقد وجهت ضربة ماحقة الى العدو ، ومهمتنا ان نجهز على فلوله الهزيلة . اللحظة الحالية خطيرة جدا وتفرض بحزم على كل محارب احمر الادراك الكامل لواجبه الثورى وخدمة هذا الواجب باستعداد كامل للتضحية . لا بد من بذل كل الجهود ، وسنقود قواتنا الحمراء الى تحرير روسيا السوفييتية نهائيا من عصابات الثورة المضادة . . .»

قرأ باختوروف هذا ، وفكر . ثم قال : «الآن يجب تذكير القادة بالدرس القريب العهد ، فبسبب الفرقة السادسة ، التى هى فرقتنا الآن ، تباطأ اندفاعنا الى كاستورنايا» . قلت : «نعم ، اكتب حتما عن الانضباط ، عن التنفيذ الصارم للاوامر . سوف نقطع دابر التقصير» . جلس باختوروف من جديد وخط تتمة الامر بسرعة : «ان الانضباط الثورى الذى يؤدى الى مواظبة وحركة وحدات قواتنا الحمراء يجب ان يكون فى المقام الاول . وكل تقصير وتهاون فى اداء الواجبات من قبل افراد الملاك القيادى والمحاربين سوف اقطع دابرها من الجذر . اننى لعلى ثقة بان الفرقة المكلف بها لن تقوض سمعتها فى اعين بروليتاريا العالم اجمع التى ستكافئ ابناءها البررة على اعمالهم ومآثرهم باضعاف مضاعفة» .

ارسل الامر الى الافواج . واطلع عليه كل الافراد . وقد قال تيموشينكو : «اعتقد انه اضطلع بدور هام فى رفع معنويات الخيالة القتالية» . وعلى اى حال ، فان العمليات القتالية التى بدأت سريعا بينت الصمود الشديد والاندفاع القتالى الجبار لافراد فرقة الفرسان السادسة ، الامر الذى تجلى لدى تحرير كاستورنايا ، ومن ثم الدونباس كافة . اما الدور الخاص الذى اضطلعت به الفرقة السادسة فكان لدى تحطيم قوات دينيكين قرب روستوف على الدون .

تعقبت موجة عارمة من القوات السوفييتية العدو باندفاع ، وفى اواخر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٩ دخلت منطقة الدون . واذ حاول دينيكين انقاذ القوى الرئيسية لجيش المتطوعين ، سحبه الى مواقع محصنة فى روستوف . وانسحب الى نوفوتشيركاسك للالتحاق

به جيش الدون الابيض الذى هزم فى المعارك قرب ميليروفو . وكان امام جيش الخيالة الاول ، الذى كان يخافه دينيكين اكثر من اى شىء ، القيام بجهد جبار آخر للاستيلاء على روستوف ، البؤرة الرئيسية للثورة المضادة فى الجنوب . ولم يكن دينيكين ينوى تسليم مشارف المدينة ولا روستوف نفسها بدون معركة . وكان فى نيته ان يربح المعركة ، حيث حشد تجمعه الاساسى على جبهة امتدادها ٨٠ كيلومترا . ان وحدات جيش المتطوعين وفيلق الجنرال كوتيبوف التى حشدت هناك قامت بتغطية روستوف ، وقام جيش الدون بتغطية نوفوتشيركاسك ، وفى الوسط ، عند النتوء ، استعد للمناورة فيلقا توبوركوف ومامونتوف للخيالة . واقتربت وحدات الكالميك البيض تحت قيادة الامير توندوتوف ووحدات مشاة القوزاق وخيرة افواج ضباط فرقتى دروزدوف وكورنيلوف . لقد اجتمعت قوات كثيرة فى قطاع صغير .

قبل عملية روستوف-نوفوتشيركاسك تم الاستيلاء على تاغانروغ بدون توقف ، وفى ٦ كانون الثانى (يناير) انتقلت الفرقتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة للجيش الثامن ، الذى كان يعمل مع جيش الخيالة الاول ، الى الهجوم على امتداد الطريق من اغرافينوفكا الى ناخيتشيفان . ان الفرقتين ، اذ ابادتا دوريات صغيرة لمامونتوف ، وصلتا الى قرى شيدرين وبوبوف-نيسفيتايسكى ورودیونوف-نيسفيتايسكى . وفجأة انقض خيالة العدو (حتى ٥ آلاف من حملة السيوف) من وراء التلال وانهالوا على الجانب الايسر للفرقتين قبل ان تتمكنا من الانتشار . ونشبت معركة حامية الوطيس . دافع المقاتلون الحمر قدر استطاعتهم ، ولكن كان من الصعب الصمود امام قوى العدو المتفوقة . وفقدت الفرقتان فى هذه المعركة كل المعدات تقريبا و٧٠٠ اسير ، واضطرتا ، يتعقبهما خيالة مامونتوف ، الى الانسحاب الى موقع فرقة الفرسان الرابعة فى اغرافينوفكا وكريبينسكى .

كانت فكرة عملية روستوف-نوفوتشيركاسك تتلخص فى توجيه الضربة الرئيسية بقوى جيشى الجبهة الجنوبية (جيش الخيالة الاول والجيش الثامن) الى روستوف وناخيتشيفان ودونسكايا * وتحطيم

* وجهت قوات الجبهة الجنوبية الشرقية ضربة مساعدة الى نوفوتشيركاسك .

تجمع العدو المحتشد هناك وتحرير روستوف والوصول الى الدون والاستيلاء بلا توقف على معابر النهر الغزير المياه . تلقى جيش الخيالة الاول امرا بالهجوم فى ٦ كانون الثانى (يناير) . وجاء فيه ان على فرقة الفرسان السادسة ان تستولى فى اليوم الثانى ، ٧ كانون الثانى (يناير) على نقاط البيض المحصنة بولشيى سالى ، نيسفيتاى ، غينيرالسكى موست ، وان تستولى فى ٨ كانون الثانى (يناير) بالتعاون مع فرقة المشاة الثالثة والثلاثين وفرقة الفرسان الرابعة وغيرهما من تشكيلات الجبهة الجنوبية على روستوف ، ضامنة الاستيلاء مع بقاء جسر السكة الحديدية على الدون سالما .

فى ٧ كانون الثانى (يناير) الساعة السابعة شرعت فرق جيش الخيالة ، التى تشكل مجموعة ضاربة ، فى تنفيذ المهمات الموضوعة امامها . وما لبثت فرقة تيموشينكو السادسة للفرسان بالتعاون مع فرقة الفرسان الرابعة التى يقودها غورودوفيكوف ان انتقلت الى الهجوم وخاضت معركة مع العدو فى منطقة غينيرالسكى موست . ان البيض ، وقد حشدوا هناك قوى كبيرة من الفرسان ، ابدوا مقاومة ضارية . ومع حلول مساء ٧ كانون الثانى (يناير) شن الدينيكينيون من منطقة غينيرالسكى موست هجوما مضادا على الفرقة السادسة بقوى تصل الى ثلاثة آلاف من حملة السيوف . ولكن تيموشينكو نظم صدا جبارا لهم . ان الفرقة ، وقد طردت البيض ، استعدت لضربة ساحقة توجه الى غينيرالسكى موست ، ولكن ظهرت الى جانبها فجأة مجموعة جديدة للعدو تضم الفين من حملة السيوف . وحد الحراس البيض قواهم وانتقلوا من جديد الى الهجوم المضاد . بيد ان قائد الفرقة لم يرتبك ، بل قاد المعركة بمهارة جامعا بين الدفاع الصلب والمناورة المفاجئة للدينيكينيين وضربات السيوف الجريئة حتى التهور الى جوانب اصحاب الهجوم المضاد . استمرت المعركة الحامية الوطيس الى ان اطبق الظلام تماما . وعلى الرغم من تفوق قوى العدو ، قاتلت فرقة الفرسان السادسة باصرار دون ان تتراجع قيد انملة . فى الليل توقفت المعركة ، ومع الشروق استأنف البيض حملاتهم الضارية . صدها خيالة تيموشينكو ، ثم وجهوا بقوى اللواء الاحتياطى على نحو مفاجئ للعدو ضربة قصيرة ولكنها قوية ، فالحقوا به خسائر كبيرة وردوه الى غينيرالسكى موست .

فى ذلك اليوم لم تحرز التشكيلات الاخرى للجيش الاحمر ، كما

راينا ، نجاحات جوهرية ، واستخدمت قيادة دينيكين نجاحها الجزئي لوقف الذعر الذى اجتاح البيض فى روستوف . فقد نشر فى روستوف نداء يدعو الى الهدوء . وجاء فيه انه لم يجر وقف وحدات الجيش الاحمر فحسب ، بل ابعدت عن روستوف مسافة تربو على مئة كيلومتر . هلل البيض ، ولكن كانت بانتظارهم خيبة مريرة .

بدأت المعارك الحاسمة على مشارف روستوف فى ٨ كانون الثانى (يناير) . وقد وجهت فرقة الفرسان الرابعة ضربة مفاجئة الى العدو ، مستغلة كون الدينيكينيين ، الذين افترضوا ان الهزيمة المزعومة التى الحقتها قواتهم بطليعتنا ضمنت لهم الامن من الشمال ، حشدوا عشية ٨ كانون الثانى (يناير) كل قوى مشاتهم تقريبا ضد فرقة تيموشينكو ، فى منطقة غينيرالسكى موست ، معولين على توجيه ضربة الى جيش الخيالة فى اتجاه قرية بولشيكريبينسكايا .

فى ٨ كانون الثانى (يناير) تجلت صفات تيموشينكو القيادية بقوة جديدة . ان خيالته ، اذ تعاونوا تعاونا وثيقا مع فرقة المشاة الثالثة والثلاثين ، ربحوا معركة تصادفية عنيدة استمرت قرابة اثنتى عشرة ساعة . وحطمت الهجمات المضادة العاصفة للفرقة السادسة وافواج مشاة الفرقة الثالثة والثلاثين عناد الحراس البيض وارغمتهم على الانتقال الى الدفاع ، مما ساعد جيدا فرقة الفرسان الرابعة المهاجمة على امتداد الطريق الى ناخيتشيفان . وبفضل هذا تسنى لغورودوفيكوف ان يدخل بلا عائق تقريبا منطقة قرية اولغينسكى ، ويتحول بغتة الى الغرب ويضرب جانب العدو ومؤخرته فى منطقة غينيرالسكى موست ونيسفيتاى . ان الدينيكينيين الذين انهكتهم الى اقصى حد المعارك مع فرقة الفرسان السادسة اكتشفوا فجأة فى مؤخرتهم قوى جديدة للحمر ، فلاذوا بالفرار الى بولشيى سالى وسلطان سالى ، ولكنهم هوجموا من جميع الجهات فارتبكوا تماما واخذوا يستسلمون للاسر . ومما ساعد على النجاح كذلك كون الرشاشات عملت فى الفرقة السادسة باتساق وايجابية خاصين . انها طفل تيموشينكو المدلل .

ان المعركة فى منطقة غينيرالسكى موست ونيسفيتاى وبولشيى سالى حددت الى درجة كبيرة نتيجة عملية جيش الخيالة الاول فى روستوف . ففى مساء ٨ كانون الثانى (يناير) اقتحمت فرقة الفرسان السادسة روستوف واستولت فرقة الفرسان الرابعة على

ناخيتشيفان . واذ كانت قيادة الحرس الابيض تعتبر الدفاع على مشارف روستوف درعا منيعا ، لم تعد بصورة كافية الخطوط الدفاعية على تخوم المدينة مباشرة وفى وسطها . ان تيموشينكو ، وقد استغل هذا ، ازال حواجز العدو بمهارة وادخل تشكيلته فى روستوف على نحو مفاجئ تماما للدينيكينيين الذين كانوا فى تلك الليلة يحتفلون بعيد الميلاد فى تغافل : فقد اعلن لهم ان الحمر ابعدوا عن روستوف مسافة مئة كيلومتر .

ذلكم هو مجرى الاحداث العام قرب روستوف . ولكنى اود ان استغل ما حدثنى به تيموشينكو واصدقائى الآخرون فى جيش الخيالة واشاطر القراء بعض تفاصيلها .

وهكذا ، فى الصباح الباكر من ٧ كانون الثانى (يناير) غادرت فرقة الفرسان السادسة بولشيكريبينسكايا . وفى قرابة الساعة الثالثة عشرة نهارا اصطدم فوجها الرابع والثلاثون ، قبل ثلاثة كيلومترات من وصوله الى بلدة غينيرالسكى موست ، بوحدات البيض الامامية وبدأ تبادل اطلاق النار . وسمع الى اليسار اطلاق كثيف وصوت الرشاشات ، ودوت المدافع من مكان ما . كانت فرقتنا ، فرقة كوبان الثالثة والثلاثون للمشاة ، التى وصلت الى هناك قبل فرقة الفرسان السادسة ، تخوض المعركة .

كان دولغوبولوف آمر الفوج الرابع والثلاثين ، الذى اختبأ خلف شجيرات الى جانب الطريق ، يراقب ميدان المعركة دون ان يزيح المنظار عن عينيه . اشتد تبادل اطلاق النار . وخرج من بلدة غينيرالسكى موست نسق كبير من الخيالة . ومن بعيد الى اليسار تراءت نقاط سوداء تنتشر فى الحقل : ما لا يقل عن اربع كتائب مشاة . وسمع من هناك ايضا هدير الدبابات الابح . وما لبث ان اصبح من الممكن تمييزها وعدها : ثلاث كتل تتهادى فى مشية خرقاء . اتخذ دولغوبولوف الاجراءات الضرورية لاستقبال العدو قبل وصول القوى الاساسية ، لان القوى الرئيسية لفرقة الفرسان السادسة كانت قد تحركت من جهة تشيستوبولييه .

انتظمت الافواج للهجوم على مرأى من العدو . ولاحت امام الجبهة العباءة السوداء لرئيس الفرقة تيموشينكو . وبعد دقيقة انطلق الخيالة الحمر لملاقاة العدو باندفاع رهيب ، فكان التراب يرتفع مع الثلج من تحت سنابك خيولهم . لمعت آلاف السيوف وارتفعت الحراب .

كانت الريح تصفر فى الآذان . لم يكن قد بقى بين العدوين سوى ٢٠٠ متر او ١٥٠ مترا حينما ارتفعت من الطرفين فى لحظة واحدة الوف الاصوات تهتف «اورا» فطغت على وقع حوافر الخيل وطقطقة البنادق المنبعثة من الجناحين .

من سينهار اولا ، من سيتنحى جانبا ؟ ولكن كلا . تلوح بسرعة قوائم الخيل واذيال العباءات . تصادمت الصفوف الاولى . وارتفع صليل وقع السيوف على السيوف . وكانت الخيول المزبدة تنتصب على قوائمها الخلفية ويقفز بعضها على بعض . واختلط الحابل بالنابل . كانت السيوف تعمل قطعا وتجريحا . وسقط الكثيرون صرعى . ولكن المعركة لم يخمد اوارها . الى اليمين ارتفعت طلقات الرشاشات . انتشرت العربات وضربت جناح البيض . فاصيبوا هناك بالارتباك بعض الوقت . ولكن اخذ العدو فيما بعد يضغط بمزيد من القوة . كانت كل الدلائل تشير الى انه لا يريد ترك ميدان المعركة . شددت قواتنا بدورها من الهجوم وقذفت بالبيض فى الجناح الايمن .

انتقلت افواج الفرقة السادسة الى الهجوم عشر مرات . ولما كان البيض لا يريدون تسليم مواقعهم ، فقد دافعوا بعناد وحشى . وفى نهاية المطاف جفلوا واخذوا فى التراجع . وتقدمت قواتنا الى الوسط والجناح الايمن . جرت المدفعية بطارياتها وبدأت تضرب بلدة غينيرالسكى موست .

اقترب المساء . وحل الغسق بسرعة . ونزل ثلج لزج يخلف قطرات صغيرة على الوجوه والايدى . وفى ميدان المعركة اخذ يجرى هنا وهناك تراشق بنيران البنادق والرشاشات . وفوق السهب تطايرت الطلقات من جهة غينيرالسكى موست . واخذت تنفجر قنابل الشرابنيل . وردت عليها مدفعيتنا . وحطم خيالة اللواء الاول بدون جهد يذكر نسق المامونتوفيين الذى قدم الى الهجوم الاخير ، فاخذ ينسحب على عجل . وانطلق كنيغا آمر اللواء ملوحا بالسيف ، وقاد افواجه لتعقب المنسحبين .

لوحظت هنا حركة نسق كبير (حتى ٢٥٠٠ من حملة السيوف) ينطلق خببا ، ملتفا على جانبنا الايسر ، حيث كانت تدافع فرقة كوبان الثالثة والثلاثون ولواء الفرسان الثانى بقيادة اباناسينكو . واذ رأى نسق العدو المتراجع الامدادات توقف وبدأ يتحول الى الجبهة من جديد ، مستعدا للهجوم . رأى قائد الفرقة السادسة كل هذا ، فقدر

الموقف بسرعة وقرر مهاجمة نسقى العدو كليهما فورا لكى لا يترك لهما فرصة الانتشار تماما من اجل المعركة . قال للمفوض :

– سأكون فى اللواء الثانى . واذهب انت الى كنيغا . فليهاجم بلا تأخر . فى النهار كان الموقف اكثر حرارة بكثير . من الواضح ان مامونتوف قرر القيام بمحاولة اخيرة .

قفز الفرسان الى الجياد وانطلقوا فى الميدان . وعدت فى اثرهم مجموعات صغيرة من جيش الخيالة .

لم يكن قائد الفرقة فى ذلك اليوم يعرف للتعب معنى . وقد قاد الافواج شخصيا الى الهجمات والهجمات المضادة ، وحينما لم يكن ضغط الخيالة يتكلل بالنجاح ، كان يغطى انسحابهم بنيران الرشاشات والمدفعية . بعد الضربات النارية انتقلت افواج الفرقة السادسة من جديد الى الهجوم بنسق من الخيالة ، متغلغلة بعمق فى صفوف العدو القتالية . فى احدى الهجمات اخترق تيموشينكو مع كتيبة الاركان مواقع نيران المدفعية المضادة . ارتبكت الطواقم واخذت تطلب الرأفة . فامرها قائد الفرقة :

– اديروا المدافع واطلقوا على الحراس البيض الاوغاد !

امتثل البيض للامر الشديد اللهجة ونفذوا رغبة تيموشينكو بسرعة ، وصاروا يضربون جماعتهم . كان لهذا وقع الصاعقة على العدو . صار يكفى القيام بضغط آخر ليبدأ العدو بالانسحاب .

استمرت الافواج بالقتال حتى حلول الظلام . انسحب الدينيكينيون فى اتجاه بلدة غينيرالسكى موست ، وقد استنفدوا قواهم فى المعارك الطاحنة . وارتدت وحداتنا الى مواقع انطلاقها لتستعد وتوجه ضربة نهائية الى فلول البيض .

فى هذه المعركة بتاريخ ٧ كانون الثانى (يناير) تكبدت فرقة الفرسان السادسة وفرقة المشاة الثالثة والثلاثون خسارة كبيرة . ولكن البيض فقدوا اكثر : حتى ١٥٠٠ قتيل و٢٠٠٠ اسير . بيد ان العدو لم يهدأ وحاول ليلا الهجوم على فرقة الفرسان السادسة . فحطم بهجمة مضادة متسقة وانسحب فى حالة من الذعر . وقتل الكثير من القوزاق البيض بسيوف الخيالة ، واسر عدد منهم ، وتم الاستيلاء على مدفعين . وفى ذلك الحين حطمت فرقة غورودوفيكوف الرابعة للفرسان ، كما سبق القول ، البيض فى منطقة روديونوفو-نيسفيتايسكى وارغمتهم على الفرار الى روستوف .

حل صباح ٨ كانون الثانى (يناير) . لم تكن الشمس قد اطلت بعد من وراء الغابة ، ولكن فرقة الفرسان السادسة وفرقة كوبان الثالثة والثلاثين كانتا قد شرعتا فى مسيرتهما . ان المقاتلين ، وقد استراحوا فى الليل ، انطلقوا بنشاط ومرح الى اشتباك جديد مع العدو . وكان الفوج الرابع والثلاثون فى المقدمة ، شأنه فى المعارك السابقة . اقترب مفوض الفرقة باختوروف الى محاذاة آمر الفوج وقال :

– علينا اليوم حسب امر المجلس العسكرى الثورى للجيش ان نستولى على روستوف . ان نستولى عليها مهما كلف الامر . والا فان دينيكين سيسترد صوابه ويتمكن من سحب قواه الى وراء الدون ، وسيكون علينا نحن ان نحطمها على اى حال . حضر المقاتلين بحيث يكونون اكثر ضراوة فى الهجوم . سنصادف مقاومة على الارجح قبل روستوف . تقول المخابرات انه حشد الكثير من الخيالة والمشاة فى منطقة غينيرالسكى موست .

فى ذلك الصباح نفسه غادرت فرقة الفرسان الرابعة اغرافينوفكا . وتبعتها فرق المشاة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والحادية والثلاثون للجيش الثامن . ودبت الحركة فى كل شىء . قبل الوصول الى قرية شيدرين لاحظ تيموشينكو تحرك خيالة العدو وبدأ بنشر الفرقة استعدادا للمعركة . وغطتها المدفعية التى قذفت شيدرين .

اتضح ان البيض قرروا ايضا ان يوجهوا ضربة الى قواتنا فى ٨ كانون الثانى (يناير) ، فحشدوا قوى ضخمة فى منطقة سلطان سالى وبولشيى سالى وغينيرالسكى موست . لم يخش البيض على جانبهم الايمن ، فتركوا مؤخراتهم فى فولوشينو وسيرافيموف وقسطنطينوفسكى .

نشبت ثانية معركة تصادفية قرب قرية شيدرين فى سهل واسع مغطى بطبقة خفيفة من الثلج ، ومن جديد لعلعت الرشاشات وسمعت اصوات طلقات البنادق الخافتة . اخذت تنفجر القنابل هنا وهناك على ارتفاع ٢٠–٣٠ مترا وتذوب بسرعة الكرات الرمادية لقنابل الشرابنيل . كانت كل الدلائل تشير الى ان العدو لم يكن يأمل فى انتصار سهل ، اذ بدأ فورا باستخدام احتياطياته . كانت صفوف المشاة تمر فى الحقل الرمادى واحدة اثر اخرى .

قرر قائد الفرقة الا يهاجم فورا ، وان ينتظر ويكشف تجمع العدو . ترجلت الافواج وشغلت مواقع الدفاع . اتخذت المعركة طابعا متواصلا واستمرت عدة ساعات . واخيرا تجاسر القادة البيض وادخلوا نسقا ضخما من الخيالة فى المعركة . قفز صارخا الى صفوف مشاتنا على الجانب الايسر وبدأ يعمل بالسيوف . ارتد فوجا الفرقة الثالثة والثلاثين . هنا خرج من الوهدة فرسان اللواء الثانى وانهالوا على العدو فجأة . وفى مقدمته انطلق اباناسينكو آمر اللواء وقد رفع سيفه فوق رأسه . اذهلت المفاجأة البيض ، فاستداروا بشدة الى الخلف . اغذوا السير تلوح قبعاتهم من جديد ، مندفعين الى القرية ، حيث خرج نسق آخر لاستقبالهم . وبعد بعض الوقت انتظم النسقان ، وانتشرا للهجوم ثانية .

الى اليسار ، من جهة قرية فولوشين بدت فى الافق نقاط سوداء . وازداد عددها بسرعة . وما لبث ان اتضح انها مجموعة كبيرة من الخيالة تتحرك . ان المامونتوفيين ، وقد ظنوا ان هذا النسق امداد من فيلق توبوركوف ، تشجعوا واغذوا من سرعة اندفاعهم الى الامام .

كان تيموشينكو يراقب ميدان المعركة الوقت كله . وكان اضطرابه واضحا . اذ كان يوجه منظاره من نسق الى آخر .

قال تيموشينكو لكنيغا آمر اللواء الاول :

– انظر ما يجرى . كم عددهم ؟ انهم اكثر من امس . يبدو ان الحر سيكون شديدا رغم الصقيع . . . الى الجياد ! ستقود لواءك مع اللواء الثالث ضد ذلك الرتل الذى فى اليسار . وسيدبر اباناسينكو امره مع هذا الرتل .

قفز آمر اللواء الى جواده وانطلق من مكانه خببا .

وفجأة صاح تيموشينكو :

– قف ! لا تذهب ! لا حاجة الى ذلك .

رجع كنيغا .

– انهم رجالنا . أتفهم ؟ ! الفرقة الرابعة قادمة . انظر ، بوديونى يرمح على جواده فى المقدمة . عرفته «من اسلوبه» . خذ اللواء مسرعا وقم التفاف من اليمين . سوف نطوقهم . . .

اتضح ان الفرقة الرابعة التى انطلقت على الطريق الكبير الى

ناخيتشيفان بقيادة قائد الجيش بوديونى وصلت بلا عائق الى خط قرية فولوشين ، وانحرفت بشدة الى الغرب وضربت مؤخرات العدو بلوائين . لم يكن البيض يتوقعون هذا ، واذ طوقوا ، اندفعوا بذعر منسحبين الى بولشيى سالى وسلطان سالى . انهم ، وقد احيط بهم من كل جانب ، اخذوا يتخبطون كما لو كانوا فى المصيدة . قتل بعضهم ، واسر البعض الآخر . والمصير نفسه اصاب الفرسان الموجودين فى بلدة غينيرالسكى موست . حاول بعضهم الوصول الى محطة اكساى ، ولكن عمل هنا مقاتلو مفرزة سفيردلوف المدرعة التى رافقت الفرقة الرابعة . لقد قفزوا من خلف التلال فى الارض البكر مباشرة واخذوا يقذفون برشاشاتهم ارتال العدو المنسحبة .

واذ رأى المشاة الانهيار الكامل ، اخذوا يستسلمون للاسر . حاولت الدبابات الوصول الى روستوف ، ولكن الخيالة الحمر لحقوا بها وارغموها على الاستسلام . ان الفوج الرابع والثلاثين الذى كان يسير فى المقدمة اصطدم فى وهدة شمالى بلدة سالا بمجموعة من قرابة ١٨٠ شخصا مع ثمانية رشاشات ودبابتين ، وهى ما بقى من فوج الضباط المحطم . لم يشأ الضباط الذين توحشوا للغاية الاستسلام وقاتلوا الى النهاية . وابيدت المجموعة عن بكرة ابيها .

حطم وسط العدو وجانبه الايمن تماما . وفى الجانب الايسر استمرت بالمقاومة فلول فرقتى دروزدوف وكورنيلوف وخيالة باربوفيتش . ولكن فرقة المشاة الثانية عشرة ، التى انتقلت الى الهجوم ، حطمت عنادها بسرعة وارغمتها على الانسحاب الى ما وراء الدون . واصبح الطريق الى روستوف خاليا .

فى ميدان المعركة مباشرة تلقت الفرق امرا موجزا من المجلس العسكرى الثورى لجيش الخيالة الاول بالانطلاق الى روستوف !

كان ليل كانون الثانى (يناير) الدامس يخيم على المدينة . وكان الثلج المتساقط بلطف يلمع فى اشعة الضوء الساطع المتسرب من خلال شقوق درف النوافذ المغلقة للبيوت الواقعة على التخوم . كانت تتردد اصوات اجراس فى مكان من وسط المدينة . وساد السكون فى اطرافها .

وضع البيض حراسة فى الادغال المتاخمة للمقبرة الارمنية . وقد جلس اربعة قوزاق تحت شجرة ملتفعين بعباءاتهم يدخنون التبغ

ويصيخون السمع فى فترات متباعدة وينظرون بلا رغبة الى جانب الطريق . سمعت فى الظلام قرقعة خفيفة ووقع حوافر .

— قف ! من هناك ؟ !

ترجل الفرسان بسرعة . وهفت عدة اشباح الى اليسار . ضربة خافتة على شىء صلب . صرخة مكبوتة ولجبة ، ثم ساد السكون من جديد .

اعطى الاستطلاع الذى ارسله قائد الفرقة اشارة . وسمع على الفور وقع حوافر تقترب بتردد صداه على عرض الشارع كله . ان فوج الفرسان الرابع والثلاثين ، طليعة الفرقة ، قد دخل شارع سينايا .

كان الوقت يقارب السابعة مساء . نادرا ما كان يظهر المارون فى شوارع الاطراف الخالية . كانوا يتوقفون ويشيعون الفرسان بانظارهم . كان يستحيل تمييزهم فى الظلام .

تحرك الفوج الرابع والثلاثون بلا ضجيج فى سينايا ، وسارت الافواج الاخرى للفرقة السادسة فى الشوارع المجاورة ، منتشرة الى الازقة على اليمين واليسار . لم يقاوم احد بعد . كانت تنبعث طلقات منفردة فى اماكن ما . دوت طلقات رشاش لامد قصير . بيد ان سكان المدينة لم يعيروا هذا انتباههم . لقد اعتادوا فى المدة الاخيرة على اطلاق النار ، ولا سيما اليوم ، فى ليلة عيد الميلاد ، لا بد وان يكون احد الضباط قد قرر تزجية الوقت .

هكذا احتلت فرقة الفرسان السادسة نصف المدينة تقريبا . وفى الوقت نفسه اجتازت فرقة الفرسان الرابعة ناخيتشيفان بلا ضجيج وبدون طلقة واحدة ودخلت المدينة من الشرق .

بيد ان البيض بدأوا يتمالكون انفسهم بالتدريج . وبقيت معارك الشوارع فى المدينة كل الليل تهدأ احيانا وتنشب احيانا اخرى بقوة جديدة . وكما اتضح فيما بعد كانت توجد فى روستوف فرقة كوبان الاولى للفرسان واربعة افواج للمشاة ووحدات صغيرة اخرى . فكانت تطلق النار على الخيالة الذين تسربوا فى كل مكان . ان تلك الوحدات التى تراجعت فى المعارك السابقة لم تصل الى روستوف ولم يسعفها الوقت لتحذر من ان قواتنا حطمتها فى النصف الثانى من يوم ٨ كانون الثانى (يناير) .

اخترقت افواج لواء كنيغا الشوارع والازقة فى اتجاه المحطة .

وما لبثت ان انبعثت طلقات الرشاشات من هناك . فقد قاوم هناك بضراوة فوج الضباط الذى اتخذ مواقع فى المستودعات .

حل الصباح ، وجاء الضوء ، ولكن سديم الضباب الذى عم الشوارع ارغم المقاتلين على ان يعملوا بعض الوقت متلمسين سبيلهم . ومن حين الى آخر كانت تجرى اصطدامات مفاجئة وتقع اشتباكات بالسلاح الابيض . اخذوا يقودون الاسرى فى الشوارع وينقلون المدافع المغتنمة ، ولكن اطلاق النار لم يتوقف . استمر اليوم بطوله . ان المجموعات المبعثرة من الحراس البيض ، التى استقرت فى بعض البيوت والافنية والاقبية ، تابعت المقاومة . ان البعض ، اذ صحوا لتوهم من سكرة اليوم السابق ، علموا ان الحمر فى المدينة فانضموا الى المعركة . ولكن البوديونيين كانوا يتصيدون العدو باصرار .

فى ١٠ كانون الثانى (يناير) طهرت روستوف من البيض تماما . واقيمت السلطة السوفييتية فى المدينة .

ابلغ المجلس العسكرى الثورى لجيش الخيالة الاول لينين فى موسكو : «استولى جيش الخيالة الاحمر على مدينتى روستوف وناخيتشيفان . واباد فرساننا الامجاد كل قوى العدو الحية التى كانت تحمى الاعشاش الزرقاء لثورة النبلاء والبرجوازيين المضادة . اسر ١٠٠٠٠ جندى ابيض ، وتم الاستيلاء على ٩ دبابات و٣٢ مدفعا وقرابة ٢٠٠ رشاش والكثير من البنادق وقافلة ضخمة . لقد تم الاستيلاء على كل هذه الغنائم بعد معارك دامية» .

ابدى تيموشينكو مهارة قتالية فذة فى معارك ضد الدينيكينيين استمرت اياما عديدة فى مناطق محطات تورغوفايا وبيلايا غلينا وسريدنى ييغورليك وقرية ييغورليكسكايا . وكانت المعركة التصادفية عند سريدنى ييغورليك حافلة بالعبر على نحو خاص . لقد اصطدمت وحدات الفرقة بفيلق الدون للقوزاق البيض فسحقت العدو تماما ، مستولية على رشاشاته ومدافعه . وهذا النجاح تحقق ايضا بالاستخدام الماهر للمدفعية والرشاشات المحمولة على عربات التى كانت تتحرك فى مقدمة الفرقة . فقبل ان يكشفها العدو جعلت النيران القوية صفوفه القتالية تختلط وترتبك . ولم يبق على الخيالة الا ان ينجزوا سحق القوزاق البيض .

وبعد يومين وجهت فرقة الفرسان السادسة بالتعاون مع فرقتى الفرسان الرابعة والحادية عشرة وفرقة المشاة العشرين ضربة ساحقة الى تجمع قوى من الدينيكينيين فى منطقة قرية ييغورليكسكايا ومحطة اتامان . كانت تلك من اكبر معارك الخيالة حينما التقى من الطرفين فى وقت واحد اكثر من ٤٠ الف خيال فى قتال عنيف . ومن جديد كان تيموشينكو قائد فرقة الفرسان السادسة وسط الخيالة يلهمهم بما يضربه من مثال فى الشجاعة والجرأة والبطولة .

هنا ، كما فى المعارك الاخرى ، تجلى بوضوح شعور المساعدة الرفاقية للجيران الملازم لتيموشينكو . فى المعركة من اجل قرية ييغورليكسكايا احبط هجوم وحدات فرقة الفرسان الرابعة ، فاضطرت الى الرجوع الى المواقع التى انطلقت منها . فى ذلك الوقت اندفع القوزاق البيض فى هجوم مضاد . حلت لحظة حرجة . وهذا ما لاحظه قائد فرقة الفرسان السادسة فوجه على الفور بجزء من القوى ضربة الى جانب العدو . واحبط الهجوم المضاد للحراس البيض . وبعد ذلك انتقلت فرقة الفرسان الرابعة الى الهجوم من جديد ووصلت الى تخوم القرية . واخفقت ثانية . ان فوج ضباط القوزاق البيض اربك بهجمة مضادة تدعمها نيران قوية من الرشاشات الصفوف القتالية للفرقة الرابعة وبدأ يضغط عليها . عندئذ اندفع تيموشينكو على رأس احد الوية الى الهجوم على العدو ، فلم يبق من فوج الضباط سوى عدة احصنة مندفعة فى ميدان المعركة .

ومع حلول المساء اصبحت قرية ييغورليكسكايا ومحطة اتامان فى يد جيش الخيالة الاحمر . ان الحراس البيض ، وقد تحطموا وانهارت معنوياتهم ، تراجعوا بذعر تاركين الجرحى وقوافل الاسلحة والذخائر .

لقد قلد تيموشينكو وسام الراية الحمراء للمرة الثانية لقاء مآثره البارزة فى المعارك ضد خيالة شكورو ومامونتوف لدى تحرير الدونباس وروستوف .

لم يكن الجيش الاحمر قد تمكن بعد من ان يحطم تماما قوات صنيعة الامبريالية دينيكين حينما خيمت على الغرب السحب المروعة للغزو البولندى الابيض . كانت الامبريالية الدولية تبذل محاولة لخنق الجمهورية السوفييتية الفتية . وخلافا لارادة الشغيلة

البولنديين حركت الحكومة البرجوازية فى بولندا يحرضها امبرياليو انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة قواتها الى اوكرانيا وبيلوروسيا . وفى الوقت نفسه استعد جيش الجنرال فرانغيل فى القرم للاعمال النشيطة من اجل مساعدة البولنديين البيض .

اتخذ الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية اجراءات لتنظيم صد المتدخلين وتصفية الفرانغيلية . وارسلت الى الجبهة البولندية من الشرق وشمال القفقاس تشكيلات الجيش الاحمر التى صلب عودها فى المعارك ، ومن بينها جيش الخيالة الاول من منطقة مايكوب الذى يضم فرقة تيموشينكو السادسة للفرسان . وفى خلال فترة قصيرة ابان توحل الطرق فى الربيع قام الخيالة الحمر بمسيرة طولها ١٠٠٠ كيلومتر عبر الارض الاوكرانية التى دمرتها الحرب الى منطقة مدينة اومان ، مصفين فى طريقهم عصابات ماخنو والاتامان كوروفسكى . هذه المسيرة المضنية التى قام بها خيالة الجيش كانت مأثرة بحد ذاتها .

ولكن ما كان يبعث على دهشة اشد ، والذى هز من الاساس قوات بولندا الاقطاعية واوساطها الحاكمة بشكل خاص هو اقتحام جيش الخيالة جبهة البولنديين البيض جنوبى بلدة سكفيرا .

لاول مرة فى تاريخ الفن العسكرى حطم الخيالة الحمر وحدهم دفاع العدو الذى اعده مسبقا ودمروا الطرق ووسائل المواصلات فى عمق مؤخرته واجتاحوا الاركان . وكانت لفرقة تيموشينكو السادسة للخيالة فى هذا مأثرة لا يستهان بها . ان الفرقة السادسة اذ ضمنت فى الاختراق اعمال فرق الفرسان الرابعة والحادية عشرة والرابعة عشرة ، وجهت بالاشتراك مع القطارات المدرعة ضربة الى مدينة ليبوفيتس لصرف انتباه العدو . ونفذ تيموشينكو المهمة الموضوعة امامه بنجاح يستحق اعلى التقدير . لقد نظم هجوم الفرقة «بضجيج» ضلل العدو تماما وجعله يبدأ على عجل بارسال قوى ضخمة الى منطقة ليبوفيتس ، مضعفا الدفاع فى اتجاه ضربة جيش الخيالة الرئيسية التى اعدت سرا . وهذا ما مكن من القيام بخرق مواقع العدو الدفاعية بسرعة وباقل خسائر ممكنة ، والتحرك دون توقف الى مؤخرته العميقة ، نحو بروسكوروف وجيتومير . واضطر البولنديون البيض الى ترك كييف والانسحاب الى كوروستين بسرعة .

فى المعركة قرب لفوف قتل احد ابطال خيالة الجيش الرائعين

ليتونوف . وخلفه تيموشينكو فى منصب قائد فرقة الفرسان الرابعة . وتحت قيادته كسرت الفرقة حلقة القوات المعادية التى حاولت تطويق جيش الخيالة الاول فى منطقة زاموستييه ، وازالت الخطر المسلط على قوى الجيش الرئيسية ، وحطمت العدو واسرت حتى ٢٠٠٠ من جنود العدو وضباطه .

حظيت بسالة تيموشينكو واقدامه فى الجبهة الجنوبية الغربية بتقدير رفيع . فقد قلد سلاح الثورة الفخرى .

ان الحكومة السوفييتية ، وقد عقدت هدنة مع بولندا ، ركزت كل الجهود على تصفية فرانغيل وتحرير القرم . قام جيش الخيالة الاول بمسيرة طولها ٧٠٠ كيلومتر فى طقس الخريف الردىء ، وبامر من فرونزه قائد الجبهة الجنوبية تمركزت فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٠ فى منطقة بيريسلافل وكاخوفكا . ومن هناك ، من ضفاف الدنيبر ، شقت فرق خيالة الجيش طريقها الى عمق مؤخرة قوات الحرس الابيض وقطعت عليها طريق الانسحاب الى القرم عبر برزخ تشونغار .

استولت فرقة الفرسان الرابعة ، التى يقودها تيموشينكو ، على نوفو-اليكسييفكا وغينيتشيسك ودمرت قطاع سكة حديد ميليتوبول – سالكوفو ونشرت الجبهة الى الشمال .

فى ذلك الوقت اندفع الفرانغيليون الى برزخ تشونغار تتعقبهم القوات السوفييتية . وهاجم اغلبهم فرقة الفرسان الرابعة . وفى غضون ثلاثة ايام دارت هناك رحى معارك لم يعهد لضراوتها نظير .

اصيبت فرقة الفرسان الرابعة بالانهاك . وكان قائد الفرقة يرمح على جواده من فوج الى فوج ولا يظهر الا فى اصعب المواقع .

كان صوته الجهورى يلعلع : «ولا خطوة الى الوراء !» . وقد قاتل خيالة الجيش ، ضاغطين على اسنانهم ، وصمدوا حتى الموت والسلاح فى ايديهم .

اصيب تيموشينكو بجرح فى رجله . اجلس المحاربون قائد الفرقة على عربة . ولكن حينما كانوا يضمدون الجرح ، ضرب العدو الجياد المقرونة بنيران الرشاشات ، فاصيب تيموشينكو بجرح آخر . احضروا اليه سيارة ، ولكنه بقى فى الفرقة ، متابعا القيادة .

ان القوات السوفييتية ، ومن بينها فرقة تيموشينكو الرابعة للفرسان ، وقد اقتحمت بيريكوب وشبه جزيرة تشونغار واستولت عليها ، صفت فلول قوات فرانغيل فى القرم ، منجزة الحرب الاهلية بالنصر .

ان الاجير الزراعى السابق سيميون تيموشينكو قد ادى قسطه ايضا فى النصر الهام للجمهورية السوفييتية . وحظيت مآثر قائد الفرقة وخدماته فى القتال باعتراف عميق من خيالة الجيش الذين ارسلوه مندوبا لهم الى مؤتمر السوفييتات الثامن لعموم روسيا ، حيث جرى اللقاء المشهور بالنسبة الى تيموشينكو مع قائد الشغيلة العظيم فلاديمير ايليتش لينين .

عقد مؤتمر السوفييتات الثامن لعموم روسيا فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٠ . صعد فلاديمير ايليتش لينين الى المنصة . رفع يده منتظرا انتهاء عاصفة التصفيق . ولكن موجة الهتافات والتصفيق كانت تتصاعد . واخيرا ساد السكون . استمع مندوبو المؤتمر باهتمام لا يكل الى كلمة زعيم الثورة المظفرة . حملقوا يتتبعون كل حركة من حركاته ويحاولون التغلغل بعمق فى مغزى كل كلمة من كلماته . كان بين المندوبين غير قليل من العسكريين ، ابطال كاخوفكا وبيريكوب وتشونغار . وقد قال عنهم لينين بحب واعتزاز :

– تعلمون ، طبعا ، اية بطولة فذة ابداها الجيش الاحمر ، مذللا حواجز وتحصينات اعتبرها حتى الاختصاصيون واهل الثقة العسكريون منيعة يستحيل تذليلها . ان من انصع الصفحات فى تاريخ الجيش الاحمر ذلك النصر الكامل والناجز والسريع على نحو رائع الذى تم احرازه على فرانغيل . . .

كان قائد فرقة الفرسان الرابعة لجيش الفرسان الاول تيموشينكو البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة مساهما فى هذا المؤتمر التاريخى . وكان يلمع على صدره العريض وساما الراية الحمراء كشهادة على المآثر القتالية فى المعارك ضد الثورة المضادة والمتدخلين .

كان يتميز بوضوح بين المحيطين به بقامته الطويلة وبدنه

القوى ووجهه الذى يشع رجولة وارادة . ربما لهذا اقترب منه لينين فى فترة الاستراحة . قال تيموشينكو فى هذا الصدد :

– سألنى لينين عن مقاتلينا . قلت له انهم لم يقاتلوا بشجاعة فحسب ، بل اوحوا الى بالحلول الصحيحة مرات متعددة . اعجبت كلماتى لينين ، فنصحنى : «اعتمد عليهم اذا ، وسيوحون دائما . الامر الرئيسى ان تكون بين المقاتلين ، وسط الجمهور» .

حلت حياة السلام التى ذاد من اجلها الحزب اللينينى وكل الشعب السوفييتى وقواته المسلحة عن اول دولة للعمال والفلاحين فى العالم . واذ عبأ حزبنا الجماهير الكادحة للبناء الاشتراكى ، دعا مع ذلك الى تذكر اننا دائما على قاب قوسين او ادنى من اى غزو . قال لينين : «اننا ، وقد شرعنا فى بنائنا السلمى ، سنبذل كل القوى لكى نستمر به من غير توقف . وفى الوقت نفسه كونوا يقظين ، ايها الرفاق ، صونوا القدرة الدفاعية لبلادنا وجيشنا الاحمر ، كما تصونون حدقة العين . . .»

كرس تيموشينكو نفسه لتنفيذ هذه المهمة النبيلة . وفى سنوات ما بين الحربين قاد على التوالى جملة من التشكيلات والوحدات . واستخدم خبرته القتالية على نطاق واسع فى ممارسة اعداد القوات . واتسمت هذه الفترة كذلك بالتطوير الدائم والشامل لمداركه القيادية . وانهى فى عامى ١٩٢٢ و١٩٢٧ الدورات الاكاديمية العليا ، وفى عام ١٩٢٧ دورات الآمرين الفرديين لدى الاكاديمية العسكرية ـ السياسية .

يمكن القول ان العشرينات والثلاثينات كانت بالنسبة الى تيموشينكو فترة تكونه كقائد عسكرى . وقد عين فى اذار (مارس) عام ١٩٢٥ آمرا مفوضا لفيلق الفرسان الثالث ، وفى آب (اغسطس) عام ١٩٣٣ نائبا لقائد قوات منطقة بيلوروسيا العسكرية ، وحينذاك ارسل فى مهمة الى الخارج بهدف الاطلاع على جيوش الدول الرأسمالية . وفى غضون خمس سنوات ، من ١٩٣٥ الى ١٩٣٩ ، شغل تيموشينكو على التوالى مناصب قائد قوات منطقة شمالى القفقاس العسكرية ومنطقة خاركوف العسكرية ومنطقة كييف العسكرية الخاصة .

محض الحزب الشيوعى والشعب السوفييتى تيموشينكو ثقتهما الكبرى ، فانتخب نائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى

ولاوكرانيا السوفييتية وعضوا فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى فى اوكرانيا . وانتخب فى المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى السوفييتى عضوا فى لجنة الحزب المركزية . وقلد تيموشينكو وسام لينين لقاء قسطه الوافر فى تدعيم الجيش الاحمر .

من المعروف ان الوضع الدولى تردى بشدة فى اواخر الثلاثينات ، واجتاحت موجة اعمال العدوان اوربا وآسيا وافريقيا . ومن ثم اشعلت المانيا الفاشية الحرب العالمية الثانية وشرعت بتغاض من الدول الامبريالية الاخرى فى اعادة تفصيل خريطة اوربا . وما لبث التهديد بالحرب ان وصل الى حدود وطننا مباشرة . ففى اواسط ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٩ انهارت بولندا الاقطاعية تحت ضربات القوات الفاشية-الالمانية . واصبح غرب اوكرانيا وغرب بيلوروسيا مهددين بالاحتلال الهتلرى . ولهذا اتخذت الحكومة السوفييتية قرارا بان تضع تحت حمايتها الشعبين الشقيقين فى هاتين المنطقتين الغربيتين . وعين تيموشينكو قائدا لقوات الجبهة الاوكرانية . وقد قامت تحت قيادته بمسيرتها التحررية التاريخية . وبلغت سرعة تقدم التشكيلات الآلية ، وعلى اثرها الخيالة والمشاة ١٢٠ كيلومترا فى اليوم . وهكذا فان المهمة التى كلف بها تيموشينكو نفذت بنجاح . ودخل يوم ١٧ ايلول (سبتمبر) تاريخ غرب اوكرانيا وغرب بيلوروسيا كعيد لاعادة توحيدهما مع الوطن السوفييتى .

فى اواخر عام ١٩٣٩ قام امبرياليو انكلترا والولايات المتحدة بتحريض فنلندا على الحرب ضد بلادنا . وهذا الحدث شغل فى قائمة خدمة تيموشينكو حيزا هاما بشكل خاص . فقد قاد حينذاك منذ كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٠ الجبهة الشمالية الغربية التى تعود الى قواتها مأثرة سحق اقوى تحصينات خط مانيرهيم السيىء الذكر الذى كان يعتبره كل الستراتيجيين الغربيين منيعا بصورة مطلقة . ونتيجة لضربات هذه الجبهة بالذات حطمت قوات العسكريين الفنلنديين البيض عن بكرة ابيها . وقدرت خدمات تيموشينكو حق قدرها بمنحه لقب بطل الاتحاد السوفييتى . ولهذا ينبغى ان نلقى الاضواء بمزيد من التفصيل على قسط تيموشينكو فى الانتصار على العسكريين الفنلنديين .

من المعروف انه اكتشف فى الفترة الاولى من الاعمال العسكرية ضد فنلندا نقص فى استعداد القوات السوفييتية لخوض عمليات قتالية فى الظروف المعقدة لمنطقة مليئة بالغابات والمستنقعات مع درجة حرارة تتراوح ما بين ٤٠ و٤٥ درجة تحت الصفر وطبقة كثيفة من الثلج . كانت القوات تحتاج الى تدريب اضافى على اساليب تذليل منطقة مزروعة بالغام كثيفة واختراق نظام من التحصينات الخرسانية الجبارة . وكشفت مسيرة الاعمال القتالية كذلك خللا فى تنظيم ادارة القوات وتعاونها العملياتى والتكتيكى .

اتخذ القادة السوفييت قرارا بوقف الهجوم والاستعداد بدقة لاختراق الشريط الرئيسى لخط مانيرهيم . وفى ذلك الحين ، فى ٧ كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٠ انشئت فى برزخ كاريليا الجبهة الغربية الشمالية تحت قيادة تيموشينكو وعضو المجلس العسكرى سكرتير لجنتى منطقة ومدينة لينينغراد للحزب الشيوعى جدانوف . وكانت الجبهة تضم الجيش السابع (فيالق المشاة التاسع عشر والخمسين والعاشر والرابع والثلاثين ، ثم اضيف اليها فيلق المشاة الثامن والعشرون) ، وكلف بقيادته فى ٧ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٩ ميريتسكوف ، والجيش الثالث عشر (فيالق المشاة الثالث والخامس عشر والثالث والعشرين) الذى شكل فى اواخر كانون الاول (ديسمبر) تحت قيادة غريندال . وعزز كلا الجيشين بالطيران ووحدات المدفعية والدبابات والهندسة .

والى جانب اعادة البناء التنظيمى وتعزيز القوات قام تيموشينكو بعمل كبير لاعداد مناطق الانطلاق للهجوم : بنيت تحت قيادته طرق وجسور جديدة وشقت خطوط للقوافل الخ . ودرست واتقنت فى الوحدات وسائل تدمير معاقل العدو الدائمة ومعاقله الخشبية الترابية ونقاط ارتكازه .

فى ٣ شباط (فبراير) عام ١٩٤٠ كانت قيادة الجبهة الشمالية الغربية قد اعدت خطة عملية ينبغى للقوات بناء عليها ان تحطم القوى الاساسية للجيش الفنلندى فى برزخ كاريليا ثم تنطلق الى خط كيكسغولم ، فيبورى . وجه جانبا تماس الجيشين السابع والثالث عشر الضربة الرئيسية فى اتجاه فيبورغ . وكانت جبهة الاختراق من بحيرة فووكسا الى كارخولا (دياتلوفو) تشكل قرابة ٤٠ كيلومترا . وقد حشد هنا حتى ٦٠ فى المئة من تشكيلات المشاة وحتى ٦٥ فى المئة

من مدفعية الجبهة . ومكن الاستخدام المكثف للقوى والعتاد على الاتجاه الحاسم من التوصل الى تحطيم العدو بسرعة .

عززت القيادة الفنلندية التشكيلات والوحدات كذلك بالافراد ، وبالمعدات القتالية والاسلحة والذخائر التى وردت من الخارج . وكما اتضح فيما بعد ، فقد قدمت الدول الغربية الى فنلندا ٣٥٠ طائرة و١٥٠٠ مدفع واكثر من ٦ آلاف رشاش و١٦٠ مليون طلقة . وقدم من اسكاندنافيا والولايات المتحدة وبلدان اخرى ١١,٥ الف متطوع .

فى ١١ شباط (فبراير) بدات تحت قيادة تيموشينكو المرحلة الثانية ، الختامية لتصفية النزاع المسلح . ان الالوف من المدافع السوفييتية خربت او عطلت بنيران مدمرة العديد من التحصينات الطويلة الامد على خط مانيرهيم . وصعق العدو نتيجة النيران المكثفة للمدفعية ، فلم يستطع فى جملة من القطاعات صد ضربة القوات السوفييتية التى انتقلت الى الهجوم . وعملت بنجاح خاص فرقة المشاة ١٢٣ تحت قيادة العقيد الابوشيف من فيلق المشاة التاسع عشر للجيش السابع . فقد حطمت فى خلال الايام الثلاثة الاولى عقدة التحصينات الفنلندية فى منطقة سوما (١٢ معقلا دائما و٣٩ معقلا خشبيا ترابيا) وذللت الشريط الرئيسى لخط مانيرهيم . وارسل تيموشينكو على الفور المجموعات المدرعة المحركة وادخلها فى الثغرة. كتب مانيرهيم : «لم يستطع المدافعون ، الذين كانت خسائرهم فادحة ، وقف الدبابات والمشاة الذين اقتحموا مواقعهم» .

فى ١٧ شباط (فبراير) بدات القيادة الفنلندية خشية وصول القوات السوفييتية الى مؤخرة جيش كاريليا ، بسحب وحداتها الى شريط الدفاع الثانى . وعزلت الجنرال استرمان من قيادة هذا الجيش ، وعينت مكانه الجنرال خينريكس آمر الفيلق الثالث للجيش . ان القوات الفنلندية ، التى عززت بوحدات احتياطية ، تلقت امرا بالا تسمح للجيش الاحمر بتحرك لاحق .

ولكن القوات السوفييتية تابعت الهجوم . وفى ٢١ شباط (فبراير) وصل فيلقا المشاة العاشر والرابع والثلاثون للجيش السابع الى شريط الدفاع الثانى لخط مانيرهيم ، اما قوات الجيش الثالث عشر فوصلت الى شريط الدفاع الرئيسى فى المضيق بين البحيرتين شمالى موول . ان قوات الجيش السابع التى تحركت الى اليسار استولت من ١٩ الى ٢٤ شباط على ريفون سارى وتيورين

سارى وبى سارى وكويفيستو بالتعاون مع المفارز الساحلية لبحارة اسطول البلطيق الحائز وسام الراية الحمراء .

قبل اختراق شريط التحصينات الثانى اجرى تيموشينكو اعادة توزيع للقوات واخرج من المعركة فرق النسق الاول للاستراحة والامداد وسحب الاحتياطيات . وفى ٢٨ شباط (فبراير) استؤنف الهجوم . ووضعت امام قوات الجيش السابع مهمة اختراق شريط الخرسانة الذى يقطع الطريق الى فيبورغ والاستيلاء على المدينة . وقد حطمت القوات السوفييتية مقاومة العدو منذ اليوم الاول للهجوم . وفى ١ اذار (مارس) تم الاستيلاء على اكثر من ٣٠٠ منشاة دفاعية بينها ٧٠ من الخرسانة ، وفى ٢ اذار (مارس) وصل فيلق المشاة الخمسون تحت قيادة غوريلينكو الى خط الدفاع الخلفى للقوات الفنلندية شمال غربى فيبورغ ، وقطع الخط الحديدى الذى يصلها بانتريا ، حيث تقع اركان جيش كاريليا . وفى الوقت نفسه وصلت الوحدات المتقدمة لفيلق المشاة الرابع والثلاثين تحت قيادة بياديشيف الى التخوم الجنوبية لفيبورغ . ولقاء النجاح فى اختراق خط مانيرهيم قلدت اثنتا عشرة فرقة مشاة وخمسة الوية دبابات للجيش السابع اوسمة لينين والراية الحمراء بتوصية من قائد الجبهة .

فى الايام الاولى من اذار (مارس) عبرت قوات الجيش الثالث نهر فووكسا ، مطورة الهجوم على كيكسغولم .

وساعد كثيرا على نجاح القوات البرية كون تيموشينكو استخدم بنجاح الطيران الذى قام باستكشافات متواصلة ، ووجه ضربات قوية الى تجمعات قوى العدو الحية ومعداته الحربية ، والى المطارات ، وغطى القوات السوفييتية المهاجمة من الجو .

فى ٤ اذار (مارس) تم الالتفاف على منطقة فيبورغ المحصنة عبر جليد خليج فيبورغ ، ثم وجهت اليها ضربة ساحقة من المؤخرة والجبهة فى وقت واحد .

واذ ادركت حكومة فنلندا حتمية الهزيمة الكاملة التمست الصلح ، رغم مطالب انكلترا والولايات المتحدة بمتابعة الاعمال العسكرية . وبالنتيجة استقر الوضع على الحدود الشمالية الغربية للاتحاد السوفييتى .

ما لبثت ان اجريت تعديلات فى قيادة القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى . وبمرسوم من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد

السوفييتى بتاريخ ٧ ايار (مايو) عام ١٩٤٠ عين تيموشينكو فى منصب مفوض الشعب للدفاع فى الاتحاد السوفييتى . ومنح فى الوقت نفسه لقب مارشال الاتحاد السوفييتى وقد روعى فى غضون ذلك ان تيموشينكو اكتسب فى خلال الحرب ضد الفنلنديين تجربة غنية لقيادة العمليات فى الحرب المعاصرة . واذ شرع فى تنفيذ وظائفه الجديدة ، تلقى من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى مهمة ازالة النواقص فى التنظيم وفى اعداد القوات التى ظهرت فى خلال النزاع السوفييتى-الفنلندى .

فى هذا الحديث القصير نسبيا يصعب حتى مجرد سرد كل ما فعله تيموشينكو فى خلال سنة واحدة قبل الحرب ضد المانيا الفاشية .

ان اعادة بناء هيئات الادارة العسكرية قد جرت طبعا تحت القيادة المباشرة للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى . ونفذ مفوض الشعب الجديد توجيهات الحزب المبدئية بصلابة وبروح تتسم بالمبادرة . وهكذا ، فقد حدد ، مثلا ، ان قانون مفوضية الشعب للدفاع الذى اقرته الحكومة فى عام ١٩٣٤ لا يلائم بنية الجيش ولا يعكس المهمات المعاصرة . وفى النصف الثانى من عام ١٩٤٠ تحسن بصورة جدية تنظيم ملاك مفوضية الشعب للدفاع ، مما ضمن تحولها الى هيئة امرن لادارة الجيش الاحمر . واصبحت بنية الاركان العامة كذلك تتفق ودورها المتعاظم فى وضع خطط الدفاع وتنظيم القوات وتسليحها وقيادة الاعداد القتالى وتعميم تجربة الحرب .

فى مستهل عام ١٩٤١ اقر تيموشينكو احكاما حول الادارات الرئيسية والمركزية لمفوضية الشعب للدفاع . اذ القيت على رؤساء الادارات المسؤولية عن الاعداد القتالى والتعبوى لصنف معين من القوات وضمانه ماديا فى الوقت المناسب وتطوير التسلح والتكنيك واستخدام الكوادر . واقيمت دائرة تفتيش لمراقبة التدريب القتالى .

كان توسيع الجيش والاسطول يتطلب زيادة عدد القادة والعاملين فى مجال التدريب السياسى والمهندسين والتكنيكيين . وطرح مفوض الشعب امام الحكومة مسألة اقامة مؤسسات عسكرية دراسية جديدة وتوسيع الموجود منها . وفى عام ١٩٤٠ كانت قد اقيمت ٤٢ مدرسة . وكان يعمل قبل الحرب ما مجموعه ١٩ اكاديمية ، و١٠ كليات عسكرية لدى المؤسسات الدراسية العالية المدنية ، و٧

مدارس بحرية عسكرية عليا ، و٢٠٣ مدارس عسكرية ، و٦٨ دورة لزيادة التأهل . وفى عام ١٩٤١ تعلم فى المؤسسات والدورات العسكرية الدراسية اكثر من ٣٠٠ الف مستمع وطالب . وفى النصف الاول من عام ١٩٤١ ارسل ما يقرب من ٧٠ الف خريج من المدارس والاكاديميات الى القوات .

وكان على مفوض الشعب ان يعير مسائل الكوادر اهتماما شديدا ، لان اعادة تنظيم الجيش سببت تنقلات كبيرة للكوادر . اذ رفع الكثير من القادة فى مناصبهم او نقلوا الى الخدمة فى اصناف القوات التكنيكية . ومما اثار فيه غير قليل من الاسى كون الكثيرين منهم كانوا يكتسبون بصعوبة خبرة العمل فى المناصب الجديدة . واعتبر ان من دواعى السرور انه تسنى شغل مناصب قادة المناطق العسكرية والجيوش ١٠٠ فى المئة بجنرالات عندهم تجربة قتالية ٧٠ فى المئة منهم تخرجوا فى مؤسسات عسكرية دراسية .

فى آب (اغسطس) عام ١٩٤٠ اقيم نظام القيادة الفردية فى القوات المسلحة السوفييتية بمرسوم من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، والغى سلك المفوضين العسكريين وادخل سلك نواب القادة والرؤساء للقسم السياسى . كان الآمر الفرد يتحمل المسؤولية كاملة عن تدريب القوات وتزويدها بالمواد والمعدات وتربية الافراد . وتطبيق نظام القيادة الفردية عزز هيبة القادة وحسن الظروف للنهوض باستعداد القوات القتالى .

كان ضمان التناسب الامثل بين اصناف القوات المسلحة مهمة معقدة للبناء العسكرى منحها مفوض الشعب الجديد الكثير من القوى . فمن جهة ، كان ينبغى الاستمرار بالتطوير المكثف للاصناف التكنيكية للقوات المسلحة ، مثل الطيران وقوات الدفاع الجوى والاسطول البحرى . ومن الجهة الاخرى ، ينبغى مراعاة ان العدوين المحتملين – المانيا واليابان – يملكان قوات برية كبيرة ، وان الاعمال العسكرية سوف تجرى على جبهات برية قبل كل شىء . واتخذ نهج يضمن مع الزيادة العامة لتعداد القوات المسلحة نمو نسبة القوات البرية على نحو اسرع واسرع . فقد بلغت فى بداية الحرب الوطنية العظمى اربعة اخماس العدد الاجمالى للجيش والاسطول . وفى وقت واحد مع حل هذه المسائل المبدئية عكف مفوض الشعب

على تطوير التدريب القتالى للقوات . ولعله لم يجر فى جيشنا من قبل مثل هذا العدد من مختلف انواع التدريبات والمناورات والاختبارات التفقدية .

اعود الآن الى تلك الايام التى اسعدنى الحظ فيها بان اعمل مع تيموشينكو جنبا لجنب .

بعد الخروج من التطويق فى منطقة مدينة غادياتش تلقيت بالتلفون امرا من القائد الجديد لقوات الجبهة الجنوبية الغربية (صار تيموشينكو يشغل هذا المنصب بعد مقتل كيربونوس) بمساعدة قيادة الجيش الحادى والعشرين فى ادارة القوات . وبعد تنفيذ هذه المهمة امرت بالذهاب الى اركان الجبهة فى خاركوف . فى الطريق لفت انتباهى انه لم تبق عندنا قوات تقريبا فى المؤخرة ، فقد وجهت جميعها الى الجبهة . وكان السكان يقومون بالجزء الاكبر من اعمال التحصين . ولم يكن يمكن رؤية اناس بمعاطف الجنود الا فى بناء التحصينات على مشارف خاركوف احيانا . وها انا اخيرا عند الجنرال بوكروفسكى رئيس اركان الجبهة . استمع الى تقريرى من غير ان يقاطعنى ، ثم ارسلنى الى المارشال بدون اية توضيحات . نهض تيموشينكو من خلف الطاولة وحيانى واخذ يسألنى عن تفاصيل اعمالنا لدى الخروج من التطويق ، ثم اخبرنى انه ينوى ابقائى فى اركان الجبهة ، وامرنى بان ادخل مجرى الامور بسرعة واستعد للحلول مكان اللواء شترومبيرغ فى منصب رئيس قسم العمليات – نائب رئيس اركان الجبهة (كان ينبغى لشترومبيرغ ان يذهب ليضع نفسه تحت تصرف القيادة العليا) .

وها انا فى مكتب شترومبيرغ . استمع باهتمام الى حديثى عن نضال قواتنا داخل طوق الاعداء . اننى ، وقد اجبت عن كل اسئلته ، طلبت بدورى منه ان يدخلنى فى مجرى الاحداث . كان الوضع لا يزال متوترا . وقد امتدت الجبهة بشدة ، ولم تكن توجد احتياطيات تحت تصرف قيادتنا . وكان ثمة عامل آخر اضعف كثيرا من استقرار دفاعنا ، وهو الوضع الميدانى لجارتينا ، جبهة بريانسك والجبهة الجنوبية . لقد شق غوديريان باسفين قوى من الدبابات الجناح الايسر لجبهة بريانسك واوغل بعيدا فى اتجاه اوريول . واصبح جانبنا الايمن مكشوفا . وتردى بشدة وضع جارنا الايسر ايضا .

فقد حشد العدو قوى كبرى ضد الجبهة الجنوبية واخترق دفاعها . ونضجت ضرورة سحب القوات هناك ايضا .

كان المارشال تيموشينكو فى قلق متزايد على الوضع فى جناح الجبهة الايمن . لقد انقطعت الصلة بجارنا الشمالى . وكلفت بان اتصل فورا بالاركان العامة لتلقى المعلومات اللازمة عن جبهة بريانسك . وتسنى لى هذا فى ٦ تشرين الاول (اكتوبر) مساء . ولكن اتضح انه لا توجد فى الاركان العامة ايضا سوى معلومات قليلة عن وضع قوات الجنرال ييريمينكو . والامر الوحيد المعروف هو ان العدو على مشارف اوريول .

ان خطر ان يقوم الفاشيون بالتفاف عميق على الجناح الايمن للجبهة الجنوبية الغربية ارغم المارشال تيموشينكو على ان يطلب من القيادة العليا السماح بسحب جيشينا الاربعين والحادى والعشرين الى مواقع جديدة . حاولت القيادة العليا قبل الموافقة على الانسحاب استخدام الوضع المؤاتى للجيش الاربعين بالنسبة الى العدو الذى يضغط على قوات جبهة بريانسك . واقترح المارشال شابوشنيكوف على تيموشينكو ان يوجه ضربة الى الشمال بقوى هذا الجيش . ولكن تيموشينكو ، وقد وزن الموقف ، اعلن انه لا يستطيع ان يفعل هذا ، لان قوى الجيش الاربعين لا تكاد تكفى لصد هجمة العدو من الغرب . حينذاك اقتنعت بمدى صلابة تيموشينكو فى آرائه .

وافقت القيادة العليا على براهينه فورا . وتلقى جيشانا الاربعون والحادى والعشرون فى الجانب الايمن امرا بالانسحاب .

فى ذلك الوقت تبدل رئيس اركان الجبهة . وقدم الينا الجنرال بودين . وما لبث ان استدعانى وأمرنى :

– اعكف فورا على اعداد مشروع امر بالانسحاب العام لجيوش الجبهة .

وقدم الى وثيقة . القيت عليها نظرة عاجلة ، ولم استطع ان اخفى دهشتى .

«. . . تأمر القيادة العليا الجبهة الجنوبية الغربية بالشروع منذ ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) فى الانسحاب الى خط كاستورنايا ، ستارى اوسكول ، فالويكى ، كوبيانسك ، كراسنى ليمان ، وانجازه حتى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) . . .»

لم يكن هذا يعنى مجرد انسحاب قوات جبهتنا من ٨٠ كيلومترا

الى ٢٠٠ كيلومتر ، بل كان يعنى ايضا ترك خاركوف وبيلغورود ومنطقة دونيتسك الصناعية .

لم استطع ان اتمالك نفسى . ما الذى ارغم القيادة العليا على اتخاذ قرار صعب كهذا ؟ اذ لم يكن فى وسعى ان انسى كيف ان القيادة العليا ابدت اقصى حد من الاصرار فى وضع كان يبدو لنا انه اكثر حرجا بالنسبة الى جبهتنا ، لكى لا تسمح بانسحاب القوات للمسافة نفسها تقريبا . والآن ، حيث لا تطلب قيادة الجبهة هذا ، وحيث وضع الجبهة اقوى بكثير مما كان عليه فى منتصف ايلول (سبتمبر) ، يصدر امر بالانسحاب . لم اصبر فاعربت عن دهشتى لبودين .

فى ذلك الوقت استدعينا الى قائد الجبهة . سألنا المارشال تيموشينكو عن رأينا حول وثيقة القيادة العليا ، فاعربت عن افكارى بلا مواربة . ورد تيموشينكو قائلا :

– لعلكم جربتم هذا بانفسكم : الذى يراقب المعركة من الخندق يرى شيئا ، وحينما يصعد الى الاعلى تتسع الصورة ويلاحظ اشياء لم يكن ليفكر فيها . كلما كانت نقطة المراقبة اعلى كانت الرؤية ابعد . هكذا الامر . نحن لا نعرف اشياء كثيرة . وموسكو لا ترى جبهتنا وحدها . انها تأخذ فى الاعتبار اختراق كليست لتاغانروغ وتهديد روستوف والجحافل المعادية قرب موسكو ولينينغراد . اذا كان قد حل فى ايلول (سبتمبر) هدوء نسبى فى اغلبية الاتجاهات الستراتيجية واستطاعت القيادة العليا ان تخاطر وتصارع من اجل الدنيبر وكييف بارسال الاحتياطيات من الجبهات الاخرى ، فانها الآن ، حيث العدو على مشارف موسكو وعند بوابة القفقاس ، لا تستطيع ان تساعدنا ، بل ستطلب منا ان نضع جزءا من قوانا تحت تصرفها . فى حين ان جبهتنا امتدت قوسا عملاقا ، ويصبح وقف العدو اصعب فاصعب . ماذا لو حول الفاشيون ثانية دبابات غوديريان وكليست الى مؤخرة جبهتنا ؟ لن تكون عندنا قوى لنصلح الوضع . ولهذا لا تستطيع موسكو ان تخاطر الآن ، ولذا تسحب قواتنا . اما من الناحية الانسانية فانا اقدر شعوركم جيدا ، ولا سيما ان الحديث يجرى عن موطنى اوكرانيا . . .

وهناك على خريطة القائد عينا الحدود الانتقالية واتجاهات ومناطق سحب القوات . وفى غضون ذلك كشف المارشال عن معرفة مدهشة

بميدان العمليات العسكرية وساعدنا على تعيين الحدود الانتقالية الافضل فعلا لسحب القوات . وحينما انهى العمل ، قال ان قوات الجبهة الجنوبية ستوضع منذ الغد تحت امرته مجددا . ونوه تيموشينكو قائلا :

– الآن ستؤدى اركاننا فى الوقت نفسه دور اركان قوات كل الاتجاه الجنوبى الغربى ايضا . ولن يكون عليكم تذكر جارتكم ، الجبهة الجنوبية ، فحسب ، بل تنظيم ادارة قواتها كذلك .

بقى ما يقرب من يوم ونصف حتى بداية الانسحاب . كان ينبغى فى غضون هذه الفترة القصيرة انجاز كل العمل لتنظيم المناورة المعقدة لهذه الاعداد الغفيرة من القوات . وبالنسبة الى كل ضباط الاركان وادارات الجبهة لم يعد اليوم منذ تلقى الامر بالانسحاب ينقسم الى نهار وليل . كان العمل يتطلب شحذ القوى الى الحد الاقصى . وقد ساعدنا تيموشينكو كل ذلك الوقت ولم يغمض له كذلك جفن لدقيقة واحدة .

فى ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) الساعة ٢٢ عقد اجتماع موسع لمجلس الجبهة العسكرى . قرأ الجنرال بودين امر القيادة العليا ، اما تيموشينكو فعرض قراره بايجاز ووضوح شأنه دائما . كان مشدود القامة ، محلوق الوجه بعناية . ان ايا كان ، اذ ينظر اليه ، لا يصدق انه لم ينم ثلاثة ايام على الاقل . كنا ، نحن المسؤولين عن العمليات ، نعرف مشروع القرار ونعتقد انه نص على كل شاردة وواردة . ولكننا ، اذ استمعنا الى المارشال ، اقتنعنا باننا ارتكبنا غير قليل من الهفوات . ولم يلاحظ تيموشينكو كل شىء فحسب ، بل وسد ما اغفلناه . فقد وضع ، مثلا ، مهمات ملموسة للتشكيلات التى افرزت بمثابة احتياطيات متحركة ، ورسم خطة دقيقة للمناورة من اجل كل القوات التى تفرغ بسبب تقلص خط الجبهة .

ادهش تيموشينكو الجميع فى المجلس العسكرى بنشاطه المتدفق وثقته بصواب القرار المتخذ . وحينما دخلت مكتبه عقب الاجتماع ، حيث كان المارشال وحيدا ، كان يبدو اكثر تجهما من السحاب وقال لى :

– انه لمن الصعب بشكل لا يطاق معرفة اننا نسلم العدو بلا معركة الدونباس والحسناء خاركوف ، العاصمة الثانية لاوكرانيا واراضى شاسعة ، كثيفة بالسكان . يعزينى امر واحد ، وهو ان

العدو لن يسيطر طويلا على هذه الاراضى العزيزة علينا ، سنجمع قوانا ونطرد المحتلين من اوكرانيا ، ثم نصل الى برلين . ما رايك ؟

بهذا السؤال انهى خواطره التى افصح عنها لسانه .

– اعتقد ان الامر سيكون كما تقول ، ولكن هذا يقتضى غير قليل من القوى والوقت .

بقيت اركان الجبهة فى خاركوف حتى الساعة العاشرة من ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، وكان عليها بعد ذلك الانتقال الى فالويكى ، تاركة نقطتين مساعدتين للادارة فى اوبويان وتشوغوييف . انتقل المجلس العسكرى وجزء من ادارة الجبهة الى تشوغوييف اول الامر ، اما البقية فذهبت الى فالويكى مباشرة . كان على ان اصل الى تشوغوييف قبل الرتل الاساسى ببعض الوقت ، لاستلم ادارة القوات واستقبل قيادة الجبهة الجنوبية الغربية .

وصلت الى هناك فى حوالى الساعة التاسعة صباحا . وحاولت على الفور الاتصال باركان الجيوش . ولكن هذا لم يكن بالامر البسيط . لقد تسنى الاتصال بالجيشين الجانبيين الجيش السادس والجيش الاربعين بسرعة ، اما اركان جيشى الوسط – الحادى والعشرين والثامن والثلاثين – فلم نعثر عليهما بواسطة اللاسلكى الا بعد ساعتين . تم الانسحاب فى ظروف صعبة ، فقد دفع الهتلريون بقوى كبيرة جدا ، محاولين توجيه ضربات فى مواقع التماس . بيد ان كل حملات العدو صدت بنجاح .

وما لبث ان وصل المجلس العسكرى . ان تيموشينكو وقد استمع الى تقريرى ، اعطى الجيوش جملة من التوجيهات التدقيقية . وفى المساء طار المارشال الى مقر القيادة الاساسى فى فالويكى ، تاركا فى تشوغوييف مجموعة من القادة على رأسهم نائبه الجنرال كوستينكو . وذهبت معه .

كان مقر القيادة الجديد على اهبة الاستعداد تماما . وكان الاتصال يعمل بصورة طبيعية الى هذه الدرجة او تلك . وكان المارشال تيموشينكو يجرى مكالمات مع قادة الجيوش باستمرار تقريبا . انه ، وقد اقتنع بان انسحاب جيوش الجبهة الجنوبية الغربية يجرى رغم صعوبة الظروف بدون انحراف يذكر عن الخطة ، ركز كل اهتمامه على مراقبة اعمال الجبهة الجنوبية . وكان المارشال يدعو الى الخط من حين الى آخر قائد هذه الجبهة الجنرال كولونيل

تشيريفيتشينكو وقائد الجيش السادس والخمسين المتعاون معها الفريق ريميزوف . وقد ابلغه تشيريفيتشينكو ان الجيشين الثانى عشر والثامن عشر ينسحبان وفق الخطة بصرامة بدون اية تعقيدات . وكان الامر اسوأ على جناح الجبهة الجنوبى . ففى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) اقتحمت قوات كليست شريط الجيش التاسع واستولت على تاغانروغ . هذا الخبر اقلق واحزن المارشال تيموشينكو طبعا ، ولكنه لم يبد ضجره ، لانه كان يعرف ان التوبيخ لن يساعد المرؤوس . وحذر قائد الجبهة بلهجة هادئة من انه بسقوط تاغانروغ ظهر تهديد بوصول العدو الى مؤخرة قواته . ولعدم السماح بهذا ، امر تيموشينكو بتقوية البنية القتالية للجيش التاسع فورا بوسائل الدفاع المضاد للدبابات وتنظيم تعاونه مع الجيش السادس والخمسين الذى يدافع عن روستوف . ووعد المارشال بان يرسل لمساعدة الجيش التاسع لواء مدرعا كاملا من الجبهة الجنوبية الغربية . وقال بعد المكالمات مع تشيريفيتشينكو :

– العدو يندفع الى روستوف على نحو مسعور ، اعطونى معلومات مفصلة عن القوى المدافعة عن المدينة .

جمعنا هذه المعلومات بسرعة . ان الجيش السادس والخمسين قد تشكل لتوه من قوات منطقة شمال القفقاس العسكرية . وفى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) كانت فرقتاه للمشاة وفرقته للخيالة قد تمكنت من ان تشغل خطا دفاعيا فى مؤخرة الجيش التاسع على بعد ٢٥ كيلومترا الى الغرب من روستوف . وكانت حامية روستوف تضم مدرسة للمدفعية ومدرسة حربية-سياسية وعدة افواج ، اى ما يربو قليلا على ٦٠٠٠ شخص . وكانت تقع تحت تصرف قائد الجيش خارج اطار المدينة فرقة فرسان واحدة وعمارة سفن وعدة وحدات . حينما اعلم القائد العام بهذا ، قال باسى :

– من الواضح ان هذه القوى لن تكفى لوقف جيش كليست المدرع فى حالة اختراقه روستوف .

ابلغ المارشال القيادة العليا بجوانب ضعف الدفاع فى اتجاه روستوف . وقال شابوشنيكوف انه خصصت لامداد جيش الفريق ريميزوف ثلاث فرق للمشاة وفرقة للفرسان ومفارز مدرستين حربيتين من كراسنودار . وتنشط الاعمال الدفاعية على مشارف

روستوف وفى المدينة نفسها ، ويشرك فيها السكان المحليون على نطاق واسع .

ان تيموشينكو ، وقد استوضح الوضع الميدانى فى الجبهة الجنوبية ، استنتج ان العدو لا يزال يستطيع الاحتفاظ بالمبادرة ، ولا يبقى عندنا ما نفعله سوى ان نأمل فى استقرار الوضع .

– انه لامر حسن اننا فى الجبهة الغربية نسيطر بقوة على الوضع ونوجه مجرى الاحداث .

كان هذا اطراء كبيرا على لسان القائد العام الذى لا يطيق المداهنة وتعليل الذات .

وفى الواقع ، فبفضل الرقابة الصارمة التى فرضها المارشال انسحبت القوات وفق الخطة ، رغم المحاولات اليائسة التى بذلتها القيادة المعادية لعرقلة ذلك . بيد انه ، وقد استمع الى تقرير جديد لبودين ، لاحظ ان انسحاب القوات يجرى على خط واحد بصورة مفرطة ، فلاغلبية القوات نسق واحد لاصطفاف القوى والعتاد بدون رصها فى الاتجاهات الرئيسية ، وبدون فرز الاحتياطيات القوية . سال تيموشينكو ، ناظرا الى الخريطة :

– لماذا بعثر قائد الجيش الحادى والعشرين غوردوف كل فرق جيشه على طول الجبهة ؟ صلونى به فورا .

بعد عدة دقائق كان يتحدث والسماعة فى يده :

– مرحبا ، ايها الرفيق غوردوف ! يتكون انطباع يوحى بان فرقك تشتت . . . هذا لا يزيد من صعوبة ادارتها فحسب ، بل ويحرم الجيش من الفعالية . فى حين ان علينا ان نلحق بالعدو اكبر خسارة ممكنة حتى فى خلال الانسحاب .

قال غوردوف مبررا تصرفه :

– ايها الرفيق القائد العام ، العدو يسعى كل الوقت الى الالتفاف على فرقنا واقتحام نقاط تماسها ، فنضطر الى ابقاء القوات فى كل مكان .

– ولكنك لا تاخذ فى الاعتبار ان نشر القوات على خيط كالاحتماء بحاجز زجاجى من وابل حجارة متساقطة . فمن السهل على العدو فى اية لحظة ان يقطع هذا الخيط وياتى ليتجول فى مؤخرتنا . وليس عندك من الاحتياطيات ما يكفى لمنع هذا . والامر مغاير تماما اذا

لم تبعثر قواك وشكلت قبضات ضاربة قوية . عندئذ تستطيع ان تضرب العدو بشدة حالما يحاول افتحام مواقع قواتك . . .

ينبغى القول ان المارشال تيموشينكو كان يتسم عضويا ، كما يقال ، بحرص لا يكل على تشكيل احتياطيات كبيرة بما فيه الكفاية ، مع العلم انه كان يحاول استخدامها فى الامكنة التى يتوقع فيها ضربة من العدو . ولم يمكن هذا من صد الضربات المعادية فى الوقت المناسب فحسب ، بل وصان قوانا . كانت الفرق والافواج تتمكن ، وهى فى الاحتياط ، من ان تعزز صفوفها بالناس والاسلحة وتستريح قليلا ، لتعود مجددا الى المعركة بقوى جديدة . وخاصيته هذه – واعنى حرصه على توفر الاحتياطيات – تجلت بوضوح فى حديثه مع غوردوف . سناورد بقية هذا الحديث الممتع الذى يوجد تسجيل له فى الارشيف .

قال قائد الجيش الحادى والعشرين :

– ارجو السماح للجيش بعدم البقاء فى موقع انتقالى . عندئذ نربح الوقت ونبتعد عن العدو لننظم دفاع موقعنا التالى على نحو افضل .

وجاء الجواب :

– كلا ، ينبغى البقاء فى موقع انتقالى حتما . والا تعرض للخطر الجيش الاربعون المضطر الى انتظار انسحاب جبهة بريانسك .

اذ استمعت الى هذا الحديث ، قارنت من غير قصد وضعنا حينذاك باحداث الصيف . لقد بذلت القيادة الفاشية كل الجهود لتطوق قواتنا المنسحبة بتكتيكها المفضل ، تكتيك الكماشة ، تحطمها وتسحقها قطعة قطعة . ولكن ما كان يتسنى للعدو احيانا فى الاسابيع الاولى من الحرب ، لم يعد يتسنى له الآن . ان الدرس المر الذى تلقيناه ، ومعنا قائدنا العام ، لم يذهب عبثا . فقد اكتسبنا تجربة . وصارت نواة كل تشكيلاتنا تقريبا مكونة من محاربين وقادة عركتهم المعارك . وارتفعت بوضوح المهارة الحربية للسلك القيادى من كل الدرجات ، ولا سيما قادة حلقة العمليات . وصارت قيادتنا تناور بالاحتياطيات على نحو افضل . وعلى الرغم من ان ظروف التامين المادى للقوات قد تردت ، استطاع الحزب والحكومة ان يستخدما باقصى ما يمكن من الفعالية كل الموارد لدعم قدرة الجيش القتالية .

وبفضل المقاومة البطولية التى ابدتها حامية خاركوف ، لم تشعر

المخابرات الفاشية بانسحاب القوى الاساسية للجبهة الجنوبية الغربية الى موقع جديد ، وحينما ، استأنف العدو هجماته فى ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، كانت قواتنا خارج مدى نيران مدفعيته . ولم يعد عند الجنرال رايخيناو قائد الجيش الالمانى السادس اى امل فى القيام بمناورة التفافية . وصار انسحاب قواتنا مبرمجا ومنظما اكثر فاكثر . وكان واضحا ان التصدى العنيف للفاشيين فى الموقع السابق قد اضعف اندفاعهم الهجومى بشكل ملحوظ .

وحل على الجبهة هدوء لم يعهد له مثيل ، اذ كانت ترد من كل الجيوش تقارير عن سكينة العدو الكاملة ، ووردت من الجيشين الحادى والعشرين والثامن والثلاثين تقارير عن انهما «فقدا» العدو ، اى عن عدم وجود احتكاك قتالى معه .

وفكرت : «الا ينبغى لنا استغلال هذا الوضع ؟» . اذ ان انسحاب قوات الجبهة كان ناجما الى درجة كبيرة عن اندفاع الجيوش الفاشية فى اتجاهى موسكو وروستوف وما ينجم عن هذا من خطر ان تلف على جوانبنا ، كما حدث شرقى كييف . ولكننا صرنا نتلقى من موسكو معلومات تقول بان الهجوم العام للقوات الالمانية على العاصمة يلفظ انفاسه الاخيرة ، وان العدو اوقف عمليا على بعد مئة كيلومتر عن موسكو . واستقر الوضع بالتدريج قرب روستوف ايضا . وهكذا ، فاننا نستطيع ان ننتقل الى مسافة كبيرة غربى الحد الذى عينته القيادة العليا . وهذا من شأنه ان يحسن وضعنا الستراتيجى العام . فمثلا ، ننال باستخدام الخط الحديدى الهام كاستورنايا - ليسيتشانسك امكان المناورة الواسعة بالقوى بين الجبهتين الجنوبية الغربية والجنوبية .

حينما اخبرت الجنرال بودين بخواطرى ، نظر الى بطرف عينه ، مبتسما :

- اتعلم ، وانا ايضا فكرت فى هذا . اذا تسنى لنا ان ننتزع فترة لنلتقط انفاسنا بعض الشىء ، فيجب ان نستغلها لتعزيز مواقعنا فى الحد الذى وصلنا اليه الآن . . .

ولاقناع القائد العام بضرورة هذه الخطوة اعدت وثيقة معللة جيدا ، ولكن اتضح ان لا حاجة الى اقناع المارشال ، فهو نفسه كان ينوى التحدث مع موسكو بهذا الخصوص ، وقال انه سيصدر امرا على الفور ما ان يتلقى موافقة موسكو .

قال لى ولبودين :

- اعدا الاوامر فورا .

فى تلك الايام ، فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ ، كانت الجحافل الفاشية تقف فى اتجاه موسكو الرئيسى على بعد ٨٠-١٠٠ كيلومتر عن موسكو ، اما فى الجنوب فكان العدو يدق بوابة القفقاس بوقاحة . ولعلنا عشنا فى ذلك الحين اصعب الاوقات . بدا وكانما وصلت نجاحات الالمان على الجبهة الشرقية الى الاوج . كانت القوات السوفييتية بحاجة الى الاسلحة والذخائر حاجتها الى الهواء ، فى حين تقلص انتاجها بشدة . فالمؤسسات التى اجليت الى الشرق كانت قد استقرت لتوها فى الاماكن الجديدة . كان الوضع حادا ومقلقا الى هذه الدرجة حينما برزت امام قيادة جبهتنا الجنوبية الغربية هذه المعضلة : ما العمل لاحقا بعد ترسيخ اقدامنا فى الموقع الجديد ؟ كان يبدو ان لا مجال حتى لمجرد الحديث عن امكان الانتقال الى العمليات العسكرية الفعالة . كل شىء كان يدفع الى التفكير فى حتمية الدفاع السلبى . ومع ذلك كان الوضع الخطر على جوانب الجبهة يرغم على البحث عن حل آخر . الى يميننا كان جزء هام من قوى جبهة بريانسك واقعا فى طوق العدو . ولم يكن الوضع فى اليسار اقل توترا ، اذ كان جيش كليست للدبابات يهدد روستوف .

اننا فى اركان الجبهة فكرنا طويلا فى آفاق الاعمال المقبلة لقواتنا . وكلما كنت احلل الموقف بمزيد من العمق كانت تزداد قناعتى بان الدفاع السلبى فى وضع كهذا هو والموت سواء . يجب الانتقال حتما الى الاعمال الفعالة الحاسمة . وازن امكاناتنا المرة تلو المرة . ان ايجاد تجمع قوى على جناحينا الستراتيجيين امر صعب ، ولكنه ممكن ، حتى وان اقترن ببعض المخاطرة . عرضت حساباتى على رئيس الاركان . كان بودين على الدوام نصيرا للاعمال الفعالة ، فدعمنى بحرارة فورا . وقال :

-ان الانتقال الى الهجوم المضاد فى جناحى قوات الاتجاه ضرورى لنا لا من اجل ازالة الخطر المسلط عليها فقط . انه يرفع معنويات القوات التى اضناها الانسحاب الطويل .

درسنا الوضع الميدانى على الخريطة مجددا . لكى نساعد فى الشمال قوات جبهة بريانسك التى تتعرض لضغط قوى من العدو ، بوسعنا توجيه ضربة الى شمال غربى كاستورنايا . بيد ان الوضع فى

الجنوب كان مؤاتيا اكثر لتوجيه ضربة فورية . فهناك كانت قوات الجبهة الجنوبية تطل على الجانب الايسر الممتد لجيش كليست المدرع . واذا قطعنا جبهة العدو فى هذا المكان ، ثم وصلنا الى مؤخرة تجمعه المدرع الضارب ، فسنحقق ربحا معنويا وسياسيا كبيرا ، لاننا نصفى الخطر على روستوف ، وبالتالى شمال القفقاس . شاطرت بودين هذه الافكار كذلك ، فوافقنى من الناحية المبدئية ، قائلا ان من الضرورى البحث عن قوى وموارد لضربة تساعد قوات جبهة بريانسك . حسبنا القوى والموارد التى نستطيع اشراكها فى العملية الهجومية فى الجنوب ، ورسمنا على الخريطة مخطط فكرتنا . وكلفنى رئيس الاركان بابلاغ القائد العام :

– الفكرة فكرتك ، فاعرضها على القائد .

لا اكتم اننى اضطربت جدا ، اذ كنت ادرك ان ليس من السهل على المارشال ان يوافق على مبادرة مرؤوسه هذه . كانت المخاطرة كبيرة .

استمع تيموشينكو الى تقريرى ونظر باهتمام الى الخريطة التى جلبتها معى وعليها سهام حمراء عريضة مصوبة الى جانب ومؤخرة قوات كليست . فكر عدة دقائق صامتا ، ثم قال متأملا :

– للاقدام على هذا ينبغى ايجاد تجمع ضارب قوى بما فيه الكفاية شمال غربى روستوف . الجبهة الجنوبية لا تملك القوى اللازمة لهذا . اى ينبغى على الجبهة الجنوبية الغربية ان تعطى تشيريفيتشينكو شيئا من عندها . واذا اخذت منا القيادة العليا غدا الجبهة الجنوبية مجددا ؟ عندئذ تذهب منا بلا عودة كل القوى والموارد التى نرسلها الى هناك . . .

صمتنا . انها حجة وجيهة جدا فى ظل فقرنا فى القوات . ولكن المارشال بعد دراسة طويلة للخريطة توصل الى القول :

– ومع ذلك ثمة ما يستوجب المخاطرة من اجل المنفعة المشتركة .

فى هذه الحادثة تجلى بوضوح كبير ، كما اعتقد ، اسلوب المارشال تيموشينكو : معرفة تقدير الاقتراح العملى ، وتحمل مسؤولية تنفيذه على الرغم من المخاطرة ، والشروع بلا ابطاء فى الخطوات العملية . فهو ، وقد استحسن اقتراحى ، باشر فورا حساب ما نستطيع ارساله

الى الجبهة الجنوبية بدون الحاق ضرر يذكر بالجبهة الجنوبية الغربية ، ثم تابع وكأنه يفكر بصوت مسموع :

– ان القوى التى نخصصها ، بالاضافة الى الفرق الاحتياطية التى سحبها تشيريفيتشينكو الى منطقة بيلايا كاليتفا لاستكمال تشكيلها ، ستساعدنا على انشاء هيكل تجمع ضارب ، للهجوم المضاد المقبل .

قال بودين :

– يستحسن جمع كل هذه القوى تحت قيادة واحدة .

ووافقه تيموشينكو :

– صحيح . سننشىء ادارة جديدة للجيش . وبالمناسبة ، ظهر عندنا فى الاحتياط الجنرال لوباتين ، وهو ضليع ومجرب فى المعارك . وقد طلب اليوم بالذات ادخاله فى العمل . فكرا فى كل هذا ، واعدا الحسابات والتوجيهات الضرورية . ولن نؤجل شيئا : اليوم سنناقش كل هذه المسائل فى المجلس العسكرى .

فى المساء اجتمع المجلس العسكرى . وقد ايد بالاجماع فكرة الهجوم المضاد . ولم يبق سوى الحصول على موافقة موسكو . وحسبما اتذكر جرى اول حديث حول هذه المسألة فى ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) . ان رئيس الاركان العامة ، وقد استمع الى القائد العام ، اعرب عن مخاوفه : أليس من المخاطرة الشديدة القيام بهجوم كبير الآن ، ألن يزعزع استقرار الجبهة الجنوبية الغربية نقل جزء من قواتها الى الجار . ورد تيموشينكو بايجاز : «لا مجال لتجنب المخاطرة فى الحرب» .

أمر المارشال شابوشنيكوف تعليل اقتراحنا فى برقية الى القائد الاعلى . وفى اليوم نفسه ارسلت هذه البرقية الى موسكو . وقد اشير فيها الى ان العدو ، اذ وصل الى مناطق خاركوف وستالينو (دونيتسك) وتاغانروغ ، اوقف الهجوم بالقوى المتحركة فى اتجاه تاغانروغ ، روستوف وانتقل الى ازاحة قواتنا ببطء من الدونباس بقوى المشاة وحدها . ثم توضح البرقية ان الجيش التاسع للجبهة الجنوبية والجيش السادس والخمسين لا يستطيعان حماية روستوف من ضربة قوية متوقعة توجهها قوى الالمان المتحركة فى هذا الاتجاه . والتقدم اللاحق لقوات العدو هذه الى مؤخرة الجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية قد يهدد فعلا بعزل القفقاس عن الدون ومنطقة

الفولغا . وهذا ما يفتح للعدو الطريق الى كوبان ووجهة ستالينغراد .

واشير فى ختام البرقية الى انه «لدى اعتبار جيش كليست الخطر الاساسى ، ينبغى الاقدام على المخاطرة باضعاف الجبهة الجنوبية الغربية وتقوية الجبهة الجنوبية على حسابها . وفى الوقت نفسه نفكر فى مباشرة تشكيل ادارة للجيش السابع والثلاثين . . . نرجو ارسال : ٣٠ الف بندقية و٥٠٠ رشاش يدوى و٢٥٠ رشاشا ثقيلا و٢٠٠ مدفع مضاد للدبابات و١٥٠ مدفع ميدان و٢٠٠ دبابة» .

ان فكرة الاعمال الفعالة لم تكن تشغلنا وحدنا ، بل كانت تشغل ايضا الجنرال تشيريفيتشينكو قائد الجبهة الجنوبية الذى طلب السماح بتوجيه ضربات قصيرة الى العدو بقوى محدودة .

– لا مغزى لتبديد القوى على وخز الدبابيس . ينبغى الاستعداد لضربة يتذكرها العدو طويلا .

رد القائد العام على هذا دون الخوض فى تفسيرات لاحقة لاعتبارات تتعلق بصيانة السر العسكرى .

منذ ١ تشرين الثانى (نوفمبر) حل الهدوء على اتجاه روستوف . يبدو ان القيادة المعادية كانت تقرر ما اذا كان عليها ان تستولى على المدينة بضربة امامية او بمناورة جانبية . لقد شاهدت وبودين مدى الدقة التى تمخض بها القائد العام عن فكرة الهجوم فى اتجاه روستوف . انه ، وقد حلل كل الاحتمالات الممكنة ، استنتج ان من الافضل وضع الجيش الجديد الى الجانب الايسر للجبهة الجنوبية ، عند تماس الجيشين التاسع والثامن عشر . اذا كانت القيادة الفاشية تنوى توجيه ضربة الى الجناح الايسر للجبهة الجنوبية ، فان ظهور جيش جديد هناك يضع امام العدو صعوبات لا يستهان بها ، واذا كان سيهاجم روستوف مباشرة على اى حال ، فان الجيش الجديد سيوجه بالاشتراك مع جيرانه ضربة الى جناح ومؤخرة تجمع كليست .

تباطأت القيادة فى الرد ، فقرر المارشال تيموشينكو مقابلة قائد الجبهة الجنوبية دون انتظار قرار موسكو النهائى . وعين موعد الاقلاع فى الساعة الثامنة صباحا .

بقينا فى الاركان كل الليل نعد الحسابات والمعلومات المتعلقة بالعملية المقبلة . وكانت تقلقنا بشكل خاص كيفية استقبال قيادتى الجبهة والجيش ، اللتين علينا ان نحلا كل المهمات عمليا ، فكرة

الهجوم الكبير . اذ ان النجاح يتوقف على هذا الى درجة كبيرة .

ابلغنا المارشال تيموشينكو بهذه الشكوك ، فحدثنا بالكيفية التى كانوا يتصرفون بها احيانا زمن الحرب الاهلية . كانوا يعدون خريطة ضخمة عينت عليها افواج الحرس الابيض ببقع لا تكاد تلحظ ، وافواجنا بدوائر كبيرة حمراء تندفع منها سهام مسددة فى اتجاه العدو . وحينما كانت وحدة ما تبدأ بالتراجع تحت ضغط قوى البيض المتفوقة ، كانوا يستدعون آمرها ويشيرون الى خريطتنا «النفسية» ويسألونه بصرامة :

– اترى اية قوة عندك واية قوة عندهم ؟

فيحك الآمر قذاله ويتنحنح ويتمتم بارتباك وقد اقتنع مخلصا بتفوق وحدته على فوج البيض :

– اية بعوضة تلسعنى ! . . سنسحقها .

وكان يحدث ان يسحق بالفعل قوى العدو المتفوقة .

وخلص تيموشينكو الى القول :

– الثقة بالقوى الذاتية هى نصف النصر . جنرالاتنا ، طبعا ، يتفوقون كثيرا على قادة الحرب الاهلية ، ولكن لن يكون من الردىء فى هذه الحالة اذا تسنى لنا تصوير جيش كليست «بعوضة» مقارنة بقوى الجبهة الجنوبية . كليست قوى ، طبعا . ويجب علينا جميعا ان نحاول ما امكن اظهار نقاط ضعفه . . .

لقد اضطررت والجنرال بودين ان نقلل بكل السبل من شأن القدرة القتالية لجيش كليست امام قيادة الجبهة الجنوبية ، متصرفين بعلم القائد العام خلافا للقاعدة الراسخة ، وهى عدم الاستخفاف بالعدو . لقد كان المارشال مصيبا ، اذ يجب تذليل الحاجز النفسى فى وعى قادتنا الذى نشأ نتيجة التراجع الطويل ، وكذلك ، الامر الذى لا بد من الاعتراف به ، نتيجة القناعة الباطنية فى حتمية هذا التراجع بسبب تفوق العدو فى المعدات .

فى الصباح كنا فى المجلس العسكرى الموسع للجبهة الجنوبية فى كامينسك-شاختينسكى . اتضح من تقرير رئيس مخابرات الجبهة ان كليست ينوى توجيه الضربة الرئيسية فى اتجاه روستوف بقوى ثلاث فرق للدبابات وفرقة آلية وفيلق جبلى . وحددت الجبهة واتجاهات الهجوم بدقة . ولم يبق مجهولا سوى توقيت بدايته . هذا الخبر اقلق القائد العام بوضوح . فسأل تشيريفيتشينكو :

– ما هى الاجراءات التى اتخذت لصد هجوم العدو ؟

بيد ان قائد الجبهة تحدث عن اجراءات ملموسة وفعالة لصد ضربة العدو . بعث هذا على اطمئنان المارشال ، وحينما نوقشت كل تفاصيل التصدى لهجوم العدو المتوقع ، توجه الى خريطة معلقة على الجدار وتفحص المجتمعين باهتمام :

– وماذا سنفعل لاحقا ، ايها الرفاق ؟ !

صمت الجميع بحيرة . فاوضح تيموشينكو :

– سنصد هجوم كليست الجديد ، ثم ماذا ؟ هل سندافع دائما ؟ الم يئن الاوان لنوجه الى العدو ضربة بحيث لا يعود ينظر الى طريق القفقاس ، بل الى طريق ترجعه الى بلاده ؟

ابتسم المارشال :

– احقا تبدو فكرتى لكم خيالية ؟ ام انكم اعتدتم على الدفاع حتى نسيتم كيف تهجمون ؟

اعترض تشيريفيتشينكو :

– ولكننا بانفسنا اقترحنا عليك ضرب العدو . الا انك ، ايها الرفيق المارشال ، لم ترد على اقتراحنا .

– انى لم ارد لانه لم يعد يرضينا الآن تحطيم فرقة او فرقتين للعدو . آن الأوان لان نفكر فى هجوم كبير . وهنا بالذات ، قرب روستوف . على هذا النحو فقط نستطيع احباط خطة هتلر للوصول الى القفقاس . انه يمد اصابعه الى القفقاس ، ونحن ، اذ نحطم جيش كليست ، نبترها نهائيا .

رد تشيريفيتشينكو متجهما :

– العين بصيرة . . . لسنا ضد ذلك ، ولكن حبذا لو استطعنا الآن مجرد وقف العدو . تحطيم هذا التنين ، جيش كليست المدرع . . . هذا فى حين يشكو كل القادة ان القوى لا تكفى حتى للدفاع . . .

كان تيموشينكو يزداد تجهما مع كل كلمة يلفظها القائد – وزمجر غاضبا :

– انه لامر ردىء ان يكون مزاج مرؤوسيك هكذا ، ولكن الاردأ من ذلك ان تمشى ، انت قائد الجبهة ، على هواهم . القائد الذى لا يؤمن بنجاح العمل نصف مهزوم .

التقط المارشال انفاسه :

– ومن قال ان ليس عندنا ما نقصف به رقبة كليست ؟ كم فرقة يجرى تشكيلها عندكم ؟

اجاب انطونوف رئيس اركان الجبهة بسرعة :

– سبع . خمس للمشاة واثنتان للفرسان ، وهناك لواءان للدبابات .

– انظر ، اية احتياطيات عندك .

اعترض تشيريفيتشينكو :

– ولكن ليس عندنا ما يكفى من الاسلحة لتشكيلها .

– موسكو ستساعدكم . لقد طلبنا هذا من القيادة العليا .

فكر القائد العام ، ثم اضاف :

– سنرسل اليكم من الجبهة الجنوبية الغربية فرقتين او ثلاث فرق للمشاة ولواء دبابات وعدة افواج للمدفعية ومدافع هاون للحرس ، وسنشرك عددا كبيرا من الطائرات لحماية العملية . . .

واذ رأى المارشال ان الجنرالات يتلقفون كل كلمة من كلماته كالمسحورين ، اختتم قوله بمرح :

– لا يجادل احد فى ان كليست قوى وعنده الكثير من الدبابات . ولكن لا توجه الضربات بالعدد وحده ، بل بالمهارة ايضا ! فليكن عند الفاشيين قوى اكثر مما عندنا فى كل الاتجاه الجنوبى الغربى ، ولكننا سنستطيع فى المكان الذى سنوجه اليه ضربتنا ان نتوصل الى تفوق وان كان صغيرا بواسطة مناورة من قطاعات اخرى . وبالاجمال ، تعالوا نفكر لا فى كيفية وقف كليست فحسب ، بل وفى كيفية ابادته ! . .

انتعش الجميع . كان واضحا ان القائد العام قد الهب الرفاق بتفاؤله وقناعته الشديدتين ، وان فكرة العملية الهجومية الكبيرة قد جذبتهم . واعلن المارشال انه يعهد الى قيادة الجبهة الجنوبية بالمسؤولية عن الاعداد المباشر للعملية واجرائها .

ونوقشت فى الاجتماع ايضا مسائل العمل الحزبى-السياسى الذى كان تيموشينكو يعيره اهتماما كبيرا على الدوام . وكان من بين ما قاله :

– يجب ان يشرح لكل آمر ومقاتل ان الفاشيين ليسوا كما كانوا فى حزيران (يونيو) . انهم لم يكونوا مستعدين لهذا الشتاء . لقد وعدهم هتلر بانهاء الحملة فى روسيا قبل حلول برد الخريف .

اما فى الواقع فحصلت كبوة . والروح المعنوية للجيش الهتلرى ليست عالية جدا . لقد منى بخسائر فادحة . وفى الاراضى المحتلة تغلى الارض تحت اقدام الغزاة . هذا لا يعنى ان قوى العدو قليلة . كلا ، انه لا يزال يتمتع بقدرة كبيرة . ونحن لا نستطيع ان نعد الناس بانتصار سهل . امامنا معارك شاقة . وسوف يقاتل الفاشيون بعناد فى المستقبل ايضا ثملين بنشوة دعايتهم . ولكن شعبنا وجيشه يملكان قوى لا تحصى ، سوف يهزم العدو فى نهاية المطاف .

. . . فى المطار كان ينتظرنا الجنرال فالالييف الذى قدم الى هناك قبلنا . ابلغ القائد العام ان الحالة الجوية مناسبة . وخطا المارشال نحو الطائرة . كان واضحا انه فى مزاج حسن .

مر الليل بهدوء نسبى ، وفى الصباح بدات الواقعة .

فى الساعة التاسعة صباحا جاء من الجبهة الجنوبية ان القوات المعادية انتقلت الى الهجوم . وكما كان متوقعا ، تغلغلت ازاميل كليست المصفحة فى الجيش التاسع ، مغطية المشارف البعيدة لروستوف من الشمال الغربى . اقلق الخبر القائد العام . كان الهجوم قويا الى درجة ان قواتنا اضطرت الى التراجع وهى تخوض المعارك . كان واضحا من تقرير تشيريفيتشينكو انه يمكن ، حتى بدون معرفة التفاصيل ، ادراك ان وضع الجيش التاسع يزداد خطرا . بيد ان المارشال ، وقد حلل الوضع بسرعة ، لم يوافق على استنتاج تشيريفيتشينكو القائل بان كليست يندفع الى كامينسك . لقد توصل الى استنتاج (ما لبث ان تاكد) ، وهو ان كليست سيتحرك الى شاختى بالالتفاف على روستوف من الشمال .

ان تيموشينكو سال بودين عن الكيفية التى يمكن بها مساعدة الجيشين التاسع والثامن عشر . اجاب رئيس اركان الجبهة ان فرقة المشاة التاسعة والتسعين تقترب لتضع نفسها تحت تصرف الجنرال كولباكتشى قائد الجيش الثامن عشر ، اما خاريتونوف فيمكن تسليمه فيلق خورون للفرسان . فاعترض القائد العام :

— هذا قليل ، لقد وجه كليست الى جيش خاريتونوف قوى مدرعة جبارة . يجب ان يحشد ضدها جزء كبير من مجموع طائراتنا القاذفة والمقاتلة .

ان القائد العام ، وقد رسم الخطة العامة للاعمال اللاحقة ، اكد لقائد الجبهة : ان الاحداث تشهد بصورة مقنعة على اننا خمنا نية

كليست بشكل صحيح ، ولذا لا توجد مسوغات للتخوف من ضربات يوجهها الى الشمال والشمال الشرقى .

فى تلك الايام الصعبة والحافلة بالقلق بالنسبة الى الجبهة الجنوبية ، حينما كان كل شىء يبدو معلقا على شعرة ، لم يتخل القائد العام بما عرف عنه من اصرار عن فكرة الهجوم . وطلب من تشيريفيتشينكو بحزم الا يضعف اهتمامه بتشكيل تجمع قوات ضارب عند تماس الجيشين التاسع والثامن عشر . هكذا كان طبع تيموشينكو : اذا اتخذ قرارا ، فانه يبذل كل الجهود لتنفيذه .

لم يكن تشيريفيتشينكو يشاطر المارشال تيموشينكو تفاؤله . وقال انه على الرغم من اطمئنانه التام على وضع الجيشين التاسع والثامن عشر ، يعتبر مع ذلك ان من الضرورى سحبهما فى بعض القطاعات . فهذا يمكن من تقليص الجبهة وسحب فرقتين او ثلاث من المشاة الى الاحتياط لمساعدة خاريتونوف على اصلاح الوضع . وكان تشيريفيتشينكو يشك فى امكان تشكيل تجمع ضارب للهجوم فى وضع كهذا . وذكر المارشال بانه لا توجد الى الآن فى فرق المشاة الجديدة الاربع مدفعية ولا رشاشات ، وهناك نقص حتى فى البنادق .

وشجعه القائد العام : القيادة العليا ستساعدكم ، والجبهة الجنوبية الغربية ستشاطركم ما عندها . وباختصار ، افهمه المارشال ان اية احداث فى الجبهة لن تجعله يتراجع عن الفكرة . وكبرهان على ذلك طلب منه ان يعطيه فى الحال امرا لتوقيعه حول تشكيل الجيش السابع والثلاثين الذى سيضم اول الامر فرق المشاة ٤ و١٧٦ و٢١٨ و٢٥٣ . قبل ذلك كان الجيش الجديد موجودا فى مخيلتنا فقط . والآن اقر تشكيله رسميا .

ولكن حتى بعد المحادثات مع قائد الجبهة الجنوبية لم يكن القلق على مصير الجيش التاسع ليفارق بودين او يفارقنى . وبقى المارشال تيموشينكو وحده ، ظاهريا على الاقل ، هادئا وواثقا .

بيد ان الاحداث فى الجبهة الجنوبية اقلقت موسكو . ان المارشال شابوشنيكوف استدعى القائد العام الى التلفون ، ولم يطمئن الا بعد ان اكد له تيموشينكو ان اية كارثة لم تحدث : فجيش خاريتونوف التاسع يقاتل باصرار شديد ويسود النظام الصارم قواته .

واقتنعت مجددا بمدى اهمية الحساب الدقيق والثبات الحديدى

للقائد فى المعركة . وفى صباح ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) عاد ضابط اركاننا من الجبهة الجنوبية . وتحدث بالتفصيل عما جرى فى جيش خاريتونوف . واكدت معلوماته ان تيموشينكو كان على حق .

فى ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) فاجأنا فالاليف بان الطيارين ابلغوه بان كل المنطقة على بعد ٣٠ كيلومترا شمال غربى مدينة نوفوشاختينسك مليئة بارتال الآليات والدبابات . وقد عد الطيارون خمسمئة من الدبابات وحدها ! وهذا مقابل بضع عشرات من الدبابات الموجودة تحت تصرف الجيش التاسع . . .

واذ خشى تشيريفيتشينكو الا تصمد قوات خاريتونوف امام ضغط كهذا ، كان مستعدا لان يشرك فى المعرك كل الاحتياطيات التى اعدت للهجوم . بدأ بان طلب من القائد العام السماح له بان يسلم الجيش التاسع فرقتى مشاة من الاحتياط . ونصحه المارشال بالا يتسرع ، وامر بابقاء فرقة المشاة ٢٥٣ فى الاحتياط الآن ، وادراج فرقة المشاة الحادية والخمسين فى بنية الجيش السابع والثلاثين الذى يجرى تشكيله .

لقد ابدى تيموشينكو مجددا رباطة جاش يحسد عليها . وقال لرئيس الاركان العامة ، الذى كان يتتبع باهتمام الاحداث فى منطقة الجيش التاسع ، ان معطيات المخابرات الجوية ينبغى تدقيقها ، وانه سيخصص لدعم تشيريفيتشينكو ما لا يقل عن نصف مجموع طائرات الجبهة الجنوبية الغربية .

استقبلنا الذكرى الرابعة والعشرين لثورة اكتوبر العظمى فى مشاغل وقلق . وقد وقع المجلس العسكرى للاتجاه الجنوبى الغربى فى مساء ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) نداء الى قوات الجبهتين يعرب عن القناعة بابادة الهتلرية بصورة كاملة وحتمية .

فى يوم عيد ثورة اكتوبر بلغ القتال اوجه فى منطقة الجبهة الجنوبية . وكان الفاشيون يهاجمون باصرار متزايد ، مستخدمين احتياطيات جديدة . بيد انه لم يتسن لهم تحطيم مقاومة قوات الجنرال تشيريفيتشينكو . واثارت كلمتا ستالين فى الاجتماع الاحتفالى لسوفييت موسكو وفى الساحة الحمراء حماسة عارمة . فى ذلك اليوم شنت القوات بعناد خاص هجوما مضادا على العدو . وفى مساء ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) استنتج تيموشينكو ، مقدرا

الموقف ، ان هجوم جيش كليست يصاب بالوهن والعدو يلهث وينبغى توقع انعطاف فى مسيرة المعركة . ونتيجة للخسائر الفادحة اضطر كليست عمليا الى الاعتراف بهزيمته . اذ ان الهجمات العنيدة التى شنتها دباباته وفرقه الآلية تحطمت امام الدفاع الفعال الصلب لجيشنا التاسع . وفى بعض الاماكن كان الفاشيون لا يزالون يحاولون الهجوم ، ولكن هذه الضربات كانت اشبه برذاذ موجة عارمة جبارة تحطمت على شاطئ صخرى . وطلب تيموشينكو من قيادة الجبهة الجنوبية ان تشرع فورا فى تخطيط وتنظيم الهجوم المقرر سابقا .

ان القائد الاعلى ، الذى غالبا ما كان يستعلم من تيموشينكو فى المدة الاخيرة عن وضع قواتنا فى اتجاه روستوف ، استدعاه الى التلفون . اطرى ستالين على اعمال الجيش التاسع ، اذ علم ان هجمات كليست المدرعة قد صدت مع تكبيده خسائر كبيرة .

وردا عليه ذكره تيموشينكو بالهجوم على كليست الذى يجرى اعداده وطلب القرار النهائى . اجاب القائد الاعلى بعد صمت قصير انه يؤيد القيام بالعملية المذكورة .

لم يضع تيموشينكو حل هذه المسألة على الرف ، بل ما لبث ان اتصل برئيس الاركان العامة وسأله اى قرار اتخذ فى صدد التماسنا حول الامدادات للقوات التى ستساهم فى الهجوم . اجاب رئيس الاركان العامة ، متذرعا بالوضع الحرج قرب موسكو ، ان القائد العام يستطيع ان يعول على القوى المتوفرة لديه فقط . هذا الخبر ، وان لم يكن مفاجأة تامة بالنسبة الى تيموشينكو ، كدره بشدة ، اذ تبددت فرص الحاق هزيمة حاسمة بكليست . ومع ذلك اتصل فورا بقائد الجبهة الجنوبية وامره بتشديد الاستعداد للهجوم ، دون انتظار امدادات من المركز . اجاب تشيريفيتشينكو انه واركانه يعدان العملية الهجومية على نحو حثيث ، وسوف يحضر الجنرال انطونوف الخطة فى ١٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ليقرها القائد العام . وكان من المرتأى ان توجه قوى الجيش السابع والثلاثين المشكل حديثا وجزء من قوى الجيشين التاسع والثامن عشر ، فى صباح ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) الضربة الرئيسية فى الاتجاه العام الى تاغانروغ لابادة قوى كليست الرئيسية بالتعاون مع الجيش السادس والخمسين والوصول الى منطقة نهر ميوس .

اقر القائد العام الخطة بدون تعديلات تذكر ، وشرعت جيوش الجبهة الجنوبية فى تنفيذها . بيد ان تشيريفيتشينكو ما لبث ان ابلغ بان القوات لن تستطيع البدء بالهجوم فى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ، لان عددا من الوحدات والتشكيلات يلزمها وقت للاحتشاد . وعلاوة على ذلك ، فان القوات المكلفة بالهجوم لم تزود بعد تماما بملابس تقى من البرد .

لم يستطع القائد العام الموافقة على هذه المماطلة وطلب من تشيريفيتشينكو اتخاذ اكثر الاجراءات حسما لمباشرة الهجوم فى موعده . واعتبر ان كل تشكيلات الرتل الاول تتمكن من الوصول الى منطقة الانطلاق ، اذا لم تتأخر فى محطات القدوم . وينبغى عمل كل شىء ايضا لتأمين البزات الشتوية للناس . ان المارشال ، وقد ابلغ بانه سوف يقدم عشرين دبابة صالحة للعمل من اجل تعزيز لواء الدبابات الثالث ، وعد تشيريفيتشينكو ان يأتى اليه فى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ظهرا لتدقيق كل المسائل . واذ خشى تيموشينكو من ان كليست قد يوجه فى اية لحظة ضربة جديدة الى الجانب الايسر للجبهة الجنوبية ، قال فى الختام :

– قل لخاريتونوف : فليتمسك بالجبهة يومين بدون اية خطوة الى الوراء !

وتكلم كذلك مع كل قادة جيوش الجبهة الجنوبية الغربية . وتحدث على نحو طويل ومفصل بشكل خاص مع اللواء مالينوفسكى قائد الجيش السادس ، لانه كان يحمى التماس مع الجبهة الجنوبية .

فى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) وصل تيموشينكو فى صحبة مجموعة من الجنرالات والضباط كنت ضمنها الى اركان الجبهة الجنوبية فى كامينسك شاختينسكى . وقد فاجأنا الجنرال تشيريفيتشينكو بخبر يقول بان تاريخ بدء الهجوم قد اجل ، اذ لم تتمكن كل قوات النسق الاول من الوصول الى موقع الانطلاق . وعلاوة على ذلك اتضح ان العدو بدأ الهجوم فى الدونباس ، حيث كان يدافع جيش الجنرال كوروتييف الثانى عشر ، ولم تكن عنده احتياطيات . فى تقرير تشيريفيتشينكو كانت تبرز بوضوح فكرة ان تنفيذ الهجوم يغدو معضلة فى ظروف اختراق فيها العدو جبهة كوروتييف ويندفع الى بيرفومايسك .

يبدو ان القائد العام نفسه ادرك ان الوضع ليس مؤاتيا جدا

بالفعل ، ولهذا استمع الى تشيريفيتشينكو بهدوء . ولكنه لاحظ بلوم :

– الوقت لا يرحم . أتعتقد ان الامور ستصبح اسهل فيما بعد ؟ لا نستطيع ان ننتظر حتى يتمالك كليست نفسه ويضرب قواتنا . عندئذ قل على الهجوم السلام . وسنضطر الى التصدى من جديد . . .

بعد ذلك أمر القائد العام بتسليم الفرقة الموجودة عند تشيريفيتشينكو فى الاحتياط للجيش الثانى عشر . فاعترض الاخير قائلا :

– ولكنها احتياطى الاخير !

فقال المارشال باسلوب جاف :

– لا يوجد خيار آخر . نحن لا نستطيع اذ نبدأ هجوما كبيرا ان نترك وراءنا مؤخرة غير محمية . اذا لم نجعل الآن الوضع مستقرا عند تماس الجبهتين ، فقد يغدو تجمع جبهتكم الضارب بين نارين . . . ولهذا نقدم على تضحيات اكبر .

التفت الى وامر :

– ابلغ الرفيق بودين أمرى : يجب نقل فيلق الفرسان من الجيش السادس الى الجيش الثانى عشر . آمل ان يستطيع مالينوفسكى الصمود بدونه . . . هذا كل شىء . تابع تقريرك ، ايها الرفيق تشيريفيتشينكو .

اقترب قائد الجبهة من خريطة كبيرة معلقة على الجدار وقال ان قوات جيش الميدان السابع عشر وجيش الدبابات الاول الالمانيين المواجهة للجبهة الجنوبية تتمتع بتفوق فى القوى والمعدات ، ولا سيما الدبابات . ويتكون ميزان للقوى غير مؤات تماما فى اتجاه شاختى ايضا ، حيث يجرى الاستعداد للهجوم . ولا يزال كليست يملك هناك ما لا يقل عن ست او سبع فرق بينها فرقتان او ثلاث للدبابات ضد احدى عشرة فرقة مشاة لم تزود بعد بما فيه الكفاية واربع فرق فرسان واربعة الوية دبابات لجيشينا التاسع والسابع والثلاثين . ولكن المعطيات الاخيرة للمخابرات تشهد على انه يحشد قواته على عجل وجهة الجنوب . وهذا يعنى ان العدو تخلى عن توجيه الضربات الى الشمال الشرقى ويوجه قواته الى روستوف مباشرة .

تدخل القائد العام قائلا :

– هكذا بالفعل . ولهذا علينا ان نسرع فى الهجوم . اذا ضرب

كليست جيش ريميزوف ربما لا يصمد ، وتصبح روستوف فى يد العدو .

ولكن تشيريفيتشينكو قال ان القوى الرئيسية لتجمع الجبهة الضارب لم تنته بعد من التركز فى مواقع الانطلاق الى الهجوم . وفى الختام كرر مجددا ان القوى لا تكفى .

– نعم ، القوى قليلة . . .

قال القائد العام وابتسم :

– ولكن يا لها من قوات ! صلب عودها فى القتال ، عركتها المعارك ، ولم تحطمها . . . ومن عركته المعارك يعادل ، كما قال سوفوروف ، اثنين ممن لم تعركهما المعارك . هل خمنت ميزان القوى التقريبى ؟

اورد تشيريفيتشينكو المعطيات التى تملكها اركانه . سوف يكون لقوات تجمعنا الضارب بعض التفوق فى المشاة ، وتفوقنا فى المدفعية زهيد جدا ، وعند العدو دبابات اكثر مما عندنا . اما فى خصوص الطيران فالقوتان متعادلتان تقريبا . عندنا ٧٢ مقاتلة و١١٩ قاذفة و١٣ طائرة مهاجمة . وعند العدو فى منطقة عمليات تجمعنا الضارب قرابة ١٠٠ مقاتلة واكثر من ٦٠ قاذفة .

قال الجنرال :

– ولكن ينبغى ان يؤخذ فى الحسبان اننا جمعنا كل ما نستطيع ، اما العدو فيستطيع امداد جيش كليست بالطيران عن طريق مناورة من الاتجاهات الاخرى . وكما ترى ، لن يكون الهجوم سهلا .

– سيكون صراع الند للند . والا فان الدعاية الفاشية لا تزال تصم اذان العالم كله بالحديث عن استحالة قهر قواتها . سننظر ما الذى ستقوله حينما يتسنى لنا تحطيمها ونحن متساوون ، لا بل بقوى اقل فى الدبابات . وينبغى ان نعمل كل شىء لكى يدرك مقاتلونا وقادتنا المغزى السياسى للعملية المقبلة ، لا مغزاها العسكرى فحسب .

اكد كورنييتس عضو المجلس العسكرى للجبهة الجنوبية ان العاملين السياسيين قد تلقوا ايعازات فى هذا الخصوص .

امر القائد :

– اذا تعالوا ندقق مهمات قوات المجموعة الضاربة .

ان قائد الجبهة ، وقد تصفح مفكرته ، عرض المهمات الاساسية

للقوات المهاجمة . وقال تشيريفيتشينكو فى نهاية التقرير :

– لقد اشركت كل القوى ولا يبقى فى احتياطى شىء تقريبا . هنا تكمن نقطة ضعفنا الرئيسية : اذا حدثت مضاعفات لن نستطيع التاثير فى مجرى الاحداث الا عن طريق المناورة بالفرق المهاجمة .

ابدى القائد العام اهتمامه بالكيفية التى نظمت بها قيادة الجبهة ضمان الهجوم فى المؤخرة . اجاب تشيريفيتشينكو ان التجمع الضارب يملك الكمية اللازمة من الذخائر والوقود ، اى انه يمكن اعتبار الهجوم جاهزا من الناحية المادية التكنيكية .

اجمل تيموشينكو نتائج الاجتماع بارتياح :

– وهكذا ، ايها الرفاق ، لا توجد عندكم الآن اية مسوغات جدية لتأجيل الهجوم . غدا ابداوا فى الساعة الثامنة ، او التاسعة كاقصى حد .

تغدى المارشال على عجل وذهب الى الجيش السابع والثلاثين . وكانت اركانه تقع على بعد ٢٥ كيلومترا عن كامينسك.شاختينسكى . لم تمض ساعة الا وكنا جالسين فى غرفة فسيحة نستمع الى تقرير اللواء لوباتين . قال انه تسنى للمخابرات ، رغم ضيق الوقت ، ان تحصل على معلومات مفصلة عن العدو . فقد تسنى الكشف عن تجمع قواه ومعداته المواجهة للجيش مباشرة . ويمكن تحليل المعلومات التى تم الحصول عليها من افتراض ان الهتلريين لا يتوقعون هجومنا . بيد ان لوباتين اشار بشكل خاص الى صعوبة التغلب على دفاع العدو ، اذ ينبغى الصراع ضد عدد كبير من الدبابات المخبأة فى الارض . ويحتاج تدميرها الى الكثير من المدافع فى حين لم يتسن جمع سوى ٢٣٥ مدفعا ، اى ما بين ١٠ مدافع و١٢ مدفعا فقط لكل كيلومتر من الجبهة ، وما لا يتجاوز ١٥ مدفعا حتى فى الاتجاه الرئيسى * . وقال المارشال فى هذا الخصوص ان دعم طيراننا الفعال سيعوض كثيرا النقص فى المدفعية .

تحدث العقيد فارينيكوف رئيس اركان الجيش عن كيفية التخطيط للعملية على نحو ملموس . ان عمقها يتراوح ما بين ٨٠ كيلومترا و١٠٠ كيلومتر . وعلى الجيش فى الايام الاربعة الاولى ، من

* كان يستخدم ٥٠–٦٠ مدفعا فى الاتجاه الرئيسى ككثافة طبيعية لاختراق دفاع العدو ، وقد وصلت فى اواخر الحرب الى عدد يتراوح بين ٢٠٠ مدفع و٢٥٠ مدفعا واكثر لكل كيلومتر من الجبهة .

١٧ الى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ، ان يحطم القوى المعادية المواجهة ، ويقطع ٥٠ او ٥٥ كيلومترا نحو الجنوب حتى نهر توزلوف ، ثم ينعطف نحو الجنوب الغربى ويصل فى مساء ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) الى نهر ميوس على اتساع منطقة الهجوم كلها . وبعد ذلك يمكن للعملية ان تتطور باشكال مختلفة تتوقف على تصرفات العدو بصورة رئيسية . وقرر ، اذا انعزلت قوى كليست الرئيسية ، تنظيم تحطيمها وهى محاصرة ، اما اذا تسنى لها الافلات الى وراء نهر ميوس ، فمن المفروض تطوير الهجوم غربى هذه المنطقة . وعند تطور النجاح فى عمق دفاع العدو سوف تستخدم الوية الدبابات كلها لشن غارات عميقة على المؤخرة الالمانية بالتعاون مع فيلق الفرسان . استحسن المارشال الفكرة العامة للعملية ولكنه قال محذرا :

– تذكروا ، ايها الرفاق ، ان دباباتنا اقل من دبابات كليست بكثير ، ولذا يجب علينا ان نصونها والا نزجها فى المعركة بدون استكشاف دقيق للمنطقة ولنظام دفاع العدو المضاد للدبابات . ينبغى ان يغطى كل دبابة ما لا يقل عن مدفع او مدفعين . وحيث ان دفاع العدو مبنى على شكل نقاط ارتكاز منفردة لا ينبغى زج الدبابات فى هجمات مباشرة على التحصينات . ولتتجنب الدبابات ايضا الاصطدام بالدبابات المعادية التى تقوم بهجوم مضاد . اذا قام الفاشيون بهجمة مضادة مكثفة بالدبابات ينبغى صدها بنيران محكمة من مكان خلف المخبأ ، ثم الاجهاز على العدو فى هجوم تصادفى . لا تنسوا ان ليست عندنا دبابات فى الاحتياط ، ولا تستطيعون ان تعولوا على الامدادات . موسكو نفسها فى وضع صعب وليس فى وسعها الآن مساعدتنا .

وتحدث رئيس مدفعية الجيش عن تنظيم الحماية المدفعية . وكان ينتج من كلماته ان الجزء الاساسى من المدفعية بقى فى ايدى قائد الجيش وقادة الفرق ، مما يسهل المناورة بها ، وهذا ينطوى على مغزى هام فى ظل النقص فيها . وقد وافق المارشال تيموشينكو تماما على هذا التخطيط . وما لبث فى غضون ذلك ان اعاد الى الاذهان التوجيه الاخير للقيادة العليا حول مسألة الاستخدام القتالى للمدفعية . فقد بينت التجربة افضلية الشرابنيل لدى قذف المشاة من مدافع الافواج والفرق .

حاول المارشال حسب عادته ان يتغلغل فى كل جوانب الهجوم المقبل . واعار مثلا ، اهتماما كبيرا لضمانه الهندسى من اجل تحقيق سرية تجميع القوات وحشدها وتغطية جوانب الجيش ونقاط التماس بين الفرق بالحواجز وتنظيم بناء التحصينات المعدة لتضليل العدو وضمان عبور اربعة انهار فى خلال الهجوم ورفع الالغام من الطرق والجسور وتغطية المنافذ الى مواقع نيران المدفعية بالالغام . وقد قال رئيس الهندسة ان كتائب الهندسة الاثنتى عشرة ، التى يملكها الجيش ، لا تستطيع القيام بهذا الحجم الكبير من الاعمال . فاوصى المارشال باستدعاء المشاة للمساعدة .

اصغى تيموشينكو باهتمام كبير الى تقرير الفريق بوبوف عضو المجلس العسكرى للجيش ، الذى نوه بان المحاربين والقادة سوف يساهمون فى هجوم كبير للمرة الاولى عمليا . ينبغى تحقيق انعطاف معنوى فى فترة قصيرة وتأجيج حماسة الهجوم فى الناس ، وهذا ما ينطبق بشكل خاص على المقاتلين الذين لم يحضروا معارك بعد ، والتخلص من تهيب الدبابات لان البعض يعتقدون ان دبابات الفاشيين لا عد لها ولا حصر . ولهذا الغرض اصدرت هيئات الجيش السياسية عشرات الالوف من المناشير عن ابطال المعارك الاخيرة وكراريس عن الصراع ضد الدبابات الفاشية مع الاشارة الى نقاط الضعف فى هذه الماكينات المعادية . واقر فى الاجتماعات نداء من محاربى الجيش السابع والثلاثين الى المدافعين عن موسكو يدعوهم الى تحطيم العدو وطرد الاوغاد الفاشيين من الارض السوفييتية . واتضح فى خلال مناقشة هذا النداء ان المقاتلين والقادة استقبلوا نبأ الهجوم المقبل بحماسة . واعلن الجنود : «آن الاوان لتلقين الهتلريين درسا . فليركض الفاشيون فى الصقيع» .

امتد الحديث فى اركان الجيش الى الليل . وكانت كل الدلائل تشير الى ان القائد العام بقى راضيا عن الوضع . ينبغى القول ان هذه الجولة مع تيموشينكو كانت مدرسة جيدة بالنسبة الى : اننى ، وقد اصبحت فيما بعد قائد جيش ، ثم قائد جبهة ، كنت اتذكر عند اعداد الهجوم دروس المارشال تيموشينكو ودقته المتناهية فى تفقد كل الآلية التى تضمن النجاح ، الى جانب معرفة الاقدام على المخاطرة . اتضح انه كان يجمع بين صفات الستراتيجى الحذر والفارس المقدام الجسور .

على الرغم من تأخر الوقت ، عرج المارشال على اركان الجيش التاسع . وجدنا الجنرال خاريتونوف عاكفا على العمل . كان يعطي توجيهاته الاخيرة حول هجوم الغد . سأله القائد العام :

– كيف الاحوال عندكم ؟

– كل شيء جاهز . الفرقتان تنتظران الايعاز .

سأل تيموشينكو بالتفصيل عن اهم دقائق الهجوم المقبل ، وابدى اهتمامه بمزاج الناس .

رد خاريتونوف على كل الاسئلة بالتفصيل ، وقال ان مزاج المقاتلين والقادة حسن ، والجميع واثقون بالنجاح .

عدنا الى اركان الجبهة الجنوبية عند الصباح . ولم يكن قد بقي لنا اكثر من ساعتين للاستراحة . ولكن على الرغم من التعب الشديد كان الجميع واقفين على اقدامهم في التاسعة صباحا .

نظر الجنرال تشيريفيتشينكو الى الخارج واطلق شتيمة : كان مطر ناعم ينزل من غيوم منخفضة ، وقد لف ضباب كثيف كل شيء . لن تستطيع الطائرات الاقلاع . سنضطر الى الاستغناء عنها .

لوح المارشال تيموشينكو يده بحزم :

– سوف نهجم على اى حال . لن ننتظر رحمة السماء !

في الساعة التاسعة و٤٠ دقيقة قدم لوباتين تقريره : «بعد تمهيد مدفعي استمر ٣٠ دقيقة بدأت اربع فرق مشاة الهجوم يدعمها لواءا دبابات» . وورد تقريران مماثلان من الجنرالين خاريتونوف وكولباكتشي . بدأ الهجوم بدون دعم من الطيران ، مما عقد الامر ، طبعا .

ان قائد الجبهة الجنوبية ، الذى لم يكن القائد العام ليتركه بهدوء ، بقي كل اليوم يتصل بالقادة واركانهم ويطلب تقريرا عن نتائج الهجوم . فكانوا يجيبون بايجاز : القوات تتقدم . كنا نعرف من تجربتنا ان تقارير غير ملموسة كهذه ترد في حالة توقف الهجوم .

وفي غضون ذلك ورد من الجنرال ريميزوف تقرير مقلق : «شن كليست هجوما عند تماس فرقتي المشاة ٣١٧ و٣٥٣ ، وهو يطوره من الشمال في الاتجاه العام الى بولشيي سالي وروستوف» .

قال تيموشينكو باسى وقد قرأ التقرير :

– هذا ما كنت اخشاه ! لقد قلت لريميزوف مرارا : عزز

جناحك الايمن . فكان دائما يحاول ان يبرهن على ان كليست سيضرب الجناح الايسر على طول طريق تاغانروغ – روستوف . وها قد ضغط العدو الآن على اضعف وحدات الجيش . كيف يمكن الآن وقف دبابات كليست ؟ ليس في احتياط ريميزوف القريب سوى فرقة مشاة واحدة ولواء الدبابات السادس . وهذا قليل جدا .

وهكذا ، ما كدنا نتمكن من استباق كليست ، حتى افلت من التهديد في الشمال واندفع الى روستوف لا يلوى على شيء ، كما ينقض الكلب الجائع على عظمة . هل سنتمكن من ان نشده من ذنبه ونوقفه ؟ لا بد لاجل هذا من تحرك الجيش السابع والثلاثين الى مؤخرته على نحو عاصف . ولكن هذا لم يحدث بعد .

وعلى هذا النحو ، فان اليوم الاول من الهجوم لم يجلب النجاح المرجو ، واخذ الوضع في غضون ذلك يتردى بشدة . فقد جاء في تقرير قائد الجيش الثاني عشر ان القوات المعادية اقتحمت دفاعنا مسافة ١٥ كيلومترا . ووردت من الجنرال ريميزوف معلومات اشد مدعاة الى القلق . اذ قال ان اكثر من مئة دبابة معادية شقت طريقها في النصف الثاني من النهار واصبحت على بعد ١٢ كيلومترا فقط شمالي روستوف . اصبح واضحا ان اليوم التالي سيكون اشد وطأة بالنسبة الى المدافعين عن المدينة .

ان تيموشينكو امر تشيريفيتشينكو ابلاغ القادة هذا الطلب : تشديد الضغط منذ صباح ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) والوصول حتى آخر اليوم لا الى نهر ليفي توزلوف ، كما تنص الخطة ، بل الى اعمق من ذلك بكثير لاختراق مؤخرة فيلق العدو الآلي الرابع عشر .

لم يجلب اليوم التالي وضوحا في مسيرة المعركة : كانت القوات تتحرك ببطء في معارك قاسية ، متوقفة طويلا عند القرى التي تمكن العدو من اعدادها للدفاع . اما وضع المدافعين عن روستوف فتردى اكثر واكثر . وكما قدر القائد العام لم يتسن تدمير الدبابات الهتلرية التي شقت طريقها ليلا . وفي الصباح اندفعت مجموعة منها الى التخوم الشمالية لروستوف ، ومجموعة اخرى الى مؤخرة الفرق المدافعة الى الغرب من المدينة .

اتخذ الجنرال ريميزوف اجراءات نشيطة ، فارسل احتياطياته الى منطقة المعركة . وارتد العدو بعد ان فقد ٣٥ دبابة . ولتشجيع قائد الجيش ، استدعاه المارشال عبر الخط المباشر وحدثه عن كيفية

تطوير هجوم المجموعة الضاربة للجبهة الجنوبية : «ستبدأ ازمة جدية عند العدو منذ صباح الغد . عليه ان يجر كل شيء الى الشمال او يبدأ بالانسحاب الى الغرب ، ولذا فان كل شيء يتوقف عليكم . امسكوا العدو من ذيله وابقوا قابضين عليه ، حاولوا تقييده . ولا تدعوا تفوق العدو فى الدبابات يرهبكم» .

اجاب ريميزوف انه تتخذ كل الاجراءات لعدم السماح للقوات المعادية بدخول روستوف .

كانت المعارك تزداد ضراوة . وقد استنتج القائد العام وقائد الجبهة الجنوبية انه لا بد من القيام باكثر الخطوات حزما للتوصل الى انعطاف فى مجرى الهجوم .

كنت قد اعربت عشية ذلك عن فكرة حول تغيير مهمة فيلق خورون للفرسان . كان عليه حسب الخطة ان يهجم الى الغرب ، اى على مؤخرة الفرق المعادية التى كانت تدافع فى مواجهة قوات الجيش الثامن عشر . فى حين كان من الهام بالنسبة الينا ان نحطم باسرع وقت ممكن مقاومة وحدات العدو التى كانت تعرقل قوتنا الضاربة الرئيسية ، الجيش السابع والثلاثين . وظهرت عندى فكرة الا نوجه فيلق الفرسان الى الغرب ، بل الى الجنوب الشرقى ، الى مؤخرة وحدات الفيلق الآلى الالمانى الرابع عشر التى استمرت فى ابداء مقاومة ضارية لقوات الجيش السابع والثلاثين .

قبل ذلك بيوم فقط بدت هذه الفكرة لتيموشينكو غير صائبة تماما ، ولم يوافق عليها . ولكن تطور الاحداث جعله الآن ينظر الى الامر بعين اخرى . وقرر المارشال تغيير مهمة فيلق الفرسان وارساله الى الشرق بعد تقويته بلواء مدرع . وكان ينبغى لفرقة الفرسان السادسة والستين ولواء الدبابات ١٤٢ للجيش التاسع ان يضربا العدو من الاتجاه المعاكس لضربة فيلق الفرسان . ووصول هذه القوى الى مؤخرة وحدات فيلق الالمان الآلى الرابع عشر كان يحكم عليه بالابادة .

ولحماية الفرسان من ضربات توجه من الغرب امر القائد العام بان تدخل فرقة المشاة ٢٩٥ منطقة تماس الجيشين الثامن عشر والسابع والثلاثين .

بدأ تيموشينكو تنفيذ هذه الفكرة باصرار لا يتزعزع . اتصل تلفونيا بقائد الجيش التاسع وطلب ارسال فرقة الفرسان ولواء

الدبابات الى اغرافينوفكا فورا . وعلى اثر خاريتونوف استدعى القائد العام الى الخط المباشر قائد الجيش السابع والثلاثين واوضح له فكرة دخول فيلق الفرسان فى اتجاه جديد .

قال لوباتين بسرور :

– كل شيء واضح ، سنحاول مع حلول الظلام ايصال فيلق الفرسان الى المنطقة المقررة ليستطيع ان يوجه من هناك ضربة الى مؤخرة العدو . وسنرسل الى هناك ايضا فرقة مشاة .

نظر القائد العام الى النافذة واجاب :

– لا مبرر لانتظار الظلام . سيحجب الضباب الكثيف تحركاتنا . حركوا فيلق الفرسان وفرقة المشاة فورا .

قال ريميزوف ان المعارك قرب روستوف لا تهدأ . وقد تسنى اليوم بصعوبة صد هجمات فرقة الدبابات الالمانية الرابعة عشرة التى حاولت قطع المدينة من الشرق . ويضطر قائد الجيش الى اعادة توزيع قواته على عجل .

بدأت فكرة القائد العام تتحقق فى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ، حينما ظهر فى منطقة ميليروفو فرسان الجنرال خورون برفقة الدبابات . ان الانطلاق العاصف نحو مؤخرة الفاشيين جعلهم يرتجفون . وتعقبت طائراتنا العدو المنسحب .

بيد ان انهيار الدفاع الذى بدأ فى منطقة الفيلق الالمانى الرابع عشر لم يعد كليست الى صوابه . فقد اندفع الى روستوف على نحو مسعور . واذ سعى كليست الى ان يقطع طريق الانسحاب على قوات الجنرال ريميزوف ، وجه فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ثلاث مجموعات من الدبابات الى قرية اكسايسكايا والى التخوم الشمالية لروستوف والى كراسنى غورودساد . فقد الفاسيون ثلث آلياتهم القتالية ، ولكنهم اقتحموا المدينة . ووقعت محطة سكة الحديد فى ايدى المشاة الآليين الالمان . وقال ريميزوف ان جيشه قسم الى جزئين .

واذ سعت القيادة العليا الهتلرية الى تقييد احتياطياتنا لتسهل على كليست احتلال روستوف ، شددت من الضغط على القطاعات الاخرى . وفى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) استولى الهتلريون على مدينة تيم . وزحفوا بعناد الى بيرفومايسك . ولم يضعف ضغط العدو على تماس جبهتنا والجبهة الغربية . وهذا ما ارغم القائد العام

على ان يحمل الجنرال تشيريفيتشينكو مؤقتا كل المشاغل المتعلقة بمتابعة الهجوم ويعود الى اركان الجبهة الجنوبية الغربية .

فى صباح ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) كنا فى فورونيج . اتصل تيموشينكو على الفور بالجنرال بودلاس قائد الجيش الاربعين عن طريق التلفون . سأله المارشال :

– كيف استولى العدو على تيم ؟ يبدو ان مخابراتكم تعمل بشكل ردىء .

اجاب قائد الجيش :

– من المستحيل ان نكون اقوياء على امتداد الجبهة كلها . نتحصن فى موقع فيضرب العدو موقعا آخر ، ولهذا تحصل مفاجآت كهذه .

اعترض القائد العام :

– الضربات توجه الى السلبيين دائما . انتم تنتظرون حتى يضربوكم ، فى حين ينبغى ان تكونوا البادئين .

ثم اجرى تيموشينكو مكالمات مع الجنرال كوستينكو . فطمأنه الاخير ، قائلا ان الوضع فى منطقة التماس مع الجبهة الغربية توطد بعض الشىء .

فى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) الساعة السادسة عشرة قال الجنرال ريميزوف ان قواته تركت المدينة وتوجهت على الجليد الى ضفة الدون الجنوبية . هذا الخبر احزن الجميع ، ولا سيما القائد العام . وقد صاح قائلا :

– تأخرنا ! كليست فى روستوف . . .

ولكنه ضرب بقبضته فورا واضاف :

– ولكننا سنريه نجوم الظهر !

وبالفعل ،لم يكن ثمة ما يدعو الى سرور كليست ، فمن الجهة الشمالية الغربية انهالت المجموعة الضاربة للجبهة الجنوبية على قواته بزخم متزايد ، ومن الشرق كان يجابهه كالسابق جيشنا السادس والخمسون الذى كان يستطيع ايضا ان يوجه ضربة مضادة فى اية لحظة .

واذ خشى تيموشينكو ان يتنبه الفاشيون فيغادروا المدينة ويهربوا الى الغرب ، اعطى الجنرال تشيريفيتشينكو امرا بان يتحرك الى الجنوب بكل قوى الجيش السابع والثلاثين . فى ذلك اليوم لم

يكن هناك حتى مجرد حديث عن انعطاف نحو روستوف ، فقد كان القائد العام يعلم ان كليست ليس من البساطة بحيث ينتظر بخنوع الى ان تطبق عليه المصيدة . لم يكن وضع جيش ريميزوف يقلقنا ، اذ لا يقرر الا مجنون شن هجوم عليه فى وضع كهذا ، ناهيكم عن ان القيادة العليا اتخذت فى ذلك اليوم ، على الرغم من الوضع الصعب قرب موسكو ، قرارا بتسليم ريميزوف ثلاث فرق مشاة جديدة وثلاثة الوية مشاة . وكان المارشال مستاء . اذ كان يعتبر – وهو على حق تماما – انه كان ينبغى ادخال الاحتياطيات فى منطقة هجوم التجمع الضارب للجبهة الجنوبية . فمن شأن هذا ان ينطوى على عواقب اكثر من وخيمة بالنسبة الى جيش كليست .

فى ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ، الساعة السادسة صباحا وصلت برقية من موسكو . كانت القيادة العليا تشير الى ان خسارة روستوف لا تلغى مهمة قوات الجبهة الجنوبية التى ينبغى لها ان تشدد الضغط على تاغانروغ . وقد قدرت موسكو الموقف بشكل صحيح وكانت تتوقع ايضا ان يهرع كليست الى الخروج من المصيدة .

اثار خبر استيلاء العدو على روستوف سورة غضب لدى محاربينا المهاجمين . كان المحاربون ينطلقون الى الامام باندفاع جامح . وفى ٢٢ تشرين الثانى (نوفمبر) قال تشيريفيتشينكو ان العدو لا يصمد امام ضغط قواتنا ويتراجع تاركا الاسلحة الثقيلة والمعدات .

وها نحن من جديد فى تفكير مضن . اذا فر كليست فيجب ضرب تاغانروغ والوصول الى طريق انسحابه ، واذا بقى بعناد فى المدينة – وكل شىء جائز – الن يكون من الافضل تحويل الجيش السابع والثلاثين الى روستوف ؟ وطلب القائد العام من المخابرات استيضاح نيات العدو . ولكن هذا لم يكن سهلا . ولم يبق امامنا حينذاك سوى التخمين . وتباينت الاراء كما يحدث دائما فى حالات كهذه .

حاول الجنرال تشيريفيتشينكو البرهان انه ينبغى الاستمرار بالهجوم على تاغانروغ ، اذ لم يبق للوصول اليها سوى ٩٠ كيلومترا . وكان عند بودين راى آخر . اعتبر ان غطرسة كليست البروسية لن تسمح له بالفرار من روستوف طوعا . اى ينبغى التحول الى روستوف وضرب التجمع المعادى فى المدينة . وايدت انا

رأى قائد الجبهة الجنوبية ، واتخذ تيموشينكو اول الامر قرارا بتطوير الهجوم فى اتجاه تاغانروغ العام . ولكن لم يرجح رأيى ولا رأى تشيريفيتشينكو الكفة ، طبعا . ان رأى القيادة العليا هو الذى حسم النقاش ، فقد وجهنا ستالين وشابوشنيكوف صوب تاغانروغ .

للاسف ، غير القائد العام قراره فى ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ، حيث كانت كل السمات الخارجية تشير الى ان كليست لا يفكر فى مغادرة روستوف . لقد اثرت فيه بواعثه الداخلية وغلبته الرغبة فى تحرير المدينة بمزيد من السرعة . كان تنفيذ هذه الخطة يتطلب اعادة توزيع جدية ، مما جعل كل مسيرة المعركة تتباطأ . ونال كليست فترة استراحة طويلة نسبيا : اربعة ايام .

حينما تكون رحى المعركة دائرة ويضطر القائد الى اتخاذ قرار بصورة عمياء ، كما يقال ، دون ان يعرف نية العدو ، يصعب القول على وجه الدقة اى خيار هو الافضل . وفى ضوء الوقائع التى نعرفها الآن ينبغى الاعتراف بان اتخاذ قرار حينذاك حول تحويل القوات الى روستوف لم يكن موفقا تماما . اذ ما كان ينبغى لنا اضاعة الوقت الثمين على تحريك الجيوش لتكون اقرب الى روستوف . كان من الاجدى كثيرا تطوير الهجوم نحو الجنوب مباشرة مع الانعطاف التدريجى اللاحق للقوات المهاجمة على شكل جبهة الى الشرق لتوجيه ضربة الى روستوف من الغرب . وفى تلك الحالة ما كنا لنضيع الوقت الثمين على تحريك الجيوش ، ولكنا وصلنا الى عمق مواصلات جيش كليست التى تربطه بالقوى الرئيسية لتجمع جيوش «الجنوب» . ولاصطدمت قوات كليست عند انسحابها من المدينة بتشكيلات جيشينا السابع والثلاثين والتاسع .

اراد القائد العام بفارغ صبر ان يذهب بمزيد من السرعة الى منطقة روستوف ليكون على مقربة من القوات المهاجمة . ولكن الوضع الخطر عند التماس مع الجبهة الغربية اخر ذهابه . وكان يجرى عدة مرات فى اليوم مكالمات طويلة مع الجنرال كوستينكو الذى كان يقيم باستمرار فى الجناح الشمالى للجبهة الجنوبية-الغربية . كان المارشال يطرح مطالبه ويقدم نصائحه ويضع الامدادات تحت تصرف كوستينكو ، ولكن كل هذا لم يكن يحدث تغييرا يذكر ، ذلك لان الوضع قرب موسكو كان يزداد تفاقما بسبب الهجوم الجديد للقوات الفاشية .

فى بداية الليل فقط تسنى للقائد العام ان يسوى كل المسائل المرتبطة بتدعيم الوضع عند التماس مع الجبهة الغربية ، فحول اهتمامه الى اتجاه روستوف من جديد . وقام المارشال باستدعاء الجنرال تشيريفيتشينكو الى الخط المباشر واستعلم منه بدقة عن تطور الاحداث . واعرب تيموشينكو ، مختتما الحديث ، عن الثقة بان كليست الآن فى شغل شاغل عن الهجوم ، اما نشاط مخابراته عند تماس جيشى ريميزوف وخاريتونوف فهو محاولة ليستوضح من اين ستاتيه ضربتنا الجديدة . ولهذا ينبغى ان يقطع على العدو طريق الامدادات من جهة تاغانروغ بحركة عنيفة فى اتجاه تشالتير (غربى روستوف) ، وان يعد كل الطيران لاحباط محاولات تزويد القوات من الجو . وامر المارشال باعداد مناشير تقترح على العدو رمى السلاح تجنبا لاراقة الدماء عبثا لتلقى فوق المدينة ما ان يقطع على العدو طريق الانسحاب .

لم تعترض القيادة العليا على قرار القائد العام لتحويل القوى الرئيسية للقوات المهاجمة الى روستوف . وقد اجل طيران المارشال الى الجبهة الجنوبية المرة تلو المرة . وفى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ظهرا قال الجنرال كوستينكو ان الفاشيين وجهوا مجددا ضربة قوية الى الجيشين الثالث والثالث عشر ، وهما اقل جيوشنا تعدادا . وقد ابديا مقاومة عنيفة مدافعين باصرار شديد عن كل كيلومتر . ولكن العدو كان يتمتع بتفوق شديد فى القوى ، فذابت وحداتنا .

فى مساء ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) طار تيموشينكو مع مجموعة من جنرالات وضباط الجبهة الجنوبية الغربية الى مقر قيادة تشيريفيتشينكو .

قال القائد العام يحيى قائد الجبهة الجنوبية :

— ايه ، يا صاحبى ! سيفلت منا كليست اذا كنا سنتباطأ هكذا ! طال التوقف كثيرا ، وفى الحرب يدفع ثمن التباطؤ دما . متى تنوى متابعة الهجوم ؟

قال القائد ان الجيشين السابع والثلاثين والتاسع سينتقلان غدا فى الساعة الثامنة صباحا الى الهجوم فى الاتجاه العام الى تشالتير ، حيث ستهجم من ضفة الدون اليسرى مجموعة قوات الجيش السادس والخمسين تحت قيادة الجنرال كوزلوف . وسوف يوجه الجيش السابع

والثلاثون الضربة الرئيسية عبر غينيرالسكويه الى سلطان سالى غربى روستوف ، اما الجيش التاسع فعبر بولشيى سالى الى التخوم الشمالية للمدينة . ثم قال تشيريفيتشينكو :

– يجب ان تكون الضربة سريعة ، ولذا نطلب من القوات ان تضمن منذ اواخر اليوم الاول محاصرة العدو الموجود فى روستوف . وفى الايام التالية سوف تخرق قوى كليست الرئيسية وتباد بضربات من عدة اتجاهات . واذ تحل الجيوش هذه المهمة يوجه فيلق خورون للفرسان ضربة الى خليج تاغانروغ فى الجنوب ، مما يحمى الجيوش المهاجمة من ضربات تأتيها من الغرب .

ان القائد العام ، وقد استمع الى تشيريفيتشينكو ، قال وكانه يفكر بصوت مسموع :

– الخطة جيدة ، ولكن بين الفكرة وتنفيذها مسافة شاسعة . جيش كليست من اقوى التجمعات الضاربة للقوات الفاشية وسوف يدافع بضراوة ، طبعا .

بدأ الهجوم فى الساعة التاسعة فى صباح ٢٧ تشرين الثانى (نوفمبر) . كان الجو باردا والرؤية حسنة . كانت تبدو من بعيد سلاسل الجنود المهاجمين فى المنطقة المكشوفة .

قاوم العدو بشدة . وانهال على المهاجمين وابل من نيران المدفعية ومدافع الهاون . كان عويل صفارات القاذفات المحومة يغطى دوى انفجارات القنابل والالغام . واستخدم العدو الدبابات والمشاة الآليين فى الهجوم المضاد . ولكن قواتنا كانت تتقدم الى الامام ، وان كان ذلك بصورة ابطأ بكثير مما خطط له . لقد قاتل الفاشيون بيأس المستميت .

جرى الهجوم من جميع الجهات ، حسب الخطة . ومن الشرق هرعت وحدات الجيش السادس والخمسين على جليد الدون الرقيق الى روستوف للالتحاق بقوات الجيشين التاسع والسابع والثلاثين . وكان اول من دخل شوارع المدينة الفوج ٢٣٠ لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية تحت قيادة المقدم ديمين وفوج قوات روستوف الشعبية تحت قيادة مدير احد المصانع فارفولوميف . ودخلت المدينة من جهات اخرى الكتائب المتقدمة لفرقتى المشاة ٣٤٣ و٣٤٧ . ونشبت معارك شوارع ضارية . وحل الليل فالصباح ولم تتوقف . وفى آخر

اليوم الثانى اخذت فرق كليست تغادر روستوف بذعر . وانتقلت قواتنا الى ملاحقتها بعنف .

حينما بلغ تيموشينكو فى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) بتحرير روستوف ، هرع لنقل هذا الخبر السار الى ستالين . ورد القائد الاعلى على الفور ببرقية الى القائد العام وقائد الجبهة الجنوبية :

«اهنئكم بالنصر على العدو وتحرير روستوف من المحتلين الفاشيين الالمان . احيى القوات الباسلة للجيشين التاسع والسادس والخمسين بقيادة الجنرالين خاريتونوف وريميزوف اللذين رفعا الراية السوفييتية المجيدة فوق روستوف» .

امر تيموشينكو بنقل نص هذه البرقية الى القوات فورا . ومن المميز انه حينما قالوا له انه اسىء بغير وجه حق الى مقاتلى وقادة الجيش السابع والثلاثين الذين ارغمت اعمالهم البطولية بالدرجة الاولى قوات كليست على الفرار – فى حين لم تذكر برقية القائد الاعلى سوى مآثر الجيشين التاسع والسادس والخمسين – املى القائد العام على الفور برقية الى ستالين اشار فيها الى المآثر الخاصة لقوات الجيش السابع والثلاثين فى تحطيم كليست وتحرير روستوف وطلب الاشادة بمحاربيه . وقد قوم الخطأ فورا .

فى خلال الهجوم الحقت الجبهة الجنوبية خسارة جدية بالعدو . واستولت قواتنا على ١٥٤ دبابة و٨ مصفحات و٢٤٤ مدفعا و٩٣ مدفع هاون و١٤٥٥ سيارة ومعدات قتالية اخرى .

لم يكن نجاح الجبهة الجنوبية يرمز الى مجرد هزيمة كبرى لجيش الدبابات الاول الالمانى وغيره من قوات تجمع جيوش «الجنوب» ، فقد قيد قرب روستوف كل قوى هذه المجموعة تقريبا ولم يمكن القيادة الالمانية من ان تدعم بمساعدتها قواتها العاملة قرب موسكو .

اثار خبر انتصار قواتنا سرورا كبيرا فى كل ارجاء البلاد . واخذت ترد الى المنتصرين تحيات لا تحصى سواء من شغيلة الجمهوريات كلها او من محاربى الجيوش الاخرى . وشع وجه المارشال تيموشينكو بالسرور والارتياح . اعتبر ان الامور مع كليست حسمت من حيث الاساس ، ووجه كل اهتمامه الى الهجوم الذى يجرى اعداده على الجناح الشمالى للجبهة الجنوبية الغربية .

امرنى القائد العام بان ادعو الجنرال بودين الى الخط المباشر . وقال الاخير ان الاستعداد للهجوم يجرى على قدم وساق ، ولكنه

كان يشك كثيرا فى قوى الجيش الثالث عشر ، اذ لم يكن عنده سوى ٢١ مدفعا . امر تيموشينكو بان تخصص للجنرال غورودنيانسكى اربعة افواج للمدفعية و٢٠٠ بندقية مضادة للدبابات . وبمناسبة نقل الجيش السادس والخمسين الى الجبهة الجنوبية قرر ان يزور ريميزوف ويرى فى الوقت نفسه مدى الضرر الذى لحق بروستوف التى كان يعرفها جيدا منذ سنوات الحرب الاهلية .

حينما دخلنا المدينة فى ١ كانون الاول (ديسمبر) لفتت نظرنا كتابة خطت بدهان اسود على امتداد جدار عرضى لبناية متعددة الطوابق : «روستوف على الدون ، وكليست على الحجارة !» هذه التورية الذكية التى ابتكرها الجنود ما لبثت ان اصبحت على كل شفة ولسان فى قوات الجبهة الجنوبية . وعلى الرغم من ان الهتلريين لم يبقوا فى روستوف طويلا ، فقد خلفوا اثارهم فى كل مكان . فقد خرب قرابة مئة من اضخم واجمل المبانى ، ودمرت الضواحى باسرها تقريبا .

ما كدنا نطلع على البنية القتالية للجيش السادس والخمسين والوضع فى منطقة هجوم قواته ، حتى وصلت برقية من فورونيج . كان الجنرال بودين يحث القائد العام على العودة ومباشرة قيادة الهجوم الجديد ، وذلك فى اتجاه ييليتس هذه المرة .

فى اليوم التالى زرنا قوات الجيش السادس والخمسين التى كانت تتابع الهجوم الى الغرب . وعدنا الى روستوف فى وقت متأخر من المساء . وقد تعبنا جميعا غاية التعب . اخذت ابحث عن مكان هادئ استطيع ان اغفو فيه قليلا ، ولكن هرع الى مرافق القائد العام :

– المارشال يدعوك !

اسرعت الى الغرفة التى اقام فيها تيموشينكو .

قال القائد العام محاولا ان يسبغ على صوته لهجة استياء :

– ماذا ، ايها الرفيق باغراميان ، أتكتم عنا يوم ميلادك ؟

ارتبكت : فقد نسيت فى غمرة مشاغل القتال اننى بلغت من العمر ٤٤ سنة . ابتسم المارشال وصافحنى :

– اهنئك من صميم قلبى . واتمنى لك ان تعيش حتى النصر ، وبعدها تكمل المئة بسهولة حسب العادات القفقاسية .

وانهال علىّ الرفاق الآخرون ، الذين اجتمعوا فى الغرفة ، بالمصافحة والعناق .

ومنذ الصباح بدأت مشاغل جديدة . طلب القائد العام حث حركة القوات الى الغرب . وقد قال الجنرال تشيريفيتشينكو انه وضعت امام القوات المهاجمة مهمة الوصول الى نهر ميوس وعبوره بلا توقف والاستيلاء على رأس جسر للهجوم اللاحق .

فى ٤ كانون الاول (ديسمبر) فقط قرر القائد العام ، وقد اقتنع بان الاحداث تتطور بنجاح فى الجبهة الجنوبية ، الطيران الى فورونيج للبدء بعملية هجومية جديدة فى الجناح الشمالى لقواتنا هذه المرة .

وفى مساء ٤ كانون الاول (ديسمبر) حطت طائرتنا فى مطار قرب فورونيج . وكان بين المستقبلين بودين . واخذ القائد العام فورا يسأل رئيس الاركان عن الوضع على الجناح الشمالى للجبهة الجنوبية الغربية .

قال بودين ان هجوم العدو الذى بدأ فى ٢٥ تشرين الثانى (نوفمبر) مستمر . وثمة ضغط قوى بشكل خاص فى منطقة الجيش الثالث عشر ، فى اتجاه ييليتس . ولهذا السبب تنمو الهوة فى كل يوم بين تجمعى الهتلريين الضاربين الهاجمين على ييليتس وكاستورنويه ، مما يضطرهم الى نشر قواهم . وهذا مفيد لنا ، لانه سيكون من الاسهل توجيه ضربة جانبية الى مؤخرة تجمع الالمان فى ييليتس . ولكن سيكون علينا البدء بالعملية فى ظروف هجوم العدو المستمر . ويجب ان ينتهى حشد تجمع قواتنا الضارب مع نهاية يوم ٥ كانون الاول (ديسمبر) . ولم تقرر بعد كيفية استخدام هذه القوى على نحو افضل . هل تسلم للجنرال غورودنيانسكى فى الجيش الثالث عشر ؟ ولكن عليه الآن ان يصد العدو ، وربما اصبحت هذه القوات مقيدة فى المعارك الدفاعية . ربما من الافضل ابقاؤها تحت تصرف الجبهة وتكليف الجنرال كوستينكو بقيادتها وتخصيص مجموعة عمليات له بمثابة هيئة للادارة .

وتابع بودين :

– ينبغى لنا حث اعداد العملية . من الواضح ان شيئا جديا للغاية يدبر قرب موسكو . وقد ابلغنا المارشال شابوشنيكوف انه يطلب منا ان نوقف مهما كلف الامر انسحاب الجيشين الثالث

والثالث عشر ونضمن على نحو يعول عليه التماس مع الجبهة الغ
الى اقصى فعالية ممكنة .

قال القائد العام مقاطعا بودين :

– الامر الاساسى واضـــح ، والباقى ستحدثنـــا عنـــه فورونيج . . . الى السيارات !

اعطى هذا الامر متوجها الى سيارته بخطوات سريعة ، ولكن وقد فتح الباب ، توقف فجأة وناداني :

– اسمع ، ايها الرفيق باغراميان ، استعد للسفر فورا منطقة احتشاد المجموعة الضاربة ، اننى اعينك رئيسا لاركانهـ وسيكون قائدها الرفيق كوستينكو الذى سيكون عليه فى خـ العملية ان يقود ايضا الاعمال القتالية لقوات الجيشين الثالث والث عشر . لم يبق فائض وقت حتى بداية العملية ، ولذا عجل . . .

هكذا كان تيموشينكو : سريع فى اتخاذ القرارات وعنيد جد تنفيذها . فى تلك اللحظة اصبت بالذهول ولم اتمالك نفسى فقل

– رئيس الاركان صار جاهزا ، ولكن الاركان غير موجود

– خذ من اركاننا قدر ما تراه ضروريا من الناس . وستح ايضا على وسائل للاتصال . هذا كل شىء . نفذ الامر !

بقيت طويلا انظر فى تفكير الى سيارة المارشال وهى تبتع محاولا التغلغل فى كنه المشاغل التى انهالت على فجأة ، الى ان سم نداء بودين :

– اركب السيارة بسرعة ، ولنذهب الى الاركان .

عكفنا فى فورونيج على تشكيل الاركان المؤقتة ، وفى الليل ا القطار العمالى الذى يتنقل بين فورونيج وكاستورنويه . وعند الش كنا فى مقر الجنرال كوستينكو . لن اتحدث هنا عن مجرى عمل ييليتس الهجومية ، فقد فعلت هذا بالتفصيل فى كتابى «كيف بد الحرب» . اقول فقط ان تيموشينكو راقب كل قراراتنا واعمالنا وهن وبدقة ، وحينما وصل الهجوم الى اوجه اتى بنفسه الين كاستورنويه وبدأ على الفور يسأل بالتفصيل عن تحرك كل فيل مهاجم ، وعن ترتيب وحدات العدو ، وعن مسيرة الاعمال القتال وسره ان كل معلوماتنا عن العدو تاكدت ، ولا يتوقع حدوث مفا كبيرة فى عمق تمركز العدو بالنسبة الى القوات المهاجمـــة تيموشينكو ، وقد علم ان كوستينكو قرر فى ذلك اليوم توجيه ال

كى الرابع والثلاثين الى ليفنى ، استحسن هذا الامر :

– حسنا تفعل فليستول على ليفنى بسرعة . سيكون هذا افضل سمان لجناحنا الايسر .

فى خلال حديثنا مع القائد العام مد جنود الاشارة الاسلاك الى طاره . لم تمض ساعتان حتى بدأت تتدفق التقارير لا من فرقة جنرال روسيانوف الاولى فحسب ، بل ومن فيلق كريوتشينكين فرسان عن تحرير قرية تلو الاخرى . وقد تقدمت افواج الحرس الجانب الايمن اكثر من ٢٠ كيلومترا . ان المارشال ، وقد لاحظ روسيانوف ينحرف بصورة متزايدة الى الشرق ، طلب منه ضيحا . فاجاب :

– نلاحق العدو .

– لا تلاحقه ، واسلك اتجاه الشمال بصرامة . لن يفلت منا هتلريون اذا طوقناهم .

واذ تلقى فرسان كريوتشينكين التوجيهات نفسها ، صاروا ناورون بمهارة . وبعد ان اقتنع تيموشينكو بان الهجوم يشتد وانه م يعد فى وسع القيادة الفاشية وقفه ، قرر العودة الى فورونيج ، يث كانت تنتظره اعمال ملحة اخرى . وحينما ودعنا ، قال صرامة :

– انتبهوا ، لا تتركوا تجمع ييليتس يفلت !

وفى فورونيج ايضا كان المارشال يبدى اهتمامه بمجرى اعمالنا يعطى نصائح قيمة ويطلب تنفيذ اوامره بدقة . كل هذا اضطلع ، لا مبالغة ، بدور هام فى نجاح عملية ييليتس ، وكان هذا النجاح بيرا . وفى الواقـــع ، بدأت عمليـــة ييليتس فى ٦ كانون الاول ديسمبر) ، اى فى اليوم الثانى بعد بدء الهجوم المضاد قرب موسكو ، ضربة من الجيش الثالث عشر فى الاتجاه الاحتياطى بهدف تقييـــد العدو . وفى ٧ كانون الاول (ديسمبر) دخلت مجموعة كوستينكو معركة . انها ، وقد تغلبت على مقاومة العدو الضارية ، وجهت ضربة ى مؤخـــرة تجمع الهتلريين فى ييليتس . وفى ٩ كانـــون الاول حررت ييليتس تماما ، وبعـد اربعـة ايام ، فى ١٣ كانون الاول ديسمبر) اصبحت القوى الاساسية للفيلق الرابع والثلاثين لجيش العدو داخل طوق حديدى ، وبعد ثلاثة ايام اخرى ، فى ١٦ كانون الاول ديسمبر) تم القضاء عليها .

وهكذا ، تقدمت قوات الجناح الايمن للجبهة الجنوبية الغربية نتيجة عملية بيليتس ما بين ٨٠ كيلومترا و١٠٠ كيلومتر ، وحررت من المحتلين ما يربو على ٨٠٠٠ كيلومتر مربع من الاراضى و٤٠٠ مدينة وقرية بينها مدينتا بيليتس وبيفريموف . وفى خلال ١٠ ايام من الهجوم ابيد ما يربو على ١٦ الف جندى وضابط هتلرى ، وتم الاستيلاء على ١٥٠ مدفعا و٢٥٠ رشاشا واكثر من ٧٠٠ سيارة والعديد من معدات العدو الاخرى . ان قوات مجموعة العمليات لم تصف ما يسمى بنتوء بيليتس فحسب ولم تلحق الهزيمة بجيش الميدان الثانى فقط ، بل وقيدت جزءا من قوى جيش العدو الثانى للدبابات ، مقدمة بهذا مساعدة جوهرية الى القوات الاخرى المساهمة فى الهجوم المضاد قرب موسكو .

بعد ذلك استمرت خدمتى تحت قيادة مارشال الاتحاد السوفييتى تيموشينكو اكثر من نصف سنة ، واصبحت علاقاتنا وثيقة اكثر ، لاننى عينت فى اواخر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤١ بتوصية منه رئيسا لمجموعة عمليات الاتجاه الجنوبى الغربى التى اضطلعت عمليا بدور اركان هذا الاتجاه . لقد عشنا معا سرور النجاح فى عملية بارفينكوفو-لوزوفايا الهجومية التى نفذت فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٢ ومرارة الفشل فى معركة خاركوف الدرامية فى ربيع عام ١٩٤٢ . ومن المستبعد ان يكون ثمة من مغزى للتحدث عن هذا بالتفصيل .

اعتقد انه اصبح فى وسع القارئ المتمعن ان يدرك من حديثى السابق الجوانب الاساسية للاسلوب القيادى للمارشال تيموشينكو : تفاؤله الذى لا يخبو حقا ، معرفته تحمل المسؤولية عن القرارات الجديدة مبدئيا ، الطلب الصارم اليومى ، حرصه على نمو الكوادر ولكن بدون اية وصاية بيروقراطية . وانا شخصيا كنت اعتبر دوما ولا ازال اعتبر ان تيموشينكو اضطلع باهم دور فى تكوينى كآمر .

بعد ان فارقت تيموشينكو صيف ١٩٤٢ ، اى فى المرحلتين الثانية والثالثة من الحرب الوطنية العظمى ، مارس بنجاح كممثل للقيادة العليا تنسيق اعمال عدد من الجبهات . وهكذا ، فقد نفذ فى كوبان عام ١٩٤٣ مهمة صعبة لضمان التعاون بين قوات جبهة شمال القفقاس وسفن اسطول البحر الاسود . وقد قال لى الجنرال بيتروف

قائد الجبهة ان ممثل القيادة العليا ساعد جيدا على تخطيط وتنفيذ عملية نوفوروسيسك-تامان المعقدة للغاية . ولا شك فى مأثرة تيموشينكو فى قضية تحطيم القوات الالمانية على ما يسمى بالخط الازرق فى كوبان ، ومن ثم فى شبه جزيرة تامان ، وكذلك لدى عبور مضيق كيرتش والاستيلاء على رؤوس جسور فى القرم .

فى ربيع عام ١٩٤٤ كان تيموشينكو ممثلا للقيادة العليا فى جبهتى البلطيق الثانية والثالثة . وعندئذ التقينا كصديقين قديمين . ودعانى بصفتى قائد جبهة البلطيق الاولى الى مقره الواقع قرب مقر قيادة جنرال الجيش بوبوف ، قائد قوات جبهة البلطيق الثانية حينذاك ، لكى نتشاور فى صدد القضايا التى كانت تواجهنا فى منطقة البلطيق فى ذلك الحين . كان ، شأنه دائما ، مفعما بالتفاؤل والثقة بانتصار رائع قريب على العدو . واتذكر ان تيموشينكو اعطى القائدين الجنرالين بوبوف وماسلينيكوف غير قليل من النصائح القيمة . وقد علق فى ذاكرتى كيف استقبلنى باحضانه الابوية قائلا :

– انا مسرور ، مسرور من اعماق قلبى لاجلك . اتتبع نجاحاتك وآمل ان ياتى عاجلا او آجلا الوقت الذى استطيع ان اهنئك فيه بنجمة المارشالية . يجب ان تحل الشبيبة مكاننا ، نحن الشيوخ .

حينما قلت لهذا «الشيخ» الذى لم يبلغ بعد الخمسين من العمر اننى لا اصغره الا بسنتين ، اصابته دهشة حقيقية .

منذ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٤ نسق المارشال تيموشينكو بنجاح اعمال الجبهات الاوكرانية الثانية والثالثة والرابعة حينما قامت بعمليات على الجناح الجنوبى للجبهة السوفييتية-الالمانية . وادى هناك ، بصفته ممثلا للقيادة العليا ، قسطا وافرا فى اعداد وتنفيذ جملة من اهم العمليات ، مثل عملية ياسى-كيشينيوف الشهيرة التى دخلت تاريخ الفن العسكرى السوفييتى كنموذج للتطويق السريع للعدو وتحطيمه بالسرعة نفسها فى ظروف ميدان للعمليات العسكرية تغطيه الجبال والغابات . واتذكر ان الجنرال زاخاروف ، الذى كان فى ذلك الحين رئيسا لاركان الجبهة الاوكرانية الثانية ، تحدث فيما بعد بامتنان شديد عن مساعدات تيموشينكو فى العمليات الصعبة .

واذ شغل المارشال تيموشينكو فى سنوات ما بعد الحرب منصب قائد قوات عدد من المناطق العسكرية ، بينها منطقة بيلوروسيا

وجنوب الاورال ، ومن ثم منصب المفتش العام لوزارة الدفاع ، كرس الكثير من القوى للتدعيم المطرد للقدرة الدفاعية لبلادنا وساهم بنشاط فى الحياة الاجتماعية-السياسية . وفى فترة عمله فى بيلوروسيا واوكرانيا انتخب عضوا للجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين فى الجمهوريتين . واصبح منذ المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى السوفييتى عضوا فى لجنة الحزب المركزية . وفى الفترة نفسها كان تيموشينكو نائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى عدة مرات على التوالى . وفى سنوات ما بعد الحرب اضطلع بدور خاص نشاطه فى منصب رئيس اللجنة السوفييتية للمحاربين القدماء ، حيث بذل اقصى طاقته للقضية النبيلة ، قضية التربية العسكرية الوطنية للشغيلة ، ولا سيما الشبيبة .

ولقاء الخدمات البارزة التى قدمها تيموشينكو الى الوطن منح لقب بطل الاتحاد السوفييتى مرتين ، وقلد وسام «النصر» ووسام لينين خمس مرات ، ووسام ثورة اكتوبر ، ووسام الراية الحمراء خمس مرات ، ووسام سوفوروف من الدرجة الاولى ثلاث مرات والعديد من الميداليات السوفييتية ، وكذلك اوسمة وميداليات دول اخرى .

ايفان كونيف



كانت اكثر لقاءاتى مع ايفان ستيبانوفيتش كونيف رسوخا فى الذاكرة تلك التى جرت فى الايام الاخيرة قبل الحرب . كنت فى ذلك الحين رئيس قسم العمليات – نائب رئيس اركان منطقة كييف العسكرية الخاصة . وكانت ترد من كل مكان معلومات تثير قلقا متزايدا . اذ كان هتلر يصعد قواه فى مناطق الحدود على نحو محموم . ولم يبق امام الجانب السوفييتى شىء سوى ان يتخذ اجراءات مضادة . وفى ١٥ حزيران (يونيو) تلقينا من مفوضية الشعب للدفاع امرا بالشروع فى تحريك فيالق النسق الثانى للمشاة الى الحدود .

كان يجرى فى القسم عمل متوتر : كنا ندخل التعديلات الضرورية فى خطط تغطية الحدود ونعد خرائط الاتجاهات الاساسية للعمليات ونضع خطوط تحرك القوات . واضيف الى ذلك استقبال وايواء

جيشين ، جيش لوكين السادس عشر وجيش كونيف التاسع عشر . ان التهديد الفعلي بالحرب جعلنا ندقق كل خططنا فى مجالات التدريب والاقتصاد والبناء .

لم يكن تلفونى يتوقف عن الرنين : البعض يطلب اعادة الوحدات التى اخذتها قيادة المنطقة لتنفيذ مختلف المهمات ، والبعض يطلب حث وصول المدفعية من ميادين الرمى ، والبعض الآخر يطلب استكمال وسائل النقل . لم الحظ ، وانا غارق فى العمل ، كيف دخل احد الاشخاص مكتبى . وسمعت فجأة صوتا مرحا رنانا :

– مرحبا ، ايها الرفيق باغراميان !

ابعدت نظرى عن الخريطة ، فرأيت الفريق ايفان كونيف . لقد جمعنا القدر اول مرة فى عام ١٩٢٧ فى مصح فى القرم ، حيث تعارفنا عن كثب وتصادقنا . كان كونيف يتسم بطبعه الصلب وحدة ذكائه واخلاصه . كان واسع الاطلاع يكاد يهب الكتاب كل دقيقة فراغ .

كانت اهتماماتنا فى الخدمة تتطابق من نواح كثيرة ، فكل منا كان يقود فوجا . وفى القرم تصادقنا بسرعة شديدة .

مضت عدة سنوات والتقينا – لفترة اطول هذه المرة – فى اكاديمية فرونزه العسكرية . وغالبا ما كنا نجتمع مع اننا درسنا فى كليتين مختلفتين . بعد الاكاديمية صرت اتتبع باهتمام لا يكل تقدم كونيف السريع فى الخدمة وسررت باخلاص لنجاحاته . وفى عشية الحرب كان يقود قوات منطقة شمال القفقاس . وكان يشكل جزءها الاساسى الجيش التاسع عشر الذى قدم معه الى منطقتنا العسكرية .

كان بودنا ان نتحدث عن الكثير ولكن كلينا كان مشغولا . طلب كونيف اطلاعه على الموقف . فحدثته عن الوضع الناشىء . قال كونيف وهو يمد يده مودعا :

– شكرا على ايضاحاتك ! كانت تصوراتى غامضة جدا عن الحالة الراهنة على الحدود الجنوبية الغربية . الى اللقاء .

تعانقنا كاخوين . وبالطبع لم نفكر حينذاك ان لقاءنا التالى سيتم بعد سنة لا اكثر ولا اقل . لقد ذهبت مع اركان المنطقة الى تيرنوبول ، اما كونيف فارسل مع جيشه الى الجبهة الغربية .

ولكن ، فلأعد الى تعارفنا فى القرم . كنا حينذاك نتجول طويلا فى ضواحى المدينة المنتجع . وزرنا مخيم الطلائع «ارتيك» الذى كان قد افتتح منذ اكثر من سنة . قال كونيف ، وهو ينظر الى الاطفال

الذين لوحتهم الشمس بربطاتهم الحمراء وعيونهم المتألقة سعادة :

– من اجلهم ، من اجل حياتهم المشرقة قاتلنا فى الحرب الاهلية .

وعلمت انه لدتى ، فقد ولد كلانا فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٩٧ . وقد نشأ ايفان كونيف فى اسرة فلاحية فقيرة من قرية لودينو التى تقع عند الحد الفاصل تقريبا بين منطقتى فولوغدا وكيروف الحاليتين .

توفت ام كونيف فى سن مبكرة ، ولكنه لم يشعر بنفسه يتيما ، فقد تعهده ابوه وعمته . قال مستعيدا ذكرياته :

– ما كدت اتعلم المشى حتى بدأت اساعد فى العمل ، وحينما بلغت الثالثة عشرة صرت اذهب مع ابى الى قطع الاشجار ، حيث كنا نقص اشجار الصنوبر لصنع الصوارى وننزع منها الاغصان ونجرها من هناك الى النهر على عربات .

التحق كونيف بمدرسة القرية المكونة من ثلاثة صفوف قبل سنة من سن القبول حينذاك . وقد اسعده الحظ اذ كان معلمه الاول انسانا جيدا . وتلقى الصبى العلم بسهولة . فبعد ان داوم على المدرسة شتاء واحدا ، تعلم القراءة والكتابة تماما واحب المطالعة وصار يطلب من الجيران يقرأ الرسائل لهم ، بل والجرائد التى كانت تصل احيانا الى مجاهل فولوغدا . تذكرت وانا استمع الى كونيف معلمتى الاولى ايفانوفا وفكرت فى اولئك الناس الكثر المتفانين ذوى النفوس النقية الذين وجدوا فى روسيا على الرغم من اضطهاد الحكم المطلق والطغاة القيصريين .

عقدت اواصر صداقة بين كونيف وحداد القرية ارتامونوف ، العامل السابق من ياروسلافل الذى نفاه البوليس الى هذه الاصقاع باعتباره شخصا مشبوها . كان يبقى طويلا يمتع نظره بعمله الحاذق والماهر ، وكان فى لحظات الفراغ يستمع بفضول الى احاديث ارتامونوف عن القادة العسكريين الروس سوفوروف وروميانتسيف وكوتوزوف وسكوبيليف . وكان رجل آخر من ابناء قرية عائلة كونيف يتحدث غالبا عن مساهمته فى الحرب ضد تركيا ، وعن مآثر المحاربين الروس والبلغار .

ان ايفان كونيف ، وقد انهى مدرسة الابرشية ، تلقى ورقة اطراء ومعها هدية ، وهى مؤلفات غوغول . قال له المعلم كلمات وداع

مؤثرة واعرب عن الأمل فى ان يكون لتلميذه مستقبل باهر .

فى ذلك الوقت على وجه التحديد تسنى للصبى ان يقرأ مصادفة كراسا ممنوعا عن ثورة عام ١٩٠٥ . فازداد كراهية للقيصر ، خانق حرية الشعب الروسى ومضطهده .

كان يجب متابعة الدراسة ، ولكن كانت مدرسة الزيمستفو فى بلدة بوشما تبعد اكثر من عشرة كيلومترات . وصار كونيف يذهب الى هناك سيرا على الاقدام ، ثم دبر له مأوى فى القسم الداخلى لهذه المدرسة . انهى كونيف مدرسة الزيمستفو بورقة اطراء ، ثم عمل مسجل دوام فى مكتب لاستلام الخشب . عمل بحرص ومهارة واتقان الى ان حان وقت خدمته فى الجيش القيصرى عام ١٩١٦ ، حينما نشبت الحرب العالمية الاولى . تدرب كونيف شهرا فى فيلق للاحتياط فى مورشانسك ، ثم نقل الى لواء المدفعية الثقيلة المرابط فى موسكو . جذب العمل العسكرى ، على صعوبته ، هذا الشاب الفلاح . وكان جندى مدفعية فى موسكو حينما بدأت ثورة شباط ، فساهم فيها بنشاط وجرد الدرك من اسلحتهم واطلق سراح جنود لوائه المعتقلين .

كان بين زملاء كونيف بلاشفة ، فما لبثت ان ظهرت فى الثكنة «برافدا» اللينينية التى كان يقرأ الجنود كل عدد منها حتى يبلى تماما . فى ذلك الحين بالذات ادرك كونيف ان البلاشفة يناضلون من اجل المصالح الجذرية للشعب الكادح . وحينما توجهت كتيبة المدافع الثقيلة التى يخدم فيها الى الجبهة الجنوبية الغربية ، كان كونيف جندى فوج المشاة ٢١١ بلشفيا من حيث الجوهر ، وان لم يكن بعد قد انتسب رسميا الى حزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى (البلشفى) فى روسيا .

وما لبثت ان هبت العاصفة المطهرة لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . وبدأ تسريح الجيش القيصرى . وفى شباط (فبراير) عام ١٩١٨ عاد كونيف الى موطنه . وهناك علم بدهشة وغضب انه على الرغم من ان الارض قد انتزعت شكليا من الملاك والاعلام الحمراء ترفرف فى كل مكان ، فما زال يعمل فى المناطق ، الى جانب السوفييتات التى لم يشتد عودها بعد ، مجلس الزيمستفو الذى لا ينفذ أوامر السلطة الجديدة . ولم يكن من النادر وقوع تمردات دامية مضادة للثورة .

وفى اليوم الثانى من عودة كونيف الى البيت ، اخذ طريقه الى مدينة القضاء نيكولسك . وما لبث هناك ان قبل فى الحزب وانتخب عضوا فى اللجنة التنفيذية وعين مفوضا عسكريا فى القضاء ، حيث كلف بتشكيل فصيلة قتالية . واعلنت حالة الطوارئ فى القضاء ، فقد نشب فى النواحى الواقعة فى الغابات تمرد أثاره الاشتراكيون الثوريون .

لم ينتظر المفوض الشيوعى الشاب هجوم المتمردين على نيكولسك ، بل قاد بحزم فصيلته التى شكلت لتوها ضد اعداء الثورة . لقد ازدادت الفصيلة قوة وتجربة فى المعارك ، وصلب عود آمرها .

ولعل اكثر ما يبعث على الدهشة كونه تصرف كعامل سياسى باوسع ما فى الكلمة من معنى . فقد تسنى له ان يجلب فلاحى المنطقة الى جانبه ويجد فى كل بلدة تقريبا احتياطيات ترفد فصيلته ، وذلك دون الحديث عن المستطلعين والمرشدين المتطوعين .

لقد أدى كونيف مهمته الحزبية الاولى الفائقة الاهمية بشرف ، حيث حطم التمرد واصبحت الفصيلة فى نهاية المطاف مفرزة قتالية حقيقية رغم الخسائر التى تكبدتها .

فى حزيران (يونيو) عام ١٩١٨ ارسل ابناء المنطقة كونيف الى موسكو لحضور مؤتمر السوفييتات الخامس لعموم روسيا . فى ذلك الحين قام الاشتراكيون الثوريون اليساريون بتمرد فى العاصمة . واعلن البلاشفة مندوبو المؤتمر انفسهم فى حالة استنفار . وعين كونيف آمر فصيلة قتالية كان عليها ان تعمل فى منطقة ساحة كالانتشيفسكايا ، فى نقطة حساسة من المدينة يعمل فيها اهم ثلاث محطات . واحبطت محاولات المتمردين استخدام المحطات .

بعد العودة الى نيكولسك عكف كونيف مفوض المدينة العسكرى ، على تشكيل مفارز سير لارسالها الى الجبهة . وفى الوقت نفسه بذل الشيوعى الشاب محاولات دؤوبة ليكون هو نفسه فى الجيش العامل . وقد وصل الى القائد فرونزه الذى لبى طلبه .

توجه كونيف الى الجبهة على رأس احدى السرايا التى شكلها ، ولكن لم يتسن له الوصول الى هناك فورا . فقد قام الكولاك بتمرد فى محافظة كوستروما ، فتحركت السرية ضد العصابة بمجرد نزولها من القطار . وبعد تحطيمها بقى كونيف عدة اشهر يمارس العمل

الحزبى فى فوج الاحتياط ، وبعد ذلك فقط ذهب الى الجيش الثالث فى الجبهة الشرقية ، حيث اصبح مفوضا فى القطار المدرع رقم ١٠٢ . وكان فى الطاقم بحارة من البلطيق وعمال من الاورال . وكان المفوض اصغر من الجميع ، ولكنه تفاهم مع الجميع وحاز ثقتهم ، لا بل اصبح موجها سياسيا حقيقيا .

من المعروف ان العمليات القتالية فى بداية الحرب الاهلية كانت تجرى بصورة رئيسية على طول الخطوط الحديدية ، وكانت القطارات المدرعة تضطلع بدور جوهرى ، حيث كانت تستخدم فى الهجوم ككبش نارى ، وفى الدفاع كطواب متحركة .

ان القطار المدرع رقم ١٠٢ المسمى «غروزنى» والذى كان يخدم فيه كونيف قد اجترح غير قليل من الاعمال البطولية فى الجبهة الشرقية . واجتاز «غروزنى» على الخطوط الحديدية وهو يخوض المعارك طريقا يمتد من كاميشين الى شاطئ المحيط الهادئ .

ان «غروزنى» ، فى تحركه على الخط الكبير العابر لسيبيريا ، كان يقع فى حالات تبدو عويصة جدا ، ولكنه كان يخرج منها بشرف . هذا ما جرى ، مثلا ، حينما نسف الكولتشاكيون جسرا فى منطقة اومسك . وقد سيق القطار الى ضفة ارتيش الاخرى على الجليد . وكان المفوض بالذات هو الذى نظم هذا العبور الفذ ، حيث اقنع عمال سكة الحديد وسكان البلدات المجاورة بانه ينبغى مد الخط الحديدى على الجليد . وليست هى المرة الاولى التى تتجلى فيها قدرته على جذب الناس بالكلمة البلشفية وجعلهم يثقون بالنجاح .

غالبا ما كان كونيف يتذكر هذه الحادثة حتى بعد الحرب الوطنية العظمى . وقد قال :

— هذه المأثرة لاناس التفوا حول هدف نبيل بينت على نحو ملموس ان من يجد فى البحث يجد حلا لاية مهمة مهما كانت حتى وان بدت مستعصية على الحل للوهلة الاولى . من يبد ارادة ويقنع الناس يحقق النجاح .

بعد تحرير ما وراء بايكال عين كونيف مفوضا للواء مشاة ، ومن ثم لفرقة مشاة . اقترب ربيع عام ١٩٢١ ، موعد انعقاد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى . وقدم الى العاصمة افضل خيرة الشيوعيين مندوبين للمؤتمر ، ومن بينهم البلشفى كونيف البالغ من العمر ٢٣ عاما .

فى ايام المؤتمر العاشر جرى تمرد كرونشتادت . واتجه كونيف بين ثلاثمئة متطوع — من مندوبى المؤتمر وضيوفه بقيادة فوروشيلوف — الى بيتروغراد لقمع التمرد . وقاد كونيف بمهارة البطارية التى صبت نيرانها من اللسان البرى ليسى نوس .

وحينما عاد المساهمون فى المعارك قرب كرونشتادت الى موسكو ، اعلمهم لينين بقرارات المؤتمر العاشر . وقد حدثنى كونيف بان ذلك اليوم ربما كان ابرز واهم يوم فى حياته . ان الفكر اللينينى الثاقب ومعرفة الزعيم الاشارة الى الحلقات الرئيسية للعمل المشترك قد ادهشتاه حتى اعماق نفسه .

ما لبث ، وقد عاد الى الشرق الاقصى ، ان اصبح مفوضا لاركان الجيش الشعبى الثورى فى جمهورية الشرق الاقصى ، ثم مفوضا لفيلق المشاة السابع عشر . وحينذاك تسنى له العمل مع القائد العسكرى الرائع بلوخير الذى كان وزيرا لدفاع جمهورية الشرق الاقصى .

فى خريف عام ١٩٢٤ نقل كونيف الى منطقة موسكو العسكرية ، حيث شغل منصب المفوض العسكرى ورئيس القسم السياسى لفرقة المشاة السابعة عشرة . وما لبثت الفرقة ان حققت نجاحات واضحة فاستدعى المفوض الى فوروشيلوف عضو المجلس العسكرى الثورى ، قائد قوات منطقة موسكو العسكرية . واتضح انه كان منذ زمن تمرد كرونشتادت يتتبع بانظاره هذا المفوض الشاب والضليع ذا الخصال القيادية الواضحة . واقترح على كونيف الانتقال الى منصب قيادى .

طلب كونيف ان يرسل بصورة تمهيدية الى الدراسة ، فادخل فى دورات تطوير الملاك القيادى الاعلى ، حيث كان الكثيرون من المساهمين فى الحرب الاهلية يتزودون بالمعارف النظرية .

بعد انهاء الدورات بنجاح عرضت على كونيف مناصب هامة جدا ، ولكنه ، وقد رفضها رفضا قاطعا ، توصل الى تعيينه آمر فوج فى الفرقة التى كان فيها مفوضا ، ثم قاد الفوج الخمسين مدة تربو على خمس سنوات . وقد تحدث عن هذه الفترة بحرارة خاصة :

— فى الفوج تزودت باصول القيادة ، لان قيادة الفوج هى اساس التجربة العسكرية ، وبدون هذه الممارسة يستحيل على المرء ان يصبح قائدا عسكريا حقيقيا . . .

جاء فى الشهادة المسلكية لعام ١٩٢٨ عن كونيف آمر فوج المشاة الخمسين لفرقة المشاة السابعة عشرة : «آمر ذو مبادرة ونشاط وحزم . صارم ودؤوب يتمتع بهيبة عملية عند المرؤوسين» . وفى الشهادة المسلكية هذه استنتاج حول جدوى ترفيع كونيف الى منصب آمر فرقة .

وفى عام ١٩٣١ ترأس كونيف فرقة المشاة السابعة عشرة التى كان فيها مفوضا ثم آمر فوج .

وما لبث ان اظهر صفاته كقائد فرد ومفوض . وكانت الفرقة على اعلى مستوى سواء فى منطقة العاصمة او فى الجيش الاحمر بأسره . ولكن سعى كونيف الى التطور لم يخمد . وقدم تقريرا يطلب فيه ايفاده مجددا للدراسة . وفى عام ١٩٣٢ قابلت – كما سبق ونوهت – ايفان كونيف فى اكاديمية فرونزه العسكرية .

هناك جلسنا معا غير مرة فى قاعة المطالعة . واتذكر اننا درسنا سلسلة مقالات انجلس عن الحرب الفرنسية-البروسية عامى ١٨٧٠-١٨٧١ ، وكذلك مقالات عن الحرب الاهلية فى اميركا . وقد وجدنا فيها هذه الفكرة الهامة جدا : «ان اى جيش ينظم حديثا من اناس مدنيين لن يستطيع الوجود فى حالة فعالة الى ان يتدرب ويحظى بدعم الموارد الفكرية والمادية العملاقة الموجودة تحت تصرف الجيش النظامى القوى ، ولا سيما المنظمة التى تشكل القوة الاساسية للجيش النظامى» . ثم كتب انجلس ان التدريب الاسرع للجنود الذين استدعوا حديثا لا يمكن الا حينما تتلقى كتيبة المجندين الجدد عددا كافيا من الجنود المحنكين ، وحينما يقاتل المحاربون الشباب يوم المعركة فى وحدات مشتركة مع المحاربين القدماء .

ان كونيف ، وقد كرر هذه الاحكام ، قال وكأنما يفكر بصوت مسموع :

– لعل هذا ما لم يعرفه بعض قادتنا فى فترة الحرب الاهلية ، الأمر الذى كان يجعلنا نمنى بالهزيمة احيانا .

لم يضع الجهد الدؤوب عبثا ، فقد اكدت لجنة التخرج ان «الطالب كونيف استوعب الدورة الاكاديمية بشكل ممتاز» . وطلب منه بالحاح البقاء مدرسا . ولكن كونيف رفض رفضا قاطعا . وجاء فى الخلاصة التى كتبتها لجنة التخرج هذه الفقرة : آهل للترفيع الى منصب آمر ومفوض فيلق للمشاة .

بعد الاكاديمية ذهب كونيف يترأس فرقة فى بيلوروسيا وخدم تحت قيادة القائد العسكرى السوفييتى البارز اوبوريفيتش . قال كونيف متذكرا تلك السنوات :

– انذارات ليلية . مسيرات طويلة ، بل مضنية احيانا فى اراض وعرة . عبور الانهار . الرمى فى حالة اقرب الى المعركة . هكذا علمنا ايرونيم اوبوريفيتش ، القائد العسكرى البعيد النظر والمحنك . لا اكف عن شكر القدر على انه تسنى لى حينذاك ان اجتاز تحت قيادته تلك المدرسة القاسية والممتازة فى الوقت نفسه . واعتبره واحدا من افضل اساتذتى . غالبا ما كان يكرر لنا كلمات سوفوروف : «الشدة فى التدريب سهولة فى المعركة» . كانت تلك حكمته المفضلة . كان اوبوريفيتش صارما فى التدريب ، وكان عادلا لا يطيق صبرا على التقصير والتهاون ، ولكنه كان يغفر الخطأ العابر بسهولة . وكان التفكير الراجح والنظرة الثاقبة والحرص الابوى على الكوادر هى صفاته المميزة . . .

فى اواخر خريف عام ١٩٣٧ قام مفوض الشعب للدفاع باستدعاء كونيف الذى كان قد عين آمر فوج منذ امد قريب . وقال له ما يلى تقريبا :

– تشير معطيات مخابراتنا الى ان العسكريين اليابانيين يحشدون قوى كبيرة قرب حدود الاتحاد السوفييتى ومنغوليا الشقيقة . يبدو انهم يريدون ان يختبروا بالحراب متانة تحالفنا مع منغوليا . وهذه نشرة معطيات عن استفزازاتهم . وتطلب حكومة منغوليا ارسال مجموعة من القوات السوفييتية على رأسها قائد ضليع . انت تعرف عادات العسكريين اليابانيين من الحرب الاهلية فى الشرق الاقصى . وقد وقع الاختيار عليك وقرر تعيينك قائدا لمجموعة القوات الخاصة .

اجاب كونيف :

– موافق .

ارسلت الى منغوليا ، التى اصبحت الصداقة معها تقليدية بعد لقاء لينين وسوخى باتور ، قوى كبيرة بينها المدفعية والدبابات وتموينات المؤخرة . كان كونيف يعرف منذ ايام الحرب الاهلية الجنود المنغوليين وقادتهم : انهم شباب يتسمون بالود والذكاء وفرسان شجعان . والآن تلقى الجيش المنغولى اسلحة عصرية من

الاتحاد السوفييتى بناء على معاهدة الصداقة والتعاضد ، ولكن سكان السهوب هؤلاء ، الشجعان بفطرتهم ، لم يروا حربا حقيقية . فى حين كان يواجههم الجيش اليابانى المدرب جيدا وذو الخبرة القتالية والتسلح الجبار والمستعد للهجوم المباغت .

لدرء الضربة المتوقعة وارغام المغامرين على التفكير ، كان لا بد من ايصال القوات السوفييتية الى الاتجاهات والمناطق المهددة الممتدة الوف الكيلومترات فى صحراء غوبى الجبلية الجافة ، المقفرة ، الخالية من الطرق : ايصالها ومن ثم التحصن وتنظيم الدفاع . وفى خلال يومين جرى تحت قيادة كونيف ايصال القوات الى المناطق المحددة ، واصبحت جاهزة للقتال . وتم درء عدوان العسكريين اليابانيين . وقلد كونيف لقاء هذه الاعمال ارفع وسام فى جمهورية منغوليا الشعبية .

نتيجة التهديد المتعاظم بهجوم اليابان على حدودنا فى الشرق الاقصى عبر شمال الصين حول فى صيف عام ١٩٣٨ جيش الشرق الاقصى الحائز وسام الراية الحمراء الى جبهة الشرق الاقصى الحاملة وسام الراية الحمراء تحت قيادة مارشال الاتحاد السوفييتى بلوخير . وشكل فى الوقت نفسه جيش بريموريه الاول الحامل وسام الراية الحمراء وجيش الشرق الاقصى الثانى الحامل وسام الراية الحمراء الذى قاده آمر الفيلق كونيف منذ لحظة تشكيله وحتى حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ . وفى تلك الفترة جرت اشتباكات مع العسكريين اليابانيين على بحيرة خاسان ونهر خالخين غول . ان قوات الجيش الثانى لم تشترك فى المعارك ، والحق يقال ، ولكن الموقف كان متوترا ويتطلب تعزيز الاستعداد القتالى والقدرة القتالية للقوات بشكل دؤوب . وقد أدى كونيف هذه المهمة على نحو ممتاز ، ورفع فى حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ الى منصب قائد قوات منطقة ما وراء بايكال العسكرية . ومنح رتبة فريق .

من المعروف ان قوات ما وراء بايكال قاتلت فى الحرب الوطنية العظمى باقدام ومهارة . وبالمناسبة ، فقد قدم من وراء بايكال ايضا الجيش السادس عشر الشهير الذى قاده على التوالى لوكين وروكوسوفسكى وكاتب هذه السطور . وانها لعظيمة مأثرة كونيف فى اعداد تشكيلات ما وراء بايكال الممتازة .

فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٠ – كانون الثانى (يناير)

عام ١٩٤١ ساهم كونيف فى اهم اجتماع فى موسكو اعاره المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى اهتماما لا يدب اليه الوهن . وحينذاك عين قائدا لقوات منطقة شمال القفقاس العسكرية التى تضم الاراضى الشاسعة التى تقع فى شمال القفقاس ومجرى الفولغا الاسفل . وفى خلال اقل من نصف سنة فى هذا المنصب حقق كونيف نجاحات كبيرة فى قضية تعزيز انضباط القوات العسكرى ومهارتها القتالية ، وهذا ما أكدته فيما بعد اعمال الجيش التاسع عشر الذى شكل ، كما سبق واشرنا ، من قوات منطقة شمال القفقاس العسكرية .

كان خطر هجوم المانيا الهتلرية يتصاعد باستمرار . واذ ادرك الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية هذا ، عززا قدرة البلاد الدفاعية بكل السبل . ولكن الوقت كان قليلا . ونشبت الحرب فجأة .

وبعد بدايتها ما لبث كونيف ان اصبح فى اتون المعارك الضارية فى منطقة فيتيبسك التى اقتحمتها مجموعة الجنرال غوت الثالثة للدبابات فى النصف الاول من تموز (يوليو) عام ١٩٤١ . ولدى تقدم الهتلريين اللاحق ظهر تهديد لجانب ومؤخرة القوى الرئيسية للجبهة الغربية . ان غموض الموقف ارغم كونيف على التوجه الى فيتيبسك ، دون ان ينتظر وصول قواته . وفى الطريق اصبح واضحا ان الوضع هناك اخطر بكثير مما كان يفترض : فتحت ضغط قوى العدو المتفوقة مرات ومرات كانت الوحدات والتشكيلات المشتتة لقواتنا تنسحب الى الشرق . وأتى الحل الممكن الوحيد ، وهو وقف المنسحبين فى مواقع مؤاتية للدفاع وتشكيل وحدات قتالية مركبة ومنع العدو من التقدم بلا عائق فى اتجاه فيتيبسك . وقد عكف كونيف على هذا بما عرف عنه من اصرار ، بحيث قدم الى المدينة على رأس مفرزة تضم فوج مشاة وبطارية مدفعية وعدة دبابات ثقيلة .

كانت الحرائق تشتعل فى الكثير من احياء فيتيبسك نتيجة القصف الجوى المتكرر ، ولكن كانت هناك عدة مجموعات من المحاربين ومقاتلى الوحدات العمالية . هذه القوى التى كانت تبدو قليلة استطاعت تحت امرة القائد المحنك وذى الارادة القوية ان

تقيم فى غضون عدة ساعات حواجز فى الاتجاهات الاكثر خطرا . وحينما اقتحمت طلائع الفيلق الآلى الالمانى – كتيبة موتوسيكلات ترافقها الدبابات – المدينة من الغرب نشبت معركة ضدهم : اشعل المشاة الدبابات المعادية بالزجاجات الحارقة وقذفوا الموتوسيكلات بوابل من الطلقات ، اما النيران المحكمة لبطارية المدفعية فكان يديرها قائد الجيش نفسه ، متذكرا المعارك التى خاضها فى شبابه .

ارتدت الدبابات الى الخلف وابيد سائقو الموتوسيكلات بأغلبهم . ولكن اقتربت قوى غوت الاساسية . فى غضون ذلك وصلت فرقتان من الجيش التاسع عشر الى فيتيبسك . واذ ادرك قائد الجيش ان تقدم الفاشيين اللاحق ينطوى على عواقب وخيمة بالنسبة الى الجبهة الغربية بأسرها ، لم ينتظر تجمع قواته الكامل ، بل قرر ان يوجه الى العدو ضربة مضادة مفاجئة ، فوحد لاجل هذا فرقه ووحدات الجيش العشرين التى كانت فى الجوار . واكد تطور الاحداث صحة هذا القرار .

فى ١٠ تموز (يوليو) وجه كونيف ضربة مضادة مفاجئة للعدو فى اتجاه فيتيبسك . ومنيت فى المعارك بهزيمة جدية وحدات غوت التى اخترقت دفاعنا ، وتسنى وقف تحرك قواه الرئيسية الخطر الى رودنيا وسوراج .

وفيما بعد ساهم الجيش التاسع عشر فى عملية سمولينسك الدفاعية الضخمة التى استمرت شهرين وسطرت صفحة من اصنع الصفحات فى سفر الحرب الوطنية العظمى . ونتيجة لمعركة سمولينسك احبطت ، كما هو معروف ، خطة تحرك العدو الخاطف الى عاصمة وطننا .

بناء على أمر اصدره فى ١٩ آب (اغسطس) عام ١٩٤١ مارشال الاتحاد السوفييتى تيموشينكو قائد قوات الجبهة الغربية وضعت اعمال الجيش التاسع عشر التى اتسمت بالمبادرة والمهارة ، ولا سيما فى الضربة المضادة قرب دوخوفشينا ، مثالا للجيوش الاخرى فى الجبهة . ومنح كونيف فى ١١ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤١ لقب جنرال كولونيل لقاء ما ابداه من فن قيادى فى معركة سمولينسك . وفى اليوم التالى عين بقرار من القيادة العليا قائدا للجبهة الغربية .

كانت اصعب محنة فى انتظار قواتنا : ففى ٣٠ ايلول (سبتمبر) – ١ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ بدأت القيادة العليا الهتلرية

عملية تحمل الاسم الرمزى «تايفون» ، مما كان يؤكد نية سحق الدفاع عن موسكو والعاصمة نفسها .

حشد العدو فى مواجهة قوات الجبهتين الغربية والاحتياطية وجبهة بريانسك ، التى اضعفتها المعارك السابقة ، قوى جبارة : اكثر من خمسى مجموع قواته العاملة فى الجبهة الشرقية وثلاثة ارباع الدبابات وقرابة نصف المدافع ومدافع الهاون وما يقرب من ثلث الطائرات . فى المرحلة الاولى من معركة موسكو الكبرى جلب التفوق الساحق فى القوى نجاحات مؤقتة للهتلريين . وذاق كونيف ايضا مرارة الاخفاق . بيد ان المقاومة البطولية التى ابدتها قوات الجبهات الثلاث احبطت فى خريف عام ١٩٤١ نيات العدو الستراتيجية واوقفت تقدمه . وبدأت مرحلة جديدة من عملية «تايفون» . وبهدف حشد كل قوى الدفاع على مشارف العاصمة وحدت القيادة العليا قوات الجبهتين الغربية والاحتياطية تحت امرة جنرال الجيش جوكوف . واصبح كونيف نائبا له .

مرت فترة ظهر فيها تهديد فعلى بخرق دفاعنا فى اتجاه كالينين . وفى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) قدم الى كالينين كونيف الذى اعطى صلاحيات استثنائية . واتضح انه لا توجد هناك قوات تقريبا . عندئذ اوقف نائب القائد فى محطة سكة الحديد الارتال العابرة لفرقة الجنرال بولينوف ٢٤٣ للمشاة وأمرها بالنزول واتخاذ مواقع الدفاع غربى المدينة وجنوب غربها . وفى الوقت نفسه طلب من جوكوف ان يرسل فرقة الجنرال غورياتشيف ٢٥٦ بمسيرة سريعة الى كالينين .

لم يكن من الصعب ادراك ان كالينين بالنسبة الى العدو مجرد مرحلة على الطريق الى موسكو . وكان من الاصعب الكشف عن نية القيادة الالمانية دق اسفين فى دفاعنا والاخلال بالتعاون بين قوات الجبهتين الغربية والشمالية الغربية . ان كونيف ، وقد حلل معطيات المخابرات واستجوابات الاسرى ، كشف هذه النية وأمر الجنرال يوشكيفيتش قائد الجيش الحادى والثلاثين بتوجيه قواه الرئيسية الى منطقة تورجوك واتخاذ مواقع دفاع متينة هناك .

كان من الاهداف الهامة للعدو تطويق القوات الموجودة فى منطقة كالينين والقوى الرئيسية للجبهة الشمالية الغربية ، للالتفاف بعد ذلك على موسكو من الشمال . ان العدو ، وقد أمن لنفسه تفوقا فى

القوى ، كان واثقا بالنجاح ، بيد ان الدفاع النشيط والضربات المضادة من جانب قوات الجناح الايمن للجبهة الغربية احبطت هذه النية . فقد حطمت تماما ، على سبيل المثال ، مجموعة دبابات العدو التى اندفعت الى تورجوك فى ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤١ .

وبعد ذلك لم يبذل الهتلريون محاولات للهجوم من كالينين الى الشمال والشرق .

ابلغ كونيف فى اليوم التالى رئيس الاركان العامة : «حطمت طلائع غوت على قطاع طريق كالينين – ميدنويه . وانشئت جبهة متماسكة متراصة شمال شرقى كالينين» . كان عند جهاز بودو التلغرافى فى تلك اللحظة ستالين الذى املى هذا الجواب :

«ان القيادة العليا ، وقد استمعت الى خبرك ، قررت تشكيل جبهة كالينين التى تضم الجيوش الثلاثين والحادى والثلاثين والتاسع والعشرين والثانى والعشرين والفرق الموجودة فى هذا الاتجاه . وتعين انت فى منصب قائد الجبهة . مع التمنيات بالنجاح» .

وبعد ذلك ، فى خلال الهجوم المضاد الذى قاده كونيف عملت قوات جبهة كالينين مع قوات الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية . وقد حطمت الجانب الأيسر لتجمع قوي انشاه هتلر للاستيلاء على موسكو وحررت كالينين وتقدمت الى الغرب ابعد من الجبهتين المجاورتين .

قاد كونيف جبهة كالينين حتى آب (اغسطس) عام ١٩٤٢ . وبعد معركة موسكو خاضت قواته معارك شاقة ، مضنية ، دامية بهدف ابعاد العدو اكثر ما يمكن عن العاصمة ، ومنع اية محاولة يقوم بها للقبض على زمام المبادرة فى هذا الاتجاه الستراتيجى الهام .

فى اواخر آب (اغسطس) عام ١٩٤٢ نقل جنرال الجيش جوكوف من منصب قائد الجبهة الغربية الى منصب نائب القائد الاعلى . وذهب الى ستالينغراد لتنسيق اعمال القوات السوفييتية فى تلك المنطقة . واصبح كونيف مجددا قائدا للجبهة الغربية . فى ذلك الحين وضع الجيش السادس عشر للجبهة الغربية الذى كنت اقوده حينذاك عددا من تشكيلاته تحت تصرف القيادة العليا وتحصن فى المواقع التى يشغلها واستعد على نحو شامل للدفاع عنها . وقد تلقيت دعوة الى اركان الجبهة لتقديم تقرير شخصى الى القائد الجديد ، فاخذت الوثائق الضرورية وحلقت على طائرة او-٢ الى مالوياروسلافيتس .

سر كونيف بتقريرى . وبعد هذا حدثت كونيف بايجاز فى جلسة ودية عن حياتى القتالية على امتداد السنة الاولى من الحرب ، وشاطرنى هو المعلومات الجديدة عن الاحداث قرب ستالينغراد وشمال القفقاس . وقال :

– تعانى القيادة العليا الآن صعوبات كبيرة . اذ ينبغى ان ترسل الى ضواحى ستالينغراد بسرعة كل احتياطيات المركز وجزء من القوى من الاتجاهات الاخرى ، ومن بينها جبهتنا . والموقف يتطلب منا ان نكون متيقظين والا نرتكب اية هفوة بحال من الاحوال والا نعطى القيادة الهتلرية المزيد من الاوراق الرابحة . وعلينا بقوانا المتوفرة الا نحافظ على مواقع الدفاع الحالية بثبات فحسب ، بل وان نقبض على خناق العدو ونقيده ونبقيه دوما تحت تهديد ضرباتنا . . .

ثم تحدث كونيف عن ضرورة تعزيز الدفاع بكل السبل فى منطقة الجيش وجعل القوات على استعداد دائم لصد اية ضربة من العدو . وكان يعتبر ان من الضرورى والالزامى شن هجمات نارية منتظمة على اضعف الاماكن فى مواقع العدو واطلاق النار بصورة مفاجئة على قطاعات دفاعه غير المحمية جيدا وقنص الجنود والضباط المعادين والاستقصاءات الاستكشافية الدؤوبة والحاذقة مع القبض على الاسرى والتحركات المخادعة للوحدات والتشكيلات قرب خط الجبهة لتضليل القيادة الهتلرية . واختتم كونيف ارشاداته قائلا :

– وهكذا ، ينبغى ابقاء العدو فى توتر دائم ، بحيث لا نسمح له بارسال اى فيلق لمساعدة باولوس .

وفى كانون الثانى (يناير) زار كونيف جيشنا واطلع على سلكه القيادى وتفقد الاستعداد القتالى للوحدات والتشكيلات .

فى خلال الجولة المشتركة فى فرقة الجنرال يروخين ٣٢٤ للمشاة ، زار القائد ، دون خشية مما يشكله هذا من خطر على حياته ، خنادق كتائب وسرايا المشاة على الخط الامامى . وتحدث مع المقاتلين والقادة ، وابدى اهتمامه بأمزجة الناس وتنظيم المعيشة والتغذية فى الجبهة . وفى كل مرة كان يحدث المحاربين عن الوضع فى اهم قطاعات الجبهة السوفييتية-الالمانية .

من المميز ان كونيف كان يعرف مواطنيه بلا خطأ ، وهم ، فى رايه ، ليسوا جنود منطقتى كيروف وفولوغدا فحسب ، بل وجنود الشرق الاقصى وما وراء بايكال والدون وشمال القفقاس . ان كلمتين

او ثلاثا من كلماته التى تعبر عن الاخلاص وتنبع من القلب كانت تطلق لسان المحاربين فيشاطرون «القيادة العليا» بطيبة خاطر اهتماماتهم وآمالهم . وكانت ثمة شكاوى من الجنود – نادرة والحق يقال – مفادها ان مصالح اسرهم فى مناطقهم لا تلبى بجريرة البعض . وقد كلف كونيف مرافقه بكتابة العناوين وبعث رسائل الى السلطات المحلية .

وفى الخنادق كان كونيف يتوقف فى المواقع التى يتكشف منها مجال جيد لمراقبة هذا القطاع او ذاك من دفاع العدو . وقد توقف فى نقطة مراقبة آمر احدى كتائب المشاة وتفقد تنظيم شبكة النيران من كل الاصناف امام جبهة الكتيبة وفى مناطق تماسها مع الجيران .

وبالاجمال كان كونيف راضيا عن نتائج التفقد ، وبعد غداء جيد مما يأكله الجنود ذهب الى نقطته للقيادة دون ان يعرج على اركان الجيش .

التقينا مجددا فى ٩ شباط . استدعانى اليه فى مالوياروسلافيتس ووضع امامى مهمة اعداد العملية الهجومية للجيش فى اتجاه جيزدرا . ولكن ما لبث الجنرال كونيف ان نقل بعيدا عنا فى آذار (مارس) عام ١٩٤٣ ، فى خلال عملية جيزدرا التى بدات بنجاح . ولا استطيع ان اكتم ان ذهاب كونيف اثار اسفا حقيقيا لدى الكثيرين .

حل كونيف مكان مارشال الاتحاد السوفييتى تيموشينكو فى منصب قائد قوات الجبهة الشمالية الغربية . وبقى فيه قرابة ثلاثة اشهر . فى تلك الفترة شنت قوات الجبهة هجوما جنوبى ستارايا روسا .

فى تموز (يوليو) عام ١٩٤٣ اصبح كونيف قائدا لجبهة السهب . وقد كتب فيما بعد :

«قبل الذهاب الى مكان الخدمة الجديد قال لى ستالين حينما استقبلنى فى القيادة العليا ان على جبهة السهب ان تضطلع بدور هام سواء فى فترة الدفاع او فى فترة الهجوم من المعركة المقبلة عند قوس كورسك . وقال : «اتدرك ، ايها الرفيق كونيف ، ما هى مهماتك ؟ سيشكل العدو ، كما يبدو ، تجمعات قوية جدا بهدف قطع نتوء كورسك . يجب ان تكون قوات جبهتك المرابطة وراء الجبهة الوسطى وجبهة فورونيج مستعدة لصد ضربات العدو اذا اخترق دفاع روكوسوفسكى وفاتوتين . ان المنطقة التى تشغلها الجبهة يجب ان

تعد جيدا من الناحية الدفاعية ، وينبغى اعداد خط دفاع الدولة فى المؤخرة ، خلف نهرى فورونيج والدون» .

من المستبعد ان يمكن العثور فى تاريخ الحروب على سابقة لانشاء تشكيلة جبارة كهذه من الاحتياطيات الستراتيجية . لقد وجدت ، والحق يقال ، فى الاتجاه الغربى لبعض الوقت الجبهة الاحتياطية ، ولكنها كانت ، طبعا ، اضعف من جبهة السهب من جميع النواحى . فى هذه الحالة جمعت القيادة العليا عدة جيوش للقوات العامة وجيشا للدبابات تحت قيادة جبهة واحدة قبل بدء العمليات الفعالة بوقت طويل وادخلتها فى المعركة بما يتفق وخططها تماما . وواقع تعيين كونيف فى منصب قائد هذه التشكيلة يشهد بحد ذاته على ان الحزب كان يقدر عاليا موهبته القيادية وقدراته التنظيمية البارزة .

ان اعمال جيشين لجبهة السهب الاحتياطية الجبارة فى تطوير حملة صيف عام ١٩٤٣ مكنت من وقف هجوم العدو نهائيا فى منطقة جبهة فورونيج . وتم حث انتقال كل القوات السوفييتية الى الهجوم المضاد الحاسم مما أدى الى تغير الوضع تغيرا حادا فى مصلحة الجيش الاحمر تماما فى الاتجاه الجنوبى الغربى . وينبغى التذكير بان قوات جبهة السهب – الجيشين التاسع والستين والسابع – هى بالذات التى اقتحمت فى ٥ آب (اغسطس) عام ١٩٤٣ بيلغورود واستولت عليها . لن اتحدث بمزيد من التفصيل عن دور كونيف فى المعركة قرب كورسك ، فمن العروف للجميع انه كان دورا جوهريا جدا .

فى نهاية هذه المعركة الجبارة ادت جبهة السهب رسالة مشرفة ، وهى تحرير منطقة خاركوف الصناعية والمدينة الرائعة نفسها . ففى ٢٢ آب (اغسطس) عام ١٩٤٣ قطعت الوحدات المتحركة للجبهة الطرق الاساسية المؤدية الى المدينة من الغرب . وصار تجمع العدو فى خاركوف مهددا بتطويق حتمى . ولم يبق تحت تصرف القيادة الفاشية سوى خط حديدى وطريق معبد من خاركوف الى ميريفا وكراسنوغراد ، وكانا هما ايضا هدفا لضربات مستمرة من الجو .

وبرز هذا **السؤال** : هل سيقبع الهتلريون فى خاركوف او سيحاولون الخروج ؟ وافترض كونيف انهم سيغادرون المدينة خشية

التطويق ، ولم يخطئ . ومع غروب يوم ٢٢ آب (اغسطس) اكدت المخابرات ان القيادة الالمانية بدأت سحب قواتها من خاركوف . ان قائد الجبهة ، وقد تلقى هذه المعلومات ، اصدر على الفور امرا باقتحامها ليلا . وفى الساعة الثانية عشرة من ٢٣ آب (اغسطس) حررت المدينة من المحتلين تماما . واعيد الى الشعب اكبر مركز صناعى فى اوكرانيا وعاصمتها الثانية .

فى ٢٨ آب (اغسطس) عام ١٩٤٣ منح كونيف لقب جنرال الجيش .

فى المرحلة الاولى من معركة الدنيبر الشهيرة حطمت قوات كونيف مقاومة العدو غربى وجنوب غربى خاركوف ، ثم شنت هجوما على كراسنوغراد وفيرخنيدنيبروفسك . وفى ٢٣ ايلول (سبتمبر) حررت بولتافا ، وفى اليوم التالى استولت على راس جسر على الدنيبر شمال غربى دنيبرودزيرجينسك ، وفى ٢٨ ايلول (سبتمبر) تسنى لها ذلك ايضا جنوب شرقى كريمينتشوغ وفى منطقة فيرخنيدنيبروفسك .

وفى المرحلة الثانية من هذه المعركة صفت جيوش جبهة السهب (التى اصبحت الجبهة الاوكرانية الثانية منذ ٢٠ تشرين الاول - اكتوبر) بالاشتراك مع الجبهة الاوكرانية الثالثة (الجبهة الجنوبية الغربية سابقا) راس جسر للعدو فى زابوروجيه ، وساعدت على تحرير مدينتى زابوروجيه ودنيبروبيتروفسك ، وساعدت ايضا ، الأمر الذى ينطوى على اهمية خاصة ، فى اقامة راس جسر على ضفة الدنيبر اليمنى يتمتع باهمية ستراتيجية خاصة .

فى معركة كيروفوغراد التالية ابدى كونيف مهارة فى المناورة الهادفة بالقوى والعتاد ، وفى دينامية القتال ناقلا جهود القوات بسرعة من اتجاه الى آخر . ان الجبهة الاوكرانية الثانية ، اذ وسعت راس الجسر خلف الدنيبر ، ركزت الجهود الرئيسية فى المرحلة الاولى على اتجاه كريفوى روغ . بيد ان الهجوم الذى بدأ هناك فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٤٣ لم يتطور . ولكن تسنى فى اتجاه كيروفوغراد المساعد خرق دفاع العدو والتقدم حتى ٣٠ كيلومترا فى العمق . قرر كونيف ان يجمع هناك فورا جيش روتميستروف المدرع الخامس من اجل تطوير الضربة . وقد وصل بسرعة الى منطقة زنامينكا ، مشكلا تهديدا بتطويق كيروفوغراد من الشمال . واضطرت القيادة

الهتلرية الى ان توجه الى هناك على عجل امدادات ضخمة ، مما اضعف دفاعها فى القطاعات الاخرى .

كتب مانشتين فى ذكرياته ، متحدثا عن هذه العملية الهامة التى قامت بها قواتنا تحت قيادة كونيف فى جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى : «ان جبهة السهب ، التى كانت قيادتها ، على ما يبدو ، تتمتع باكبر نشاط ، ارسلت القوات تلو القوات الى راس الجسر الذى استولت عليه جنوبى الدنيبر عند تماس جيشينا ، جيش الدبابات الاول وجيش الميدان الثامن . وهكذا ، انفتح امام العدو الطريق الى عمق قوس الدنيبر ، الى كريفوى روغ ، وبالتالى الى نيكوبول التى كان هتلر يعتبر السيطرة عليها فى غاية الاهمية من وجهتى النظر العسكرية والاقتصادية» .

ان اصالة التفكير القيادى لكونيف وتناوله الحافل بالابداع والمبادرة لحل المهمات الميدانية قد تجليا بوضوح خاص فى عملية كورسون شيفتشينكوفسكى .

سأتحدث بمزيد من التفصيل عن هذه العملية الحافلة بالعبر . حينما دمرت القوات السوفييتية الحاجز الشرقى السيئ الذكر الذى اقامه العدو على الدنيبر ، تسنى للهتلريين على اى حال البقاء عند المجرى الاوسط للنهر . وتكون عند تماس الجبهتين الاوكرانيتين الاولى والثانية ما يسمى بنتوء كورسون شيفتشينكوفسكى . وطلب هتلر اقامة دفاع قوى هناك على أمل توجيه ضربة الى الجناحين المتجاورين للجبهتين الاوكرانيتين . وحتى انه حلم بامكان استعادة الدفاع على الدنيبر . وقد رابطت فى نتوء كورسون شيفتشينكوفسكى تسع فرق للمشاة وفرقة للدبابات ولواء آلى للاس اس مع الكثير من وسائل التقوية . وكانت كل هذه القوات تابعة لجيشى الدبابات والميدان لمجموعة «الجنوب» التى يقودها مانشتين . ان العدد الكبير من الوهاد والوديان والمرتفعات والمدن والقرى الكبيرة كانت تمكن القيادة المعادية - كما بدا لها - من اقامة دفاع منيع .

اعدت العملية ونفذت فى ظروف معقدة للغاية ، وذلك فى ربيع مبكر جدا ، مما سبب توحل الطرق . وكان على كونيف ان يحشد جيشين للقوات العامة وجيشا للدبابات وجيشا للطيران والكثير من وسائل الامداد . وقد خصص حد ادنى من الوقت

لاعداد الضربة : خمسة ايام فقط . ورداءة الطقس نفت بصورة كاملة تقريبا امكان استخدام الطيران على نطاق واسع . وبالاضافة الى ذلك توحلت المطارات الترابية .

من المميز ان كونيف لم يتذمر من توحل الطرق ، بل سعى الى جعله حليفا له . اولا ، افترض ان مانشتين سوف يأمل على الارجح فى فترة استراحة بسبب الطقس الردىء فوق التصور . وبالتالى لا بد من حث الاستعداد للعملية والقيام به فى سرية مطلقة ، اى اجراء كل التحشدات فى الليل مع تنظيم الحركة بصرامة على طرق محددة بعناية ووفق جدول دقيق وتجهيز المناطق الخادعة لحشد الدبابات والمدفعية ومواقع النار الخادعة وتقليد تحرك القوات والعتاد فى القطاعات السلبية من الجبهة . ثانيا ، كان كونيف على قناعة بان الجنود السوفييت سيظهرون فى اصعب الظروف بالذات همة عسكرية ومبادرة ،وسيكون ابداعهم الكفاحى وقدرتهم القتالية اعلى مما لدى العدو الذى كانت الظروف الخارقة تفقده رشده دائما . وعند اعداد العملية تجلت بكل قوة موهبة كونيف السياسية ، ان صح التعبير . فقد نصح كونيف بالدرجة الاولى العاملين السياسيين ان يشرحوا للمحاربين الوصايا اللينينية باوسع ما يمكن بمناسبة اقتراب الذكرى العشرين لوفاة لينين . وصدرت فى كل التشكيلات اعداد خاصة من الجرائد والمنشورات تدعو على نطاق واسع الى افكار لينين حول الدفاع عن الوطن الاشتراكى واقواله عن الجيش الاحمر . واعار القائد اهتماما خاصا العمل مع الرافد الذى قدم بصورة رئيسية من المناطق المحررة . ان المحاربين القدماء فى المعارك المجيدة قرب موسكو وستالينغراد وكورسك والمشتركين فى عبور الدنيبر شاطروا الشبيبة تجربتهم القتالية بسخاء .

وضع كونيف بالاشتراك مع عضو المجلس العسكرى فريق قوات الدبابات سوسايكوف ورئيس الادارة السياسية للجبهة اللواء تيفتشينكوف خطة مفصلة للعمل الحزبى السياسى . وكان الشىء الرئيسى فيها هو اعداد المحاربين معنويا ونفسيا للنضال ضد العدو والتغلب على الصعوبات المتنوعة للهجوم المقبل . وعقدت اجتماعات حزبية وكومسومولية فى الوحدات والمفارز . ونظمت بمبادرة من قائد الجبهة لقاءات للصداقة بين الجنود والضباط من مختلف اصناف القوات . ان الرماة والعاملين على الرشاشات والمدرعات

والمدافع ومدافع الهاون والدبابات وعاملى الاتصال قد تحادثوا فيما بينهم عن الخصائص القتالية لاسلحتهم وعن انهم ينوون استخدام كل جبروتها لتحقيق النجاح .

واذ خطط كونيف للعملية ، درس تجمع العدو على ادق وجه . وكانت اشد كثافة له غربى كيروفوغراد وشمال غربيها . كان العدو يتوقع هناك ، كما يبدو ، ضربتنا كاستمرار لعملية كيروفوغراد التى انتهت لتوها . ان قائد الجبهة الاوكرانية الثانية لم يقرر تقليد الاستعداد للهجوم فى هذين القطاعين فحسب ، بل قرر ايضا الهجوم على العدو بقوات كبيرة . اما الضربة الرئيسية ، الاقوى ، فاعدها كونيف شمالى كيروفوغراد .

ان مهمة الجبهة الاوكرانية الثانية فى عملية كورسون-شيفتشينكوفسكى كانت معقدة بشكل خاص . فقد تمكن العدو من انشاء دفاع متين جدا فى شريط اعمال قوات كونيف . وعلاوة على ذلك ، كان ينبغى لجيوش الجبهة الاوكرانية الثانية ان تبدأ الهجوم قبل قوات الجبهة الاوكرانية الاولى تحت قيادة فاتوتين . وحتى ان كونيف استطاع ان يبدأ الهجوم قبل الموعد الذى حددته القيادة العليا بيوم ، فى الرابع والعشرين من كانون الثانى (يناير) ، لا فى الخامس والعشرين منه .

عند شروق ذلك اليوم ، بعد مناوشة مدفعية قصيرة ، ولكنها قوية انطلقت الكتائب المتقدمة الى الهجوم . وعلى اثرها فورا دخل التجمع الضارب الرئيسى المعركة . اخترقت وحدات الطليعة دفاع العدو فى قطاع امتداده ١٦ كيلومترا وتقدمت فى العمق ما بين كيلومترين و٦ كيلومترات . ان القوى الرئيسية لجيشى ريجوف وغالانين ، التى زجت فى المعركة على الفور ، ذللت بسهولة الشريط الاول لدفاع العدو واستولت منذ اول يوم على عدة نقاط ارتكاز قوية للعدو . وهكذا تمكن جيش الدبابات الخامس دخول هذه الثغرة فى اليوم الثانى بعد الظهر .

حث كونيف روتميستروف ، فاجتازت الدبابات ، التى ابتعدت عن وحدات المشاة ، الشريط الثانى للدفاع المعادى دون توقف وتقدمت ١٨–٢٠ كيلومترا آخر ، واستولت على نقطتى ارتكاز هامتين وبدأت توسيع الثغرة على الجانبين . بعد هذا فقط ادرك مانشتين درجة الخطر الذى يهدد قواته ، وبدأ يجمع قواه بشكل محموم

ليحبط هجوم الجبهة الاوكرانية الثانية . فقد وجه الى جوانب الثغرة ، مثلا ، ثلاث فرق للدبابات وثلاث فرق للمشاة انتزعها من اتجاه كيروفوغراد . ولكن «نقلة الفرس» هذه لم تكن مفاجأة بالنسبة الى قائد الجبهة . اذ كان كونيف يحتفظ باحتياطي قوى .

وقد قال فيما بعد :

– كما كنت اتوقع ، فى ٢٧ كانون الثانى (يناير) ضرب تجمعان معاديان من الشمال والجنوب جانبينا لعزل فيلقى روتميستروف اللذين ابتعدا كثيرا عن قوانا الاساسية . فى ذلك الوضع اظهر جنود دبابات روتميستروف صمودا ورباطة جأش مدهشين ، اما القائد نفسه فابدى ثباتا ونضجا قتاليا . . .

لقد توصل قائد الجبهة الى هذا الاستنتاج بعد زيارة نقطة القيادة لجيش الدبابات الخامس . وقد حرص على الفور بان ينخرط فى المعركة النسق الثانى – فيلق الدبابات الثامن عشر – وتنشط اعمال طائرات الهجوم والطائرات المقاتلة . ووجه فيلق الفرسان الى الثغرة . لم يكن من السهل على حشد الخيالة فى تلك الظروف الدخول فى عنق الثغرة الضيقة . وقد تحدث كونيف بعد الحرب مرارا عما بذله من جهد وطاقة ، اذ نظم وضمن اعمال فرسان سيليفانوف . ولكن حينما وصل الخيالة الى مؤخرة الفاشيين ، اضطلعوا بدور جوهرى فى تطويق العدو والصراع ضده فى جبهة الطوق الداخلية ، وتميزت بشكل خاص فى صد محاولات المطوقين الخروج من الحصار .

كان على قائد الجبهة فى الوضع الناشىء ان يستجيب بلحظة خاطفة للتغيرات الحادة والمتكررة جدا ويتمكن من تصعيد جهود القوات المهاجمة فى العمق وعلى الجناحين ويهتم بمتانة جبهتى التطويق الداخلية والخارجية .

ان تجمع العدو فى كورسون شيفتشينكوفسكى بقى حتى فى التطويق شديد المناورة ، واستطاع القيام باعمال دفاعية وهجومية . ومانشتين ، الذى علمته كارثة ستالينغراد جيدا ، تصرف بحذر وطاقة . ومع ذلك تم فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) احكام الطوق حول القوات الفاشية الالمانية المرابطة فى نتوء كانيف . وقد وقع فيه قرابة ٨٠ الف شخص ، و١٦٠٠ مدفع ومدفع هاون ، واكثر من ٢٣٠ دبابة ومدفع اقتحام والكثير من المعدات العسكرية الاخرى . عندئذ اخذ مانشتين يحرص على نجدة المطوقين ، وفعل هذا باصرار ونشاط .

قاتلت قوات كونيف الهتلريين الذين تعلموا قرب ستالينغراد . ان مانشتين ، اذ كان يقود مجموعة جيوش «الدون» ، حاول فى حينه ان ينقذ باولوس من التطويق بواسطة مجموعة جيوش غوت التى لم يكن فيها سوى ثلاث فرق للدبابات . والآن حاول ايضا بكل قواه ان يرد لنفسه الاعتبار واقسم وحلف ، كما يقال ، على ان ينجد مرؤوسيه . الوعود اطلقت ، ولكن الامور كانت تسير من سيىء الى اسوأ .

فى البداية كان التهديد الرئيسى ينبعث من القبضة المدرعة التى جمعها مانشتين لاختراق جبهة التطويق الخارجية . ولكن فى ٨ شباط (فبراير) ادرك العدو ان لا مجال بعد للحديث عن الاحتفاظ بنتوء كورسون شيفتشينكوفسكى ، ولا بد من اخراج المحاصرين من الطوق فورا ، ولا سيما انه تسنى للقيادة السوفييتية احباط محاولات تموينهم من الجو . وفى الفترة من ٥ الى ١٧ شباط (فبراير) وحدها اسقط طيارونا بالاشتراك مع العاملين فى المدفعية المضادة للطائرات ١٨٠ طائرة نقل المانية .

فى ١٢ شباط (فبراير) اخترق اسفين مدرع قوي للعدو الدفاع الضعيف للجيش السابع والعشرين للجبهة الاوكرانية الاولى التى كان يقودها فاتوتين .

بيد ان كونيف ، وكان قد تنبأ عشية ذلك بهذا الانعطاف للاحداث ، اتخذ قرارا جديدا بشكل جذرى ، وهو توجيه جيش الدبابات الخامس الى منطقة التماس مع الجار وحتى الى منطقة عملياته جزئيا . كانت تلك خطوة جريئة ، لانه لم تكن ثمة ثقة كاملة بان مانشتين اقلع عن محاولات الوصول الى المطوقين بقوى كبيرة من الخارج ، ثم ان تحريك جيش مدرعات كامل مع مؤخرته فى ظروف التوحل الشديد للطرق كان يقترن بصعوبات تكنيكية كبرى .

فى عشية ١٢ شباط (فبراير) ليلا تلفن القائد الاعلى الى نقطة القيادة فى الجبهة . وقال :

– عند القيادة العليا معطيات تقول بان التجمع المطوق اخترق جبهة الجيش السابع والعشرين ، وهو ينطلق الى جماعته . هل تعرف الموقف عند جارك ؟

اجاب كونيف :

– لا تقلق ، ايها الرفيق ستالين . لن يفلت العدو المطوق .

جبهتنا اتخذت الاجراءات . لضمان التماس مع الجبهة الاوكرانية الاولى ولارجاع العدو الى الطوق ارسل الى هذه المنطقة جيش الدبابات الخامس بقيادة روتميستروف وفيلق الفرسان الخامس بقيادة سيليفانوف . وسينفذان المهمة بنجاح .

تلا ذلك سؤال جديد من ستالين :

– هل فعلت هذا بمبادرتك ؟ فهذا خلف الحد الفاصل لجبهتك .

اجاب كونيف :

– نعم ، بمبادرتي .

فخلص ستالين الى القول :

– هذا حسن جدا . سنتشاور فى القيادة العليا ، وسأبلغك بقراري .

حينذاك عهد بقرار من القيادة العليا الى قائد الجبهة الاوكرانية الثانية بقيادة كل القوات المشتركة فى ابادة المطوقين فى الجبهة الداخلية .

طار كونيف الى نقطة قيادة الجيش الرابع ، مع ما فى هذا من خطر شديد ، لانه لم يكن يستطيع قيادة العملية الا من هناك . وقد جرت على امتداد خمسة ايام معارك فى غاية الضراوة فى الحلقة الداخلية للتطويق . وبلغت الاوج عشية ١٧ شباط (فبراير) ليلا . هبت عاصفة ثلجية ، ولكن قائد الجبهة ، شأنه دائما ، لم يبد بسبب الطقس اى تهاون لنفسه ولا للمرؤوسين .

فى الصباح الباكر ظهر امكان الاستخدام المكثف للمدفعية فبدأت تصب نيرانها على العدو فى كل مكان واينما حاول الاختباء . وانقضت دبابات الجيش الخامس على ارتال العدو فى مسيرتها . واجترح خيالة سيليفانوف ، ابناء الدون الشجعان ، بطولة حقيقية . اذ ان الهتلريين الذين حاولوا الخروج مجموعات صغيرة من الطوق عبر المنخفضات والوهاد ابيدوا بهجمات جريئة بالسيوف . ولعل تلك الايام كانت اكثر الايام توترا بالنسبة الى كونيف فى خلال الحرب بأسرها . كان دوى القصف المدفعى المتواصل وعويل الرياح وهدير محركات الطائرات والدبابات يهز الجو ، ووهج الحرائق يجرح العيون ، واصبح كل الافق حول القرية ، التى تقع فيها نقطة القيادة ، ارجوانيا مسودا .

فى ختام عملية كورسون شيفتشينكوفسكى تجلت تماما ، كما

يبدو لى ، قدرة كونيف على ان يشعر باللحظة الحرجة للمعركة ، او ، بتعبير ادق ، ان يعين هذه اللحظة ، وهذه القدرة التى يعززها اصرار وارادة كونيف ادت الى النصر فى هذه المرة ايضا .

مع نهاية يوم ١٧ شباط (فبراير) صفى التجمع المطوق وفقد العدو اكثر من ٧٣ الف جندى وضابط بينهم ١٨،٢ الف أسير ! وعلاوة على ذلك ، الحقت قوات الجبهتين السوفييتية الهزيمة بخمس عشرة فرقة أخرى بينها ثمانى فرق للدبابات فى جبهة التطويق الخارجية . وتوفرت الظروف لتوجيه ضربات جديدة الى الجناح الجنوبى للجبهة الفاشية الالمانية والتحرير التام لجزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى .

حينما وصلت العملية ، التى دخلت التاريخ باسم «ستالينغراد على الدنيبر» ، الى نهايتها المظفرة وتحركت ارتال الاسرى على الطرق المحفورة ، الموحلة جرى بين كونيف وستالين حديث آخر بالتلفون . قال القائد الاعلى :

– تهانى بالنجاح . الحكومة تفكر فى منحك رتبة مارشال الاتحاد السوفييتى . ما رأيك فى هذا ، الا تعارض ؟ ايمكن تهنئتك ؟

اجاب قائد الجبهة بايجاز :

– شكرا ، ايها الرفيق ستالين .

بهذا التقدير الرفيع تكللت مأثرة كونيف القيادية ، وهى التسمية الوحيدة التى يمكن ، فى رأيى ، اطلاقها على نشاطه فى عملية كورسون شيفتشينكوفسكى .

ولكن لم يكن عند كونيف وقت للاحتفال بالنصر . فقد باشرت قوات الجبهة الاوكرانية الثانية على الفور تنفيذ عملية جديدة ، صعبة جدا ، وهى عملية اومان – بوتوشانى .

قال كونيف فى كتابه «مذكرات قائد جبهة» : «لا يعرف تاريخ الحروب عملية اوسع من حيث مقاييسها وتعقدها جرت فى ظروف التعطل التام للطرق وفياضانات الانهار فى الربيع» . فبفضل السرية وسرعة الاستعداد تم مجددا قرب اومان وبوتوشانى توجيه ضربة مفاجئة تماما ، وقد عززها الاندفاع الجامح لثلاثة جيوش للدبابات ادخلت فى المعركة منذ البداية . كانت قوات الجبهة تتمتع بتفوق

عددى صغير على العدو ،ولكن المارشال كونيف حشد بجرأة القوى الرئيسية فى قطاع طوله ٢٥ كيلومترا من شريط اعمال الجبهة الممتد مسافة تربو على ٣٠٠ كيلومتر .

نتيجة لعملية اومان – بوتوشانى ، التى بدأت فى ٥ آذار (مارس) ، شقت جبهة مجموعة جيوش «الجنوب» ومنى العدو بخسائر فادحة . وفى ٢٥–٢٨ آذار (مارس) وصلت قوات كونيف على جبهة عرضها ٨٥ كيلومترا الى حدود الاتحاد السوفييتى ، ثم عبرت دون توقف نهر بروت وقامت بعمليات قتالية فى اراضى رومانيا . وفى اواسط نيسان (ابريل) وصلت الى الكاربات وخرجت الى مشارف ياسى وكيشنيوف . لقد تقدمت قوات كونيف مسافة تتراوح ما بين ٢٠٠ كيلومتر و٢٥٠ كيلومترا ، وحررت اراضى شاسعة فى جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى وفى مولدافيا ، ووصلت الى المناطق الشمالية الشرقية من رومانيا . وعبرت دون توقف فى ظروف الفياضانات وتوحل الطريق فى الربيع ستة انهار : تيكيتش الجبلى ، بوغ الجنوبى ، الدنيستر ، ريوت ، بروت ، سيريت .

كانت تعمل فى الجبهة خمسة جيوش للقوات العامة وثلاثة للدبابات . وقد قاد كونيف هذا الحشد اللجب من القوات بنجاح وبصورة هادفة ، وكان يحل بسرعة المهمات الستراتيجية .

وتحققت المنجزات نتيجة للتعاون المتسق بين الجبهتين الاوكرانيتين الثانية والاولى . وفى خلال عملية اومان بوتوشانى حيث موسكو سبع مرات القوات الباسلة للجبهة الاوكرانية الثانية .

ينبغى ان يؤخذ كذلك فى الاعتبار ان اقامة رأس جسر هام فى شمال رومانيا ساعد الى درجة كبيرة على خوض معارك ياسى – كيشنيوف الشهيرة .

فى بداية آيار (مايو) عام ١٩٤٤ عينت لجنة الدولة للدفاع كونيف قائدا للجبهة الاوكرانية الاولى التى كان عليها ان تحرر المناطق الغربية من اوكرانيا .

واذ وضع كونيف خطة عملية لفوف – ساندومير ، اتخذ قرارا بتوجيه ضربتين بقوة واحدة تقريبا فى اتجاهى لفوف ورافا – روسكايا . وعند تقديم التقرير فى القيادة العليا اعترض ستالين على هذه الخطة بشدة اول الأمر . ولكن كونيف ذاد عن وجهة نظره باصرار . فوافق القائد الاعلى عليها فى نهاية المطاف .

اكدت مسيرة العملية صحة حسابات كونيف : ففى اتجاه رافا – روسكايا اوغلت جيوشه الى الغرب اكثر بكثير مما فعلت فى اتجاه لفوف ، حيث كان عند العدو ما يصد به ضربات القوات السوفييتية . وقد حول كونيف بلا ابطاء جزءا من القوى التى كانت تهاجم رافا – روسكايا نحو الاتجاه الجنوبى الغربى ، الى مؤخرة الهتلريين المدافعين عن منطقة لفوف . واعقب ذلك تطور سريع نسبيا للاختراق العميق وتحطيم التجمع الاساسى للعدو وتحرير لفوف .

فى تموز –آب (يوليو – اغسطس) عام ١٩٤٤ ظهرت غير مرة لحظات حرجة جدا فى عملية لفوف – ساندومير ، ولكن قائد الجبهة وفر بصبر احتياطيه ، الجيش الخامس . وقد رفض باصرار كل الاقتراحات والطلبات لادخاله فى العمل قبل الوصول الى فيستولا ، متوقعا الاصطدام بأشد الصعوبات عند هذا الحاجز المائى الجبار . وبالفعل ، حينما تعرضت القوات السوفييتية التى كانت تعبر فيستولا ، لضربة مضادة مسعورة من تجمع قوى جدا للعدو وبدأ الصراع على راس الجسر فى ساندومير ، تحققت توقعات كونيف . لو انه لم يثبت واستخدم الجيش الخامس قبل عبور فيستولا لكان من المستبعد ان يتسنى لوحدات الجبهة الاوكرانية الاولى ، التى نقص عددها فى المعارك ، المحافظة على راس الجسر فى ساندومير امام القوة المتعاظمة لضربات العدو المضادة .

كان المارشال كونيف يحسن الاقدام على اشد المخاطرات لاحراز النصر . وهكذا ، ففى عملية لفوف – ساندومير ادخل بأمره جيش الدبابات الثالث فى المعركة عبر ممر ضيق عرضه ٦ كيلومترات فى اللحظة التى نظمت فيها القيادة الالمانية ضربات مضادة على الجوانب لتصفية هذا الشق . بيد ان اختراق اعداد كبيرة من الدبابات عمق دفاع العدو اثر فى نتيجة المعركة الضارية لمصلحة القوات السوفييتية . وحطم دفاع العدو . واستولت قوات الجبهة الاوكرانية الاولى على لفوف ورأس الجسر فى ساندومير على ضفة فيستولا الغربية الذى اضطلع فيما بعد بدور ستراتيجى كبير ، كما هو معروف .

فى عملية لفوف – ساندومير تحطمت ٣٢ فرقة معادية ، وزالت ٨ فرق من الوجود اجمالا . ومنيت مجموعة جيوش «شمال اوكرانيا»

بهزيمة ساحقة . وفى الفترة من ١٤ الى ٣١ تموز (يوليو) وحدها فقد العدو ٢٠٠ الف شخص و٢٢٠٠ مدفع و٥٠٠ دبابة و١٠٠٠٠ سيارة و١٥٠من مختلف المستودعات . هذه الخسارة الفادحة ارغمت هتلر على ان يرسل الى الجبهة الاوكرانية الاولى حتى ثمانى فرق من مجموعة «جنوب اوكرانيا» . وهذا ما سهل كثيرا انتصار قوات الجبهتين الاوكرانيتين الثانية والثالثة قرب ياسى وكيشنيوف .

حررت قوات المارشال كونيف من النير الفاشى لفوف وفلاديمير – فولينسكى وراڤا – روسكايا وستانيسلاف (ايفانو – فرانكوفسك) وستريى وبشيميسل وساندومير . واذ تحدث كونيف عن هذه العملية ، قدر عاليا اعمال الكثير من مرؤوسيه ، مشيرا بشكل خاص الى الجنرالين ريبالكو وليلوشينكو قائدى جيشى الدبابات والجنرال بيلوف آمر فيلق الدبابات والعقيد دراغونسكى آمر لواء الدبابات .

ان العمل العسكرى المتوتر والمتفانى الذى قام به كونيف فى عملية لفوف – ساندومير كلل عن جدارة بمنحه لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

شاء المصير العسكرى لكونيف ان يؤدى مرتين قسطا وافرا فى تحرير تشيكوسلوفاكيا . ان المناورة الخاطفة لقوات كونيف فى تقدمها الى براغ فى المرحلة الختامية من الحرب معروفة جيدا لدائرة واسعة من القراء . اما عملية كاربات – دوكلا فمعروفة اقل منها . وفيها قدمت قوات الجبهة الاوكرانية الاولى مساعدة فعالة الى الشعب السلوفاكى الذى انتفض فى خريف عام ١٩٤٤ تحت قيادة حزبه الشيوعى ضد الطغيان الهتلرى .

وضعت القيادة العليا امام قوات الجبهتين الاوكرانيتين الاولى والرابعة مهمة اجتياز الحدود التشيكوسلوفاكية والانضمام الى المنتفضين . ان القوات ، وقد حطمت مقاومة الهتلريين الضارية ، استولت فى ظروف منطقة جبلية فائقة الصعوبة على ممر دوكلا ، وبهذا دشنت بداية تحرير تشيكوسلوفاكيا . قال كليمينت غوتفالد : «فى دوكلا ولد الشعار الذى دخل احاسيس شعبنا ووعيه : «مع الاتحاد السوفييتى الى الابد !» .

ان الهجوم البطولى للقوات السوفييتية وفيلق الجيش

التشيكوسلوفاكى تحت قيادة لودفيك سفوبودا قدم مساعدة كبرى للمنتفضين . فقد اضطرت القيادة الفاشية الالمانية الى ان تحشد فقط فى منطقة الجيش الثامن والثلاثين (القائد الجنرال موسكالينكو ، عضو المجلس العسكرى الجنرال ييبيشيف) للجبهة الاوكرانية الاولى ١٨ فرقة كان يمكن لولا هذا استخدامها لقمع الانتفاضة .

اغنت اعمال قوات كونيف فى عملية الكاربات – دوكلا الفن العسكرى السوفييتى بتجربة ثمينة لاعمال كل اصناف القوات فى الجبال . وصار مما لا جدال فيه انه لا بد للقوات من تدريب خاص فى الظروف الجبلية ، وانه ينبغى تزويدها بتجهيزات ومعدات قتالية خاصة .

كانت المرحلة الساطعة التالية فى نشاط مارشال الاتحاد السوفييتى كونيف مساهمته فى عملية فيستولا – اودير الواسعة النطاق بشكل خاص التى عملت فيها قوات الجبهة الاوكرانية الاولى كتفا لكتف مع قوى الجبهة البيلوروسية الاولى التى كان يقودها مارشال الاتحاد السوفييتى جوكوف .

كان تطويق وابادة تجمع كيلتسى – رادومسكو المعادى هدف التعاون بين الجبهتين القويتين .

فى مستهل كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٤ استدعى كونيف الى موسكو . وقد استقبله القائد الاعلى بحضور اعضاء لجنة الدولة للدفاع . وبقى عالقا فى ذاكرة المارشال كيف درس ستالين بدقة خطة العملية التى وضعتها اركان الجبهة . ونظر باهتمام خاص الى خريطة منطقة دومبروفا – سيليزيا الصناعية ذات التجمع الكبير لمختلف المؤسسات الصناعية . وحتى على الخريطة كانت مقاييسه وقدرته تبعث على الدهشة .

طوق القائد الاعلى هذه المنطقة على الخريطة وقال :

– ذهب .

هذا يعنى ان تحرير قلب بولندا الصناعى يجب ان يجرى على نحو خاص . ينبغى ، على اى حال ، اتخاذ كل الاجراءات لانقاذ المنطقة من التدمير . كانت الخطة تنص على مناورة التفافية ، فاقرتها القيادة العليا ، ولكن بعد كلمات ستالين ادرك القائد العام بدرجة اكبر كل المسؤولية عن صيانة ثروة الشعب البولندى هذه .

تعقدت المهمة بوضوح حينما قدم موعد العملية بطلب من الحلفاء الغربيين . واعيد الى الاذهان ان الجيش الالمانى فى ذلك الحين وجه فى الاردين ضربة قوية الى القوات الاميركية – الانكليزية ، وهى من حيث الجوهر آخر ضربة فى الحرب الماضية . وبالمناسبة ، فان الجيش الاحمر صد فى سنوات الحرب العشرات ، وربما المئات من مثل هذه الضربات .

واذ اعد قائد الجبهة هذه العملية الضخمة ، او ، بالاحرى ، هذه المجموعة الكاملة من العمليات ، قرر ان يكون عنده ترتيب عميق للقوات ، مع العلم ان النسقين الاول والثانى كانا متساويين من حيث التركيب لكى لا تضعف قوة الضربة مع التقدم فى عمق دفاع العدو . ودرس من كل الجوانب ادخال المجموعات المتحركة والاحتياطيات فى المعركة . وكان توزيع الجيوش متعدد الانساق كذلك . كل هذا كان يجب ان يضمن قوة اختراق صدامية فعلا . وحرص القائد ايضا على حشد القوى فى اتجاه الضربة الرئيسية . ودرس بامعان التجمع المعادى المجابه والتجهيزات الهندسية لمواقع العدو .

كان راس جسر الهجوم صغيرا ومعروفا للعدو مسبقا . فكان ينبغى على الاقل اخفاء موعد بدء ضرباتنا وقوام التجمعات الضاربة . وقد حرص قائد الجبهة والاركان باصرم ما يكون على ان يجرى حشد القوات على راس الجسر وكل التجمعات والاعمال الهندسية فى الليل فقط ومع التقيد الدقيق بالتمويه الشامل . وقرر تطبيق ابتكار آخر ، وهو عدم القيام بالمعركة الاستكشافية لاختبار دفاع العدو قبل الهجوم بيوم ، كما جرت العادة ، بل فى يوم الهجوم نفسه .

واعار كونيف العمل الحزبى – السياسى ايضا اقصى حد من الاهتمام . لقد كان على القوات ان تعمل خارج حدود الوطن ، فى اراضى بولندا ، حيث الايديولوجيا البرجوازية لا تزال قوية ، وحيث تعرض السكان على امتداد خمس سنوات لتاثير الدعاية الفاشية المكثف . كان على كل محارب هناك ان يظهر بكل سلوكه افضليات الاشتراكية على الراسمالية .

قبل الهجوم ، عشية ١٢ كانون الثانى (يناير) ليلا ، لم يخلد كونيف الى النوم . وفى الساعة الخامسة صباحا ، ولم يكن الفجر المتاخر قد بزغ بعد ، اعطى القائد اشارة الهجوم . بعد مناوشة بالمدفعية استمرت خمس عشرة دقيقة هاجمت الكتائب المتقدمة العدو

باندفاع وابادت فى اشتباكات حامية سريعة نقطه الدفاعية المسلحة . واستولت على الخندق الاول ، وفى بعض الاماكن على الخندق الثانى ايضا . ان المفارز المتقدمة للجبهة ، وقد ارغمت الهتلريين على ان يكشفوا نظام دفاعهم نهائيا ، تحصنت فى المناطق التى وصلتها . وفى العاشرة صباحا بدأ قصف مدفعى جبار . وكانت فعالية نيران القوى الرئيسية للجبهة عالية بصورة خارقة . وقد وقع فى الأسر آمر احد افواج فرقة المشاة ٣٠٤ ، فقال عند استجوابه : «لقد ادهشتنى معرفة الروس الدقيقة لموقع اركاننا ، ولمقرات القيادة ونقاط المراقبة عندنا . ان فوجى اصيب بالشلل تماما» .

انطلقت الى المعركة تشكيلات التجمع الاساسى تدعمها نار ساترة مزدوجة . ومع تحسن الطقس بدأ يعمل الطيران ايضا . وفى منتصف النهار ، حينما استولت وحدات المشاة على موقعين فى الشريط الرئيسى لدفاع العدو ، قرر زج جيشى الدبابات وثلاثة فيالق للدبابات فى المعركة .

قال كونيف :

– كانت تلك لوحة اخاذة حقا ، حينما انهال على العدو ما يربو على الفين من الدبابات والمدافع الذاتية الحركة . وقد سحق دفاعه تماما على قطاع طوله ٣٥ كيلومترا . وكانت وحدات المشاة والدبابات والمدفعية العاملة باتساق تصد بمهارة محاولات الضربات والهجمات المضادة .

لم تحتج قوات كونيف الا الى يومين لكى تخترق المنطقة التكتيكية للدفاع المعادى الى عمق ٢٥–٤٠ كيلومترا على شريط عرضه ٦٠ كيلومترا وتحطم احتياطيات العدو الموجودة فى منطقة الهجوم .

حل بنجاح اصعب جزء من المهمة ، وبدأ العدو بالانسحاب العام ، مع انه حاول فى بعض الاماكن الاحتفاظ بمواقع معينة ليقيد القوات السوفييتية .

ان نجاح قوات كونيف وهجوم الجبهة البيلوروسية الاولى الذى بدأ فى ١٤ كانون الثانى (يناير) خلقا تهديدا فعليا بتطويق كل التجمع الهتلرى العامل بين راسى الجسر فى بولافى وساندومير . وصار انسحاب العدو يشبه الفرار على نحو متزايد . ومنذ ١٦ كانون الثانى (يناير) اخذت قوات كونيف على امتداد الجبهة البالغ طولها ٢٥٠ كيلومترا تلاحق بسرعة العدو المتقهقر .

اتسم اليومان التاليان ، ١٧ و١٨ كانون الثانى (يناير) ، بنجاحات كبرى جديدة : ففى ١٧ منه حررت مدينتا رادومسكو وتشينستوخوفا ،وفى ١٨ منه ضمت قوات المارشالين جوكوف وكونيف الجناحين المتجاورين .

لعل القارئ لم ينس انها بدأت الهجوم من رأسى جسر على فيستولا (بالقرب من بولافى وساندومير) يفصلهما مئة كيلومتر ونيف . هكذا انتهت المرحلة الاولى من عملية فيستولا – اودير . عن هذا كتب الجنرال كورت تيبيلسكيرخ القائد السابق لجيش العدو الرابع للميدان فى مؤلفه «تاريخ الحرب العالمية الثانية» :

«كانت الضربة قوية بحيث لم تجتح فرق النسق الاول فحسب ، بل والاحتياطيات المتحركة القوية التى وضعت بأمر قاطع من هتلر على مقربة شديدة من الجبهة . وهذه الاخيرة منيت بخسائر منذ التمهيد المدفعى الذى قام به الروس ، وفيما بعد لم يتسن اجمالا نتيجة هجومهم العام استخدامها وفق الخطة . وكانت حالات التغلغل العميق فى الجبهة الالمانية كثيرة بحيث استحالت تصفيتها او حتى الحد منها . ومزق جيش الدبابات الرابع الى قطع ، ولم يعد هناك اى امكان لوقف هجوم القوات الروسية . وهذه الاخيرة ادخلت فى الفجوات التى انفتحت تشكيلاتها المدرعة التى بدأت تتحرك بقواها الرئيسية الى نهر نيدا ، وفى الوقت نفسه قام جناحها الشمالى بمناورة لتطويق كيلتسى» .

كان على قوات الجبهة الاوكرانية الاولى ان تحل فى المرحلة الثانية من عملية فيستولا – اودير مهمتها الرئيسية ، وهى الاستيلاء على منطقة دومبروفا – سيليزيا الصناعية . كان ينبغى فى البداية تحرير كراكوف ، النقطة الحساسة التى تسد الطريق الى سيليزيا من الشرق . لقد حصن العدو المدينة تحصينا شاملا واقام دفاعا جبارا على المشارف المؤدية اليها . واستطيع بتجربتى الخاصة ان احكم على مدى صعوبة مهمة كونيف . كان عليه ان «يفتح بوابة» سيليزيا من غير المساس بكراكوف ذات الجمال السحرى التى تعتبر من مقدسات الشعب البولندى . وكان القائد السوفييتى على مستوى هذه المهمة . ولا يسعنا سوى الاعجاب ببعد نظره وبالاعمال العنيفة لقواته . ان كونيف ، اذ انتزع كراكوف من يد العدو ، كانما رسم ، علاوة على

الامور الاخرى ، بروفة عامة لتحرير حوض دومبروفا – سيليزيا بأسره .

قرر كونيف تطويق كراكوف بسرعة خاطفة بحيث لا يبقى للعدو حينما يدرك الخطر بكل ابعاده وقت ليفعل شيئا غير محاولة الخروج من الطوق . فاندفع جيش الجنرال كوروفنيكوف التاسع والخمسون الى المشارف الشمالية للمدينة ، واخترق فيلق الجنرال بولوبوياروف الرابع للحرس الحواجز المعادية ووصل الى مؤخرة تجمع كراكوف مسددا اليه ضربة من الغرب ، وتحرك جيش الجنرال كوروتشكين الستون من الشرق . وحينما ادركت القيادة الهتلرية خطر عزل قوات حامية كراكوف تماما ، اعطت أمرا بالخروج الخاطف من المدينة نحو الجنوب ،الى الجبال ، عبر الشقوق التى تركها كونيف خصيصا لهذا . وهناك ، عند خروج الهتلريين من كراكوف وبعد ذلك بقليل شربوا حتى الثمالة جرعة الرصاص والحديد المخصصة لهم . لقد تم الاستيلاء بدون اى تدمير على العاصمة الاولى لبولندا ، اقدم واجمل مدنها التى تشكل كل بناية فيها قيمة تاريخية . لقد زرع الفاشيون الالغام ، طبعا ، حيثما استطاعوا ، ولكن الوقت لم يسعفهم لتفجيرها .

قاد كونيف الاعمال القتالية لقواته عند تحرير كراكوف كقائد محنك لاوركسترا تعمل باتساق .

عند انتهاء يوم ١٩ كانون الثانى (يناير) ، اليوم الذى سقطت فيه كراكوف ، كان كونيف غارقا فى تنظيم المعركة من اجل منطقة سيليزيا الصناعية . وحلل كونيف مرة اخرى مع سوكولوفسكى رئيس اركان الجبهة اهم معطيات المخابرات فتبين له ان مجموعة العدو المواجهة تضم ما بين ١٠ فرق و١٢ فرقة . وكانت المهمة ، كما صاغها كونيف ، مكونة من ثلاثة عناصر : تحطيم الهتلريين فى سيليزيا وتجنب وقوع خسائر كبيرة وصيانة قلب بولندا الصناعى من التدمير . ولاجل هذا كان ينبغى ان يقوم جيش الدبابات بالتفاف عميق حول منطقة دومبروفا – سيليزيا ، وان توجه جيوش القوات العامة ضربات اليها من الشمال والشرق والجنوب . وحول كونيف جيش ريبالكو المدرع الثالث من اتجاه فروتسلاف الى اتجاه سيليزيا ، اى بزاوية قائمة . وفى الوقت نفسه احاطت جيوش الجنرالات غوسيف وكوروفنيكوف وكوروتشكين تدعمها القوات

المتحركة بتجمع سيليزيا على شكل نصف دائرة . وكان هذا يبشر بتطويق الهتلريين فى سيليزيا تماما . ولكن كان يجب للاستيلاء على المنطقة الصناعية من غير ان تصاب باضرار ترك العدو يخرج من هذه المصيدة . وكان الخيار صعبا : اما انجاز المناورة التى بدات بداية حسنة وقطع كل طرق الانسحاب على العدو ثم ابادة تجمعه الذى يبلغ تعداده مئتى الف وفق متطلبات الفن العسكرى ، واما التخلى عن النهاية الكلاسيكية لعملية التطويق الجديدة مقابل انقاذ المعامل والمصانع والمناجم . . . لقد نشر كونيف جيش ريبالكو بشكل ابقى معه للعدو ممرا للخروج من التطويق . وفى الوقت نفسه حث اعمال جيوش القوات العامة ، مرغما العدو على الفرار الى الحقل .

فى ٢٩ كانون الثانى (يناير) طهرت منطقة دومبروفا – سيليزيا كلها من العدو .

منيت القوات الفاشية الالمانية بخسائر كبيرة منذ اليوم الذى حاولت فيه الابتعاد عن قواتنا ، ولكن الخسارة الرئيسية لحقت بها بعد الخروج الى الفلاة تحت الضربات المكثفة لدبابات ريبالكو وجيش الجنرال كوروتشكين الستين . بعد هذه الضربات لم يبق من تجمع العدو فى سيليزيا اكثر من ٢٥–٣٠ الف شخص يشكلون فلول الفرق المحطمة العديدة . وهذا يعنى ان التطويق تحقق ، ولكن خارج اراضى المنطقة الصناعية .

ان فريدريخ ميلينتين ، الجنرال السابق فى الجيش الالمانى ، اذ تحدث عن المعركة بين فيستولا واودير ، وصف على النحو التالى اعمال الجبهتين البيلوروسية الاولى والاوكرانية الاولى :«تطور الهجوم الروسى بقوة واندفاع لا نظير لهما . كان واضحا ان قيادتهم العليا تضلعت تماما من تكتيك تنظيم هجوم الجيوش الآلية الضخمة . انه ليستحيل وصف كل ما جرى بين فيستولا واودير فى الاشهر الاولى من عام ١٩٤٥ . ان اوربا لم تعرف شيئا من هذا القبيل منذ اضمحلال الامبراطورية الرومانية» .

قال كونيف :

– فى خلال ثلاثة وعشرين يوما من العمليات القتالية دحرت الجبهة الاوكرانية الاولى ، وفق حساباتنا ، ٢١ فرقة للمشاة و٥ فرق للدبابات و٢٧ لواء للمشاة و٩ الوية للمدفعية ومدافع الهاون ، وذلك دون الحديث عن العديد من مختلف المفارز الخاصة والكتائب .

وقد اسر ٤٣ الف شخص وابيد اكثر من ١٥٠ الف جندى وضابط . وكان بين الغنائم اكثر من ٥ آلاف مدفع ومدفع هاون ، واكثر من ٣٠٠ دبابة ، واكثر من ٢٠٠ طائرة . . . وتابع كونيف قائلا :

– لقد اصبحت كل هذه النجاحات ممكنة لان الجنود والضباط والجنرالات ابدوا فى خلال هذه العملية الطويلة ، المتوترة ، التى شملت مناطق شاسعة ، الكثير من الشجاعة والصمود وقوة التحمل والفن العسكرى الرفيع . كانت العملية حافلة بنماذج من البطولة والتضحية وعزم الناس على تادية واجبهم حتى النهاية دون اعتبار لاى شىء آخر . وكان كل هذا يستند الى اخلاص الافراد العميق لوطنهم الاشتراكى وايمانهم الذى لا يقل عمقا بالنصر النهائى على الفاشية ، النصر الذى اصبح دانى القطاف . . .

اسعد الحظ كونيف بالمساهمة فى معركة برلين الشهيرة ايضا . وهو يقول :

«فى ١ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٥ استدعيت مع مارشال الاتحاد السوفييتى جوكوف قائد الجبهة البيلوروسية الاولى الى القيادة العليا . وكانت عند القائد الاعلى معلومات مفادها ان الحلفاء الغربيين يستعدون كذلك للاستيلاء على برلين .

سأل ستالين :

– من سيستولى على برلين : نحن او الحلفاء ؟

اقتضى الظرف ان اكون البادئ بالاجابة عن هذا السؤال ، فقلت :

– سوف نستولى نحن على برلين ، وسنأخذها قبل الحلفاء» .

راق جواب كونيف لستالين ، فطلب تحديد الكيفية التى ينوى بها قائد الجبهة الاوكرانية الاولى تشكيل تجمع من القوات لتوجيه ضربة الى برلين . . . من المفهوم بداهة ان الاركان العامة والقيادة العليا نظرتا بامعان شديد فى الخطوط العريضة التى قدمتها اركان الجبهتين لحظة هذه العملية ، التى كانت اضخم عمليات الحرب الماضية . وبناء على شكل العملية الاخير ، كانت مهمة قوات الجبهة الاوكرانية الاولى تتلخص فى مساعدة قوات جوكوف على تحطيم تجمع العدو بضربة قوية جنوبى برلين والاستيلاء على العاصمة الالمانية . وكان على قوات كونيف فى الوقت نفسه ان تشق الجبهة الفاشية-الالمانية

وتنضم الى الاميركيين .

ولكن ما حدث هو ان جيوش كونيف لم تساعد فى الاستيلاء على برلين فحسب ، بل وساهمت مباشرة مع قوات جوكوف فى اقتحامها . ومن المميز انه عند مناقشة خطة العملية فى القيادة العليا وضع ستالين بنفسه خطا فاصلا بين الجبهتين ، ولكنه اوقفه عند المشارف البعيدة لبرلين ، فى منطقة مدينة لوبين . وهذا قد يعنى ، فى راى كونيف ، دعوة خفية الى المباراة بين الجبهتين . وكانت عنده ، بالطبع ، رغبة عارمة فى المساهمة فى الاستيلاء على برلين .

اعار كونيف ، كالعادة ، اهتماما كبيرا لاعداد الافراد المعنوى السياسى والنفسى للعملية . وقد نصح ، مثلا ، بالعمل مع المحاربين تحت شعار : «كلما حطمنا العدو بمزيد من المهارة والاندفاع انتهت الحرب بصورة اسرع واقترب أوان عودتنا الى الوطن !» .

فى المناطق الوسطى من المانيا كان يعانى اكثر من الجميع السوفييتيون الذين سيقوا عنوة والاسرى . وكان العمل بحزم وجراة يعنى انقاذ اكبر عدد من المواطنين من الاسر الفاشى .

حرص قائد الجبهة ايضا على نشر تجربة المعارك فى ظروف المدينة الكبيرة بما فى ذلك تعليم كل المقاتلين الاستيلاء على قاذفات الفاوستبترونات الالمانية واستعمال هذا السلاح ضد العدو باستخدام الاحتياطيات من الغنائم .

مع بدء الهجوم تطورت الاحداث فى منطقة الجبهة الاوكرانية الاولى بديناميكية شديدة . فبانتهاء اليوم الثانى من العملية كانت قوات المارشال كونيف قد انجزت اختراق الخط الممتد بموازاة نهر نيسى وعبرت شبرى وضمنت الظروف لتطويق برلين من الجنوب . واذ اخذت القيادة العليا فى الاعتبار ان قوات الجبهة البيلوروسية الاولى توقفت فى مرتفعات زيلوف ، قررت القيام بمناورة لتطويق تجمع العدو فى برلين بتوجيه ضربة من جيشى الدبابات للجبهة الاوكرانية الاولى الى برلين من الجنوب . ولم يخف كونيف سروره لدى الحديث عن هذا . وهل ثمة ضرورة للقول انه استخدم فنه كله واستفاد من تجربته الغزيرة لينفذ هذه المهمة .

ان قوات كونيف (جيشى الدبابات الثالث والرابع) اذ احاطت على نحو صاعق بتجمع فرانكفورت – غوبين للعدو ، تقدمت فى غضون

يومين فقط (١٩ و٢٠ نيسان/ابريل) قرابة مئة كيلومتر ووصلت الى مشارف برلين من الجنوب .

فى تلك الايام جرى حديث ممتع جدا بين كونيف وستالين . فحينما انهى كونيف احد تقاريره عن الاعمال الناجحة جدا للجبهة ، قال القائد الاعلى :

– ولكن الأمور ما زالت تسير بصعوبة عند جوكوف . الا يمكن نقل القوات المتحركة للجبهة البيلوروسية الاولى وتوجيهها الى برلين عبر الثغرة التى حدثت على قطاع جبهتكم ؟

اجاب كونيف ان هذا النقل سيأخذ وقتا طويلا ، وقد يؤدى الى بلبلة فى ادارة القوات ، واختتم حديثه قائلا :

– الاحداث عندنا تتطور بصورة مؤاتية ، وقوانا كافية ، ونستطيع تحويل جيشينا المدرعين الى برلين . . .

وحدد الاتجاه الذى سوف يتحول اليه جيشا الدبابات ، وذكر كنقطة مميزة تسوسين ، البلدة التى تقع على بعد ٢٥ كيلومترا الى الجنوب من برلين ، وفيها مقر الاركان العامة الالمانية .

اجاب ستالين بعد صمت قصير :

– حسنا جدا .

ان تنفيذ القرار الذى اقترحه كونيف قد عجل ، ولا شك ، فى سقوط برلين ، لانه أدى الى تطويق كل تجمع العدو الذى كان يدافع عن برلين .

بعد هذا الحديث مع القائد الاعلى اتخذ كونيف الاجراءات لتقوية جيشى الدبابات لتكتسب ضرباتهما قوة اقتحامية حقيقية . فقد امدّ مثلا جيش الجنرال ريبالكو المدرع الثالث بفيلق مدفعية وبفرقة اختراق مدفعية وبفرقة مدفعية مضادة للطائرات وبفيلق طائرات مقاتلة .

فى ٢٢ نيسان (ابريل) ما كاد ينبلج الفجر حتى اقتحم جيش الدبابات الثالث دائرة الدفاع الخارجية لمنطقة برلين وفى آخر النهار خاض معارك على التخم الجنوبى لعاصمة المانيا . (فى عشية هذا اليوم وصلت قوات المارشال جوكوف الى التخم الشمالى الشرقى .) اما جيش الجنرال ليلوشينكو للدبابات ، الذى تلقى امدادات ايضا ، فاخترق فى تلك اللحظة دائرة الدفاع الخارجية الى الجنوب من ذلك بعض الشىء واستولى على موقع مؤات للانضمام الى قوات الجبهة

البيلوروسية الاولى . وهذا ما مكن من اغلاق حلقة التطويق حول تجمع برلين للعدو .

تحركت جيوش القوات البرية بسرعة الى الغرب . واضطرت قيادة الجيش الالمانى الى ان توجه ضد قوات كونيف الجيش الثانى عشر الذى كان يعمل سابقا ضد الحلفاء الغربيين . لكن كونيف أمر قائد جيش الدبابات الرابع بان يحول احد فيالق الدبابات لكى يتحرك مع جيوش بوخوف وجادوف الى منطقة بيليتس – تسانا بعد اغلاق الطريق الى برلين من الغرب فى وجه الاحتياطيات المعادية . وفى غضون ذلك حرر جنود دبابات ليلوشينكو من العبودية الفاشية ١٦٠٠ اسير من الانكليز والاميركيين والنروجيين ومن بينهم الجنرال ريوغى القائد السابق للجيش النروجى . وبالمناسبة ، حرر محاربو كونيف بعد عدة ايام ادوارد اريو رئيس وزراء فرنسا السابق من معسكر للاعتقال فى ضواحى برلين .

ان القيادة الهتلرية ، التى خافت حتى الموت من نجاح هجوم الجبهة الاوكرانية الاولى على برلين ، شنت فى ١٨ نيسان (ابريل) هجوما مضادا من منطقة غورليتس . وحاول العدو ، وقد اوجد فى هذا الاتجاه تفوقا كبيرا فى القوى ، الوصول الى مؤخرة تجمع الجبهة الضارب . وفى ١٩–٢٣ نيسان (ابريل) نشبت هناك معارك ضارية . وتسنى للعدو التغلغل فى مواقع القوات السوفييتية ، ومن ثم البولندية الى عمق ٢٠ كيلومترا . ورد كونيف على هذا فورا ، فقد ارسل لمساعدة القوات التى وقعت فى مأزق خطر جزءا من قوى الجيش الخامس وفيلق الدبابات الرابع واربعة فيالق جوية . وصد العدو بعد ان الحقت به خسارة كبيرة .

كان كونيف على صلة دائمة بجوكوف . وفى يوم ٢٢ نيسان (ابريل) الغنى بالاحداث استنتجا فى مكالمة تلفونية انه توفرت كل الظروف لانجاز تطويق تجمع العدو فى برلين وشقه . وقررا ان ينجزا حتى نهاية ٢٤ نيسان (ابريل) تطويق القوى الاساسية للجيش التاسع وعدم السماح بانسحابه الى برلين او الى الغرب . وقرارهما المنسق هذا كان يتطابق تماما مع مطالب القيادة العليا .

بسبب وصول قوات الجبهة الاوكرانية الاولى الى التخوم الجنوبية لبرلين حددت لها القيادة العليا عشية ٢٣ نيسان (ابريل) ليلا خطا فاصلا جديدا مع الجبهة البيلوروسية الاولى : من لوبين الى الاتجاه

الشمالى الغربى حتى محطة آنهالت فى برلين ، وهذا يعنى ان كونيف قواته حلوا على قدم المساواة تقريبا مع الجبهة البيلوروسية الاولى مهمة الاساسية لتحطيم العدو فى عقر داره ، برلين .

وفى الوقت نفسه قرر هتلر بناء على نصيحة من جنرالاته سحب قوات من الجبهة الغربية وزجها فى المعركة من اجل برلين . وامر جيش الجنرال فينك الثانى عشر ، الذى كان يقوم بالدفاع على ضفة لب ، ان يحول جبهته الى الشرق ويتحرك نحو بوتسدام وبرلين لالتحاق بالجيش التاسع . وفى الوقت نفسه كان على مجموعة جيوش نرال الاس اس شتينير ان توجه ضربة الى جانب تجمع القوات سوفييتية الذى التف على العاصمة الالمانية من الشمال والشمال شرقى .

كانت الزعامة الفاشية تعقد على جيش فينك أملها الخادع الاخير تأجيل سقوط برلين . وليس من قبيل المصادفة ان يرسل الى ركان هذا الجيش لتنظيم هجومه الفيلدمارشال كيتيل ، كبير ستشارى هتلر للمسائل الستراتيجية . كانت القيادة الفاشية تعول هجوم هذا الجيش من الغرب ومجموعة جيوش شتينير من الشمال ى عدم السماح بتطويق كامل للمدينة . وفى ٢٤ نيسان (ابريل) خذ جيش الدبابات الرابع والجيش الثالث عشر ، اللذان كانا يقومان لدفاع على خط بليتس ، تروينبريتسين ، يشعران بالضغط شديد لجيش فينك .

فى تلك الايام اتخذت الاعمال القتالية طابعا فى غاية الضراوة . لكن نيات القيادة الفاشية احبطت . وفى ٢٤ نيسان (ابريل) انضمت وات الجبهة البيلوروسية الاولى جنوب شرق برلين الى جيوش جبهة الاوكرانية الاولى . ونتيجة لالتحام قوات الجبهتين الى الغرب من رلين ايضا اصبح كل التجمع المعادى فى طوق حديدى . وطوق محاربون السوفييت فى وقت واحد تقريبا كلا من تجمع فرانكفورت – ربين للعدو ، وتجمع برلين . والتقت قوات كونيف فى منظمة تورغاو لائع الجيش الاميركى الاول . وهكذا اصبحت الجبهة الفاشية ـ لمانية فى ٢٥ نيسان (ابريل) مقسومة الى جزئين .

كان كونيف يتذكر جيدا كل تقلبات الصراع على العاصمة لمانية ، ولكنه كان يقول عادة :

– يستحيل التحدث عن كل شىء . اذ لم نكن ، مثلا ، نهجم

ط ، بل كنا ندافع ايضا . ومن الامور الجوهرية ان قوات الجبهة
مدت فى منطقة باوتسين ، حيث حاول الفاشيون حتى ٣٠ نيسان
بريل) الوصول الى مؤخرة تجمعنا الضارب . ونتيجة للمعارك
ضارية الى اقصى حد قرب باوتسين لم تصد قوات الجبهة محاولة
جيش الالمانى الاخيرة للهجوم فحسب ، بل استولت ايضا على
رؤوس جسور على الالب قرب مايسن وريزا أدت لنا خدمة لا تقدر
من لدى تنظيم الغارة العميقة على براغ .

وتابع كونيف قائلا :

– ومهما كان الامر ، فاننى ما لبثت ان وقعت تقريرا الى
قيادة العليا اتذكرها غيبا واكررها دائما بروح من الاعتزاز بجنودنا
سوفييتى : «فى ٢ ايار (مايو) عام ١٩٤٥ استولت قوات الجبهة تماما
عد تسعة ايام من معارك الشوارع على المناطق الجنوبية الغربية
الوسطى من مدينة برلين (فى اطار الخط الفاصل المعين للجبهة)
استولت على مدينة برلين بالاشتراك مع قوات الجبهة البيلوروسية
لاولى» .

كان كونيف يتذكر عادة محادثة تلفونية مع ستالين فى الايام
لاخيرة من معركة برلين .

سأله القائد الاعلى :

– من سيستولى على براغ فى رأيك ؟

واذ راى كونيف ان قوات جبهته اصبحت بعد الوصول الى مايسن
وريزا تطل على المناطق الشمالية من تشيكوسلوفاكيا ، ولن تلبث
ن تفرغ من القتال ، لان النهاية تقترب فى برلين ، اجاب ان قواته
ستحرر براغ كما يبدو .

قال ستالين بارتياح :

– انك تقدر الموقف جيدا ، ونحن فى القيادة العليا نفكر هكذا
يضا . اعد خطة العملية .

كان المارشال يتحدث دائما عن عملية براغ بتأثر . وقد قال
ى ايام الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لانتصارنا العظيم :

– بعد تحطيم تجمع برلين الستراتيجى انهارت الدولة الفاشية
عليا . بيد ان هتلر بذل فى وصيته السياسية محاولة لانقاذ النظام
لفاشى ، فعين حكومة جديدة لالمانيا برئاسة الاميرال دونيتس . وعين
لجنرال – فيلدمارشال شورنير ، الذى كان يشغل فى ذلك الحين

صب قائد مجموعة جيوش «الوسط» الفاشية الالمانية ، قائدا عاما
قوات البرية فى المانيا . وكانت كل هذه القوى موجودة فى
شيكوسلوفاكيا بصورة رئيسية . وكان لهذا التعيين مسوغاته ،
بما كان شورنير فى تلك الايام الشخص الاكثر واقعية والذى
تمتع بالسلطة ، ويملك ، وهذا هو الأمر الرئيسى ، قوات . وهى
وات لا يستهان بها .

وهكذا ، فان عملية براغ لم تكن تحمل ابدا طابعا رمزيا ، كما
حاولون احيانا تصويرها فى الغرب . كان على الابواب صراع جدى
د تجمع كبير لقوى المانيا المسلحة التى راهنت عليها «حكومة»
ونيتس ، معولة على ان يوفر انقاذها امكان اطالة امد وجود الدولة
لمانية النازية ولو لبعض الوقت .

فى الايام الاولى من ايار (مايو) جرت انتفاضة فى الاراضى
تشيكية . وقد احتدمت فى براغ بقوة خاصة . وبدا الحاكم الفاشى
انك محادثات مع المنتفضين سعيا منه الى كسب الوقت . وفى
وقت نفسه وجه شورنير الى قواته هذا الأمر : «يجب قمع
نتفاضة فى براغ فورا وبكل الوسائل» . وتحركت القوات الالمانية
العاصمة التشيكوسلوفاكية من ثلاث جهات . وكان على منتفضى
راغ خوض صراع شاق . وكانت براغ فى حاجة الى مساعدة حاسمة
ورية .

اعتقد انه ما كان فى وسع احد تقديم هذه المساعدة افضل من
نيف لا لان قواته كانت تطل على تشيكوسلوفاكيا فحسب ، بل
نه اكتسب خبرة لدى تقديم المساعدة الى الانتفاضة الوطنية
سلوفاكية .

خصصت ايام معدودة لكل العملية ، ولا سيما ان مجلس الجبهة
سكرى الذى يترأسه كونيف استطاع ان يمهد لها من الناحية
عنوية-السياسية . فقد شرح للجنود والضباط مغزى الرسالة
اريخية للجيش الاحمر . وكان من الضرورى عدم السماح باى تدخل
شؤون تشيكوسلوفاكيا الداخلية . وطالب أمر المجلس العسكرى
يقظة العالية والنضال بلا هوادة ضد عملاء العدو ومن بينهم
لاسوفيون . واعلم الافراد بالانتفاضة المسلحة فى براغ وبان
نتفضين توجهوا الى القيادة السوفييتية بطلب المساعدة . كل هذا

شدد من اندفاع محاربينا الهجومى وسعيهم الى مساعدة الاشقاء التشيك والسلوفاك بمزيد من السرعة .

نعم ، لقد انجز اعداد العملية بسرعة خاطفة فعلا . وفى خلال ثلاثة ايام ونصف قام جيشا الدبابات وتشكيلات القوات العامة بمسيرة طولها ١٠٠ و٢٠٠ كيلومتر من قرب برلين الى منطقة الانطلاق شمال غربى درسدن . وفى خلال هذه الايام الثلاثة والنصف وضع كونيف واركانه خطة لمسيرة-مناورة دينامية وجريئة بصورة خارقة : كان على جيشى ريبالكو وليلوشينكو للدبابات ، اذ ينطلقان من راسى جسر وراء نهر الالب ، ان يلحقا هناك بقوات شورنير ويجتاحا فصائلها الخلفية ويستوليا على المعابر ، ومن ثم يصلا الى مؤخرة القوى الاساسية لمجموعة جيوش «الوسط» ويندفعا الى براغ من الجهتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية ، فيحميا المنتفضين من خطر تنكيل الجلادين ، والمدينة نفسها من مصير وارسو التراجيدى . وكالعادة سارت خلف الدبابات جيوش المشاة .

ان كونيف ، اذ تحدث عن كل هذا ، قام بايماءة من نوع خاص . وكانما امتدت يدان اخويتان جبارتان الى المدينة السلافية العريقة لتحميها فى كفين يطفحان بالحنان .

اما كون هذه المهمة الفائقة الصعوبة قد حلت على نحو رائع فامر يعرفه الآن كل تلميذ سواء فى بلادنا او فى تشيكوسلوفاكيا : فعند شروق التاسع من ايار (مايو) عام ١٩٤٥ ، فى يوم النصر ، دخلت قوات الجبهة الاوكرانية الاولى عاصمة تشيكوسلوفاكيا . واحبطت نية شورنير السوداء ، وانقذت براغ الذهبية من الدمار ، وسكانها من الابادة الشاملة * .

قلد كونيف لقاء العمليات الختامية فى الحرب ميدالية «النجمة الذهبية» للمرة الثانية ووسام «النصر» .

وهكذا ، فان النشاط القيادى لمارشال الاتحاد السوفييتى كونيف فى سنوات الحرب الوطنية العظمى تجلى فى اهم الاتجاهات

* ان المؤلف اذ يتحدث بالتفصيل عن اعمال قوات كونيف من حيث كونها موضوع هذا العرض ، لا ينوى بحال من الاحوال الاقلال من شان القسط الكبير الذى ادته قوات الجبهتين الاوكرانيتين الثانية والرابعة فى عملية براغ .

ستراتيجية : اتجاه سمولينسك – موسكو عامى ١٩٤١ – ١٩٤٢ ، الاتجاهين الجنوبى الغربى والغربى اعوام ١٩٤٣–١٩٤٥ . وكان يف فى كل مكان يقود الاعمال القتالية لتجمعات ضخمة من القوات وفييتية . ويكفى القول ان الجبهة الاوكرانية الاولى التى قادها ستمرار منذ ايار (مايو) عام ١٩٤٤ كانت من اقوى الجبهات فى رب الماضية . والخاصية المميزة لتجمعات الجبهتين التى قادها رشال كونيف (ونعنى الجبهتين الاوكرانيتين الاولى والثانية) انها ت تضم عادة جيشين او ثلاثة للدبابات وعدة فيالق للدبابات اليات والفرسان . واذ ادرك القائد بشكل صحيح دور القوات حركة ، كان عليه ان يستخدم بمهارة امكاناتها فى المناورة وقوتها ارية الكبيرة . وتشير وقائع تاريخ الحرب الوطنية العظمى بما يقبل الشك الى ان كونيف قد استخدم خصائص القوات المدرعة بمهارة وابتكار .

فى اغلبية العمليات الهجومية التى نفذت تحت قيادة كونيف ، لم يخدم المبادئ الاساسية للفن العسكرى السوفييتى بمهارة ب ، بل باصالة وتجديد ايضا . ويبعث على الدهشة الحساب امل للموقف الملموس وفن تحديد اضعف اماكن العدو واختيار ى الاتجاهات للضربات الرئيسية ومعرفة اسباغ قدرة اختراقية امية فعلا على هذه الضربات وتطوير النجاح بسرعة فى العمق وانب . وذلك دون الحديث عن ان كونيف كان استاذا معترفا به تنظيم التعاون بين مختلف اصناف القوات .

ان الفن العسكرى السوفييتى ، اذ يقترح على القائد مجموعة من ادئ الاساسية الضرورية لاحراز النصر على العدو ، لا يقيده فى ت نفسه ، بل يمكنه من اظهار اسلوبه القيادى الفردى بكل ده . وهذه الخاصية الرائعة للفن العسكرى السوفييتى تتجلى ا لدى النظر الى نشاط كونيف كقائد حربى . لم يكن يتمتع سية وزن اعقد المواقف وتحليلها بشكل صحيح فحسب ، بل يتمتع ايضا ، الأمر الذى ينطوى على اهمية كبيرة ، بخاصية لغل فى سيكولوجيا العدو والتنبؤ برده مسبقا . وكانت بصيرته دية تمكنه من ايجاد الحلول الصحيحة فى الحالات المعقدة ية .

ابدى كونيف فى كل عملياته تقريبا تناولا خاصا لمسائل

الاستخدام القتالى لحشود الدبابات . وكان يسعى ، كقاعدة عامة ، الى ادخال الدبابات فى اطار المنطقة التكتيكية لدفاع العدو . هذا ما جرى فى عمليات لفوف – ساندومير وفيستولا – اودير وبرلين وغيرها . وغالبا جدا ما كانت جيوشه المدرعة تدخل قوة رئيسية فى المعركة حتى فى اطار المنطقة الرئيسية لدفاع العدو ، كما جرى فى العمليتين فى جزء اوكرانيا الواقع على ضفة الدنيبر اليمنى فى شتاء وربيع عام ١٩٤٤ .

لم يكن كونيف يحسن الكشف عن نيات العدو فحسب ، بل كان يحسن ايضا اخفاء نياته عنه . وكان يطبق بمهارة كل وسائل تضليل العدو . ففى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٥ ، مثلا ، نفذت بقرار منه لدى الاستعداد للهجوم من رأس الجسر فى ساندومير اجراءات كبرى ضللت العدو تماما بفضل مقاييسها وتتابعها ومنطقيتها . وقد استخف العدو بتعداد تجمعنا وتجهيزاته ، واخطأ فى تعيين لحظة انتقال قواتنا الى الهجوم ، ولم يستطع – وهو الاهم – التنبؤ باتجاه الضربة الرئيسية .

وكان كونيف يتسم كذلك بمعرفة الاعتماد على الاركان ، وعلى قادة ورؤساء اصناف القوات . وكان يراعى دوما الاقتراحات العملية من قادة التشكيلات والوحدات الخاضعين له .

وكان المارشال كونيف يعتبر العمل الحزبى-السياسى داخل القوات هاما جدا لنجاح العمليات . وكان يضع دوما مسائل العمل الفكرى-التثقيفى فى مركز اهتمامه ويساعد الهيئات والعاملين السياسيين من كل الدرجات على تنظيم تثقيف المحاربين بروح الاخلاص للوطن الاشتراكى بلا حدود .

كان اقرب مرؤوسى كونيف المباشرين يشعرون باهتمامه ، الأمر الذى اعرفه بتجربتى الخاصة .

بعد الحرب شغل مارشال الاتحاد السوفييتى ايفان كونيف عددا من المناصب الكبرى فى القوات المسلحة السوفييتية : القائد العام للمجموعة الوسطى للقوات السوفييتية (فى النمسا) والمفوض الاعلى لشؤون النمسا ، القائد العام للقوات البرية ، المراقب العام للجيش السوفييتى ، قائد قوات منطقة الكاربات العسكرية ، النائب الاول

زير الدفاع . وكان فى اعوام ١٩٥٥–١٩٦٠ القائد العام للقوات سلحة الموحدة لبلدان معاهدة وارسو .

كان كونيف يسعى باندفاع الى مشاطرة الجيل الناشىء تجربته تالية والحياتية الفائقة الغنى . وخط قلمه الكثير من المؤلفات . شغل حيزا اساسيا بينها كتاب «مذكرات قائد جبهة» و«العام » . وقد القى فيهما الاضواء على الكثير من مسائل الفن العسكرى سوفييتى . وهذان الكتابان يبعثان على التفكير الجدى والمجدى ، يساعدان على الاستيعاب الخلاق لدروس الماضى . وهما الى جانب ك فى متناول ادراك اوسع دائرة من القراء .

قدر الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية عاليا مآثر كونيف ربية الكبيرة . فقد منح لقب بطل الاتحاد السوفييتى مرتين ، وقلد سام النصر ، اعلى وسام عسكرى ، والكثير من اوسمة وميداليات تحاد السوفييتى الاخرى ، ومنح كذلك لقبى بطل تشيكوسلوفاكيا نغوليا .

على الرغم من مشاغل كونيف الكبيرة فى الخدمة ، ساهم انشط ساهمة فى الحياة الحزبية والاجتماعية فى البلاد . ان الشعب السوفييتى يحتفظ الى الابد بذكرى هذا القائد البارز للقوات المسلحة فى تحاد السوفييتى .

دميترى كاربيشيف



فى ١٠ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٩ ، وكنت مدرسا فى اكاديمية الاركان العامة ، قبلت فى اجتماع حزبى مفتوح مرشحا لعضوية حزبنا اللينينى . كان تصويت زملائى المتوائم وتصفيق مستمعى الاكاديمية ايذانا بانى قبلت بالاجماع . خف اضطرابى بعض الشىء ، وسمعت صوت رئيس الاجتماع :

– ننظر الآن فى طلب الرفيق كاربيشيف .

تكلم فى الاجتماع الشيوعيون سوخوملين ورودا كوف وليوشينيا الذين قدموا توصية بقبول كاربيشيف . وحينما اعطيت كاربيشيف الكلمة ، قال :

– انه زمن صعب . وسيكون اصعب . وبودى ، اذ اخطو العتبة العالية ، ان اعيش هذا الزمن الرهيب مع الحزب وان اموت ، اذا اقتضى الأمر ، من اجل الحزب وانا فى صفوفه .

وواقع اننا قبلنا فى صفوف الحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى فى وقت واحد زاد من تقاربنا ، انا وكاربيشيف ، على الرغم من الفارق فى السن .

لقد تعرفت بكاربيشيف منذ عام ١٩٣٠ ، حينما كنت ادرس فى دورات تطوير الملاك القيادى الاعلى لدى الاركان الرئيسية للجيش الاحمر . وهناك برز بشكل خاص مدرسان : فلاديمير تريانداڤيلوف ودميترى كاربيشيف . كان تريانداڤيلوف رئيس ادارة العمليات فى الجيش الاحمر العمالى الفلاحى ، الذى قاد دوراتنا ، مرجعا كبيرا فى مجال الفكر التكتيكى ، اما كاربيشيف فكان ربا حقيقيا للتحصين الميدانى . ولم يكن يتمتع بتجربة كبرى فى اعداد القوات الهندسى فحسب بل كان يتمتع ايضا بتبحر فى كل مسائل الفن العسكرى .

غالبا ما يحدث ان يبدو المعلم لتلميذه اول الأمر شيئا لا يطال بمعارفه ، ولكن التلميذ يلاحظ مع الزمن وكانما يبقى معلمه فى مكانه فتتساوى معارفهما على الاقل . اما بالنسبة الى كاربيشيف فقد بقى عندى شعورى الاول كتلميذ الى نهاية خدمتنا المشتركة الطويلة نسبيا حتى فى الفترة التى عملنا فيها مدرسين فى كرسى واحد لاكاديمية الاركان العامة . كان عنده دائما ما نتعلمه نحن المستمعين والمدرسين الشباب . ولم يتوقف عن الارتقاء الى ذرى المعارف .

درست من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٤ فى اكاديمية فرونزه العسكرية . ولعل ، كاربيشيف ، الذى قاد كرسى سلاح الهندسة ، كان اكثر مدرسينا شعبية . كان يلقى المحاضرات بمعرفة ، وببساطة ووضوح بحيث ان الدراسة المستقلة لمادته لم تكن تسبب اية صعوبات للمستمعين . كانت محاضراته تعرض على نطاق واسع مواد عن احدث منجزات سلاح الهندسة فى جيشنا والجيوش الاجنبية وامثلة تاريخية مختلفة ووثائق اصلية من الحروب الماضية . وكان المستمعون يحبون جدا الدروس الاضافية لكاربيشيف التى كانوا يتلقون فى خلالها كل المعطيات للتوصل الى حل صحيح لهذه المسالة او تلك . ولم يكن كاربيشيف «يروض» المستمعين ابدا ، بل كان يسعى الى ان يطور استقلالية التفكير عندنا ويحمينا من القوالب والصيغ الجامدة . وكان يرى مهمته الرئيسية فى ان نستوعب بصورة راسخة ونطبق بشكل سديد مبادئ الحسابات الهندسية .

لم يسمع احد من كاربيشيف فى اية مرة ، وما كان فى وسعه ان يسمع ، ان وقت الدرس الاضافى قد انتهى . كان يبدو انه مستعد للجلوس مع المستمعين حتى الصباح . وحينما كانت ذخيرتنا من

اسئلة تنضب ، كان كاربيشيف يعلن ان من الممكن العثور عليه
ا ظهرت اسئلة جديدة . كانت شقة كاربيشيف على مقربة من
كاديمية ، وكان يدعو دوما الى بيته اذا اقتضت الضرورة .

وبقى كاربيشيف هكذا فى اكاديمية الاركان العامة ايضا ، حيث
لمت ومن ثم قمت بالتدريس فى كرسيى تكتيك التشكيلات العليا
ن العمليات . ولم يكن من النادر ان نعد معا المهمات التكتيكية .
ن العمل المشترك مع كاربيشيف يبعث على الارتياح دوما . وكان
المهمات الشاملة يعد ، كقاعدة عامة ، كل مسائل التغطية
هندسية للمعركة او العملية . وكان الاختصاصيون الآخرون – ممثلو
سناف القوات والاسلحة – ينتظرون عادة ما يطلبه منهم المسؤول
ن الموضوع . اما كاربيشيف فلم يكن يقترح خطة وافية لتنفيذ
مهمة الهندسية فحسب ، بل وكان يحاول ان يساعد بكل السبل
مسؤول عن الموضوع بتجربته الفائقة الغنى .

وهكذا ، فقد اقترح عليّ يوما ، انا المربى المبتدئ ، ان اعد
مة لهجوم فيلق فرسان معزز . وكان كاربيشيف احد الاختصاصيين
ذين يجب ان يساعدونى .

قررت ان اتمعن اول الأمر فى كل المسائل جيدا ، ثم استشير
رفاق . بيد ان كاربيشيف عثر عليّ وقال انه اطلع على الموضوع
يستطيع ان يعرض تصوراته . ارتبكت بعض الشىء : استاذ
شهور يحمل رتبة آمر فرقة يأتى اليّ ، الى زميله الشاب ، العقيد .
همنى كاربيشيف ، فقال بلباقة :

– لا يهم من كان ينبغى ان يأتى الى الآخر اولا ، فلن يسبب
ذا الا الضرر لمهمتنا .

اطلع على خطتى من كل الجوانب وسأل اذا كانت عندى تمنيات
خاصة ، ثم استمع الى تصوراتى الاضافية ، وبعد تفكير قصير
عرض بايجاز ووضوح فكرة الجزء الهندسى من المهمة . اتفقنا على
وعد انجاز المادة وافترقنا بود . ان كاربيشيف ، وقد قدم مادته قبل
الموعد المحدد ، لم يتركنى وشأنى ، بل كان كل الوقت يهتم بكيفية
سيرة اعداد المسائل الباقية للمهمة وما اذا كنت فى حاجة الى
مساعدته . هذا الموقف من العمل كان ملازما له على الدوام .

فى الاجتماع الحزبى المشهود بالنسبة اليّ ، والذى تحدثت عنه
فى البداية ، اطلعت لاول مرة على مسيرة حياة البطل المقبل للحرب

الوطنية العظمى . وحينذاك تحدث الكثير من زملاء كاربيشيف عن
بعض الوقائع التى حفل بها طريقه فى الكفاح والحياة .

ولد دميترى ميخايلوفيتش كاربيشيف فى ٢٦ تشرين الاول
(اكتوبر) عام ١٨٨٠ فى مدينة اومسك . كان دميترى اصغر افراد
الاسرة المتعددة الاولاد (ثلاثة ابناء وابنتان) . وكان البوليس يراقب
اسرة كاربيشيف ، لان الابن الاكبر فلاديمير تعرض لتنكيل قاس
بسبب مساهمته النشيطة فى حركة الطلاب الثورية وامضى قرابة
السنة فى سجن انفرادى ، ثم نفى الى بلدة زايسان النائية فى ذلك
الحين ، والتى تقع فى مجاهل السهوب الكازاخية .

وحققت الشرطة ايضا مع صوفيا ، شقيقة دميترى الكبرى . ان
الاضطرابات المرتبطة بالملاحقات البوليسية للاولاد قوضت صحة
الاب ، فتوفى ولم يكن دميترى قد بلغ الثانية عشرة من العمر . وفى
احرج الظروف استطاعت الام على اى حال توفير التعلم لكل الاولاد .
وقد توفيت امه فى عام ١٩٠٥ .

فى غضون سبع سنوات ، من عام ١٨٩١ الى عام ١٨٩٨ ، كان
دميترى طالبا فى المدرسة الحربية . وقد درس على نحو ممتاز ، وبعد
المدرسة مباشرة قبل فى المدرسة الهندسية العسكرية فى بطرسبورغ .
وانهى كاربيشيف هذه المدرسة بعد سنتين فى عداد الاوائل .
وحينذاك تلقى لاول مرة شعار الهندسة العسكرية – فأسين
متصالبين – كشارة تمييز ، ولم يفارقه عمليا فى كل حياته الواعية .

ارسل الملازم الحديث العهد من بطرسبورغ الى الشرق الاقصى ،
حيث منطقة آمور العسكرية التى يقع مركزها فى خاباروفسك . وفى
تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٠٠ عين الضابط الشاب رئيسا
لقسم الكابلات لسرية التلغراف فى كتيبة شرق سيبيريا المرابطة فى
سلافيانكا قرب فلاديفوستوك . وما لبث قسم الكابلات ان اصبح
افضل مفرزة فى الكتيبة ونفذ وظائفه على نحو ممتاز ، حيث حافظ على
الاتصال واقام خطوطا جديدة فى ظروف المنطقة الصعبة للغاية .
وبفضل هذا حصل كاربيشيف قبل الأوان ، فى عام ١٩٠٣ ، على
رتبة ملازم اول .

ان رحلتى كاربيشيف الى الصين واليابان ، حيث زار موكدين
(شانيانغ) ولياويان وناغازاكى ، وسعتا كثيرا من مدارك الضابط

المحب للاطلاع والسريع التأثر . واضطلع هذا بدور هام بالنسبة اليه ، المساهم فى الحرب التى ما لبثت اليابان ان شنتها ضد روسيا .

كانت وحدات منطقة آمور العسكرية اول من تلقى ضربة اليابانيين المفاجئة .

وارسلت كتيبة الهندسة ، التى كان يخدم فيها كاربيشيف ، الى منطقة موكدين فى منشوريا . ومع بدء العمليات العسكرية ، تلقى كاربيشيف قيادة سرية التلغراف .

كان يبدو انه من الصعب العمل بنجاح فى ظروف هذه الحرب الفاشلة بالنسبة الى روسيا من بدايتها الى نهايتها تقريبا ، الا ان كاربيشيف استطاع ان يظهر صفاته الانسانية والعسكرية الرائعة بكل ابعادها . لقد كسب قلوب الجنود بحرصه على المرؤوسين وعدالته واستعداده لان يشاطرهم بتفان كل اعباء الحياة العسكرية . وضمنت السرية فى ظروف غير مؤاتية للغاية الاتصال البرقى بلا توقف بين كل الاركان والوحدات القتالية المكلفة بها .

قلد الملازم الاول كاربيشيف خمسة اوسمة لقاء مآثره القتالية . وتتضمن قائمة الخدمة كلمات موجزة عن هذه الجوائز على غرار الاسطر التالية : «٢١ ايار (مايو) – ٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٤ . ارسل فى مهمة للاتصال بمدينة بورت ارثر ، حيث جمع ، بعد ان عزله العدو ، دوريات القوزاق ، ثم انسحب والتحق بالكتيبة» .

بيد ان الضابط المقاتل لم يترق فى معارج الخدمة . اذ ان حامية قلعة فلاديفوستوك ، حيث رابطت كتيبة شرق سيبيريا الاولى بعد الحرب ، ساهمت فى الاحداث الثورية التى نشبت . ووقعت مرارا اشتباكات مسلحة فى المدينة بين مقاتلى الجبهة السابقين وبين البوليس والقوزاق . هذه الانتفاضات شبه العفوية التى جرت فى ٣٠–٣١ تشرين الاول و١٢ تشرين الثانى ١٩٠٥ و١٠ كانون الثانى ١٩٠٦ قمعت بقسوة . ولتلافى التطور اللاحق للاحداث الثورية ، اعادت السلطات توزيع الكثير من وحدات حامية فلاديفوستوك فى نقاط اخرى . وكانت فى عدادها كتيبة شرق سيبيريا الاولى . وانهال على الكثير من الجنود تنكيل قاس وصل الى الاشغال الشاقة والاعدام .

وتعرض كاربيشيف لاستجواب قاس . فقد اتهم «بالتستر على المتمردين وحث مرؤوسيه على هذا» . ولم ينقذه من التنكيل الشرس

سوى مآثره القتالية البارزة . واقتصر الأمر على محكمة الضباط المسلكية ، وبناء على حكمها سرح المهندس العسكرى الشاب من صفوف الجيش . وعاد كاربيشيف الى فلاديفوستوك كانسان مدنى ، وعثر بصعوبة على عمل رسام هندسى . بيد ان كل احلامه بقيت كالسابق مرتبطة بالدراسة فى اكاديمية الهندسة العسكرية . ولكن الانتساب اليها لم يكن ممكنا طبعا الا بالعودة الى الجيش .

ساعده الحظ فى هذه المرة . فقد اتى من بطرسبورغ أمر بتحصين لاحق ، اشد لفلاديفوستوك . وكان ينبغى تحديث كل القلاع والتحصينات الاخرى . كان هناك نقص فى المهندسين العسكريين الضليعين ، فاضطرت القيادة الى «نسيان» ميول كاربيشيف السياسية المشبوهة واعادته الى الجيش ووضعه على رأس سرية هندسة ، بعد منحه رتبة نقيب . ومنذ ذلك الحين ، اى منذ بداية عام ١٩٠٧ ، تبدأ تجربته فى هندسة التحصينات . وقد ابدى فى البناء مهارة هندسية حقيقية واتقانا تكنيكيا رفيعا ، وكرس كل وقت فراغه للاستعداد للاكاديمية .

قال لنا كاربيشيف بعد سنوات عديدة فى اكاديمية فرونزه :

– فى فلاديفوستوك لم يستمر عملى فى التحصينات سوى نصف سنة .

بعد ذلك استدعى الى خاباروفسك اول الأمر ، ثم الى بطرسبورغ لتقديم امتحانات الانتساب الى اكاديمية الهندسة العسكرية ، وقد ذهب الى العاصمة مع زوجته الشابة .

قدم كاربيشيف امتحانات القبول باعلى العلامات فى كل المواد الثلاث والعشرين تقريبا . كان عليه ان يدرس ثلاث سنوات فى الاكاديمية العسكرية ويتقن فى خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا الكثير من مختلف المواد ، وان يبين للفاحصين المتعنتين لا مجرد متانة المعارف التى استوعبها فحسب ، بل ومعرفة التفكير بصورة مستقلة . وتشير احاديثه الى انه كان منجذبا الى المعارف ، ولم يكن من النادر ان يمضى الليل ساهرا ، فيعكف بصورة مستقلة على المراجع والمخططات . وكان فى غضون ذلك يزور بانتظام ميدان الرمى وقاعة المبارزة ، ويجد متسعا من الوقت لزيارة معارض اللوحات والمسارح فى العاصمة .

تشير الكتابات الشحيحة فى القوائم الدراسية وشهادات الصفوف
ن ان كاربيشيف كان من افضل مستمعى الاكاديمية والاول من حيث
جاحه فى الدراسة . ان لجنة امتحانات التخرج برئاسة مهندس
تحصينات البارز الجنرال فيليتشكو منحت كاربيشيف جائزة ابطال
ورت آرثر لقاء افضل رسالة للتخرج . وعند التخرج فى الاكاديمية
نح رتبة رائد ولقب مهندس عسكرى لقاء نجاحاته الممتازة .

فى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٢ ارسل كاربيشيف مع بعض
ريجى الاكاديمية الآخرين الى منطقة وارسو العسكرية . وهناك ساهم
حت قيادة الخبيرين المعترف بهما فى العمل الهندسى – العسكرى
جنرالين بوينيتسكى واوفتشينيكوف • فى تحديث قلعة بريست .
تبت القلعة من ثلاثينات الى سبعينات القرن التاسع عشر ، ولكن
يل الحرب العالمية الاولى اقيم فى وقت واحد مع تحسين التحصينات
قديمة عدد من الطوابى على بعد عدة كيلومترات عن اسوار القلعة .
لدى تصميم وبناء الطابية السابعة الهامة برز المهندس الشاب
اربيشيف : فقد اعتبرت الوثائق التى وضعها نموذجية سواء فى
ارسو او فى بطرسبورغ .

اشتعلت الحرب العالمية الاولى . وقبل نشوبها كانت قد حلت
كاربيشيف مأساة شديدة الوطأة ، اذ اختطف الموت زوجته
لشابة . وطلب الالتحاق بالجيش العامل . وفى ايلول (سبتمبر) عام
١٩١ كان فى الجبهة الجنوبية الغربية ، وشغل على التوالى مناصب
هندس وآمر وحدات الهندسة فى فرق المشاة الثانية والسبعين
الثامنة والسبعين والتاسعة والستين ، وفى فيلق المشاة الفنلندى
لثانى والعشرين . وفى هذه المناصب قاتل كاربيشيف فى الفترة
لاولى من الحرب فى الكاربات . ولكنه اراد ان يكون فى معمعان
لمعارك ، فتوصل الى تعيينه آمر سرية الهندسة ، ثم اصبح آمر
تيبة .

فى ٦ آذار (مارس) عام ١٩١٥ جرح كاربيشيف فى المعارك قرب
شيميسل . وقد جاء فى قائمة خدمته حول ظروف اصابته بالجرح :
فى خلال صد هجوم التمساويين من قلعة بشيميسل الذى قامت به

• اصبح فى سنوات ما بعد الثورة رئيسا لاكاديمية الهندسة العسكرية
لجيش الاحمر .

مجموعة سيدليس قاد سريته الى الهجوم ، مع العلم انه جرح برصاصة
بندقية فى رجله تحت الركبة» . نقل الى مستشفى اوديسا ، ولكنه
بقى هناك شهرا ثم عاد الى الجبهة .

سارت خدمته العسكرية بصورة ممتازة . وفى نيسان (ابريل)
عام ١٩١٦ منح كاربيشيف رتبة مقدم قبل الموعد لقاء بسالته
ومهارته . وادرجه الجنرال فيليتشكو فى مجموعته التفقدية ، فنفذ
عددا من المهمات المسؤولة ، اذ قام ، مثلا ، باعمال استطلاعية
بسبب الاستعداد لعبور الدانوب .

وفى اواخر الحرب كان كاربيشيف على الجبهة الرومانية فى عداد
الجيش الثامن . ان قرب الضابط المقاتل من الجنود ساعد على ان
يدرك بالتدريج الاسباب الحقيقية للحرب وطابعها المعادى للشعب
وللوطن .

استقبل كاربيشيف تصفية القيصرية فى خلال ثورة شباط
(فبراير) بحماسة كبيرة ، ولكنه ما لبث ان احس بخيبة مريرة ،
لان الحكومة المؤقتة تابعت السياسة المجرمة للقيصرية . رأى
كاربيشيف ، وكان فى ذلك الحين كبير منفذى الاعمال لدى رئيس
مهندسى الجيش الثامن ، انه تنضج فى الوحدات النقمة على تصرفات
قائد الجيش الجنرال كاليدين الذى لم يكن يرغب فى مجرد سماع اى
شىء عن التحولات الديمقراطية فى الجيش . وكان كاربيشيف
يتعاطف مع مرؤوسيه بحرارة . وما لبث ان انضم الى الضباط
التقدميين الذين خاضوا مع الجنود النضال من اجل جيش ديمقراطى ،
ومن اجل انسحاب روسيا من الحرب ، ومن اجل الاطاحة بكيرينسكى
وزمرته .

استقبل كاربيشيف ثورة اكتوبر وهو انسان ناضج له من العمر
سبع وثلاثون سنة . لم يكن ، بالطبع ، الانتقال النهائى للضابط
النظامى فى الجيش الروسى الى مواقع البلشفية يسيرا تماما وخاليا من
الصعوبات . واذ كان كاربيشيف ينفى التقاليد الرجعية الملازمة
لسلك ضباط الجيش القيصرى ، كان مع ذلك مرتبطا على هذا النحو
او ذاك باناس وسطه الذين خدم معهم سنوات طويلة . ولكن بعد
ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فورا وقف كاربيشيف فى صفوف
المدافعين عنها . ان وطنيته الصادقة وقربه من جماهير الجنود
وكراهيته لمضطهدى الشعب وكذلك ، طبعا ، ذكرى اخيه

الثورى الذى قضت عليه القيصرية قد ساعدته على ادراك فحوى الاحداث بشكل صحيح .

ساهم كاربيشيف بنشاط ، كما يتضح من الوثائق ، فى المعارك ضد اعداء السلطة السوفييتية على الجبهة الرومانية . وقد كتب فيما بعد : «فى اواخر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٧ استدعتنى اللجنة العسكرية-الثورية للجيش الثامن الى مدينة موغيلوف بودولسكى ، حيث كانت توجد اركان الجيش ، لتحصين المواقع حول المدينة بسبب الهجوم المتوقع لوحدات الجنرال شيرباتشيف الذى كان يقود الجيش المجاور فى رومانيا ووحدات الجيش الرومانى . وصلت الى موغيلوف بودولسكى فى اوائل كانون الثانى (يناير) عام ١٩١٨ وعملت لتحصين المواقع والدفاع عن الجسور على نهر دنيستر» .

ثم التحق كاربيشيف بالحرس الاحمر وانسحب فى غمار معارك متواصلة لمدة شهرين ، ابتداء من كانون الثانى (يناير) عام ١٩١٨ ، من منطقة موغيلوف بودولسكى الى اومان ضمن الوحدة التى اوقفت هجوم القوات الالمانية . لقد استخدم كاربيشيف معارفه وتجربته القتالية على نطاق واسع ، مختارا على نحو صائب وسائل تذليل الحواجز المائية . وقاتلت فصيلة الحرس الاحمر التى كان فيها كاربيشيف ضد قوى الالمان المتفوقة حتى عقد معاهدة بريست . وبعد هذا ارسل كاربيشيف فى مهمة الى العاصمة ، حيث عين بتاريخ ١٤ آذار (مارس) فى قسم الهندسة للادارة العسكرية – التكنيكية المركزية ، وحيث عمل دوما بضمير حى الى اقصى حد ، منفذا وظائف تفتيشية فى احيان كثيرة . وقد اسعده الحظ بالعمل ضمن جماعة رائعة من المهندسين العسكريين تحت قيادة فيليتشكو .

ان فترة السلام ، التى انتزعها لينين من اعداء الجمهورية السوفييتية بواسطة صلح بريست ، لم تستمر طويلا . ولاح فى الافق خطر جديد . وغدا الوضع فى الجنوب ، مثلا ، مقلقا للغاية ، وفى آب (اغسطس) عام ١٩١٨ عين كاربيشيف رئيسا لاحد اقسام ادارة الهندسة فى منطقة شمال القفقاس العسكرية . بيد انه لم يكن قد وصل الى هناك حين بدأ هجوم جيش المتطوعين التابع للجنرال دينيكين . وامر كاربيشيف بالبقاء فى تساريتسين ، التى بدأ على مشارفها بناء منشآت شبه دائمة من الخرسانة والصفائح واقيمت

خطوط دفاعية قوية . واذ قاد كاربيشيف بناء التحصينات حول محطة سكة الحديد غومراك ، أدى قسطه فى الدفاع الاسطورى عن تساريتسين ، حيث تم كما هو معروف ، صد هجمات القوزاق البيض القوية ثلاث مرات ، من آب (اغسطس) عام ١٩١٨ الى كانون الثانى (يناير) عام ١٩١٩ .

فى صيف عام ١٩١٨ اعلن لينين ان الجبهة الشرقية جبهة اساسية ، تقرر مصير الثورة . وقد ارسل كاربيشيف الى هناك فى الخريف . انه ، وقد وصل الى اركان الجبهة الواقعة فى ارزاماس ، اصبح تحت امرة زميله فى مدرسة الهندسة العسكرية فيسكونوف ، فعين على الفور رئيسا للبناء العسكرى – الميدانى الاول الذى كان عليه ان يحصن سيمبيرسك ومشارف المدينة بسرعة .

كان ينبغى قبل كل شىء القيام باستطلاع هندسى للمنطقة على طول خط الجبهة البالغ ٥٠٠ كيلومتر على امتداد الفولغا من بلدة تيتيوشى الى سيزران . اما كيف نفذ هذا العمل الصعب للغاية فامر يشهد عليه أمر فيسكونوف رئيس مهندسى الجبهة الشرقية بتاريخ ١٠ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ :

«بناء على تقريرى الى قائد الجبهة الشرقية حول نتائج استطلاع نهر الفولغا من تيتيوشى الى سيزران الذى قام به المهندس العسكرى كاربيشيف رئيس البناء الميدانى الاول ، أمرنى قائد الجبهة الشرقية ان اعرب للرفيق كاربيشيف على الشكر باسم الادارة لقاء العمل الذى نفذه بضمير حى وعلى نحو رائع . يشمل العمل المقدم جدولا موضوعا بالتفصيل مع ملاحق لكل مشاريع النقاط المحصنة من تيتيوشى الى سيزران مع الاشارة الى كل البطاريات وعياراتها المرغوب فيها واماكن مرابطتها الدقيقة مع الرسوم البانورامية لاهم التحصينات من منظار الضفة المعادية ، وللضفة المعادية من منظار التحصينات وكشف موجز للقيام بكل الاعمال . ليست مادة الاستطلاع المشار اليها مفيدة جدا للبناء فحسب ، بل ولكل القوات فى حالة اضطرارها للدفاع عن هذه المنطقة . ولهذا سوف تطبع نسخ من مواد الاستطلاع المذكورة لاطلاع القوات عليها . ان العمل كله نموذج ينبغى ان يقتدى به جميع الذين يقومون باستطلاعات مماثلة .

واذ اعلن هذا ، اشاطر من جهتى بسرور قيادة الجبهة الشرقية شكرها للمهندس العسكرى كاربيشيف» .

فى ١٥ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ عين كاربيشيف رئيسا للبناء العسكرى – الميدانى السادس الذى كان يخدم الجيش الرابع للجبهة الشرقية . لم تكن الامور تجرى هناك على ما يرام ، فى حين ان اعمال تحصين ما تم الاستيلاء عليه فى معارك الخريف من ضفة الفولغا اليمنى فى منطقة سامارا كانت فى غاية المسؤولية . وهناك لم ينفذ كاربيشيف واجباته المباشرة فحسب ، بل ساهم فى المعارك ايضا ، حينما قام الكولاك والحرس الابيض بتمرد شمل على وجه التحديد كل المناطق التى كانت تبنى فيها تحصينات الميدان . لقد ساهم كاربيشيف حاملا البندقية فى الانقضاض على مواقع المتمردين ، وكان مع البلشفى بارانوف عضو المجلس العسكرى الثورى للجيش فى الصفوف الطليعية للجنود الحمر .

لقد هاجم قطاع الطرق مواقع البناء مرارا . وكان كاربيشيف يصد مع مهندسيه غاراتهم .

بقى التحصين الميدانى العمل الاساسى لكاربيشيف . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٨ ، حينما انتقل كولتشاك الى الهجوم ، معولا على ان يستولى على معابر وجسور الفولغا ثم يتحرك الى موسكو ، اصبح عدم السماح للعدو بالوصول الى ضفة الفولغا الغربية المهمة الاساسية . وكلف كويبيشيف – سكرتير لجنة الحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا فى مقاطعة سامارا – كاربيشيف بتحصين القطاع الاساسى للدفاع ، منعطف سامارا . وقال له كويبيشيف :

– اذا ظهر اى عائق ، توجه الىّ مباشرة .

كتب كاربيشيف فيما بعد : «كنت اخضع لـه مباشرة وكان كويبيشيف ، الغارق فى العمل الادارى والحزبى-السياسى ، يتفقد معى قطاعات البناء لا فى النهار فحسب ، بل فى الليل ايضا . . . وكان يطلع ميدانيا على حالة اعمال البناء ويبدى الملاحظات الضرورية ويعطى التوجيهات ويصادق على اوامرى . وبفضل هذه القيادة الحية جرى العمل على قدم وساق» .

لم يكن يوجد اختصاصيون تقريبا ، وكان على كاربيشيف لتحقيق النجاح ان ينظم مدرسة تدريب على العمل الهندسى لاعداد

ضباط الصف . ولعدم وجود اية كتب تطبيقية ، كانوا يتعلمون فى هذه المدرسة وفق «موجز لمعلومات حول التحصينات الميدانية للمشاة» كتبه كاربيشيف نفسه . وكان كاربيشيف يدرس بنفسه كل علم الهندسة . والى جانب ذلك كان كاربيشيف يتفقد كل اقسام البناء وقطاعاته ويعطى المهمات لرؤسائها وللقائمين على الاعمال . وكان يلهمهم بمهارة العمل الصعب ويبعد الكسالى بلا هوادة .

فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ استلم فرونزه قيادة الجيش الرابع . وقد زار القطاعات الحساسة لشريط الدفاع المقبل . واستمع فى اجتماع للمجلس العسكرى الثورى للجيش الى تقرير كاربيشيف حول مسيرة الاعمال . وطرح عليه القائد الجديد للجيش عدة اسئلة عملية . بعد التقرير تحدث كويبيشيف وفرونزه . ان فرونزه ، وقد قدر العمل الذى قام به كاربيشيف حق قدره ، نوه الى جانب ذلك بان اعمال تحصين اورالسك التى حررت مؤخرا تجرى ببطء وبشكل ردىء . وقرر المجلس العسكرى الثورى ان يوفد كاربيشيف الى هناك مؤقتا ، ولكن دون اعفائه من المسؤولية عن تحصين منعطف سامارا .

يمكن تقدير مدى الصعوبة بالنسبة الى كاربيشيف فى قيادة البناء فى منطقتين متباعدتين الى هذه الدرجة ، ولكن فرونزه حذر من انه لا يعلل نفسه الى اية درجة من الدرجات بالهدوء المؤقت قرب اورالسك لان زعيمى القوزاق البيض دوتوف وتولستوف ينتظران اللحظة المناسبة ليستردا هذه المدينة الهامة من الناحية العسكرية ، «عاصمة» القوة القوزاقية فى الاورال . وللحفاظ عليها باقل قوى ممكنة لا بد ، فى رأى فرونزه ، من اقامة منشآت دفاعية متينة .

ادى كاربيشيف المهمتين الموضوعتين امامه على نحو رائع . وفى اورالسك اجتازت وليدة كاربيشيف – خطوط الدفاع الميدانية – امتحانا صعبا الى درجة لا تصدق فى لهيب دفاع اسطورى استمر ثمانين يوما (من ٢٠ نيسان (ابريل) الى ١١ تموز (يوليو) عام ١٩١٩) .

ينبغى القول ان اعداد اورالسك للدفاع امدا طويلا جرى خلافا لاوامر تروتسكى بعدم التمسك بمثل هذه المدن القليلة الاهمية من وجهة نظره . كان لفرونزه رأى مغاير تماما . اذ كان يعتبر ان الدفاع الطويل والراسخ عن اورالسك سوف يساعد على حل المهمة

الرئيسية للجبهة الشرقية ، وهى عدم السماح باتحاد الكولتشاكيين والدينيكينيين . كان دينيكين قد «تورط» فى ذلك الوقت ، محاولا الاستيلاء على استراخان بلا جدوى . والأمر نفسه كان ، فى راى فرونزه ، ينتظر ايضا قوات كولتشاك قرب اورالسك ، اذا كانت المدينة مستعدة للدفاع من كل الجوانب . وبناء على هذا الاستنتاج الحكيم وضع امام كاربيشيف مهمة تحويل اورالسك الى قلعة قتال منيعة لا تدافع عنها الحامية وحدها ، بل وكل السكان الكادحين فى المدينة .

ان كاربيشيف ، وقد ذهب الى المكان ، حدد بصواب جوانب الضعف والقوة للموقع الجغرافى لاورالسك المحاطة من ثلاث جهات بحواجز طبيعية ، اى بانهار . واعار كاربيشيف اقصى اهتمام لتحصين التخوم الشمالية الشرقية للمدينة ، حيث تشرف عليها سهوب مترامية الاطراف . وهنا بدا باسرع ما يمكن بناء انظمة من الخنادق وحواجز الاسلاك .

ابلغ كاربيشيف من اورالسك فرونزه ان وضع المدينة الجغرافى يسمح بان يقام حولها موقع دائرى متين ذو قطر صغير ، تستطيع الاحتفاظ به حامية قليلة العدد نسبيا اذا ضمنت مناورتها بمواصلات داخلية قصيرة ، واذا لم تكن عند العدو مدفعية ثقيلة . واعطى كاربيشيف المهندسين مهمة تجهيز قطار مدرع . وهذا القطار المدرع – قاطرة وعربتا رشاشات مدرعتان وعربة مسطحة مدرعة لمدفع من عيار ثلاث بوصات – قد ركب تحت قيادته فى اقصر وقت . واطلق عليه اسم «المفاجئ» ، وقد برر هذه التسمية بظهوره المباغت امام القوزاق البيض المهاجمين واطلاقه النار على صفوفهم من مسافات قريبة . وشكلت ايضا كتيبة فرسان تحت قيادة القوزاقى الاحمر الجسور بوتشيتالين ، واستخدمت لارسال المشاة الى القطاعات المهددة احصنة مقرونة قوية وعربات واسعة ذات قدرة جيدة على المرور . كانت عند القوزاق البيض مدفعية ، ولكنها من عيار صغير ، فلم يستطيعوا احباط مناورة المدافعين .

وبالمناسبة ، فان الدفاع عن اورالسك يستحق التحدث عنه بمزيد من التفصيل ، ولا سيما اذا اخذ فى الاعتبار ان عمل كاربيشيف ضمن نجاحه الى درجة كبيرة . فبناء على اقتراحه قسمت المدينة الى اربعة قطاعات للدفاع . وكما افترض كاربيشيف كانت المناورة

السريعة بالقوى والمعدات فى الاتجاهات المهددة تنطوى على مغزى فائق الاهمية . وحتى اواخر ايار (مايو) ذهبت عبثا كل محاولات القوزاق البيض للاستيلاء على المدينة بالانقضاض عليها . ومنى العدو بخسائر كبيرة . ومع ذلك استطاع الجنرال تولستوف فى حزيران (يونيو) ان يحشد عند المدينة قوى كبيرة (قرابة ٥ آلاف بندقية ، ١٥ الف سيف ، ٤٥ مدفعا ، ١٦٠ رشاشا) . وبعد معارك ضارية تسنى للقوزاق البيض تضييق جبهة التطويق فى الغرب وفى الشمال ، وكذلك صد جهود الجيش الرابع لفك الحصار عن اورالسك . اخذت تنفد فى المدينة الذخيرة والاغذية والعلف والادوية ، ونشطت العناصر المضادة للثورة . ومع ذلك استطاع المدافعون عنها تنفيذ توصية لينين بالصمود حتى وصول الامدادات . ان مجموعة الجيش الخاصة التى شكلها فرونزه تحت قيادة تشاباييف اجرت بمساعدة قوات أخرى من الجيش الرابع عملية رائعة لفك الحصار عن اورالسك ، وفى ١١ تموز (يوليو) ازالت الحصار عن المدينة بضربة من الشمال .

ان المدافعين عن اورالسك قيدوا فى نهاية المطاف قوى ضخمة للعدو ومنعوا اتحاد قوات كولتشاك ودينيكين وساعدوا على ضمان الهجوم المضاد للمجموعة الجنوبية لقوات الجبهة الشرقية . وقد اعلنت الحكومة السوفييتية شكرا خاصا للمدافعين عن المدينة على صمودهم وبسالتهم ، وقلدت الافواج ١٩٢ و١٩٤ و١٩٦ لفرقة المشاة الثانية والعشرين الراية الحمراء الفخرية للجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ، والمقاتلين والقادة والعاملين السياسيين الذين برزوا بشكل خاص وسام الراية الحمراء .

لم يكن تحت امرة كاربيشيف فى اورالسك سوى سرية هندسة تضم قرابة مئة شخص ، ولكنه ، اذ اشرك فى العمل وحدات المشاة والسكان المحليين ، استطاع فى ظروف المواجهة ومن ثم فى ظروف الحصار ان يقيم دفاعا منيعا فى وجه العدو يمتد عشرات الكيلومترات . وغالبا ما كان الناس الذين يقودهم الشيوعيون ، يعملون تحت القصف المعادى ، وحينما لم تكن غزارة نيران العدو تسمح بذلك ، كانوا يعملون ليلا .

واستطاع كاربيشيف ان يساهم ايضا فى التغطية الهندسية لهجوم فرقة الجيش الخاصة تحت قيادة تشاباييف بهدف فك الحصار

عن اورالسك . وقاد كل وحدات الهندسة للجيش الرابع ، ومن بينها كتيبة الهندسة التى سلمت لتشاباييف . وتوصل كاربيشيف الى تحقيق التعاون الوثيق فيما بينها ، وكذلك بينها وبين وحدات المشاة والفرسان والمدفعية . وقد اجرى بنفسه استطلاع مشارف محطتى سكة الحديد بيرشوف واورباخ ، ونظم اعادة تعمير الجسور ، ومن بينها جسور السكك الحديدية . كل هذا ساعد على نجاح عملية فك الحصار عن اورالسك . اعلن تشاباييف لدى استعراض حامية اورالسك فى ١٥ تموز (يوليو) عام ١٩١٩ : «لم ينقذ المدينة سوى صمودكم واقامة التحصينات فى الوقت المناسب . ان مثال هذا الحصار قد برهن لنا مرة اخرى على ان القوة لا تكمن فى الكمية ، بل فى الكيفية . عاشت الوحدة الوثيقة بين المقاتل والعتاد !» وكذلك نوه المجلس العسكرى الثورى للمجموعة الجنوبية للجبهة الشرقية فى امر خاص بالاهمية الفائقة لاعداد المواقع الهندسية فى منطقة اورالسك . وتم تحطيم قوزاق الاورال البيض .

حدثنا كاربيشيف بسرور واضح عن ان الحظ اسعده ليكون مساهما فى مسيرة الجيش الاحمر التحررية الى موطنه سيبيريا . كانت كورغان اول مدينة سيبيرية ادى كاربيشيف قسطا فى تحريرها . فقد قام المهندس العسكرى باستطلاع شامل لمشارفها الغربية ، مما ساعد فصيلة تومين المركبة للفرسان على اختراق المدينة بغتة فى ٢٤ آب (اغسطس) . وتقدم الجيشان الثالث والخامس للجبهة الشرقية بنجاح فى ما وراء الاورال حتى وصلا الى نهر توبول . وفى ذلك الحين كان كاربيشيف قد اصبح القائد الرئيسى للبناء العسكرى الميدانى فى الجبهة الشرقية . وعمل كثيرا وبنجاح لاقامة مواقع دفاعية متينة على الضفة الغربية لنهر توبول . وعلى هذا الخط بالذات جرت عملية توبول – ايشيم الدفاعية الشهيرة للجيش الاحمر التى سحقت فى خلالها احتياطيات كولتشاك .

فى اواسط تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٩ استؤنف هجوم الجبهة الشرقية ، فجفلت فرق كولتشاك وبدأت بالانسحاب . ولم تكن المعارك ضد الكولتشاكيين الحاقدين هى وحدها التى زادت من صعوبة الهجوم ، بل كذلك كون العدو ضرب من حيث الجوهر الخط الحديدى العابر لسيبيريا . اذ كان الحراس البيض لدى الانسحاب

تحت ضغط الجيش الخامس يخربون وينسفون ويحرقون بانتظام كل شىء على وجه التحديد . وكان من بين ما نسفوه ١٥٧ جسرا للخطوط الحديدية على انهار سيبيريا العديدة والغزيرة ، بما فى ذلك جسور كبيرة بينها جسر على ارتيش عند اومسك ، وجسران على مجرى اودا الاسفل وعلى بيريوسا عند تايشيت ، وجسر تولون . . . لقد جعلت كيلومترات عديدة من الخطوط الحديدية غير صالحة للاستعمال وعطل الامداد بالماء ونسفت المحولات والسيمافورات ودمرت اجهزة الاشارة .

ان القارئ يتذكر ، ولا شك ، مدى صعوبة الوضع الاقتصادى للجمهورية السوفييتية حينذاك . كان لا بد من ان ترسل على عجل من سيبيريا الى المركز المواد الغذائية والقاطرات والعربات وغيرها من المعدات والممتلكات التى تم الاستيلاء عليها من الكولتشاكيين . واصبحت اعادة الحركة المباشرة على الخط المهمة رقم واحد . وكان كاربيشيف ، طبعا ، من بين الاشخاص المسؤولين الذين كان عليهم ان ينفذوا فى اقصر وقت ايعاز لينين القائل : «ان اعادة النقل بالخطوط الحديدية والنقل المائى فى سيبيريا هى من المهمات الاساسية فى الجمهورية» .

كان اول عمل نفذه كاربيشيف حينذاك هو اعادة بناء اهم جسر فى سيبيريا ، وهو الواقع فى مدينته الأم اومسك . وانشأ كاربيشيف مع رئيسه فيسكونوف فى اوفا فصيلة لبناء الجسور من اجل ارسالها الى اومسك . وهناك ، فى مشارف الاورال ، بحث عن الادوات والمواد ، ومن ثم نظم شحن العوارض لجسر ارتيش وبعد ذلك فقط توجه الى اومسك . جرت اعادة بناء الجسر بهمة ومهارة . وكان يمكن رؤية كاربيشيف فى البناء فى اى وقت من اليوم . لقد نفذ التركيب والقيسنة ورفع الركائز الحاملة ، اى ، باختصار ، اعقد الاعمال تحت اشرافه وقيادته الصارمين . وكان يتأكد بنفسه من كل الحسابات الهندسية على وجه الحصر ، باعتباره القائد التكنيكى الرئيسى للبناء .

كان هذا فى آذار (مارس) ، ولن يلبث ارتيش ان يبدأ بالفيضان كالعادة ، ولذا كان ينبغى الاسراع . وظهرت عوضا عن المجارى الفارغة ارضية خشبية . ثم رفعت على الدعائم عارضة الجسر الاخيرة عند الضفة اليمنى . العمل الآن لقطارات مد خط سكة

الحديد . واخيرا اعتبرت القيادة ان مهمة كاربيشيف انجزت ، فتوجه ، وقد عين رئيسا لمهندسى الجيش الخامس ، الى اركان الجيش فى كراسنويارسك . وهناك اصطدم بنقص كبير فى العاملين ، مما كدره كثيرا . بيد ان طاقته ومعرفته تقدير صفات الناس العملية بسرعة وصواب ساعدتاه على ان يدرج الاختصاصيين بالمران بسرعة فى ادارته . اذ كان يستحيل فى تلك اللحظة ايجاد مهندسين عسكريين من حملة الدبلومات .

بيد انه لم يبق فى الاركان طويلا . فما ان تسنى تشكيل كتيبة للهندسة ، حتى توجه كاربيشيف على راسها الى محطة سكة الحديد تايشيت لاعادة بناء الجسر على نهر بيريوسا ، ثم ذهب الى فرقة المشاة الحادية والخمسين التى انجزت مفارزها الهندسية اعادة بناء احد اصعب قطاعات قسم تومسك من الخط فى منطقة محطتى زالارى وكوتولين . وقاد كاربيشيف ايضا بناء معابر سكة الحديد على نهر اركوت ، وكذلك اعادة بناء كل شبكة التلغراف والتلفون على الخط العابر لسيبيريا . وواقع انه استؤنف مع صيف عام ١٩٢٠ الاتصال الحديدى المباشر من الاورال الى اركوتسك هو خير دليل على فعالية جهوده الجبارة .

وصف دزيرجينسكى فى رسالته الشهيرة الى السيبيريين اعادة بناء الخط بانه «ماثرة ثورية تجاه الدولة السوفييتية» .

فيما بعد انصب اهتمام رئيس الهندسة ومرؤوسيه على اعداد الحماية الهندسية لراس الجسر وراء بايكال . ومع ان وحدات الجيش الخامس كانت قليلة العدد وموزعة على امتداد الجبهة ، فقد كانت فى تلك اللحظة تشغل من حيث الاساس مواقع مريحة من اجل الدفاع على اطراف سلسلتى جبال خامبين وخامار – دابان . ومن الجانب الايمن كان يغطيها نهر سيلينغا . وكانت مهمتها تتلخص فى عدم السماح بوصول القوات اليابانية – السيميونوفية الى بايكال . ولكن لم يكن تنفيذ هذه المهمة ممكنا الا باقامة منشآت دفاعية قوية .

وغرق كاربيشيف فى العمل من جديد . وقد كتب فيما بعد انه حتى ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠ «انشئ موقع متين وعميق ومتقن تماما من الناحيتين التكتيكية والتكنيكية ، وكانت الوحدات متماسكة وتعى تماما الاساليب العقلانية لاستخدام الموقع الذى اقامته . ان

المكان المقفر لسلسلتى خامار – دابان وخامبين فى ما وراء بايكال اقتضى بناء جملة من الطرق الجديدة وبعض قطاعات للمواقع تغطى الممرات الجبلية من جهة منغوليا ، وغطى الطريق المؤدى الى بحيرة كوسوغول بجملة من المواقع . وعلاوة على ذلك ، عين موقع يغطى اركوتسك من الجنوب ، واستطلعت جملة من المواقع التى تغطى فى حالة الانسحاب الخط الحديدى والطريق من اركوتسك فى اتجاه كراسنويارسك . . . وغطى بمتانة خاصة اتجاه فيرخنيؤودينسك . وغطت مجموعات من التحصينات عند بحيرة غوسينويه الجناح الايمن لراس الجسر» .

كوفئ كاربيشيف لقاء عمله المتفانى بساعة يد ذهبية تحمل اسمه كتب عليها : «الى المناضل الاحمر للثورة الاشتراكية من اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا» .

فى خريف عام ١٩٢٠ كان على الجيش الخامس ان يودع رئيس قوات الهندسة . وفحوى الامر ان فرونزه عين فى الثلث الاخير من ايلول (سبتمبر) بتوصية من لينين قائدا للجبهة الجنوبية التى كان ينبغى لها ان تعمل ضد فرانغيل .

طلب فرونزه من المجلس العسكرى الثورى السماح له بان يختار مساعدين له من عداد الاختصاصيين العسكريين الذين يعرفهم . وبالنتيجة عين كاربيشيف مساعدا لرئيس مهندسى الجبهة الجنوبية . انه ، وقد تلقى من فرونزه فى خاركوف نصائح وارشادات ملموسة ، ما لبث ان توجه الى راس الجسر الشهير فى كاخوفكا الذى استولت عليه قواتنا فى ٧ آب (اغسطس) عام ١٩٢٠ . لقد وفر راس الجسر هذا امكان توجيه ضربة الى جانب ومؤخرة التجمع الاساسى للقوات المعادية فى جنوب اوكرانيا وزاد من صعوبة اتحادها مع المتدخلين البولنديين .

قاد كاربيشيف هناك انشاء دفاع خنادق عميق النسق بمواقع مضادة للدبابات وحواجز ملغومة . وغطى شريط الدفاع الاساسى بثلاثة صفوف من الاسلاك الشائكة . واقيمت معابر على الدنيبر تضمن تموين القوات المتواصل على راس الجسر . وفى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، حينما عبرت قوات فرانغيل الدنيبر عند خورتيتسا الى الضفة اليمنى ، كان كاربيشيف على راس الجسر . واذ سعى العدو

الى تطوير نجاحه ، استعد لشن هجوم باحتياطيات كبرى بينهـا دبابات انكليزيه ثقيلة . وكانت هذه الضربة موجهة الى الصفوف القتاليـة لفرقة بلوخيـر الحاديـة والخمسين . ولحسـن الحظ جمعت مخابراتنا معلومات فى الوقت المناسب عـن خطط «البارون الاسود» .

تشير اقوال الشهود الى ان بلوخيـر امضى كل النهـار مـع كاربيشيف على خطوط الدفاع . انهما ، وقد حددا الاتجاهات المحتملة لهجوم الدبابات ، قررا الحواجز الاضافية التى ينبغى اقامتها ومكان وضع المدفعية . وفى اليوم نفسه باشرت مفارز اختيرت خصيصـا لتنفيذ امر رئيس الفرقة فى هذا الخصوص الذى وضع بالاشتراك مع كاربيشيف . وبقى كاربيشيف فى فرقة المشاة الحادية والخمسين حتى نهاية المعركة .

كانت خطة بلوخير تتلخص من حيث المبدأ فى فصل دبابات العدو عن مشاته وتركها تمر الى مؤخرته ، حيث كانت تنتظرها الحواجز المضادة للدبابات . وهناك كان على مفارز معدة خصيصا لا تطالها نيران المدفعية الثقيلة المعادية ان تبيد هذه الدبابـات . واجرى كاربيشيف عملا فرديا مع مقاتلى هذه المفارز لكى يدرأ ظهور الخوف من الدبابات عندهم . اذ كان استخدام الدبابات ، ولا سيما بصورة مكثفة ، أمرا نادرا حينذاك . ولذا فان مما يستحق الاعجـاب كون كاربيشيف اعد على الماشى ، كما يقال ، طريقة فعالـة لمكافحة هذه الماكينات القتالية الرهيبة .

فى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) انهال العدو على الفرقة بقوى فيلق كامل يدعمه هجوم مدرع ونيران كثيفة من المدفعية . وفى نهاية اليوم قدم فرونزه الى لينين هذا التقرير : «على الرغم من اشتراك ١٢ دبابة و١٤ مدرعة والمدفعية الثقيلة فى المعارك ، صمدت قواتنا فى وجـه الضربة ، ثم انتقلت الى الهجوم المضاد وصدت العدو الى المواقع التى انطلق منها . وبلغ مجموع ما تم الاستيلاء عليه فى هذا اليوم ، وفق حساب تقريبى ، حوالى ٢٠ مدفعا و٧ دبابات والكثير من الرشاشات وغير ذلك . وابيدت عدة افواج للمشاة تماما . وتستمر ملاحقتنا العدو الى المعابر . ولا شك فى ان هذا الاخفاق بداية لتحطـم فرانغيل . بعد اسبوع على الاكثر سيبدأ هجومنا العام ، ولا شك فى نهايته المظفرة» .

فيما بعد كتب البارون فرانغيل فى مذكراتـه التى نشرت فى الخارج : «انتقلت وحدات الجنرال فيتكوفسكى الى الهجوم . ولكـن الانقضاض على تحصينات كاخوفكا تم صده . واذ وصلت وحداتنا الى الاسلاك ، لم تستطع متابعة التحرك ، ربضت ومنيت بخسائر فادحة من نيران المدفعية القوية . ومفرزة الدبابات ، التى وصلـت الى كاخوفكا ، ابيدت باسرها تقريبا» .

لم يتسن لوحدات الجيش الاحمر بفعل جملة مـن الاسباب ان تستفيد بصورة كاملة من النصر قرب كاخوفكا وتنقض على العدو فى القرم . وفى غضون ذلك حلت فترة اواخر الخريف بامطارها ووحلها . فى تلك الظروف بالذات نفذت عملية بيريكوب – تشونغار الشهيرة التى كانت نتيجتها تصفية الفرانغيلية نهائيا . واضطلعـت ادارة الهندسة فى الجيش بدور جوهرى فى تنفيذ خطة تحطيـم «البارون الاسود» تماما . ووقع جزء لا يستهان به من المسؤولية على كاهل كاربيشيف نائب رئيس مهندسى الجبهة .

لقد كان له قسط فى ادراك فحوى دفاع العـدو الذى اعتبره فرانغيل واعوانه منيعا لا يقهر .

حينما حلل فرونزه مع اقرب مساعديه الوضع ، بدا لهم اول الامر ان دفاع فرانغيل لا يقهر فعلا . وهنا لفت كاربيشيف الانتباه الى شبه جزيرة ليتوفسكى الذى يتوغل بعمق فى بحيرة سيفاش . فقد كانت التحصينات فيه ، كما بينت الاستخبارات ، ضعيفـة للغاية : خط واحد من الخنادق والاسلاك الشائكة ، لان فرانغيـل اتكل على استحالة عبور سيفاش فى الخريف . واذا تسنى بالوسائل المتوفـرة وبالخوض عبـور سيفاش والتحصـن فى شبـه جزيرة ليتوفسكى ، فان تحصينات الخنادق ستتسقط . . .

لقد بينت افلام روائية كثيرة عبور سيفاش وصورته بمثابـة تذليل لهذا الحاجز المعقد عن طريق خوضه من قبل حشود غفيرة من جنود الجيش الاحمر . وهذا ما كان فعلا . ولكن كان هناك امر آخر ، وهو نقل المدفعية والذخائر واللوازم والمعدات القتالية الاخرى عبر سيفاش . ان ايصالها فى الوقت المناسب ، الامـر الذى نظمـه المهندسون تحت قيادة كاربيشيف ، قد ضمن نجاح الهجوم .

بعد تصفية جبهة فرانغيل كلف لينين فرونزه بالقضاء عـلى الماخنوية التى اغرقت اوكرانيا بموجة دامية من العنف والسرقـة

والنهب . وطلب فرونزه من كاربيشيف وضع خطة لاستئصال كل عصابات ماخنو الفوضوية – الكولاكية المسلحة . كان ذلك فى ربيع عام ١٩٢١ . وساهم كاربيشيف ايضا فى التنفيذ العملى لهذه الخطة ، بما فى ذلك تحطيم القوى الاساسية للماخنوية قرب مدينة رومنى .

مع نهاية الحرب الاهلية بدات بالنسبة الى كاربيشيف ، احد اكثر مهندسى الجيش الاحمر تاهلا ، مرحلة جديدة فى نشاطه . وقد شغل فى عام ١٩٢١ منصب رئيس مهندسى القوات المسلحة فى اوكرانيا والقرم واستمر يعمل تحت قيادة فرونزه المباشرة . ومنذ الاشهر الاولى بعد الحرب بدأ كاربيشيف بتوصية من فرونزه يعمل لتعميم تجربة الحرب الاهلية . وبالنتيجة ظهرت فى عام ١٩٢١ جملة من المقالات فى مجلة «الجيش والثورة» التى كانت تصدر فى اوكرانيا . وقد لفتت نظر القائد والمنظر العسكرى البارز توخاتشيفسكى . وفى الوقت نفسه ، كان كاربيشيف ، شأنه دائما ، ينفذ مهماته المباشرة فى الخدمة . وقد اقيمت منطقة عسكرية اوكرانية مركزها خاركوف . ان فرونزه قائد قوات المنطقة الجديدة عين كاربيشيف قائما مؤقتا باعمال رئيس المهندسين ، وارسل الى موسكو شهادة رائعة عنه . ولكن موسكو ارتأت ان هذا الاختصاصى الكبير فى الهندسة العسكرية من الاجدى ان يستخدم فى الجهاز المركزى . لقد اشار فرونزه الى ايفاد كاربيشيف الى العاصمة بأمر جاء فيه :

«قدم الرفيق كاربيشيف الى قوات اوكرانيا والقرم فى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٠ من الجيش الخامس وعين فى منصب نائب رئيس مهندسى كل القوات المسلحة فى اوكرانيا والقرم . ولدى تنظيم الدفاع الهندسى للجبهة ، ومن ثم لدى اجراء حملات ضاربة لتخزين الوقود والمواد الاخرى ولدى اعطاء الثكنة الحمراء المظهر اللائق استطاع الرفيق كاربيشيف ، على الرغم من شح الموارد المادية والنقص المستمر فى القوى البشرية ، ان يظهر طاقة واصرارا خاصين ناجمين عن حبه للعمل . وعلاوة على ذلك ، وجدت التجربة الهندسية – العسكرية للحرب الاهلية تعميما لائقا فى المؤلفات المطبوعة للرفيق كاربيشيف .

ان الرفيق كاربيشيف ، وقد تسلم مهام منصبه قائما مؤقتا باعمال رئيس مهندسى المنطقة ، وضع فى فترة قصيرة بقيادته

الماهرة العمل فى المستوى اللائق . واذ انوه بالعمل المجدى للرفيق كاربيشيف فى قضية البناء السلمى للجيش الاحمر ، اعلن الشكر له واعرب عن الأمل فى ان يكون عمله فى المنصب الجديد ايضا مجديا ومثمرا» .

حينذاك انتخب كاربيشيف جنديا فخريا فى كتيبة الهندسة الرابعة وقلد شهادة اللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا .

لدى وصوله الى موسكو عين رئيسا للجنة الهندسة للادارة الهندسية – العسكرية الرئيسية فى الجيش الاحمر . وكانت وظائفه الرئيسية فى هذا المنصب ضمان النصائح والارشادات والتوجيهات للجيش ، وتنظيم اعداد وتطبيق الوسائل الجديدة لسلاح الهندسة .

واذ نفذ كاربيشيف هذه المهمات الصعبة والمسؤولة ، اعد تقريرا واسعا حول موضوع «تحصين المواقع الاجمالى» بحث فيه مبادئ التحصين واشكاله وحالته المعاصرة ، وكذلك تطور اسلحة الصراع ووسائله التكنيكية . القى التقرير فى اجتماع على مستوى رفيع جدا عقد فى نيسان (ابريل) عام ١٩٢٣ وترأسه كامينيف . وكان بين المساهمين فرونزه ، انطونوف – اوفسيينكو ، بروسيلوف ، بوديونى ، ييغوروف ، توخاتشيفسكى ، شابوشنيكوف ، ياكير . . .

محض الحزب الشيوعى والقيادة العسكرية فى البلاد الاختصاصى العسكرى غير الحزبى ثقتهما الكبيرة . ففى عام ١٩٢٣ كلفت لجنة الرقابة المركزية ، اعلى هيئة رقابية فى الحزب ، كاربيشيف مع سكفورتسوف كبير مفتشى دائرة التفتيش العمالية الفلاحية باجراء «تفقد للجيش الاحمر من الناحية الهندسية العسكرية» .

كان ينبغى دراسة وتقدير كل نظام قوات الهندسة : اجهزة الادارة المركزية وادارات المناطق ووحدات الهندسة ، هيئات الطلبيات والتموين ، الاستعداد القتالى للقوات ، الاستعداد الهندسى للبلاد الخ . وقام كاربيشيف على اساس تفويض لجنة الرقابة المركزية بعمل تمهيدى وتنظيمى جبار . واستطاع ان يشرك فى التفقد الكثير من القادة والعاملين السياسيين واختصاصيى قوات الهندسة . وفى ١٠ كانون الثانى (يناير) عام ١٩٢٤ قدم كاربيشيف وسكفورتسوف الى رئيس اللجنة العسكرية للجنة الرقابة المركزية

تقريرا عن نتائج البحث . واصبحت هذه المواد نقطة الانطلاق لبرنامج تطوير العمل الهندسى – العسكرى فى البلاد .

والى جانب ذلك سعى كاربيشيف الى ان يحل ايضا بعض المسائل العملية الصرف لضمان وسائل الحماية الهندسية للجيش . وهكذا ، فقد اعد فى تلك السنوات النماذج الاولى للالغام المضادة للمشاة ذات الاستعمال الواسع ، ومن بينها لغم «المقلمة» الذى يستطيع المهندسون حمله فى محافظ القنابل اليدوية ، لان شحنة التروتيل فيه لا تتجاوز ٣٠ غراما . وبعد ذلك ظهرت الغام مضادة للمشاة تصل شحنتها الى ٢٠٠ غرام ، ومن ثم ظهرت العبوة المضادة للدبابات . لقد كان كاربيشيف مخترعا لا يكل حقا . فمثلا ، ان ما يسمى بالعوائق غير الملحوظة التى تسلح بها الجيش الاحمر كان يطلق عليها «احبولة كاربيشيف» على اسم صانعها . وقد كانت خفيفة وصغيرة الحجم ،لانها كانت تصنع من اسلاك فولاذية دقيقة . ان رزمة واحدة من العوائق غير الملحوظة يمكن نشرها وتثبيتها فى المكان فى غضون خمس او عشر دقائق . وكانت تعرقل تحرك المشاة المنقضين والمصفحات والدبابات الخفيفة . وقاد كاربيشيف ايضا صنع وسائل عالية الانتاجية لمكننة اعمال الطرق ، ووسائل للعبور ذات حمولة كبيرة . والى جانب ذلك كان كاربيشيف يعير التدريس فى المؤسسات العسكرية الجديدة اهتماما متزايدا . وقد بدأ منذ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٣ التدريس فى الدورات الاكاديمية العسكرية وفى الاكاديمية العسكرية للجيش الاحمر ، وصار فى شباط (فبراير) عام ١٩٢٤ يدرس كذلك فى الاكاديمية الجوية العسكرية . واصبح كاربيشيف منذ شباط (فبراير) عام ١٩٢٥ المسؤول الرئيسى عن العمل الهندسى فى الاكاديميات جميعا ، واخيرا ، فى عام ١٩٢٦ ، انخرط كليا فى العمل التربوى فى اكاديمية فرونزه العسكرية .

كان كاربيشيف يسيطر على الطلبة بمهارة ويحسن اقامة اتصال دائم بهم . وكان يصيب الطلبة بعدوى حبه للمادة . وكانت مسائل العمل الهندسى العسكرى ترتبط فى محاضراته ارتباطا وثيقا بمقتضيات التكتيك وفن العمليات . وفى الوقت نفسه كان يشير باستمرار الى انه اذا لم يعرف قائد القوات العامة امكانات العمل الهندسى ، كان لا يحسن ، مثلا ، تحصين مواقعه ، فانه لن يستطيع استخدامها بشكل صحيح سواء فى الدفاع او فى الهجوم .

اننا نحن جميعا ، طلبة الاكاديمية درسنا عند كاربيشيف وقدرنا عاليا معرفته ان يبين بوضوح واقناع ما ادخل من جديد فى تنظيم قوات جيشنا الاحمر العمالى الفلاحى الفتى وتجهيزها التكنيكى .

فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٣٤ ، وبمناسبة اليوبيل الخامس عشر لاكاديمية فرونزه العسكرية ، منح كاربيشيف لقاء عمله العلمى – التربوى الممتاز شهادة فخرية من اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتى وساعة ذهبية . وانتقل ، من غير ان يقطع الصلات باكاديمية فرونزه ، الى اكاديمية الاركان العامة التى اسست حديثا ، حيث اصبح فى عام ١٩٣٦ مساعدا لرئيس كرسى تكتيك التشكيلات العليا لقوات الهندسة .

«ضابط ذو ثقافة عالية واختصاصى فى عمله ، من العاملين الممتازين . ان التبحر الغنى فى كل مسائل العمل العسكرى ، والمعارف الكبيرة فى مجالى العمليات والتكتيك لا تجعل الرفيق كاربيشيف اختصاصيا فى الهندسة فحسب ، بل وفى قيادة القوات وفى عمل الاركان العامة» – هذا ما جاء عن كاربيشيف فى شهادة سلوكه لعام ١٩٣٧ .

ولكن افضل شهادة لكاربيشيف هى حب الطلاب المخلص والمتقد واحترامهم العميق له كانسان ومرب وهب كل قواه الروحية حقا لقضية تربية وتعليم القادة الشباب .

وهذا مثال يبين بساطة واصالة المنهج التدريسى لكاربيشيف . فى احد الايام ، عوضا عن ان يجلب كاربيشيف جدولا مطبوعا الى المحاضرة ، جعل نفسه بعض الوقت وسيلة ايضاح ملموسة حية . فقد كتب على ركبته بالطبشورة الرقم واحد ، وعلى حزامه الرقم ٢ ، وعلى صدره الرقم ٤ ، وعلى قبعته الرقم ٨ ، وعلى يديه المرفوعة بالقفاز الرقم ١٦ . وسيلة الايضاح هذه لمعدلات الزمن فى حفر الخنادق بقيت عالقة بالذاكرة مدى الحياة . «من اجل اطلاق النار منبطحا يجب ان يكون الخندق بهذا العمق للتستر حتى الركبة ، ولحفر متر واحد من هذا الخندق يحتاج المحارب الى ساعة واحدة . ولهذا كتب على الركبة الرقم واحد . وللرمى من الركبة يجب ان يكون العمق هكذا للتستر حتى الحزام ، وحفر خندق كهذا يتطلب ساعتين . . .»

ان كاربيشيف ، اذ عمل فى اكاديمية الاركان العامة ، لم يفارق

اكاديمية فرونزه العزيزة على قلبه وكان ايضا على صلة وثيقة باكاديمية كويبيشيف للهندسة العسكرية . وكان يكرر دائما انه لا بد للجيش الاحمر على عتبة المعركة الداهمة مع الفاشية من اعداد جدى للغاية لا يمكن تحقيقه الا بجهود جماعية . وقد قال الجنرال ايفانوف رئيس كرسى التامينات الهندسية للمعركة والعملية ان كاربيشيف كان يأتى الى كرسيه مرة فى الشهر على الاقل ويلقى تقارير ويوجه العمل الابداعى المشترك وينسقه . وفى اكاديمية الاركان العامة كان يسعى باستمرار الى ان يكون على علم بكل جديد ، وكان غالبا ما يتردد الى المحاضرات ، ولم يكن ينتقى محاضرات الاساتذة العسكريين المعروفين فحسب ، بل ومحاضرات المدرسين الشباب ، المبتدئين .

واذ عمل بنشاط فى المجالس العلمية الاكاديمية ، كان ينظر فى مؤلفات العلماء العسكريين بتمعن ويقومها ، وكان ينتقد الاعمال السطحية والمكتوبة كيفما اتفق ، وكان الى جانب ذلك موجها علميا دقيقا وضليعا للعلماء الشباب . قال فى عام ١٩٣٦ : «لا يستطيع المدرس قصر نشاطه على التدريس فقط . ان من يدرس افكار غيره ولو بموهبة ليس مدرسا بعد» . ووجه هذه الدعوة الى زملائه : «استنبطوا فقط ابتكاركم الخاص ، الجديد ، الواعد ، الضرورى للقوات والاعداد القتالى للجيش . يجب ان تكون انظار العالم متطلعة الى الامام ، الى المستقبل فقط !» .

اقترح على كاربيشيف مرارا ان يشغل منصب نائب رئيس الاكاديمية لشؤون التدريس ، ولكنه كان يرفض باصرار . واصر على هذا بشكل خاص فى مستهل عام ١٩٣٩ ، وما زالت اضبارته الشخصية تحتفظ بهذا الوصف :

«لقد برهن على اخلاصه لحزب لينين وللوطن الاشتراكى بخدمته الممتازة فى الجيش الاحمر منذ تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩١٧ ، وبعمله الدؤوب الى الحد الاقصى . وحيث انه من العاملين العلميين الكبار ، فقد كان دوما يتناول بعمق دراسة النظرية الماركسية – اللينينية ويطور نفسه فى هذا المجال كثيرا وباهتمام كبير . والرفيق كاربيشيف ، المجد والمواظب فى استقصاءاته ، صارم ودؤوب ازاء ذاته ، ويتمتع بارادة قوية على الرغم من تقدمه فى السن ، وهو ذو طاقة وحيوية لا يهاب الصعاب فى الميدان وفى

التنقلات . انه ذو انضباط ممتاز وانسان نموذجى ومتواضع ورابط الجاش ورفيق ممتاز يقدم دوما مساعدته للآخرين وان كان فى ذلك ضرر له احيانا . وهو آمر رفيع الثقافة واختصاصى فى عمله . ان رغبته وبراعته فى نقل معارفه الى الدارسين معروفتان للجيش كله من حيث الجوهر او ، على الاقل ، لتلك الكوكبة من الوف الضباط الاكاديميين الذين تعلموا على يد الرفيق كاربيشيف» .

وبالفعل ، كان شىء من سوفوروف يدهشنا فى مظهر وسلوك كاربيشيف : فهو القصير القامة ، النحيل ، ذو الجسم الواهن بطبيعته ، بالاضافة الى تقدمه فى السن ، كان فى المناورات والتدريبات الميدانية اكثر تحملا من بعض الضباط الشباب ذوى البنيان المتين . وغالبا ما كان كاربيشيف يشاهد فى مرمى ومباريات الرمى ، ولم يكن ينفذ المعدلات المطلوبة فى الرمى من المسدس والبندقية الحربية فقط ، بل كان يشغل اماكن اولى .

كان كاربيشيف مخلصا للعمل العسكرى عامة وللعمل الهندسى خاصة ، بحيث انه اقنع ابنته الكبرى بان تصبح مهندسة عسكرية . ولم يكن من السهل على الفتاة الحصول على اذن بالانتساب الى مؤسسة تعليمية عسكرية . ولم تدرج يبلينا كاربيشيفا فى عداد الطلاب الا بعد ان توجه ابوها الى مفوض الشعب للدفاع شخصيا .

لقد سبق وقلت ان اولى مطبوعات كاربيشيف العلمية ظهرت بعد الحرب الاهلية مباشرة . ففى عام ١٩٢١ نشرت مجلة «الجيش والثورة» فى ثلاثة اعداد مؤلفه المكرس لاشكال ومبادئ التحصين فى مختلف الظروف . وفيما بعد ادى كاربيشيف قسطا وافرا فى نظرية الضمان الهندسى للاعمال القتالية ، وفى حل الكثير من القضايا الخاصة للفن الهندسى – العسكرى . واتسمت باهمية فائقة توصياته الموجهة الى تطوير بنية تنظيم وملاك قوات الهندسة واساليب استخدامها القتالى ، وتحليله لتغيرات الترابط بين التحصين والتكتيك مع ظهور وسائل جديدة للصراع المسلح وتنبؤاته بتطور التحصين .

فى فترة ما بين الحربين فسر المهندسون العسكريون السوفييت بطريقتين مهماتهم فى حرب المستقبل . كان اساتذة اكاديمية الهندسة العسكرية يرون متاثرين بالمنظرين الفرنسيين المهمة الرئيسية للفن الهندسى العسكرى فى ان يقام على حدود الدولة نظام متشعب من

المناطق المحصنة الطويلة الاجل . وكان انصار هذا المفهوم يسبغون على القلاع والمناطق المحصنة مغزى انظمة كافية بذاتها ، بل وكانوا يؤكدون ان على القوات ان تتكيف مع مخطط الاعمال الدفاعية الذى يعده المهندسون . والاتجاه الثانى وضعه ودافع عنه مهندسو القوات من حيث الاساس . وهم ، اذ استرشدوا بتصورات قابلية القوات العصرية للحركة وللمناورة ، اعتبروا ان من الضرورى تطوير اشكال التحصين الميدانية قبل كل شىء ، وافترضوا بناء على ذلك انه ينبغى اخضاع العمل الهندسى العسكرى لمقتضيات التكتيك وفن العمليات . وبالمناسبة ، فان المهندسين العمليين بالذات كانوا يتطلعون الى تزويد الجيش فى اسرع وقت ممكن بوسائل مكننة مختلف الاعمال الهندسية .

جعل الصراع الحاد بين وجهتى النظر المتضاربتين تطوير الفن الهندسى امرا صعبا . ان كاربيشيف ، الذى كان وفق طبيعة نشاطه العلمى ونشاطه فى الخدمة منهمكا بقضايا الضمان الهندسى للاعمال القتالية لقوات الميدان اكثر من انهماكه بمسائل تحصين الحدود ، كان مع ذلك يدرك جيدا مدى اهمية تغطية حدود الدولة بالتحصينات . وكان يسعى الى استخلاص فكرة سديدة من التصورات التى اعرب عنها فى المناقشات بين الجانبين المتعارضين .

ان كاربيشيف ، شأن المنظرين العسكريين السوفييت البارزين فرونزه وترياندافيلوف وتوخاتشيفسكى وغيرهم ، تنبأ منذ العشرينات بكثافة الدبابات فى حرب المستقبل . وانطلاقا من هذا كان اول عالم عسكرى سوفييتى يبحث بصورة كاملة فى استخدام الحواجز المضادة للدبابات وما يسمى بالتدمير فى الحرب المعاصرة . والى جانب ذلك اعار كاربيشيف تنظيم ومكننة الاعمال الهندسية حدا اقصى من الاهتمام . ان كاربيشيف فى مؤلفه الضخم «الضمان الهندسى للاعمال القتالية لوحدات المشاة» الذى صدر فى عام ١٩٣٩ علل من كل الجوانب الفكرة القائلة بان هذا الضمان يجب ان تحققه كل اصناف القوات ، وينبغى ان تستخدم قوات الهندسة المتخصصة لاعقد الاعمال التى تتطلب سواء قيادة عالية التأهل او استخدام تكنيك خاص . والهدف العام للضمان الهندسى للمعركة والعملية هو ، فى رأى كاربيشيف ، المساعدة على نجاح الاعمال القتالية فى الهجوم والدفاع ، وعلى حرية مناورة القوات . وكان كاربيشيف يعتبر ، مثلا ،

ان ضمان نشر قوى الجيش الرئيسية فى الفترة الاولى من الحرب يتطلب اعدادا هندسيا مسبقا لمسرح الاعمال العسكرية فى اراضيها .

انه ليستحيل تعداد كل المسائل العامة والخاصة للفن الهندسى العسكرى التى عالجها كاربيشيف بما عرف عنه من اتقان وعمق . واذ حلل كاربيشيف تجربة استخدام قوات الهندسة فى الحرب السوفييتية – الفنلندية ، تنبأ بنموها العددى اللاحق واتساع دائرة المهمات التى تنفذها . فعلاوة على ضمان المعركة والعملية ، سلم بامكان وضرورة مساهمة قوات الهندسة مباشرة فى الصراع ضد العدو باساليبها ووسائلها ، واصر على ان تشكل ، بالاضافة الى الوحدات النظامية ، تشكيلات هندسية كبرى من احتياطى القيادة العليا . وكانت المبادئ التى صاغها تكمن فى اساس تكتيك قوات الهندسة الذى اعد فى فترة ما قبل الحرب .

لقد مس الفكر الفضولى لكاربيشيف كل اصناف التأمين الهندسى للقوات . وهكذا ، فانه ، اذ ساهم ، مثلا ، فى النقاش حول اشكال التحصين الطويل الاجل الذى نشب فى مستهل العشرينات ، اعد مشروعا لمعقل دائم نموذجى . وحينما جرى الحديث عن طابع الدفاع الساحلى فى مواقعنا البحرية ، طرح كاربيشيف فكرة ذات آفاق واسعة جدا لانشاء قواعد مجهزة خصيصا من اجل الغواصات وحاملات الالغام والطرادات الصغيرة السريعة . لقد كتب كاربيشيف ما يربو على مئة مؤلف علمى من كتب وكراريس ومقالات وتعليقات مكرسة للضمان الهندسى للاعمال القتالية ومسائل التحصين والحواجز والتمويه الخ . وعلى اساس مؤلفات هذا المهندس البارز تشكلت آراء الكثير من المهندسين العسكريين وقادة القوات العامة .

وفى عام ١٩٣٨ منح الدكتور فى العلوم التكنيكية كاربيشيف اللقب العلمى بروفسور فى كرسى تكتيك التشكيلات العليا وعين عضوا فى لجنة الخبراء العسكريين لدى لجنة شؤون المدرسة العليا . وبمناسبة الذكرى العشرين للجيش الاحمر قلد وسام النجمة الحمراء وميدالية يوبيلية .

من المعروف ان الامبرياليين حاولوا مرارا فى سنوات ما بين الحربين ان يختبروا بالحراب قدرة وطننا الدفاعية ، وقد ساهم تلاميذ كاربيشيف فى التصدى لاستفزازات العسكريين الصينيين فى عام ١٩٢٩ ، والعسكريين اليابانيين عند بحيرة خاسان فى عام ١٩٣٨

وعند نهر خالخين – غول فى عام ١٩٣٩ . وحاربوا متطوعين من اجل حرية اسبانيا والصين .

لقد اعطت كل حملة شيئا من عندها للعمل الهندسى العسكرى ، فحاول كاربيشيف مراعاة كل ما هو جديد والتنبؤ باتجاهات تطور الستراتيجية والتكتيك فى الحرب العالمية الداهمة . وكانت القيادة العليا للجيش الاحمر تشركه دائما فى اعداد اهم خطط الاركان العامة ، وساهم فى اكبر المناورات وتجارب احدث نماذج الاسلحة الهجومية والدفاعية .

وعلى عتبة الاشتباك الحاسم مع الفاشية اعد كاربيشيف غير قليل من التوصيات المفيدة ، مصرا على ضرورة تدعيم الحدود الغربية للبلاد على الفور وبحد اقصى من المتانة . وساعد بكل الوسائل المتوفرة عنده على زيادة اليقظة ازاء المانيا الهتلرية . وبالاشتراك مع الجنرال غوندوروف رئيس اكاديمية الهندسة العسكرية اصر كاربيشيف فى الادارة الهندسية العسكرية الرئيسية للجيش الاحمر على ان من الضرورى القيام فورا بتحصين اضعف الاتجاهات واكثرها تعرضا للتهديد فى المناطق الغربية من اوكرانيا وبيلوروسيا .

فى ٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٠ منح كاربيشيف رتبة فريق قوات الهندسة ، وفى ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) قلد بمناسبة بلوغه الستين وسام الراية الحمراء . وحينذاك اقترح عليه منصبا نائب رئيس قوات الهندسة او رئيس اكاديمية الهندسة العسكرية ليختار احدهما . ولكنه رفض كلا الاقتراحين لاعتبارات مفادها ان من الهام عشية الاحداث الرهيبة الداهمة ان يفسح فى المجال للقادة الناشئين الشباب . وكانت كل افكار كاربيشيف مركزة على اعداد نظام للتحصينات على الحدود الغربية الجديدة للاتحاد السوفييتى . وانخرط بنشاط فى عمل المجلس التكنيكى لدى الادارة الهندسية العسكرية الرئيسية الذى انشىء خصيصا لهذا الهدف وللمساعدة العملية على تعزيز الاستعداد القتالى لقوات الهندسة . وهذا المجلس كان يقوده مارشال الاتحاد السوفييتى شابوشنيكوف نائب مفوض الشعب للدفاع ، المسؤول عن بناء التحصينات على الحدود الغربية . وشابوشنيكوف بالذات هو الذى ارسل فى ٧ حزيران (يونيو) عام ١٩٤١ كاربيشيف الى المنطقة العسكرية الغربية الخاصة لتفتيش مسيرة بناء المناطق المحصنة على خط نهر نيمان .

توجه كاربيشيف الى بيلوروسيا مع العقيد شامشييف . وقد عرجا على الجنرال فاسيلييف رئيس الادارة الهندسية للمنطقة ، وكذلك على الجنرالين كوزنيتسوف وغولوبيف قائدى الجيشين الثالث والعاشر ، ثم ذهبا الى منطقة غرودنو من اجل التفتيش المباشر للاعمال الدفاعية .

تلقت اسرة كاربيشيف آخر خبر منه فى يوم هجوم المانيا الهتلرية الغادر على بلادنا . وقد قال كاربيشيف فى رسالته القصيرة هذه بتاريخ ١٨ حزيران (يونيو) :

«يبدو اننى سأبقى هذا الاسبوع فى غرودنو ، اما اين سأذهب بعد ذلك ، فهذا ما لم افكر فيه الى الآن على وجه الدقة . سأبلغكم بالعنوان الجديد ، اما الآن فاكتبوا لى على العنوان القديم» .

وهكذا ، ففى الايام الاولى من الحرب كان كاربيشيف فى منطقة اعمال جيشينا الثالث والعاشر المرابطين فى ما يسمى بنتوء بيلوستوك . وخاض هذان الجيشان ، المضطران الى الانسحاب ، معارك قاسية وصدا بصمود وبطولة خارقين هجمات الهتلريين الضارية على الجوانب . وقد كتب الجنرال كولونيل غالدير رئيس الاركان العامة الالمانية للقوات البرية فى يومياته : «تجرى فى الغابة ، جنوب شرقى مدينة بيلوستوك ، معارك عنيفة تسمر خلافا للتوقعات كل وسط الجيش الرابع وجزءا من جناحه الايمن . ويحاول العدو اختراق حلقة التطويق الخارجية . . . يحارب الروس فى كل مكان حتى الشخص الأخير . . . تحدث الجنرال المفتش فى المشاة اوت عن انطباعاته حول المعركة فى منطقة غرودنو . ان مقاومة الروس العنيدة ترغمنا على خوض المعركة وفق كل قواعد انظمتنا القتالية . فى بولندا والغرب استطعنا ان نسمح لانفسنا بحرية معينة وباهمال مبادىء الانظمة ، والآن لم يعد هذا جائزا» .

كان كاربيشيف ، كما نعرف ، منتدبا لتفتيش اعمال التحصين . ومع بدء العمليات الحربية ، التى شملت مناطق هذه الاعمال ، فقدت مهمته عنصر الاستمرار . وكان المفروض ان يعود المفتش الى موسكو . وهذا ، كما يشهد الجنرال فاسيلييف ، ما اقترحه الجنرال كوزنيتسوف قائد الجيش الثالث على كاربيشيف منذ مساء ٢٢ حزيران (يونيو) . ولكن كاربيشيف اعلن انه فى الوضع الناشىء لن يغادر قوات جيش عامل بحال من الاحوال .

يشهد المساهمون فى تلك المعارك الضارية ضد الفاشيين على ان كاربيشيف ، الذى رفض الحراسة الشخصية التى اقترحها عليه قائد الجيش ، كان دوما بين المحاربين فى الخط الامامى . وقاد ، بين امور اخرى ، بناء جسر على نهر شارا الذى كان ينبغى اجتيازه للوصول من فولكوفيسك الى مينسك . وفى الايام الاخيرة من حزيران (يونيو) وقعت السيارة التى كانت تقله مع العقيد سوخاريفيتش رئيس دائرة الهندسة فى الجيش العاشر تحت القصف . قتل السائق وتعطلت السيارة . وتابع كاربيشيف وسوخاريفيتش تحركهما الى الشرق على عربة . ووصلا الى قرية نيزوك فى منطقة اوزدين من مقاطعة مينسك . وهناك استمعا بالراديو الى كلمة ستالين فى شقة المعلم المحلى ليتشكوفسكى .

وبعد هذا تابع كاربيشيف على راس فصيلة صغيرة طريقه الى الشرق على امتداد شهر كامل . وكان يقود مد معبر على النهر حينما ظهرت الطائرات الفاشية . وانفجرت احدى القنابل التى اسقطتها قرب الجنرال الذى كان ، شأنه دائما ، فى وسط المحاربين ، وكان يقود بناء الجسر عمليا . وجرح الجميع تقريبا بالشظايا ، اما كاربيشيف فقد اصيب علاوة على ذلك برضوض ، وانهال عليه التراب وحطام الجسر . ووقع فى اسر الالمان وهو فى حالة اغماء . ولم يعده الاطباء الالمان الى وعيه الا فى اليوم التالى .

لم اكن اعرف شيئا عن مصير كاربيشيف فى سنوات الحرب ، كل ما اعرفه انه ظهرت فى اضبارته الشخصية منذ عام ١٩٤١ هذه الكتابة الرسمية «فقد بلا اثر» . ولم تتضح ملحمة المأثرة الفريدة للجنرال الشيوعى الا بعد ان وقعت فى ايدينا ، مع ارشيف الدولة النازية المهزومة ، وثائق الغستابو ومعسكرات الاعتقال .

ان الطريق المأساوى لكاربيشيف فى الاسر الفاشى قد بدا فى معسكرات الانتقال قرب المدن البولندية تشينستوخوفا واوستروف مازوفيتسكى وزاموستى ، حيث كان اسرى الحرب السوفييت الذين وضعوا خلف الاسلاك الشائكة يموتون من الجوع والنظام الوحشى والتنكيل القاسى . ووصل كاربيشيف ايضا الى حافة الموت . ولم ينقذه الا المساعدة المتفانية من رفاقه فى المصيبة الذين اكنوا له

احتراما عميقا على الفور . بيد ان ادارة المعسكرات ما لبثت ان تلقت امرا بمعاملة العالم العسكرى السوفييتى معاملة خاصة ، فوضع فيما يسمى ببراكة «الجنرالات» . كان طواغيت الغستابو يأملون فى حمل الضابط القيصرى السابق على التعاون . ولكن علماء النفس الهتلريين كانوا على خطأ . انهم ، وقد اكتشفوا هذا ، زجوا بالوطنى فى سجن «الصليب المقدس» قرب كراكوف الذى اشتهر بنظامه الوحشى . ثم قرروا ان «يحسنوا» الى الاسير من جديد ، فنقلوه ثانية الى بلوك «الجنرالات» ، ولكن فى معسكر الاعتقال هاميلبورغ (بفاريا السفلى) هذه المرة .

تشير بعض الشهادات الى ان القيادة الهتلرية سعت اول الامر الى ان تجذب كاربيشيف الى جانبها ، لتنال منه معلومات عن الاصناف الجديدة من الاسلحة السوفييتية ، ولا سيما قذائف «كاتيوشا» الصاروخية . بيد ان افشاء سر «كاتيوشا» كان يجب ان يرمز الى مجرد بداية للتعاون . وكان زعماء الغستابو يدركون ، طبعا ، انه وقع فى ايديهم اختصاصى عسكرى ذو هيبة فائقة وكلمة راجحة ، فبذلوا كل ما فى وسعهم ليعقدوا معه اتصالا ، وليستخدموه فى اغراضهم .

لقد عين قومندانا لمعسكر هاميلبورغ ضابط سابق فى الجيش القيصرى من المان البلطيق ، وهو المدعو بيليت الذى خدم فى الجيش الالمانى الى ان وصل الى رتبة عقيد . وكان قد تخرج فى احدى المدارس العسكرية ذات الامتياز فى بطرسبورغ ، وكان يتقن اللغة الروسية على نحو ممتاز . وقد اعتبروا فى برلين ان بيليت سيتفق مع «زميله» بسهولة . ولم يشك فى الامر هو نفسه ، كما يبدو .

فى ذلك الحين كان الاسرى السوفييت فى الكثير من معسكرات الاعتقال الفاشية يتناقلون كلمات الجنرال كاربيشيف كامر ممن هو اكبرهم سنا ورتبة عسكرية : «الاسر امر رهيب ، ولكنه حرب ايضا ، وطالما ان الحرب دائرة فى الوطن ، فان علينا ان نناضل هنا . تصرفوا كما تقتضى مصالح الوطن ، وقولوا للجميع ان هذا امر منى !» .

اصيب بيليت ، شأن ملهمى المسعى الشائن لتجنيد كاربيشيف ، بخيبة مرة . ولم تسفر مواعظ اشهر عديدة عن اى شىء . واذ غضب «القائم على اعادة التربية» ، امر بزج الجنرال فى

زنزانة . ولكن قيادة الجيش الالمانى والغستابو لم تفقد الامل فى النجاح . وهذا ما تشهد عليه الرسالة التالية التى بعث بها الى بيليت من برلين الرائد فى الاس اس فولفرام رئيس القسم المعنى فى الغستابو : «ان الادارة الرئيسية لمكتب الهندسة فى الجيش الالمانى توجهت الىّ مجددا فى صدد الاسير الموجود فى معسكرك البروفسور ، الفريق فى قوات الهندسة كاربيشيف . لقد اضطررت الى تعليق حل المسالة ، لاننى عولت على انك ستنفذ التعليمات فى صدد الاسير المذكور وستستطيع ان تجد لغة مشتركة معه واقناعه بانه اذا قدر وضعه بشكل صحيح وتجاوب مع رغباتنا فسينتظره مستقبل جيد . بيد ان الرائد بيلتسير ، الذى ارسل الى معسكرك بصلاحيات تفتيشية اعرب عن عدم ارتياحه بشكل عام لتنفيذ كل الخطط المتعقلة بمعسكر هاميلبورغ . فالاسرى فى معسكرك مسممون بالروح البلشفية . اما فى خصوص كاربيشيف المذكور ، فان الرائد بيلتسير ابلغنى بان هذا الاسير لم يتحول منذ وجوده فى المعسكر بالروح المطلوبة ، ولا يزال عنيدا كالسابق ، وعلاقاتك به اخفقت بحيث وضعته حاليا فى زنزانة منفردة . ان اى انعدام للتساهل ، الأمر الضرورى فى العلاقة بالاسرى عموما ، يبدو لى غير صالح فى هذه الحالة بالذات» .

وكما اتضح فيما بعد ، كانت برلين تفترض اغراء كاربيشيف برتبة جنرال وبمنصب رفيع فى ادارة الهندسة فى الجيش الالمانى . ان التوبيخ الذى تلقاه بيليت من القيادة دفعه الى متابعة محاولة استمالة الجنرال الاسير الى التعاون . فقد سمح ، مثلا ، لكاربيشيف ان يجرى احاديث مع الاسرى ويلقى عليهم محاضرات فى مواضيع اقتصادية وتاريخية ، وذلك ، على ما يبدو ، ليشعر العالم الصعب المراس ، اذ يجد نفسه فى بيئته الاصلية ، بارتياح معنوى فيكن العطف لحاميه . بيد ان كاربيشيف ، الذى ادهش القومندان نفسه بتبحره الشامل ، اذ كان يلقى المحاضرات فى مواضيع «ثقافية عامة» تبدو فى غاية البراءة ، لم يساعد السجناء ابدا على التخلص من «الروح البلشفية» . كان يلهمهم بفن خارق ويرسخ فى عقولهم وقلوبهم الايمان بالانتصار النهائى للوطن السوفييتى .

كان الهتلريون يحاولون بعناد وبكل الوسائل تسميم روح المواطنين السوفييت . وكانت توزع فى هاميلبورغ جرائد معادية

للسوفييت يصدرها المهاجرون البيض ذوو الاتجاه الموالى لهتلر والمارقون الخونة . وهناك حاول الخائن فلاسوف فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٢ تجنيد المرتزقة لجيشه المسمى «جيش التحرير الروسى» ، ولكنه لم يحقق شيئا واضطر الى الاعتراف بان المزاج السائد فى المعسكر خيب أمله بشدة . ومنى بالفشل نفسه انذال آخرون كانوا يعملون بايعاز من الغستابو . ان المدعوين مالتسيف ، زعيم «حزب العمل الشعبى الروسى» وبوروفيك ، زعيم «اتحاد الشبيبة الروسى» (لم يكن برنامجا هاتين المنظمتين الوهميتين يختلفان من حيث الجوهر عن البرامج الفاشية) ، اللذين كانا يتشدقان بالحديث عن «حكومة روسية جديدة» ، اقترحا على كاربيشيف «منصب وزير الحربية» . وكان من الطبيعى ان يرفض بازدراء هذا الاقتراح وغيره من الاقتراحات المشينة .

بذلت المحاولة الرئيسية لاستمالة كاربيشيف الى التعاون مع الهتلريين فى برلين التى نقل اليها الجنرال الاسير تحت الحراسة ، وقد استقبله الجنرال فيلدمارشال كيتيل رئيس اركان القيادة العليا للقوات المسلحة فى المانيا . هذا المستشار العسكرى الرئيسى لهتلر تصرف بتفنن اشد . قال ان الحكومة الالمانية وقفت موقف التفهم من رفض كاربيشيف ان يمارس نشاطا سياسيا او ان يصبح جنرالا فى الامبراطورية . وقد اتخذ قرار بالطلب من ممثل علم الهندسة العسكرية البروفسور كاربيشيف الموافقة على العمل فى مخبر للتحصينات الهندسية اقيم له خصيصا بالتعاون مع البروفسور الالمانى هاينتس راوبنهايمر .

ولكن كاربيشيف لم يكن من الذين يمكن ان يعميهم بريق كتافيتى الفيلدمارشال وفخامة المقر الرئيسى للجيش الالمانى ، او يدغدغهم الصوت المتملق لكيتيل الذى يعد بكل الموارد من اجل اعداد «مخبر كاربيشيف» المقبل الذى سيغدو ، على حد زعمه ، اكبر مركز علمى للتحصين . كان رد كاربيشيف ، كما يبدو ، سريعا ووحيد المدلول . نعم ، انه عالم وكرس كل حياته لفن الهندسة العسكرية ، ولكنه قبل كل شىء شيوعى ووطنى وجندى ، ولن يتاجر بضميره مهما كانت الظروف . وهكذا ، فبعد الاستقبال فى المكاتب الفاخرة للقيادة الهتلرية ، وجد كاربيشيف نفسه فى زنزانة منفردة من سجن الغستابو فى شارع برينتس البيرت فى برلين . وهناك تعرض

على امتداد شهر لتعذيب وحشى بما فى ذلك ، مثلا ، التعذيب على مدار اليوم بضوء كهربائى يعمى الابصار .

فى آذار (مارس) عام ١٩٤٣ ، حينما اتضح ان ادارة معسكر الاعتقال هاميلبورغ عاجزة عن مجابهة مقاومة السجناء المتعاظمة ، الغى هذا المعسكر . وقد حلت مسألة كاربيشيف على نحو خاص . استفسر الغستابو من الادارة الهندسية العسكرية الرئيسية للجيش الالمانى عما اذا كانت هذه المؤسسة العليا لا تزال تأمل فى الاستفادة من معارف كاربيشيف وتجربته . ويتضمن الاستفسار تذكيرا لا يقبل التاويل بان كل محاولات استمالته الى التعاون لم تساعد الى الآن الا على النمو المطرد للامزجة المعادية للنازية فى معسكرات اعتقال الاسرى الروس وفى غيرها ايضا .

وكان رد ادارة الهندسة العسكرية كما يلى : «لما كان قد اتضح ان كاربيشيف ، هذا العالم السوفييتى الكبير فى شؤون التحصينات والضابط النظامى فى الجيش الروسى القديم والانسان الذى تجاوز الستين ، متشرب بالروح البلشفية حتى العظم ومخلص بتعصب لفكرة الامانة على الواجب العسكرى والوطنية ، فلا بد من اعتبار ان لا أمل فيه من حيث امكان استخدامه بمثابة اختصاصى فى العمل الهندسى العسكرى» .

وتتضمن الوثيقة قرارا واضحا بالحبر الاحمر : «يرسل الى معسكر الاعتقال فلوسينبورغ للاعمال الشاقة بدون اى تهاون بسبب الرتبة والسن» .

كان ذلك يعدل حكما بالموت المضنى البطىء .

حينما كان الفاشيون يتفننون ، لاجئين الى كل ما يخطر على البال من اشكال «الترهيب والترغيب» ، لتحطيم معنويات كاربيشيف ، شاعت بين رفاقه فى المصيبة سمعة الجنرال الصلب . وصار الناس يتناقلون من معسكر الى معسكر اسمه ووصاياه حول التصرف فى الاسر الفاشى ، ومنها ، مثلا :

«اولا . التقيد مهما كانت الظروف بالتلاحم والتعاضد الرفاقى ومساعدة الجرحى والمرضى بكل القوى .

ثانيا . رفع شرف محارب الجيش الاحمر عاليا والاخلاص للقسم العسكرى حتى النهاية . عدم الحط من كرامة الانسان السوفييتى فى اى شىء امام العدو .

ثالثا . خوض نضال متفان ضد الفاشيين واعوانهم من خونة الوطن ، مع الامكانية الاكيدة لابادتهم .

رابعا . تشكيل مجموعات وطنية للهدم والتخريب .

خامسا . الفرار بجرأة من الاسر ومساعدة الرفاق على هذا .

سادسا . رفض وفضح الدعاية الفاشية .

سابعا . المحافظة بقدسية على القناعة الشيوعية .

ثامنا . الدعم الثابت لايمان الرفاق بالنصر النهائى والكامل للوطن السوفييتى الذى سيجلب التحرر من الاسر» .

هذه الوصايا الثمانى للجنرال كاربيشيف كانت بهذه الصياغة او تلك معروفة لاغلب الاسرى .

ان الضابط سانين من سيبيريا ، الذى ساهم فى الدفاع عن قلعة بريست ، وكان من الذين وقفوا الى جانب كاربيشيف المريض واعتنوا به ، يتذكر الخصائص المميزة لسلوك الجنرال . كان متحفظا وحذرا فى العلاقة بالناس الذين لا يعرفهم كثيرا ، وكان ينبه الرفاق الى ضرورة التقيد باليقظة . وكان يقرأ كل الجرائد الالمانية التى تصل الى المعسكر ويعلق عليها بصوت مسموع ويبرز الوقائع التى تشهد على ان المانيا الهتلرية آيلة الى الانهيار .

فى الظروف الرهيبة للاسر الفاشى ، غدا الجنرال الشيوعى قدوة لآلاف السجناء . وكان ينجذب اليه كل الاسرى ، على الرغم من النظام الوحشى . كان يلهمهم ايمانه المتقد انتصار الوطن السوفييتى ، والهزيمة الاكيدة للفاشية . وكان رفاقه فى المصيبة من الاجانب يقولون : «انه ليستحيل قهر بلد يملك ابناء مثل كاربيشيف ، وجيش عنده جنرالات مثله ، وثقافة ربت علماء مثله ، وحزب يضم فى صفوفه اناسا مثل الجنرال كاربيشيف» . فهل ثمة ما يدعو الى الدهشة فى كون كلمات «قال الجنرال الروسى كاربيشيف» كانت بالنسبة الى الكثير من الاسرى الفرنسيين والبولنديين واليوغسلاف ترن بشكل دامغ ، قاطع وكأنها كلمة سر .

فى معسكر فلوسينبورغ قرب نيورنبيرغ ، كان كاربيشيف ضمن فريق من السجناء ينقلون الاحجار . وفى خلال اقل من شهرين اضنى تماما ، فنقل الى مشفى المعسكر وبقى هناك من اواسط ايار (مايو) حتى اواخر الصيف . وفى تلك الايام رفض اقتراح الوطنيين السريين السوفييت ان يستبدل بوثيقته المعسكرية وثيقة سجين متوف لكى

«يذوب» وهو يحمل اسم غيره فى جمهور الاسرى . وقال كاربيشيف انه لا يخاف ان يكون ظاهرا للعيان ويقتل وهو بالنسبة الى الجميع جنرال الجيش الاحمر دميترى كاربيشيف . وقال ايضا :

– ان اسمى الذى حمله اجدادى السيبيريون من قديم الزمن لم يلوثه شىء .

قطع الغستابو من جديد اقامة كاربيشيف فى مشفى معسكر فلوسينبورغ . وزج بالمعتقل فى السجن وهو مقيد بالاصفاد . ولكن بعد ذلك بيومين او ثلاثة دمر السجن فى خلال غارة للطيران الاميركى . واعيد السجناء الذين بقوا على قيد الحياة ، ومن بينهم كاربيشيف ، الى فلوسينبورغ . وعمل هناك فى المحاجر حتى شباط (فبراير) عام ١٩٤٤ .

ثم نقل الجنرال الى معسكر الاعتقال مايدانيك قرب لوبلين .

عن هذه المرحلة من طريقه الوعر تحدث الطبيب هوفمان من ساراتوف : «نقل كاربيشيف الجائع ، المنهك ، المضنى الى مايدانيك للقضاء عليه نهائيا . اتذكر ذلك النقل الشنيع . . . فى ذلك الحين كنت ، انا الطبيب من حيث الاختصاص ، اعمل فى مشفى المعسكر لتقديم الخدمة الطبية للمعتقلين . اتذكر كيف وقعت فى يدى بطاقة تسجيل المعتقل كاربيشيف دميترى ميخايلوفيتش ، ٦٣ سنة ، بروفسور ، فريق فى الجيش الاحمر . كان يقف امامى شيخ شائب هزيل للغاية ، متورم الوجه واليدين يرتدى ثوبا مقلما ممزقا وينتعل قبقابا خشبيا مقورا . ولم يكن يشهد على ان ارادة هذا الشخص لا تلين سوى ملامح وجهه الصارمة وعينيه المتقدتين المضطرمتين» . تسنى للطبيب الاسير وضع كاربيشيف فى براكة يوجد فيها ٣٠٠–٣٥٠ اسيرا مريضا تحت رعايته . بعد قرابة الشهر ونصف استعاد كاربيشيف قواه الى درجة انه صار مساء ، حينما يسود هدوء نسبى فى المعسكر ، يحدث المعتقلين عن حياته الحافلة بالاحداث . وخلفت انطباعا خاصا ملاحظاته القصيرة عن قرب انهيار الفاشية . ولكن هذا لم يستمر طويلا . اذ ان الغستابو الذى افترض ، كما يبدو ، ان ايام الاسير المتمرد معدودة ، اخذ كاربيشيف مجددا (من الواضح ان هذا لم يكن بدون وشاية من مخبرين سريين) . وفى ٧ نيسان (ابريل) عام ١٩٤٤ نقل كاربيشيف الى اوسفينتسيم الذى لم تكن سمعته اقل شناعة من سمعة

مايدانيك . واخذت ادارة المعسكر فى اوسفينتسيم تهين الجنرال السوفييتى بخسة ، ولكن كان يرعاه مئات الناس فى العمل ، وكانوا يحاولون ان يهيلوا فى عربته رملا اقل ، وكان يوجد ، اذا اصيب بعياء عام ، مساعدون متطوعون . وحينما اضعف نقص التغذية والجهد الشديد جسم كاربيشيف الى درجة مرعبة ومرض بالتهاب حاد جدا فى الرئتين ساعد العون المتفانى للرفاق من سوفييتيين واجانب كاربيشيف على ان يتعافى وينهض على قدميه .

فى اواسط عام ١٩٤٤ اختار الغستابو فى اوسفينتسيم مجموعة من الضباط السوفييت الذين يشتبه فى قيامهم بتنظيم التخريب . وقد ادرج فيها كاربيشيف . وارسلت المجموعة كلها الى معسكر زاكسينهاوزين قرب برلين . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٤٤ بعد اقامة قصيرة فى القسم المركزى لهذا المعسكر ، ارسل كاربيشيف الى فرعه «هينكيل» . وهناك ، فى مصنع الطائرات ، دعا المعتقلين الى تخريب المعدات واتلافها . وهنا ايضا دعم الرفاق البطل بكل ما يستطيعون .

بيد ان النهاية الفاجعة كانت قد اقتربت . ففى تلك الايام ، حينما اصبحت القوات السوفييتية عند اودير على بعد ٧٠ كيلومترا عن زاكسينهاوزين ، ارسل من هناك الى معسكر ماوتهاوزين ٤٥٠ معتقلا اعتبروا من المعتقلين السياسيين . كان ذلك فى ١٣ شباط (فبراير) . وصلت هذه الدفعة من المقضى عليهم بالموت ، ومن ضمنها كاربيشيف ، الى ماوتهاوزين فى ١٧ شباط . كان الصقيع يبلغ اثنتى عشرة درجة تحت الصفر ، وكانت تعصف ريح باردة . لقد اعد الجلادون الهتلريون موتا مضنيا لاحدى المجموعات القادمة حديثا ، وكان فى عدادها كاربيشيف . جردوا المعتقلين من كل ملابسهم وساقوهم الى باحة المعسكر وسلطوا عليهم من خراطيم ماء قوية تيارات باردة توقع ارضا . وتكرر التعذيب المرة تلو المرة وقد قال شاهد عيان ان احد الذين يجرى تعذيبهم ، وهو شخص شائب ، وقف تحت تيارات الماء ، مستندا الى الجدار .

ان دميترى كاربيشيف ، الجنرال السوفييتى الروسى ، وقد اضناه عذاب وحشى حقا ، تحول على مرأى من اناس كثيرين الى تمثال جليدى للصمود العسكرى والاخلاص للواجب .

كان سجين ماوتهاوزين ضابط الجيش الكندى سيدون دى

سانت كلير من بين القلائل الذين عاشوا بعد هذا التنكيل الوحشى . وفى اواسط شباط عام ١٩٤٦ ، وكان فى احد مشافى لندن ، طلب من الادارة دعوة ممثل سفارة الاتحاد السوفييتى فى لندن ، وحينما اتاه المقدم سوروكوبود من العاملين المسؤولين لدى البعثة العسكرية السوفييتية فى لندن حدثه بحضور الكاهن بما يلى :

«ارجو تسجيل شهادتى وارسالها الى روسيا . اعتبر من واجبى المقدس ان اشهد من غير تحيز بما اعرفه عن الجنرال كاربيشيف . اننى اؤدى واجبى ، واجب انسان عادى امام ذكرى انسان عظيم . لن اعيش الا وقتا قصيرا جدا ، وتقلقنى كثيرا فكرة ان تدفن معى الوقائع التى اعرفها عن الحياة والشهادة البطوليتين للجنرال السوفييتى الذى يجب ان تعيش ذكراه الطيبة بين الناس» . ثم عرض وقائع مصرع كاربيشيف ورفاقه التى اوردناها ، واختتم حديثه قائلا : «كان الجنرال المسن هادئا ، شأنه على الدوام ، ولكن اصابته رعشة قوية ككل واحد منا . قال شيئا حارا ومقنعا للروس المحيطين به . وقد اصغوا اليه باهتمام . والتقطت فى جمله كلمتين مفهومتين لى كررهما مرارا : «الاتحاد السوفييتى» . ثم نظر فى اتجاهنا وقال لنا بالفرنسية : «المزيد من النشاط ايها الرفاق . فكروا فى وطنكم ولن تفارقكم الشجاعة» .

بعد هذا التعذيب بقى باعجوبة عدة اشخاص فى عداد الاحياء ، بينهم انا . . .

ان ذكرى الجنرال كاربيشيف مقدسة عندى . اتذكره باعتباره اكبر وطنى واشرف جندى وانبل واشجع انسان قابلته فى حياتى» .

فى ١٦ اب (اغسطس) عام ١٩٤٦ منح كاربيشيف بعد وفاته بامر من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

واقيم فى اراضى ماوتهاوزين نصب ضخم للبطل ولعشرات الالوف ممن قتلوا فى معسكر الاعتقال هذا . فقد قتل هناك اثنان وثلاثون الفا من الاسرى السوفييت وحدهم .

فى اول احد من ايار (مايو) يجتمع فى ماوتهاوزين كل سنة حشود كبرى احياء لذكرى شهداء النضال ضد الفاشية . وحسب التقليد توضع الاكاليل عند قاعدة نصب الجنرال كاربيشيف ، ثم عند التماثيل الوطنية لمواطنى كل بلدان اوربا تقريبا الذين عذبتهم الهتلرية هناك . وتطلق دعوات ملتهبة الى اتحاد الشعوب فى النضال ضد بعث النازية ، وضد التهديد بحرب جديدة .

على لوحة من الغرانيت فى نصب الجنرال كتابة موجزة باللغتين الروسية والالمانية : «دميترى كاربيشيف . العالم . المحارب . الشيوعى . كانت حياته وموته مأثرة من اجل الحياة» .

فى مدينة اومسك ، مسقط رأس البطل ، اقيم كذلك على زاوية شارعى بوشكين والذكرى العاشرة لاكتوبر نصب عليه هذه الكتابة : «الجنرال دميترى ميخايلوفيتش كاربيشيف ، من مواليد مدينة اومسك ، ابدى فى سنوات الحرب الوطنية العظمى جرأة وصمودا خارقين فى النضال ضد اعداء وطننا . انه ، اذ كان فى السجون الفاشية ومعسكرات الموت ، حافظ على شرف وكرامة المواطن السوفييتى والعالم والشيوعى . وهذا الوطنى الامين على قسمه فضل الموت على الخيانة . الخلود لذكرى الابطال الذين سقطوا فى المعارك من اجل حرية وطننا واستقلاله !» .

ان محطة سكة الحديد على ضفة ارتيش اليسرى ، التى كان يعرفها السيبيريون باسم كولومزينو ، يطلق عليها الآن اسم كاربيشيفو . ويستقبل القادمين الى اومسك هذا الاسم المقدس عند السوفييتيين : **كاربيشيف** .

وفى موسكو عاصمة وطننا اطلق اسم البطل على بولفار رائع فى حى خوروشيفو-منيوفنيكى ، واقيم عند بدايته نصب للوطنى المقدام .

كلمة عن مؤلف هذا الكتاب

بقلم بيلوبورودوف
جنرال الجيش ، الحائز لقب بطل الاتحاد السوفييتى مرتين

فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٤٣ ، حينما كنت اقود فيلق المشاة الثانى الذى كان يعمل ضمن جبهة البلطيق الاولى ، عين ايفان خريستوفوروفيتش باغراميان قائدا لقوات هذه الجبهة .

استدعيت الى اركان جيشنا الضارب الرابع . هناك فى بيت قروى فسيح اجتمع قادة الفيالق الآخرون ايضا ، وما لبث ان دخل الجنرال باغراميان ، وهو اميل الى الطول ، حسن البنية ، له هيئة فارس حقيقية . كانت نظرات عينيه البنيتين القاتمتين ، العميقتين ، الذكيتين ، اللتين يشوبهما شىء من الحزن ثاقبة تنم عن الود .

قبل هذا اللقاء قابلت باغراميان اخر مرة فى اواسط حزيران (يونيو) عام ١٩٤٢ ، حينما اتى مع عضو المجلس العسكرى للجبهة الجنوبية الغربية الى فرقتنا ، فرقة المشاة التاسعة ، التى كانت قد صدت لتوها ضربة مدرعة قوية للعدو فى اتجاه كوبيانسك . كان باغراميان حينذاك فريقا ، ولم يكن على قميصه الا وسام الراية الحمراء . والآن جلس امامنا جنرال جيش يزين صدره وسامان قياديان جديدان ، سوفوروف وكوتوزوف ، وكلاهما من الدرجة الاولى . لم يتسن الا لقلائل ان ينموا هكذا فى خلال عدة اشهر ، حتى فى ذلك الوضع القتالى للحرب الماضية .

واذ استمع الجنرال باغراميان الى تقارير قادة الفيالق ، سجل ملاحظات وطرح اسئلة . وكان يكرر السؤال حينما يجد الجواب غير مرض . ولم يكن يحث من يجد منا صعوبة فى الاجابة فورا . وحينما بدأ احد مقدمى التقارير يعد الارقام والوقائع التى رافقت نجاحات فيلقه فى العملية الماضية ، قاطعه باغراميان مرتين ولاحظ باللهجة المتزنة نفسها :

— هذا معروف من البلاغات العسكرية . بودى ان اسمع تقديرك انت للوضع القتالى الحالى بصورة ملموسة اكثر . نحن نستعد لمعارك هجومية جديدة . ما هو راى اركانك فى هذا الصدد ، وما هو

رأيك انت ؟ لا نحتاج الى ارقام ، بل الى تحليل قائم على الارقام والوقائع .

كان تقريرى هو الاخير .

من الطبيعى اننى راعيت فى تقريرى الملاحظات التى ابداها القائد واعرت المسائل التكتيكية الاهتمام الاساسى . حينما حللت مع ضباط الفيلق عملية نيفيل التى انتهت ، توصلنا الى هذا الاستنتاج بالاجماع : لو حشد الفيلق فى شريط اضيق لاستطاع توجيه ضربة عميقة الى العدو وسد طريق نيفيل فى مؤخرة العدو مما يجعل تطويقه اكيدا . وقد عرضت هذا الاستنتاج على القائد .

قال باغراميان :

— تبقى هذه المهمة عليكم . سنضيق الشريط ونقدم الدبابات .

وتابع باغراميان :

— اسمحوا لى ، ايها الرفاق ، ان اقول انا ايضا بضع كلمات عن الوضع الناشئ فى جبهتنا عموما .

ازيحت ستارة الخيش ، فراينا خريطة مرسومة على نحو رائع . لفت باغراميان انتباهنا الى الصورة المعقدة الى اقصى حد لخط الجبهة . اذ تقع فى اقصى جناحها الايمن بحيرات عديدة ، كأنها اوراق زهرة عملاقة .

قال القائد :

— فى ممر بين هذه البحيرات شقت قواتنا طريقها الى الغرب ابان عملية نيفيل ، ثم تقدمت فى الاتجاهين الشمالى الغربى والجنوبى الغربى . وتشكلت نقرة كبيرة فى الجبهة المعادية . والى الجنوب من هذه النقرة يشرف على قوات جيشنا الضارب الرابع وجيشين آخرين تنوء خطر للغاية يحتله العدو . ويبلغ عرضه من ٣٥ الى ٦٠ كيلومترا ، اما من الشمال الى الجنوب فيصل الى ٨٥ كيلومترا . من هنا يستطيع العدو بسهولة توجيه ضربة الى جانب تشكيلاتنا ومؤخرتنا . والقيادة الهتلرية ، كما تعلمون ، لا تضن بالجهود لتفعل هذا ، فتحشد فى منطقة غورودوك العديد من وحدات المشاة والدبابات . . . لا بد من اجراءات عاجلة لفك هذه العقدة او قطعها وابعاد الخطر عن قواتنا . ان ثلاثة من جيوشنا هى تحت التهديد المباشر بالتطويق .

ادركنا ان القائد الجديد تغلغل بعمق فى جوهر الوضع ، وهو يقبض على زمام الموقف ، كما يقال . لقد اقتنعنا مرة اخرى بعد الحرب ، اذ قرانا شهادات الجانب الالمانى ، بمدى صواب رأى باغراميان ، اذ ابدى تخوفه من ضربات العدو القوية بهدف حصر قواتنا فى نتوء غورودوك .

كان هتلر على اطلاع بالوضع بين البحيرات بكل تفاصيله . واعتبرت قيادة الجيش الالمانى ان الموقف الناشىء هناك مؤات لقواتها . وتمخض العدو عن فكرة الضربة القوية .

ان الاستعداد للعملية ، المعروفة فى تاريخ الحرب الوطنية باسم عملية غورودوك ، جرى باتساق تحت قيادة القائد الجديد على الرغم من توحل الطرق . وفى عضون ذلك تعرفنا به عن كثب .

فى المذكرات ، التى نشرت فى السنوات الاخيرة ، يتحدث باغراميان بالتفصيل عن طريقه فى الحياة وفى القتال . ولذلك اكتفى بعرض الاحداث الاساسية فى حياته .

ولد ايفان خريستوفوروفيتش باغراميان فى ٢ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٩٧ فى يليزافيتبول (حاليا كيروفاباد فى اذربيجان السوفييتية) ، وكان ابوه عاملا فى سكة الحديد . تلقى تعلمه الاولى فى مدينته ، ثم درس فى المدرسة التكنيكية للخطوط الحديدية فى تيفليس . وبعد عدة شهور من العمل فى سكة الحديد ، تطوع عام ١٩١٥ فى الجيش الروسى . وبدأ يحارب فى جبهة ما وراء القفقاس كجندى عادى ، واظهر منذ المعارك الاولى بسالة وتضحية ومراسا عسكريا . واذ راعت القيادة هذا ، وكذلك اعداده التعليمى العام الجيد ، ارسلته الى مدرسة الملازمين . ان باغراميان ، وقد تخرج فيها بنجاح ، عاد الى الجبهة ، وحارب برتبة ضابط فى فوج المشاة اولا ، ومن ثم فى فوج الخيالة ضد الباشبزق الاتراك الذين حاولوا استغلال الموقف المعقد فى ذلك الحين لاستعباد ما وراء القفقاس .

من المعروف ان ما وراء القفقاس بقى مدة طويلة منسلخا عن المناطق الوسطى للجمهورية السوفييتية الفتية التى كان يضغط عليها من كل الجهات طوق من جبهات الحرب الاهلية . وفى بداية عام ١٩٢٠ فقط استطاع الحزب الشيوعى فى روسيا السوفييتية تحت قيادة لينين مد يد المساعدة الاخوية الى الشعب الارمنى المعذب

والشعوب الاخرى فى ما وراء القفقاس التى تعرضت لغزو الاتراك وكانت ترزح تحت نير الطاشناقيين والمناشفة والمساواتيين .

فى اواخر خريف عام ١٩٢٠ ، حينما اطاح شغيلة ارمينيا نهائيا ، متعاونين مع وحدات الجيش الاحمر التى وصلت ، بالطاشناقيين واقاموا السلطة السوفييتية ، كان باغراميان ضمن فوج الخيالة الارمنى الاول الذى اصبح جزءا من الجيش الارمنى الاحمر ، وقد ساهم فى اقامة السلطة السوفييتية فى شمال ارمينيا ، ومن ثم فى جورجيا الشقيقة .

ما لبثت القيادة ان لاحظت فيه الاخلاص للقضية الثورية والصفات القيادية الجيدة والمستوى الرفيع للاستعداد العسكرى وطاقة الشباب والتطلع الى التطور اللاحق . وعين باغراميان آمرا لكتيبة الرشاشات ، وفى عام ١٩٢٣ عين آمرا لفوج الخيالة لفرقة فوروشيلوف الارمنية للمشاة . وقاد هذا الفوج بنجاح حتى عام ١٩٣١ . وفى ذلك الحين اصبح اسم القائد المقبل معروفا على نطاق واسع فى ارمينيا .

فى عامى ١٩٢٤–١٩٢٥ درس باغراميان فى لينينغراد ، فى دورات تطوير ملاك الفرسان القيادى مع مارشالات الاتحاد السوفييتى المقبلين جوكوف وروكوسوفسكى وبيرمينكو . وفى نيسان (ابريل) عام ١٩٣١ التحق بعد ان قدم امتحانات القبول على نحو ممتاز باكاديمية فرونزه العسكرية ، وبعد انهائها فى عام ١٩٣٤ عين رئيسا لاركان فرقة بلينوف الخامسة الشهيرة للفرسان فى منطقة كييف العسكرية . وبقى هناك حتى خريف عام ١٩٣٦ .

كانت قيادة المنطقة تعطى دوما فى كل التدريبات والمناورات تقديرا ممتازا لعمله فى الاركان . وفى عام ١٩٣٦ ارسل باغراميان الى اكاديمية الاركان العامة التى اسست حديثا ، وهى مؤسسة دراسية خاصة للقوات المسلحة ، حيث تخرج بنجاح كبير فى عام ١٩٣٨ . وقد درس معه هناك انطونوف ، فاسيليفسكى ، غوفوروف ، فاتوتين ، زاخاروف ، كوروتشكين ، كوراسوف وغيرهم .

بعد انهاء اكاديمية الاركان العامة ابقى باغراميان مدرسا فى الاكاديمية . وهناك قبل فى عام ١٩٣٩ مرشحا لعضوية الحزب الشيوعى . وفى خريف عام ١٩٤٠ عاد باغراميان بناء على رغبته

الشديدة الى القوات فى منطقة كييف العسكرية الخاصة . وفى عشية الحرب ، فى عام ١٩٤١ ، شغل وهو برتبة عقيد منصب نائب رئيس الاركان – رئيس قسم العمليات لاركان المنطقة . وكان جوكوف يقود قوات المنطقة ، كما هو معروف . يقول فى كتابه «ذكريات وخواطر» : «عرفت باغراميان كواحد من العاملين المفكرين ، الهادئين ، المجدين والمثقفين» .

كانت بداية الحرب الوطنية العظمى مفاجئة بالنسبة الى منطقة كييف العسكرية الخاصة ، كما بالنسبة الى مناطق الحدود العسكرية الاخرى . ومنذ الايام الاولى من الحرب تحولت ادارة المنطقة واركانها الى ادارة للجبهة واركان للجبهة الجنوبية الغربية . وصار باغراميان رئيسا لقسم العمليات ونائبا لرئيس اركان هذه الجبهة . فى تلك الفترة نشبت قرب دوبنو وروفنو ولوتسك اكبر معركة للدبابات فى بداية الحرب ، وساهم باغراميان فى تنظيمها مساهمة مباشرة .

ان ما اعقب ذلك من نضال طويل ودؤوب لقوات الجبهة الجنوبية الغربية فى خلال الدفاع البطولى عن كييف اضطلع بدور هام فى احباط الخطة الهتلرية للحرب الخاطفة ، حيث اوقف هجوم العدو فى الاتجاه الرئيسى ، اتجاه موسكو . ولقاء المساهمة فى تنظيم واجراء هذه العملية الدفاعية الفائقة الاهمية منح باغراميان فى ١٢ آب (اغسطس) عام ١٩٤١ رتبة لواء وقلد وسام الراية الحمراء .

فى اصعب واخطر ايام الصراع على العاصمة السوفييتية اعدت بمبادرة من باغراميان رئيس قسم العمليات لاركان الجبهة الجنوبية الغربية وبناء على الفكرة التى اقترحها خطة لهجوم القوات السوفييتية المضاد فى منطقة روستوف . واضطلع باغراميان ايضا بدور جوهرى فى ادارة القوات فى خلال عملية روستوف .

من المعروف ان قواتنا فى غضون هذه العملية لم تحرر روستوف فقط ، بل وقذفت بالهتلريين الى خلف نهر ميوس ، مغلقة فى وجههم بوابة القفقاس . كان ذلك هجومنا الناجح الاول فى اطار الدفاع الستراتيجى عن كل البلاد ، وانطوت نتائجه على مغزى هام بالنسبة الى احراز النصر فى المعركة العظيمة قرب موسكو .

قبل بداية هجوم القوات السوفييتية المضاد قرب موسكو عين باغراميان مؤقتا رئيسا لاركان المجموعة الضاربة للجبهة (القائد الجنرال كوستينكو) . واذ عملت هذه المجموعة وفق خطة ادى

باغراميان قسطا جوهريا فى وضعها ، وجهت على نحو رائع ضربة عنيفة ومفاجئة الى تشكيلات الجيش الفاشى الالمانى الثانى الذى كان قد وصل الى منطقة ييليتس .

ونتيجة لمعركة ييليتس تقدمت قوات الجناح الايمن للجبهة الجنوبية الغربية ٨٠–١٠٠ كيلومتر ، ولم تصف ما يسمى بنتوء ييليتس فحسب ، بل قيدت ايضا القوى الرئيسية لجيش الميدان الثانى المعادى ، مقدمة بهذا مساعدة جوهرية الى كل القوات المساهمة فى الهجوم المضاد قرب موسكو .

منح باغراميان فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤١ رتبة فريق ، وصار منذ تلك اللحظة يقوم بمنصب رئيس اركان الاتجاه الجنوبى الغربى الذى يضم ثلاث جبهات : الجبهة الجنوبية الغربية والجبهة الجنوبية وجبهة بريانسك . وفى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٤٢ ساهم الجنرال باغراميان فى التخطيط لعملية بارفينكوفو – لوزوفايا الهجومية . فى خلال هذه العملية ، التى بدأت فى ١٨ كانون الثانى ، حطمت القوات السوفييتية بعد معارك ضارية وفى ظروف شتاء بارد ومثلج دفاعا متينا جدا للعدو على امتداد ١٠٠ كيلومتر من الجبهة ، وحررت مدينة بارفينكوفو اولا ، ثم مدينة لوزوفايا وتقدمت ١٠٠ كيلومتر الى الغرب والجنوب الغربى ، مما عرض للتهديد مواصلات كل تجمع الجيش الالمانى فى الدونباس ، مقيدة فى غضون ذلك قوى كبيرة للعدو الذى منى بخسارة فادحة .

فى سنوات الحرب الوطنية العظمى رفع الحزب الشيوعى بجرأة من خلال القيادة العليا اكثر القادة موهبة ونشاطا واعدادا الى مناصب قادة الجبهات والجيوش (روكوسوفسكى ، فاتوتين ، تشيرنياخوفسكى ، بيتروف وغيرهم) . وفى ١٥ تموز (يوليو) عام ١٩٤٢ عين الجنرال باغراميان قائدا لجيش الجبهة الغربية السادس عشر . وقد عمل فيه كاتب هذه السطور فى ايام المعركة قرب موسكو .

فى العمليات الدفاعية خريف عام ١٩٤٢ صد الجيش السادس عشر تحت قيادة باغراميان هجوما ضخما للعدو والحق به خسارة ملموسة . وقد منى العدو بخسائر فادحة بشكل خاص الحقتها به قوات الجيش السادس عشر زمن هجوم ايلول (سبتمبر) الفاشل بالنسبة اليه فى اتجاه كالوغا . وفى خلال هجوم الشتاء فى عامى

١٩٤٢-١٩٤٣ قامت قوات الجبهة الغربية ، ومن بينهـا الجيش السادس عشر ، بعدد من العمليات الناجحة حطم بنتيجتها غير قليل من فرق العدو . ونمت سمعة الجيش اكثر واكثر ، وتحول الى جيش الحرس الحادى عشر ، اما باغراميان فقلد وسام كوتوزوف من الدرجة الاولى .

من المعروف ان القيادة الهتلرية نوت فى صيف عام ١٩٤٣ ، مستغلة عدم وجود جبهة ثانية فى اوربا ، القيام بعملية هجومية واسعة فى منطقة اوريول وكورسك على أمل الانتقام لمـا حل بقواتها فى ستالينغراد واسترجاع المبادرة الستراتيجية المفقودة . وفى ٥ تموز (يوليو) عام ١٩٤٣ انتقلت الى الهجوم ٣٨ من خيرة فرق الجيش الالمانى تدعمها الدبابات والمدافع الذاتية الحركة من طراز «تيغر» و«فيرديناند» التى زجت فى المعركة بصورة مكثفة لاول مرة . كان هتلر ومساعدوه ينظرون الى منطقة اوريول كنقطة انطلاق لتوجيه ضربة لاحقة الى موسكو ، فحولوها الى منطقة محصنة ذات دفاع متدرج عميق . ولكن القيادة السوفييتية خططت للهجوم المضاد الستراتيجى فى صيف عام ١٩٤٣ فى قوس اوريول بالذات . وقدر لباغراميان وجيشه ، الحادى عشر الباسل ، ان يضطلعا بدور هام فيه . ووجه فى ١٢ تموز ضربة مفاجئة الى العدو فى الطرف الشمالى من القوس ، فاحبط بالتعاون مع جيرانه هجوم مجموعة جيوش «الوسط» على قوات جبهة روكوسوفسكى الوسطى .

فى المعارك قرب اوريول وبريانسك اجتاز الجيش فى تقدمه المستمر ٢٢٧ كيلومترا وحرر اكثر من ٨٠٠ مدينة وقرية . وحطم بضربات متلاحقة المقاومة الضارية التى ابدتها ١٣ فرقة مشاة و٧ فرق دبابات وفرقتا آليات للعدو والعديد من وحداته الخاصة .

ان الانجازات القتالية البارزة للقوات السوفييتية فى قوس كورسك ، بما فى ذلك الضربة المظفرة للجيش الحادى عشر قرب اوريول قد اشير اليها فى امر القيادة العليا بتاريخ ٥ آب (اغسطس) الذى يتوجه بالشكر الى القوات المساهمة فى العملية . ولاول مرة فى الحرب الوطنية العظمى دوت المدفعية بطلقات التحية على شرف القوات الباسلة التى حررت اوريول وبيلغورود .

فى عملية اوريول تجلت بسطوع موهبة باغراميان كقائد . وقد منح رتبة جنرال كولونيل وقلد ارفع جائزة قيادية ، وسام

سوفوروف من الدرجة الاولى . ويبدو ان القيادة اخذت هذه المآثر فى الاعتبار حينما عينته بعد شهرين ، فى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ، قائدا لجبهة البلطيق الاولى . ومنح باغراميان فى الوقت نفسه لقب جنرال الجيش .

بدأ نشاط باغراميان فى جبهة البلطيق الاولى بتنفيذ عملية غورودوك التى سبق ونوهت بها . ساتحدث عنها بتفصيل اكثر بعض الشىء ، وساتحدث قبل كل شىء ، طبعا ، عن اعمال فيلقى الثانى ، الذى انجز حتى ٩ كانون الاول (ديسمبر) الاستعداد لهذه العملية .

فى صباح ١٣ كانون الاول انتقل الفيلق بعد تمهيد مدفعى استمر ساعة ونصف الى الهجوم واخترق دفاع العدو فى احد القطاعات . تطورت المعركة بلا اتساق . ان فرقة العقيد سيريبرياكوف ٣٨١ على الجانب الايسر ، التى تحركت على طول الشاطئ الجنوبى الشرقى لبحيرة بيرنوفو ، جوبهت بمقاومة عنيفة من الفاشيين . وكان التحرك فى الوسط ، فى شريط فرقة الحرس التسعين ، اقل شأنا على الرغم من انه ودعمها الجزء الاكبر من مدفعيتنا ، وزحف لواء الدبابات السبعون فى صفوف المشاة القتالية . وحققت اكبر نجاح فرقة العقيد تشيرنوف السابعة والاربعون على الجانب الايمن . ووصلت الى المشارف البعيدة للخط الحديدى نيفيل – فيتيبسك .

مع نهاية اليوم الاول اصبح واضحا ، على الرغم من الصعوبات التى عانيناها فى الوسط والجانب الايسر ، ان هدف خلق مقدمات واقعية لتطويق عدة فرق للعدو اصبح قريبا . وقد عملت فرقتنا السابعة والاربعون بنجاح خاص .

فى منتصف الليل استدعيت الى التلفون . همس الياور وهو يسلمنى السماعة :

– قائد الجبهة !

دقق الجنرال باغراميان الوضع القتالى ، ثم قال :

– بلغوا العقيد تشيرنوف وكل عناصر فرقة المشاة السابعة والاربعين شكرى على البسالة فى القتال .

واقترح على الفور الاستفادة من نجاح هذه التشكيلة بكل السبل وعدم التمسك بالخطة الاولية . اجبت القائد بانه يبذل كل ما هو

ضرورى لكى يتجلى نجاح الفرقة السابعة والاربعين فورا فى كل منطقة هجوم الفيلق الثانى .

واذ تابعت الفرقة المبرزة التحرك الى الشرق ، اجتازت فى ١٥ كانون الاول (ديسمبر) الخط الحديدى نيفيل – فيتيبسك على قطاع طوله ٤ كيلومترات ، وحمت ، وقد انتشرت على شكل جبهة الى الجنوب ، قوى الفيلق الرئيسية من الهجوم المضاد للعدو من جهة غورودوك .

وفى مساء ٢٤ كانون الاول حيث موسكو قوات جبهة البلطيق الاولى التى حررت غورودوك ، نقطة الارتكاز الهامة لدفاع الالمان فى اتجاه فيتيبسك .

ان قوات الجبهة ، وقد تغلبت فى خلال عملية غورودوك فى اعقد ظروف للمنطقة والطقس على مقاومة الالمان العنيفة للغاية ، حررت اكثر من ١٢٢٠ مدينة وقرية ، وابادت ما يربو على ٦٥٠٠٠ هتلرى واسرت ٣٣٠٠ واستولت على الكثير من آليات القتال والمعدات العسكرية الاخرى .

يشير تاريخ الحرب الوطنية العظمى الى ان نجاح قوات جبهة البلطيق الاولى تحت قيادة باغراميان فى عملية غورودوك ضمن تغيرا نوعيا للوضع الميدانى فى هذا القطاع من الجبهة السوفييتية – الالمانية . بعد ان قطع نتوء غورودوك ، زال التهديد بتطويق جيوشنا الثلاثة وشغلت القوات السوفييتية وضعا مسيطرا بالنسبة الى الجانب الشمالى لمجموعة جيوش «الوسط» المعادية وقطعت بدرجة حاسمة الصلة الجانبية بين هذه المجموعة ومجموعة جيوش «الشمال» المجاورة . ونشأ بالنسبة الى العدو وضع متأزم حاد عند تماس مجموعتى الجيوش . واضطر جيشه السادس عشر ، الموجود فى الجناح الايمن لمجموعة «الشمال» ، الى الشروع فى الانسحاب السريع من نيفيل . وهذا ما وفر لجبهة البلطيق الثانية تحت قيادة الجنرال بوبوف امكان التحرك الى الامام .

ان النجاح قرب غورودوك وفر كذلك المقدمات لانجازاتنا اللاحقة فى منطقة فيتيبسك ، ولتوجيه ضربة الى بولوتسك والى منطقة البلطيق .

فى اوائل ربيع عام ١٩٤٤ نقل فيلق المشاة الثانى من الجيش الضارب الرابع الى جيش الفريق تشيستياكوف السادس . خضنا

بعض الوقت معارك هجومية على مشارف الخط الحديدى فيتيبسك – بولوتسك ، ثم انتقلنا الى الدفاع . فى احد الايام ليلا ، وكان ذلك فى ايار (مايو) استدعانى قائد الجيش الى التلفون . قال تشيستياكوف :

– امرت بان تأتى غدا فى الساعة العاشرة الى اركان الجبهة .

– اتعرف السبب ؟

– كلا . الجنرال كوراسوف هو الذى تلفن .

ان مثل هذا الاستدعاء المستعجل يمكن ان يكون مرتبطا بتعيين جديد على الارجح . كنت اعرف ان جنرالات كثيرين ارسلوا فى المدة الاخيرة الى المؤخرة لاعداد الاحتياطيات . هذا عمل هام ، طبعا ، ولكن احدا لم يكن يريد ترك الجبهة . وانا ايضا .

استقبلنى الفريق كوراسوف بترحاب شديد ، واخذ يسألنى عن اسرتى ، اين هى وكيف رتبت امورها ، وهل مضى وقت طويل على رؤيتى لزوجتى واولادى . وهذا ما اثار حذرى اكثر واكثر .

– لا تزوق الامور ، ايها الرفيق كوراسوف . طريقى الى المؤخرة ، أليس كذلك ؟

– لا تقلق ، الى الجبهة !

اطمأن قلبى . اقتربنا من الخريطة . اطلعنى الجنرال كوراسوف على الوضع القتالى شريط دفاع جارنا ، الجيش الثالث والاربعين . وقال فى الختام :

– لقد عينت قائدا لقوات الجيش الثالث والاربعين . كان الجنرال باغراميان ينوى منذ امد بعيد تعيينك قائد جيش والآن ، بعد جرح الجنرال غولوبيف ، اتفق على هذا التعيين مع القيادة العليا وأمر بان تستلم الجيش اليوم . وبالمناسبة ، هو الآن فى اركانه .

– لمن اسلم الفيلق ؟

– للجنرال كسينوفونتوف . قوما بشكليات الاستلام والتسليم فيما بعد . اما الآن فاذهب الى اركان الجيش الثالث والاربعين . . .

ان واقع عدم السماح لى بالعودة الى الفيلق ولو لعدة ساعات كان يشير الى امور كثيرة . يبدو انه كان على الجيش الثالث والاربعين ان يقوم قريبا باعمال قتالية نشيطة .

وجدت فى اركان الجيش ، علاوة على الجنرال باغراميان ، كلا من ليونوف عضو مجلس الجبهة العسكرى وخليبنيكوف قائد المدفعية .

هنأنى باغراميان تهنئة حارة بترفيعى ، وقال مبتسما بشىء من الدهاء :

– اعتقد انك سوف تقاتل على رأس الجيش بنجاح اكثر من نجاحك قرب غورودوك .

وبعد هذا امرنى بلهجة رسمية ان ابلغ فى المساء اركان الجبهة باستلام الجيش . وعلى الرغم من انه لم يجر الحديث باية كلمة عن مهمة قتالية جديدة ، فقد فهمت ان علىّ ان استغل كل ساعة هدوء فى الجبهة لادخل مجرى الاحداث باسرع ما يمكن .

فى المساء ابلغت باغراميان باننى استلمت الجيش ، وفى اليوم التالى توجهت منذ الصباح الى القوات . وتسنى فى غضون اربعة ايام استعراض وتفقد كل التخم الامامى بكيلومتراته الستة والثمانين .

كانت تشكيلات وسط منطقة الجيش تقوم بالدفاع فى ما يسمى نتوء زارونوف . كان النتوء يطوق بعمق من الجهة الشمالية الغربية منطقة فيتيبسك المحصنة ، وهناك قبضت قواتنا بقوة على واحد من اهم الطرق المعادية ، طريق فيتيبسك – بولوتسك . كان يمكن لهذا الاتجاه ، كما بدا لى ، ان يغدو اتجاها له افقه فى اعمالنا الهجومية المقبلة لاعتبارات اخرى ايضا . وفحوى الامر انه فى عمق دفاع العدو وبموازاة خط الجبهة يقع نهر دفينا الغربى ، وهو حاجز مائى جدى . واقرب سبيل اليه من نتوء زارونوف لا يتجاوز ٣–٤ كيلومترات . وبالتالى ، فان القوات تستطيع عبور النهر منذ اليوم الاول للهجوم ، او حتى منذ الساعات الاولى فى حالة النجاح .

فى الثلث الاخير من ايار (مايو) قدم قائد الجبهة الى الجيش فجأة وبدون اخطار .

سأل باغراميان :

– هل كنت فى الجانب الايمن ؟

– كنت .

– حسنا . سنزوره اليوم معا . سنذهب الى الفرقة ١٧٩ .

– اتسمح باخذ ضباط الاركان الكبار ؟

– كلا . سنذهب نحن الاثنين فقط .

امضينا يوما كاملا فى التخم الامامى . وتفقدنا كل قطاعات الكتائب . خاض باغراميان فى تفاصيل الدفاع وأمر بتقويته فى العمق

والشروع فى اعمال الخنادق . وقبل المساء اخذنى جانبا فى الخندق وقال :

– اعمال الخنادق هى لتمويه خططنا الحقيقية . فليفكر العدو فى اننا ننوى الدفاع .

– اذا ، سنهجم ؟

– نعم .

وهكذا اطلعت بخطوط عريضة على عملية فيتيبسك التى يجرى الاستعداد لها . ان هدف هذه العملية ، او بالاحرى مرحلتها الاولى ، ينبع منطقيا من الصورة المتكونة للجبهة . كان الجيشان السادس والثالث والاربعون يحيطان بتجمع الفاشيين فى فيتيبسك من الجهة الشمالية الغربية ، وكان الجيش التاسع والثلاثون للجبهة البيلوروسية الثالثة يحيط به من الجهة الجنوبية الشرقية . كانت تلك كماشة ارتسمت بوضوح . ولم يبق الا ان تنطبق .

ولكنى اعترف بان اختيار الضربة الرئيسية للجيش الثالث والاربعين قد اربكنى . خصص للضربة الجانب الايمن الذى كنت اعتبره ملائما لحشد القوات اقل من الوسط . كيف يمكن تركيز وحدات المشاة والمدفعية الثقيلة والدبابات بشكل خفى فى مكان مكشوف من جهة العدو ، فى المستنقعات وغابات الاشجار الصغيرة .

عرضت شكوكى على القائد ، وتحدثت عن الافضليات الواضحة التى توفرها ضربة من نتوء زارونوف . استمع باغراميان ، وقال موافقا :

– كل هذا منطقى . هكذا تماما يتصور نوايانا الفيلدمارشال فون بوش ، قائد مجموعة جيوش «الوسط» . ويجب علينا ان نقدم اليه ازعج مفاجأة . يجب ان نسعى . العدو واثق باننا لن نستطيع توجيه ضربة الى شوميلينو بقوى كبيرة . برهن له العكس . . .

فى ٢٩ ايار (مايو) كان مجلسنا العسكرى بكل اعضائه فى اركان الجبهة . ابلغنا على نحو مفصل بالعملية الهجومية التى يجرى اعدادها . بعد الجزء الرسمى قال باغراميان انه كان والجنرال ليونوف عضو مجلس الجبهة العسكرى فى القيادة العليا فى ٢٢–٢٣ ايار واستقبلهما ستالين . وقال كذلك ان عملية فيتيبسك هى مجرد بداية لحملة صيف عام ١٩٤٤ .

بعد الحرب علمت انه تسنى لباغراميان حينذاك ادخال

تعديلات معينة فى خطة عملية «باغراتيون» الواسعة التى اقرتهـا القيادة العليا .

لدى المناقشة فى القيادة العليا اعرب باغراميان عن مخاوفه على جانب جبهته الايمن ، وذلك لان جبهة البلطيق الثانية المجاورة الى اليمين لن تشترك فى الهجوم فى المرحلة الاولى من العملية ، اما قوات جبهتنا ، جبهة البلطيق الاولى فلن تشترك فى تحطيم الجناح الشمالى لمجموعة جيوش «الوسط» فحسب ، بل وفى الاحاطة العميقة من الجهة الشمالية الغربية بكل قواها العاملة فى بيلوروسيا . وفى هذه الحالة تنال المجموعة المعادية الجبارة لجيوش «الشمال» امكان توجيه ضربة قوية من الشمال الى الجانب المنتشر لجبهة البلطيق الاولى ومؤخرتها .

وافق جوكوف نائب القائد الاعلى على هذا ، ملاحظا ان خطر ضربة كهذه واقعى تماما . وقال متوجها الى باغراميان : «وماذا تقترح ؟» . وكان الجواب جاهزا . قال باغراميان : «بعد تنفيذ المهمة القريبة – تطويق وتحطيم تجمع العدو فى منطقة فيتيبسك – من المجدى تكليف الجناح الايمن لقوات جارتنا الى اليسار ، الجبهة البيلوروسية الثالثة ، بتوجيه ضربة عميقة فى الاتجاه الجنوبى – الغربى . اما جهودنا الاساسية فمن الافضل توجيهها الى الغرب من اجل المساهمة النشيطة بالتعاون مع الجناح الايمن لجبهة تشيرنياخوفسكى فى تحطيم جيش الدبابات الثالث لمجموعة «الوسط» ، وفى الوقت نفسه شق الجناح الجنوبى لقوات مجموعة جيوش «الشمال» .

وقد اقرت القيادة العليا هذا الاقتراح . واضطلع ، كما بينت الاحداث اللاحقة ، بدور ايجابى فى تحرير ليتوانيا ولاتفيا بنجاح .

فى الاجتماع المذكور الذى عقد فى اركان الجبهة اطلعنا عـلى خطة العملية على نطاق الجبهة . كانت جريئة ومدروسة من كـل الجوانب فى الوقت نفسه . ونتيجة لتحليل وتعميم معطيات كل انواع الاستخبارات ، ومع مراعاة خصائص المكان غير المؤاتى للمهاجمين ، قرر القائد توجيه الضربة الرئيسية للجبهـة الى تماس مجموعتى الجيوش الفاشية شمال غربى فيتيبسك . ولم يحدد قطاع الاختراق بشكل عادى ، بل وفقا لظروف المكان ولخصائص دفاع العـدو . واتخذ القائد قرارا جريئا بتوسيع كبير ، حتى ٢٥ كيلومترا ، لقطاع الاختراق الذى سيقوم به الجيشان الموجهان للضربة .

وقرر القائد تركيز القوى فى اتجاه الضربـة الرئيسية الذى لا يشكل من حيث الامتداد سوى سبع مجمل شريط اعمال الجبهة . وقد حشدت هناك ثلاثـة ارباع فرق المشـاة وكل وحدات الدبابـات والمدفعية الذاتية الحركة و٩٠ فى المئة من المدفعية . وبهذا ضمـن التفوق الساحق على العدو .

كان اختيار اتجاه الضربة الرئيسية الذى قام به باغراميان موفقا جدا ، كما شهدت مسيرة الهجوم . لقد ركز العدو جهوده الاساسية على الاحتفاظ بمنطقتى بولوتسك وفيتيبسك ، ولكن الضربة الرئيسية وجهت الى المنطقة الفاصلة بينهما . وفعلت قيادة الجبهـة كل شىء ليكون هجوم قواتنا مفاجئا للفاشيين . وكان ذلك فعلا .

فى ايام الاستعداد للعملية بين باغراميان بشكل ملموس لكل ملاك الجبهة القيادى كيف ينبغى ايجاد الحلقة الرئيسية ضمن العدد الكبير من المهمات الكبيرة والصغيرة ، الحلقة التى يمكن امساكهـا بقوة ومهارة من ضمان النصر بدماء قليلة . وكانت هذه الحلقـة الرئيسية ،فى رأى القائد ، تنظيم عبور سريع قدر الامكان ومنظـم جيدا للحاجز المائى الرئيسى ، دفينا الغربى . واعار هذا حـدا اقصى من الاهتمام ، مستفيدا بمهارة من التجربة القتالية الغنية التى كرستها قواتنا عند عبور الدنيبر والانهار الكبيرة الاخرى .

وكذلك استفاد باغراميان على نطاق واسع وبمرونة من ذلـك الظرف الهام ، وهو انه كان يعمل فى اراضى بيلوروسيا العديد من فصائل الانصار التى عركتها المعارك . وقد اتفق مع قيادتها عـلى الاماكن المريحة للعبور التى ستستولى عليها وتتمسك بها حتى وصول وحداتنا المتقدمة ، وعلى وسائل العبور التى ستحضرها .

لم يكن عند الالمان فى شريط هجوم الجبهة الا القليل مـن المطارات المجهزة ، ولذا استكشف الانصار واخذوا فى الحسبان كل القطاعات التى يمكن ان تجهز فيها بسرعة وبدون اعمال هندسيـة كبيرة مدرجات ميدانية للاقلاع والهبوط لجيش الطيران الثالث . وامر قائد الجبهة ، الذى استفاد من المعلومات التى تلقاها من الانصار ، بارسال مجموعات صغيرة من الاختصاصيين فى شؤون المطارات الى مؤخرة العدو لاختيار الساحات التى يمكن فيهـا الشروع فى اعداد المطارات مع وصول القوات الارضية . وبفضل هذا استطاع جـزء

كبير من طيراننا المرابطة منذ ايام الهجوم الاولى فى مواقع اكثر تقدما .

فى ايام التحضير للعملية قدم باغراميان الينا فى الجيش ثلاث مرات ، واعطانى نصائح فى صدد الكثير من مسائل ادارة القوات . كان قائد الجبهة يرعانى بالمعنى الحرفى للكلمة . لم يفرض وصايته ، ولم يعطنى وصفات تصلح لكل حالات الحياة ، بل علمنى التفكير الواسع . وقد اتى فى المرة الثالثة مع ممثل القيادة العليا المارشال فاسيليفسكى . وكان فاسيليفسكى ايضا راضيا عن تقريرى ، ولم تتطرق اسئلته الا الى تفاصيل العملية المقبلة على نطاق الجيش .

من المعروف ان الضربة الى فيتيبسك ، التى بدأت فى ٢٢-٢٣ حزيران (يونيو) ، تطورت بنجاح . وقد حطم كلا جانبى تجمع العدو فى فيتيبسك ، واخذت الكماشة حوله تنطبق بالتدريج . بيد ان رد القيادة الهتلرية على هذا كان غريبا للغاية . فقد ابقت كالسابق قوى التجمع الرئيسية فى منطقة فيتيبسك المحصنة ، فى قطاعات لم تبد فيها قواتنا نشاطا . وفى خلال يوم ٢٣ حزيران باسره لم يبذل العدو اية محاولة جدية لدرء التطويق الداهم . كيف يمكن تقدير هذا ؟ كثقة بقواه ؟ او كانصعاق وشلل فى الارادة ؟ او لعل طلب الفوهرر التمسك بفيتيبسك مهما كلف الامر جرد الجنرالات الهتلريين من القدرة على تقدير الموقف الميدانى بوعى ؟

لم يتضح السبب الحقيقى الا بعد عدة ايام . استجوبت جنرالا اسيرا ، هو ميولير-بيلو آمر فرقة المشاة ٢٤٦ . وقد تصرف بانفعال شديد ، وحتى انه هو نفسه كان يطرح الاسئلة .

– كيف استطعتم ان تحشدوا سرا عددا ضخما من القوات فى هذه المستنقعات ؟ امر لا يصدق !

سألته :

– الم تتوقعوا هجوما ؟

– توقعنا ! ولكن هناك فرق بين هجوم وهجوم . ضربة رئيسية عبر المستنقعات ، هذا ما لم اصدقه . . .

– وما هو رد فعل قيادتكم على هجوم القوات السوفييتية ؟

– الفيلدمارشال فون بوش اتهمنا نحن ، ونحن فقط : انا وآمر الفرقة السادسة والخمسين . وطلب : «اوقفوا الروس على خط شوميلينو ، ريلكوفو ! . . . صدوا بالهجوم المضاد !» واكد ان

الضربة الى شوميلينو هى لصرف الانتباه ، وانه ينبغى لى ويجب علىّ . . . والى اخره .

– اى ان قيادتكم كانت حتى فى الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) تتوقع ضربتنا الرئيسية الى فيتيبسك مباشرة ؟ !

– نعم ، هكذا . . .

وتذكرت ذلك المساء من ايار (مايو) ، الذى يبدو الآن بعيدا ، والخندق وسط مستنقعات لا حدود لها والحديث مع الجنرال باغراميان .

«العدو مقتنع باننا لن نستطيع توجيه ضربة الى شوميلينو بقوى كبيرة . برهن له العكس . . .» وقد برهنا !

فى خلال العمليات القتالية ايضا ساعدنا باغراميان كثيرا . ولا سيما فى عبور دفينا الغربى ايضا . وقيلت فى غضون ذلك كلمات قاسية ، ولكنها لبقة تماما ، حينما بدا لباغراميان ان الوقت لن يسعفنا للانضمام فى الموعد المحدد الى الجيش التاسع والثلاثين للجبهة البيلوروسية الثالثة . ولكن حينما جلبت جهودنا النجاح المطلوب ، اظهر قائد الجبهة مجددا كل ما عنده من كرم اخلاق ازائى وازاء عدد من قادة الجبهة الآخرين ، حيث التمس من القيادة العليا منحنا لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

ان قوات الجبهة ، وقد انجزت عملية فيتيبسك ، شرعت فى عملية بولوتسك بدون توقف .

واذ سعت القيادة الفاشية الالمانية الى المحافظة على بولوتسك ، حولتها الى عقدة دفاع جبارة وحشدت على مشارف المدينة تجمعا قويا من القوات يضم ست فرق للمشاة . كان من المقرر تطويق وابادة تجمع العدو فى بولوتسك بضربتين فى اتجاهين متقابلين من الشمال الشرقى والجنوب . وفى ٢٩ حزيران (يونيو) انتقلت تشكيلات الجيش الضارب الرابع والجيش السادس الى الهجوم على بولوتسك وتغلبت على مقاومة العدو واخذت تحيط بجوانب تجمعه . وفى ١ تموز (يوليو) وصلت الى التخوم الشرقية والجنوبية للمدينة . وبعد معارك شوارع ضارية استمرت يومين تم الاستيلاء على بولوتسك بالانقضاض فى ٤ تموز . ان قوات جناح الجبهة الايسر ، اذ تعقبت باندفاع التشكيلات الفاشية الالمانية المنسحبة ، تحركت مع نهاية ٤ تموز حتى مئة كيلومتر الى الغرب .

كانت عملية بولوتسك تنطوى على مغزى هام . ان القوات السوفييتية ، وقد استولت على عقدة دفاع العدو فى بولوتسك ، ابادت ٦ فرق للعدو وحصلت على امكان شن الهجوم على ضفتى دفينا الغربى فى الاتجاه العام الى دفينسك (داوغافبيلس) . والتقدم الناجح لجبهة البلطيق الاولى الى بولوتسك ضمن بشكل يعول عليه الهجوم من الشمال للتجمع الستراتيجى الرئيسى للقوات السوفييتية فى بيلوروسيا .

قدر الحزب والحكومة عاليا المآثر الحربية للقوات التى يقودها باغراميان . فقد منح ١٥٦ عسكريا ممن برزوا فى المعارك اكثر من الاخرين لقب بطل الاتحاد السوفييتى ، وقلد ٧٤١٥٧ شخصا اوسمة وميداليات .

وبمرسوم من هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى بتاريخ ٢٩ تموز (يوليو) عام ١٩٤٤ منح باغراميان لقب بطل الاتحاد السوفييتى لقاء النجاحات البارزة التى حققتها قوات الجبهة فى عملية بيلوروسيا . واصبح اسمه معروفا على نطاق واسع فى الاتحاد السوفييتى وخارجه .

فى بداية تموز عام ١٩٤٤ نفذت قواتنا مهمات المرحلة الاولى من عملية «باغراتيون» ، فحررت بيلوروسيا المعذبة ووصلت الى حدود ليتوانيا ولاتفيا .

فى ٤ تموز (يوليو) رن جرس التلفون فى نقطة قيادة الجيش ، واعطى قائد الجبهة امرا شفويا بتطوير النجاح فى اتجاه مدينة سفينتسيانى (شفينتشونيس) . واوضح انه ينبغى مباشرة العمل فورا لعدم اعطاء العدو فرصة ليتمالك نفسه ، وان الامر الخطى بالهجوم سوف يأتى فيما بعد .

بعد الحرب ، فى اواخر الخمسينات ، كنت وباغراميان نستعرض ذكريات ايام الحرب ، فقال لى فجأة :

– اتعرف ، اية مسيرة كررتها قواتك حينما وجهت من ضواحى بولوتسك ضربة الى شفينتشونيس ؟

اجبته :

– كلا .

قال باغراميان مفكرا :

– مسيرة غاى الاسطورى .

وبالفعل ، فان فيلق غاى الثالث للفرسان ، الذى خاض فى صيف عام ١٩٢٠ المعارك ضد بولندا الاقطاعية فى طليعة قوات الجبهة الغربية ، انطلق من ضواحى بولوتسك حينما بدأ حملته الشهيرة . ووجه الخيالة الحمر الضربة الرئيسية الى سفينتسيانى (شفينتشونيس حاليا) . وكان علينا اول الامر ، شأن فيلق الفرسان الثالث ، الوصول الى خط غيرمانوفيتشى ، شاركوفشيزنا ، ثم التحرك الى سفينتسيانى . وبعد ذلك ؟ . . بعد ذلك كان علينا حسب خطة القيادة العليا الهجوم ، كما هجم غاى فى حينه تقريبا ، على فيلنوس وكاوناس .

قال باغراميان :

– هل كان فى وسعى ، وانا انظر فى اكاديمية فرونزه الى الخريطة المدرسية ، التى وقف غاى الى جانبها ، واصغى الى كل كلمة من كلمات آمر الفوج الاسطورى ، ان افكر فى انه سيقدر لى ان اقود بنفسى القوات على الطرق نفسها التى قاد عليها خيالته . قال لنا غاى آنذاك : «ادرسوا تجربة الحرب الاهلية والنضال ضد المتدخلين الاجانب ، فقد تضطرون الى استخدامها فى مرحلة جديدة وبمقاييس اخرى وعلى مستوى جديد نوعيا من التكنيك القتالى واعداد القوات» . وبعد ٢٤ سنة فى ٤ تموز (يوليو) ، اليوم نفسه الذى وجه فيه غاى امرا موجزا الى آمرى الفرقتين تومين وماتوزينكو «الى الامام نحو سفينتسيانى !» ، وجهت أمرا قتاليا بالدقة نفسها اليك ، قائد الجيش الثالث والاربعين . ولكنك ، نفذته قبل آمرى فرقتى غاى باربعة ايام .

بعد الاستيلاء على شفينتشونيس وقطع المواصلات التى تربط بين لاتفيا وليتوانيا ، املى الوضع الميدانى ضرورة تغيير اتجاه الضربة الرئيسية للجبهة ، مما ضمن فيما بعد نجاحا كبيرا لقوات جبهة البلطيق الاولى فى المرحلة الختامية لعملية «باغراتيون» .

مع بدء تحرير منطقة البلطيق اقر اقتراح قيادة الجبهة توجيه الضربة الرئيسية الى شاولاى ، التى كان يخطط فى السابق لتوجيه ضربة فرعية اليها . فى ٢٧ تموز (يوليو) تحطمت مقاومة الهتلريين الفائقة الضراوة قرب شاولاى ، واصبحت اهم عقدة للمواصلات عند التماس بين مجموعتى جيوش «الشمال» و«الوسط» فى ايدينا . وفى اليوم

نفسه تلقى باغراميان من ممثل القيادة العليا فاسيليفسكى اذنا بتحويل القوى الرئيسية للجبهة الى ريغا .

ان تحرير بيلغافا ووصول وحداتنا الى خليج ريغا ارغما هتلر فى اواخر تموز (يوليو) على ان يقصى الجنرال كولونيل فريسنير قائد مجموعة جيوش « الشمال» ، الذى كان قد عين منذ امد قريب نسبيا ، بعد ليندیمان ، ويعين مكانه شورنير ، اكثر الجنرالات الفاشيين تعصبا . وعهد اليه بانقاذ الوضع فى منطقة البلطيق .

فى ٣١ تموز (يوليو) جرى فى مجلس الجبهة العسكرى استعراض نتائج هجوم تموز (يوليو) : فى غضون ٢٥ يوما اجتازت القوات وهى تخوض المعارك حتى ٤٠٠ كيلومتر والحقت الهزيمة بقوات كبيرة للعدو . بيد ان وضع الجبهة العام تعقد كثيرا ، ولا سيما فى منطقة توكومس . عند حد الاسفين الذى تغلغل عميقا فى مواقع العدو . وعلاوة على ذلك كانت جيوشنا الاربعة قد انتشرت كثيرا فى اواخر الشهر على جبهة يبلغ امتدادها قرابة ٥٠٠ كيلومتر . وهكذا فان نتائج هجوم تموز (يوليو) بعثت على سرور باغراميان وحذره فى الوقت نفسه . وصار يفكر فى الخطوات التى سيقوم بها العدو الآن . واستنتج كالسابق ان القيادة الهتلرية لن تضن باية تضحيات للابقاء على منطقة البلطيق فى يدها .

انطلاقا من الوضع الناشئ ، طلب باغراميان من اركان الجبهة ان تكشف بكل الوسائل عن النيات الحقيقية للقيادة الهتلرية وتحدد المكان الذى يستعد العدو لتوجيه الضربة الرئيسية اليه لكى يفك الحصار عن تجمعه فى منطقة البلطيق . لم يكن احد من ملاك الجبهة القيادى الاعلى يشك فى ان محاولة كهذه سوف تتخذ ، لانها كانت ممكنة فى كلا احتمالى تصرف العدو . ولكن اين ؟

عرف باغراميان من تقرير الجنرال تشانتشيبادزى ، قائد الجيش الثانى ، ان مجموعتين قويتين من الدبابات والمشاة الآليين هاجمتا جانبه الايسر فى ٢٨ تموز (يوليو) فى منطقة تقع شمال غربى كيداينياى . وتردى الوضع بشدة على هذا الجانب للجيش الثانى . ونشبت معارك ضارية . وجمع الجنرال تشانتشيبادزى بسرعة قواه الاساسية فى قبضة الحقت خسارة جدية بالعدو وارغمته على وقف الهجوم مؤقتا . والضربة التالية ، وهى اقوى بكثير ، وجهتها مجموعة جيوش «الشمال» الى جيشنا الثالث والاربعين . وكانت تهدف

الى اختراق دفاعه والوصول الى مواصلات مؤخرة الجيشين الحادى والخمسين والثانى وتحطيمهما .

فى ٣١ تموز (يوليو) كانت القيادة الهتلرية قد حشدت فى القطاع المعين للاختراق خمس فرق مشاة ، وفرقة آليات «ناردلان» ولواء آليات ، ولواء لمدافع الانقضاض وجملة من الوحدات الاخرى بينها مدفعية ثقيلة من احتياطى القيادة العامة و١٥٠ دبابة ومدفع انقضاض .

اتسمت عشية ١ آب (اغسطس) بالتوتر . فقد صعد العدو قوة ضرباته المضادة . وعند الظهر اخترقت مجموعة متحركة للعدو من الدبابات والمشاة جبهتنا قرب عزبة باروفيه ووصلت الى بيرجاى من الشرق . وفى المساء اخترقت مجموعة ثانية للعدو ، لواء مدافع انقضاض ولواء مشاة آليين ، تماس جانبى فرقتى المشاة ١٧٩ و٣٥٧ ووصلت الى بيرجاى من الشمال . وفى صباح ٢ آب (اغسطس) كان الوضع قد تعقد تماما .

كانت ضربة العدو ، مع مراعاة تفوقه الجدى فى المشاة والمطلق فى الدبابات ، عنيفة للغاية . وفى تلك الايام الحرجة قدم الي قائد الجبهة مساعدة شاملة . أتذكر اننى ابلغته ليلا فى تقرير جديد انه على الرغم من ان اعادة حشد الجيش فى الوقت المناسب ووصول الفيلق الثانى والتسعين الى منطقة بيرجاى قد ساعدا على حصر الاختراق ، الا ان فرقة الجنرال كودريافتسيف ٣٦٧ اصبحت مطوقة .

سأل القائد :

— هل تعرفون تجمع العدو بدقة ؟

— نعم ، ساعدنا استجواب الاسرى .

— هل تصمدون او لا بد من المساعدة ؟

— سيصمد الجيش ، ايها الرفيق القائد . نحن نشن هجوما مضادا على كل الجبهة . اتخذ القتال طابع مواجهة ، والعدو يراوح فى مكانه .

ثم قلت له ان المحاولات الاولى التى بذلتها فرقة كودريافتسيف للخروج من التطويق والالتحاق بالقوى الرئيسية لم تكلل بالنجاح . وما لبث باغراميان بعد هذه المكالمات ان قدم فى طائرة الى مقر قيادة الجيش يصحبه قائد المدفعية الجنرال كولونيل خليبنيكوف

وممثل طيران الجبهة . دقق باغراميان فى الوضع الناشئ وقرر على الفور امداد الجيش باحتياطيات من الجبهة . ثم امرنى بتنظيم هجوم مضاد عنيف على تجمع العدو القوى المندفع الى بيرجاى . وطلب منى قائد الجبهة ان اعير اهتماما كبيرا لتخليص فرقة الجنرال كودريافتسيف من التطويق .

ان الجنرال باغراميان لم يكن ليترك يوما القوات الخاضعة له فى المصيبة . اذ ان قرار تسليمنا فيلقين – للمشاة وللدبابات – فى تلك اللحظة حينما كانت الغيوم تنعقد فوق الجبهة كلها ، وكذلك فوق جيشى كريزير وتشانتشيبادزى لم يكن بالنسبة اليه قرارا سهلا .

فى ساعة متأخرة من مساء ٤ آب (اغسطس) ظهرت على طرق مؤخرتنا ارتال الدبابات والمدافع الذاتية الحركة والسيارات والجرارات لفيلق الدبابات التاسع عشر . حتى فى ظل هذا الدعم كان الوصول الى فرقة الجنرال كودريافتسيف فى غاية التعقيد . ومع ذلك فقد حدث انعطاف . وتسنى لقواتنا فى معارك ضارية استمرت يومين تحطيم تجمع الهتلريين الضارب وقذف فلوله الى وراء نهر ميميل والاستيلاء على رأس جسر صغير .

اتخذ هتلر محاولات يائسة لانقاذ قوات مجموعة جيوش «الشمال» . وفى اواسط آب (اغسطس) كان العدو قد حشد حتى سبع فرق للدبابات ووحدات اخرى امام جيشينا ، الجيش الحادى والخمسين وجيش الحرس الثانى ، المنتشرين على جبهة تمتد ٢٥٠ كيلومترا . ووجهت ضربتان قويتان الى اتجاهى ييلغافا وشاولاى . مع العلم ان القيادة الهتلرية بدأت الهجوم المضاد حينما كانت قوات جبهتنا فى وضع حرج . اذ انها كانت قد نفذت حتى ذلك الوقت عمليتين هجوميتين بلا اى توقف تعطل فيهما عدد كبير من الدبابات والمدافع الذاتية الحركة . وقد وقع العبء الاساسى فى المعارك ضد الدبابات الفاشية على المدفعية ، بما فى ذلك المدافع الكبيرة العيار .

فى ١٦ آب (اغسطس) ابلغ الجنرال تشانتشيبادزى بقلق واضح باغراميان ان قوى كبيرة من الدبابات والمشاة هاجمت جيشه من منطقة كيلمى . وقد زج بكل شىء فى المعركة . بيد ان العدو تابع رغم الخسائر تصعيد قوة الضربة وادخل وحدات جديدة . وعند

شروق يوم ١٧ آب (اغسطس) وجه فى وقت واحد ضربتين اخريين : احداهما الى ييلغافا ، والاخرى الى شاولاى .

وفيما بعد تسنى للعدو نظرا لتفوقه الكبير فى القوى الاستيلاء على الطريق الممتد من توكومس الى ريغا . وكان ذلك هو فشلنا الاول والوحيد فى خلال كل زمن المعارك فى منطقة البلطيق . اندفع الهتلريون الى الامام . بيد ان قائد الجبهة وجد مخرجا حتى فى هذا الوضع الحاد للغاية . بدأ بنقل سريع لتشكيلات الجيش السادس الذى كان الوضع فى قطاعه راسخا نسبيا ، من جناح الجبهة الايمن الى الجانب الايسر للجيش الحادى والخمسين . وبفضل هذا لوحظ انعطاف فى ١٦ آب (اغسطس) . وبعد ان بدأت تشكيلات حرس الجنرال تشيستياكوف العمل فى اكثر قطاعات الجبهة خطرا (عند تماس الجيشين الحادى والخمسين والثانى) اخذ ضغط القوات الفاشية يخف بشكل ملحوظ ، وفى آخر الشهر اضطر العدو الى التخلى عن الهجمات تماما . ولكن هل تخلى لامد طويل ؟

كان من دواعى سرورى ان يجد باغراميان فى تلك الايام المتوترة وقتا لمكالمتى كل يوم تقريبا ، منوها بان على جيشنا بالاشتراك مع الجيش الضارب الرابع توجيه ضربة الى عاصمة لاتفيا فى اول فرصة . وبالفعل ، ما لبثت القيادة العليا ان وضعت مهمات ستراتيجية جديدة امام القوات السوفييتية فى منطقة البلطيق . كان يجب على جبهة البلطيق الثانية بالتعاون مع جبهتى البلطيق الثالثة والاولى تحطيم تجمع القوات المعادى الذى يقوم بالدفاع شمالى نهر دفينا الغربى (داوغافا) . وكان ينبغى لجبهة البلطيق الاولى ان تحافظ بثبات على المناطق التى تشغلها ، وذلك بقوى الجيوش الحادى والخمسين والسادس والثانى ، وان تقضى تماما فى المعارك الدفاعية على الامكانات الهجومية لتجمع دبابات العدو جنوب غربى دوبيلى ، لعدم السماح له بالوصول الى ييلغافا وشاولاى . وفى الوقت نفسه كان يجب فى جناح الجبهة الايمن الاستيلاء على منطقتى فيتسمويجا وايتسافا ، ومن ثم الهجوم على مصب داوغافا بقوى الجيش الضارب الرابع وجيشنا الثالث والاربعين بمساعدة الفيلق الآلى الثالث .

وهكذا ، كان يبدو ان العملية الهجومية للجيشين الثالث والاربعين والضارب الرابع تحمل طابعا جزئيا . بيد ان باغراميان صاغ المهمة

الكفاحية على هذا النحو ليترك لقيادة الجيش مجالا لابداء المبادرة فى العمليات . فمثلا ، جاء فى الامر القتالى بالنسبة الينا : «ابادة تجمع العدو فى باوسكا ، الاستيلاء على مدينة ايتسافا ، الوصول الى نهر داوغافا والاستيلاء على الجزء الغربى من مدينة ريغا» . وكما علمت فيما بعد ، كانت القيادة العليا قد حصرت المهمة فى الوصول الى مصب داوغافا . ولكن قائد الجبهة وضع بشكل اضافى مهمة اختراق ريغا من الغرب .

قال باغراميان :

– ما الذى يمكن ان يتخذه العدو حينما يغدو تجمعه فى ريغا معرضا لتهديد فعلى بالتطويق ؟ اما يسحب القوات من منطقة ريغا واما ، على العكس ، يعزز تجمع ريغا . وفى كلتا الحالتين نستطيع ان نحرز فائدة ستراتيجية . فى الاحتمال الاول تتفرغ قوات جبهتى البلطيق الثانية والثالثة ، وفى الحالة الثانية يضطر العدو الى ان يكشف او يضعف بشكل جوهرى تجمعه فى اتجاه ميميل . وعندئذ تستطيع جبهتنا ، بعد القيام بالحركة المناسبة ، ان تعزل بضربة مفاجئة تجمع منطقة البلطيق نهائيا عن بقية قوات الجيش الالمانى .

اعترف اننى، وقد كنت حينذاك غارقا فى مهمة ملموسة ، لم اعر كلمات القائد هذه اهمية خاصة ، ولكن ما لبثت ، اذ تحققت هذه النبوءة ، ان تذكرتها وقدرت تماما عمق التفكير الستراتيجى لزميلى الاكبر .

كان من المقرر شن الهجوم فى ١٤ ايلول (سبتمبر) . قبل الشروق ، اتى الي فى نقطة المراقبة مارشال الاتحاد السوفييتى فاسيليفسكى ممثل القيادة العليا وجنرال الجيش باغراميان قائد الجبهة . فى الليل هطل المطر . وكان الصباح مظلما والضباب منتصبا كالجدار . كنت أنظر الى الساعة من حين الى آخر . قال فاسيليفسكى بعد ان تشاور مع القائد :

– اجّل بدء التمهيد المدفعى حتى يتحسن الطقس .

انتظرنا ساعتين طويلتين . واخيرا انقشع الضباب ، وفى الساعة العاشرة اعطي ايعاز بمباشرة التمهيد المدفعى . استمر ساعتين ونصف ، ولكن كان واضحا حتى قبل انتهائه ان عزم العدو على المقاومة قد تحطم ، ولا سيما ان باغراميان لم يضن بالدعم الجوى . فقد مرت فوق نهر لييلوبى على ارتفاع منخفض العشرات من الطائرات

المهاجمة ذات النجمة الحمراء . وما لبث السد النارى للقنابل المتفجرة ان تحرك بالتدريج الى عمق الدفاع الفاشى . وسارت ارتال المشاة فى اعقابه تقريبا . وبقفزة عنيفة عبرت النهر خوضا وانطلقت ، دون التوقف عند الخنادق التى استولت عليها ، الى مواقع نيران المدفعية المعادية .

ان جيشينا الثالث والاربعين والضارب الرابع كانا بتحركهما الى عاصمة لاتفيا كانما قد اغلقا كيسا عملاقا على القوى الرئيسية لمجموعة جيوش «الشمال» ، جيشى العدو السادس عشر والثامن عشر . عشرون كيلومترا آخر وستقطع طرق الانسحاب الى المانيا على الجيوش الفاشية التى كانت تتمسك بلاتفيا بعناد شديد . ولهذا اخذ شورنير من جديد فى اواسط ايلول (سبتمبر) يطلب بالحاح من هتلر السماح له بسحب مجموعة جيوش «الشمال» من منطقة البلطيق . وفى هذه المرة تردد هتلر ايضا ، لان ضرباتنا جعلته يدرك واقعية خطر الحصار التام لتجمع الجيش الالمانى وتحطيمه جزءا جزءا . ووافق اخيرا على انسحاب جزئى لقواته من اراضى منطقة البلطيق ، باستثناء منطقة ريغا وساحل بحر البلطيق ، من داوغافا الى حدود بروسيا الشرقية . ولكن لسحب القوات من استونيا والجزء الشمالى الشرقى من لاتفيا كان ينبغى المحافظة باى ثمن على ممر ريغا . وقد امر الفيلدمارشال شورنير بان يتخذ من اجل هذا اكثر الاجراءات حزما . واضطر الى ان يضعف دفاعه بشكل جوهرى فى مواجهة قوات جبهتى البلطيق الثانية والثالثة ، حيث سحب قوى كبيرة من هناك .

اخترقت قوات جبهة البلطيق الاولى دفاع العدو بنجاح ومع انتهاء اليوم الثالث كانت قد تحركت حتى ٥٠ كيلومترا ، مهددة بقطع مواصلات العدو المؤدية الى بروسيا الشرقية .

وهكذا ، كانت ريغا على مرمى حجر من قوات الجبهة ، كما يقال ، ولكن فى ذلك الوقت بالذات بدأت تتحقق افتراضات قائد الجبهة القائلة بان العدو سيشن فى الايام القريبة القادمة هجوما مضادا من جديد . كان الجنرال تشيستياكوف اول من قرع ناقوس الخطر . فقد ابلغ باغراميان ان ٣٠٠ دبابة ومدفع انقضاض تهاجم قواته فى منطقة دوبيلى ، حيث حصرتها فى قطاع يبلغ ١٢ كيلومترا وبدأت ايضا هجمات على الجانب الايسر للجيش الحادى والخمسين .

اخذ الوضع يتفاقم كذلك على المشارف الجنوبية الشرقية لريغا . ان شورنير ، وقد اضعف قواه المدافعة فى مواجهة جبهتى البلطيق الاخريين ، شكل تجمعا ضاربا جبارا جديدا جنوبى ريغا . ولكن باغراميان كان قد تنبأ بهذا فوجهنى مقدما الى صد الضربة المضادة ، وكان جيش الطيران يقذف ويهاجم بنشاط فرق العدو المحتشدة .

فى ١٩ ايلول (سبتمبر) استدعى ستالين عبر تلفون التردد العالى قائد الجبهة الذى ابلغه بمسيرة هجوم جشينا والجيش الضارب الرابع ، منوها فى غضون ذلك بان مقاومة العدو ازدادت بشدة على مشارف ريغا . اطرى القائد الاعلى على قوات الجبهة بسبب اعمالها الناجحة واقترح ان ترسل فورا الى الاركان العامة معطيات عن المبرزين .

فى المساء استمعنا بانفعال بواسطة الراديو الى امر القائد الاعلى الذى شكر فيه قوات جبهة البلطيق الاولى ، ومن بينها جيشنا ، على النجاحات التى تحققت فى خلال هجوم ايلول (سبتمبر) . وحيتنا العاصمة بعشرين طلقة مدفعية .

فى النصف الثانى من ايلول (سبتمبر) علم القائد من المعطيات التى جمعتها مخابراتنا انه احتشدت بالتدريج فى منطقة ريغا قوى كبرى من الجيشين الالمانيين السادس عشر والثامن عشر . ومن المميز ان العدو انزل فى منطقة ريغا حتى تلك الفرق التى تسنى له اجلاؤها من استونيا بحرا . يبدو ان شورنير كان على قناعة راسخة بان القيادة السوفييتية لا تفكر فى شىء غير الاستيلاء على ريغا بأسرى وقت . لقد استهتر محبوب هتلر بقيادتنا السوفييتية ، اذ استخف ، مثلا ، بفراسة وبصيرة واصرار باغراميان الذى كان ، رغم حدة الصراع على عاصمة لاتفيا ، يراقب من منطقة شاولاى بواسطة كل الوسائل التى فى متناول مخابراتنا الاتجاه المجاور الفائق الاهمية والقادر على ايصال قواتنا الى شواطئ البلطيق فى منطقة ميميل (كلايبيدا) ومصب نيمان ، فهناك بالذات كان ذلك «المتراس» الذى يمكن بواسطته الاغلاق المحكم للبوابة التى تصل منطقة البلطيق السوفييتية ببروسيا الشرقية .

فى صباح ٢٤ ايلول تم استلام امر جديد من القيادة العليا بتحويل الضربة الرئيسية لجبهتنا من اتجاه ريغا الى اتجاه ميميل .

ان التنفيذ الخاطف حقا لهذا الامر اضطلع بدور حاسم فى كل

عملية البلطيق الهجومية الستراتيجية التى عزلت بنتيجتها مجموعة جيوش «الشمال» نهائيا عن بروسيا الشرقية وابعدت عن الصراع على المانيا نفسها .

ومن الناحية الملموسة عهد الامر المذكور الى الجبهة باعادة تجميع كل القوى بسرعة وسرية من اتجاه ريغا الى اتجاه ميميل ، وبتشكيل تجمع ضارب فى منطقة شاولاى لتوجيه ضربة قوية الى القوات الفاشية العاملة فى هذا الاتجاه ، بهدف تحطيمها والوصول الى بحر البلطيق . كان ينبغى انجاز العملية كلها فى ١٠ ايام او ١١ يوما ، واعدادها فى ٦ ايام . كان ذلك امدا قصيرا جدا ، لان الانتقال الى الهجوم فى الاتجاه الجديد كان يرتبط باعادة تجميع كبرى للقوات . ولكن كان ينبغى محاولة تدبير الامور فى اطاره قبل ان يتمكن العدو من القيام بمناورة مضادة .

لا حاجة الى القول ان القائد تناول بكل جدية تخطيط هذه العملية المسؤولة ، وتمكن على نحو شامل فى كل الاشكال الممكنة لتنفيذها . كان القائد يدرك ان اعادة تجميع قوات تجمع الجبهة الضارب الرئيسى وحشدها واعداد الانتقال الى الهجوم على اتجاه ميميل ستستغرق الجزء الاكبر من الوقت . ونتيجة التقدير الدقيق لقوى الجبهة وامكاناتها حددت المهمات الملموسة للجيوش .

فى ساعة متاخرة من مساء ٢٣ ايلول (سبتمبر) كانت قوات الجيش الثالث والاربعين قرب داوغافا . ولم يبق علينا سوى اجتياز ما لا يربو على ٢٠ كيلومترا للوصول الى عاصمة لاتفيا . كنا نستعد لاستئناف الهجوم من الصباح حينما تلفن رئيس اركان الجبهة الى نقطة القيادة :

– امرك باغراميان ان تاتى اليه فورا .

ذهبت الى نقطة قيادة الجبهة . شرح باغراميان الموقف بايجاز . وقال ان القيادة العليا قررت تحويل الضربة الرئيسية الى الجناح الايسر لجبهة البلطيق الاولى ، من شاولاى الى ميميل (كلايبيدا) . والى هناك بالذات وجه الجيش الثالث والاربعون . وكان علينا القيام بمسيرة تتراوح بين ١٠٠ كيلومتر و١٢٠ كيلومترا فى فترة قصيرة جدا .

قال الجنرال باغراميان :

– ستتسلم المنطقة للجيش الضارب الرابع ، وتبدأ المسيرة بعد يومين . أتستطيع سحب القوات ؟

– أستطيع .

بالروح نفسها وبدون اضاعة للوقت وضعت المهمات امام القادة الآخرين ايضا .

كان ينبغي ان تسحب القوات خفية من المعركة ، وتسلم المواقع لجبهة البلطيق الثانية ، وتوزع على مسافة تتراوح بين ٨٠ و٢٤٠ كيلومترا قوات خمسة جيوش للقوات العامة وجيش للدبابات وآخر للطيران ، وكذلك فيلقان للدبابات وفيلق آلي وفيلقان للمشاة سلمتها القيادة العليا لجبهتنا من جبهة البلطيق الثانية . كان يجب اعادة توزيع ما مجموعه ٥٠٠ الف شخص وقرابة ٩ آلاف مدفع ومدفع هاون واكثر من ١٣٠٠ دبابة ومدفع ذاتي الحركة والكثير من مختلف الوسائل المادية ، ولا سيما الوقود والذخائر . ولا ضرورة لشرح مدى صعوبة هذه المهمة .

لدى اعداد الهجوم كان باغراميان يعتبر دوما ضمان سرية الاستعداد للمعركة من اهم المشاغل واكثرها الحاحا . وحاول في هذه المرة تحقيق كل الامكانات المتوفرة لهذا . قبل كل شيء جرى ، كالعادة ، الحد الى اقصى درجة من دائرة الاشخاص الذين يعرفون هدف الاجراءات التي قررتها القيادة . وحظرت اية مكالمات عبر كل وسائل الاتصال حول مسائل الهجوم . ومنع القائد بشدة القيام باستطلاع المكان في منطقة الهجوم بمجموعات كبيرة وبملابس الضباط . ولم يسمح للجنرالات والضباط بالظهور عند الخط الامامي للدفاع الا بزي الجنود او بعباءات للتمويه . وحظر ، طبعا ، تنقل القوات والمعدات في ضوء النهار .

والى جانب ذلك قرر باغراميان تضليل العدو بنشاط . فقد امر الجنرالان ماليشيف واوبوخوف بعرض استئناف الهجوم على ريغا من الجنوب : تنشيط كل اصناف الاستخبارات ، القيام باعادة تجميع القوات ، اظهار حركة النقل بالسيارات الى خط الجبهة . . . وقام قادة معدون خصيصا بمكالمات عبر وسائل الاتصال السلكية تتعلق بالاستعداد لاستئناف الهجوم الخ . ووضعت المهمة نفسها امام الجنرال كريزير في منطقة بيلغافا . اما قرب شاولاي فقد نظمت ،

على العكس ، اعمال دفاعية استعراضية : قويت الحواجز وعمقت الخنادق وشعبت شبكة حركات الاتصال ، ولم تكن تجرى مكالمات بالتلفون الا حول موضوع تقوية الدفاع .

في صباح ٢٤ ايلول (سبتمبر) ابلغت الجنرال كوراسوف رئيس اركان الجبهة ان فرقنا السب للمشاة قد سحبت من التخم الامامي ، واذا سمحت القيادة فسيبدأ الجيش الثالث والاربعون مسيرته الى شاولاي مساء ، قبل يوم من الموعد المقرر . ووافق كوراسوف على ذلك .

مع حلول الظلام خرجت ارتال القوات الاولى من الغابات وتحركت على الطرق نحو الجنوب ، الى المخاضات على موشا وليبلوبي ، ثم تابعت طريقها . كانت تسير ٣٠–٣٥ كيلومترا في الليلة ، وتمضي النهار في الغابات .

امر القائد بمنح ادارة المراقبة اوسع الصلاحيات لكي تشرف دورياتها بيقظة على نظام التمويه لا في المسيرة فحسب ، بل وبعد حشد القوات في منطقة شاولاي .

وفي ٢٧ ايلول (سبتمبر) ليلا ، وكان الجيش في المسيرة ، وصلت شعبة العمليات للاركان الى شاولاي وباشرت منذ الصباح استطلاع المكان في الشريط الذي استلمناه من جيش الحرس الثاني .

امرت قيادة الجبهة بتوجيه الضربة الرئيسية من الشرق ، من شاولاي مباشرة . اننى ، وقد وصلت الى المكان ، استنتجت ان من الافضل لنا ان نضرب من الشمال الشرقي ، عبر بلدة كورشيناي ، حيث الخط الثاني لدفاع العدو قريب من الخط الاول .

طلبت السماح بتحويل ضربتنا الرئيسية من الجانب الايسر الى الايمن . اصغى باغراميان باهتمام ، ولم يوافق على حجتي فقط ، بل واطرى علي بسبب هذا الاقتراح السديد .

في صباح ٥ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٤ انجزت قوات الجبهة الاستعداد للهجوم تماما ، حسبما كانت تقتضي الخطة . وكان جيشنا الثالث والاربعون مستعدا للضربة مع الوحدات والتشكيلات الاخرى .

كان الضباب كثيفا والطقس ماطرا ، ولم يظهر امكان الشروع في التمهيد المدفعي الا في الساعة الحادية عشرة . وهاجمت فصائل الاستكشاف المتقدمة للجيش السادس والجيش الثالث والاربعين

العدو بحزم تغطيها نيران المدافع ومدافع الهاون ويدعمها الطيران والدبابات . وكان هجوم فرق النسق الاول شديدا بحيث لم يتمكن العدو فى شريط الضربة التى وجهها جيشنا من تدمير اى جسر على فينتا . فى اليوم الاول من الهجوم تقدمت قوات الجبهة الى عمق يتراوح بين ١٤ و١٧كيلومترا ، ووسعت شريط الاختراق الى ٧٥ كيلومترا . وفى خلال المعارك وجه القائد بفعالية وصلابة الوحدات المهاجمة ، فساعدها على ان تناور بمرونة وتتجنب نقاط ارتكاز العدو وعقد مقاومته وتوجه الضربات الى جوانب ومؤخرة القوات المعادية وتبيدها فى الارض والجو وتسعى الى تطويق التجمعات التى تبدى المقاومة . وبالنتيجة تم القبض على عدد كبير من الاسرى . ان شهاداتهم ووثائق اركانهم اكدت باقناع ان ضربتنا فى اتجاه ميميل كانت مفاجئة للقيادة الفاشية الالمانية .

ولم يفوت القائد اللحظة التى كان ينبغى فيها ادخال القوى المتحركة فى المعركة .

لقد تسنى لنا (وأعنى الجيش الثالث والاربعين) عبور نهر مينيا بلا توقف ، ولكن كلما كنا نقترب من ميميل ، كانت مقاومة العدو تزداد ضراوة . اذ انه كان قد حصن مسبقا هذا الميناء الهام بمتانة ، وحوله الى قلعة . وعلاوة على ذلك ، اندفعت القوات من القطاعات المجاورة لمساعدة الحامية القوية اصلا .

حينما قدمت تقريرى الى القائد كنت أتوقع من باغراميان اقسى الكلمات بسبب عدم تنفيذ المهمة ، على الرغم من اننا حاصرنا ميميل (كلايبيدا) . ولكنه اقتصر على القول بلهجة مشجعة ، كما بدا لى :

– ارجوك ان تفعل كل شىء حتى لا تخرج من ميميل اية دبابة فاشية واى مدفع واى هتلرى .

واذ شعرت بان القائد فى مزاج حسن ، اجبت مازحا :

– لقد طوقنا الفاشيين فى ميميل كما يطوقون فى موطنى ، تايغا ما وراء بايكال ، الدب فى الوجار .

قال باغراميان ، متقبلا النكتة :

– حسنا ، قف بالحربة على الشاطئ وسوف ارجو الاميرال تريبوتس وطيارينا الا يتركوا الدب يهرب عن طريق البحر .

ينبغى القول ان باغراميان ادى قسطا شخصيا هاما فى عملية ميميل . فقد حدد بلا خطأ اللحظة التى نضجت فيها الظروف لاجرائها

وخطط للعملية ببعد نظر وحصافة وقاد اعدادها بثبات . وكان الاعداد فريدا حقا . واكرر ان الحديث يجرى عن تحرك سرى واسع النطاق وخاطف لقوات جبهة كاملة الى اتجاه جديد تماما . واخيرا ، فقد جرت عملية ميميل فى ظل اهتمامه الذى لا يكل وقيادته الابداعية حقا .

سأتحدث كذلك ببضع كلمات عن خصائص محاصرة قوات العدو فى شبه جزيرة كورلانديا والتى ساهم باغراميان مساهمة نشيطة فى تنظيمها .

ان مجموعة جيوش «الشمال» سابقا ، التى اطلق عليها الآن اسم مجموعة جيوش «كورلانديا» ، كانت محمية بالبحر من ثلاث جهات ، مما مكنها من ان تستخدم قواها بشكل مركز وتقيم دفاعا متينا جدا لقطاع جبهتها البرى الذى يبلغ ٢٠٠ كيلومتر . وكانت كثافة القوات هناك عالية جدا ، اى ما لا يتجاوز ٦ كيلومترات لكل فرقة . لقد نسق العدو دفاعه بعمق وطوره على نحو شامل من الناحية الهندسية ، حيث كان عنده نسق ثان قوى فى كل مكان ونسق ثالث فى اهم الاتجاهات ، وكذلك احتياطيات قوية تستخدم للضربات والهجمات المضادة القوية . ولان اسطولنا فى البلطيق لم يكن يملك القوى والوسائل الكافية ، صار البحر بمثابة «نافذة» كانت القوات المحاصرة من اليابسة تتلقى عبرها حتى نهاية الحرب تقريبا كل ما هو ضرورى للقيام بالاعمال القتالية من غير ان تعانى نقصا فى الذخيرة ولا فى الوقود ولا فى الاغذية.ومع هذا ، فقد كان ذلك وضعا ايجابيا ، لان ما يربو على ثلاثين من خيرة فرق الجيش الالمانى ليس فقط لم تساعد فى الدفاع عن الدولة الالمانية ، بل كانت تتطلب ايضا تموينا مستمرا . وكان الجانب السوفييتى يحاصرها بحد ادنى من القوى . ورغم كل الاجراءات التى اتخذتها القيادة الهتلرية لانقاذ تجمعها فى كورلانديا ، استسلم فى نهاية المطاف بلا قيد او شرط .

. . . فى ١٣ كانون الثانى (يناير) دوت منذ الصباح طلقات المدفعية فى شريط جارنا الايسر ، الجيش التاسع والثلاثين للجبهة البيلوروسية الثالثة . لقد بدأت عملية بروسيا الشرقية ، عملية المرحلة الاخيرة من الحرب . وبناء على الفكرة الاولية ، عين للجيش الثالث والاربعين دور مساعد فى هذه العملية ، وهو تقديم العون لقوى الجبهة البيلوروسية الثالثة ، مع البقاء ضمن قوات باغراميان .

ولكن مع تطور العملية فيما بعد سلم الجيش لتشيرنياخوفسكى ، فساهم ضمن الجبهة البيلوروسية الثالثة فى تحطيم تجمع العدو فى تيلزيت ، ومن ثم فى اقتحام مدينة لابياو ، التى تعتبر حصنا من الدرجة الاولى .

ولكن ما لبثنا ، نتيجة لتضافر الظروف ، ان اصبحنا من جديد فى عداد جبهة البلطيق الاولى . وفحوى الامر ان القيادة العليا امرت فى ٨ شباط (فبراير) بان تجمع تحت قيادة المارشال غوفوروف الجيوش التى كانت حتى ذلك الحين فى عداد جبهتى البلطيق الثانية والاولى . وامر باغراميان بالذهاب مع ادارتى الجبهة وجيش الطيران الثالث الى بروسيا الشرقية ليستلم من تشيرنياخوفسكى ويضع تحت قيادته عددا من التشكيلات بينها جيشنا الثالث والاربعون .

قدم باغراميان الى تشيرنياخوفسكى فى نقطة القيادة فى مساء ٩ شباط (فبراير) . استقبل تشيرنياخوفسكى ضيفه بحفاوة وساعده على الدخول فى مجرى الوضع المتوتر جدا الذى نشأ فى بروسيا الشرقية . وكان من بين ما تحدث به ان قوات مجموعة جيوش «الوسط» المعادية ، التى اصبحت تسمى بمجموعة «الشمال» ، قد اغلقت عليها المنافذ فى شبه جزيرة زيملاند ، وحوصرت وضغطت الى البحر فى منطقة كينيغسبيرغ وجنوب غربيها ، اى انها طوقت فى ثلاث مناطق منعزلة : فى شبه جزيرة زيملاند ، وفى كينيغسبيرغ وجنوب غربيها ، فى منطقة هيلسبيرغ المحصنة . وقال تشيرنياخوفسكى :

– نتيجة لوصول قوات روكوسوفسكى الى شاطئ خليج فريشيس-غاف فى منطقة ايلبينغ ، اغلق الطريق الى المانيا على قوات مجموعة جيوش «الشمال» . ومهمتنا الآن ابادتها . ومهمتكم ابادة تجمع قوات زيملاند المحاصرة فى شبه الجزيرة وفى كينيغسبيرغ .

وقال تشيرنياخوفسكى كذلك ان العدو يذود رغم الخسائر الكبرى عن كل منطقة ويتراجع فى نظام نسبى ، ولم تفقد قيادة مجموعة جيوش «الشمال» السيطرة ، وقد اوقف القوات السوفييتية الآن دفاع منظم جيدا يعتمد على قلعة كينيغسبيرغ ومنطقة هيلسبيرغ المحصنة اللتين اعدتا مسبقا . ولاحظ تشيرنياخوفسكى قائلا :

– للقائد الاعلى مسوغاته حينما ابدى خشيته من ان يتمكن

رينداوليتش قائد مجموعة جيوش «الشمال» من تنظيم قواته بعد التراجع الطويل ويستطيع تدعيم المواقع التى يشغلها اكثر واكثر ، اذا اعطيناه فرصة لالتقاط انفاسه ، ولذا يطلب متابعة الهجوم بدون توقف . . .

واذ راعى باغراميان قلة قوات الجبهة ، اقترح عدم حل المهمات دفعة واحدة ، بل بالتدريج . ان التحطيم التمهيدى لمجموعة «زيملاند» يضمن عزل كينيغسبيرغ تماما عن الجزء الاوسط من المانيا الفاشية مما لا بد وان يؤثر ، حسب رأى باغراميان ، فى الحالة المعنوية لحاميتها ويسهل الاستيلاء على القلعة . ويمكن امداد الجيوش المخصصة لاقتحام كينيغسبيرغ بالقوات التى تفرغ بعد تحطيم تجمع «زيملاند» .

وقال باغراميان فى الختام ان اركان الجبهة تعد مشروعا مناسبا لخطة العمليات اللاحقة لعرضه على القيادة العليا .

اقرت القيادة العليا الخطة مع بعض التعديلات . وامر بمباشرة العملية فى ٢٠ شباط (فبراير) . ولم يلب طلب امداد الجبهة ، لان جبهتى جوكوف وكونيف استنفدتا ، طبعا ، كل الاحتياطيات . بيد ان العدو الذى يواجهنا لم ينم ، وكان يعرف ان المعارك السابقة اضعفت قواتنا .

فى ١٩ شباط (فبراير) نظم رينداوليتش ضربتين قويتين بهدف فك الحصار عن تجمع كينيغسبيرغ : واحدة من جهة شبه جزيرة زيملاند ، والاخرى من كينيغسبيرغ . استمرت المعارك الضارية ثلاثة ايام . وتسنى للعدو ازاحة قوات لودنيكوف واقامة ممر يصل حامية كينيغسبيرغ بتجمع «زيملاند» .

فى تلك الايام فقدنا ايفان تشيرنياخوفسكى ، ففى ١٨ شباط (فبراير) اصابته شظية قنبلة بجرح قاتل وتوفى فى اليوم نفسه . لقد استشهد قائد موهوب ترعرع فى حرب صعبة رأى بدايتها وهو آمر لفرقة دبابات . ان الطبيعة اغدقت عليه الموهبة العسكرية بسخاء ، فرباه الحزب الشيوعى واعده لانجاز اعمال كبرى .

عهدت القيادة العليا الى فاسيليفسكى بقيادة الجبهة البيلوروسية الثالثة .

ان باغراميان ، وقد حلل الوضع الناشئ من كل الجوانب ، توصل الى قناعة بانه من المستبعد ان يتسنى فصل حامية

كينيغسبيرغ مجددا عن القوى الرئيسية لمجموعة «زيملاند» بدون امداد كبير لقواتنا . وكان مفهوما الى جانب ذلك انه بسبب التفوق الواضح للعدو فى المشاة والمدفعية ، وفى الدبابات بشكل خاص يزول ايضا امكان الانقضاض الناجح فى وقت قريب على كينيغسبيرغ بحصونها القوية وحاميتها الكبيرة . هذا بالاضافة الى ان هجوم الجبهة البيلوروسية الثالثة على تجمع هيلسبيرغ جرى ايضا بصعوبة ولم يبشر بنصر سريع . وكان يبرز حلان من تلقاء ذاتهما : اما تقوية جبهتنا بكمية كبيرة من الاحتياطيات وبهذا تتوفر المقدمات الفعلية من اجل تنفيذ المهمات المطروحة بنجاح ، واما توحيد قيادة قوات الجبهتين من اجل تحطيم كل قوى العدو فيما بعد جزءا جزءا .

واذ استرشد باغراميان بهذه الاعتبارات تلفن الى موسكو فى ٢١ شباط (فبراير) . اصغى الجنرال انطونوف الى حججه باهتمام شديد ووعد بابلاغ ستالين على الفور . واتخذ القائد الاعلى قرارا بتوحيد قيادة قوات الجبهتين .

فى ٢٢ شباط (فبراير) ورد امر القيادة العليا بتحويل جبهة البلطيق الاولى الى مجموعة قوات «زيملاند» كجزء من الجبهة البيلوروسية الثالثة ، وبتعيين جنرال الجيش باغراميان قائدا لها ، وفى الوقت نفسه نائبا لقائد الجبهة البيلوروسية الثالثة .

وما لبثت القوى الرئيسية للجبهة تحت قيادة فاسيليفسكى ان شرعت فى عملية تحطيم تجمع العدو فى هيلسبيرغ ، واعد قائد واركان مجموعة قوات «زيملاند» بكل دقة خطة لسحق كينيغسبيرغ .

قرر البدء بالعملية بعد ٨–١٠ ايام من تصفية تجمع هيلسبيرغ ، مع الاستعداد للانتقال فورا الى الهجوم اذا بدأ العدو فجأة اجلاء قواته عن كينيغسبيرغ . واقتضى الامر تعيين اكثر المواعيد صرامة – خمسة ايام : يوم لاختراق دائرة الدفاع الاولى ، واربعة ايام للانقضاض والاستيلاء على المدينة . وهى مهمة صعبة جدا . ومدة الاستعداد فى حدود ٢٠ يوما ، ذهب منها اسبوع تقريبا على اعادة حشد الجيوش .

ان الامر ، الذى يجرى الحديث عنه ، لم يوزع بشكل تحريرى . فبهدف التقيد بالسرية ابلغ جنرال الجيش باغراميان مضمونه لقادة الجيوش واعضاء مجالسها العسكرية فى اجتماع عقد فى اركان المجموعة بتاريخ ٣١ آذار (مارس) .

اذكر اننا دخلنا قاعة كبيرة فى قصر قديم للفرسان يقع فى غابة فى منطقة نورغينين . رأينا امامنا نموذجا كبيرا لقلعة ومدينة كينيغسبيرغ . وتبدو عليه بجلاء ودقة تضاريس المكان والمنشآت الدفاعية ومبانى المدينة واحياؤها . ووضع الجنرال كولونيل كوراسوف رئيس اركان مجموعة «زيملاند» على النموذج اشارات اصطلاحية ترمز الى القوات المخصصة للانقضاض على كينيغسبيرغ واتجاهات الضربات الرئيسية . وحدد باغراميان ، مشيرا بعصا طولها متران ، المهمات لكل جيش .

كانت مهمة الاستيلاء على كينيغسبيرغ نفسها من نصيب الجيوش الثالث والاربعين ، والخمسين ، والحادى عشر مباشرة ، مع العلم انه كان على جيشنا الثالث والاربعين حتى نهاية اليوم الثالث ان يستولى بالاشتراك مع الجانب الايمن للجيش الخمسين على كل الجزء الشمالى من كينيغسبيرغ حتى نهر بريغيل .

لم يكن الطقس مؤاتيا لنا : فقد ساقت رياح البلطيق غيوما رمادية من الجهة الشمالية الغربية ورذ المطر وبقى الضباب منعقدا حتى الظهر تقريبا وتشربت الارض المستنقعية بالماء كالاسفنج . وفجأة بزغ يوم مشمس صاح . ذهبت دون اضاعة للوقت الى استكشاف الشريط المخصص لنا .

اننا ، وقد تفقدنا التخم الامامى ودرسنا الخريطة مع آخر معطيات المخابرات ، تلقينا معلومات اضافية عن تحصينات كينيغسبيرغ فى قطاع الاختراق . وقد اشير فى الخريطة بخط متدرج الى الخنادق والمواقع الفاصلة الكثيرة وتجمعات نقاط الارتكاز وخطوط الخنادق المضادة للدبابات والممتدة كيلومترات عديدة ، واشير بدوائر الى المعاقل الخشبية الترابية ، وبمربعات الى المعاقل الدائمة ، وباشكال بيضوية مقلمة الى طوابى القلعة . وعلاوة على ذلك كانت الخريطة منقطة بعلامات زرقاء تشير الى الرشاشات ومدافع الهاون وبطاريات المدفعية . كانت تعكس بشكل ملموس دفاع العدو المتخم بوسائل النيران .

ولكننا كنا وفق خطة جنرال الجيش باغراميان الفائقة الدقة نهاجم من الجهة الشمالية الغربية ، اى من المؤخرة . ولا يصعب تصور ما الذى كان بانتظارنا لو اقتضى الامر الاستيلاء على القلعة من واجهتها الامامية .

لقد اقام العدو حتى فى شريط المؤخرة ثلاثة مواقع دفاعية . وكان يصعب فى غضون ذلك تمييز الموقع الاول عن الثانى ، لان الخنادق المتواصلة المغطاة بحواجز الاسلاك والالغام كانت تأتى واحدا اثر الآخر كل ٢٠٠–٣٠٠ متر ، وذلك دون الحديث عن احياء المدينة ، حيث كانت الشوارع مغطاة بالمتاريس وحيث تحولت كل المبانى الحجرية المتينة الى نقاط محصنة .

كان على جيشنا ان يخترق لاول مرة مثل هذا الدفاع الجبار المتعدد الخطوط الذى يعتمد على طوابى القلعة . ان تخريب هذه المنشآت وتدميرها او على الاقل تذليلها أمر لا تستطيعه الا مدفعية من اكبر عيار ، تلك التى كان يطلق عليها قديما التسمية المحكمة «مدفعية الحصار» .

بعد الاستيلاء على كينيغسبيرغ لاحظ باغراميان فى حديث مع المساهمين فى الاقتحام ان عملية كينيغسبيرغ كانت عملية مدفعية الى درجة كبيرة . وبالفعل ، كان تزود القوات بالوسائل المدفعية – حتى المدافع فوق الثقيلة (ذات القدرة الخاصة) – عاليا للغاية .

ذهبت مع الجنرال شيغلوف قائد مدفعية الجيش الى نقاط المراقبة المدفعية ، واقتنعنا بان تدمير كل الطوابى دفعة واحدة سيكون صعبا . ولكن علاوة على هذه الطوابى كانت فى شريطنا طواب اخرى ، فى المدينة نفسها ، قرب جزئها الاوسط . وهى قديمة ببنائها واصغر بحجمها ، وكانت تغطى من الشمال مركز كينيغسبيرغ العسكرى – ثكن اغسطس وادارة المنطقة العسكرية وقيادة القلعة .

تحدث شابالوف عضو المجلس العسكرى للجيش مع المحاربين فى فرقة سيباستوبول الثالثة والثلاثين عن الانقضاض المقبل وتطرق الى محافظ كينيغسبيرغ الفاشى فاغنير . ان فاغنير هذا ، اذ توجه بالاذاعة الى جنوده فى التخم الامامى ، اعلن من خلال مكبرات الصوت ان الروس ، اذ اعتمدوا على التحصينات البرية الضعيفة لسيباستوبول ، دافعوا عن المدينة ٢٥٠ يوما وان على جنود الفوهرر ان يصمدوا المدة نفسها فى التحصينات القوية لكينيغسبيرغ . وسأل شابالوف المقاتلين المحيطين به : «بمَ نرد على فاغنير ؟» . قال احدهم : «نرد كالعادة . معاييرنا تختلف عن معايير الفاشى . دافعنا عن سيباستوبول ٢٥٠ يوما ، وحررناها فى ٤ ايام» .

قال باغراميان :

– يجب ان نستخدم هذا الجواب الموجز واللائق من اجل الدعاية المضادة .

عين موعد اقتحام القلعة فى ٥ نيسان (ابريل) ، وفى ١ نيسان (ابريل) يبدأ تمهيد مدفعى لمدة اربعة ايام . واضطلعت بالدور الرئيسى فيه المدافع ذات القوة الكبيرة والخاصة . وكان عليها فى خلال هذه المدة ان تدمر الطوابى والمعاقل والمنشآت الدائمة الاخرى . بيد ان المطر المتواصل الطويل الذى انهمر صباح ١ نيسان (ابريل) ارغم القيادة على تأجيل بدء التمهيد المدفعى يوما كاملا . وبالتالى أجل ايضا يوم هجوم المشاة الى ٦ نيسان (ابريل) .

فى يوم ٢ نيسان (ابريل) بطوله قامت مدافع الهاوتزر والهاون باستطلاع نارى . وبالتدريج انتزعت نيران المدفعية «الوسادة» الترابية من الاهداف . وكانت الانفجارات ذات الدخان الرمادى المميز تؤكد ان الطلقات انفجرت على غلاف خرسانى ، وكان الدخان الاحمر يعنى انفجارا على بناء من الاجر . ثم بدأ اطلاق المدافع ذات القوة الكبيرة والخاصة . ان المعاقل الدائمة والملاجئ الخرسانية والمعاقل الخشبية الترابية ، التى كشفها الاستطلاع النارى ، ما لبثت ان تدمرت بعد عدة اصابات مباشرة . بيد ان قصف الطوابى لم يعط الفعالية المطلوبة . وكانت الثغرات والشقوق الواضحة معدودة .

كان القصف مستمرا حينما وصلت القوات الى الخط الامامى تماما واتخذت مواقع الانطلاق للهجوم .

فى النصف الثانى من يوم ٥ نيسان (ابريل) اجرينا استطلاعا بالقوة . بعد مناوشة مدفعية قصيرة ، هاجمت العدو عدة سرايا للمشاة واجتازت الحفرة المضادة للدبابات واندفعت الى اول خندق واستولت عليه فى بعض القطاعات . وطغى قذف المدفعية ذات القوة الخاصة على مناوشتنا المدفعية ونيران العدو المضادة ومعركة الخنادق مع ما يرافقها من لعلعة البنادق والرشاشات . انتهى اليوم الرابع والاخير للتمهيد المدفعى .

عند المساء ، حينما اخذت المدفعية تصمت ، هدر صوت قوى ورتيب جديد فوق ميدان المعركة . لقد انطلقت الى كينيغسبيرغ قاذفات الطيران البعيد المدى . وهاجمت من الجو ميناء كينيغسبيرغ البحرى وعقدة سكة الحديد ، التى تلتقى فيها سبعة خطوط ، ومواقع هامة اخرى . استمر القذف الليل بطوله . ورأينا

من جبل فوخسبيرغ لهيب الحرائق الجبارة . وعلى ضفاف نهر بريغيل ، فى منطقة الميناء العسكرى والترسانة والمصانع الحربية الواقعة فى الجوار – مصنع البارود والمصنع الكيماوى ومصنع تصليح المدافع – دوت انفجارات شديدة القوة .

قبيل الشروق أتى الينا فى نقطة القيادة جنرال الجيش باغراميان . كنت جالسا خلف النظارة المزدوجة المسددة الى المدينة غارقا فى المراقبة بحيث لم ألحظ قدوم القيادة .

سأل باغراميان بصوت مرتفع :

– أليس من الخطر على قائد الجيش ان تكون عنده نقطة مراقبة ملحوظة للعدو كهذه ؟

رأيت نائب قائد الجبهة ، فانتصبت وأردت ان أقدم تقريرى وفق الاصول ، ولكنه صافحنى بقوة ، مبينا ان لا حاجة الى الشكليات . أوضحت ان شعبة العمليات لاركان الجيش موجودة فى القبو ، وفى حالة قذف المدفعية الثقيلة يمكن الهبوط الى هناك بسرعة . . . ومن المستبعد ان تتضرر نقطة المراقبة من القصف بالمدافع المتوسطة العيار .

انحنى باغراميان الى فتحتى النظارة المزدوجة واخذ ينظر الى المدينة . كانت خطوط كينيغسبيرغ لا تكاد ترتسم خلف ضباب الصباح الكثيف . وخيمت على المدينة سحب زرقاء منخفضة .

تنهد بأسى :

– لن يتسنى الآن ارسال الطائرات .

من الجهة المقابلة للمدينة ، فى الجنوب ، أتى هدير متقطع يتعالى بسرعة . نظرت الى الساعة ، كان الوقت التاسعة تماما . وسمعت فورا سلسلة من الانفجارات الخافتة لقذائف ثقيلة . انها «الكاتيوشا» تنبئ ببدء التمهيد المدفعى فى جيش الحرس الحادى عشر . وعلى اثرها دوى باتساق صوت المدفعية الثقيلة . وعلى الرغم من بعد المسافة رج بوضوح بفعل طلقات المدفعية الثقيلة زجاج نوافذ المبنى الذى كنا فيه .

فى الساعة العاشرة اعطى باغراميان ايعازا ببدء التمهيد المدفعى فى قطاعنا ، فسمع هزيم الرعد المدفعى على مقربة منا . لقد احدثت الالوف من المدافع ومدافع الهاون دويا يفوق التصور ، وكانت الارض تترنح تحتنا وكانما بفعل زلزال ، وبدا وكأن زجاج النوافذ

سيتناثر فى التو واللحظة . وما لبثت المشارف الشمالية الغربية للمدينة ان غرقت فى الق النار والدخان . واستمر هذا ساعتين .

ان الانفجارات المتواصلة لقذائف الدخان وللالغام على امتداد التخم الامامى للدفاع الفاشى كان يشهد على ان المشاة والدبابات سينطلقون الآن للهجوم متخفين بالستار الممتد فى الجوار . فهل سيتسنى للقوات المقتحمة تذليل شريط التحصينات والوصول الى دفاع العدو ؟ وبدأت اصعب اللحظات . لم نكن نسمع اصوات المنقضين ، فى حين كان من الصعب فى هذه الرؤية السيئة كشف المحاربين حتى بالمنظار . كان ينبغى انتظار التقارير من الفيالق . وانتظرنا بفارغ صبر . لم ابعد سماعة التلفون عن اذنى .

– كيف ؟

كنت اطرح هذا السؤال على آمر فوج ثم آخر . ولكن الاجوبة كانت ، كقاعدة عامة ، موجزة وغير محددة تماما :

– انطلقوا الى الامام ! يهاجمون !

فى ذلك الوقت قدم الينا فاسيليفسكى . قال لي بصرامة ان السيارات الخفيفة الواقفة قريبا تكشفنا ، وان نقطة المراقبة لدى الجيش ليست كما ينبغى . بيد ان توبيخ المارشال هذا ما لبث ان خفف من وقعه خبر سار من الجنرال لوباتين الذى كان يقود فيلق المشاة الثالث عشر . كانت فرقه تهاجم فى وسط تشكيل الجيش . وقد قال :

– اخترقت تشكيلتا كراسنوف وتيمتشيك دفاع العدو وتلتفان على الطابية رقم خمسة ! والعدو يقاوم بضراوة .

وما لبث ان ابلغنا بالنجاح آمرا فيلقين آخرين : الجنرالان كسينوفونتوف وسيدولين .

ان فاسيليفسكى ، وقد اقتنع بان بداية الهجوم جرت عندنا بنجاح ، ودعنا وذهب الى الجنرال لودنيكوف فى الجيش التاسع والثلاثين . بعد ذهاب المارشال ، حاول باغراميان ان يستوضح من المارشال الجوى نوفيكوف عن عدد الطائرات التى تسنى له رفعها فى الجو . ولكن ما ان تمكنوا من وصله بالطيارين حتى دوى فوق سقف البيت تماما هدير محركات نعرفه جيدا . اندفع الجميع الى النوافذ . كان يحلق بصورة منخفضة فى اتجاه كينيغسبيرغ سرب من الطائرات المهاجمة وعليها النجم الحمراء .

حينما دققنا الاسئلة التى ظهرت لدى ادارة القوات ، دوى فجأة انفجار فى الجوار . سقطت ارضا ، ولكننى وقفت بسرعة . اتضح ان عصفا بفعل قذيفة انفجرت فى جدار البيت اسقط اطر النوافذ مع اكياس الرمل ، محولا الزجاج الى شظايا دقيقة . تلقى باغراميان ضربة قوية فى كتفه الايسر وقذف به الى الزاوية المقابلة فى الغرفة ، وقد غطى وجهه بيديه ، وكان الدم يسيل منه بحيث اعتقدت انه جريح . ولكن اقتصر الامر على بعض الخدوش والرضوض الخفيفة .

حينما علم فاسيليفسكى بما حدث ، قال بعتاب :

– كان من الممكن ان يحدث ما هو اسوأ .

وامرنا بصرامة ان ننزل الى القبو ، وان نقوم بالمراقبة من برج مدرع مثبت على شجرة . وبالمناسبة ، لم تقع طلقات اخرى على نقطة المراقبة التابعة للجيش .

فى غضون ذلك كان هجوم قوات جيشنا يتطور وفق الخطة . ورغم ان الدعم من جانب الطيران كان لا يزال ضعيفا ، قضت الوحدات باحكام على حاميات العديد من التحصينات وتحركت الى الامام ، مع العلم ان مجموعات الانقضاض اقتحمت بجرأة الفواصل بين الطوابى وطوقتها وحاصرتها واكتنفتها من جميع الجهات . وهكذا ، فان القوات ، وقد حاصرت الطوابى بقوى صغيرة ، اندفعت فى نهاية اليوم الثانى من الهجوم الى تخم كينيغسبيرغ الشمالى الغربى ، اى الى خط الدفاع الثانى للعدو .

فى صباح ٧ نيسان (ابريل) تحسن الطقس تحسنا شديدا بالفعل ، وشعت الشمس على المدينة الملتهبة . وفى الساعة التاسعة و٣٠ دقيقة ، بعد تمهيد مدفعى قصير ولكنه قوى ، انطلقت الى الهجوم من جديد قوات جيشنا وجيشين مجاورين . ونشبت المعركة بقوة جديدة . بيد ان اليوم الثانى من العملية كان يختلف بشدة عن اليوم الاول . كان الطيران السوفييتى يستطيع ان يعمل فى السماء على نطاق واسع .

بقى باغراميان يرعى جيشنا كالسابق . ان المعارك المتوترة على الجانب الايمن مارست تاثيرا ملحوظا فى اقتحام القلعة عموما . واذا كان قد تسنى لنا مع قوات الجيش التاسع والثلاثين ان نحطم هناك مقاومة الفاشيين فى نهاية المطاف ، فان الفضل فى هذا يعود الى تخطيط العملية الصحيح ، والى قدرة اركان باغراميان على التنبؤ

بالمضاعفات الممكنة . ان التجمع الكثيف بشكل لم يعهد له مثيل لقوات الجيش الثالث والاربعين الذى شكل باصرار منه شمال غربى كينيغسبيرغ لم يمكن من «حبس» حامية القلعة وقطع مواصلاتها البرية الوحيدة فحسب ، بل مكن ايضا من صد الفرق الفاشية الالمانية التى اندفعت الى المدينة من زيملاند .

كان اليوم التالى ، يوم ٨ نيسان (ابريل) ، نقطة انعطاف فى مسيرة الانقضاض بأسره . فقد قطعت قوات الجيوش الثالث والاربعين ، والخمسين ، والحادى عشر بضربات مركزة دفاع العدو وقذفت به فى الجزء الاوسط من المدينة . وفى ذلك اليوم اجتاح حرس الفيلق الثالث عشر ، الذين كانوا يهاجمون فى وسط صفوف الجيش القتالية ، وحدات الفاشيين المقابلة وقبضوا على الوف الاسرى ، وما لبثوا ان وصلوا بعد الظهر الى النهر فى منطقة ورش تصليح عربات القطارات ومصنع الغاز والمحطة الكهربائية .

قدم آمر الفيلق الجنرال لوباتين هذا التقرير :

– تاتى الينا قوارب من الضفة الجنوبية . انها وحدات الجنرال غاليتسكى ، يحيى جنودنا بطلقات البنادق جنود الجيش الحادى عشر .

وهكذا التقى على بريغيل فى ٨ نيسان (ابريل) محاربو الجيش الثالث والاربعين والجيش الحادى عشر . وشق تجمع كينيغسبيرغ للعدو .

ان المعارك المتوترة التى نشبت فى جبهة التطويق الخارجية ادت فى نهاية المطاف الى اعادة توزيع تشكيلات جيشنا . فى مساء ٨ نيسان (ابريل) تلقيت من اركان الجبهة امرا بسحب قوى الجيش الرئيسية من كينيغسبيرغ ونشرها غربى المدينة مع مهمة طرد تجمع «زيملاند» للعدو .

ان نقل اتجاه هجوم الجيش الثالث والاربعين من الجبهة الداخلية لتطويق كينيغسبيرغ الى الجبهة الخارجية ، الذى أتى فى حينه تماما ، جرى ايضا بتوصية من باغراميان . كانت حامية القلعة التى ابعدت الى جزء المدينة الاوسط لا تزال تقاوم بضراوة ، ولكن قدرتها القتالية كانت تتدهور باطراد . والقيادة المعادية ادركت ، طبعا ، انه لم يعد فى امكانها المحافظة على كينيغسبيرغ . ولهذا كان ينبغى توقع محاولات لاندفاع اكثر وحدات الحامية قدرة على القتال الى

الغرب للالتحاق بمجموعة جيوش «زيملاند» . ولهذا الاندفاع اتجاه وحيد : من وسط كينيغسبيرغ عبر صفوف جيشنا القتالية .

بدأنا فورا اعادة التوزيع ، وهى امر صعب فى ظروف المدينة . وقد مكنتنا من ايجاد ما يشبه حاجزا ثلاثيا على طرق الاندفاع المحتمل لحامية كينيغسبيرغ والضربة التصادفية من مجموعة «زيملاند» .

فى عشية ٩ نيسان (ابريل) ليلا بذلت حامية كينيغسبيرغ بالفعل محاولتين للخروج من التطويق . وفشلت كلتاهما . وكان بين الهتلريين القتلى جنرالان : زيداو امر فرقة المشاة ٥٤٨ وشوبيرت رئيس بوليس كينيغسبيرغ . وفى الليلة نفسها وجهت مجموعة «زيملاند» المعادية ضربة تصادفية من جبهة التطويق الخارجية . واستمرت المعركة عدة ساعات . وبنتيجتها رد التجمع الذى حاول ان يفك الحصار الى المواقع التى انطلق منها .

فى ٨ نيسان (ابريل) عرض مارشال الاتحاد السوفييتى فاسيليفسكى على القوات الالمانية المطوقة فى كينيغسبيرغ اقتراحا بان ترمى السلاح طوعا . ولكن هذا الاقتراح الانسانى رفض .

. . . فى النصف الثانى من يوم ٩ نيسان (ابريل) نشأ بالنسبة الى حامية كينيغسبيرغ وضع لا مخرج منه بالمرة ، اذ انهال فى الصباح ٥٠٠٠ مدفع ومدفع هاون و١٥٠٠ طائرة على القلعة بضربة ساحقة . وبدأ الهتلريون يستسلمون للاسر تشكيلات باكملها . وفى نهاية اليوم الرابع سقطت كينيغسبيرغ .

وفى اليوم نفسه فى الساعة الرابعة والعشرين تماما حيت موسكو ابطال الانقضاض على ذلك الوكر القوى للعسكرية البروسية . وبمناسبة هذا الانتصار اصدرت هيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ميدالية «لقاء الاستيلاء على كينيغسبيرغ» قلدت للمساهمين فى الانقضاض . ومنحت ٩٨ تشكيلة ووحدة برزت فى خلال الانقضاض على القلعة التسمية الفخرية ، تشكيلات ووحدات «كينيغسبيرغ» .

. . . بقيت على جبهتنا المهمة الاخيرة ، تصفية تجمع جيوش «زيملاند» . وفى الساعة الثامنة من ١٣ نيسان (ابريل) بدأت العملية الجديدة التى كان ينبغى فيها عزل قوى العدو الاساسية عن مرفأى بيلاو وفيشهاوزين ، ومن ثم الاستيلاء على هذين المرفأين . وكان الاستيلاء على بيلاو صعبا بشكل خاص .

ان القيادة الفاشية ، وقد جلبت فلول قواتها الى شبه جزيرة بيلاو الضيق ، كانت تأمل فى الاحتماء هناك . وتلقى جيش الحرس الحادى عشر مهمة مهاجمة آخر قلعة للهتلريين وقذفهم الى البحر . كان شبه الجزيرة بأسره مقسما الى خمسة مواقع دفاعية جبارة مليئة على نحو كثيف بالمعاقل وبالحواجز المتواصلة المضادة للدبابات وللمشاة . وكان جزؤه الواقع فى اقصى الجنوب مغطى بقلعة قديمة ذات اسوار حجرية من خمسة امتار وسد ترابى وخندق عريض ملىء بالمياه . ولم تكن منشآت القلعة البحرية تتأثر حتى بالقذائف القوية وقنابل الطيران . وحولت كل المبانى الحجرية فى المدينة الى نقاط ارتكاز . وباختصار ، كانت بيلاو صورة مصغرة لكينيغسبيرغ .

كان باغراميان ، كما يتذكر القارئ ، يقود فى السابق الجيش الحادى عشر وكان يعرف جيدا كل فرقة من فرقه وكل ملاكه القيادى .

فى الايام الاولى من المعارك ، ابتداء من ٢٠ نيسان (ابريل) ، هاجم جنود الفرقة بعنف دفاع العدو القوى . وفى عشية ٢٢ نيسان (ابريل) ليلا زج غاليتسكى ، وقد تشاور مع باغراميان الذى لم يكن يفارق مقر قيادة الجيش الحادى عشر ، فيلق المشاة الثامن فى المعركة . وهذا ما حسم نتيجة الصراع . ومع كل مقاومة العدو ، لم تنقذه حتى التحصينات الخرسانية .

فى صباح ٢٥ نيسان (ابريل) حلت اللحظة الحاسمة للانقضاض على بيلاو . ما كاد يتبدد الضباب حتى تغطت المدينة من جديد باعمدة الدخان الكثيف المتصاعد من انفجارات قنابل الطيران والقذائف . وما ان نقلت المدفعية النيران من التخوم الى الوسط ، حتى اندفع الحرس الى الامام واقتحموا المدينة . وفى الساعة الثانية عشرة نهارا تم تطهير جزئها الاوسط تماما .

لم يكن قد حل الظلام بعد ، حينما استولت قوات الجنرال زافادوفسكى على الترسانة ، وصفت فرق الجنرال كوشيفوى بالتعاون مع الفيلق السادس عشر آخر جيب للمقاومة على الشاطىء المقابل للميناء . رمى الفاشيون الذين بقوا سالمين فى المعركة سلاحهم . وحسب معطيات الاستكشاف الجوى وشهادات الاسرى ، كان قد احتشد بضعة آلاف من الجنود والضباط المعادين فى اللسان

البرى الضيق فريشيس-نيرونغ البالغ كيلومترا ونصف الكيلومتر . كان ينبغى ارغامهم على الاستسلام او الاجهاز عليهم . واذ سعى باغراميان الى تجنب الخسائر ، اوصى بتنظيم استكشاف دقيق قبل الهجوم على طول اللسان الضيق ، حيث المناورة مستحيلة تماما . وفى تلك اللحظة استدعى الى اركان الجبهة .

حينما وصل الى هناك ، قال المارشال فاسيليفسكى :

– طلب منى الذهاب الى موسكو فورا . لقد عينت قائدا لقوات الجبهة البيلوروسية الثالثة . والمهمة الاساسية هى انجاز تحطيم فلول تجمع «زيملاند» . فكر فى كيفية تحقيق هذا باقل خسائر . هذا هو الامر الرئيسى .

بيد ان جيشنا الثالث والاربعين سلم الى الجبهة البيلوروسية الثانية التى كانت تتقدم اكثر واكثر فى عمق المانيا . وكلفت فى غضون ذلك بمهمة نشر الفرق فى منطقة جديدة شمال غربى نهر فيستولا ومحاصرة التشكيلات التى لم يجهز عليها ووحدات جيش الميدان الثانى للعدو التى اختبأت فى الضفاف المستنقعية ولسان هيل . وباختصار ، كان يجب العمل مع قوات الجبهة البيلوروسية الثالثة ، ولا سيما الجيش الثامن والاربعين . وكنا على تماس معه فى الجناحين ، واستمرت اتصالاتى اليومية بباغراميان فى خلال تصفية فلول تجمعى العدو فى بروسيا الشرقية ودانزيغ .

لدى الاستعداد لتوجيه الضربة الاخيرة للعدو ، كنا نجرى مكالمات تلفونية ونتبادل ضباط الاتصال عدة مرات فى اليوم . وكانت عند جارى الاكبر معطيات اوسع عن التجمع المحاصر ، فشاطرنى اياها بسخاء . وكان من بين ما قاله باغراميان ان عددا كبيرا من الفاشيين المختبئين فى الالسن البرية والضفاف المستنقعية عبارة عن قطاع طرق حقيقيين ، وهم بصورة رئيسية من القوات التأديبية والبوليس الذين ارتكبوا الكثير من الجرائم الدامية . واذ يخافون الآن من القصاص ، يرهبون القوات الاخرى ولا يسمحون لها بالاستسلام .

ومع ذلك توجه اليهم باغراميان وروكوسوفسكى فى صباح ٨ ايار (مايو) بالدعوة الى رمى السلاح طوعا .

فى عشية ٩ ايار (مايو) ليلا ابلغنى باغراميان بسرور عبر التلفون انه تلقى من الاركان العامة خبرا باستسلام المانيا بلا قيد او

شرط . ولكن حتى بعد ان وقع ممثلو القوات المسلحة الالمانية وثيقة فى هذا الخصوص ، استمر التجمع المواجه لنا بعناده . اما نحن فكنا مخلصين لوعدنا ولم نستخدم السلاح قبل الساعة المحددة . بيد ان الفاشيين لم يكونوا ، كما اتضح ، يفهمون الا لغة القوة . فاستخدمناها . وهذه الضربة الاخيرة ارغمت على الاستسلام لقواتنا الوفا مؤلفة من جنود وضباط القوات الفاشية الالمانية وعلى رأسهم ١٥ جنرالا .

وهكذا فقد اقتضت الظروف فى يوم الانتصار العظيم ان نتابع انا وباغراميان ترسيخ هذا النصر بالسلاح .

قلد باغراميان وسام سوفوروف من الدرجة الاولى للمرة الثانية لقاء مآثره البارزة فى العمليات الختامية للحرب الوطنية العظمى . وعلى رأس فوج مركب لجبهة البلطيق الاولى التى اشتهرت فى المعارك الضارية مر باغراميان امام ضريح لينين فى خلال عرض النصر المشهود فى ٢٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٥ .

بعد الحرب الوطنية العظمى عين باغراميان قائدا لقوات منطقة البلطيق العسكرية ، احدى اهم مناطق الحدود فى وطننا .

وقد انتخبه شغيلة لاتفيا السوفييتية ثلاث مرات نائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، وهو يتمتع بشعبية عالية جدا سواء فى قوات المنطقة او بين شغيلة جمهوريات البلطيق الثلاث . والى جانب ذلك استمرت عرى وثيقة تربط القائد بشغيلة اذربيجان وارمينيا الذين يعتبرونه ابنهم بحق : من حيث مكان الولادة بالنسبة الى البعض ، ومن حيث القومية بالنسبة الى الآخرين .

وبعد الخدمة فى منطقة البلطيق العسكرية استخدم باغراميان على نطاق واسع تجربته الفائقة الغنى فى العمل فى القيادة والاركان ومعارفه الموسوعية حقا فى ميدان النظرية والممارسة العسكريتين فى مناصب رفيعة اخرى فى القوات المسلحة للاتحاد السوفييتى : نائب وزير الدفاع – رئيس مفتشى وزارة الدفاع ، رئيس اكاديمية الاركان العامة ، نائب وزير الدفاع – رئيس مؤخرة القوات المسلحة . وكان تنفيذ هذه الواجبات الصعبة والمسؤولة يتطلب بذل جهود كبرى وعطاء كاملا .

ادى باغراميان قسطا شخصيا جبارا فى قضية التدعيم الشامل

للجبروت الدفاعى للوطن الاشتراكى والقدرة القتالية لقواتنا المسلحة الباسلة . ان مآثر باغراميان ازاء الوطن قد كللت عن جدارة بمنحه رتبة مارشال الاتحاد السوفييتى ولقب بطل الاتحاد السوفييتى مرتين .

ترأس باغراميان فى السنوات الاخيرة من حياته مجموعة المفتشين العامين لوزارة الدفاع فى الاتحاد السوفييتى التى يعمل فيها القادة العسكريون السوفييتيون البارزون الذين يشاطرون الجيل الجديد من السلك القيادى فى الجيش والاسطول تجربتهم القتالية الغنية بسخاء .

مارس باغراميان باستمرار نشاطا اجتماعيا-سياسيا وعسكريا-علميا متنوعا . وكان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ونائبا فى السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، وترأس اركان عموم الاتحاد السوفييتى لمسيرة الشبيبة السوفييتية فى اماكن امجاد الثورة والقتال والعمل . ان مؤلفاته ، التى تتضمن الوقائع التاريخية والذكريات ، تعمم تجربته القيادية . وهذه الكتب تتمتع باوسع شعبية فى بلادنا ، وقد ترجمت الى لغات اجنبية . وكان باغراميان يكتب بانتظام مقالات وتقارير حول المسائل الجذرية للتاريخ والنظرية العسكريين والتربية الوطنية للشغيلة .

محتويات

الى القارئ ٣
غيورغى جوكوف ٦
الكسندر فاسيليفسكى ٤٤
قسطنطين روكوسوفسكى ٩٥
بوريس شابوشنيكوف ١٤٦
سيميون تيموشينكو ٢٢٧
ايفان كونيف ٣١٣
دميترى كاربيشيف ٣٥٨
كلمة عن مؤلف هذا الكتاب ٣٩٨